



جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
قسم التاريخ



# الحياة الاجتماعية والاقتصادية في إيالات بلاد الشام خلال القرنين: 10-11 هـ / 16-17 م

مذكرة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر  
تخصص: الدولة العثمانية والمشرق العربي

إشراف الدكتورة:  
نادية طرشون

إعداد الطالب:  
بومدين زيري

السنة الجامعية: 2019-2020



جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
قسم التاريخ



# الحياة الاجتماعية والاقتصادية في إيالات بلاد الشام خلال القرنين: 10-11 هـ / 16-17 م

مذكرة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر  
تخصص: الدولة العثمانية والمشرق العربي

إشراف الدكتورة:  
نادية طرشون

إعداد الطالب:  
بومدين زيري

السنة الجامعية: 2019-2020



جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
قسم التاريخ



# الحياة الاجتماعية والاقتصادية في إيالات بلاد الشام خلال القرنين: 10-11 هـ / 16-17 م

مذكرة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر  
تخصص: الدولة العثمانية والمشرق العربي

إشراف الدكتورة:  
نادية طرشون

إعداد الطالب:  
بومدين زبيري

أعضاء لجنة المناقشة:

| الاسم واللقب | الدرجة العلمية | الجامعة الأصلية                         | الصفة          |
|--------------|----------------|-----------------------------------------|----------------|
| نادية طرشون  | الدكتورة       | جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله - | مشرفاً ومقرراً |
|              |                |                                         |                |
|              |                |                                         |                |
|              |                |                                         |                |
|              |                |                                         |                |
|              |                |                                         |                |

السنة الجامعية: 2019-2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# شكر وعرفان

حمدا لله على ما أنعم به علينا أن وفقنا لإنجاز هذه المذكرة، أتقدم بالشكر  
الجزيل لكل من أستاذي: الدكتور غالي الغربي، والدكتورة نادية طرشون على  
رعايتهما للمشروع منذ مرحلة الماجستير وجهودهما طيلة مراحل البحث.  
كما أتقدم بالشكر لأعضاء لجنة المناقشة المحترمين الذين تكفلوا بقراءة الرسالة  
وتقييمها ومناقشتها.

# إهداء

إلى المخلصين في أعمالهم ...  
الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.....  
إلى الروح الطاهرة والدي رحمه الله  
وإلى الوالدة حفظها الله ورعاها  
إلى الزوجة الكريمة  
وإلى ابني مولود الشريف

## قائمة المختصرات :

أ/ باللغة العربية :

ج : جزء

م : مجلد

ط : طبعة

ص : الصفحة

ص ص : من الصفحة كذا إلى الصفحة كذا.

هـ : التاريخ الهجري

م : التاريخ الميلادي

ب/ باللغة الأجنبية :

Ed : Edition

IRCICA : Research Centre for Islamic history ,art and culture

M.D : Muhimme Defteri

N : Numero

RE.M.M.M : Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée

S.D.ED : Sans Date D'édition

T.D : Tapū Defteri

T : Tome

Vol : Volume

# مقدمة

## التعريف بالموضوع، وأهميته وإطاره الزمني :

يمثل التاريخ الاجتماعي والاقتصادي جانبا مهما في ادراك مختلف التطورات التي يعرفها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، فالنظم الاجتماعية و الأساليب الاقتصادية والقوانين المنظمة للحياة العامة هي التي تسهم في توضيح مدى رقي و رفاه هذه الأمة ، وهي التي تنعكس مباشرة على الأنشطة التي يقوم بها أفرادها، والبحث في موضوع الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأي مجتمع يعني :

- البحث في مكونات المجتمع بكل هيئاته وطوائفه وأجناسه، كما يعني البحث في العلاقات بين مكوناته، وصلة الحاكم بالمحكوم، والحديث عن حياة الأمة اليومية، ومؤسساتها الحية التي تخدم أغراضها وكذا مؤسساتها الخدمية، وماهية الخدمات التي تقدمها، وطبيعة الهيئات المشرفة على تسييرها.

- كما يعني البحث في حياة الانسان في بيته، وصلاته العائلية مع أهله وأولاده، وأقاربه، ولباسه وطعامه وعاداته في أفراحه وأتراحه، وأماكن تسليته ورفاهه، وأدوات بيته وضرورات حياته، ونظام معيشته في سوقه أو في دكان حرفته، وماهي صلاته برؤسائه، وما هي أدوات عمله وأسماء بضائعه، وأماكن ورودها، وما تنتجه أرضه، وما هي صلاته بالغرباء عن بلاده، والذين يخالفون دينه، وما هي مخططات بيته ومحلته وبلدته وأزقتها وحماماتها ومقاهيها وأسواقها؟

- وهو يعني في جانب آخر: البحث في أنشطة الأفراد الاقتصادية وما مدى قدرتهم على انتاج وتوفير احتياجاتهم، والنظم والقوانين المسيّرة لأنشطتهم، وشكل تنظيماتهم الحرفية، وصناعاتهم الشعبية ومدى رواج تلك الصناعات أو ركودها، انتقالها أو استقرارها، وأسواقهم وطبيعة التعاملات فيها، وصلاتهم التجارية، والضرائب وكيفية تحديدها وجبايتها وغيرها من الجوانب الأخرى .

تكتسي هذه الموضوعات (التي تتجه لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية) أهمية بالغة أخذت تتزايد وتتوسع في الآونة الأخيرة بعد أن اتضح بأن التاريخ لا يقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية والإدارية التي تُوْرخ للملوك والأمراء ورجال البلاط والقادة ومعاركهم الحربية حتى رسخ لدي الكثيرين بأن التاريخ ما هو سوى تاريخ قيام الدول وسقوطها فحسب، بدلا من كونه تأريخا للأمم والمجتمعات.

في هذا الإطار جاءت دراستنا الموسومة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في ايلات بلاد الشام في القرنين 10 - 11هـ / 16 - 17م، ومن خلالها حاولنا البحث في سمات ومعالم الحياة الاجتماعية من حيث السكان وفئاتهم، وعلاقاتهم فيما بينهم، وكذا مظاهر حياتهم الاجتماعية، ومدى التعايش بين مختلف مكوناتهم، وكذا جوانب من حياتهم اليومية والتعليمية والصحية ومدى اسهام الأوقاف في ذلك، وصولا إلى ما تركته قافلة الحج الشامي من تأثيرات على بلاد الشام عموما وبالأخص على مدينة دمشق، أما في الحياة الاقتصادية فحاولنا التطرق للأنشطة الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية مروراً بنظم ملكية

الأرض، وكذا أصناف الحرف، ومختلف التعاملات التجارية وأهم مؤسساتها وهي السوق والأسعار والحسبة ودور المحتسب، كما تعرض البحث بالدراسة إلى الضرائب وأنواعها وأساليب جبايتها، إضافة للنقود المتداولة والموازين والمكايل والمقاييس المستعملة خلال تلك الفترة.

أما من حيث الإطار الزمني؛ فإن الدراسة تتناول فترة القرنين الأولين للتواجد العثماني في بلاد الشام، ولا شك بأن ذلك يعكس بصورة ما الوضع العام الذي ميّز المنطقة وما كانت تمرّ به، وكذا ما ميّز السلطة العثمانية في هذه الفترة قبل دخول المؤثرات الغربية وأفكار الإصلاحات التي تمت تحت تأثير نفوذ القوى الأوروبية ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن عشر الميلادي. العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، مع ملاحظة أنه كثيراً ما تم التركيز في دراسة تاريخ المنطقة على القرن الأخير من الحكم العثماني وهو القرن التاسع عشر الذي كان يوصف بعصر النهضة العربية أو بداية (التنوير العربي)، في مقابل إهمال القرون الثلاثة الأولى لهذا الحكم الذي استمر على مدى أربعة قرون، فكانت النظرة جدّ سوداوية على اعتبار أن هذه الفترة -حسب زعم الكثيرين - متسمة بالجمود والانحطاط والحمول لا حركة فكرية حية فيها، مع تحميل الدولة العثمانية الحاكمة مسؤولية تلك السمات، إلا أن الأمور بدأت تتغير منذ الستينات من القرن العشرين وبدأت الحقيقة تنجلي وهي أن الدولة العثمانية بأقاليمها كانت تشهد حياة فاعلة، وحركية مستمرة على نحو ينسجم مع معطيات ذلك العصر وقيمه الاجتماعية والفكرية.

إن تزايد الحاجة الماسة إلى الدراسات التي تعنى بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية لفهم التغيرات التي طرأت على المجتمع الشامي تحت الحكم العثماني خلال القرنين الأولين 10 - 11 هـ / 16 - 17م، يجعل من الضروري تناول حركة المجتمع وتتبع مظاهر الفترة الجديدة، ودراسة التنظيمات الاجتماعية وخاصة الحرفية في المدن، وكذا دراسة الأحوال العامة للسكان وطوائفهم المتعددة، والبحث في عاداتهم وتقاليدهم في تلك الفترة.

ولما كانت هذه المجالات لم تدرس مجتمعة من قبل، فقد وجدنا أنه من المفيد تناولها في هذه الدراسة لكشف طبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية إبان هذه الفترة، ورصد سمات التغيير الذي طرأ على المجتمع الشامي، وإبراز الصورة الحضارية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة في ظل الوجود العثماني من خلال تسليط الضوء على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة قبل وصول المؤثرات الغربية والتقضي عن التنظيمات الاجتماعية، ومحاولة تقديم صورة واضحة عن المجتمع والطوائف الموجودة فيه إلى جانب توضيح مدى تأثير المنطقة بأساليب التسيير العثمانية الجديدة سواء في مجال تنظيم الأراضي أو الضرائب وغيرها، وصولاً في الأخير إلى الإسهام في معالجة النقص الموجود في جانب الدراسات التي تتناول البعد الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة بلاد الشام خلال فترة القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس

عشر والسابع عشر الميلاديين والسعي لإيضاح الكثير مما يكتنف حقائقها التاريخية بعيدا عن السطحية والتشويه.

## 2 -دوافع اختيار الموضوع:

جاء اختيارنا للموضوع انطلاقا من اعتبارات متعددة أبرزها:

- استكمال البحث الذي تم العمل عليه خلال فترة الماجستير التي تناولت بلاد الشام من الجانب السياسي والإداري وخلال فترة القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م ، فكان السعي حثيثا لاستكمال جوانب الموضوع من شقيه الاجتماعي والاقتصادي مستفيدا هذه المرة من المادة الأرشيفية التي حصلنا عليها.
- الرغبة في التحول إلى دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي باعتباره مجالا جديدا في الدراسات التاريخية التي تعني بحياة مختلف طبقات المجتمع بعيدا عن التأريخ للأفراد والحكام وعدُّ أمجادهم وبطولاتهم.
- استغلال المادة الأرشيفية التي توفرت لدينا المتعلقة بهذه الفترة وبالأخص دفاتر الطابو العثمانية، ودفاتر المهمة، وسجلات القضاة أو سجلات المحكمة الشرعية، إضافة لبعض الدراسات المعاصرة التي حاولت استجلاء بعض الجوانب من الموضوع، ومحاولة كتابة تاريخ المنطقة على ضوءها بعيدا عن كتابات المستشرقين المدفوعين بدوافع سياسية وفكرية، أو بعض الكتاب العرب المتشبعين بفكرهم القومي، والذي كان يعتبر بأن فترة الحكم العثماني كلها كانت مظلمة قبل أن تبدأ مرحلة الاستنارة والتحديث مع بداية أولى الهجمات الغربية الاستعمارية ضد المنطقة.

## 3 -الإشكالية:

شاع عن السلطة العثمانية اهتمامها بما يضمن لها البقاء متحكمة في البلاد التي تخضع لحكمها وجباية الضرائب وحماية الأمن فيها، وبالتالي كانت سلطتها سطحية فأبقت على ما كان سائدا قبل مجيئها دون إحداث أي تغييرات، من هنا جاءت الإشكالية لتطرح تساؤلا مركزيا يدور حول محاولة فهم ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية لولايات بلاد الشام في مطلع العهد العثماني خلال القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م، ورصد التغيرات التي طرأت على المنطقة وما جلبته المرحلة الجديدة من نظم وأساليب، ومن خلالها نحاول الإجابة على تساؤلات فرعية :

### ❖ اجتماعية تقوم على :

- هل جاءت التشكيلات الادارية والقضائية والمالية فقط لإحكام قبضة الدولة على رعاياها، أم أنها جاءت لتحمي المجتمع من الظلم والتجاوزات، وتضمن استقراره خدمة لاستقرار الدولة وديمومتها؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف حاولت الاستجابة لمتطلبات السكان الاجتماعية والاقتصادية؟ وإلى أي مدى يمكن الحكم على هذه التنظيمات والإجراءات في الحكم على الوجود العثماني في بلاد الشام؟

- هل استفادت المنطقة من انضوائها تحت هذا الحكم الذي كان يعيش أزهى فتراته خلال القرن 10 هـ / 16م؟ وهل اهتمت السلطة العثمانية بتنمية المنطقة؟ وكيف تعايشت العناصر السكانية والفئات الدينية فيها؟ ماهي مظاهر حياتها الاجتماعية والاقتصادية؟

- هل كانت عقود الزواج موثقة أم شفوية؟ وما هي الشروط التي تقترن بها فيما يخص الصداق وكيف يدفع؟ ما مقداره ، كيف يعبر عن مستوى المعيشة للزوجين ، كيف يتم الطلاق ، وما حقيقة الخلع وهل يوجد تعدد في الزوجات؟

- ما هي أنواع المساكن وما هي مكوناتها والمرافق التابعة لها ، وما الأثاث الذي تحتويه؟

- ما مدى ارتباط الوقف بالناحية الاجتماعية وتأثيره فيها؟ وكيف استثمره أصحابه واستفادوا منه؟ وكيف أثر الوقف على المجتمع؟

#### ❖ اقتصادية وتتفرع إلى :

- ما هي نظم ملكية الأرض المتبعة ؟ وما هي أنواع الملكيات ؟  
 - ما هي معالم النشاط الحرفي ودور الأصناف الحرفية في هذا المجال؟  
 - ما هي أبرز معالم النشاط التجاري وطرقه ومؤسساته ودور التعاملات الأجنبية فيه؟  
 - كيف يتم تنظيم التجارة وأسواقها ومراقبة الأسعار فيها وما هو الدور المنوط بالمحتسب في هذا المجال؟

- ماهي معالم النظام الضريبي المتبع؟

- ماهي ملامح النظام النقدي وأبرز العملات المتداولة؟

#### 4 - منهج الدراسة :

للإجابة عن هذه التساؤلات اتبعنا المنهج المتبع في الدراسات التاريخية القائم على الرجوع إلى المصادر الأولية والمراجع الحديثة والدراسات والبحوث المنجزة ذات الصلة في محاولة لاستقراء الأحداث ذات البعد الاجتماعي والاقتصادي فيما يخص : نظم الأرض وملكيته وأصناف الحرف وأنشطة الحرفيين والتجار وحياة الناس وعاداتهم والعلاقات السائدة فيما بينهم ، وأحوالهم التعليمية والصحية ، واستقرائهم وتحليلها لإبراز مظاهرها وتأثيراتها على نظم الدولة وحياة سكانها.



كما اعتمدنا المنهج المتبع في الدراسات الاجتماعية الذي يعتمد بالأساس على تحليل المعلومات والمعطيات انطلاقاً من دراسة المادة المعرفية التي تتضمنها الوثائق والسجلات والحجج، ومحاولة الوصول إلى جوهرها وإبراز مدى تأثيرها على أوجه حياة المجتمع، ومن جهة ثانية فإن الحياة الاقتصادية بدورها تتصل بالتطور الاجتماعي كما هو الحال بالنسبة للتنظيمات الحرفية والأصناف على أنها في نفس الوقت تنظيمات اجتماعية.

كما لم نهمل **المنهج الوصفي** في شرح العديد من الموضوعات التي تم تناولها وتقديم صورة لما كان سائداً في المجتمع اعتماداً على ما ورد في المصادر التاريخية.

## 5 - عرض الخطة:

اقتضت طبيعة الدراسة أن يقسم البحث إلى بابين إثنيين أحدهما للحياة الاجتماعية والآخر للحياة الاقتصادية، سبقهما فصل تمهيدي مع وجود خمسة فصول في كل باب حاولنا من خلالها الإلمام بجوانب الموضوع ومتطلباته.

تضمنت الدراسة فصلاً تمهيدياً تضمن عرضاً لأوضاع بلاد الشام قبيل انضوائها تحت الحكم العثماني وموقف أهالي الشام من السلطة الجديدة وإجراءاتها التي اتخذت لإحكام قبضتها على المنطقة سواء في الجوانب الاقتصادية والأمنية والقضائية والإدارية حيث تطرقنا إلى التقسيمات الإدارية التي وضعتها السلطة العثمانية لبلاد الشام خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين وقد حاولنا من تلك المعطيات التاريخية التطرق إلى أبرز سمات المرحلة الجديدة.

حمل الباب الأول عنوان: **الحياة الاجتماعية** وضم خمسة فصول.

تم التطرق في **الفصل الأول** إلى ديموغرافية بلاد الشام من حيث تعداد السكان مستغلين الوثائق العثمانية المتمثلة في دفاتر الإحصاء أو دفاتر الطابو، كما تطرقنا إلى الفئات الاجتماعية التي تضمها خاصة مع بروز عنصر جديد في تركيبة المجتمع وهو ما يصطلح عليه بالأروام، أي الأتراك العثمانيين، والمناصب التي تقلدوها ضمن وظيفتهم كحكام للمنطقة، وتوزيع السكان بين المدن والأرياف والبادي وبحسب طوائفهم الدينية: سواء المسلمين أو النصارى أو اليهود، حيث تجلت الصفة البارزة وهي أن المجتمع الشامي كانت تسوده روح التعاون والتسامح في أغلب الأوقات، أين مارست كل فئة أو طائفة شعائرها وعاداتها وفقاً لما هو مقرر لها في إطار القانون المعمول به.

ناقشنا في **الفصل الثاني** العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع الشامي، إذ أن التفاعل بين هذه المكونات لا شك يفرز سلوكيات وتصرفات لها تأثيراتها على الأفراد والجماعات، وقد اخترنا نماذج لذلك

بالبحث في علاقة الحكام والمحكومين، والعلاقة بين السباهي صاحب الأرض والفلاح المستغل لها، طريقة تعامل السلطة العثمانية سواء مع أهل الذمة أو العشائر البدوية.

تطرقنا في **الفصل الثالث** إلى عرض مظاهر الحياة الاجتماعية مستفيدين مما توافر من وثائق سجلات المحكمة الشرعية والمصادر المعاصرة، محاولين ايضاح الغموض الذي يعتري الجوانب المتعلقة بالحياة الأسرية واليومية بكل خصوصياتها، وقد حاولنا دراسة بعض النقاط الأساسية التي وقع اختيارنا عليها باعتبارها تجسد جوانب حسية ومعنوية من حياة المجتمع ضمن البيئة التي يتواجد فيها أفرادها، سواء بدراسة الوضع الأسري والاجتماعي للمرأة بداية من الزواج ومراسيمه، ومسألة المهور، وصولاً إلى مشاكل الطلاق أو الخلع، واستعراض حق المرأة في الحضانة وإسهامها في الجانب الاقتصادي، وصولاً إلى ظاهرة الجوّاري في المجتمع في هذه الفترة، إضافة إلى مظاهر حياة المجتمع في الاحتفالات والأعياد والمناسبات الأسرية كالأعراس والولادة والختان وكذا مراسيم الجنازة، يضاف إليها ما تعلّق بالبيت واللباس والطعام في بلاد الشام، ثم بعض أماكن التسلية كالحمامات والمقاهي، خاصة مع بروز ظاهرة شرب القهوة وانتشار القهاوي مما يقدم إشارات عن مدى حيوية المجتمع الشامي وتنوع ثقافته التي تميز مجتمع المدينة العربية في العصر العثماني وهو عكس الصورة النمطية التي رُسمت له من ركود وجمود، ومن خلال هذه الجوانب أمكن تحديد وصف دقيق للعلاقات الأسرية ومستوى المعيشة، فالمهر أو الصداق سواء المرتفع أو المنخفض أو المتوسط يعطي فكرة عن امكانيات كل فئة.

أما **الفصل الرابع** فقد تم تخصيصه للمؤسسات الاجتماعية ومجالات نشاطها وأثرها على حياة المجتمع سواء في الجانبين التعليمي والصحي حيث تم استعراض مختلف المؤسسات التعليمية ومناهج التعلم ومواد التعليم، كما تم التطرق في الجانب الصحي لأهم الأمراض المنتشرة ومستوى الطب والأطباء، وأهم المؤسسات الاستشفائية كالبيماريستانات والحمامات، ووجود الكثير من الحجج الشرعية أمام القاضي تتعلق بعمارتها والإشراف عليها والسهر على بقائها عامرة وحمايتها من التخريب.

ولا يمكن الحديث عن العليم والصحة دون التطرق للأوقاف والتطور الذي شهده الوقف في عهد الدولة العثمانية وأنواع الوقف، ودوره في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وبالأخص دورها في استمرار عمل المؤسسات التعليمية والصحية.

أنهينا **الباب الأول** بتخصيص **الفصل الخامس** لقافلة الحج الشامي ومكانة مدينة دمشق باعتبارها منطلق القافلة ونقطة عودتها من كل سنة، وما تعيشه المدينة خلال أربعة أشهر من كل سنة، وانعكاسات هذا الحدث على مختلف الجوانب المتعلقة بدمشق.

أما الباب الثاني فحمل عنوان الحياة الاقتصادية ؛ وفيه رصدنا مختلف الفعاليات الاقتصادية لمجتمع بلاد الشام في الجوانب الزراعية والصناعية والتجارية ، إضافة إلى كل ما تعلق بجانب الضرائب والتعاملات النقدية وأدوات المقاييس والأوزان والمكاييل والعملات النقدية.

فكان الفصل الأول للزراعة وتناول النشاط الزراعي في بلاد الشام من خلال البحث في مجال تنظيم الأراضي والأساليب المستخدمة في الزراعة (ما تعلق بملكية الأراضي وأنواعها) ، وصولاً إلى تناول أشهر المحاصيل التي تنتجها .

أما الفصل الثاني فتناول الصناعة وفيه تطرقنا إلى طوائف الحرف والصناعات وما يتعلق بها ، وأنواع الصناعات المنتشرة في المنطقة في هذه الفترة.

وتطرق الفصل الثالث إلى التجارة ، وفيه حاولنا الوقوف على مدى أهمية المنطقة وتأثيرها على الحركة التجارية والعوامل المساعدة على ذلك ، إضافة إلى أساليب التعامل التجاري ، والمعاملات المالية وأنواع السلع الصادرة والواردة ، وسياسة الدولة العثمانية في تشجيع التجارة من خلال معاهدة الامتيازات التي شرعت في منحها للتجار الأوربيين ، والسماح لهم بإنشاء قنصليات للتمثيل التجاري وبالحصول في حلب ، وتطرقنا كذلك إلى السوق وأنواعها ، وتوزيعها ، والسلع التجارية المتداولة فيها ، وصولاً إلى موضوع الأسعار والعوامل المؤثرة في تحديدها ، ودور المحتسب في مراقبة السوق والسلع ، ومحاربة أنواع الغش بضمان سلامة النقد والأوزان ، والمحافظة على المستهلك وصحته .... وهو ما يعطينا في الأخير فكرة عن المستوى المعيشي للسكان.

تناول الفصل الرابع: الضرائب ، وحاولنا فيه تقديم صورة عن أنواع الضرائب والرسوم ، والمعايير المعتمدة في إقرار حجمها ، وطرق جبايتها .

وفي الفصل الخامس عرّجنا على مختلف أنواع المكاييل والمقاييس والموازن التي اعتمدتها الدولة العثمانية في بلاد الشام ، إلى جانب العملات النقدية التي يتم التبادل والتعامل بها .

## 6 - صعوبة البحث :

يصطدم الباحث في دراسة التاريخ العثماني بمشكل اللغة من جهة وبمشكل تبعر الماده المعرفية من جهة أخرى خاصة لما يتعلق الأمر بالمواضيع الاجتماعية والاقتصادية ، ففيما يتعلق بمشكل التعامل مع الوثيقة ، فإنه - على حدّ تعبير الباحث العراقي المتخصص في الشأن العثماني الدكتور فاضل بيات - يعود إلى جهل معظم الباحثين وطلبة الدكتوراه باللغة العثمانية ، وعدم تمكنهم من التعامل مع الوثيقة العثمانية لصعوبة قراءتها وفهمها ، بالإضافة إلى تعذر اقتنائها ، لكن ولحسن الحظ فإن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة

الإسلامية (أرسىكا) في مدينة إسطنبول، بذل جهودا كبيرة قصد المساهمة في التعريف بما يتضمنه الأرشيف العثماني من سجلات ودفاتر ووثائق حول تاريخ الدولة العثمانية وولاياتها، ونشر ما يمكن نشره من الوثائق المتعلقة بالموضوع نفسه ووضعه في متناول الباحثين، وهو ما ساعدنا كثيرا في امكانية الوصول بالبحث إلى ما وصلنا إليه، أما فيما يتعلق بالمادة المعرفية فإن المصادر التقليدية تبقى في الحقيقة عاجزة عن تقديم معلومات دقيقة في الجوانب الاقتصادية (قيمة النقد مقارنة مع ما كان متداولاً، قيمة السلع وتطور الأسعار)، لذلك يجد الباحث نفسه مضطراً للبحث في مصادر متنوعة محلية وأجنبية مثل تقارير القناصل الأوروبيين، إلا أن هذه المصادر من كتب رحلات ورسائل أجنبية -مع ما تحتويه من معلومات عن جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية - فإنها تبقى غير كافية باعتبار أنها لا ترصد إلا ما يلاحظ من الخارج فقط، كما أن بعض المصادر المحلية تبقى منحازة إلى جهة ما باعتبار أن أصحابها مؤرخون مشدودون إلى السلطة، لذلك اتجهت عنايتهم واهتمامهم إلى تدوين ما له صلة بالسلطة مع اغفال غيرها، كما أنهم لم يولوا أهمية -سواء عن وعي أو من دون وعي - للجوانب المتعلقة بالحياة اليومية للمجتمع والمؤسسات الاقتصادية التي لها علاقة بتاريخ الأهالي إلا النزر القليل منهم.

أمام هذا الواقع من طبيعة المصادر؛ برزت وثائق غنية بمحتواها سواء ما تعلق بدفاتر المهمة وما تحويه من أوامر وأحكام صادرة من أعلى الهيئات العثمانية إلى موظفيها في الولايات في شكل أوامر للتنفيذ، أو دفاتر التحرير (الطابو) العثمانية الخاصة بالمنطقة (بلاد الشام)، إلى جانب سجلات المحاكم الشرعية بما تحمله من معلومات ثرية ومتنوعة، خاصة وأن ميزتها أنها لم تُكتب بغرض الكتابة التاريخية، وبالتالي انتفت عنها صفة الذاتية واتصفت بالموضوعية إلى درجة كبيرة.

## 7 -دراسة المصادر:

### الوثائق الأرشيفية المنشورة:

#### -دفاتر المهمة العثمانية:

-بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، إعداد وترجمة: فاضل بيات منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 2005، 2006 و2007.

يغطي الجزء الأول الفترة بين (951هـ / 1544م - 973هـ / 1566م)، والجزء الثاني يغطي الفترة: (975هـ / 1567م - 977هـ / 1570م)، أما الجزء الثالث فيمتد تاريخه من (977هـ / 1570م - إلى 979هـ / 1572م)، وكلاهما يعودان إلى عهد السلطان العثماني سليم الثاني.

- البلاد العربية في الوثائق العثمانية، إعداد وترجمة ودراسة: فاضل بيّات، وكان في حوزتنا المجلدات الأربعة الأولى، وهي من منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية اسطنبول 2010، 2011، 2014 و2015م.

يغطي المجلد الأول: النصف الأول من القرن 10هـ / 16م، والثاني فترة أواسط القرن 10هـ / 16م أما الثالث فيعود إلى أواخر عهد السلطان سليمان القانوني، في حين أن الرابع هو مخصص لشؤون الحرمين الشريفين في عهد السلطان سليم الثاني: 974 - 982هـ / 1566 - 1574م.

-THE VIEW FROM ISTANBUL: OTTOMAN LEBANON AND THE DRUZE EMIRATE, by, Abdul-Rahim ABU HUSAYNE, London, 2004.

يضم وثائق دفاتر المهمة العثمانية الخاصة ببلبنان وبالخصوص ما تعلق بالإمارة الدرزية في العهد العثماني، ويغطي الفترة الممتدة بين سنتي: 1546 - 1711م.

#### -دفاتر الطابو:

تقدم معلومات في جانب التاريخ الديموغرافي والاقتصادي فهي ثرية بالإحصائيات والمعلومات التي تعود إلى زمن تحريرها وبالتالي فهي توفر كل ما يحتاج إليه الباحث مثل القانوننامة الذي ينظم اللواء أو الولاية، التقسيمات الادارية للواء، أسماء القرى والمزارع، أسماء التيمارجيين المكلفين بجمع الضرائب أسماء الذكور الناضجين في القرى والمحاصيل المرتقبة، أسماء الأوقاف ومداخيلها، أسماء أحياء المدن وساكنيها، تركيب العناصر السكانية من حيث انتماءاتها الدينية (مسلمون، نصارى، يهود) أو العرقية، أو كونها حضرية أم بدوية، العازبون (المجرد) والمتزوجون (الخانة) من الذكور) لا تتعرض دفاتر الإحصاء للنساء ولا الأطفال)، أنواع الضرائب وأنواع الانتاج.

للدفاتر قيمة كبيرة وأهمية بالغة على الصعيدين الديموغرافي والاقتصادي، فانطلاقاً من هذه الدفاتر يمكن استخراج معلومات واحصاءات كثيرة خاصة بفترة زمنية هامة، وإن كان هناك تفاوت بين الباحثين في تقدير هذه الأهمية بين من يرى بأنها تؤمن متطلبات الباحث الاقتصادي والاجتماعي، ومن يرى بأن الدفاتر تعتمد تسجيل الضرائب والعشور تبين المداخيل المرتقبة أكثر مما تبين المداخيل التي تم الحصول عليها، إضافة إلى أنها لا تعطي معلومات دقيقة عن الأعمار والجنس للسكان، لكن على الرغم من ذلك تبقى هذه الدفاتر المصدر شبه الوحيد الذي من خلاله يمكن الحصول على معلومات لا مثيل لها في نفس الفترة في أرشيفات الدول التي كانت متزامنة مع الدولة العثمانية في مناطق أخرى من العالم.

قام الدكتور محمد عدنان البخيت بمساعدة نوفان رجا السواريه بدراسة وترجمة الدفاتر الخاصة بالقدس الشريف والتي تكفلت مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن بنشرها ، وتحمل الأرقام التالية تباعا :

-لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف رقم (T.D.427)، 2005.

-دفتر تحرير (T.D.131) لسنة 932 هـ / 1525 م - 938 هـ / 1531 - 1532 م، 2007 .

-دفتر تحرير(T.D.1015) لسنة 945 هـ / 1538 - 1539 م، 2008.

-دفتر تحرير (T.D.289 Is.) لسنة 961 هـ / 1533 - 1534 م، 2010.

-دفتر مفصل(T.D.516 Is.) ، (970 هـ / 1562 م)، 2011.

-دفتر مفصل (T.D.515 An.) (1005 هـ / 1596 - 1597 م) 2012م.

-دفتر مفصل ناحية بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طراباي سنة 945 هـ / 1538 م، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1989.

-دفتر مفصل لواء عجلون رقم (T.D. 970) اسطنبول، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1989.

### سجلات المحكمة الشرعية:

تمتاز سجلات المحكمة الشرعية باحتوائها على كم هائل من المعلومات المتعلقة بنواحي الحياة الشخصية للأفراد وكذلك بالأنظمة التي تحكم المعاملات والعلاقات بين الدولة وأهالي البلاد ، وبين الناس فيما بينهم كأحكام البيع والشراء والهبات والوقف وغيرها من المعاملات السائدة في المجتمع ، ومما يميز هذه المعلومات المستقاة من سجلات المحكمة الشرعية الدقة المتأينة من صدورها من جهة رسمية وشمولها لمختلف طبقات المجتمع ، ومن الثقة التي كانت لدى الأهالي بما يصدر عن القضاة من أحكام نتيجة لصرامة النظام القضائي في تطبيق العدالة خدمة للدين الاسلامي ولقاصد الشريعة الاسلامية .

ولئن كانت سجلات المحكمة الشرعية تمثل أهمية بالغة بالنسبة للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد الشام ، فإن هذه الأهمية لا تحجب الصعوبات التي تعترض الباحث في عملية استغلالها ، فسجلات المحكمة الشرعية تحتوي على عدد هائل من المواضيع المتشعبة والمتنوعة بحسب طبيعة القضايا والدعاوى المرفوعة أمام القاضي ، كما أن المعلومات الواردة في هذه السجلات كثيرا ما اتسمت بالاختصاص وفي بعض الأحيان يشوبها الغموض ، فهي من حيث ورودها في إطار دعاوي كانت تتوقف على ما يدلي به طرفا الدعوى ،

ورغم ذلك تبقى حجج المحكمة الشرعية ذات أهمية فهي تُلقي - من خلال القضايا المطروحة في ثناياها - الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الفترة التي كُتبت فيها.

## 1 - سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية:

- سجل رقم 155 (محرم 1068 - ختام ذي القعدة 1068هـ / أكتوبر 1657 - 29 أوت 1658م)، إعداد إبراهيم ربايعه، عمادة البحث العلمي بجامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين 2013، وهو فهرس تحليلي لما ورد في السجل من قضايا ودعاوى ومختلف المعاملات اليومية للسكان في مجمل المجالات الحياتية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والإدارية في القدس الشريف ونواحيها.

- سجل 172 (1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م)، إعداد شامخ زكريا علاونة وآخرون عمادة البحث العلمي بجامعة القدس المفتوحة، رام الله فلسطين، 2014، واحتوى على حجج شملت مواضيع متنوعة تتعلق بشؤون الأسرة من زواج ومهور ونفقة وطلاق وميراث، وعمليات البيوع للمنازل والبساتين والدكاكين أو رهنها، تعيين شيوخ الحرف، ضبط متروكات، تنصيب مدرسين أو متولين على الأوقاف وغيرها من الجوانب التي يمكننا من خلالها الوصول إلى بعض المعلومات الدقيقة والتفصيلية لجوانب خفية أهمل التطرق إليها كتب التواريخ والحواليات.

- سجل 173 (1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م) إعداد شامخ زكريا علاونة وآخرون، جزآن، عمادة البحث العلمي جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2017، وقد تنوعت موضوعات الحجج الشرعية الواردة في السجل بما يوثق الحياة الاقتصادية بمختلف جوانبها سواء ما تعلق بالأسعار والسلع، وطوائف الأصناف أو الحرف وشيوخها، وعملية مراقبة الأسعار من المحتسب، كما تطرق السجل إلى حجج الزواج والنفقة والخلع والحضانة، إضافة إلى حجج الوقفيات وطرق ضبط مصروفاتها.

2 - كامل جميل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، في ثلاث مجلدات تكفلت الجامعة الأردنية بنشرها تباعاً في 1983، 1985 و1989م، وقد ضم المجلد الأول نحو ستين وثيقة يعود بعضها إلى فترة ما قبل مجيئ العثمانيين، لذا استفدنا فقط من تلك التي تخص وقفية خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني على العمارة العامرة في القدس الشريف سنة 964هـ، أما المجلد الثاني فقد ضم بدوره وثائق تعود في أكثريتها إلى العهد العثماني، وبدرجة أقل للعهد المملوكي، غير أن أهمية هذا المجلد الثاني تكمن في مواضيع الوثائق، فقد كانت متنوعة وشملت ما تعلق بالشؤون العامة للدولة العثمانية، ومراسيم من الولاة العثمانيين حول الشؤون السياسية والإدارية، الطوائف المسيحية، غير أن أهم ما أفادنا في هذا المجلد هو الوثائق المتعلقة بالجانب العلمي والثقافي سواء المدارس أو الزوايا والربط، وبالخصوص ما تناول المكتبات سواء محتوياتها أو أثمان الكتب في تلك الفترة من القرن العاشر الهجري، في حين أن المجلد الثالث كان ثريا



بالوثائق المتعلقة بالجانبين الاجتماعي والاقتصادي سواء ما تعلق بالصناعة وطوائف الحرف أو الأصناف التجارية، الضرائب، شؤون المرأة وما يرتبط بها من عقد النكاح وممارسة المهن الحرة، أو تولي الأوقاف، أو وظيفة قراءة القرآن، يضاف إليها مواضيع الصرة الرومية (العثمانية)، المؤسسات الثقافية والدينية كالمدارس والمكاتب (الكتاتيب)، الصحية (البيمارستان)، الخدمائية (تكية خاصكي سلطان المعروفة بالعمارة العامرة)، الفنون والأسبلة، والمقامات والأضرحة، إضافة إلى مجال الأوقاف وكل ما يتعلق بها.

#### -المصادر:

-ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي (ت.953هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وأهمية ما يقدمه ابن طولون في مؤلفه هو أنه يعتبر شاهد عيان عما رآه في مطلع العهد العثماني في دمشق بغض النظر عن كونه ميالا إلى الموقف العثماني ومساندا له، حيث أفادنا في معرفة حيثيات المواجهة الأخيرة بين المماليك والعثمانيين، ودخول السلطان العثماني المنتصر إلى دمشق، وموقف أهل المدينة منه، وكذا الإجراءات التي قامت بها السلطة العثمانية في تثبيت وجودها في المنطقة، فكان ما قدمه ابن طولون هو صورة دقيقة لما عاشته بلاد الشام وبالحصوص دمشق في مطلع العهد العثماني.

-ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق (بدمشق)، قام بتحقيقه حبيب زيات، ونشره في مجلة المشرق، سنة 1939، وإن كان مؤلفه من رجالات أواخر العهد المملوكي، وأنه بدوره كان يكتب ما يشاهده، وفيه قدّم ابن عبد الهادي جردا دقيقا بأسواق دمشق وتوزيعها داخل المدينة، وتخصصها وهذا في مطلع القرن العاشر الهجري.

-علوان (الشيخ)، علي بن عطية الهيتي الحموي، (ت. سنة 936هـ)، نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء الأخيار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ورغم أن الكتاب -كما يدل عليه عنوانه - يذكر كرامات الأولياء والصالحين، إلا أنه -ولحسن الحظ - ضمّنه فصلا تعرّض فيه بشكل مفصّل لتقاليد الخطبة، وعقد القران، والزفاف، كاشفا بذلك عن جانب هام متعلق بالحياة الاجتماعية لبلاد الشام.

-الخانقاه، محمد مكّي بن عبد الباقي، حوادث حمص اليومية (1100 - 1136هـ / 1688 - 1723م)، تحقيق منذر الحايك، الطبعة الأولى، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق 2012، وتكمن أهمية هذه اليوميات في كون صاحبها نقل لنا صورة واضحة عما شاهده بعينه، أو سمعه بأذنه، لما كانت تعيشه إحدى مدن بلاد الشام غير تلك المعروفة كدمشق أو حلب أو طرابلس، فهو يتحدث عن مدينة حمص فأمدنا بمعلومات عن: ظاهرة الوفود والمحتجّين والمطالبين بحقوقهم الذين لم ينقطعوا عن السفر إلى مركز اللواء في مدينة حماة، أو عاصمة الولاية في طرابلس، معلومات عن العمران وطابع الأبنية والمسكن



معلومات عن النشاط التجاري والأسواق، الحالة الاجتماعية والصحية خاصة من خلال ذكر الوفيات  
مظاهر التسلية في الحارات الشعبية .

### التراجم:

تجمع كتب التراجم أعلاما من طبقات متنوعة، والظاهرة الأبرز فيها هو الترجمة لأعيان قرن معين  
مثل: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة للغزي، تراجم الأعيان من أبناء الزمان للحسن بن محمد  
البوريني (ت. 1024هـ / 1615م)، و در الحبيب في تاريخ أعيان حلب لابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن  
ابراهيم بن يوسف الحلبي (908 - 971هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد ابن محب  
الدين المحبّي ... وإذا كان الغرض من هذه التراجم هو عرض أخبار الأعيان المشهورين في زمن المؤلف، فإن  
صاحب التراجم قدّم من حيث لا يدري معلومات قيمة عن كثير من الجزئيات: سواء الحالة الصحية  
والأمراض التي تكون سببا في وفاة الأعيان، وكذا بعض العادات الاجتماعية والطقوس الجنائزية وكذا  
الأمراض، وفي الجانب الاقتصادي عن الأسعار والعملات وغيرها ....

- ابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف الحلبي (المتوفى سنة 971هـ)، در الحبيب  
في تاريخ أعيان حلب، دمشق 1972، 1973، حققه كل من محمود حمد الفاخوري ويحيى زكريا  
عبارة، وهو كتاب في التراجم ترجم فيه رضي الدين لأعيان عصره، حيث ذكر من عاصرهم من أهل حلب  
وأبرز ما شاهده من أحوال الناس أو ما سمعه من أقوالهم، وتكمن أهميته في كون صاحبه معاصرا  
للأحداث شاهدا عليها، خاصة ما تعلق بمن تولى مناصب المسؤولية في حلب، ومن ثم فإن الكتاب يشكل  
إلى جانب كتاب الغزي: "الكواكب السائرة" صورة متكاملة لأهم ما عاشته أكبر مدينتين في بلاد الشام وهما  
دمشق وحلب تحت السلطة العثمانية خلال القرن العاشر الهجري.

- نجم الدين محمد بن محمد الغزي (المتوفى سنة 1061هـ)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة،  
بيروت: 1945، 1949 و 1957، يقع المؤلف في ثلاثة أجزاء من تحقيق جبرائيل جبور، ترجع أهميته إلى  
كون مؤلفه اعتمد بدرجة أساسية على ما رأى وسمع، وترجمته لكثير من شخصيات بلاد الشام والأحداث  
التي ساهمت فيها ما جعل الكتاب من أفضل كتب التراجم لأهل دمشق في القرن العاشر الهجري.

### المراجع الحديثة:

- أكمل الدين احسان أوغلي (اشراف وتقديم)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح  
سعداوي، ويقع في مجلدين قدم فيه مجموعة كبيرة من الباحثين كل حسب التخصص باستعراض تاريخ  
الدولة العثمانية من كافة الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية والثقافية، وهو

تاريخ دولة عاشت ما يربو عن ستة قرون وربع القرن وحكمت شعوبا متعددة الأجناس والديانات ، وأفادنا الكتاب في المجال الاجتماعي والتعليمي والصناعي والمالي.

-خليل ساحلي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني: بحوث ووثائق وقوانين اسطنبول، 2000، ويحتوي على مجموعة كبيرة من المقالات والبحوث والدراسات التي نشرها الباحث في عدد من المجالات المتخصصة ، أو ساهم بها في عديد المؤتمرات العلمية التي شارك فيها ، وتدور في معظمها حول الأمور الاقتصادية والمالية والإدارية والسكانية للولايات العثمانية أثناء الحكم العثماني ، وقد استمد المادة المعرفية لهذه الدراسات من وثائق الأرشيف العثماني ، إضافة لما تضمنه من قوانين آل عثمان سواء قانوننامه محمد الفاتح ، أو سليمان القانوني ورسالتي كل من عين علي أفندي في التيمار(ألفها سنة 1016هـ/1607م) ، وعلي جاووش الصوفيوي (ألفها سنة 1064هـ/ 1653م ) في قوانين آل عثمان.

- خليل اينالجك ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية (1300 - 1914):

وهو في مجلدين تكفل كل من الباحثين خليل اينالجك ودونالد كواترت رفقة كوكبة من الباحثين المتخصصين في التاريخ العثماني أمثال: ثريا فاروقي، شوكت باموك، بروس ماك غوين بجمع عدد من الأبحاث ذات الصلة بموضوع ابراز مكانة الدولة العثمانية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي وبالتالي إعادة تصحيح المكانة التي حظيت بها الدولة العثمانية على الصعيد العالمي من خلال تناول المناطق المختلفة المكونة للدولة العثمانية ، وقد استفدنا كثيرا بما تم تخصيصه للمنطقة قيد الدراسة وهي بلاد الشام سواء في جانب السكان، أو ملكية الأرض، أو الصناعة، أو التجارة.

-شوكت باموك ، التاريخ المالي للدولة العثمانية، ترجمة عبد اللطيف الحارث ، دار المدار الاسلامي، لبنان 2005، وقدم المؤلف فيه نظرة شاملة عن الدولة العثمانية في جوانب التجارة والمال والسياسات النقدية، إضافة الى الروابط السياسية والاقتصادية والإدارية بين مركز الدولة العثمانية وأقاليمها وبالحصوص بلاد الشام، وقد أفادنا في التعرف إلى النقود المتداولة وعمليات التخفيض في قيمها، والسياسة النقدية المتبعة خلال القرنين 16 و17م.

### المقالات والدراسات:

-برغوث، عبد الودود محمد يوسف:

تأتي الأعمال التي قام بها الأستاذ عبد الودود محمد يوسف برغوث في المقدمة من خلال مجموعة الأبحاث والمواضيع التي خص بها مدينة حماة انطلاقا من وثائق وسجلات المحكمة الشرعية للمدينة من خلال العناوين التالية:

- " تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والاداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989هـ/1581م"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 16، الجزء الأول، سنة 1966.
- " طوائف الحرف و الصناعات أو طوائف الأصناف في حماة في القرن السادس عشر " مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد 19، الجزآن 1 -2، السنة 1969.
- "صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر" في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 18، الجزآن 1 و2، سنة 1968.
- "بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر ونماذج من قراه "مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد 20، الجزآن 1 و2 ، سنة 1970.

#### -عبد الكريم رافق:

تحتل الدراسات التي قام بها عبد الكريم رافق حيزا متميزا في مجال الدراسات التي تناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبلاد الشام بشكل عام فقد قام بمسح شامل للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لدمشق بشكل خاص، وقد أفادتنا هذه الدراسات في تشكيل صورة جلية لما كانت عليه المنطقة تحت الحكم العثماني، ففيما تناول الحرف والحرفيين وتبع تشكيلاتهم وخصائصهم، عرج نحو الريف وما يتعلق بالملكية العقارية والفئات الاجتماعية، نجده يقدم صورة عن مكوّن آخر وهم طبقة العسكر، ودورهم، إلى جانب مواضيع أخرى مثل الحديث عن قافلة الحج الشامي خلال العهد العثماني وغيرها، وما يميز أعمال رافق هو اعتماده على سجلات المحاكم الشرعية.

- "العلاقات الزراعية في بلاد الشام في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، عدد 43 -44 جامعة دمشق، سبتمبر 1992.

- "مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، العددان 15 -16، جامعة دمشق، سوريا، ماي 1984.

- "مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة: دراسات تاريخية، العدد الأول، جامعة دمشق، مارس 1980.

- "الفئات الاجتماعية وملكية الأراضي في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس عشر" مجلة دراسات تاريخية، العددان 35 -36، مارس 1990.

- "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد السادس، أكتوبر، 1981.

- "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية: العدد: 4  
السنة: جمادى الثانية 1401هـ / أبريل 1981، سورية.

### -مصطفى أوزتورك:

- "دفتر عوارض خانة شام عام 1086هـ/ 1675 - 1676م" مجلة أسطور للدراسات التاريخية  
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، العدد الثالث، سنة 2016، وهو دراسة تحليلية لوثيقة  
عثمانية تتمثل في دفتر عوارض خانة دمشق، تناولت جانب السكان وأعدادهم وتوزيعهم حسب أحياء  
مدينة دمشق، ومدى التعايش الذي كان سائدا بين مختلف الطوائف الدينية المتوزعة في محلات المدينة .

- "الملاحم العامة لتاريخ السكة العثمانية"، في: سيد محمد السيد محمود(مترجم)، النقود العثمانية  
تاريخها - تطورها - مشكلاتها، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003، وتناول فيه الباحث موضوع النقود  
العثمانية وسياسة الدولة في مجال سك العملة، وحركة التداول، وأبرز العملات، وأفادنا الموضوع في تكوين  
فكرة عن خصوصيات السياسة النقدية العثمانية ككل.

### كتب الرحلات:

- راءولف ليونهارت، رحلة الطبيب الهولندي ليونهارت راءولف إلى طرابلس -دمشق -  
حلب -الرقّة -دير الزور -بغداد -عانة -الفلوجة -هيت -كركوك -أربيل، في النصف الثاني  
للقرون السادس عشر الميلادي، ترجمة سليم أحمد خالد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008.

رغم أن الهدف المصرح به للرحلة هو علمي بحث يتعلق بجمع الأعشاب الطبية في بلاد المشرق، إلا أن  
صاحبها نقل ووصف بدقة كل مشاهداته عما صادفه في طريقه فيما يخص أحوال المنطقة اجتماعيا واقتصاديا  
وثقافيا، وهو ما أثرى رحلته وقدم صورة لواقع الشرق بعيون غربية.

ونحن نحوز على هذا الكمّ من المادة المصدرية المتنوعة - نشعر بمسؤولية ثقيلة ومهمّة شاقة قصد  
التمكّن من الاستفادة مما وُردَ فيها من معلومات، وعلى الوجه اللائق والأمثل؛ للوصول إلى ما يأمله أي  
باحث في كشف أغوارها وتحليل معطياتها وتقديمها على الوجه الأكمل والأنسب، والله نسأل العون  
والتوفيق .

# الفصل التمهيدى

أوضاع بلاد الشام قبيل الدخول

العثمانى

## 1 -أوضاع بلاد الشام قبيل الدخول العثماني:

بدا وكأن الأمور في بلاد الشام<sup>(1)</sup> تحت حكم المماليك مع مطلع القرن اعاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تتجه نحو السقوط ، فقد بدأت دوامة الانهيار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأمني في البروز منذ أواخر القرن الذي سبقه ، فالأوضاع الاقتصادية الصعبة التي ميّزها تراجع المداخل بسبب تغير طرق التجارة الدولية إلى رأس الرجاء الصالح<sup>(2)</sup> ولجوء حكام المماليك إلى زيادة الضرائب في ظل شح الموارد<sup>(3)</sup>.

ولم تكن الظروف الطبيعية في صالح سلطة الدولة فقد تسببت الأمراض والأوبئة والطواعين وغيرها في الإضرار بالسكان ، ففي بداية القرن العاشر الهجري / أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حدث هلع كبير في دمشق نتيجة عدد المتوفين من طاعون سنة 902 - 903هـ / 1496 - 1497م ، حتى أن أهالي دمشق هربوا من المدينة نحو الضواحي<sup>(4)</sup> ، وبعد انتهاء أعراض الطاعون تفشت العديد من الأمراض المعدية والحمى سنة 904 - 909هـ / 1498 - 1503م<sup>(5)</sup> ، ولا شك بأن هذه الأمراض والأوبئة تركت آثارا بارزة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية لمنطقة بلاد الشام ، فتتابع الطواعين والأوبئة وفي فترات متقاربة ينجم عنه وفاة أعداد كبيرة من السكان ، الأمر الذي يحدث خللا في الجانب الديموغرافي والذي تنعكس آثاره على مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية<sup>(6)</sup>.

(1) - بلاد الشام أو " الشّامات " حسب تعبير القلقشندي هي المنطقة الممتدة من البحر المتوسط غربا إلى الفرات شرقا ومن رفح جنوبا إلى مرعش وطرسوس في آسيا الصغرى شمالا ، بمعنى أنها تضم فلسطين إلى الأردن ، وتُضاف إليها دمشق وضواحيها ، وحمص وحماة وحتى حلب وما يتبعها من الثغور الشمالية. - القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج 4 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1922 ، ص ص 75،77،90.

(2) - كانت عملية وصول البرتغاليين إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح بمثابة الضربة القاضية للاقتصاد المماليكي حيث أدى ذلك الى تراجع الشحنات عبر المتوسط التي كانت مع تجار البندقية وجنوة. إيرا لابدوس ، مدن اسلامية في عهد المماليك ، نقله إلى العربية: علي ماضي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت 1987 ، ص 83.

(3) - يصور ابن إياس -وهو أحد الشهود على ذلك -الوضع بقوله : "حصل الضرر الشامل ، وعزّت الأقوات وشحط السعر في القمح والشعير وسائر الحبوب وعمّ الغلاء سائر البلاد...بينما انزل أمراء المماليك في بيوتهم بعدما وقع الطاعون ومات مالا يُحصى عددهم" محمد ابن إياس (ت.930هـ/1523م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج 1 ، مطابع الشعب ، القاهرة ، 1960 ، ص 328 - 329.

(4) - محمد ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998 ، ص 144.

(5) - يذكر ابن طولون عن نفسه أنه تعرض لهذه الحمى في دمشق. نفسه ، ص 176.

(6) - مبارك محمد الطراونة : "الأوبئة(الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 784 - 922هـ/1382 - 1516م" ، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار ، مج 4 ، العدد 3 ، 2010 ، ص ص 52 - 53.

كما أن الجانب الأمني تعرض للتدهور وأصبح يؤثر في الجو العام، فتهديد البرتغاليين لقوافل الحجاج في بحر العرب والمحيط الهندي<sup>(1)</sup> وتهديدهم للأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة<sup>(2)</sup> قد أشاع جوا من الخوف وعدم الاطمئنان زاده عجز السلطة المملوكية القائمة من التصدي له، بل ولحقت بها هزائم شنيعة كما حدث في معركة ديو سنة 1509م<sup>(3)</sup>.

ومما زاد الأوضاع سوءا هو عمليات السطو والاغارة التي تقوم بها القبائل البدوية في الأرياف مما أدى إلى هجر الكثير من سكان القرى لقراهم ومساكنهم<sup>(4)</sup>، وانعكس غياب الأمن بسبب هجمات البدو مباشرة على التجارة وطرقها خاصة بين مصر وغزة وصولا إلى دمشق فقد شهدت الفترة ما بين 900هـ - 918هـ / 1494 - 1513م قيام البدو بهجمات متتالية على القوافل التجارية، وكثيرا ما ألغيت الرحلات بسبب هذا الخطر المستفحل<sup>(5)</sup>.

(1) - أدى وصول البحارة البرتغاليين إلى سواحل الهند سنة 1498 م عبر رأس الرجاء الصالح، وإحكام سيطرتهم على مداخل البحر الأحمر والخليج إلى فرض الحصار على تجارة الممالك وسفنهم، وإلحاق الأذى بالتجار والحجاج إلى حد الإهانة والسلب والقتل، ويذكر النهروالي ما حدث بقوله: "فكثروا - أي البرتغاليون - في بحر الهند ثم أخذوا هرمز، وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا، ويأخذون كل سفينة غصبا، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وأذاهم على المسافرين". أنظر: -قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي، غزوات الجراكسة والأتراك في جزيرة العرب، المسمى: البرق اليماني في الفتح العثماني، ط 1، منشورات دار اليمامة، الرياض، 1967، ص 19.

(2) - توغل البرتغاليون في البحر الأحمر ووصلوا إلى ميناء جدة وشرعوا في التهديد بالاعتداء على المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة المنورة.

N.y 1969, P156. 1497-1550" -R.S White way, "The Rise Of Portuguese Power in India, نقلا عن: نيقولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516 - 1574)، ترجمة يوسف عطا، ط 1، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص 34.

(3) - خلال سنوات 1502 - 1507م قام كل من البحارين البرتغاليين فاسكو دي غاما ودالبوكيركي باجتياح شواطئ المحيط الهندي فاستولوا على السفن التجارية وأحرقوها بمن عليها من التجار المسلمين، فقتل المئات وتشوه الآلاف، مما دفع بالسلطان المملوكي قانصو الغوري إلى إرسال أسطول البحر الأحمر بكامله لمقاتلة أتباع ملك البرتغال، ونجح الأسطول المصري بقيادة حسين مشرف وبمساعدة سفن حاكم ديو في إلحاق هزيمة بالبرتغاليين إلى الجنوب من مدينة بومباي بالهند، غير أن الأسطول المصري ما لبث أن تعرض للتدمير الكلي في معركة بحرية بالقرب من ديو في 3 فيفيري 1509م. نفسه، ص 34.

(4) - أدى استئناف عمليات الغزو والسلب التي يقوم بها البدو خاصة في مناطق حوران إلى الجنوب من دمشق ووصول هجماتهم إلى مناطق حول طرابلس وحلب وامتدادها إلى حماة وأجزاء من فلسطين، حتى أن منطقة الرملة أصبحت أطلالا هجرها سكانها، بل و لم يبق في غوطة دمشق في نهاية القرن 9هـ/ 15م سوى اثنتين وأربعين قرية من أصل ثلاثمائة قرية، أما في طرابلس فلم يجد العثمانيون في طرابلس في أول احصاء رسمي لهم سوى ثمانمائة قرية مازالت منتجة من أصل ثلاثة آلاف قرية، والباقي تعرض من دون شك للتدمير والهجر بفعل هجمات البدو. ايرا لابدوس: مدن اسلامية في عهد المماليك، مرجع سابق، ص 79.

(5) - نفس المرجع، ص 80.

وإذا كانت القبائل البدوية تعكّر صفو سكان الريف، فإن المدن على غرار دمشق الشام قد عرفت نوعاً من الجماعات التي نشرت إلى حدّ ما الاضطرابات والفوضى كما هو الحال لما عرف باسم الزعر<sup>(1)</sup> أو الزعران الذين مارسوا السلب والنهب في حارات دمشق.<sup>(2)</sup>

فمن خلال تتبع المصادر المملوكية يلاحظ أن تنظيم الزعر نشط في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وهذا ما يبينه ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلان وابن طوق في كتابه التعليق، فحين ضعفت السلطة المملوكية ظهوروا كقوة فاعلة ومؤثرة في المجتمع، وأكثر ما أقدم عليه هؤلاء الزعر هي جرائم القتل، وذلك لغياب السلطة الحاكمة الفعلية في المنطقة واضطراب الأمن، وإن أكثر جرائم القتل والسرقة والنهب واستغلال الأوضاع السياسية المضطربة ونهب الحوانيت والدور كانت تصدر منهم،<sup>(3)</sup> كما أن الصراع والتقاتل هو السمة السائدة لعلاقة الزعران فيما بينهم،<sup>(4)</sup> لذلك فإن الزعر كانوا يشكلون القوة الرئيسية في دمشق، وربما تضاهي قوتهم قوة النائب في كثير من الأحيان إن لم تتفوق عليها،

(1) - الزعر في اللغة هو قلة الشعر وتفرقه، ورجل أزعر أي سيئ الخلق، وقليل المال، وهو كذلك اللص المحتال والمشرّد، وقد نشط تنظيم الزعر في أواخر فترة المماليك وتحديداً في مدينة دمشق، حيث كثيراً ما قاموا بأعمال مفسدة مما دفع القضاة إلى حث السلطة المملوكية على ردعهم، ونظراً لتزايد نشاطهم قبيل سقوط دولة المماليك فقد تواترت أخبارهم بكثرة عند ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلان، وابن طوق في كتابه التعليق. عودة الشرعة: "الزعر في دمشق أواخر العصر المملوكي"، مجلة المنارة، المجلد 20، العدد 4، 2014، ص2.

(2) - بدأت القلاقل في الظهور ووصلت حد الاقتتال في دمشق وحلب في سنوات 903هـ/1497-1498م، 905هـ/1499-1500م، ثم في 910هـ/1504-1505م، وأدى ذلك إلى انعدام هيبة الدولة لدى الرعايا من سكان الريف والمدينة على حد سواء، وتجلّى ذلك في حركات الزعر في الحارات نتيجة للتدهور الاقتصادي والتفسخ السياسي، حيث تؤدي الأزمات وزيادة العاطلين عن العمل والمعدومين إلى تضخم الفئات الاجتماعية التي تعيش على الهامش، وزيادة الخنق والحقد والكراهية والميل إلى الإجرام، رغم أن البعض يحاول اظهار نفسه من باب المحافظة على مصالح حارته من خلال الاعتداء على جباة الضرائب الجشعين، وأخذت حركتهم شكل مقاومة ضد فرض الضرائب ووصلت إلى حد إقامة الحواجز في الشوارع، ففي سنة 907هـ/1501-1502م شن رجال الحارات في دمشق معركة شاملة ضد حاكم المدينة الذي أصدر قرار حلهم وتصفية زعيمهم وفرض ضرائب إضافية عليهم، مما حدا بأهل ميدان الحصى والشاغور للاجتماع وأقسموا اليمين للمقاومة وامتد القتال إلى حي القبيبات، ولم تهدأ الأمور حتى تدخل بعض القضاة وشيخ الإسلام لإجراء المفاوضات. بن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق ص211، ايرا لايبوس: مدن اسلامية، مرجع سابق، ص260.

(3) - في سنة (899 هـ / 1493 م) نزل الزعر" على شخص إفرنجي مقيم في زقاق كنيسة النصارى، وذبحوا زوجته وجارية حبشية له، وأخذوا ما لا جزيلاً. شهاب الدين أحمد ابن طوق (ت. 908 هـ / 1509 م)، التعليق، تحقيق جعفر المهاجر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، سوريا، 2000، ص1300.

(4) - من ذلك ما حدث بين زعر القبيبات وميدان الحصا سنة (890 هـ/1485 م)، حيث قتل خلق كثير وازداد وضع دمشق سوءاً لولا تدخل الفقهاء وحتى القضاة للمصالحة بين الزعر أنفسهم، وبين الزعر والسلطة أحياناً، لعلمهم أن في الاقتتال مفسد كثيرة وضرر يلحق بالمجتمع بأكمله. أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري المعروف بابن الحمصي، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض حروفش، ط1، دار النفائس، بيروت، 2000، ص ص 200، 203-204.



ولذلك حرص النواب على عدم مواجهتهم، وعلى إبقاء قدر معين من الخلاف بين الزعر أنفسهم، إذ أن الزعر لو تمكنوا من الاتحاد الدائم لكان لهم مع الحكام شأن آخر<sup>(1)</sup>، وكان لكل حارة زعرها، فهناك زعر باب الجابية<sup>(2)</sup>، وزعر باب السريجة<sup>(3)</sup>، وزعر الشويكة<sup>(4)</sup>، وزعر الشاغور<sup>(5)</sup>، وزعر الصالحية<sup>(6)</sup>.

ولم يكن ركب الحج يسلم بدوره من الإغارة والتعرض للحجاج خاصة وأن الطريق التي يسلكها ركب الحج الشامي يمر عبر الأراضي التي تقطنها العشائر البدوية.<sup>(7)</sup>

ولمعالجة هذا الانهيار الاقتصادي لجأ المماليك إلى ائثال كاهل الرعايا بالضرائب، مما فتح المجال أمام السرقات والابتزاز وارتفاع الأسعار خاصة في دمشق التي عانت من نقص في المواد الغذائية وارتفاع في أسعارها.<sup>(8)</sup>

في الوقت الذي كانت فيه دولة المماليك في طريق الزوال والاضمحلال، كانت الدولتان الصفوية والعثمانية تتوسعان بسرعة وعلى حساب الدولة المملوكية نفسها، وفي الوقت نفسه تعرضت الدولة المملوكية للخطر البرتغالي الذي لم يكتف بتهديد موارد الدولة الأساسية المتأتية من التجارة الدولية بالانقطاع، بل تعدتها إلى تهديد سيادة الدولة نفسها وفي عقر دارها.

كان على الدولة المملوكية أن تتعامل مع الأخطار المحدقة بها بشتى الوسائل المتاحة عسكرية أو سياسية، وقد اتضح ذلك جليا في النزاع بين الصفويين والعثمانيين،<sup>(9)</sup> فعندما كانت الدولة الصفوية تتوسع

(1) - أكرم حسن العلي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906 - 922 هـ / 1500 - 1516 م، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، ط 1، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق 1982، 102.

(2) - ابن طوق، التعليق، مصدر سابق، ص 1568.

(3) - نفس المصدر، ص 1603.

(4) - نفسه، ص 1499.

(5) - نفسه، ص 1500.

(6) - نفسه، ص 1617.

(7) - في سنة 924 هـ تعرضت قافلة الحج أثناء عودتها من البقاع المقدسة إلى هجوم البدو بنحو ألفي رجل، فسلموا الحجاج أحمالهم وجمالهم، وقتلوا من الرجال والنساء، وباعوا النساء كالأرقاء وفروا إلى ناحية معان، ودخل الحجاج ممن سلم إلى دمشق في حال يرثى لها. ابن الحمصي : حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 531.

(8) - ايرا لابدوس، مدن اسلامية، مرجع سابق، ص 81.

(9) - اعتبر المماليك أنفسهم بأنهم الطرف الأساسي في المعادلة؛ لأن انضمامهم لأي طرف معناه ترجيح الكفة لصالحه، وبالتالي تسهيل الحسم العسكري، لذلك نجد بأن كل طرف اجتهد في كسبه إلى صفه، وأمام استحالة دعم المماليك للطرف الصفوي لأن من شأن ذلك أن يؤلّب عليه كامل فئات الشعب التي تعتقد بأن العثمانيين طرفا سنيا، وللشكوك التي تحوم حول امتداد النفوذ الشيعي إلى الحرمين الشريفين، فإن السلطان الغوري كان - في ذات الوقت - يشك في نوايا العثمانيين، وأخيرا اقتنع المماليك بأن التزام

على حساب الدولة المملوكية في بلاد الشام اتخذ المماليك موقفا مناوئا منهم خاصة بعد تحالف الصفويين مع بعض القوى الأوربية مما أوقف العلاقات السياسية بين الطرفين سنة 917هـ / 1511م ، لكن بعد انهزام الصفويين أمام العثمانيين في تشالديران<sup>(1)</sup> سنة 1514م أعاد المماليك علاقاتهم الودية مع الصفويين.

وفي المقابل فإن العلاقات المملوكية العثمانية كانت ودية إلى درجة متقدمة، بدليل تقديم العثمانيين المعونات البحرية المتنوعة في عهد السلطان بايزيد الثاني للسلطان المملوكي قانصوه الغوري لمساعدته في الوقوف في وجه الخطر البرتغالي في البحر الأحمر،<sup>(2)</sup> غير أنها سرعان ما تحولت إلى العدائية بسبب الشكوك التي حامت حول التعاون المملوكي - الصفوي ضد الدولة العثمانية، والذي أفضى في الأخير إلى حدوث المواجهة الحاسمة بينهما في معركة مرج دابق في صيف 922هـ / 1516م، والتي كانت نتيجتها القضاء النهائي على دولة المماليك، وبداية الحكم العثماني لبلاد الشام والذي استمر أربعة قرون من الزمن (1516 - 1916م)، وهو ما يطرح التساؤل حول تأثير الأوضاع العامة لبلاد الشام أواخر العهد المملوكي، وعلاقتها بتحديد مستقبل المنطقة ؟

## 2 - التوسع العثماني في بلاد الشام حيثياته وردود الفعل الشعبية :

ما إن حلّ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي حتى حدث تغيير في اتجاه التوسع العثماني من الغرب نحو الشرق بتأثير عوامل مختلفة،<sup>(3)</sup> لكن الراجح في ذلك هو الرغبة في حماية ظهر الدولة

الحياذ هو السبيل الأنجع لهم، فكانت إستراتيجية المماليك مبنية على إثارة الصدام بين العثمانيين والصفويين لكي يتحطم أحد العدوين بيد العدو الآخر، ثم يتقدم المماليك بدور منقذ الإسلام السني وربما بدور وريث السلطنة العثمانية. راجع: أبن آجا، محمد بن محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، صنعه محمد أحمد دهمان، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986، ص230.

(1) - تشالديران: سهل في الأناضول الشرقية إلى الشمال الغربي من تبريز وإلى الشرق من بحيرة (وان). شوقي أبو خليل، تشالديران، سليم الأول العثماني وإسماعيل الصفوي، ط1، دار الفكر، دمشق، 2005، ص95.

(2) - قدم السلطان العثماني بايزيد الثاني لمصر سنة 1511م، أي بعد هزيمة ديو البحرية بستين كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر الحربية قدرت بثلاثمائة بندقية وبارودا ونبالا وألفي مجذاف وحبالا ومراسي وغيرها لإعادة بناء أسطول البحر الأحمر المصري الذي تحطم أما الأسطول العثماني سنة 1509م. ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع سابق، ص57.

(3) - تم ربط دوافع التوجه نحو الشرق بحالة التشعب التي وصلت إليها الدولة العثمانية في الغرب بعد عقود من الحروب والفتوحات التي مكنتها من بسط نفوذها في كل البلقان؛ بل وصلت إلى حدود المجر، فكان لابد لها حينئذ أن تحقق بعضا من التوازن، وهذا عن طريق ضم أعداد جديدة من المسلمين في صفوفها، في مقابل أعداد المسيحيين الذين أصبحوا من رعاياها في شرق أوروبا. محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص17. أما التفسير الثاني: فنجد أنه يركز على المستجدات التي طرأت في منطقة الشرق نفسه؛ من وصول للبرتغاليين إلى سواحل الجزيرة العربية وإحكامهم السيطرة على منافذها، إضافة إلى بروز الخطر الصفوي في شرق الأناضول والذي أصبح يهدد الدولة العثمانية في كيانها. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (1514 - 1914م)، مكتبة الأنجلو - المصرية، القاهرة، 1993، ص102. في حين يركز المؤرخ

العثمانية سواء من خطر الدولة الصفوية ذات المذهب الشيعي أو الدولة المملوكية السنية التي تنافس العثمانيين، لكن بعيدا عن هذه الرؤية المذهبية يبدو أن الدولة العثمانية نظرت بعيدا وخلف هاتين الدولتين إلى الخطر الذي لاح في الأفق مع وصول الخطر البرتغالي إلى مداخل البحر الأحمر، فبدأت المواجهة ضد الدولة الصفوية التي ألحقوا بها الهزيمة في معركة تشالديران سنة 1514م، واستكملوها بالقضاء على المماليك سنة 1516م والدخول إلى مدن وبلدات بلاد الشام الواحدة تلو الأخرى وصولا إلى دمشق.

#### أ - الوجود العثماني في بلاد الشام:

استهل العثمانيون حكمهم لبلاد الشام على اثر انتصار السلطان سليم (1512 - 1520م)<sup>(1)</sup> على جيش المماليك بقيادة السلطان الغوري<sup>(2)</sup> في مرج دابق<sup>(3)</sup> إلى الشمال من حلب في شهر رجب 922هـ /

الإنجليزي (أرنولد توينبي) على بروز العنصر الصفوي في المنطقة، A Study of History.vol1. نقلا عن ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1973، ص10، و يربط طرف آخر بين التوجه الجديد للدولة العثمانية في الشرق وبين الأحداث الدولية التي كان العالم يشهدها في ظل الحراك الذي تعرفه القوى الأوربية الناشئة -وبالخصوص اسبانيا والبرتغال - وتأثير ذلك على الدولة العثمانية نفسها، بمعنى أن العثمانيين لم يكونوا غافلين عما كان يجري من حولهم من تطورات في بلدان القارة الأوربية. ليلى الصباغ، نفس المرجع، ص11. ولم يغفل ابن إلياس - بدوره - عن محاولة إعطاء تفسير لهذا التوجه، معتبرا بأن ماحلّ بالمماليك - على يد العثمانيين - إنما هو عقاب إلهي عن مدى ظلمهم وقهرهم وأذاهم الذي ألحقوه بالناس، لذا كان الناس فعلا يتطلعون لمن يخلصهم يوما ما من هذا القهر. بدائع الزهور، مصدر سابق، ج3، ص1029. ويؤيد هذا الرأي ما ذهب إليه علي بن محمد اللخمي الاشبيلي من أن ما أصاب المماليك يعود إلى "الآثام التي وقعوا فيها من أكل مال اليتيم وتعطيل آية الموارث"، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس ارنست، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1962، ص7.

<sup>(1)</sup> -سليم الأول (1470 - 1520 م) تاسع السلاطين العثمانيين، يلقب ب(ياوز) أي الرهيب، عيّن أميرا على طرابزون على البحر الأسود، وفي أبريل 1512م أجبر والده بايزيد الثاني على التنازل عن الحكم لصالحه، تميّز عهده بالحملة العسكرية التوسعية في الشرق، حيث انتصر على الصفويين في معركة شالديران في 23 أوت 1514م، ثم على جيش المماليك في معركة مرج دابق في 24 أوت 1516م، وأخيرا في معركة الريدانية بمصر في جانفي 1517م، فدخلت كل من بلاد الشام ومصر والحجاز تحت الحكم العثماني. انظر:

SOMEL (S.A), Historical Dictionary of the Ottoman Empire, The scarecrow Press  
INS, Oxford, 2003, pp262-263.

<sup>(2)</sup> -قانسوه الغوري: نسبة إلى الغور، كان حاجب الحجاب بحلب قبل سنة 901هـ ثم أصبح (أمير كبير) بمصر وهي بمنزلة نائب السلطان، عندما مات الأشرف قايتباي سنة 901هـ ظهر صراع بين المماليك، لذا اتفقوا على أن يتولى قانسوه الغوري السلطنة مدة قصيرة فقط بعدما رفضها، لكنه سرعان ما بدأ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر، وفي 1516م خرج لملاقاة السلطان سليم العثماني مصطحبا معه الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة لكنه انهزم في مرج دابق ومات هناك. أنظر: نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج1 تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الأمريكية، بيروت، 1945، ص294 -296.

<sup>(3)</sup> - مرج يقع شمال سوريا غير بعيد عن حلب قرب محلة دابق التي اشتهرت منذ زمن الفتوحات الإسلامية كمركز تجمع للجيش. ج و د. سوردل، معجم الإسلام التاريخي، ترجمة الدكتور أ. الحكيم وآخرين، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، لبنان، 2009، ص406.

أواخر أوت 1516م، ومكّن هذا الانتصار<sup>(1)</sup> من دخول حلب وقلعتها،<sup>(2)</sup> والتقدم جنوباً عبر حماة، ثم حمص، وصولاً إلى دمشق التي دخلها في 27 سبتمبر 1516م دون مقاومة ووسط ترحيب من أهاليها،<sup>(3)</sup> ولنا أن نتساءل هنا عن كيفية استقبال أهالي دمشق -باعتبارها أكبر مدينة في بلاد الشام - الدخول العثماني سنة 1516؟ وللإجابة عن تساؤلنا لا بأس أن نتبع موقفين صادرين عن أهالي كل من حلب ودمشق.

### 3 - موقف أهل الشام من الدخول العثماني:

#### أ - موقف أهالي حلب:

بيّنت الطريقة المهينة التي تعامل بها سكان مدينة حلب مع جنود المماليك المنهزمين<sup>(4)</sup> مدى الترحيب والاستقبال الذي حظي بهما الجيش العثماني، حيث يذكر ابن إياس أنه، عند دخول السلطان سليم حلب "أضاءت المدينة بالاحتفالات وأنارت الشموع الأسواق، وارتفعت الأصوات بالدعاء له، وعمّت الناس

(1) - حشد العثمانيون لهذه المعركة ستين ألف جندي في مقابل عشرين ألف في جانب المماليك، لكن الجيش العثماني زيادة عن العدد كان يتمتع بميزة تكنولوجية، ففي حين استمر جيش المماليك في الاعتماد على المهارة الفردية التي يظهرها جنده في استخدام السيف، كان جند العثمانيين يعتمد على البنادق والأسلحة النارية، والعامل الثالث في انتصار العثمانيين هو الخبرة الواسعة التي اكتسبها الجيش العثماني في القتال، فكان يهتم بسلب الغنائم أكثر مما يهتم بنيل الشرف الشخصي عن طريق الاشتباك المباشر بالأسلحة غير النارية. يوجين روجان: العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، ترجمة محمد إبراهيم الجندي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط 1، القاهرة، 2011، ص 27.

(2) - عندما حلّ السلطان سليم بقلعة حلب وجد فيها من المال والذهب والتحف الثمينة ما أذهله. أنظر، ابن إياس، بدائع الزهور، مصدر سابق، ج 3، ص 1032.

(3) - Stanford Shaw, history of the Ottoman Empire and modern turkey, vol 1: empire of the gazis: the rise of the Ottoman Empire (1280-1808), Cambridge university press, 1st published, 1976, p84.□

(4) - يذكر أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري ابن الحمصي أن جنود المماليك "ولّوا إلى حلب في أسوأ حال، فطلعت إليهم أهل مدينة حلب بالسلح ولم يكتنّوهم من الدخول إليهم، وكان للعسكر عندهم ودائع فلم يعطوهم منه شيئاً، وقتلوا منهم من العساكر جماعة كونهم أنهم طالبوهم بودائعهم": حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، مصدر سابق، ص 522. أما ابن إياس فيذكر أن جنود المماليك المنهزمين "جرى لهم من أهل حلب - بالخصوص - ما لم يجر عليهم من عسكر بن عثمان"، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3، مصدر سابق، ص 1031. في حين يوضّح بن زنبيل الرمال بأن السبب وراء تصرف أهالي حلب مع الجنود يعود للتصرفات التي قاموا بها في المدينة قبل المعركة، فيقول بأن جنود المماليك "قد دخلوا مدينة حلب، وأخرجوا الناس من بيوتهم، و سبوا حريمهم وأولادهم، وأذوهم الأذى البالغ"، وعندما أمرهم السلطان الغوري للخروج إلى الحرب لملاقاة الجيش العثماني لجأوا إلى أهالي حلب مرة أخرى و"أودعوهم جميع أموالهم بعد أن كدّروا عليهم غاية التكدير وأذوهم غاية الأذى"، فكان ذلك سبباً لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكمة لشدة ما حلّ بهم من الضرر منهم "آخرة المماليك، أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، مصر، 1998، ص ص 91-92.

الفرحة" للخلاص مما كانوا يعانون منه من الإفراط في فرض الضرائب واستبداد الحكم،<sup>(1)</sup> وهذا ما يشير إلى أن سكان الريف والمدن في الشام لم يشعروا بالأسف على زوال حكم المماليك ودولتهم.

## ب - موقف أهل دمشق :

يمكن أن نميز بين موقفين لأهالي دمشق: أحدهما يمثل فئة العلماء من أمثال ابن طولون الدمشقي<sup>(2)</sup> باعتباره شاهد عيان عن ذلك وكان أقرب إلى نقل مواقف ومشاعر أهالي دمشق وربما عموم أهالي بلاد الشام مما كان يدور حينذاك، أما الموقف الثاني فهو لعامة الشعب وبالاخص فئاة أهل الحارات أو ما كان يعرف آنذاك بالزعران.

من خلال تتبع ما أورده ابن طولون يمكننا أخذ نظرة حول كيفية تعامل أهالي دمشق ومن بينهم ابن طولون مع الدخول العثماني لدمشق:

" في آخر جمعة من شهر شعبان 922هـ قرأ أئمة المساجد خطبة الجمعة في الجامع الأموي وسائر الجوامع الأخرى باسم السلطان سليم في الوقت الذي تدفق فيه الجند على المدينة"<sup>(3)</sup>.

وصف ابن طولون لما رآه لدى زيارته للمخيم العثماني ينمّ بوضوح عن أقصى درجات الإنبهار بما رأى من مظاهر القوة والبذخ، فبالإضافة إلى الأعداد الهائلة للعسكر<sup>(4)</sup> يصف ابن طولون المدافع الضخمة

(1) - ابن ياس، بدائع الزهور، ج3، مصدر سابق، ص1032.

(2) - المؤرخ (شمس الدين محمد ابن طولون)، وهو دمشقي المولد والمنشأ والوفاة، ولد في دمشق المملوكية سنة 880 هـ (1476 م) وتوفي في دمشق العثمانية سنة 953 هـ (1546 م)، وتكمن أهمية ابن طولون كمؤرخ في أنه كتب عن الأحداث التي عاصرها، وبالتالي فهو نقلها كما شاهدها، أو كما وصلت الأخبار بها إلى دمشق على شكل (يوميات)، فقد كان ابن طولون يعيش في دمشق سنة 1516م، لذلك ذكر مشاهداته قبيل معركة مرج دابق، من وصول الجيش المملوكي بقيادة السلطان الغوري إلى دمشق، ثم خروجه للقاء الجيش العثماني، وما تلا ذلك من وصول أخبار هزيمة المماليك، ثم دخول الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم إلى دمشق، وما يهمنا أكثر هنا هو أن ابن طولون تحدث بدقة عن شعوره كأحد سكان دمشق تجاه السلطان العثماني سليم الأول ومن جاء معه من العثمانيين.

(3) - " ثم في يوم الجمعة خطب على منبر الأموي الولوي بن الفرفور باسم ملك الروم، وكذا في سائر الجوامع، ثم تتابع دخول العسكر، فذهب بعضهم ونزل على أناس خارج دمشق كرهاً، فذهبوا واشتكوا عليهم، فجاء ربطهم في حبال، ثم ذهب بهم إلى ضفة الخضر وضرب أعناقهم، فارتدع بقية العسكر بهم". ابن طولون، مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص338.

(4) - " وفي بكرة يوم السبت مستهل رمضان منها (922 هجرية)، وصل ملك الروم سليم خان بن بايزيد خان... إلى المصطبة لصيق القابون الفوقاني، في عساكر عظيمة لم نر مثلاً، ويقال إن عدتها مئة ألف وثلاثين ألفاً، ما بين أروام وأرمن وتتر وسوارية وإفرنج وغير ذلك" ابن طولون، مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص339.

والطبول الكبيرة<sup>(1)</sup>، إلا أننا نتلمّس في رواية ابن طولون ما هو أعمق وأهم من ذلك، إذ إنه توجه إلى المنطقة التي أقام فيها العثمانيون مخيم السلطان بقصد الاجتماع إلى العلماء في اليوم الثاني لوصول السلطان إلى خارج دمشق من دون الحصول على أي إذن أو وساطة من أحد ومن دون تردد أو خشية، وهذا الفعل أبلغ من أي توصيف إذ يبين بوضوح نظرة أهل دمشق إلى السلطة الجديدة.<sup>(2)</sup>

وعلى رغم مظاهر القوة لجيش كان قد وصل إلى دمشق قبل يوم واحد فقط، لم يخامر ابن طولون أي شعور بالخوف وهو يتجول في أرجاء مخيم الجيش (الغازي)، بل إن وصفه يعطي انطبعا خاصا بمدى شعور ابن طولون بأريحية وطمأنينة دون أدنى خوف أو توجس.<sup>(3)</sup>

إن الجرأة التي جعلت ابن طولون يتوجه إلى مخيم السلطان والدخول إليه دون اعتراض من جانب القائمين عليه وصولاً إلى خيمة السلطان شخصياً، سلوك لا يدل على شعور بالهزيمة أو بالخوف أو التوجس من الجيش العثماني، لقد دفعه إلى ذلك حب الاستطلاع والتعرف إلى العلماء المصاحبين للسلطان، وثقته بأن هذا الجيش ليس جيشاً لعدوّ، بل إنه أقرب ما يكون - في ضوء سلوك ابن طولون - إلى جيش صديق.

ولم يقتصر حب الاستطلاع هذا على ابن طولون فحسب، بل غلب أيضاً على تصرف الكثيرين من أهل دمشق الذين أصرّوا على الفرجة على موكب السلطان سليم متوجّهاً إلى الحمام وخارجاً منه، ولم يردعهم عن ذلك خوف من الجيش (الغازي) أو شهرة السلطان سليم الملقب بـ (ياووز) أي الصارم أو

(1) - "وقدّامه ثلاثون عربية، وعشرون قلعة على عجل، يسحب كلا منها بغلان. ولما أطلقوا البارود في المصطبة، ظنت أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض، وخلفهم النايات والطبول النّقارة، وخلفهم المشاة رماة البندق، وخلفهم الخنكار الملك المذكور، وخلفه السناجق والطوخان والعساكر على وفق طبقاتهم". نفس المصدر، ص 339.

(2) - "وفيه (يوم الأحد 2 رمضان 922) ذهبت إلى وطاق الخنكار، قاصداً الاجتماع بالمدرسين الذين معه، ويقال أن عدتهم ستة وثلاثون مدرساً حنفياً، فلم يتيسّر ذلك لعدم المعرفة بلسانهم، فدرت فيه فذهلت من كثرتّه، وتعجّبت من الأسواق التي فيه، وقلمّا تروم شيئاً لا تجده فيها، وهي سائرة معه من بلاده، فمن صنف اللحامين خمسة عشر قالياً للحم، ومثلها من الطّباخين لألوان عدة، ومثلها حكماء، ومثلها جراحية، ومثلها بياطرة، ومثلها أساكفة، ومثلها حدادون، ومثلها علاّفون، وهذه الأعداد تقريباً وغالب ظني أنها أكثر من ذلك إلى غير ذلك من السوق". نفس المصدر، ص 339.

(3) - "ثم ذهبت إلى العربات والقلاع، فتفرجت فيها، ولم أرها قبل ذلك، فإذا هي أمر عجيب تدل على تمكّنه، والعربات مجنزرة، بعضها في بعض، بحيث إذا صفت تكون كالسور، وكل عربية ترمي بندقية ملء كف الرجل من رصاص، ولهذا البندق صندوق تحتها، وهي مركبة عليه في طول الشخص، ثم ذهبت إلى مخيم الخنكار فلم أمكّن من القرب به، وتفرجت على طبوله، فإذا كل طبل قدر حمولة رجلين، يحمل كل اثنين منهما على جمل، ومخيمه على نفس المصطبة، والعسكر بالبعد منه قدر رمية حجر من كل جانب، وهم محتاطون به كالسور على البلد". نفس المصدر، ص 340.



المتجههم والسريع الغضب، من أن يكونوا في مكان يمكنهم من ملاحظة أن السلطان "كان قبل دخوله بلحية لطيفة، فلما خرج من الحمام رأيناه قد حلقها كغالب عسكره"<sup>(1)</sup>.

أما عن طريقة تسليم مدينة دمشق للعثمانيين فإن ما كتبه ابن طولون يوضح شعور سكان دمشق تجاه ما حدث، فيقول بأن أهل الحل والعقد توافقوا على تسليم المدينة من دون قتال.<sup>(2)</sup>

أما بالنسبة للجيش العثماني فإنه لم يتعامل مع مدينة دمشق كمنطقة معادية تم احتلالها للتو ولم تُستَبَح بأي شكل من الأشكال، بل بالعكس من ذلك، فقد كانت السلطة العثمانية صارمة مع أفراد الجيش العثماني في علاقتهم مع أهل دمشق، فعندما نزل بعض العساكر على أناس خارج دمشق كرهاً، واشتكى الناس عليهم، عاقبهم متسلم دمشق أشد العقاب إذ "ربطهم في حبال، ثم ذهب بهم إلى ضفة الخضر وضرب أعناقهم، فارتدع بقية العسكر بهم".<sup>(3)</sup>

أما الموقف الثاني لأهل دمشق فقد عبّر عنه فئة الزعر أو الزعران أو أبناء الحارات، فحين شارفت الدولة المملوكية على السقوط سنة (922هـ / 1516م) تحرك الزعر في دمشق عقب وصول أخبار انكسار جيش المماليك في مرج دابق وقاموا بأعمال قتل بحق أهل دمشق،<sup>(4)</sup> أو عساكر المماليك المنهزمين،<sup>(5)</sup> "ونشروا الخوف والذعر وسط السكان".<sup>(6)</sup>

(1) - "وفي يوم الخميس سادسه (رمضان) دخل الخنكار من المصطبة إلى حمام الحموي، الكائن بعمارة السلطان قايتباي، بمحلة مسجد القصب، ودخله وأعطى لمن حلق له خمسمئة درهم، ولعلم الحمام مثلها، ونودي له بمعلم الحمامين، وكان قداده من الخاصكية جانب كثير، وخلفهم رماة البندق، وخلفهم الشاوشية، ثم هو، وخلفه أمردان بشعور لابسين على رأسيهما كوفيتين من ذهب، وخلفهما جمع من عسكره، وكان قبل دخوله بلحية لطيفة، فلما خرج من الحمام رأيناه قد حلقها كغالب عسكره، ثم ركب ورجع الى المصطبة"، نفس المصدر، ص 340.

(2) - "وقد كان اجتمع قبل هذا اليوم شيخنا عبد النبي، والشيخ حسين الجناني، والشيخ مبارك القابوني، وخلق، في المصلى بميدان الحصى، واتفقوا هم ومشايخ الحارات على تسليم البلد، فتلقت الخلق لهذين الخاصكيين، ومن معهما، مع تهليل ومشاعلي ينادي بالأمان،... فسلمتهم الناس البلد، ودخلوا إليها وفتحوا أبوابها، وهكذا لم يحدث أي قتال في دمشق أو بالقرب منها" نفس المصدر، ص 337.

(3) - نفس المصدر، ص 338.

(4) - "دارت الزعر في البلد وضواحيها وقتلوا خلقا كثيرة، منهم في صالحيتها سبعة أنفس" نفس المصدر، ص 334.

(5) - مرة أخرى يتحرك الزعر في دمشق بعدما شاهدوا بدء خروج بقية عسكر المماليك المنهزمين متجهين إلى مصر، بل وصل بهم الحد إلى اعتراض موكب جان بردي الغزالي نفسه عند باب الجابية أحد أبواب دمشق، نفس المصدر، ص 335.

(6) - "ثم داروا بالبلد وقتلوا جماعات ونهبوا وأحرقوا المنازل، وقد بات أهل دمشق في خوف عظيم من هول هؤلاء الزعر ومن توجه ملك الروم سليم العثماني إليهم"، نفس المصدر، ص 336.

استغل الزعر خوف سكان دمشق منهم فهاجموا ليلاً على بيوت القضاة، ولم يكن يرددهم سوى الدنانير التي كانت تدفع لهم،<sup>(1)</sup> غير أن الموقف الأبرز الذي أبداه الزعر في دمشق هو الانضمام إلى التمرد الذي قاده الوالي الذي نصبه السلطان سليم على بلاد الشام وهو جان بردي الغزالي.

#### 4 - الإجراءات العثمانية الأولية في بلاد الشام:

حاول العثمانيون منذ الوهلة الأولى إدخال تنظيماتهم الجديدة في بلاد الشام من خلال التأكد من هويات أصحاب الوظائف الدينية والاطلاع على مستنداتهم ثم أصحاب الإقطاعات ووثائقهم<sup>(2)</sup>، وشرعوا في إجراء إحصاء للسكان والممتلكات بغية فرض الضرائب عليها<sup>(3)</sup>، لكن تملل أهالي دمشق جعل السلطان سليم يتراجع بسرعة عن هذا الإجراء ويقوم بعزل الوالي يونس باشا المعين منذ البداية،<sup>(4)</sup> وسهر على الشروع في الإعداد للمحمل الشريف الذي يرافق قافلة الحج نحو البقاع المقدسة،<sup>(5)</sup> كما زار قبر الشيخ محي الدين بن عربي وأمر ببناء جامع عليه في الصالحية.<sup>(6)</sup>

بعد عودة السلطان سليم من مصر عقب استكمال القضاء على السلطة المملوكية شرع في اتخاذ جملة من التدابير والإجراءات على غرار: إبطال العملة القديمة وإقرار عملة جديدة،<sup>(7)</sup> و تشديد القبضة على الجانب الأمني خاصة في التصدي للخطر الذي كان يشكله زعر الحارات،<sup>(8)</sup> قبل اللجوء إلى تخفيض قيمة العملة العثمانية بمقدار النصف<sup>(9)</sup> مما ألحق أضراراً بالسكان، لكنهم لم يجرأوا على الثورة أو العصيان في ظل الإجراءات الصارمة المتخذة ضد الزعران، كما أمر الوالي والقاضي والدفتدار بتسجيل الممتلكات داخل الحارات في دمشق وخارجها، مع التدقيق في مستندات الأوقاف.<sup>(10)</sup>

(1) - "ثم داروا بالبلد وقتلوا جماعات ونهبوا وأحرقوا المنازل، وقد بات أهل دمشق في خوف عظيم من هول هؤلاء الزعر ومن

توجه ملك الروم سليم العثماني إليهم"، نفس المصدر، ص 336.

(2) - نفس المصدر، ص 342.

(3) - نفس المصدر، ص 339.

(4) - نفس المصدر، ص 345.

(5) - نفس المصدر، ص 345.

(6) - نفس المصدر، ص 347.

(7) - نفس المصدر، ص 361 - 362.

(8) - نفس المصدر، ص 361، 364.

(9) - نفس المصدر، ص 367.

(10) - نفس المصدر، ص 367.



أبقت السلطة العثمانية خارج المدن على الزعامات المحلية والعشائرية باعتبارها مكوناً أساسياً من مكونات المنطقة<sup>(1)</sup> التي خضعت لها؛ طالما أن هذه الزعامات تؤدي فروض الطاعة وتقدم خدماتها للدولة العثمانية،<sup>(2)</sup> فبعد دخول السلطان العثماني إلى دمشق بأيام اجتمع مع ممثلي وأعيان وشيوخ الحارات واستمع لانشغالاتهم بكل انتباه، وحلّ الخلافات وبث في الشكاوى، ثم عين رجاله على رأس الوظائف الحكومية مع الاحتفاظ بهيكلية الإدارة المملوكية السابقة بشكل عام، كما أعاد النظر في قوانين قايتباي ووضع تفسيراً دقيقاً لها، وأدخل قسماً منها فقط في التنظيم الإداري والضرائب العثماني، ثم قام بتخفيض الضرائب والرسوم الجمركية من 20% إلى 5%، والأهم من ذلك أنه أعاد توزيع الأرض بشكل جذري وفقاً لمبادئ نظام استغلال الأراضي العثماني، بعد القيام بعملية الإحصاء، فظهرت دفاتر الإحصاء تباعاً مثل دفتر مفصل لواء حلب سنة 1518م، وطرابلس سنة 1519م.<sup>(3)</sup>

أما ما يتعلق بشؤون النصارى فنجد السلطان سليم يلجأ إلى إلغاء القيود المفروضة عليهم وحتى على اليهود، وفي هذا الصدد نجد بأن الدولة العثمانية بذلت جهدها لعدم التعرض للمسيحيين في بلاد الشام وبالأخص في القدس الشريف أو إلغاء الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها آنفاً، وإعطاءهم حرية ممارسة

(1) - كانت هذه المنطقة موطناً للعشائر البدوية التي حرص السلطان العثماني سليم لانتهاج سياسة حكيمة معها، حيث خصّص جزء من وقته لاستقبال زعمائها سواء أثناء توجهه نحو مصر، أو أثناء عودته منها، وهكذا استقبل زعماء الدروز وعلى رأسهم فخر الدين المعني من جبل لبنان وقدموا له فروض الطاعة والولاء، وبادلهم السلطان بتشيت الأمير فخر الدين المعني أميراً عليهم، ولعلنا هنا نبيّن ما كان له من بُعدٍ نظرٍ مكّنه من كسب ودّ الدروز الذين تحوّلوا إلى مؤيدين وداعمين لوجوده في المنطقة، كما استقبل زعماء صفد وطبرية و نابلس والقدس والخليل، وسلّم زعيم أول قبيلة وفدّ إليه - وهو أحمد بن بكر شيخ قبيلة بني وائل - راية وطبلاً إشارة إلى تولّيه الإمارة على منطقته. أنظر فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 2، ترجمة كمال اليازجي، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1959، ص 310.

- Joseph von Hammer-purgstall , histoire de l'empire Ottoman depuis son origine jusque' à nos jours, Tome 4, Traduit De L'Allemand Par J.J.Hellert, Paris, Sans date d'édition,p304.□

(2) - تُظهر الرسالة التي تقدّم بها زعماء هذه العشائر إلى السلطان سليم مدى القبول والترحيب الذي أفصحت عنه للعثمانيين، فقد ورد فيها " نرغب بالطاعة إليكم لأنّ أرواحنا وأموالنا وعوائلنا وديننا ونرى حكمكم ضرورياً لتطبيق الإسلام وإقامة العدل)، من جانبه تغاضى السلطان على هذه التصرفات، وأظهرت الدولة العثمانية في سياستها العامة حرصها الشديد وسعيها الحثيث لاستمالة هؤلاء البدو، بل ومنحتهم أدواراً أساسية في النظام الإداري العثماني لمنطقة بلاد الشام. فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً ( مطلع العهد العثماني -أواسط القرن التاسع عشر الميلادي)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 135.

(3) - نيقولايف إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع سابق، ص 66.

شعائهم الدينية، وإعفاءهم من الضرائب والرسوم الجمركية، وعدم التدخل في شؤونهم من قبل الطوائف الأخرى أو الإعتداء عليهم.<sup>(1)</sup>

وفيما يخص الجانب القضائي، فإن أول خطوة قام بها السلطان سليم الأول وهو في دمشق هو تنظيم أمور الفتوى على نحو جديد<sup>(2)</sup>، من خلال تعيين مفتي واحد فقط لكل مذهب، وبذلك وضعوا حداً للفوضى التي كانت سائدة قبل الدخول العثماني حينما كان أمر الفتوى للعلماء، حيث كان علماء كل مذهب يفتون متى سئلوا واستفتوا، ويكتبون على الأسئلة ويقع الخلاف دائماً بينهم، وعندما حلّ العثمانيون منعوا ذلك وخصّوا كل مذهب بمفتي يكون من علماء ذلك المذهب، ومنع غيره من الكتابة على الأسئلة<sup>(3)</sup>.

أما الإجراء الثاني الذي أعقب دخول السلطان سليم إلى دمشق في مطلع شهر رمضان 922هـ هو الأمر بإيقاف العمل بأحكام المذهب الشافعي والعمل بموجب المذهب الحنفي باعتباره المذهب الرسمي في الدولة العثمانية،<sup>(4)</sup> لذلك عيّن "قاضياً حنفياً من الأروام (أي الأتراك) وهو زين العابدين الفنري، وولّى القاضي من قضاة دمشق ثلاثة نواب: الشافعي شهاب الدين الرملي، والحنفي شمس الدين البهنسي، والمالكي شمس الدين الموصللي، وكانوا قبل ذلك نواب قضاة بدمشق"<sup>(5)</sup>، وهذا وفق التدرج الهرمي الديني والقضائي العثماني حيث يتصدّره المفتي الحنفي في اسطنبول وهو شيخ الاسلام، وبالمثل كان رئيس القضاة في الشام دائماً حنفياً، بينما استمر قضاة المذاهب الأخرى في العمل كنواب للقاضي الحنفي الرسمي.

وفي الجانب الأمني كانت جهود الدولة العثمانية لإعادة الأمن بالقضاء على خطر الزعر ووضحة، فقد باعتماد أسلوب الصرامة والشدة معهم، ففي شهر صفر 923هـ/ مارس 1517م استدعى والي دمشق

(1) - فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج1، بيات، فاضل (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (النصف الأول من القرن 10هـ/16م)، مج1، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية اسطنبول، 2010، ص ص 65-66.

(2) - محمد خليل المرادي، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد، ط2، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1988، ص2.

(3) - نفس المصدر، ص3.

(4) - طه جابر العلواني: "التمذهب الفقهي في العهد العثماني- دراسة وتحليل"، من أعمال المؤتمر العام الثالث للدراسات العثمانية حول: الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج1 و2، جمع وتقديم الأستاذ عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1990، ص 380.

(5) - ابن الحمصي، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، مصدر سابق، ص 525.

العثماني جميع أهل الحارات وألزمهم بتحمل مسؤولية زعرانهم،<sup>(1)</sup> وكتب اسم الرجل الكفيل والأزعر الذي كفله،<sup>(2)</sup> فكانت ضربة موجعة لهم تتالت بعدها الضربات.<sup>(3)</sup>

في أثناء تمرّد جان بردي الغزالي عاد الزعران ثانية للظهور، ذلك أنه في ظلّ سعيه لبسط سيطرته استمال إليه الزعران مما ساعد في علوّ مكانتهم، فقد تحول حفل ختان أقامه أحد الزعران إلى مظاهرة عارمة للزعران جميعاً من حارات دمشق المختلفة واجتمعوا في الصالحية (بالعدد الكاملة والأقمشة المفتخرة، ثم تجولوا في البلد واصطدموا بزعران حارة المزابل لأنهم يمنية ثم عادوا إلى الصالحية ومعهم الطبول والزمور والمغاني والمخيلة وغير ذلك)<sup>(4)</sup>.

وكان الغزالي قد خاطب الزعران بالعاطفة حيث قال: ( لا تقاتلوا معي لأجلي... بل خوفاً على حريمكم ) ثم حلفوا ليكونن معه على العثمانيين،<sup>(5)</sup> ويذكر بن طولون بأنه أثناء المواجهة العسكرية الأخيرة للغزالي أمام القوات العثمانية سقط من الزعران حوالي ثلاثة آلاف أزعر.<sup>(6)</sup>

لقد كرّس العثمانيون دولة جديدة تتميز بازدهار الريف والمدن نتيجة الاهتمام بالفلاحين من ناحية، وانطلاق التجارة من ناحية أخرى، وهذا سواء ضمن المناطق التي أصبحت تمتد فيها الدولة العثمانية أو مع الدول المجاورة، وهكذا يمكن اعتبار أن الفتح العثماني لبلاد الشام عموماً وبلاد الشام قد حمل معه الازدهار والحركة للمنطقة،<sup>(7)</sup> فقد استفادت من اندماجها في دولة عالمية هي الدولة العثمانية، بل

(1) - باشرت السلطة العثمانية بإصدار أمر إلى الحارات بأن يحضر شيوخ الحارات الدمشقية ومع كل شيخ عدد من أكابر الحارة من أجل حصر عدد البيوت وساكنيها. ابن طولون، مفاتيح الخلان، مصدر سابق، ص 370.

(2) - نفس المصدر، ص 361.

(3) - حيث خوزق الوالي أزعر من الصالحية وهي المرة الأولى التي يتعرض فيها أزعر للخازوق، وكان الهدف منها إرهاب الزعران ثم تتالت عمليات الخوزقة ضد الزعران في حارات دمشق. نفس المصدر، ص 364.

(4) - نفس المصدر، ص 400.

(5) - أكرم حسن العليبي، دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص 110.

(6) - المصدر السابق، ص 252.

(7) - إن دفاتر الإحصاء العثمانية تحمل في طياتها معلومات وافرة حول مدى الإستقرار الذي أصبح يميز المنطقة سواء بالاستقرار بالريف أو الازدهار في المدن وهذا خلال فترة الخمسين سنة الأولى من الوجود العثماني، إذ نمت القرى وتوسعت المدن التي كادت قبل ذلك أن تندثر على إثر سقوط الحكم المملوكي، فقد ظهرت قرى جديدة بينما أخذت قرى أخرى في الانتعاش والتطور، وهو ما انعكس بدوره على تزايد أعداد السكان في العهود الأولى للحكم العثماني في بلاد الشام، ففي لواء الشام واستناداً للسجلات العثمانية فقد زاد عدد القرى من 844 قرية سنة 927هـ/1521م إلى 1129 قرية سنة 976 - 977هـ/1569م، بينما ازدادت عدد بيوت الفلاحين من 70691 سنة 934 - 935هـ/1528م إلى 107601 بيتاً سنة 954 - 955هـ/1548م. نزيه

وأصبحت تمثل قلبها، وبالتالي استفادت من الازدهار الاقتصادي الذي تميّز به القرن 16م، كما أكسب هذا الوضع مدينة دمشق بالخصوص مكانة دينية هامة في طريق قافلة الحج الشامي والتي أضحت في العهد العثماني أهم قافلة للحج، حيث أصبح يتجمع بها عشرات الآلاف من الحجاج من البلقان، والأناضول، والقوقاز، والعراق، وفارس فكانت القافلة رمزا لهيبة الدولة، وبالتالي صاحب ذلك اهتماما كبيرا من الدولة العثمانية بالطرق وتأمينها وصيانتها.

## 5 -التقسيم الإداري العثماني لبلاد الشام:

مباشرة بعد ضم الدولة العثمانية لبلاد الشام ألغت نظام النيابات<sup>(1)</sup> الذي كان معمولاً به من قبل المماليك وأدخلت أساليبها الإدارية وهي: الولاية (الكلربكلك)،<sup>(2)</sup> واللواء (السنجق)،<sup>(3)</sup> والقضاء (أو الناحية).<sup>(1)</sup>

الكواكبي: "الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني" مجلة التراث العربي، العددان 55 - 56، صادرة عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1994م، ص ص 183 - 184.

<sup>(1)</sup> - اعتمد المماليك نظام النيابة في تقسيماتهم الإدارية، فقسموا بلاد الشام إلى ست نيابات هي: نيابة دمشق، نيابة حلب، نيابة صغد، نيابة حماة، نيابة طرابلس، نيابة الشوبك ثم أضافوا إليها نيابة غزة، وقد مثلت نيابة دمشق أكبر نيابات بلاد الشام، أما نيابة حلب فهي بحكم موقعها في الشمال قد تبوّأت مكانة مميزة في أوقات النزاعات والحروب، في حين أن نيابة طرابلس على ساحل البحر المتوسط، أنظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 4، مصدر سابق، ص ص 6، 105، 109 - 111، 184، 240، 241. سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المملوكي في مصر و الشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976، ص 205.

MARTEL-THOUMIAN (B), "l'administration d'alep sous les mamluks çirqassien (IX- - XVes): Le cas de banu saffah : Re.m.m.m, n°62,1991, p 72

<sup>(2)</sup> - كانت الدولة مقسّمة إلى وحدات إدارية تُعرّف باسم (كلربكلك) تلفظ في اللغة التركية على نحو (بيلربكلك) بمعنى إمارة الأمراء، وفي الفارسية (ميرمران) بمعنى إيالة أو ولاية، وصل عدد الايالات في مطلع القرن السابع عشر إلى 32 إيالة هي: الروميلى، الأناضول، الروم، طرابزون، البوسنة، قرمان، كفة، ذوالقدرية، أرضوم، دياربكر، الموصل، حلب، دمشق، طرابلس الشام، مصر، اليمن، جزائر بحر سفيد (أرخبيل بحر إيجه)، الجزائر، قارص، بغداد، وان، تونس، البصرة، الأحساء، بودين، طرابلس الغرب، تيمشوار، شهر روز، الحبشة، قبرص، جيلدير، الرقة. أنظر: فاضل بيّات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 49.

Inalcik (H), The Ottoman Empire, The Classical Age 1300-1600 2nd published, London, 2000, pp105-106.

-IMBER (C), The Ottoman Empire (1300-1650) the structure of power, 1 st published, Palgrave Mc Milan, New York, 2002, p 178.

<sup>(3)</sup> -السنجق، بمعنى الولاية والعلم ثم تطور المعنى ليأخذ دلالة إدارية وهو ذو دلالة كبيرة لدى العثمانيين وهذا منذ أن كانت الدولة العثمانية مجرد إمارة حدودية، فقد حصل الغازي عثمان بن أرطغرل على السنجق والطلب والحصان وسمح له بقراءة الخطبة باسمه مما كان له معنى الحصول على السلطة والتفويض بالحكم، وهكذا أصبح السنجق الوحدة الأساسية في تقسيمات الدولة، ومن مجموعة السناجق نشأت الإيالة، وللدلالة على مكانة السنجق في النظام الإداري والعسكري للدولة يكفي أن نعود إلى دفاتر التحرير (تحرير

اعتمدت الدولة العثمانية على تنظيم يتصف في مجمله بالبساطة، فقد كانت الولاية هي الوحدة الإدارية والعسكرية الكبرى، وهي تقسم إلى سناجق أو ألوية، والسنجق هو الوحدة الإدارية الأساسية وذلك لعدة أمور، منها أن دفاتر التحرير كان يجري تنظيمها على أساس السنجق، والقانوننات تعتمد السنجق وحدة أساسية، كما أن السباهي كان ملزماً بالإقامة في حدود السنجق الذي يقع فيه تيماره، وحتى المحاكمة لأحد الرعايا ومعاقبته تتم في سنجقه الذي ارتكب فيه ذنبه، لكن الملاحظ هو أن هذه التقسيمات كان يجري ادخال تعديلات عليها من حين لآخر، ولم تبق على حالها دوماً<sup>(2)</sup>، لذلك نجد بأن السلطة العثمانية قسمت بلاد الشام إلى:

#### أ - ولاية العرب (عرب ولايتي):

يظهر الحكم السلطاني مؤرخ في 19 ذي الحجة 951هـ / 1 فيفري 1545م، أسماء ألوية ولاية الشام (أو ولاية العرب) وعددها ثلاثة عشر لواء وهي: - لواء الشام (دمشق)، لواء حلب، لواء طرابلس، لواء

دفترلري) التي كان يجري إعدادها على أساس السنجق، كما أنّ كُتب القانوننات تعتمد السنجق، كان كلّ لواء أو سنجق يمثل وحدة جغرافية ذات حدود ثابتة قلماً تعرضت للتغيير بعكس الإيالة، ولا يمكن إجراء أيّ تغيير في حدود اللواء إلّا بأمرٍ صادرٍ عن الديوان الهمايوني وبتوقيع من السلطان، وتوجد عدة قوائم للألوية/ السناجق وضعها العديد من المؤرخين والكتاب العثمانيين مثل عين علي أفندي "رسالة في التيمار" و علي جاووش الصوفيوي "قوانين آل عثمان". أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، 2000، ص 136، دفتر تحرير لواء القدس الشريف (T.D.427) لسنة 932هـ/ 1525 - 2526م - 934هـ/ 1527 - 1528م، دراسة وترجمة محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، عمان، 2005.

- خليل ساحللي أوغلي، تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني: بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2000، ص 620 - 624، ص 683 - 718.

<sup>(1)</sup> - استُعمل مصطلح (الناحية) عند العثمانيين للدلالة على الجهة أو المنطقة ذات الخصائص الجغرافية المحددة، وكذا للإشارة لبعض القرى والمزارع، وهكذا نجد بأن السنجق مقسّم إلى وحدات إدارية أصغر هي (الناحية) التي - هي بعكس الإيالة والسنجق - ليس على رأسها شخصية عسكرية-مدنية، بل عليها قاض أو نائب قاضي، وإن كان يقوم ببعض الخدمات المدنية، أمّا مصطلح (القضاء) فهو يدلّ على المنطقة القضائية التي تقع تحت إدارة القاضي، وهي من الممكن أن تكون جزءاً من لواء أو لواء بأكمله أو ناحية منه تتكوّن الناحية في نفس الوقت من مجموعة من القرى والمزارع. نفسه، ص 65، فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 64.

- دفتر تحرير لواء القدس الشريف (T.D.427) لسنة 932هـ/ 1525 - 1526م - 934هـ/ 1527 - 1528م، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان، 2005، ص 32 - 39.

<sup>(2)</sup> - أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 260.

صفد، لواء القدس الشريف، لواء حماة، لواء حمص، لواء بيرة جيك، لواء حصن الأكراد، لواء الصلت - عجلون، لواء غزة، لواء نابلس، لواء اللجون.<sup>(1)</sup>

في سنة 956هـ/1549م تم فصل حلب عن "ولاية العرب" لتصبح ولاية قائمة بذاتها، وهو ما بينه الدفتر رقم 1452 المدون في الفترة ما بين (944هـ/1538م - 963هـ/1555م) بحيث أصبحت ولاية الشام تضم فقط: لواء الشام (دمشق) وأميره بيري باشا (أمير الأمراء)، لواء القدس الشريف، لواء نابلس، لواء صفد، لواء طرابلس، لواء صلت - عجلون مع الكرك والشوبك، لواء إقطاع ولاية طرة باي عرب.<sup>(2)</sup> من خلال الدفتر رقم 998 الذي تم تحريره سنة 937هـ/1530م نجد بأن لواء الشام يضم - في هذا التاريخ المتقدم من الوجود العثماني - عشرين ناحية تضم ما مجموعه 846 قرية و 1293 مزرعة<sup>(3)</sup>، وأنه يترع على مساحة شاسعة، تمتد من البحر الأبيض المتوسط غربا إلى أطراف البادية شرقا، ومن خلال العدد الهائل من المزارع ندرك حجم الموارد الزراعية المتوفرة فيه، ولا شك بأنها كانت مأهولة بالسكان حتى أن الموظفين العثمانيين المكلفين بتحرير اللواء وصلوا إلى كل هذه المناطق وقاموا بإحصاء مجمل مواردها، وهم لم يشيروا إلى خراب أي منها، فكلها كانت مأهولة، كما يقدم "الدفتر (T.D. 474) الذي يعود تاريخ تحريره إلى سنة 977هـ/1569م أسماء نواحي لواء الشام وهي:<sup>(4)</sup>

نفس الشام، الغوطة، المرج، قلمون، جبة العسال، وادي بردة (بردى)، الزبداني، قورنة، شوف الحرايين، شوف البياض، حمارة، وادي التيم، عرقوب، حولا (حولة)، شعراء، إقليم الزيب، إقليم البلان، إقليم الداراني، وادي العجم، في حين أن لواء صفد، وحسب وثائق الأوقاف العائدة لمطلع العهد العثماني (تغطي الفترة ما بين 922 - 951هـ/ 1516 - 1553م) فإنه يتكوّن من خمسة نواحي هي: ناحية طبرية، ناحية الغيرة، ناحية تبنين، ناحية عكا، ناحية الشقيف.<sup>(6)</sup>

(1) - مهمة دفتر 12321، تسلسل 192 - 193، ص 81 ب - 85 ب. نقلا عن فاضل بيّات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 1، سبق ذكره، ص 293.

(2) - دفتر محفوظ، بمركز الأرشيف العثماني رقم A.RSK 1452، نقلا عن فاضل بيّات: (إعداد وترجمة ودراسة) البلاد العربية في الوثائق العثمانية (أواسط القرن 10هـ/16م)، مج 2، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2011، ص ص 72 - 74.

(3) - الجدول مستخلص من معطيات "دفتر الطابو 998" أنظر: خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 81.

(4) - محمد عدنان البخيت "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو (T.D.474) سنة 977 هـ/ 1569 م"، صفحات من تاريخ دمشق ودراسات أخرى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2006، ص 1.

(5) - النفس بمعنى المدينة الصغيرة أو القصبه و حولها مجموعة من القرى تتبعها. أنظر: المرجع السابق، ص 65.

(6) - Muhammad A. Bakhit, « Safad et sa région d'après des documents de wakf et des

تتكون الناحية أو القضاء من (قصة) يُصطلح للتعبير عنها بكلمة نفَس ، وعادة تكون مشكّلة من عدة محلات.<sup>(1)</sup>

## ب - ولاية حلب:

تكوّنت سنة 1549م بعدما كانت جزء من ولاية العرب ، وحسب ما أورده **عين علي** في رسالته سنة 1016هـ/1607م فإن ولاية حلب تضمّ السناجق/الألوية التالية:<sup>(2)</sup> لواء حلب ، لواء أدنة ، لواء بيرة جيك (بيرة الفرات) ، أكراد كيليس ، المعرة ، عزير ، باليس.

## ج - إيالة طرابلس الشام:

تأسّست هذه الإيالة سنة 1579م<sup>(3)</sup> بعد أن كانت طرابلس - الميناء البحري الهام على البحر الأبيض المتوسط - لواءً تابعاً لولاية العرب ، لكنّ موقعها القريب جداً من موطن الدروز في جبل لبنان والعشائر البدوية هناك ، وبُعدها النسبي عن دمشق مركز ولاية العرب أشاع نوعاً من عدم الاستقرار فيها ممّا أضّر كثيراً بسكانها ، وهذا الوضع غير المستقر دفع بالدولة إلى تحويل طرابلس إلى مركز إيالة تتبعها الألوية التالية: لواء طرابلس الشام ، لواء جبلة ، لواء حمص ، لواء حماة ، هذا وقد اتسمت التقسيمات الإدارية العثمانية بالليوننة.<sup>(4)</sup>

وبقيت التقسيمات الإدارية على حالها في الإيالة مع بداية القرن السابع عشر ، حيث ذكر بشأنها **عين علي أفندي** في رسالته بأنها تضم خمسة سناجق هي: حماة ، حمص ، السلمية ، جبلة و طرابلس الشام نفسها حيث يقيم الباشا ، وهي في مجموعها تُدار بنظام الخاص أي توجد بها زعامات وتيمار<sup>(5)</sup> ، وهي

Titres de propriété 780/964H.(1378/1556) », re.m.m.m.55-56,1990, p102.

(1) -نورد نموذجاً لذلك من مدينة القدس الشريف ، فحسب دفتر التحرير رقم T.D427. نجد نفَس القدس مكوّنة من المحلات التالية: محلة باب الحطة ، محلة باب القطنين ، محلة زراعية ، محلة ريشة ، محلة بني حارث ، محلة ضوية ، محلة جوالدي (الجوالدة) ، محلة شرف (وتُعرف كذلك بمحلة عَلم) ، محلة باب العامود ، محلة بني زيد ، محلة الملكية ، محلة اليعاقبة النصارى ، محلة جماعة السريان ، محلة يهوديان (جماعة اليهود) دفتر تحرير لواء القدس الشريف T.D427. سبق ذكره ، ص ص 151 - 171.

(2) - خليل ساحلي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 634.

(3) - Abdul-Rahim Abu-Husayne, The view from Istanbul, ottoman Lebanon and the druze emirate, centre for Lebanese studies, oxford, London, 2004, 91. □

(4) - يشير الحُكم السلطاني الصادر بتاريخ 7 ربيع الأول 1002هـ / 1 ديسمبر 1593 م والموجّه إلى بكربكي الشام إلى أنّ "سنجق صيدا - بيروت الذي سبق وأن انتزع من إيالة طرابلس ، وضُمّ إلى إيالة الشام قد تمّت إعادته مرة أخرى إلى إيالة طرابلس الشام" ، وفي نفس الوقت أرسل الديوان الهمايوني حُكماً لبكربكي طرابلس لأجل إخباره بالتغيير الذي طرأ بشأن إعادة إدماج سنجق صيدا - بيروت في إيالة طرابلس.

Husayne, op. cit, p74. n=°188, M.D.71, N 189, in :Abdul-Rahim, Abu- M.D.71,

(5) - خليل ساحلي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ص 622 - 634.



نفس السناجق التي أوردها علي جاووش الصوفي في رسالته "قوانين آل عمان" في منتصف القرن السابع عشر وهي دائما: طرابلس الشام، وحماة، وحمص، والسلمية وجبله.<sup>(1)</sup>

#### د - إيالة الرقة:

تأسست هذه الإيالة سنة 994هـ/1586م في أقصى الشمال الشرقي من بلاد الشام من اقتطاع أجزاء من كل من إيالات: ديار بكر، والشام و حلب، وبرزت أهميتها على الطريق المائي عبر نهر الفرات نحو البصرة، ولتواجد العشائر البدوية على أراضيها.

وفي إطار سياسة الدولة العثمانية لتوطين الأراضي غير المأهولة بالسكان، فإنها عمدت إلى تشجيع العشائر البدوية على الاستقرار في هذه الإيالة، في مطلع القرن السابع عشر الميلادي، أورد عين علي أفندي في رسالته سنة 1607م قائمة بأسماء ألوية إيالة الرقة التي تضم: لواء جماسة، لواء قابور (خابور)، لواء دير رهبة (رحبة)، لواء بني ربيعة، لواء سروج، لواء الرها (أورفة)، لواء الرقة.<sup>(2)</sup>

ورغم مرور قرابة نصف قرن، لم تتغير ألوية الإيالة بحسب ما أورده علي جاووش الصوفي سنة 1064هـ/1654م التي ذكر بأنها تتألف من سبع سناجق فيها من الزعامت والتمار وهي: الرقة ودير رهبة (أو الدير والرحبة) وبنو ربيعة والجماسة وبيرة جيك (البيرة) والخابور وسروج.<sup>(3)</sup>

#### هـ - إيالة صفد - صيدا - بيروت:

تأسست هذه الإيالة سنة 1071هـ/1660م باقتراح من والي الشام فاضل أحمد باشا، وضمت المنطقة الساحلية الممتدة من جنوبي طرابلس شمالا إلى صيدا جنوبا متوغلة في الداخل نحو نابلس، وحملت أسماء المدن الرئيسية الثلاث: صيدا - وصفد - وبيروت، وكانت هذه المنطقة متوترة على الدوام لوقوعها في قلب الاضطرابات الناجمة عن تمرد العشائر الدرزية والقبائل البدوية، وهو السبب الرئيسي وراء إنشائها.

ويذكر أوليا جلبي -الرحالة التركي المشهور - الذي تزامن مروره ببلاد الشام نحو مصر مع تأسيس هذه الإيالة بأنها (أي إيالة صفد - صيدا - بيروت) تضم أربعة ألوية فيها ثلاثة وتسعون زعامت وستمائة

(1) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 690.

(2) - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 218.

(3) - المرجع السابق، ص 623.



وخمسون تيمارا<sup>(1)</sup>، وهي: سنجق الباشا، لواء نابلس، لواء جبل عجلون، لواء الكرك - الشوبك، لواء تدمر<sup>(2)</sup>.

عرفت بلاد الشام استقرارا نسبيا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين وهذا بسبب بعض حركات العصيان التي برزت من حين لآخر مثل: تمرد جان بردي الغزالي، وحركة فخر الدين المعني الثاني، وتمرد علي باشا جانبولا في حلب، لكن الدولة العثمانية تمكّنت من القضاء عليها دون أن تشكل أي خطر على كيانها.

<sup>(1)</sup> - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 232

<sup>(2)</sup> - نفسه، ص 236.

# الباب الأول

- الفصل الأول: المجتمع الشامي
- الفصل الثاني: العلاقات بين مكونات السكان في بلاد

الشام

- الفصل الثالث: مظاهر من الحياة الاجتماعية
- الفصل الرابع: المؤسسات الاجتماعية
- الفصل الخامس: دمشق وقافلة الحج

# الفصل الأول

المجتمع الشامي

إن دراسة الحياة الاجتماعية تمر أساساً بدراسة المجتمع ومكوناته، لذا فإن دراسة المجتمع الشامي خلال فترة ق 10 - 11هـ / 16 - 17م مرتبط أولاً بمعرفتنا لتعداد السكان في هذا المجتمع ووظائف فئاته سواء فئة الحكام أو العسكر، والمحكومين وهم الرعية، إلى جانب معرفتنا بالطوائف الدينية المكونة للمجتمع بحكم تجذرها في المنطقة قبل مجيء العثمانيين، وكذا من حيث أنماط الاستيطان حيث استقر القسم الأكبر من السكان في المدن، وبعضهم في الريف، بينما شكلت البادية القسم الأكبر من مساحة بلاد الشام، والتي شكلت القبائل البدوية أهم عناصر مكوناتها، كل هذا بالاعتماد بشكل أساسي على ما أجرته السلطة الجديدة من عمليات إحصاء.

## أولاً - السكان

### 1 - مفهوم الإحصاء عند العثمانيين :

الإحصاء أو التحرير تقليد إداري قديم اعتمدته الدولة العثمانية من أجل التعرف على الطاقات البشرية والمادية والمالية للدولة، وكانت العملية الإحصائية تتم كل 30 - 40 سنة أو عند تغير الأوضاع بتولي سلطان جديد، وكذا عندما لا تتطابق معطيات الدفتر مع الواقع،<sup>(1)</sup> أطلق عليها العثمانيون اسم (ويركي ونفوس صاييمي) أي (إحصاء الضرائب والسكان)،<sup>(2)</sup> وتتم العملية على مرحلتين :

**الأولى:** يتم مسح السكان وتقدير الضرائب التي تجبى مع ذكر أسماء الناس وتفاصيل حاصل الضرائب، تقدم في دفتر يسمى دفتر المفصل،<sup>(3)</sup> وكان تدوين المعلومات يتم من طرف الدفتر أميني.

(1) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني: بحوث ووثائق وقوانين، مرجع سابق، ص 55.

(2) - يطلق العثمانيون على عملية الإحصاء اسم (تحرير) و(كتابت، بالناء المفتوحة بالإملاء العثماني) وتعني الإحصاء، وهما من أصل عربي، ويعبرون عنها تركياً بكلمة (صاييم) وتعني الإحصاء، فإذا أرادوا أن يكونوا أفصح قالوا: (ويركي ونفوس صاييمي) أي: "إحصاء الضرائب والسكان"، والدفتر هي (تحرير دفترلري) أو (طابو دفترلري)، أو (طابو دفترلري)، أي "دفتر التحرير" أو "دفتر الطابو". نفس المكان.

(3) - تضم دفتر المفصل معلومات حول التشكيلات الإدارية في الولاية موضوع التحرير، وما يتعلق بال (الخاص) والزعامات والتمار والمقاطعات والرايا والسكان - بأسمائهم - المكلفين بدفع الضرائب وأرباب الحرف والخدمات المساعدة والإعفاءات الجمركية والقلاع والعشائر وغير ذلك، فضلاً عن (القانوننامة) الخاص بهذه الولاية. نجاتي أقطاش وعصمت بينارق (إعداد) الأرشيف العثماني فهرس شامل لوثائق الدولة العثمانية المحفوظة بدار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء بإسطنبول، ترجمة صالح سعداوي، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول، ومركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، 1986 ص 33، ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 56.

كان الدفتر أميني بموجب براءة تعيينه يلقي كل التسهيلات من المسؤولين في كل إيالة أو لواء، وأثناء التحرير يقوم بتصنيف الأراضي إلى خاص وزعامت وتيمار ووقف وأملاك، كما يعين أوضاع سكان تلك المناطق من مختلف النواحي مثل: كونهم متزوجين أو عازبين، مع تحديد الديانة هل هم مسلمون أو نصارى أو يهود.

**أما الثانية:** فإن كاتب الولاية يقوم بتلخيص الدفتر المفصل وإعداد دفتر جديد يسمى دفتر الإجمال<sup>(1)</sup> من أجل تمييز أنواع الجبايات والجهات التي خصصت لها سواء ما يعود للسلطان أو الخزانة الأميرية، وما يعود للأوقاف وما يوزع على الأمراء وأصحاب الزعامت وأرباب التيمار، مع تعيين نصيب كل واحد منهم، ولا يوجد في دفاتر الإجمال أسماء السكان ولا عددهم.<sup>(2)</sup>

تودع كل من دفاتر المفصل والإجمال في الدفتر خانة أي المكان الذي تحفظ فيه دفاتر التحرير وتوجد بجوار (تحت القبة) في قصر طوب كابي بإسطنبول حيث تُعقد جلسات الديوان الهمايوني.<sup>(3)</sup>

يرتبط الإحصاء بشكل أساسي بعملية جمع الضرائب، ولما كانت الضرائب من الناحية البشرية تفرض على الذكور الناضجين فإن الإحصاء لا يطال النساء والأولاد باعتبارهم غير منتجين، وبالتالي فإن الإحصاء ركز فقط على من يستطيع دفع الضرائب بصفته عاملاً أو كاسباً، أي أرباب الأسر (خانة) مع قليل من العزاب الذين من المفروض أنهم كاسبون أيضاً لأنهم في سن يسمح لهم بذلك، ويسجل هؤلاء تحت اسم مجرد،<sup>(4)</sup> أما في دفاتر العوراض (خانة عوارض) فلا يتناول الإحصاء الفئة العسكرية (سواء منهم الجنود الانكشارية أو الموظفين أو رجال القضاء) بينما يتم ذكر الأشخاص المعفيين من كل أنواع الضرائب أو

(1) - توضح دفاتر الإجمال تقسيمات وحدود الولايات، ولتن تعود الأراضي بما فيها من ميري وخاص وزعامت وتيمار ومجموع محاصيلها، وهذه الدفاتر هي الأشكال المختصرة لدفاتر المفصل، وفيها يتم بيان الرعايا المكلفين في القرى والقصبات وسكان المدينة دون ذكر أسمائهم فرداً فرداً، ومقدار الضريبة المقررة على كل إيالة وسنجدق ولن تدفع. نجاتي أقطاش وعصمت بينارق، الأرشييف العثماني، المرجع السابق، ص 33.

(2) - خليل ساحللي أوغلي، المرجع السابق، ص 56.

(3) - نجاتي أقطاش، الأرشييف العثماني، ص 33.

(4) - خليل ساحللي أوغلي: المرجع السابق، ص 56 - 57.

من بعضها ، وهؤلاء يطلق عليهم اسم (خانة غير عوارض) وتشمل الإمام والمؤذن والخطيب ، الأشراف ، والسباهي.<sup>(1)</sup>

وعلى الرغم من أن الإحصاء عندما تقوم به الدولة في منطقة ما<sup>(2)</sup> ، كان موجه أساسا لمعرفة طاقات البلد السكانية والاقتصادية إلا أنه يمكن من خلاله أخذ فكرة عامة عن عدد السكان لأن محرر الدفتر لا يذكر سوى أرباب الأسر (الخانة) والعزاب (المجرد) وأهمل النسوة والأطفال ، وحتى بعض الإحصاءات لا توضح عدد المتزوجين (خانة)<sup>(3)</sup> وعدد العازبين (مجرد)<sup>(4)</sup> ، بل استبدل ذلك باسم (نفر).<sup>(5)</sup>

قبل التطرق إلى الجداول الإحصائية الخاصة بتطور سكان بلاد الشام لابد من تسجيل بعض الملاحظات التي تخص عملية الإحصاء في حد ذاتها :

- يعتمد محرر الدفتر كوحدة للحساب : الخانة والمجرد والنفر.

<sup>(1)</sup> - خليل ساحللي أوغلي : المرجع السابق ، ص 57 ،

Omer Lutfi Barkan, « Research on the Ottoman fiscal surveys », in studies in the economic history of the Middle East, Oxford university press, London, 1970, pp 165-166.

<sup>(2)</sup> - لم يطبق نظام الإحصاء في كل الولايات العربية التي دخلت تحت الحكم العثماني ، فباستثناء الشام وطرابلس وحلب و بغداد والبصرة وشهر زول وسنجار والموصل وعنه وهيت ودير والرحبة ، فإن باقي الولايات لم يتعرض لتحديد عدد سكانها. خليل ساحللي أوغلي ، المرجع السابق ، ص 58 ، ص 62.

<sup>(3)</sup> - الخانة: هي وحدة إحصاء وتعداد السكان في الدولة العثمانية يتراوح عددها بين خمسة أنفار وسبعة أنفار ، فالباحث التركي عمر لطفي برقان يعتبرها 5 أفراد ، أنظر :

Omer lutfi Barkan Essaisur les données statistiques des registres de recensements - dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siecles » in M journal of the economic and social history of the orient 1 :1, august 1957, op cit, p 21.

محمد عدنان البخيت : "من تاريخ حيفا العثمانية دراسة في أحوال عمران الساحل الشمالي " مجلة مجمع اللغة العربي الأردني ، العدد الثاني ، المجلد الأول ، جويلية 1982 ، مطبعة التوفيق ، عمان الأردن ، ص 129.

<sup>(4)</sup> - المجرد: هو الأعزب غير المتزوج و المفروض أنه في سن تخوله الكسب أنظر : خليل ساحللي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية ، ص 62 ، و يقدر عمر لطفي برقان سن المجرد ابتداء من السن التي تمكنه من دفع الضرائب دون تحديدها بالضبط.

- Omer lutfi Barkan Essaisur les données statistiques des registres de recensements dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siecles » op cit, p22.

<sup>(5)</sup> - خليل ساحللي أوغلي ، المرجع السابق ، ص 62.

- متوسط عدد أفراد الخانة في الدولة العثمانية حسب عمر لطفي برقان هو 5، بينما يعتمد خليل ساحلي أوغلي العدد 6، في حين أن كلا من برنارد لويس وأمون كوهين العدد 7<sup>(1)</sup>، وإن كان برقان نفسه يتحفظ عندما يقول: " فلكي نعرف عدد السكان العام في الدولة العثمانية نضرب عدد الذكور بالرقم 5، مع التحفظ إزاء هذا الرقم من الوجهة العلمية، فهذا الرقم يختلف حسب المناطق والطبقات الاجتماعية<sup>(2)</sup> .

- لا تتطرق دفاتر الطابو العثمانية إلى تحديد الانتماءات المذهبية للسكان فهي لا تذكر مثلاً الانتماءات السنية أو الشيعية أو الاسماعيلية أو العلوية أو غيرها من جهة، كما لا تذكر الانتماءات المذهبية عند النصارى من جهة أخرى سواء روم ملكيين، موارنة، يعاقبة، الخ..<sup>(3)</sup>

- تبقى أرقام الإحصاء غير دقيقة بشكل كامل ذلك أن الإحصاء لم يشمل التجار الأجانب المتواجدين في مدن بلاد الشام وبالخصوص حلب، كما أن طلبة (المدارس) لم يشملهم الإحصاء باعتبار أنهم معفون من الضرائب العرضية أو العوارض، ومن ثمة نجد صعوبة في تحديد درجة دقة تلك الإحصاءات<sup>(4)</sup>

- ليس واضحاً بالضبط سن النضوج في المناطق العثمانية، ويرجح الباحث لطفي برقان سن الثانية عشر إلى الرابعة عشر كمدخل لهذا التصنيف<sup>(5)</sup>

- على الرغم من حرص محرر الدفتر على تسجيل كل ما يوجد في اللواء، إلا أنه كثيراً ما قامت طوائف العربان بالتمرد ورفضت أن تخضع نفسها أو مواشيها للإحصاء والتسجيل<sup>(6)</sup>.

---

(1) - عصام خليفة: نواحي لبنان في القرن السادس عشر: التقسيمات الإدارية - الديموغرافيا - الأديان والمذاهب، الطبعة الأولى، بيروت، 2004، ص 10.

(2) - Omer lutfi Barkan Essaisur les données statistiques des registres de recensements dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siecles »,op cit, p 2

(3) - عصام خليفة: أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني، الجامعة اللبنانية، سنة 1995، ص 23.

(4) - op cit, p 21.

(5) - ibid, p31.

(6) - على سبيل المثال لم يتمكن محرر الدفتر رقم 970 الخاص بلواء عجلون من تسجيل سوى 101 خانة من أصل 1500 خانة تضمها طائفة بني مهدي. دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970 اسطنبول، دراسة وتحقيق وترجمة: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، الجامعة الأردنية، عمان، 1989، ص 15.

## 2 -تطور السكان في بلاد الشام خلال القرنين 16 و17م:

شرعت السلطة العثمانية مباشرة عقب دخولها بلاد الشام في إجراء عملية إحصاء وتحرير كان الغرض منها معرفة موارد ومقدرات المنطقة وجباية الضرائب، وعلى ضوء المعلومات الواردة في دفاتر الإحصاء (الطابو) يمكن التعرف على تطور أعداد السكان خلال القرن 10هـ وبداية القرن 11 هـ، وكانت الدولة العثمانية قد قسمت بلاد الشام إلى ولايات أو إيالات كبرى تتكون كل واحدة من مجموعة سناجق أو ألوية يتشكل كل سنجق أو لواء من أقضية أو نواحي، والناحية اجمالاً هي عبارة عن مدينة أو قسبة، بينما ما حولها من قرى ومزارع تشكل الأرياف، لذلك سوف نحاول التعرف على سكان بلاد الشام مطلع العهد العثماني، ثم نذكر عدد السكان في الإيالات الثلاثة وهي الشام وحلب وطرابلس، كما نحاول إجراء مقارنات بين تطور السكان خلال فترات من القرن السادس عشر وهذا اعتماداً على ما توفر من معلومات في دفاتر التحرير أو دفاتر الطابو التي توافرت لنا، كما نذكر أعداد ساكني المدن الأبرز في بلاد الشام.

تراجع عدد سكان بلاد الشام بين بداية القرن 16 م ونهايته، بحيث كان في الفترة ما بين 1520 - 1535م العدد: 57326 إلى 42779 سنة 1595م<sup>(1)</sup>، كانت الأمراض من العوامل التي أثرت في عدد السكان، فالأمراض الفتاكة لا شك بأنها تؤدي بحياة العشرات في ظرف قصير خاصة مرض الطاعون<sup>(2)</sup> وتزخر كتب اليوميات بذكر الوفيات ( الخانقاه مثلاً في حمص)<sup>(3)</sup> حتى أن المغسلين والمكفنين يجدون صعوبة في التكفل بالأعداد الهائلة في هذه الحالة، وتشير سجلات المحكمة الشرعية إلى أن مصاريف الدفن ضمن العناصر الهامة في وثائق ضبط ومحاسبة القسام قبل الشروع في تقسيم تركات المتوفي<sup>(4)</sup>.

(1)- Op cit, p 27.

(2) - مرض الطاعون الذي ضرب دمشق سنة 981هـ / 1573م : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج3، مصدر سابق، ص150.

(3) - محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص اليومية ( 1100 - 1136هـ / 1688 - 1723م)، تحقيق منذر الحايك، الطبعة الأولى، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق 2012.

(4) - حجة رقم 2، مؤرخة في 5 جمادى الأولى 1081هـ / 19- 9- 1671م، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج1، إعداد شامخ زكريا علاونة وآخرون، عمادة البحث العلمي بجامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2017ص 105 - 106.



## أ - ولاية العرب:

تلقت المسوحات التي كانت الدولة العثمانية تجريها من حين لآخر مدى النمو السكاني الذي شهدته ايلات بلاد الشام في القرن السادس عشر بالخصوص ، فقد كان سكان ولاية العرب التي أنشأها السلطان سليم الأول مطلع العهد العثماني حسب الإحصاء الذي أجري بين 1520 - 1535 م زمن سليمان القانوني ، ومع اعتماد المعامل 5 لأفراد الخانة الواحدة هو كما يوضحه الجدول :<sup>(1)</sup>

| ولاية العرب | المسلمون | النصارى | اليهود | المجموع | عدد السكان |
|-------------|----------|---------|--------|---------|------------|
|             | 113358   | 914     | -      | 114272  | 571360     |

يقدم الدفتر رقم 998 العائد إلى زمن السلطان سليمان القانوني معطيات عن سكان الشام في ثلاثينيات القرن السادس عشر مع أهم الأولوية التابعة لها ، ويميز الدفتر بين من هم مكلفون بدفع ضرائب العوارض وبين من هم معفون منها على غرار الموظفين والجنود والقضاة والمدرسين والخطباء والأئمة والمؤذنين ، إضافة لمن لديهم عاهات تمنعهم من الكسب ( كالأعمى مثلا ) حيث نجد عدد السكان 52336 نفرا منهم 46483 نفرا عوارض في مقابل 5853 نفرا غير عوارض وهو ما يبينه الجدول التالي :<sup>(2)</sup>

| الألوية       | عوارض (نفر) | غير عوارض (نفر) |
|---------------|-------------|-----------------|
| الشام         | 34345       | 4327            |
| غزة           | 3466        | 690             |
| الرملة        | 1172        | 245             |
| القدس والخليل | 2500        | 205             |
| صفد           | 5000        | 386             |
| المجموع       | 46483       | 5853            |

(1)- Omar Lotfi Barkan ; « Essai sur les données statistiques des registres de recensements dans l’empire ottoman aux XVe et XVIe siècles », op cit, p20.

(2) - خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ الأقطار العربية ، مرجع سابق ، ص 66.

ب -ولاية حلب :

بلغ عدد سكان حلب في الإحصاء الذي أجري في الفترة (924 - 934هـ / 1518 - 1527م) وحسب معطيات الدفتر 998 الذي يعود تاريخه إلى حوالي 938هـ / 1531م، نحو 23371 نفرا دون احتساب سكان المدينة نفسها، والذين يقدر عددهم بـ 12946 نفرا، موزعون حسب ما يبينه الجدول التالي<sup>(1)</sup> :

| خانة     | مجرد  | نفر  |       |
|----------|-------|------|-------|
| المسلمون | 11226 | 1140 | 12366 |
| النصارى  | 294   | 37   | 331   |
| اليهود   | 223   | 26   | 249   |
| المجموع  | 11743 | 1203 | 12946 |

أما عن عدد أسر العشائر التركمانية البالغ عدد 75 جماعة فيقدر بـ 18059 خانة، وبذلك يبلغ عدد سكان ولاية حلب 54276 نفرا ، وخلال فترات مختلفة من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي عرف السكات تطورا كما يوضحه الجدول التالي<sup>(2)</sup> :

(1) - خليل ساحللي أوغلي : من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق ، ص 63.

(2) - نفسه ، ص 72.

| رقم الدفتر | السنة      | المسلمون (نفر) | منهم مجرد | النصارى (نفر) | اليهود (نفر) |
|------------|------------|----------------|-----------|---------------|--------------|
| 93 إس      | 1518هـ/924 | 12366          | 1140      | 331           | 249          |
| 146 إس     | 1527هـ/932 | 9721           | -         | 253           | 368          |
| 397 إس     | 1538هـ/944 | 10014          | 724       | 270           | 00           |
| 454 إس     | 1553هـ/959 | 11509          | 2255      | 443           | 00           |
| 493 إس     | 1573هـ/979 | 8897           | 2071      | 490           | 288          |
| 640 إس     | 1584هـ/992 | 8802           | 895       | 224           | 233          |
| 39 أن      | 1584هـ/992 | 8790           | 909       | 324           | 233          |

نلاحظ دائماً تراجع لأعداد السكان في أواخر القرن العاشر الهجري بسبب الحرب مع الدولة الصفوية خاصة أن حلب كانت القاعدة العسكرية التي تنطلق منها الجيوش نحو الشرق لمواجهة الصفويين.

ويمكن القول بأن كلا من حلب ودمشق خسرتا أعدادا كبيرة من السكان وصولاً إلى سنة 1597م وهو تاريخ آخر سجل ضريبي عثماني، لكن حلب تمكنت من تجاوز الأزمة خلال القرن 17م بعكس دمشق التي عانت ركوداً خلال هذه الفترة ولم تمر بفترة نمو أكبر من المعتاد إلا بعد سنة 1700م<sup>(1)</sup>.

### ج - طرابلس:

استناداً إلى دفتر تحرير 68 العائد لسنة 1519 م فإن عدد سكان المدينة (طرابلس) وحدها 1045 نفراً من المسلمين و 280 نفراً من النصارى و 62 نفراً من اليهود بمجموع 1387 نفراً يسكنون المدينة في مقابل من يسكنون في قرى نواحي اللواء البالغ عددهم 12975 خانة و 967 مجرداً يشكل مجموعهما 13942 نفراً، ويبلغ مجموع سكان لواء طرابلس 15329 نفراً يمثل السكان الحضريون منهم نسبة 9.04% وهو ما يقارب

(1) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، 1600 - 1914 م، مج 2، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط 1، دار المدار الإسلامي، لبنان 2007، ص 83.

العشر<sup>(1)</sup>، أما خلال كامل القرن السادس عشر فيمكننا تتبع تطور سكان الايالة عبر الإحصاءات الواردة في دفاتر التحرير المنجزة بداية بالدفتر رقم 68 إس العائد لسنة 924هـ / 1519م<sup>(2)</sup>.

| الدفتري | السنة(هـ) | السنة(م) | المسلمون | النصارى | اليهود |
|---------|-----------|----------|----------|---------|--------|
| 68إس    | 924       | 1519     | -        | -       | 280    |
| 253أن   | 952       | 1547     | 1294     | 179     | 1473   |
| 513إس   | 979       | 1571     | -        | -       | 823    |
| 84أن    | 1003      | 1595     | 749      | 268     | 1017   |

من الجدول نرى بأن سكان طرابلس تأرجح بين الزيادة والنقصان بين مطلع العهد العثماني ونهاية القرن السادس عشر ولا شك بأن تأثير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وراء ذلك، فقد بلغ النمو السكاني بطرابلس ذروته عند المسلمين في منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ونفس الشيء بالنسبة لأهل الذمة النصارى واليهود، ولعل ما يفسر ذلك هو الصراع السياسي بين مكونات طرابلس والنزاع بين آل سيف وآل عساف في ظل التركيبة العشائرية والقبلية بين هذه الأطراف، لكنه بدأ في التراجع عند المسلمين حتى سنة 1571م، وكذلك حدث عند النصارى واليهود وإن كان بشكل بطيء قبل أن يتحسن الوضع في أوائل القرن الحادي عشر الهجري / أواخر القرن السادس عشر الميلادي، ويذكر بأن طرابلس شهدت قبل إحصاء سنة 1571م انطلاق حملة عسكرية عثمانية باتجاه جزيرة قبرص حيث هلك

(1) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 74.

(2) - هناك اختلاف في عدد السكان بالنسبة لطرابلس بين عدة باحثين، ففي حين يقدر خليل ساحلي أوغلي عدد المسلمين بـ 1045 نفر، والنصارى بـ 280، واليهود 62، فإن عصام خليفة يقدر عددهم بـ 1183 مسلمون، 295 نصارى، و90 يهودا. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، ص 78، عصام خليفة: "الديموغرافيا التاريخية لطرابلس في القرن السادس عشر" المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية 1516 - 1918م "الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، يومي 27 - 28 ماي 1995، ص 249.

الكثير من المسلمين ، وكان قائد الحملة العسكرية هو مصطفى باشا عربيا وبالتالي يرجح أن يكون عدد غير قليل من ذكور طرابلس المسلمين في عداد المشاركين في هذه الحملة<sup>(1)</sup>

أما في أواخر القرن السادس عشر فإن سكان الإيالات الثلاث (الشام - حلب - طرابلس) فقد كان كالتالي<sup>(2)</sup> :

| الايالة | عدد السكان  |
|---------|-------------|
| الشام   | 118059 نفرا |
| طرابلس  | 57425 نفرا  |
| حلب     | 85087 نفرا  |
| المجموع | 260571 نفرا |

أما إذا أردنا أخذ فكرة عن السكان في الألوية فسنعرض للسكان في كل من لواء حماة ولواء القدس الشريف ، فبالنسبة للواء حماة التابع لإيالة طرابلس وبالاغتماد على دفتر الإحصاء رقم 92 أنقرة العائد لسنة 1002 هـ / 1593 - 1594م نجد سكان اللواء كما يلي<sup>(3)</sup> :

| المسلمون | خانة  | مجرد | نفر   |
|----------|-------|------|-------|
| المسلمون | 12211 | 2899 | 15110 |
| النصارى  | 1697  | 117  | 1814  |
| اليهود   | -     | -    | 125   |
| المجموع  |       |      | 17049 |

(1) - عصام خليفة ، نفسه ، ص244.

(2) - ساحلي أوغلي ، مرجع سابق ، ص85.

(3) - نفسه ، ص78.

وبالنسبة للواء القدس الشريف واستنادا إلى الإحصاء الأول الذي أجرته السلطة العثمانية بعد الدخول إلى بلاد الشام بعشر سنوات ، أي 932هـ / 1525م تبين نتائج المسح أن عدد السكان من المسلمين والنصارى واليهود كان على النحو التالي: <sup>(1)</sup>

| الناحية                   | المجموع               | المسلمون |      |     | النصارى |      |     | اليهود |      |     |
|---------------------------|-----------------------|----------|------|-----|---------|------|-----|--------|------|-----|
|                           |                       | خانة     | مجرد | نفر | خانة    | مجرد | نفر | خانة   | مجرد | نفر |
| القدس : مدينة             | 941                   | 628      | 2    |     |         |      | 119 |        |      | 199 |
| القدس : قرى<br>الناحية    | 1397                  | 1021     | 108  | 10  | 358     |      |     |        |      |     |
| الخليل : المدينة<br>نفسها | 133                   | 133      |      |     |         |      |     |        |      |     |
| الخليل : قرى<br>الناحية   | 215                   | 161      |      |     | 54      |      |     |        |      |     |
| بني عامر                  | قراها خالية من السكان |          |      |     |         |      |     |        |      |     |

يلاحظ من الجدول قلة وجود المجردين (العزاب) في لواء القدس باستثناء قرى ناحية القدس ، وفي المقابل خلو ناحية الخليل من المجردين ، كما أن الأئمة عددهم ضئيلا جدا مقارنة مع عدد السكان ، وما يلفت النظر هو أن ناحية بأكملها وهي ناحية بني عامر كانت في هذه الفترة خالية من السكان ، ويبقى التساؤل حول سبب ذلك وهل هو راجع إلى تدهور الظروف الأمنية أم أن محرر الدفتر لم يقم بإحصائها ، لكن عندما نقارن بين هذا الوضع في عدد السكان في إحصاء سنة 932هـ / 1525م والإحصاء الذي أجري

<sup>(1)</sup> - لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد والغزة (غزة) والقدس الشريف من دفتر تحرير رقم 427، سبق ذكره ، ص 29.

بعد ثلاثين سنة أي في سنة 963هـ / 1555م بحسب دفتر تحرير رقم 516 نجد المعطيات قد تغيرت على النحو التالي :<sup>(1)</sup>

| رقم الدفتر | السنة (هـ) | السنة (م) | المسلمون |      | النصارى |      | اليهود |      |
|------------|------------|-----------|----------|------|---------|------|--------|------|
|            |            |           | خانة     | مجرد | خانة    | مجرد | خانة   | مجرد |
| 427        | 932        | 1525      | 2143     | 110  | 531     |      | 199    |      |
| 516 إس     | 963        | 1555      | 8819     | 524  | 898     | 67   | 67     |      |

من خلال الجدول نلاحظ تنامي عدد السكان وهذا يعود بالأساس إلى عودة الأمن والاستقرار.

## ثانيا - السكان بحسب التقسيم الوظيفي :

ينقسم المجتمع<sup>(2)</sup> في المفهوم العثماني إلى فئتين كبيرتين هما أساس النظام والسلم في المجتمع : إحدى هاتين الفئتين هي فئة الحاكمين (فئة العسكر)،<sup>(3)</sup> وهي الطبقة الإدارية والعسكرية التي كان أفرادها يقومون بوظائف عامة كممثلين للسلطان الذي اعترف لهم بمرسوم خاص منه بصلاحيات دينية أو إدارية وظيفتها تطبيق أحكام الشرع الإسلامي والقوانين العثمانية العرفية وضمان سيادة العدل ورفاهية الأهالي ، وكانت تبعا لذلك معفاة تماما من الضرائب ، أما الفئة الثانية فهي فئة المحكومين (الرعايا) وتتكون من الفلاحين

(1) - لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد والغزة (غزة) والقدس الشريف من دفتر تحرير رقم 427، سبق ذكره، ص 31 .

(2) - تعود أسس تشكل المجتمع العثماني وفلسفة إدارته إلى الصيغة التي يطلق عليها العثمانيون دائرة العدل وهذا المعنى يعود إلى زمن الساسانيين وقام بتوضيحه الوزير نظام الملك الطوسي بحيث يتحقق السلم الاجتماعي بالعدالة فلكي تتحقق العدالة لابد من وجود دولة و الدولة يلزمها جيش قوي ، وتكوين الجيش يتطلب ثروة تؤديها الرعية المنتجة بشرط أن تشعر هذه الرعية بالعدل والأمان ، وسيرا على هذا فإن عناصر العدالة والدولة والسيادة والجيش والثروة والأهالي تشكل مجتمعة حلقات " طوق الحاقانية" وتمثل في الوقت نفسه الركائز الأساسية لبناء المجتمع ، فإذا انعدمت حلقة من تلك الحلقات أدى ذلك إلى انهيار الدولة وتفكك المجتمع. أنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة، مج 1 ، ترجمة صالح سعداوي، ط 2 ، دار الشروق الدولية، القاهرة، 2010، ص 526 ، خليل إينجليك، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، ط 1، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2002، ص 104 .

(3) - نشير إلى أن مصطلح "عسكر" لا يعني الجنود فقط ، فهو في المفهوم العثماني يشير إلى كل الذين هم معفون من الضرائب بمن فيهم الموظفون والجنود ، في مقابل فئة الرعية المؤدية للضرائب ، فالتقسيم هنا بحسب الوظيفة فقط. أنظر كذلك : أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 467.

والتجار والحرفيين الذين لا يشاركون في الحكم بأي شكل من الأشكال وتضم جماعات تنتسب لأديان وأعراق مختلفة ووظيفتها دعم فئة الحكام عن طريق الانتاج وتأدية الضرائب،<sup>(1)</sup> وفهم تركيب المجتمع استوجب تناول هاتين الفئتين من كل جوانبهما سواء من حيث الوظيفة، أو الانتماء الديني، أو نمط الإستيطان .

## 1 - فئة العسكر:

تشمل الموظفين الإداريين المكلفين من السلطان العثماني وهؤلاء على النحو التالي :

1 - أ - أهل السيف (أهل العرف) : مع أن الوظيفة الأساسية لهذه الفئة هي الجندية إلا أنها كانت تتولى الوظائف الإدارية وتنقسم إلى قسمين : أحدهما يخضع لنظام التيمار والثاني لنظام القبوقولية.<sup>(2)</sup>

- أصحاب التيمار :

تتكون الفئة من الجنود السباهية وهم من الخيالة ، والمعروف أن الدولة لم تكن تجمع الضرائب من الرعايا بنفسها بل كانت تقسمها إلى وحدات باسم (ديرلك)<sup>(3)</sup> وتعطيها للسباهية مقابل خدماتهم العسكرية.<sup>(4)</sup>

(1) - هاميلتون جب، وهارولد بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ترجمة أحمد أيش، ج1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط1، أبو ظبي 2012، ص 298، خليل اينالجيک " الدولة والرعايا " ترجمة عبد اللطيف الحارث، مجلة الاجتهاد، العددان الواحد والأربعون والثاني والأربعون، السنة العاشرة، شتاء وربيع 1999، دار الاجتهاد بيروت، ص 88.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص 533.

(3) - ديرلك Dirlik بمعنى معاش أو مصدر رزق في شكل أرض تمنحها الدولة للخيالة يستغلونها في مقابل تلبيتهم داعي القتال مع عدد مناسب من الجند على نفقتهم الخاصة ، وتتفاوت هذه المعاشات كما يتفاوت معها عدد الجند الذي يتوجب على صاحب المعاش (الديرلك) تقديمه، فالذي يقل إيراده عن ثلاثة آلاف أقة، يقدم نفسه للقتال لوحده، فإذا زاد عن ذلك قدم جنديا مسلحا (جبه لو) كامل العدة عن كل ثلاثة آلاف أقة إذا كان من درجة تيمار، وجنديا مسلحا واحدا عن كل خمسة آلاف أقة إن كان إقطاعه من درجة زعامت أو خاص. عبد الكريم غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث 1500 - 1918، ج1، مطبعة جامعة دمشق، 1960، ص ص 69 - 70.

(4) - يطلق اسم " التيمار " على مجموعة الوحدات التي تدر دخلا سنويا يتراوح 1000 و 20000 أقة، وكلمة " زعامت " على مجموعة الوحدات التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين 20000 و 100000 أقة، أما الوحدات التي تفوق ذلك فيطلق عليها " خاص ". المرجع السابق، ص 534.



- القبولية : يمثلون الجيش الدائم للدولة العثمانية ، ويشكلون الحامية العسكرية في الولايات ، وكان الأساس في تشكيلهم هو أخذ الخمس من أسرى الحرب وتعليمهم وتدريبهم ثم تطور إلى الدفشمرة أي الجمع والاختطاف<sup>(1)</sup> ووصل عدد هؤلاء عند وفاة السلطان سليمان القانوني 7745 غلاما يتقاضون أجورا أربعة مرات في السنة باسم (علوفة) ، وكانت في كل مدينة أو قلعة مجموعة منهم قبل أن تظهر مجموعة أخرى باسم اليرلية (المحلية) كما حدث في دمشق.

ب - رجال الهيئة العلمية : وهي الفئة الثانية من العسكريين ويطلق عليها اسم (أهل الشرع) وهي الفئة المسؤولة عن شؤون الدين والقضاء والتعليم والتربية وتتكون من القضاة والكتابة الشرعية وإدارة الشؤون المحلية في الأقضية إضافة إلى الأئمة والمؤذنين ومشايخ الطرق الصوفية والسادة الأشراف من آل البيت النبوي .

ج - رجال القلمية : يتولون إدارة الشؤون المالية ، ولأن الأمور والمعاملات السرية في الدولة كانت ضمن نطاق عمل هذه الفئة فإنه كان يراعى الدقة في اختيار المرشحين لها ، وكثيرا ما كان يتم تفضيل الكتبة الذين عرفوا بالصدق والأمانة والإخلاص ومنهم الدفتر أمني والدفتردار وغيرهما.

#### 1. أ - أهل السيف (أهل العرف) : تشمل :

- أصحاب التيمار ، ومنهم :

- البكلربكي :

يمثل البكلربكي رأس الحكم في الإيالة ، فهو وكيل السلطان والمفوض لرعاية شؤون رعيته في إيالته ، وهو القائم على الشؤون العسكرية للإيالة ،<sup>(2)</sup> وتعني كلمة "بكلربكي" أو "بيلربكي" في اللغة التركية (أمير الأمراء) مثلما تعنيه في اللغة الفارسية كلمة "ميرميران"<sup>(3)</sup> وكان منصب البكلربكي يلي منصب الوزارة ، بل

(1) - عملية تقوم بها الدولة العثمانية تبعا لحاجتها كل ثلاثة أو خمسة أعوام أو على فترات أطول ، فيأخذون غلاما من كل أربعين دارا من غلمان المسيحيين ، يكون صحيح البنية ، فطنا ، يتراوح عمره بين ثمانية أعوام وعشرين عاما ، ويستغرق تعليمهم وتدريبهم في الغالب ثمانية أعوام ، يلتحقون بعدها بفرق الانكشارية. نفس المرجع ، ص ص 536 - 537.

(2) - يلماز أوزتونا : موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية : السياسي والعسكري والحضاري (1231 - 1922) ، مج 4 ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، ط 1 ، الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان ، 2010 ، ص 618.

(3) - فاضل بيات ، (إعداد و ترجمة) ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (975 هـ / 1567 م - 977 هـ / 1570 م) ، ج 2 ، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام / 34 ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 2006 ، ص 300.

وأصبح الوزراء يتقلّدون منصب البكربكي في القرن 17م، فكان البكربكي يُذكر باسم "وزير"<sup>(1)</sup> يحمل ثلاثة أطواغ<sup>(2)</sup> بل وأن البعض وصل إلى رتبة الصدر الأعظم<sup>(3)</sup> مما يبين مكانته في إدارة شؤون الولاية وتجسيد سياسة الدولة فيها.

يُعيّن البكربكي بموجب مرسوم سلطاني يسمى (برات)<sup>(4)</sup> وفق معيار كفاءته ومقدرته في الغالب،<sup>(5)</sup> واختلفت مدة التعيين لشغل هذا المنصب، خاصة في بداية الحكم العثماني مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، فقد تولى المنصب ثلاثة عشر بكربكيا بين 922 و 942هـ<sup>(6)</sup>، ومنذ أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر الميلادي، بدأت المدة تستقر عند سنة واحدة وربما أقل، فكثر حركة التغييرات حتى أن الأهالي أنفسهم بدأوا يشكون من ذلك<sup>(7)</sup> لكن السبب في تحديد المدة المدة يعود إلى كثرة الوزراء والإداريين في الدولة أواخر القرن السادس عشر، ممّا أصبح يشكّل عبئاً على الدولة وعلى الأهالي.

(1) - في سنة 1022هـ / 1616م وجه الديوان الهمايوني في الدولة العثمانية حكماً إلى والي الشام أحمد باشا الحافظ بصفته وزيراً. M.D. 80,N 365,in: ABU HUSAYNE, Abdul-Rahim , THE VIEW FROM ISTANBUL: OTTOMAN LEBANON AND THE DRUZE EMIRATE, op cit, p78.

(2) الطوغ: ذيل حصان، كدلالة وشارة للقيادة، يوضع في مقدمة الرأس. أنظر: - D'ohsson (M), Tableau general de l'Empire Ottoman, TVII, imp.de Firmin Didot, Paris, s.d.ed, p276

(3) - يذكر لطفي باشا وزير السلطان سليمان القانوني بين 1539 - 1541م بأنه "عندما كان في الحرم الخاص في الداخل تلقى غاية المعرفة، ثم خرج من صف الخدم براتب قدره 50 أقة، فصار من مقدمي الطعام للسلطان والوزراء، ثم حاجباً ثم حامل العلم، ثم عين على سنجق قسطنطيني وبعدها ترقى إلى بكربكية قرمان ثم الأناضول، وأخيراً تقلد منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان سليمان القانوني سنة 1539م". أنظر: قانون بني عثمان المعروف بـ (أصف نامه)، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1911م، ص 05.

(4) - برات: كلمة عربية أصلها من البراء وتعني الرسالة، وأطلقت في الدولة العثمانية على الفرمانات التي صدرت للتعيين في وظيفة، أو منح وسام أو امتياز أو غير ذلك، وتستخدم بدلاً عنها أحياناً كلمة "منشور" أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، سبق ذكره، ص ص 59 - 60.

(5) - تغيرت الأمور منذ النصف الثاني للقرن السادس عشر الميلادي حيث أصبح اختيار الأمراء يتم على أساس الولاء للسلطان. سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر الميلادي - دراسة وثائقية، مرجع سابق، ص 172.

(6) - يورد محمد بن طولون قائمة بأسماء الولاة الذين تقلّدوا هذا المنصب في دمشق الشام - وهو أحد الشهود المعاصرين للفترة - مع ذكر تواريخ التعيين والعزل. إعلام الوري بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، مصدر سابق، ص ص 235 - 264.

(7) - خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث وأن كان البكربكي ينتقل خلال عام واحد بين عدة إيالات وهو ما جعله يطالب الأهالي بنفقات سفره التي تشكل مبلغاً طائلاً. أنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ص 253 - 254.

خصّصت الدولة للبكربكي موارد مالية لتغطية نفقاته ودفع رواتب رجاله<sup>(1)</sup>، مع الإقامة في السنجق المركزي للإيالة والذي يعرف عادة بسنجق الباشا، حيث يوجد مقرّه وهو سراي الباشا أو مقرّ الإمارة في منطقة الروضة (بالنسبة للشام) ومنه يؤدي مهامه، وترأس ديوان إيالته.

تتوزّع مهام البكربكي على الجانبين العسكري والإداري، ففي أوقات السلم يعمل البكربكي على إدارة الإيالة وحفظ الأمن فيها، وحماية السكان من اللصوص والأشقياء، وتنفيذ الإجراءات والتعليمات التي تُرَدُّه من الديوان الهمايوني، و من خلال الأحكام السلطانية الصادرة عن الديوان الهمايوني إلى البكربكي يمكننا التعرف على مختلف المهام الموكلة إليه<sup>(2)</sup> والتي يمكن تحديدها في النقاط التالية :

إدارة شؤون إيالته وتعيين الموظفين وتبليغ الأحكام السلطانية إلى أمراء السناجق

توفير الأمن وحماية الأهالي من اعتداءات اللصوص و الأشقياء وقطاع الطرق

التقصي والتفتيش حول التجاوزات الصادرة عن أمراء السناجق وباقي رجال الدولة في إيالته

توزيع التيمارات وحلّ المشاكل والخلافات الناشئة حولها

السهر على حماية خواص الدولة وأملاك الأوقاف

الإشراف على تحصيل الأموال في إيالته

---

(1) - حدّد قانوننامه للبكربكي ي " خاصاً" يتراوح دخله بين 800.000 أفجة و1200.000 أفجة، إضافة إلى الهدايا التي يحصل عليها، ينفقها على نفسه وعلى العاملين في إدارته، أمّا إذا أُحيل على التقاعد فإنّ الدولة تخصص له راتباً حدّده قانوننامه بمائة ألف أفجة. لطفي باشا، آصف نامه، مصدر سابق، ص15، خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص545.

(2) - إعتدنا في بحثنا كثيراً على الأحكام السلطانية الموجودة في دفاتر المهمة ( مهمة دفتري) وهي تلك الدفاتر التي كانت تُدوّن فيها الأحكام السلطانية التي تصدر عن الديوان الهمايوني خلال اجتماعاته التي يجريها أربع مرات خلال الأسبوع، برئاسة الصدر الأعظم، و يحضرها كلّ من وزراء القبة وقاضي العسكر، والدفتردار (مسؤول المالية)، والنيشانجي (حامل ختم السلطان)، لمناقشة القضايا التي تهّم الدولة، و يقوم رئيس الكتاب في الديوان بالتدقيق فيها، وتقديمها للسلطان للمصادقة عليها، ثم إرسالها إلى موظفي الدولة مثل أمراء الأمراء وأمراء السناجق والدفتردارية والقضاة لتنفيذها، وقد أمدّتنا -هذه الأحكام - بمعلومات متنوعة عن الجوانب السياسية والإدارية والمالية والقضائية وحتى العُرفية التي تمّ تداولها ومناقشتها، و بالتالي فهي تعكس الصورة الحقيقية للفترة التي أُعدّت فيها، وهي تغطي مدّى زمنيّاً واسعاً يمتد من أواسط القرن السادس عشر إلى غاية مطلع القرن العشرين، وقد ركّزنا في دراستنا على الدفاتر التي تغطي الفترة الممتدة من منتصف القرن 10هـ إلى مطلع القرن 11هـ (القرنين 16م و17م).

## الاهتمام بالشؤون العامة المرتبطة بالأهالي

وأهم عمل يرتبط ببكلربكي الشام هو الإشراف على سلامة وأمن وراحة الحجاج وقافلة الحج.

أمّا في أوقات الحرب فكانت مهمته قيادة قوات إيالته في الحملات السلطانية رفقة أمراء سناجقه وسباهييه،<sup>(1)</sup> ويذكر الصدر الأعظم لطفي باشا بأنه يمكن أن يتم تعيين البكلربكي نفسه سردارا (أي بمعنى قائدا للجيش)،<sup>(2)</sup> إلى جانب حفظ الأمن<sup>(3)</sup> ومنع أي تجاوزات في حق الرعية في إيالته،<sup>(4)</sup> وإصدار أوامره لأمراء السناجق للتحرك ضد العصاة.<sup>(5)</sup>

إن هذه الأحكام تشير إلى حرص البكلربكي والدولة التي يمثلها على التصدي لكل من يمس بأمن

(1) - صدر حكم سلطاني موجه إلى بكلربكي الشام بتاريخ 19 ذي الحجة 951هـ / فاتح فيفري 1541م من قِبَل السلطان سليمان القانوني - وهذا عند عزمه الخروج في حملة سلطانية إلى شرق أوربا - وما ورد فيه: "عند وصول حكومي هذا تقوم وبلا تأخير أو تهاون -ولو للحظة واحدة - بمقتضى أمري الشريف بتهيئة جنود لوائك ومقاتلي التيمار، وتجهيزهم بالمعدات وآلات الحرب..." ويضيف السلطان في رسالته محدّرا: "وسأقوم بنفسي بتفقد الجنود..." مهمة دفترتي 12321، تسلسل 192 - 193، ص 81ب - 85ب. نقلا عن: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، المجلد الأول، سبق ذكره، ص 292 - 294.

(2) - أحسن مثال هو ما قام به الوزير أحمد باشا الحافظ بكلربكي الشام في قيادة قوات إيالة دمشق و حلب وديار بكر عندما قررت الدولة العثمانية وضع حد لتمرد الدروز في جبل لبنان. آصف نامة، مصدر سابق، ص 11.

(3) - في سنة 988هـ / 1559م قام بعض أهالي القرى في لواء الشام بإلحاق الأذى والقيام بنهب وسلب أرزاق وأموال أهالي آخرين ممن لا يتبعون أهواءهم ودون إطاعة الأمر الشريف، فصدر الأمر إلى البكلربكي بالتحرك فوراً لمحاربة أهل الفساد والشناعة (المقصود بهم مثيري الاضطرابات) وهذا بمقتضى الشرع والقانون، وأمره ألا يبدد دقيقة واحدة من أجل إعادة الأمن والأمان في البلاد، والرفاهية والاطمئنان للرعية. مهمة دفترتي 3، ص 121 الحكم 315. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ص 161 - 162.

(4) - ورد إلى الديوان الهمايوني خبر قيام الأعراب في نواحي حمص بالاعتداء على الرعايا، لذلك صدر الأمر بإرسال أمير الآلاي ليتوجه بسرعة لأجل حفظ وحراسة اللواء المذكور و الحيلولة دون إلحاق أهل الفساد الضرر بالأهالي مهمة دفترتي 3، ص 116، الحكم 297. نقلا عن: فاضل بيات، (إعداد وترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (1544هـ / 1566م - 973هـ / 1566م)، ج 1، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 2005، ص 158 - 159.

(5) - في جمادى الأولى 978هـ / أكتوبر 1570م أرسل قاضي طرابلس يشتكي من قيام العصاة في اللواء باعتراض سبيل الرعايا وسلبهم واستغلالهم، و لم ينحصر نشاطهم في منطقتهم فحسب، بل امتد فسادهم إلى نواحي دمشق، فصدر الأمر الشريف إلى بكلربكي الشام بأن: "تعيّن أمراء سناجق أكفاء من الشام، وإرفاقهم جمعا من الإنكشارية ليقوموا مع سباهيهم بحفظ الأماكن التي يستلزم حفظها وحراستها بالوجه المناسب"، كما يذكره بأن "تحول دون قيام أحد بالفساد والشناعة على الوجه المشروح وعدم إلحاق الأذى والضرر بأي شخص، ولا تبديد دقيقة واحدة في ذلك". مهمة دفترتي 14، ص 399، تسلسل 557. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ج 3، ص 101 - 102.

وسلامة الرعاية<sup>(1)</sup> والتأكيد على ضرورة التقصي والتحقيق، ومن ثمّ اتخاذ الإجراءات المناسبة ووفق ما يقتضيه الشرع والقانون، وفي نفس الوقت تؤكد هذه الأحكام على عدم تعميم العقوبة على الجميع، بل على من يثبت عليهم الجرم والفساد فقط.<sup>(2)</sup>

كما اضطلع بكليركي الشام بالخصوص بالإشراف تسيير قافلة الحج نحو البقاع المقدسة انطلاقاً من دمشق، واقترح أمير ركب الحج الشامي،<sup>(3)</sup> وكان من صلاحياته أيضاً - وفق القانون الذي أصدره سليمان القانوني سنة 1530م - الحق في منح التيمارات الصغيرة دون الرجوع إلى الديوان الهمايوني.<sup>(4)</sup>

وكان ديوان الإيالة هو المكان الذي تناقش فيه جل الأمور الإدارية والعسكرية، وهو يشبه تماماً الديوان الهمايوني الذي يعقد في عاصمة الدولة<sup>(5)</sup> ويتشكّل أساساً من: البكليركي، أمراء السناجق، آغا

(1) - احتلت الرعاية مكانة هامة في أدبيات الحكم العثماني، فاعتبرت من (أولي النعمة)، وهو ما صرح به السلطان سليمان القانوني بقوله: "ولي نعمة الناس هم الرعايا وأهل البلد الذين يهجون راحتهم بالانصراف إلى أمور الزرع والحراث لاكتساب النعم وإطعامنا بها" أنظر: أحمد أق كوندوز، وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة: 303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، 2008، ص 607.

(2) - عندما حلّ الوزير أحمد باشا الحافظ بدمشق فإن أول عمل قام به هو التخلص من أمير الآلاي الذي وصله خبر قيامه بالتعدي على الرعاية، وهذا كبادرة منه لسكان دمشق الشام عن حرصه على إقامة العدل وردع الظالمين. محمد البوريني (ت. 1024هـ/1615م)، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج1، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1959، ص 201.

(3) - صدر الحكم السلطاني من الديوان الهمايوني لبكليركي الشام أن يعين دفتراره أميراً للحج أو يعين أمير غزة، على أن يقوم باختيار الأنسب حسب ما يراه، ولا يكتفي بتعيين أمير الحج فقط، بل عليه أن يلتزم بتهيئة جميع احتياجات ومستلزمات القافلة. مهمة دفترتي 14، ص 814، تسلسل 1184. نقلا عن: فاضل بيات، (إعداد و ترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (977هـ/1570م - 979هـ/1572م)، ج 3، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام/36، الجامعة الأردنية، عمان، 2007، ص ص 135 - 136.

(4) - صدر حكم سلطاني في 22 ربيع الأول 976هـ/14 سبتمبر 1568م موجه إلى بكليركي الشام يأمره بأن ينظر في الاقتراح الذي تقدم به قاضي تدمير ببناء قلعة على أطراف البادية تسمح باستغلال الأراضي الزراعية المتروكة هناك، وإمكانية توزيعها على شكل تيمارات تنعم من خلالها المنطقة بالإعمار، كما تنتفع الحزينة العامة في نفس الوقت مهمة دفترتي 7، ص 736، الحكم 2085. نقلا عن: فاضل بيات (إعداد و ترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (975هـ/1567م - 977هـ/1570م)، ج 2، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام/34، الجامعة الأردنية، عمان، 2006، ص ص 192 - 193.

(5) - فضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 50.

الجيش، الجاوش،<sup>(1)</sup> الكتخدا (المتسلم)، القاضي، الروزنامه جي،<sup>(2)</sup> المحاسبه جي، أفندي الديوان، المترجم، كتاب الأقلام الديوانية .

وبنفس عمل الديوان الهمايوني فإننا نجد في ديوان الإيالة بأن البكلربكي يعرض المسائل الهامة والمستعجلة خاصة الأمنية منها أولاً، أما المسائل القضائية والمسائل المالية فيعرضهما على القاضي والدفتردار على التوالي، والملاحظ بأنه في بعض الأحيان نجد بأن القضايا الشائكة أو المستعصية الحل تُرفع إلى الديوان الهمايوني<sup>(3)</sup> .

كان البكلربكي يقدم عرضاً حول سير الأمور في إيالته يرسله إلى الديوان الهمايوني ليطلع عليه على أحوال السناجق عموماً، كما يشير إلى بعض الحالات الأمنية إن رأى ضرورة في استشارة الديوان الهمايوني<sup>(4)</sup> .

ورغم الصلاحيات الممنوحة للبكلربكي، فإن الدولة العثمانية سعت - باستمرار - لإيجاد توازن حساس بينه وبين القاضي وبينه وبين الدفتردار، إذ أن كل واحد من هؤلاء كان يتمتع بصلاحيات مخاطبة الديوان الهمايوني، وقلماً كانت هذه المراسلات تمر بدون جدوى<sup>(5)</sup>، لهذا نجده يحجم عن التدخل في

(1) - مبعوث أو رسول يبلغ قرارات البكلربكي أو ديوان الإيالة كما يمكن أن يقوم بدور مسؤول التشريفات في السراي وأثناء انعقاد جلسات الديوان.

- SOMEL, Selcuk Aksin, historical dictionary of the Ottoman Empire, the scare crow Press, Inc, Oxford, 2003, op.cit, p68.□

(2) - ممسك الدفاتر اليومية، خليل ساحللي أوغلي، مرجع سابق، ص239.

(3) - نشير هنا إلى أن بعض القضاة في الإيالات أو المناطق النائية الذين يخشون أن يقعوا تحت ضغوط ما - إذا كان أحد أطراف القضية مسؤولاً أو متنفذاً في الإيالة - فإنهم يتحججون بعجزهم عن حلّها، ويرفعونها عمداً إلى الديوان الهمايوني مفضلين ذلك على ألا يقعوا تحت تأثير هذه الأطراف.

(4) - الحكم المؤرخ في 17 ربيع الأول 978هـ/ 18 أوت 1570م الصادر عن الديوان الهمايوني إلى بكربكي الشام من أجل القضاء على الفتن والنزاعات واستعادة الهدوء، وهذا استجابة لطلب البكلربكي الحصول على الدعم لمواجهة الاقتتال الدائر بين بعض الطوائف في إيالته، مقترحاً أسماء أميرى حماة و حمص لضبط تلك الأجزاء، وأن يتم إعفاءهما من المشاركة في الحملات العسكرية بغية التفرغ لهذا الإشكال، فاستجاب الديوان لطلبه على الفور . مهمة دفترى 14 ص 285، تسلسل 409. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج3، سبق ذكره، ص83.

(5) - كثيراً ما تعرض البكلربكي إلى المساءلة أو العزل بناء على شكوى تقدم بها القاضي في منطقتة . فاضل بيات: "النظام القضائي القضائي في الولايات العربية في العهد العثماني"، الأمة العربية في العهد العثماني، م5، المنظمة العربية التربية والثقافة والعلوم، تونس، 2007، ص175.

اختصاصات القضاة<sup>(1)</sup> أو المسائل المالية للدفتردار<sup>(2)</sup>.

تعكس صرامة السلطة العثمانية في تعاملها مع موظفيها سياستها العامة التي قللت -إلى حدّ كبير - مما يمكن أن يكون حركات عصيان وتمرد من قِبَل الوُلاة، فعَدَا ما قام به الغزالي في دمشق وعلي باشا جانبولا ط في حلب ، لا يمكن الحديث فعلاً عن حركات تمرد حقيقية ضدّ الدولة العثمانية، حتى إذا جاء القرن 18م أخذ الوضع شكلاً آخر مع وُلاة آخرين.

#### -السنجق بكّي:

يُعَيِّن أمير السنجق<sup>(3)</sup> من بين عساكر المتفرقة<sup>(4)</sup> أو من بين أمراء المواكب (آلاي بك)<sup>(5)</sup> والكتخدا<sup>(6)</sup> ودفتر دار التيمار<sup>(7)</sup> وكذا من بين أبناء الأمراء<sup>(8)</sup>، ويضيف **عين علي أفندي** في رسالته كُلاً من من النشائجي ورئيس البوابين وأغا السلحدارية<sup>(9)</sup> وأمير آخور<sup>(10)</sup>، وهذا بناء على توصية من البكلربكي

(1) - يذكر محمد البوريني في (تراجم الأعيان) بأن أمير الأمراء أحمد باشا المعروف بـ "شمسي" الذي ولاه السلطان سليمان القانوني إمارة الأمراء بالشام والذي اتصف بقلّة ضرره بالناس وكثرة نفعه لهم، لكن وبسبب خلافه مع قاضي قضاة الشام محمد أفندي (ابن شيخ الإسلام أبي السعود أفندي)، فعرض كلاهما الأمر على الديوان الهامبوني، فصدر الأمر بعزلهما الإثنين معاً، فعُيِّن أحمد باشا شمسي في سيواس وأعطى القاضي محمد أفندي قضاء حلب. تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 188.

(2) - Inalcik, Halil, the Ottoman empire, the classical age 1300-1600 2nd published, London, 2000, p07.

<sup>3</sup> أمير السنجق = سنجق بكّي أو (سنجق بيّي) أو (أمير اللواء = ميرلوا). خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 501.

(4) - المتفرقة: أحد أفراد النخبة في البلاط السلطاني وهو من أبناء الباشاوات والحكام التابعين لهم. أنظر: خليل إينالجي، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص 341.

(5) - أمير المواكب (آلاي بك) قائد السباهية في المنطقة؛ مهمته الأساسية جمع مقاتلي التيمارات وتنظيمهم ليكونوا تحت إمرة السنجق بكّي. أنظر: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، سبق ذكره، ص 298.

(6) - الكتخدا: وكيل البكلربكي وينوب عنه في أعماله. أنظر: خليل إينالجي، المرجع السابق، ص 340.

- فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 385.

(7) - دفتر دار التيمار: المسؤول عن الأمور المتعلقة بالإقطاع في الإيالة. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، ص 305.

(8) - أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 261.

- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 60.

(9) - أغا السلحدارية، أمين السيوف السلطانية. أنظر: إينالجي، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، مرجع سابق، ص 343.

(10) - أمير آخور: المسؤول عن إسطنبول السلطان وخيوله. نفسه، ص 340.



حول ما إذا كانت له الكفاءة والمقدرة على تولّي سنجقه<sup>(1)</sup> والتعاطي مع الأوضاع الاستثنائية التي قد تحدث هناك<sup>(2)</sup>.

تخصّص الدولة للأمير السنجق إيراداً سنوياً يختلف حسب الخدمات التي يقدمها، وكذا حسب بلائه في الحروب<sup>(3)</sup>، أمّا عند تقاعده؛ فإنه يحصل على معاش<sup>(4)</sup>، وتمثل مهامه أساساً في الحفاظ على الأمن<sup>(5)</sup> ومتابعة الأشقياء والعصاة وقطاع الطرق<sup>(6)</sup>، ويخرج على رأس قوات سنجقه ومع سباهييه للمشاركة في الحملات السلطانية<sup>(7)</sup>، كما يعهد إليه تولي إمارة الحج، وترسل له براءة تعيين<sup>(1)</sup>.

(1) - سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر الميلادي: دراسة وثائقية في النظم الإدارية والعسكرية والمالية والمالية والقضائية، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997، ص 224.

(2) - قدم الصدر الأعظم سنان باشا نفسه مذكرة إلى السلطان العثماني ذكر فيها أن مطفقجي زاده أحمد باشا طاعن في السن ولا يمكنه كبح جماح العصاة والمفسدين في نواحي حلب الذين كثيراً ما يُحدثون اضطرابات كبيرة فيها. فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 184.

(3) - يشير عين علي أفندي في رسالته بأنّ المبالغ كانت متفاوتة، فأغا السنجق يمنح أكثر من مائتي ألف أقة، أمّا الدفتردار والنشائي وأمير العلم فيمنحون السنجق بأربعمائة ألف أقة، وأغا الانكشارية بخمسمائة ألف أقة، هذا في السناجق التابعة للإدارة المركزية التي يُطبّق فيها التيمار، بينما تلك التي يُطبّق فيها نظام الساليانة تُخصّص للأمير السنجق مخصّصات سنوية محدّدة. خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 625.

(4) - حصل إبراهيم الطالوي الدمشقي أمير لواء نابلس على مقدار من المال للتقاعد يُقدّر بحوالي أربعمائة دينار على منصب السنجقية نفسه، ص 311.

(5) - IMBER (C), the Ottoman empire (1300-1650) the structure of power, 1st published, palgrave Mcmilan, new york, 2002, p190.

(6) - في صيف 978هـ/1570م استغلّ قطاع الطرق وأهل الفساد فرصة خروج أمراء سناجق حماة والمرة والسلمية - وكلّها مجاورة للواء حمص - للمشاركة في الحملة السلطانية مع سباهيهم فأرسل أمير سنجق حمص إلى الديوان الهمايوني يعرض عليه الأمر، وبأن الطريق الممتدة بين دمشق و حلب أصبحت في قبضة قطاع الطرق وخاصة وأنه موسم الحصاد وموعد مرور قافلة الحج، وبدورهم ناشد أعيان الولاية الديوان الهمايوني بالتدخل العاجل، حيث ذكروا بأن أعراب الجبل قرب بيروت سبق لهم وأن أغاروا في الموسم الذي سبقه على الفقراء في القرى، وسلبوهم قمحهم وشعيرهم وعاثوا فساداً فيهم، وبما أن المنطقة هي بدون حماية، فليس من المستبعد أن يعاود هؤلاء الكرّة في هذا الموسم أيضاً، وكان أمير السنجق أحمد بك قد طالب باستصدار أمر سلطاني له يسمح بالخروج إليهم والتصدي لغاراتهم، ويبدو أن التعليمات هنا كانت صارمة جداً، بحيث لا تسمح لأي موظف أن يتصرف بمحض إرادته دون العودة إلى السلطة المركزية، وفعلاً تمت الاستجابة لطلبه وصدر الأمر من الديوان الهمايوني للأمير سنجق حمص بمحاربة أهل الفساد في لوائه والألوية الواقعة في الجوار فقط مهمة دفترتي 14 ص 112 تسلسل 153. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 3، سبق ذكره، ص ص 84 - 85.

(7) - كان القانون يلزم أمير السنجق بإعداد (جبه لو) كامل العدة عن كل خمسة آلاف أقة إضافية عندما يخرج في الحملة، فحينما يكون حاصل خواصه مائتي ألف أقة يأتي بعشرين (جبه لو) كامل العدة، و(الجبه لو: مقاتل تابع يذهب إلى الحرب بصحبة



## - المتسلم :

هو الشخص الذي ينوب عن البكلربكي أو السنجق بكي أثناء غيابه سواء للمشاركة في الحملات السلطانية قائدا لعساكر إيالته أو لمرضه أو لعزله ، فيقوم المتسلم بممارسة الصلاحيات المخولة للبكلربكي أو السنجق بكي في حدود المنطقة التي تقع ضمن نفوذهما ، بعد بإعلام باقي الموظفين بذلك عن طريق بيورلدي<sup>(2)</sup> موجه إلى القاضي والصوباشي وكبار الأعيان في الإيالة<sup>(3)</sup> ، كان باستطاعة المتسلم القيام ببعض المهام الأمنية في حالة غياب البكلربكي<sup>(4)</sup> مما كان يضعه أحيانا في مواجهة قادة الانكشارية كما حدث في دمشق الشام سنة 1057هـ / 1647 - 1648م حينما حدث قتال بين الإنكشارية وأتباع المتسلم<sup>(5)</sup>.

وكثيرا ما لجأ الوزراء والأمراء المعيّنون في الإيالة والسنجق إلى إرسال متسلمين عنهم إلى هذه المناطق لإجراء الترتيبات اللازمة قبل توجيههم إليها ، ويذكر محمد بن طولون الصالحي الدمشقي أنه " في شهر محرم 928هـ قدم إلى دمشق متسلم النائب الجديد فرهاد باشا بغتة وأخبر بأن أستاذه ولي نيابة دمشق عوضا عن إياس باشا من عشرين يوما"<sup>(شم)</sup> ، كما أن البكلربكي المعين لإيالة العرب سنة 942هـ / 1536م الباشا محمد

السباهي صاحب التيمار و الذي يقوم بتجهيز عدته كاملة).أنظر : خليل اينجليك ، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، مرجع سابق ، ص 335 ، خليل ساحللي أوغلي ، مرجع سابق ، ص 625.

<sup>(1)</sup> - صدر حكم سلطاني موجه إلى أمير سنجق الكرك قانصوه الغزاوي ، مؤرخ في 21 جمادى الآخرة 979هـ / 10 نوفمبر 1571م يقضي بتعيينه أميرا لركب الحج الشامي و تذكيره بالمهام الموكلة إليه ، والشروط الواجب عليه قبولها نظير ذلك مهمة دفترى 16 ص 355 الحكم 628. نقلا عن فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، ج 3 ، سبق ذكره ، ص 264.

<sup>(2)</sup> - بيورلدي بمعنى حكم أو أمر سلطاني. أنظر : خليل ساحللي أوغلي ، مرجع سابق ، ص 537.

<sup>(3)</sup> - أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 263.

<sup>(4)</sup> - فقد صدر حكم سلطاني إلى متسلم الشام ما بين محرم ورمضان سنة 1046هـ / جوان 1636 وفيفرى 1637م ، بعد الرسالة التي أرسلها الأهالي على إثر تدهور الأوضاع الأمنية ، فصدر الأمر إلى المتسلم بالتحرك بسرعة والتصدي لأعمال الفساد التي يقوم بها (علي بن مظفر) وهو أحد ملتزمي المقاطعة في إيالة طرابلس ، والذي تحالف مع علي بن سيف وجمعا حولهما قرابة ألفين (2000) من طائفة الدروز حيث قاموا بقتل وسلب العديد من الأبرياء ، وأخذ نساءهم وأطفالهم رهائن ، لذا فإن مهمة المتسلم حسب الأمر السلطاني هي وضع حد للتمرد ، مع الحرص على حماية (الرعايا البرايا) وتقديم المفسدين أمام القاضي لمحاكمتهم وفق الشرع.

.M.D.86,n° 49.in: Abdul-Rahim Abu Husayn, THE VIEW FROM ISTANBUL , op.cit, pp 36-37-

<sup>(5)</sup> - عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون : 1516 - 1916 ، ط 1 ، مكتبة أطلس ، دمشق 1974 ، ص ص 144 - 145.

<sup>(6)</sup> - إعلام الورى بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، دمشق ، 1984 ، ص 254.

كزل أرسل مُتسلّمه قبل أن يصل هو إليها بعد نحو أسبوعين ليزاول مهامه<sup>(1)</sup>، أمّا عندما وافت المنية بكربكي الشام فرهاد باشا في العشرين من جمادى الآخر سنة 929هـ/1523م تم تعيين علي باشا نائبا للغيبة (و هو اللقب الآخر للمتسلم) ريثما يصل البكربكي الجديد.<sup>(2)</sup>

لا توجد معايير واضحة لاختيار المتسلم، إلاّ الحاجة لشخص قويّ يُدير المنصب ويتمكن من جمع الضرائب، وهو ما دفع الأمراء إلى اللجوء لأبناء العائلات المحلية ذات النفوذ، القادرين على توفير الرجال بالعدد الكافي الذي يلزمهم، وهو ما كان يمثّل حجر عثرة أمام المتسلمين المعيّنين من خارج الإيالة أو السنجق، لذا كثيرا ما شكّل السعي للحصول على هذا المنصب بؤرة للنزاع والصراع بين العائلات المحلية التي استأثرت بالمنصب عقودا، رغم أن المدة المحددة للمنصب هي سنة واحدة فقط<sup>(3)</sup>.

#### -الآلاي بك (أمير الآلاي):

يعتبر الآلاي بك<sup>(4)</sup> أحد الموظفين البارزين في الإيالة التي يطبق فيها التيمار، خاصة في سنجق الباشا حيث يقيم البكربكي ولا يوجد به أمير سنجق، و يعين من بين الفرسان السباهيين، ويمنح إقطاعا من نوع زعامت يدرّ عليه دخلا يتراوح ما بين عشرين ألف أقيجة ومائة ألف أقيجة إلاّ أقيجة واحدة<sup>(5)</sup>، ويتم انتخابه من طرف زملائه أصحاب الاقطاعات<sup>(6)</sup>.

يضطلع أمير الآلاي بعدة مهام كانت في الأصل موكلة للسنجق بك<sup>(7)</sup> لكن أُسندت إليه للتخفيف

(1) - إعلام الوري بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص263.

(2) - نفسه، ص256.

(3) - أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص263.

(4) - آلاي بكّي أو أمير الآلاي أمير المواكب (آلاي بك) قائد السباهية في المنطقة؛ مهمته الأساسية جمع مقاتلي التيمارات وتنظيمهم وتنظيمهم ليكونوا تحت إمرة السنجق بكّي عند صدور أمر سلطاني بالاستعداد للخروج في الحملات العسكرية. أنظر: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، سبق ذكره، ص298، (هـ) جب، (هـ) بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، ترجمة أحمد أيش، ص225.

(5) - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، مرجع سابق، ص111.

(6) - المرجع السابق، ص224.

(7) - كان السنجق بكّي هو الذي يقوم بمراقبة السباهي أثناء خروجه للحملات العسكرية ويتأكد من أنه أحضر معه العدد المناسب من (الجبة لو) وهو الذي كان يقرر الإجراء المناسب في حالة عدم قدرة السباهي على المشاركة في الحملة العسكرية وبالتالي يرسل من يقوم بالخدمة بدلا منه بسبب مرضه أو عجزه. أنظر: نفس المرجع، ص224.

عنه ومنها :

القيام بعمليات التفتيش والمراقبة للفرسان السباهية حول مدى إلتزامهم بتقديم ما عليهم من ( جبة ليين) حسب القانون.

التأكد من جدارة المتقدمين للحصول على الإقطاعات العسكرية بواسطة التقارير التي يقدمونها في عروضهم حول مدى بلاء واستبسال السباهي أثناء الحروب التي يخوضها ضمن جيش الدولة

مساعدة أمراء السناجق المعيّنين حديثا في الأولوية البعيدة قبل أن يعتادوا ويألفوا البيئة الجديدة، فعادة ما يكون أمراء السناجق غرباء عن الأولوية التي تم تعيينهم فيها ؛ بعكس أمراء الآلاي الذين هم من الإقطاعيين المقيمين منذ مدة في اللواء ، وفي هذه الحالة تكون مساعدتهم معنوية لأمراء السناجق ريثما يتعرفوا على سناجقهم عن كثب.

القيام بالتنسيق مع السنجق بكلي والسباهيين وقت الحملات العسكرية ، خاصة فيما يتعلق بالعتاد والعدة.<sup>(1)</sup>

ويمكن لأمير الآلاي القيام بمهام أمير السنجق إذا كان هذا السنجق هو الذي يقيم به البكلربكي ، كما يقوم بالإشراف على صوباشية النواحي والأقضية التي تشكل السنجق ، والذين كانوا تحت تصرف القاضي فيها،<sup>(2)</sup> لكن بعض أمراء الآلاي أفرطوا في استعمال صلاحياتهم فمسّ أذاهم زملاءهم السباهيين والفقراء من الرعية في مناطقهم،<sup>(3)</sup> حتى أن الوزير أحمد باشا الحافظ ورغبة منه في إظهار مدى إلتزامه بالحق

<sup>(1)</sup> - يبين الأمر السلطاني الذي أرسله السلطان سليمان القانوني في شهر ذي القعدة 951هـ/ فيفري 1545م نوعية السلاح الذي يحمله أمراء الآلاي ولباسهم، فيذكر بأنهم يجب أن يضعوا على رأسهم المجوزة (القلنسوة) ويتسلحوا بالأسهم والأقواس والدروع والرماح. أنظر: مهمة دفترى، طوبقايي E12321، ص81ب، الحكم 192. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج1، ص91.

<sup>(2)</sup> - بالرغم من أن القضاء أو الناحية التي يتولاها القاضي تجعل منه في الظاهر تابعا لأهل العلم (العلمية) باعتبار أن القاضي من هذه الفئة، إلا أن وجود الصوباشي كضابط أمن يلي في الرتبة أمير آلاي جعل مدلول السلطة الإدارية يبرز بوضوح. أنظر: هـ) جب، (هـ) بووين، المرجع السابق، ج1، ص217.

<sup>(3)</sup> - صدر حُكم سلطاني بتاريخ 14 ربيع الأول 976هـ/ 6 سبتمبر 1568م موجّه إلى أمير آلاي الشام يهدّده باتخاذ أقصى العقوبات ضدّه، وعدم قبول أيّ عذر منه في حال تماديه وعناده، فقد ورد إلى الديوان الهمايوني مراسلة مفادها أنّ أمير الآلاي أخذ مبالغ مالية كبيرة من الفقراء التابعين لقيادة سباهيته كبذل أقجة، وكرّر ذلك مع أصحاب التيمار والزعامت بغير وجه حق، فصدر

والعدل ورفض الظلم قام مباشرة بعد استلامه لمنصبه بكلربكيا على الشام في ربيع الثاني 1018هـ إلى المبادرة بقتل أمير آلاي دمشق الذي كان كثير الإيذاء للرعية.<sup>(1)</sup>

### الصوباشي :

الصوباشي<sup>(2)</sup> هو الموظف الذي يلي أمير الآلاي رتبة من بين موظفي الإيالة رغم أنه ظهر في الأصل كمنصب عسكري<sup>(3)</sup>، فقد عرفه العثمانيون منذ عهد الغازي عثمان حينما عين أحد أبنائه "صوباشيا"<sup>(4)</sup>، واستمر قرار تعيينه من المركز أو العاصمة حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي ثم أصبح يعين بأمر من البكلربكي والسنجق بكي<sup>(5)</sup>.

يوجد نوعان من الصوباشية ؛ الأول: صوباشية أصحاب التيمارات أو "أهل تيمار صوباشلري" والثاني: صوباشية الخزينة أو "ميري صوباشلري"<sup>(6)</sup>، والفرق بينهما في مصدر دخل كل نوع، فصوباشية أصحاب التيمار لهم إقطاعات من نوع تيمار، أي أنّ واردها أقلّ من عشرين ألف أقة واحدة، يعيشون على مداخيلها وفي نفس الوقت فهم ملزمون بالقيام بالواجبات المفروضة عليهم بما فيها تقديم "جبة لو" حسب حاصل تيمارهم ووفق ما حدده القانون.<sup>(7)</sup>

الأمر السلطاني بإعادة المبالغ المأخوذة إلى أصحابها -وبلا نقص - وفي حال التلكؤ أو الرفض فسيناله العقاب، ويفصح الأمر السلطاني عن أنواع الردع المتخذ في هذه الحالة، والمتمثل أساسا في مصادرة الإقطاع الممنوح له، ومعاقبته بأشد أنواع العقاب الأخرى، ولقطع الطريق أمامه بأيّ أعذار يأتي بها، كأن يتحجج بأن المبالغ قد صرفها في مجالات أخرى وبالتالي لا يمكنه استعادتها، فهنا يأمره بأن يقوم على الفور بطلبها ممن أعطيت لهم من أجل إعادتها ثانية لأصحابها وبإشراف ومعرفة القاضي والمفتشين في الإيالة. مهمة دفترتي 7 ص 739 الحكم 2026. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج2، سبق ذكره، ص 179.

<sup>(1)</sup> - البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج1، مصدر سابق، ص 201.

<sup>(2)</sup> - الصوباشي كلمة مؤلفة من (صو - باشي) وتعني قائد الجيش ثم أصبح يمثل دور رئيس الشرطة والمشرف على حفظ الأمن والنظام في الإيالة والسنجق. أنظر: عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ط1، دمشق، 1967، ص 72.

<sup>(3)</sup> - (هـ) جب (هـ) بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ج1، ص 232.

<sup>(4)</sup> - روبري مونتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1992، ص 33.

<sup>(5)</sup> - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 65.

<sup>(6)</sup> - (هـ) جب (هـ) بوون، ج1، مرجع سابق، ص 232.

<sup>(7)</sup> - حسب قانوننامه السلطان سليمان القانوني فإنه "إن بلغ دخله (أي الصوباشي) أربعة آلاف وخمسمائة أقة يشارك في الحملات شخصيا ويحضر معه (جبة لو) وغلाम". أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 557 - 558.

أما صوباشية الخزانة أو الميري، فكانوا يتقاضون مرتباتهم من خزينة الدولة في شكل علوفات (رواتب)، إضافة إلى ما كان يحصل عليه من الإتاوات والغرامات المترتبة على المذنبين.

يعمل الصوباشي أساساً تحت إمرة القاضي حيث نجده المخوّل لتنفيذ أحكام القاضي، وإنزال العقوبات التي يقرّها في حقّ المذنبين مثل حبس من يصدر الحكم في حقه، وكذا اعتقال المخلّين بالنظام العام إلى جانب المحافظة على الأمن، من خلال ترأسه قوات من الانكشارية أثناء قيامها بدورياتها.<sup>(1)</sup>

#### -العسس:

تطلب توفير الأمن وجود قوة من الشرطة تسهر على حراسة الأسواق ومنع اللصوص من العبث بمحتوياتها وهو ما أسند للصوباشي، وتكوّن هذه القوة من العسس،<sup>(2)</sup> وفي حالة حدوث سرقة وفشلها في إلقاء القبض على اللصوص؛ فإن أفرادها يتحمّلون مسؤولية دفع أثمان المسروقات، ويتم اختيارهم من بين الذين يثق التجار بهم باعتبار أنهم هم الذين يدفعون أجورهم في الأخير.<sup>(3)</sup>

#### - القبوقولية :

وهي الحامية العسكرية المتمثلة في فرقة المشاة العسكرية الانكشارية أفرادها مسلحون بالبنادق والمسدسات، وكانوا جنوداً ممن يتقاضون رواتب على حساب الأيام، لكنهم يتسلمونها في كل ثلاثة أشهر، وتسمى "علوفة"،<sup>(4)</sup> وتتنوع القوات العسكرية فمنها :

#### -السكبان :

أول نوع ظهر في بلاد الشام عندما أدخلهم علي باشا جانبولاط في خدمته خلال تمرده على الدولة العثمانية في سنة 1605م، وكلمة "سكبان" فارسية الأصل تتألف من مقطعين: (سك): وتعني الكلب، و (بان): وتعني الحامي، والسكبانية عبارة عن طائفة كان وضعهم أن الواحد منهم يحمل بندقية على ظهره و

(1) - حسب قانوننامه السلطان سليمان القانوني فإنه "إن بلغ دخله (أي الصوباشي) أربعة آلاف وخمسمائة أقة يشارك في الحملات شخصياً ويحضر معه (جبة لو) و غلام". أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 232.

(2) - العسس: القوة الأمنية التي تتجول ليلاً للمحافظة على الأمن والنظام في المدينة. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، سبق ذكره، ص 326.

(3) - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 635.

(4) - يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، مج 2، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا، اسطنبول، 1990، ص 389.

يقود الكلب في ساجوره، ويمشي أمام الأمير أو الكبير أو حينما يسير إلى الصيد،<sup>(1)</sup> ولا يُعرف المكان الأصلي للسكان غير أن المترجم الدمشقي الحسن بن محمد البوريني المتوفي سنة (1024هـ - 1615م يشير إلى أن أصل سكان بلاد الشام كان روميا، أي ما وراء طوروس والفرات، وأنهم ظهروا ببلاد الشام لأول مرة في سنجد نابلس التابع لإيالة الشام في النصف الثاني للقرن السادس عشر،<sup>(2)</sup> ثم شاع استخدامهم في الربع الأول من القرن السابع عشر من قبل الأمراء الثائرين في بلاد الشام مثلما سبقت الإشارة إليه مثل جانبولا الذي جمع حوله ما يزيد عن عشرة آلاف من السكبانية أثناء تمردده على السلطة العثمانية سنة 1605م،<sup>(3)</sup> أما فخر الدين المعني الثاني في منطقة الشوف بجبل لبنان، ويوسف باشا سيف في طرابلس فكان مع كل واحد منهما نحو ثلاثة آلاف سكباني،<sup>(4)</sup> واستفيد من السكبان في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان، كما سُمح للمتزوجين منهم بإيواء أسرهم في القلاع، وتكون الفرقة منهم تحت قيادة البلوك باشي، وتحصل على مرتبات تدفع شهريا إضافة الأعطيات التي تمنح لهم والتي تتجاوز أحيانا مرتباتهم<sup>(5)</sup> لكن هذا لم يمنع قيامهم بمهاجمة السكان المحليين كما حدث في القدس الشريف سنة 1016هـ مما دفع أمير لواء القدس إلى توزيع عدد من البنادق على الأهالي لدفع خطر السكبان.<sup>(6)</sup>

(1) - الحسن بن محمد البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج2، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1963، ص259.

(2) - هؤلاء الطائفة لم يكونوا أولا شيئا مذكورا حتى جاء إلى بلاد الشام أمير يقال له "أبو سيفين" تولى ولاية لواء نابلس، فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعايا بلاد نابلس لأنهم لا يخلون من نوع شراسة، فاعتاد الأمراء استصحابهم إلى ولاياتهم فكثروا. نفس المصدر، ص259

(3) - نفسه، ص271.

(4) - نفسه، ص284

(5) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر" مجلة: دراسات تاريخية، العدد الأول، جامعة دمشق، مارس 1980، ص ص 75-76.

(6) - وثيقة رقم 24، السجل 87 من سجلات محكمة القدس الشرعية، مؤرخة في سنة 1016هـ. كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية تاريخية: مج 3، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1989، ص39.

### - الدالاتية :

مفردتها دالاتي، وهي مشتقة من الكلمة التركية Deli وتعني الأهوج أو الطائش، وعُرفت هذه القوات بالدالاتية بسبب اندفاعها وطيشها واستخدمت منذ القرن 10هـ/16م، وتم تجنيد أبناء الأناضول والبوسنة وحتى العرب، وكان لهم بدمشق خان خاص بهم يعرف بخان الدالاتية<sup>(1)</sup>.

### - المغاربة :

كانت هذه القوات من المشاة بصفة عامة وقلة منها من الفرسان، وقد تواجدت المغاربة في بلاد الشام قبل الدخول العثماني بدليل وجود زاوية لهم في دمشق بنيت عام 802هـ/1399 - 1400م، ومشاركتهم في الدفاع عن المدينة<sup>(2)</sup> وليس الأمر مقتصرًا فقط على دمشق وإنما كذلك على طرابلس<sup>(3)</sup> و القدس الشريف،<sup>(4)</sup> أما الشيخ عبد الغني النابلسي فقد ذكر زيارته لجامع المغاربة بالقدس سنة 1105هـ/1693م،<sup>(5)</sup> وقد عمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراسا في الخانات والحارات والأسواق، ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة، وكان شيوخ الطوائف بمن فيهم رئيس المغاربة الأعلى في دمشق مسؤولين أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم، ويكون العسكريون من المغاربة خاضعين لآغا المغاربة، لكن استخدام قوات من المغاربة بشكل واضح كان في القرن الثامن عشر حيث أشركهم والي دمشق في حملاته وفي حماية قافلة الحج.<sup>(6)</sup>

(1) - المرجع السابق، ص 77

(2) - شكل الأندلسيون والمغاربة الطلائع المدافعة عن حلب ودمشق في وجه التتار ومثال ذلك القاضي المالكي بدمشق ابراهيم بن محمد التادلي الذي اشترك في قتال التتار عند مداخل دمشق واستشهد متأثراً بجراحه سنة 803هـ/1401م. علي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام: من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار طلاس للطباعة والنشر، دمشق 1989، ص 307.

(3) - عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986، ص 68.

(4) - نفسه، ص 118.

(5) - رافق، " مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام "... مرجع سابق، ص 78.

(6) - نفسه، ص 78-79.

### -الانكشارية :

يرجع أساس الانكشارية في دمشق إلى الحامية العسكرية الأولى التي تركها العثمانيون في دمشق بعد ضمهم بلاد الشام إليهم ، وكان مقرها في القلعة ، لكن في الربع الأخير من القرن السادس عشر وبسبب الأزمة المالية التي عرفت الدولة العثمانية تسرب عناصر من السكان المحليين إلى الطائفة الإنكشارية والتي عرفت باليرلية بغرض الاستفادة من الامتيازات الكثيرة التي يتمتع بها أفرادها ، كما انخرط أفراد الانكشارية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الشام مستفيدين من عدم تعرض المنطقة لأي عدوان خارجي ، وحتى إن تم استدعاؤهم للمشاركة في الحملات السلطانية أظهروا التلكؤ و التهاون ،<sup>(1)</sup> ونتج عن اندماج الانكشارية بالسكان المحليين أن كثيرا منهم أصبحوا يعيشون خارج القلعة ، فتزاوجوا مع السكان ، بل وأصبح عدد منهم ومن أبنائهم من العلماء ،<sup>(2)</sup> و في الجانب الاقتصادي انتسب البعض إلى الحرف وأصبحوا تجارا ، كما تعاطوا الربا ،<sup>(3)</sup> كما تم تعيين البعض منهم ملتزمين للضرائب أو مساعدين للملتزمين ،<sup>(4)</sup> إلى جانب تعيين البعض متولين على الأوقاف وشغلوا وظيفة المحتسب ، كما سيطر البعض منهم على طائفة القصابين بحلب والتي كانت تتمتع بثروة كبيرة ، كما عين أحد الانكشارية شيخا لطائفة الصاغة<sup>(5)</sup> وعمد بعضهم إلى استئجار الخانات في حلب ، كما وظفوا أموالهم في استئجار البيوت والأراضي والأراضي و الطواحين ،<sup>(6)</sup> وزاد نفوذهم أكثر عندما أصبحت الدولة تعين البعض منهم أمراء لقافلة الحج

(1) - في سنة 1059هـ/ 1649 - 1650م اصطحب والي الشام فرقة من الانكشارية في حملته ضد الدروز في جبل لبنان ، لكنه لم يصب جنود الانكشارية بأي أذى في القتال الذي انهزم فيه الوالي وجنوده ، والسبب على الأرجح أنه تجنب الانكشارية الاشتراك الفعلي في القتال. عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون 1516 - 1916 ، ط 1 ، مكتبة أطلس ، دمشق ، 1974 ، ص 145.

(2) - عبد الكريم رافق ، "مظاهر من الحياة العسكرية في بلاد الشام ..." مرجع سابق ، ص 93.

(3) - عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص 141.

(4) - أورد الدفتر 515 أنقرة ، أن عدد من قرى ومزارع لواء القدس الشريف تم التزامها من طرف أفراد من كبار العسكر في اللواء والولاية ، وهذا ما يشير فعلا إلى تخلخل نظام التيمار الذي برز في أواخر القرن السادس عشر في فترة تحرير الدفتر أي 1005هـ/ 1596 - 1597م ، لواء القدس الشريف من دفتر مفصل (T.D.515 An.) ، 1005 هـ / 1596 - 1597م ، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السواري ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، عمان ، 2012 ، ص 115

(5) - رافق : "مظاهر من الحياة العسكرية في بلاد الشام..." ، مرجع سابق ، ص 92

(6) - نفسه ، ص 93



الشامي<sup>(1)</sup> ، لكن فترة القوة والنشاط التي عرفتھا الدولة العثمانية في النصف الثاني للقرن السابع عشر مع عودة أفراد من أسرة (كوبريللي) إلى الصدارة العظمى حدّ من نفوذهم ، وأدى إلى التخلص من عدد كبير من زعمائهم مثل عبد السلام المرعشي ومحمد التركماني<sup>(2)</sup> .

كان من نتيجة هذا الصراع أن انقسمت الانكشارية في دمشق إلى فرقة موالية للإدارة المركزية وتدعى (القابي قول : أي عبيد الباب ، وهم عبيد السلطان) وهي فرقة الجنود التي أرسلها السلطان إلى دمشق سنة 1069هـ / 1659م وتمركز تواجدھا في القلعة وعلى السور وعند أبواب المدينة ، في حين أخرجت من هذه المراكز فرقة الانكشارية المحلية (اليرلية) والتي ضمت في صفوفھا عناصر من السكان المحليين كما تواجد ضمن صفوفھا بعض العناصر الغربية لكنها تأقلمت محليا في المدينة ،<sup>(3)</sup> وتم تكليفھا بالمحافظة على القلاع في طريق الحج ، وإن ظل أفرادھا في الواقع يقيمون في دمشق ،<sup>(4)</sup> وقد عرفت العلاقة بين الفئتين تأزما بلغ حد المواجهة بينهما خاصة بعد أن لجأ البكلربكي إلى البطش بزعماء اليرلية<sup>(5)</sup> .

## 1 - ب - رجال الهيئة العلمية (أهل الشرع) وتشمل :

### -القاضي:

مثل منصب القاضي أهمية بالغة في الإيالة<sup>(6)</sup> ، فهو الحاكم الشرعي الذي يحظى بالتقدير باعتباره هو المنفذ لأحكام الشرع ، وهو -في المناطق البعيدة - الموظف الرسمي الذي تخاطبه الدولة مباشرة ، عدا عن كونه ممثل السلطة القضائية في هذه المنطقة ،<sup>(7)</sup> وكان في الغالب حنفيا<sup>(1)</sup> ، لكن دون أن يمنع ذلك وجود

(1) - عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، مرجع سابق ، ص 145.

(2) - عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، مرجع سابق ، ص ص 146 - 147.

(3) - وجيه كوثراني ، السلطة والمجتمع والعمل السياسي ، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام ، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، بيروت ، 1988 ، ص 56 - 57

(4) - المرجع السابق ، ص 147

(5) - المرجع السابق ، ص 57

(6) - تقدّمه وثائق المحكمة الشرعية عبر تعريف طويل: "مولانا وسيدنا أعلم علماء الأعلام ، تاج الموالي العظام ، الحبر البحر الهمام ، ميمز الحلال عن الحرام ، مؤيد شريعة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام: الحاكم الشرعي." أنظر: صبحي نهدي الحمصي ، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1986 ، ص 100.

(7) - كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة منير البعلبكي ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1991 ، ص 478.

قضاة من المذاهب الأخرى.<sup>(2)</sup>

يُعيّن قاضي القضاة من مركز الدولة في اسطنبول<sup>(3)</sup> ويكون عادة من غير السكان المحليين ، وأن يكون متخرجاً من المراتب العليا للمدرسة العثمانية<sup>(4)</sup> ويبقى في منصبه لفترة تمتد إلى عشرين شهراً<sup>(5)</sup> ويقام له حفل استقبال رسمي عند تقلد مهامه في الإيالة،<sup>(6)</sup> لذلك لم يكن للبكلربكي أن يملك سلطة بعزله أو تعيينه أو التضييق على نطاق عمله، ووجد القاضي نفسه يتمتع بسلطة أوسع أعطته الحق والجرأة على معالجة بعض القضايا التي ترفع ضد البكلربكي نفسه أو كبار الموظفين في الإيالة.<sup>(7)</sup>

كانت جميع القضايا والدعاوي تدخل ضمن مجال عمل القاضي خاصة المعاملات الشرعية والقانونية: كتنظيم الإرث والنكاح، والإشراف على أموال اليتامى وتعيين الأوصياء عليهم، كما يرفع

(1) - طه جابر العلواني : " التمدد الفقهي في العهد العثماني : دراسة و تحليل " ، من أعمال المؤتمر العام الثالث للدراسات العثمانية حول : الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، الجزء الأول و الثاني ، جمع و تقديم الأستاذ عبد الجليل التميمي ، منشورات مركز الدراسات و البحوث العثمانية و الموريسكية و التوثيق و المعلومات ، زغوان ، تونس ، 1990 ، ص 380 .  
(2) - كانت الدولة العثمانية تعين في حلب على الدوام قاضٍ شافعي إلى جانب قاضي القضاة الحنفي. أورهان صادق جانبولات ، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2012، ص40.

(3) - كانت مسألة تعيين وعزل القاضي من صلاحيات قاضي عسكر الأناضول ، ثم أصبحت من صلاحيات شيخ الإسلام منذ منتصف القرن 16م، وهذا بعد أن يقر الديوان الهمايوني مدة التعيين والمداخل المخصصة له ، ويصادق عليه السلطان ، لهذا فالقاضي هو وكيل السلطان في الإيالة. أكرم كيدو، مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، ط1 ، منشورات غروس بريس، طرابلس ، لبنان ، 1992 ، ص 11.

<sup>4</sup> أنشأ السلطان محمد الفاتح مدارس في اسطنبول والمعروفة باسم (صحن ثمانية) بعد أن كانت من قبل ثمانية كنائس ونظمها على غرار مدارس بورصة و أدرنة ، ويتكون فيها الطلبة من كل التخصصات. أنظر : أحمد المرسى الصفصا في ، اسطنبول عقب التاريخ ؛ روعة الحضارة ، دار الآفاق العربية ، ط1 ، القاهرة ، 1999 ، ص 140 - 141.

(5) - رأى الفقهاء بعض المحاذير في أن يعمل القاضي في مكان واحد مدة طويلة لأن ذلك قد يؤثر عليه سلباً من الناحية العملية ، كما يحول دون حياده في إصدار الأحكام. أنظر : فاضل بيات ، "النظام القضائي في الولايات العربية في العهد العثماني" ، مرجع سابق ، ص176.

(6) - تكون مراسم استقبال القاضي بخروج موكب كبار المسؤولين في الإيالة يتقدمهم البكلربكي أو نائبه و الدفتردار ، وأغا الانكشارية ، وديدار القلعة وبعضاً من عساكر دمشق ، حيث يذكر القاضي شرف الدين موسى بن يوسف الأنصاري أنه "عند قدوم قاضي الشام قادماً من حلب عوضاً عن قاضي القضاء مصطفى أفندي سنة 999هـ خرج للقائه الدفتردار ونائب الوالي وبعض عساكر دمشق" ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، حققه عدنان محمد إبراهيم ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1991 ، ص 152 - 153.

(7) - صبحي نهدي الحمصي ، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، مرجع سابق ، ص 100.

أحكام الوصايا والأوقاف<sup>(1)</sup> وكذا الدعاوى المتعلقة بالجرائم والجنايات والنظر في المنازعات التي تنشأ بين الرعايا من أهل

البلد ومنتسبي الصنف العسكري بما في ذلك التفتيش حتى في إقطاعات التيمار، ويتدخل لدى السباهي.<sup>(2)</sup>

تظهر الأحكام السلطانية الموجهة إلى القضاة في بلاد الشام الإجراءات التي يطالب بها الديوان الهمايوني القاضي باتباعها، بناء على المراسلات الرسمية التي ترد من الإيالات،<sup>(3)</sup> وهنا يمكننا أن نوضح النقاط الواجب على القاضي الالتزام بها أثناء عمله وهي :

أن يلتزم الشرع القويم

أن يرد المظالم إلى أهلها

أن يظهر اهتمامه بالقضية ولا يهملها

أن يلتزم الحياد ويتبعد عن المحاباة ويتفادى الانحياز لأي طرف

أن يتوخى الحذر من التزوير والتلفيق وشهود الزور

وفي الأخير على القاضي أن يقدم تقريراً مفصلاً للديوان الهمايوني عن المظالم التي صدرت من أمير

<sup>(1)</sup> - تلقى الديوان الهمايوني مراسلة من أمير سنجق القدس الشريف حول معاناة أحد الأوقاف التابعة لمسجد قبة الصخرة من نقص المياه، فكلف القاضي بالتحقيق في الأمر والتقصي حوله من كل النواحي. أنظر: مهمة دفترى 3 ص 364، الحكم 1076. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 1، سبق ذكره، ص ص 200 - 201.

<sup>(2)</sup> - إبراهيم ربيعة: "العسكر السباهية وأهل الريف في لواء القدس الشريف خلال القرن السابع عشر الميلادي" مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد 21 (3)، نابلس، 2007، ص ص 847 - 848.

<sup>(3)</sup> - تلقى الديوان الهمايوني مراسلة من بكربكي الشام بيرى باشا يبلغ فيها عن الظلم والأذى الذي يلحق بالرعايا في سنجق صفد صفد من طرف أمير السنجق وصوباشيته ورجاله الآخرين، إضافة إلى تماديهِ في سلوكه دون الخشية من أي رادع، فأصدر الديوان الهمايوني أمره إلى قاضي الشام في 27 ذي القعدة سنة 951هـ / 09 فيفري 1545م بإجراء تحقيق في الموضوع، وأن يستمع إلى الرعايا المشتكين ويقابلهم بالمدعى عليه. مهمة دفترى E12321، ص 196 ب، الحكم 476. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، ص 113.

السنجق، وعن المتضررين الذين استردوا حقوقهم.<sup>(1)</sup>

كانت سلطة القاضي تشمل الكلّ بمن فيهم كبار المسؤولين سواء أمراء السناجق<sup>(2)</sup> أو معاونيهم،<sup>(3)</sup> وهو الذي يثبت مشايخ الحرف أو الأصناف في مناصبهم بحيث لا تصبح مباشرتهم لأعمالهم نافذة إلا بعد تصديقها، وكما يثبتهم فإنه كذلك يقوم بعزلهم، فإن حدث وأن اتفق أرباب الأصناف والحرف على عزل أحد المشايخ فإن القاضي يصدر وثيقة بذلك،<sup>(4)</sup> كما يشرف على تقديم الدعم (اللوجيستي) للجيش،<sup>(5)</sup> يهتم بحفظ الأمن في الأسواق والدكاكين بإشرافه على العسس الذين يقومون بمهمة الحراسة ليلاً، ولم تمنع الإجراءات الصارمة في اختيار القضاة من حدوث تجاوزات،<sup>(6)</sup> لكن الإجراء الذي اعتمدته

(1) - مهمة دفترى E12321، ص 196ب، الحكم 476. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، ص 113.

<sup>2</sup> وصلت شكوى ضدّ أمير سنجق عجلون التابع إداريا لإيالة الشام حول قيامه بالتعدي على الرعايا بسنجه، فصدر الأمر السلطاني إلى قاضي الشام للقيام بإجراء تحقيق حول ما ورد في عريضة الشكوى وكتابة تقرير مفصل إلى الديوان الهمايوني بنتائجه. مهمة دفترى 3، ص 505، الحكم 1505، نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ص 218.

(3) - صدر أمر سلطاني لقاضي حماة مؤرخ في 16 ربيع الثاني 976هـ / 14/01/1560م يأمره بمعالجة الوضع في لواء حمص التابع لإيالة حلب، وهذا بناء على مراسلة من قاضي حمص مفادها قيام أمير السنجق وصوباشيته بإلحاق الظلم بالفقراء والاعتداء عليهم خلافا للشرع الشريف، فقام قاضي حماة بمواجهة صوباشي أمير السنجق مع خصومهم كما جاء في الأمر السلطاني، وإيفاد تقرير مفصل إلى الديوان الهمايوني حول حيثيات الموضوع. مهمة دفترى 3، ص 244، الحكم 701، نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ص 185.

(4) - ورد في وثيقة مسجلة لدى المحكمة الشرعية بطرابلس الشام خلال النصف الثاني للقرن 17م ما فحواه: "نصب متولي مولانا وسيدنا المولى الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم بأعاليه - دامت فضائله - حامل هذا الكتاب الشرعي شيخا و متكلما عن طائفة العطارين بطرابلس وقرره في الوظيفة المذكورة". أنظر: صبحي نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال سجلات المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 202.

(5) - كثيرا ما يتم تكليف القاضي بتوفير الدعم البشري للجيش من أصحاب الصنائع، ففي حُكم سلطاني موجّه إلى قاضي حلب بتاريخ 17 جمادى الأولى 967هـ / 14 فيفري 1560م يطالبه بتسجيل عدد من الحرفيين بناء على الطلب الذي تقدم به قائد الحملة العسكرية الوزير محمد باشا بخصوص حاجته لحرفيين يصطحبهم ضمن جيشه، فقام القاضي بتسجيل أرباب الحرف المختلفة من قصابين وخبازين ونعّالين، إضافة إلى حلاق وطباخ وشمّاع... ودون أسماء الحرفيين في الدفتر الذي يحتفظ به لتقديمه عند الحاجة.

مهمة دفترى 3، ص 269، الحكم 777. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 191.

(6) - وردت شكوى إلى الديوان الهمايوني تقدّم بها بعض أهالي القدس ضدّ القاضي متهمين إيّاه بهدم دار السبيل وتحويلها إلى مقهى وتجاوزه على أملاك الوقف، وفتح هذا السلوك من القاضي؛ الباب أمام أحد مساعديه - وهو المحضر باشي - للتعدي على الرعايا وظلمهم، فضلا عن كونه يتعاطى الخمر والرشوة، فصدر الأمر إلى كل من بكربكي الشام وقاضي الشام والقدس الشريف بعزل القاضي المتهم من منصبه وعلى الفور مهمة دفترى 5، ص 465، الحكم 1248. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ص 348-350.

الدولة العثمانية المتمثل في السماح بتلقي المراسلات المستقلة من موظفيها سواء البكركي أو أمير السنجق ، أو القاضي وكذا الدفتردار ، كان أحسن وسيلة لوضع الكل تحت الرقابة المستمرة والدائمة.

### -نائب القاضي :

هو وكيل القاضي أثناء غيابه ويقوم بأداء المهام التي يؤدّيها القاضي في المحاكم الشرعية ، أو يتسلم مهامه مؤقتاً ريثما يتمكن القاضي من انتهاء أموره في المنصب الذي غادره ، وكثيراً ما كان القاضي الذي يؤلّى قضاء الشام -وهو من المدن البعيدة في الأناضول -يلجأ على ذلك ، يكون النائب عادةً من الأتراك ، ويمكن أن يعيّن من القضاة المحليين كما هو الحال بالنسبة للقاضي **محب الدين الحموي**<sup>(1)</sup> الذي تسلّم نيابة القضاء لعدد من القضاة بدمشق ، على أن يكون على المذهب الحنفي باعتباره المذهب الرسمي للدولة العثمانية<sup>(2)</sup> وقبل أن يباشر النائب مهامه يقابل البكركي لينال الإذن بالعمل ، ثم يتوجه إلى مكان عمله ، كما يمكن للقاضي أن يوجه نائبه للعمل في بعض المحاكم البعيدة خاصة في ضواحي دمشق الشام<sup>(3)</sup> أو في محاكم حلب<sup>(4)</sup> ويشير الأنصاري بأنه يوجد في هذه المحاكم قضاة على المذاهب الأربعة ، وكان كل قاضي يقضي بحسب مذهبه الذي اختص فيه ، إلا أنه ليس من الضروري أن يتوفّر في كلّ محكمة قاضٍ عن كلّ مذهب.<sup>(5)</sup>

برزت في إيالات بلاد الشام العديد من الأسر التي شغل أبنائها من العلماء منصب النائب ؛ نذكر منها أسرة الخلوصي ، الوفائي ، الغزي ، البكري والسرميني... في دمشق الشام ، وآل كرامة في طرابلس الشام ،

(1) - نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر الهجري ، ج 1 ، تحقيق محمود الشيخ ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، بدون تاريخ ، ص 118.

(2) - على الرغم من ذلك تم تعيين نائب للقاضي على المذهب الشافعي سنة 971هـ/ 1563 - 1564م ما ينفي وجود مسألة التعصب للمذهب. أنظر كذلك : الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 183 - 184.

(3) - يذكر القاضي شرف الدين موسى الأنصاري محاكم دمشق وهي : محكمة الباب ، المحكمة الكبرى ، محكمة قناة العوني ، محكمة الميدان ، محكمة الصلاحية ومحكمة القسمة. نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 150 - 152.

(4) - ضمت حلب - إلى غاية النصف الأول من القرن السابع عشر - خمس محاكم هي : المحكمة الشرعية الكبرى ، المحكمة الشافعية ، المحكمة البلقوسية ، المحكمة الصلاحية ، محكمة جبل سمعان. فاضل بيات : "النظام القضائي في الولايات العربية في العهد العثماني" ، مرجع سابق ، ص 185.

(5) - المصدر السابق ، ص 152.

وآل جابري والكواكبي وطرابلسي وطه زادة في حلب.<sup>(1)</sup>

### -المفتي:

كان شمس الدين محمد بن رمضان أول مفتي حنفي يعينه العثمانيون في دمشق بعد أن رتبوا إفتاء المذاهب السنية الأربعة ( الحنفي - الشافعي - الحنبلي - المالكي) وهذا على الرغم من قلة عدد أصحاب المذهب المالكي، وبذلك تكون السلطة العثمانية قد خصت كل مذهب بمفتٍ، مع جعل المفتي الحنفي المعين من قبل شيخ الإسلام في اسطنبول مقدّمًا على المذاهب الأخرى<sup>(2)</sup>، أما مهمته فكثيرا ما كان القاضي يحتاج إلى بعض الاستشارات وبالخصوص في جانب المعاملات التجارية المختلفة الوجوه من بيع وشراء وإعارة وحوالة، والتي شكلت القسم الأكبر من الفتاوى<sup>(3)</sup> سواء للمسلمين أو لغيرهم من أهل الذمة، وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين كان تعيين المفتي عادة من الأسر المحلية، بل إنّ بعض الأسر دخلت في تنافس حول هذا المنصب كما حدث في دمشق.<sup>(4)</sup>

أمّا في حلب، فلم تصل الأمور إلى حدّ التنافس العلن، لكن ربّما يكون هناك بحدّة أقلّ خاصة مع وجود أسرتين تداول أبناؤهما على منصب الإفتاء، بحيث تبدو شبه سيطرة كلّية لآل الكواكبي والصوفيون لهذا المنصب، بينما تولّت أسرة الحنبلي الإفتاء على المذهب الحنبلي، وفي طرابلس الشام احتفظ آل كرامي بالمنصب رفقة أسر السنيني والميقاتي والخطيب وفق المذهب الشافعي.<sup>(5)</sup>

(1) -فاضل بيّات، "النظام القضائي في الولايات العربية في العهد العثماني"، سبق ذكره، ص 179.

(2) - مهند مبيّضين: " غير المسلمين في نصوص الفتاوى الدمشقية إبان القرن الثامن عشر الميلادي"، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 26 - 30 سبتمبر 2005، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا)، اسطنبول، 2009، ص 66.

(3) - نفسه، ص 75.

(4) - دخلت كل من أسرة المرادي والعمادي في تنافس شديد على منصب الإفتاء الحنفي بينما استحوذت أسرة الغزي على الإفتاء وفق المذهب الشافعي وتبادل آل البعلبي والسيوطي الإفتاء وفق المذهب الحنبلي. أنظر: فاضل بيّات، " النظام القضائي في الولايات العربية في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 179.

(5) - نفسه، ص 180.

-الموظفون التابعون للقاضي :

أبرزهم :

- المُحضر باشي : الذي يكون بمثابة حاجب يقدم المتخاصمين.

- المترجم : يشترط فيه أن يكون عارفا على الأقل بلغتين.

- الكتّاب : يقومون بتدوين الأحكام وتسجيل القضايا في سجلات المحكمة الشرعية وينظمون الوثائق.

- القسّام : ويتولى مهمة تقسيم التركات وتحديد المواريث.<sup>(1)</sup>

- المحتسب : يشرف على مراقبة السوق والتدقيق في الأسعار و الأوزان ونوعية السلع<sup>(2)</sup> وقمع الغش ،

- شهود الحال : لا تكاد أي وثيقة من الوثائق التي يدونها القاضي تخلو من قائمة بأسماء شهود الحال،<sup>(3)</sup> وهم عادة من أهالي المنطقة المشهود لهم بصدقهم وأمانتهم ، ودورهم متابعة مدى انسجام قرارات القاضي مع القوانين،<sup>(4)</sup> وكان حضورهم عاملا مساعدا للقاضي على اتخاذ القرارات النزيهة قدر المستطاع دون أن يشاركوا القاضي في اتخاذ اصدار الحكم .

وكان القاضي يسجل الأحكام التي يصدرها والأوامر التي ترده من المركز في سجل رسمي يتم الاعتناء به بدقة يسمى " سجل المحكمة الشرعية".<sup>(5)</sup>

---

(1) - حجة رقم 3 ، مؤرخة في 22 ذو القعدة 1081هـ / 1 - 4 - 1671م ، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173 ، ج 1 ، سبق ذكره ، ص 106.

(2) - أندري ريمون ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة لطيف فرج ، الطبعة الأولى ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ، 1991 ، ص ص 93 - 94.

(3) - صبحي نهدي الحمصي ، تاريخ طرابلس من خلال سجلات المحكمة الشرعية ، مرجع سابق ، ص ص 196 - 353.

(4) - في الغالب يجهل القضاة المعينون من خارج الإيالة العادات والتقاليد المحلية ، لهذا كانوا يقومون بالتشاور مع شهود الحال. أنظر : فاضل بيات ، مرجع سابق ، ص 181.

(5) - تحتفظ كثير من الدول التي كانت تابعة للدولة العثمانية بسجلات المحكمة الشرعية ، والتي أصبحت مؤخرا مصدرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه لدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه المناطق ، وقد برز العديد من المؤرخين الذين تخصصوا في دراسة هذه السجلات ، فنص بالذكر منهم في الجزائر الفقيده الدكتور عائشة غطاس.

كما تشمل فئة العلمية المدرسين والعلماء والخطباء ، وكانت رواتب هؤلاء تدفع من الأوقاف التي يشرف عليها القاضي ، لهذا كان الارتباط بينهم وبين القاضي متينا<sup>(1)</sup>.

### -الأشراف :

أولت الدولة العثمانية عنايتها بالأشراف<sup>(2)</sup> على غرار الدول الإسلامية التي سبقتها<sup>(3)</sup> من خلال وجود موظف يشرف على السادة والأشراف وهو المسؤول عن تسجيل وضبط شجرة أنسابهم ، وكان مقر نقيب الأشراف في مركز الدولة اسطنبول ، وينوب عنه في بقية المدن أشخاص من السلالة ذاتها يلقب كل منهم بـ "قائمقام نقيب الأشراف" ، وينظر هؤلاء أيضا في شؤون السادة والأشراف ويسجلون مواردهم وملاحظة عدم قيامهم بما يتنافى مع الآداب والأخلاق ومعاقبة من يفعل العكس ، وكان عزل وتبديل قائمقام نقيب الأشراف يتم بإشارة من نقيب الأشراف نفسه<sup>(4)</sup> ، وتواجدت بحلب في بلاد الشام في منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي العديد من الأسر الشريفة مثل : أسرة السعدي ، أسرة البيلوني ، أسرة البتروني ، وآل العلبي ، وعائلة آل درهم ونصف ، وكان ممن تولى نقابة الأشراف بحلب والد محمد بن أحمد بن يوسف السيد الشريف الحسيني الاسحاقي الذي توفي سنة 959هـ / 1552م<sup>(5)</sup> أما في بعلبك فكان السيد زين هو نقيب الأشراف بها سنة 1021هـ ،<sup>(6)</sup> وأما في دمشق فكان نقيب الأشراف السيد

(1) - حجة رقم 1 ، مؤرخة في أواسط جمادى الثانية 1081هـ / 29- 10- 1670م ، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173 (1081- 1083 هـ / 1670- 1672م) ج1 ، سبق ذكره ، ص107.

(2) - الأشراف : هم من اتفق على انحدارهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وعن طريق الإمام علي كرم الله وجهه وزوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنها ابنة رسول الله ، فهم اذن أبناء وبنات سبطي الرسول الحسن والحسين ، ويطلق عليهم لقب السيد أو الشريف ، فلقب الشريف يطلق على المنحدرين من الامام الحسن أما لقب السيد فيطلق على المنحدرين من الامام الحسين. اسماعيل حقي جارشيلي ، أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني ، ترجمة خليل علي مراد ، ط1 ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، 2003 ، ص ص 24- 25.

(3) - ومنذ أواخر العصر العباسي وجدت للأشراف نقابات خاصة بهم يشرف على تولي أمور النقابة أحد الأشراف والتي من أهم وظائفها البحث عن السادة الأشراف والتثبت من صحة وصدق انتسابهم إلى الطائفة سميت بـ " نقابة الأنساب " . نفس المرجع ، ص25.

(4) - نفس المرجع ، ص 29.

(5) - نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة ، ج2 ، مصدر سابق ، ص25.

(6) - محمد البوريني ، تراجم الأعيان من أبناء الزمان ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 226.



السيد محمد الحسيني وكان على المذهب الحنفي<sup>(1)</sup>، بينما كان نقيب الأشراف في بيروت هو السيد حسين<sup>(2)</sup>.

## 1 - ج - رجال القلم (القلمية) وتمثل في :

### -الدفتردار:

الدفتردار<sup>(3)</sup> هو المسؤول عن الشؤون المالية والإدارية المتعلقة بالإيالة، وعضوا بارزا في ديوانها، يتم تعيينه بموجب براءة صادرة عن الديوان الهمايوني عليها طغراء<sup>(4)</sup> السلطان، استنادا إلى عناصر الأمانة والاستقامة والدراية في تحصيل الأموال والكفاءة في إدارة الشؤون المالية<sup>(5)</sup>، وليس للبكلربكي أي دور في هذه العملية، لذا فهو يتمتع باستقلالية تامة رغم أنه يعمل تحت إشرافه، وهي الميزة التي ترى فيها الإدارة المركزية بأنها تمكنها من كبح جماح البكلربكي إذا ما فكر في كسر عصا الطاعة.

(1) - ولد السيد محمد الحسيني بدمشق، وسافر رفقة والده إلى اسطنبول في سنة 1040هـ وحج في سنة 1050هـ. محمد أمين بن محب الدين المحبي (ت: 1111هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج4، القاهرة، 1869، ص124.

(2) - عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986، ص79.

(3) - الدفتردار : بمعنى صاحب الدفتر أو حافظ السجلات، كما يعني كبير المحاسبين وقد وردت في قانوننامه محمد الفتح بأنه "وكيلنا على أموالنا وناظرنا عليها من قبلنا"، وبالتالي فهو مسؤول المالية. أنظر: خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص533.

- مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية : دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية ( من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات ) 1517 - 1924، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص117.

- facts on fille, Inc, New york, AGOSTON (G), Encyclopedia of the Ottoman Empire, U.S.A, 2008, p305.

- SOMEL (S.A), Historical Dictionary, op.cit, pp72-73.

(4) - الطغراء : ختم السلطان الذي يضعه في وسط فرمان الصادر عنه ، و تعرف كذلك باسم نيشان همايون وهي علامة الملك وتوقيعه. أنظر: فيصل عبد الله الكندري : "الفرمانات السلطانية : دراسة في نظم فرمانات الهمايونية ورسومها " من : حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية ، صادرة عن مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، الرسالة 151، الحولية 21، سنة 2000، ص27.

(5) - تضمنت براءة تعيين أحد دفتردارات مصر في النصف الأول للقرن 16م ما يلي: " ينبغي أن يكون المرشح لهذا المنصب موصوفا بمكارم الأخلاق ومستحق لهذا المنصب وذو أمانة واستقامة وعلى دين، كما أنه يجب أن يكون موصوفا بالكفاءة العالية في الأعمال الكتابية، وأن يرى فيه السلطان أنه يمكن الاعتماد عليه، وأنه مستعد لبذل جهده ومسايعه في تحصيل الأموال السلطانية الميرية وفي صيانة الرعية..." أنظر: دفاتر الديوان الهمايوني رقم 91 ص349. نقلا عن: سيد محمد السيد، تاريخ مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر -دراسة وثائقية، مرجع سابق، ص360.

لكن الأمور تغيرت نوعاً ما ابتداءً من أواخر النصف الثاني للقرن السادس عشر، حينما أضحت عادة تقديم الهدايا للسلطين وأعضاء الديوان الهمايوني أساساً للوصول إلى أسمى المناصب بما فيها دفتردار الإيالة، لكن دون المساس - إلى حد ما - بالشروط الأخلاقية والمهنية المذكورة.<sup>(1)</sup> وتخصص له مورداً مالياً<sup>(2)</sup>، ويساعده مجموعة من الموظفين أبرزهم:

الروزنامه جي<sup>(3)</sup> والمحاسبة جي: وهو الذي يقوم بالتدقيق والمراجعة لهذه الدفاتر، إلى جانب الشهر أمني؛ وهو أمين المدينة وفي نفس الوقت نائب دفتردار الخزينة، والمقاطعة جي المكلف بتحصيل الضرائب من الأولوية التي تتبع الإيالة، ويذكر قانوننامه محمد الفاتح بأن دفتردار التيمار<sup>(4)</sup> يرتقي من بين المتفرقة الذين يتقاضون علوفات (أي رواتب وأجور)<sup>(5)</sup>، ومن ثمة يمكن ترقيةهم إلى وظيفة دفتردار الخزينة.<sup>(6)</sup>

يتولّى الدفتردار إدارة الشؤون المالية، ويطبّق التعليمات التي ترده من السلطان أو الديوان الهمايوني بواسطة الأحكام السلطانية، لذلك سوف نعتمد على هذه الأحكام لإبراز المهام المنوطة بالدفتردارية ككل، لكن يجدر بنا أولاً أن ننوّه إلى أنّ الدولة العثمانية قد استحدثت مباشرة عقب توسّعها في بلاد الشام سنة 1516م دفتردارية عربستان<sup>(7)</sup> ومقرّها مدينة حلب<sup>(8)</sup> استمرت دفتردارية عربستان تؤدي دورها إلى زمن

(1) - سيد محمد السيد، تاريخ مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر - دراسة وثائقية، مرجع سابق، ص 361.

(2) يُخصّص لدفتردار الإيالة في بلاد الشام زعامت يتراوح وارتداها السنوي ما بين عشرين ألف أقة ومائة ألف أقة إلا أقة واحدة، وهذا الإقطاع يُمنح سواء لدفتردار الخزينة أو دفتردار التيمار، وهما بذلك مُلزمان بأداء ما عليهما من واجبات وهي (جبه لو) واحداً عن كلّ خمسة آلاف أقة زائدة عن الحد الأدنى للزعامت. فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003، ص 111.

(3) - أي ممسك دفتر اليومية حيث يسجل يومياً ما يرد إلى الخزينة وما يصرف منها. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 2، سبق ذكره، ص 307.

(4) - المسؤول عن التيمارات في الولاية. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 2، ص 305.

(5) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 538.

(6) - (هـ) جب و (هـ) بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ج 1، ص 212.

(7) - مهمة دفتري E.12321، ص 159 ب، الحكم 390، مؤرخ في 9 محرم 952هـ / 03/23/1545م. نقلاً عن: فاضل

بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 1، سبق ذكره، ص 104 - 105.

(8) - كانت دفتردارية عربستان هي المسؤولة عن إيالات ديار بكر و حلب والشام و طرابلس الشام و أروروم، وفي نفس الوقت استحدثت دفتردارية خاصة بكل إيالة. خليل اينالجيك ودونالد كواترت، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 206.

السلطان سليم الثاني (1566 - 1574م)، حيث تقلّص دورها وأصبحت مسؤولة عن حلب فقط.<sup>(1)</sup>

تتلخص مهام الدفتردار في الإشراف على عمليات التحرير وإنجاز الدفاتر الدقيقة عن موارد وإمكانات ألوية بلاد الشام ، وتقديمها إلى الديوان الهمايوني ليتسنى العودة إليها حين الحاجة لإجراء تحريات في قضية ما، أو البث في مسألة من المسائل المالية ذات الصلة دون إهدار للوقت،<sup>(2)</sup> كما يقوم بتحصيل الضرائب والتنبه من عمليات التهرب من آدائها، أو التعدي والتحايل أثناء جبايتها،<sup>(3)</sup> ويشرف على عمليات التفتيش والتقصي وإجراء التحقيقات بمساعدة الموظفين العاملين تحت إمرته،<sup>(4)</sup> وتقديم الدعم للدعم لقافلة الحج الشامي بشريا،<sup>(5)</sup> وماديا،<sup>(6)</sup> والتكفل بتغطية مصاريف الحملات العسكرية، ودفع

<sup>(1)</sup> - آخر حكم سلطاني موجه إلى دفتردار جانب العرب عثرنا عليه ، هو الحكم رقم 356 الوارد في دفاتر المهمة رقم 7 ومؤرخ في 5 ربيع الثاني 975هـ الموافق لـ 5 ديسمبر 1567م ، وبذلك فهو يعود إلى السنة الثانية من حكم السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني والذي يبدو أنه اقتنع بعدم جدوى استمرار هذه الدفتردارية. أنظر كذلك : فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، ج2 ، سبق ذكره ، ص86.

<sup>(2)</sup> - مهمة دفترتي ، طوب قايي E.12321 تسلسل 390 ، ص159 ب. نقلا عن : فاضل بيات ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ، العثمانية ، مج1 ، سبق ذكره ، ص ص280 - 281.

<sup>(3)</sup> - تم اكتشاف تلاعب في تحصيل المال الميري في المملحة المتواجدة بمنطقة (جبول) بإيالة حلب ، فصدر الأمر للدفتردار بالتحري و استعادة المال الميري إلى خزانة الدولة ، و معاقبة المتلاعبين به . مهمة دفترتي E.12321 ، ص180 ، ب181 ، الحكم 443. نقلا عن : فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، ج1 ، سبق ذكره ، ص ص105 - 108.

<sup>(4)</sup> - فقد لاحظ دفتردار الشام على جلبي أثناء قيام كل من المحاسبة جي والمقاطعة جي بعمليات مراجعة بعض الدفاتر في أواخر سنة 952هـ / مطلع 1545م بأن هناك تلاعبا حدث في مبالغ التزام خواص السلطان في طرابلس الشام وحساباتها التي جرت في عهد الدفتردار السابق ، فما كان منه سوى مكتابة الديوان الهمايوني ومكاشفته حول هذه القضية ، فصدر إليه الحكم الشريف بالقيام - وعلى وجه السرعة - بالتحري حول مجموع قيمة الالتزام ، وكم حاصل خاص أمير السنجق؟ ، وكم بقي في عهدة الملتزمين؟ ، وأن يقوم الدفتردار بتحصيل المال الميري للخزينة العامة وأن يتم ذلك بحسب الشرع والقانون وتجنب ما يخالف الأمر ، واستعمال الطغراء لإزالة أي لبس. مهمة دفترتي E12321 ص198 الحكم 483. نقلا عن : فاضل بيات ، نفسه ، ص ص114 - 116.

<sup>(5)</sup> - على ضوء مراسلة من دفتردار العرب محمد جلبي سنة 966هـ / 1559م إلى الديوان الهمايوني يستشير فيها الديوان عما يجب القيام به حيال طلب بكربكي الشام إعداد القوة الأمنية التي ترافق قافلة الحج والمقدرة بمائة نفر من السباهية ومائة وخمسين من الانكشارية ومحافظي القلاع ، أي ما مجموعه مائتان وخمسون نفرا ، و أن البكربكي طلب إضافة خمسين سباهيا لهذه القوة على ضوء الأخبار التي وصلت إليه ومفادها أن زعيم أحد العشائر البدوية يستعد لشن غارات على قافلة الحج ، فصدر الأمر إلى الدفتردار بالتكفل بالخمسين سباهيا التي طلبها بكربكي الشام مهمة دفترتي ص3 122 الحكم 317. نقلا عن : فاضل بيات ، نفسه ، ج1 ، ص164.

<sup>(6)</sup> - يحرص الديوان الهمايوني على دفتردار الشام أن يوفر المال الكافي لاحتياجات القافلة ، وفي حالة ما إذا لم يتوفّر المال الكافي في خزانة دمشق الشام ، فلا بدّ من طلب هذه النقود من خزانة حلب. مهمة دفترتي ص7 407 الحكم 1170. نقلا عن : فاضل

مواجب<sup>(١)</sup> الانكشارية، وتوفير المؤن، وترميم وإعمار القلاع العسكرية،<sup>(2)</sup> وتوفير الخشب لبناء السفن في بعض موانئ الشام و المصاريف اللازمة لنقلها، وبما أنّ هذا النوع من المهام له أهمية قصوى للجانب الأمني، فإنّ الدفتردار يتلقّى من حين لآخر تحذيرا شديدا من مغبة التقاعس أو السعي لعرقلة ذلك<sup>(3)</sup>، و بالرغم من أنّ عمله ليس ذو طبيعة أمنية إلا أن الدولة تكلفه بهذه المهام<sup>(4)</sup>.

أمام هذه الأعباء المالية الضخمة يلجأ الدفتردار إلى الضرائب العارضة والتي تفرض على الرعية<sup>(5)</sup> و يجب عليه توخي الحيلة من أيّ تلاعب في تحصيلها للخزينة أو التجاوز عليها<sup>(6)</sup>، كما يراقب الإقطاعات الممنوحة للسباهيين، و يُجري تفتيشا على الأملاك المخصصة للمؤسسات الوقفية<sup>(7)</sup>، و يتصدى لأيّ عمل مخالف للشرع ولشروط الواقف<sup>(8)</sup>، وهذا بضبط شؤون الإقطاعات في الإيالة وعرضها على الديوان الهمايوني قبل الشروع في عملية منحها من جديد على السباهيين<sup>(9)</sup>، و يقوم بإعداد ميزانية<sup>(1)</sup> إيالته باعتبار

بيات (إعداد وترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، 977هـ / 1570م - 979هـ / 1572م، ج3، الجامعة الأردنية، عمان، 2007، ص115.

<sup>(1)</sup> - يطلق على رواتب الجند النقدية اسم ( علوفة) أو (مواجب) و تؤدي أربعة أقساط في السنة . ساحللي أوغلي ، مرجع سابق، ص 503.

<sup>(2)</sup> - يقوم الدفتردار بتقدير كلفة المشروع بواسطة محمّنين مختصين و يرسل تقريراً مفصلاً للديوان الهمايوني. مهمة دفترتي 7، ص288 الحكم 814. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج2، سبق ذكره، ص106.

<sup>(3)</sup> - مهمة دفترتي 7 ص225 الحكم 620. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، نفسه، ص96.

<sup>4</sup> ورد في حكم سلطاني إلى الديوان الهمايوني أن الوزير مصطفى باشا الشام راسل الديوان الهمايوني مخبرا إياه بأن الذهب الموجود في خزينة دمشق الشام لا يكفي لطائفة السباهية والانكشاريين الملتحقين بالحملة على اليمن، لذلك ينبغي أن يدفع المقدار من الذهب من خزينة حلب فصدر الأمر إلى دفتردار حلب بتهيئة مائة ألف ذهبا وتسليمها إلى البكلربكي ليوصلها بدوره إلى قائد الحملة. أنظر: مهمة دفترتي 7 ص432 الحكم 1249. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ج3، صص 122 - 123.

<sup>(5)</sup> - تفرض الدولة ضرائب نقدية أو عينية على الرعية، فإذا كانت عينية - كإمداد الجيوش - وجب عليها أن تسد حاجته الغذائية عند كل منزل ينزله، و لذلك تعرف بضريبة النزل و تقدم قمحا أو شعيرا أو ما يقابلهما نقدا لمن كان بعيدا عن خط سير الجيش. أنظر: خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص27.

<sup>(6)</sup> - مهمة دفترتي: طوب قايي E.12321، ص208 ب - 1209، الحكم 502. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج1، سبق ذكره، صص 121 - 123.

<sup>(7)</sup> - لاحظ دفتردار تيمارات الشام غموضا في تسيير أوقاف الحرمين الشريفين في لواء الشام خاصة بعد اختفاء الدفاتر الخاصة بها، فراسل الديوان الهمايوني بضرورة تزويده بالدفاتر المتواجدة بإيالة حلب للتحقق منها، و الذي استجاب لطلبه على الفور لكشف الغموض واستجلاء الحقيقة. مهمة دفترتي: 118، الحكم 306. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، صص 159 - 160.

<sup>(8)</sup> - مهمة دفترتي 3: 119، الحكم 307. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، صص 160 - 161.

<sup>(9)</sup> - مهمة دفترتي 3 ص148، الحكم 397. نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ص169.

أنه هو المسؤول عن جباية مواردها، وهو نفسه الذي يقوم بصرف ما كان يجب صرفه وفي الجانب الذي يراه مناسباً، ولا يجزؤ على أن يتجاوز ذلك في أغلب الأحيان ما لم تصله الأحكام السلطانية التي تأمره بخلاف ذلك.<sup>(2)</sup>

## 2 - المحكومون (الرعايا) :

هم القسم الباقي خارج طبقة العسكريين فهم لا يشاركون في الحكم والادارة، ويشكلون الطبقة الثانية في المجتمع العثماني، والقطاع الذي يدفع الضرائب للدولة ويؤمن معيشته بالعمل في الزراعة والصناعات والاشتغال بالتجارة، وهذه الفئة من الناس هي التي تُعرف باسم الرعية أو الرعايا أي قطاع الأهالي الذين يشملهم الحاكم برعايته وحمايته<sup>(3)</sup> وشملت هذه الفئة الطوائف الدينية المختلفة سواء المسلمين الذين يشكلون الأغلبية أو أهل الذمة<sup>(4)</sup> من النصارى واليهود، وضمت التجار والحرفيين وأهل الصنائع من سكان المدن، والفلاحين القرويين من أصحاب الريف، وكذا العشائر البدوية التي غالباً ما تعيش بين الحل والترحال بحثاً عن مواطن الكلاً لماشيتها.

## ثالثاً - السكان بحسب طوائفهم الدينية :

(1) - الميزانية حسب المفهوم العثماني للقرنين 16م و17م ماهي إلّا "إجمالي واردات ونفقات الخزنة العامة في سنة خلت" وهي العبارة التي تردّ دوماً في مطلع كلّ ميزانية لهذه الفترة. أنظر: خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص19.

(2) - كان الدفتردار - بأمر من الديوان الهمايوني - يسدد مواجب الانكشارية المعيّنين للمشاركة في الحملات العسكرية كما حدث للحملة على اليمن سنة 1567م. راجع: دفتر مهمة 7ص 432 الحكم 1249. نقلا عن: فاضل بيّات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، سبق ذكره، ص ص 122 - 123.

(3) - احسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص 551.

(4) - الذمة بمعنى العهد وأمان والضمان والحرمة والحق، وسُمّي أهل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم، فأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود ممن يقيمون ببلاد المسلمين، وقد أطلق عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - اسم أهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان، وكفل لهم حرية العبادة دون الوثنيين مقابل أدائهم الجزية وإذا واطبوا على أداء الالتزامات المفروضة عليهم ضمن حماية الحكومة الإسلامية لهم بوصفهم من المعاهدين أو أهل الذمة. سلوى علي ميلاد، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص 7.

يتشكل الرعايا من جماعات وطوائف مختلفة تنتمي لأديان ومذاهب وأعراق متعددة دون أن يكون المجتمع مبنيا على أسس عرقية إنما على أسس فكرية وعقائدية، ومن أجل أن تنظم الدولة العثمانية العلاقة بين هذه المكونات أوجدت نظام الملة<sup>(1)</sup>، الذي لم يحمل نظام الملة أية دلالة عنصرية، إنما فقط للتمييز بين غير المسلمين من المسلمين في إدارة شؤونهم الخاصة دون الخروج عن الإطار العام للدولة<sup>(2)</sup>.

ينتمي سكان بلاد الشام إلى الديانات السماوية الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، كما يمكن أن نلاحظ التنوع حتى داخل الطائفة الواحدة، وكان السكان المسلمون يشكلون الغالبية العظمى من السكان، بينما أهل الذمة (من النصارى واليهود) شكلوا أقلية، وكانوا يدفعون الجزية، ومن خلال الوثائق العثمانية (دفاتر التحرير و دفاتر المهمة العثمانية و سجلات المحاكم الشرعية ) يمكن تتبع تطور أعداد سكان مناطق بلاد الشام وكذا تعداد كل طائفة من هذه الطوائف.

## 1 -المسلمون:

يشكل المسلمون أغلبية سكان بلاد الشام وفي مختلف الايالات سواء الشام أو حلب أو طرابلس أو الرقة ثم ولاية صيدا -بيروت - صفد في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ورغم أن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة إلا أن أغلبية سكان بلاد الشام كانوا سنة على المذهب الشافعي، وإلى جانب أهل السنة والجماعة كانت هناك أقلية من الشيعة المتأولة<sup>(3)</sup> والاسماعيلية والعلوية.

اعتمادا على دفاتر التحرير العثمانية يمكن أخذ فكرة واضحة على أعداد المسلمين، وإن كانت هذه الدفاتر لا تشير إلى مذاهبهم إن كانوا سنة أو شيعة أو غيرهما، ففي نهاية القرن السادس عشر ( 1005هـ / 1596م) كان لواء الشام يحوي 59.424 نفرا من المسلمين، في مقابل 6.490 نفرا من النصارى، و 698

(1) - ظهر نظام الملة نتيجة لجهود الإدارة العثمانية الآخذة بتأسيس مجتمع عثماني متنوع سكانيا منذ فتح القسطنطينية سنة 1453م، فاعترفت الدولة للأقليات الدينية المسيحية واليهودية بمستوى من الحقوق والحريات وكانت لا تتدخل من حيث المبدأ في قضاياهم الدينية مما كان له أثارا ايجابية عليهم وساهم في اندماجهم كليا في جسم الدولة مع احتفاظهم بخصوصياتهم الدينية . قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية، قراءة جديدة في عوامل الانحطاط، ط2، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2003، ص 83 - 85.

(2) - حلمي خليفة علي درادكه، يهود القدس في النصف الأول من القرن التاسع عشر (دراسة اجتماعية - اقتصادية)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014، ص ص 105 - 106.

(3) - أول ظهور للشيعة المتأولة كان في سنة 1698م بقيادة شيخ ينتمي إلى فرقة اليمانية، وكانوا يقطنون المنطقة الجبلية الواقعة بين الجليل وصيدا. جب و بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، ص 314.

نفرا من اليهود فقط<sup>(1)</sup> ، أما في مدينة القدس فنجد بأن المسلمين سكنوا ثمانية أحياء من أحياء المدينة العشرة ، وحسب ما أورده الدفتر 289 فإن عددهم بلغ 1990 خانة و 131 مجردا يضاف إليهم 1254 خانة تمثل أولئك الذين هم معفون من الضرائب الديوانية ممن هم من الأشراف و الأئمة و باقي الموظفين ، ومن أكبر محلات القدس التي يتواجد بها المسلمون هي محلة باب العمود التي تضم 429 خانة و 32 مجردا<sup>(2)</sup> ، وكانت مدينة القدس تستقبل باستمرار الكثير من الوافدين من حلب ، وحماة ، ودرعا ، و نابلس ، والكرك ، وعجلون ، ومصر ، والمغاربة بغرض المجاورة أو العمل في مجالات تجارية ومهنية مما ساهم في تضاعف سكان المدينة ككل<sup>(3)</sup> .

وعرفت بيروت نفس الوضع من تزايد لعدد المسلمين بين إحصائي 1523م و 1564م كما يبينه الجدول التالي :<sup>(4)</sup>

| الدفتر         | السنة | المسلمون |      |      |
|----------------|-------|----------|------|------|
|                |       | خانة     | مجرد | إمام |
| <b>T.D.430</b> | 1523م | 462      | 26   | 14   |
| <b>T.D.543</b> | 1564م | 773      | 117  | 11   |

يتضح من الجدول مدى استفادة بيروت من الظروف الاقتصادية وتحولها إلى مرفأ تجاري نشيط استقطب إليه أعدادا من الأسر والمجربين.

## 2 -النصارى:

عاش النصارى في معظم بلاد الشام وكانوا أحد مكونات المجتمع رغم كونهم أقلية ، وانقسم النصارى في بلاد الشام الى عدة طوائف منها : اللاتين و السريان ( المقصود بهم طائفة اليعاقبة ) والأرمن ، واليونانيون ، والكرج والفرنسيسكان ، والموارنة والإفرنج ، ومن أبرز المدن التي سكنوها نجد القدس بما

(1) - خليل ساحللي أوغلي من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 80.

(2) -لواء القدس الشريف من دفتر مفصل T.D.289 Is لسنة 961هـ/ 1533 -1534م ، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية : محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي -لندن، عمان 2010 ، ص 14.

(3) - نفسه ، ص 18.

(4) - جان شرف ، جبل لبنان في القرن السادس عشر: الديموغرافيا والاقتصاد من خلال الدفاتر العثمانية ، منشورات جامعة الروح القدس ، لبنان 2008 ، ص 265.



تمثله من أهمية لهم، إضافة لبيت لحم، و بيت جالا، وطرابلس، وحلب، ودمشق، وحماة، وحمص، وتوجد عدة فرق للنصارى منها: الملكانية واليعقوبية والنسطورية<sup>(1)</sup>، ولم تكن هناك إحصائيات دقيقة لعدد النصارى في بلاد الشام سوى ما ذكره بعض الرحالة الغربيين<sup>(2)</sup>، بينما الأعداد الحقيقية هي التي ظهرت بعد عمليات الإحصاء التي أجراها العثمانيون منذ مطلع القرن 16م 1520 - 1535 حيث أظهرت أرقام خانات النصارى في ولاية العرب (وهي أول ولاية أقامها العثمانيون في بلاد الشام بعد عودة السلطان سليم من مصر سنة 1517) بنحو 914 خانة<sup>(3)</sup>، وباعتماد الرقم 5 كمتوسط لعدد أفراد الخانة يكون عدد النصارى هو 4570 شخصا<sup>(4)</sup>، وكان أكبر تجمع للنصارى في مدينة القدس الشريف.

هناك تزايداً في أعداد السكان سواء من حيث توزيعهم في مدينتي القدس و الخليل وخارجهما أو من حيث الانتماءات الدينية بحيث شملت الزيادة السكان المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود، ويمكن أن يفهم من وراء هذا التزايد في العدد وكذا ظهور قرى و محلات جديدة إلى أن الاجراءات المتخذة من قبل السلطات العثمانية في الجوانب الإدارية والأمنية، إضافة لعامل حرية التنقل في سائر أراضي الدولة العثمانية قد شجع كثيراً لأن تكون مدينة القدس - بمكانتها الدينية والروحية - مركز جذب واستقطاب للسكان.

أما في الشام فقد تواجد النصارى في دمشق الشام حيث كانت لهم محلة خاصة عرفت بمحلة النصارى تقع في الجزء الشمالي الشرقي من البلدة القديمة، كانت تضم حسب احصاءات دفاتر التحرير لسنوات 1543، 1548، 1569، حيث بلغ عددهم 546 خانة و 31 مجرد سنة 1543، و 704 خانة و 96 مجرد سنة 1548، وارتفع العدد إلى 1021 خانة و 164 مجرد سنة 1569، ممثلة نسب 7% و 7.5% و 12% من

(1) - الملكانية : وهم أتباع ملكان الذي ظهر ببلاد الروم واليعاقبة و هم أتباع ديسقوس بطريرك الإسكندرية والنسطورية أتباع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية ، أنظر : القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مج 13، دار الكتب المصرية القاهرة، 1922، ص ص 276 - 279.

(2) - قدّر الرحالة الأوربي فيليكس فابري عدد السكان النصارى في القدس عام 888هـ/1483م بنحو ألف شخص . ابراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي و المملوكي رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة دمشق، 1990، ص 77.

(3) - Omer lutfi Barkan : « essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siècles » op cit, p20.

(4) - ibid p21 .



مجموع الأسر (الخانات) التي تتشكل منها مدينة دمشق،<sup>(1)</sup> وأشارت دفاتر الطابو إلى وجود عدد من المسيحيين الذين يبدو أنهم من خارج المدينة واستقروا بها بدليل أن محرر الدفتر استعمل مصطلح (جماعت) ولها نحو 19 زقاقا في المدينة، وليس معلوما مذهبهم لكن الواضح أن بعضهم كانوا من الموارنة بدليل وجود بطريك ماروني خاص بهم.<sup>(2)</sup>

واستقر النصارى خارج دمشق كما هو الحال في (قارا) كما يوضحه الجدول التالي المستخلص من دفتر طابو رقم 430 العائد لسنة 930 هـ / 1523 م:<sup>(3)</sup>

| الدفتر | السنة      | عدد القرى | المسلمون |      | النصارى |      |
|--------|------------|-----------|----------|------|---------|------|
|        |            |           | خانة     | مجرد | إمام    | خانة |
| 430    | 930هـ/1523 | 9         | 711      | 132  | 13      | 442  |
| 401    | 950هـ/1534 | 17        | 1530     | 304  | 19      | 806  |
|        |            |           |          |      |         | 142  |
|        |            |           |          |      |         | 159  |

إذا ما نظرنا إلى مجموع القرى استنادا إلى الدفتر الأول (430) فإننا نجد أنها تسكنها 1153 خانة من المسلمين و المسيحيين، وارتفع العدد إلى سبعة عشر قرية في الدفتر الثاني (401)، وانعكس ذلك مباشرة على عدد الخانات الذي بدوره تضاعف خلال عشر سنوات التي تفصل الدفتر الأول عن الدفتر الثاني، وهذه الظاهرة تعكس الزيادة في عدد السكان بصفة عامة التي شهدتها بلاد الشام مع مطلع العهد العثماني.

أما في حلب فقد سكن النصارى في زقاق الأربعين والذي أخذ اسمه من الأربعين عائلة مسيحية التي استوطنته بهدف تدعيم النشاط التجاري بالمدينة، وقد تطور عدد ساكنيه من النصارى سنة 1537 م إلى

(1)- Brigitte Marino, Le « Quartier des Chrétiens » (Mahallat al-Nasara) de Damas au milieu du XVIIIe siècle (1150-70/ 1737-57), REMMM 107-110, p325.

(2)- Muhammad Adnan Bakhit, The Ottoman Province Of Damascus in the sixteenth century, Thesis submitted for the degree of doctor, University of London, 1972, p57.

(3) - ibid, p46.

553 خانة من مجموع 10270 خانة في مدينة حلب أي بنسبة 5.4%<sup>(1)</sup> بينما يورد الرحالة الفرنسي تافرنيه الذي زار حلب في سنة 1638م الانتماءات المذهبية لطائفة النصارى وأعداد المنتسبين لكل مذهب " ضواحي المدينة كبيرة ومأهولة بالسكان ، جميع مسيحيي البلد تقريبا يقيمون في هذه الضواحي ، ولهم فيها كنائس وبيوت ، وبحلب أربعة أصناف من المسيحيين المشاركة هم: الروم ، والأرمن واليعاقبة (أو السريان) والموارنة ، وللروم مطران ويعدّون 15000—16000 وكنسيتهم مكرسة باسم القديس جورجوس ، أما الأرمن فعددهم نحو 2000 ، أما اليعاقبة فعددهم نحو 10000<sup>(2)</sup> .

نجد نفس الشيء في طرابلس ، حيث ورد حسب الدفتر رقم 68 لسنة 925هـ/1519م وجود أربعين قرية في ناحية بشرّي في لواء طرابلس منها 35 قرية يسكنها نصارى فقط وعددهم 863 خانة<sup>(3)</sup> ، وفي حماة تواجد النصارى بطائفتهم النصارى الملكية ، ويقيمون في زقاق الكنيسة في محلة المدينة وطائفة النصارى اليعاقبة ويقيمون في محلة تحت الشجرة ، لكن هذا لم يمنع تواجد بعض البيوت في محلات أخرى في المدينة<sup>(4)</sup> ، كما تواجد في نفس عجلون 9 خانات من النصارى<sup>(5)</sup> .

(1) - André RAYMOND, Alep à l'époque Ottoman (xvIe siècles), in : Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n° 62, 1991. Alep ET la Syrie de Nord, p97.

(2) - Jean Baptiste Tavernier ; les six voyages de Jean Baptiste Tavernier ECUYER BARON D'AUBONNE Qu'il a Fait EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDES ; 1ere partie, Paris, p137.

(3) - عصام خليفة، أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 58 - 59.

(4) - عبد الودود محمد يوسف برغوث : " تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989 هـ / 1581م " مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، مج 16 ، ج 1 ، سنة 1966 ، ص 76.

(5) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970 اسطنبول ، دراسة وتحقيق وترجمة : محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 1989 ، ص 56.

### 3 - اليهود :

شكل اليهود جزءاً من التركيبة السكانية للدولة العثمانية عامة و بلاد الشام بشكل خاص لكنهم كانوا يشكلون أقلية وكان يهود دمشق يقسمون إلى ثلاث فرق دينية رئيسية هي : اليهود الربانيون<sup>(1)</sup> ، واليهود القراؤون<sup>(2)</sup> ، واليهود السامريون<sup>(3)</sup> .

تواجد اليهود في مدينة القدس الشريف وأطرافها ، فقد أشار دفتر التحرير 427 العائد لبدايات الحكم العثماني في بلاد الشام بأن عدد اليهود المتواجدين بمدينة القدس هو 199 خانة ذكرها الدفتر باسم جماعة اليهود ، ثم زاد العدد بعد ذلك كما يوضحه الدفتر 1015 العائد لسنة 945هـ/ 1538 - 1539م إلى 230 خانة و 4 مجردين موزعين على ثلاث محلات هي : محلة شرف 85 خانة (و يقيمون جنباً إلى جنب مع المسلمين) ، محلة مسلخ 43 خانة و 4 مجردين ومحلة دابسة و وصل تعدادهم فيها إلى 102 نفر (خانة) ، ثم زاد عدد اليهود في مدينة القدس ليصل حسب الدفتر 289 لسنة 961هـ/ 1553 - 1554م إلى 324 خانة و 13 مجرداً و مجنون واحد<sup>(4)</sup> ، أما في أواخر القرن القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الهجريين فقد أوردت سجلات المحاكم الشرعية العديد من القضايا التي تتعلق بأعدادهم و معاملاتهم و علاقاتهم ، ففي إحدى الوثائق التي تعود الى سنة 980هـ عندما أمرت الإدارة العثمانية في الشام إجراء إحصاء جديد بناء على طلب اليهود تبين أن عددهم كان 115 نفراً منهم 60 نفراً لجهة الخاص السلطاني و 55 نفراً لجهة أوقاف الحرم الشريف في القدس ، وهو ما يبين بأن العدد كان محدوداً<sup>(5)</sup> ، وبعد نحو 35 سنة تشير وثيقة أخرى مؤرخة في

(1) - الربانيون (أو الربيون Rabbinate أو الناموسيون) وهم الكتاب والناقلون والدارسون والمفسرون للناموس المقدس ، وكان أفراد هذه الطائفة الأوفر عدداً من جميع الطوائف اليهودية الأخرى في دمشق. يوسف نعيمة ، يهود دمشق ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، دمشق ، 1988 ، ص 10.

(2) - القراؤون : هم الطائفة اليهودية الثانية في دمشق ، وكانت مبادؤهم تقوم على تقديس يوم السبت ، والإيمان بالتوراة فقط دون التلمود ، ويختلفون عن اليهود الربانيين إلى درجة أنهم يعتبرونهم كفاراً. أكرم حسن العليبي ، يهود الشام في العصر العثماني من خلال سجلات المحاكم الشرعية في مركز الوثائق التاريخية بدمشق : 991 - 1336هـ / 1583 - 1909م ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق 2011 ، ص 17

(3) - السامريون : اسم مشتق من السامرة عاصمة مملكة اسرائيل القديمة ، تقع على سفوح جبل نابلس ، وعددها قليل جداً. المرجع السابق ، ص 11.

(4) - دفتر تحرير 289 اس ، سبق ذكره ، ص ص 257 - 265.

(5) - كامل جميل العسلي ، وثائق مقدسية تاريخية ، مج 2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط 1 ، الأردن ، 1985 ، ص 285. ص 285.

سنة 1015هـ أن عدد غير المسلمين في القدس من دافعي الجزية كان 154 نفرا منهم 60 نفرا من اليهود و الباقي من النصارى ( أي 94 نفرا<sup>(1)</sup> ) ، ونشير هنا بأن الأطفال والنساء ورجال الدين معفون من أداء الجزية ، وفي ناحية الخليل أشار دفتر الطابو العثماني العائد لسنة 940هـ / 1533 - 1534م إلى وجود عشرين عائلة يهودية فقط في حارة اليهود إضافة إلى شخص أعمى<sup>(2)</sup> .

أما في دمشق فنلاحظ وجودا معتبرا لليهود ، حيث يشير الدفتر طابو 401 لسنة 950هـ / 1543م و الدفتر 474 لسنة 977هـ / 1569م إلى أن أعدادهم تراوحت ما بين 512 خانة إلى 546 خانة ، أما المجردون فعددهم ما بين 12 و 56 مجردا ، ويشير الدفتر 474 إلى وجود (جماعت السمرا) في محلة بيت اللحية (لهيه /لهيا) وإلى يهود محلة العنابة ، إضافة إلي وجود يهود إفرنجيين و هم في الغالب اليهود الذين لجأوا إلى أراضي الدولة العثمانية بعد سقوط الأندلس ، وكذلك اشارة أخرى إلى اليهود القرائين واليهود في بستان القط من قرية جوبر واليهود الصقالبة<sup>(3)</sup> .

أما الفارس دارفيو الذي زار دمشق سنة 1660م فيذكر بأن قرية جوبر القريبة من دمشق تقطنها طائفة يهودية معتبرة وأن بها كنيسا لليهود ،<sup>(4)</sup> بينما كان عددهم مرتفعاً في لواء صفد ، فقد أورد دفتر الطابو رقم 72 (أنقرة) العائد لسنة 955هـ / 1548م أن عددهم يبلغ 1.192 خانة و 92 مجردا من اليهود ، كما أشار إلى اليهود السامريين ، وعددهم 5 خانات<sup>(5)</sup> بينما يتركز اليهود في مدينة حماة في زقاق الكنيسة في محلة المدينة ،<sup>(6)</sup> أما في حلب فقد سكن اليهود في أحياء غالبية سكانها من المسلمين ، ففي حي العقبة شكل اليهود اليهود نسبة 12٪ ، وفي سوق علي 11.8٪ ، وفي حي الدباغة العتيقة 07٪ ، وفي حي جب أسد الله 14٪ ،

(1) - كامل جميل العسلي ، وثائق مقدسية ، مج 3 ، سبق ذكره ، ص 155 .

(2) - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير T.D1015 لسنة 945هـ / 1538 - 1539م ، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية : محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن ، عمان 2008 ، ص ص 275 - 276 .

(3) - محمد عدنان البخيت " " العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو 474 سنة 977هـ / 1569م " ، ص ص 46 - 47 .

(4) - Arvieux Laurent d' (1635-1702). Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyer extraordinaire du roy à la porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres échelles du levant. Tome sixième, paris, ( Sans date d'édition, T2, p 461 .

(5) - خليل ساحلي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 84 .

(6) - عند الودود محمد يوسف برغوث : " تاريخ حماة " ، مرجع سابق ، ص 76 .

وفي الأحياء ذات الأغلبية اليهودية سكن المسلمون إلى جانب اليهود، حيث كانت نسبة المسلمين 31٪، وفي حي بحسيتا 9٪<sup>(1)</sup>.

جدول لأعداد المنتسبين للطوائف الدينية في ايلات بلاد الشام في الفترة ما بين 1570 - 1590م<sup>(2)</sup>

| الإيالة | المسلمون |       | النصارى | اليهود |
|---------|----------|-------|---------|--------|
|         | الحضر    | البدو |         |        |
| حلب     | 81203    | 47454 | 3386    | 233    |
| الشام   | 86369    | 4062  | 7867    | 2068   |
| طرابلس  | 34316    | 4698  | 11768   | 307    |

لقد قدمت الطوائف الدينية في بلاد الشام نموذجاً للتعايش بينها، فقد كانت المدينة تضم جماعات من أديان مختلفة، حيث كانت نسبة المسلمين هي الأكبر بينما كان اليهود يشكلون الأقلية، ونجد بأن كل طائفة تتجمع في محلة خاصة بها لكن هذا لم يمنع من أن يسكن في محلة اليهود عدد من المسلمين أو المسيحيين، أو تجمع المسلمين بالنصارى أو المسلمين باليهود مما يظهر ميزة العيش المشترك بين مختلف الطوائف الدينية في بلاد الشام.

#### رابعاً - السكان حسب شكل الاستيطان:

##### 1 - سكان المدن في بلاد الشام (الحضر):

المدن هي الأماكن التي يتكاثف بها النشاط الصناعي والتجاري وتجري فيها الأمور السياسية والإدارية والدينية والعسكرية، والقسم الأكبر من المدن يوجد على شكل قصبات (أي مدينة صغيرة) تحاط بالمزارع، وهي بمثابة السوق المركزية، وبجانب السوق نجد المسجد والخوانيت وعيون الماء، وعندما حل العثمانيون ببلاد الشام أنشأوا الكثير من العمائر والأبنية مثل المدارس والأسبلة والأسواق والبيمارستانات وغيرها من المنشآت الوقفية.<sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup> - محمود حريثاني، تاريخ اليهود في حلب ط 1، شعاع للنشر والعلوم، حلب، 2008، ص ص 95 - 96.

<sup>(2)</sup> - Omar Lutfi Barkan, "Research on the ottoman fiscal surveys", op cit, 1970, p171.

<sup>(3)</sup> - أكمل الدين احسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 558.

تنقسم المدن العثمانية عموماً إلى ثلاثة أقسام هي :

-مركز الولاية الذي يقيم فيه البكربكي وتعرف بسنجد الباشا

- مركز السنجد ويقيم فيه السنجقبيكي

- الأقضية (جمع قضاء) وهو أصغر من السنجد

وفي مركز السنجد نجد قاض له وظائف وصلاحيات في المجالات الدينية والبلدية المدنية، إلى جانب كونه قاضياً ينتمي إلى فئة العلمية.<sup>(1)</sup>

يسكن المدن الشامية عدا المنتسبين للفئة العسكرية وطبقة التجار وأرباب الصناعات أخرى مثل: التجار الأجانب، (خاصة حلب)، إضافة إلى من تركوا قراهم، والبائعين المتجولين (غير المنتسبين لأرباب الحرف)، إضافة إلى الأشراف.<sup>(2)</sup>

كانت المدن الكبرى عادة مركزاً للإيالة أو اللواء وتضم مجموعة من الأحياء أو ما يعرف بالمحلات (جمع محلة)<sup>(3)</sup>، وكانت بعض المحلات تتكون من عدد كبير من الأزقة تصلها ببعضها البعض.

تعتبر دمشق الشام وحلب أبرز مدينتين في بلاد الشام إضافة للقدس الشريف، وقد عرف سكان هاتين المدينتين تراجعاً على امتداد القرن السادس عشر، فبالنسبة لمدينة دمشق نجد:<sup>(4)</sup>

(1) - أكمل الدين احسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 560.

(2) - أحسان أوغلو: الدولة العثمانية، ج 1، ص 565.

(3) - لا تورد دفاتر التحرير مصطلح "حارة" الذي كثيراً ما جاء ذكره لدى المؤرخين العرب المعاصرين مثل ابن طولون الذي ترك كتاباً بعنوان "حارات دمشق القديمة" لكن الدفاتر في المقابل تستخدم مصطلح "محلة".

- Muhammad Adnan Bakhit, The Ottoman Province of Damascus in the sixteenth century, op cit, p56.

(4) - ibid , p57.

|        |       |             | المسلمون |        | النصارى |        | اليهود |        |
|--------|-------|-------------|----------|--------|---------|--------|--------|--------|
| الدفتر | السنة | عدد المحلات | الخانة   | المجرد | الخانة  | المجرد | الخانة | المجرد |
| 401    | 1523  | 36          | 7213     | 358    | 546     | 31     | 519    | 12     |
| 263    | 1548  | 37          | 8119     | 393    | 704     | 96     | 516    | -      |
| 470    | 1569  | 39          | 7054     | 322    | 1021    | 164    | 546    | 56     |

إضافة لهؤلاء ثبت وجود اثنين وتسعين من الأشراف بالمدينة ، وأربعة عاطلون عن العمل ، كما كان بالمدينة بعض الأكراد والتركمان كل في زقاقه ، فالکرد عددهم 19 خانة ، أما التركمان فعددهم 24 خانة و2 مجرد<sup>(1)</sup>.

وكان عدد المنازل (الخانة) بدمشق في الفترة بين 1569 - 1570م نحو 8667 خانة و542 مجردا (عازبا) ، وإذا اعتمدنا المعامل 5 ، نكون أمام العملية التالية :

$5 \times 8667 = 43335 + 542 = 43877$  نسمة ، وإذا أضفنا إليهم الموظفين والجنود والعلماء والقضاة والأئمة وغيرهم والذين يقدر عمر لطفي برقان بأن نسبتهم في حدود 10% ، أي 4387 ، فيكون مجموع سكان المدينة في حدود الثمانية والأربعين ألف نسمة.

وخلال القرن السابع عشر كان عدد سكان دمشق بحسب ما ورد في دفتر عوارض خانة دمشق<sup>(2)</sup> كما هو مبين في الجدول<sup>(1)</sup>:

(1) - ibid, p57

(2) - المقصود بدفتر عوارض خانة الشام هو الدفتر الذي تنجزه الهيئة الإدارية العثمانية المختصة في تسجيل الضرائب الديوانية العارضة ، ومما تجدر الإشارة إليه هو أن المقصود بخانة العوارض أو منزل العوارض ليس منزلا حقيقيا بل منزل مالي اعتباري للسكان بحسب وضعه الاقتصادي أو الاجتماعي ، لذلك لا يمكن استخدامه في احصاء السكان ما لم نكن نعلم فعلا كم هو عدد أفراد الخانة فعليا ، وهذا الدفتر الذي يعود لسنة 1086 هـ يحدد العدد بخمسة أفراد لكل خانة أو منزل عوارض. مصطفى أوزتورك : " دفتر عوارض خانة الشام عام 1086 هـ / 1675 - 1676م ، ترجمة سهيل صابان ، مجلة أسطور للدراسات التاريخية ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، الدوحة ، العدد 3 ، 2016 ، ص 193.

| المجموع | اليهود | النصارى | المسلمون |                 |
|---------|--------|---------|----------|-----------------|
|         |        |         | 8433     | الأحياء كلها    |
|         |        |         | 55       | جماعات التركمان |
|         |        | 604     | 316      | في محلة النصارى |
|         |        | 61      | 112      | في حي باب شرقي  |
|         | 380    |         | 17       | في حي اليهود    |
| 9978    | 380    | 655     | 8933     | المجموع العام:  |

من الجدول يمكننا أن نلاحظ بأن سكان دمشق كان قرابة العشرة آلاف خانة مضافة لها نسبة 10 % التي تشمل المعفيين من الضرائب وبالتالي لم يشملهم الإحصاء فنجد أنفسنا أم نحو الستين ألف نسمة، وبالتالي كانت الزيادة بعشرة آلاف خلال قرن كامل وهو ما يبدو أمراً معقولاً.

أما بالنسبة لمدينة حلب نجد تطور السكان كما هو موضح في الجدول التالي: <sup>(2)</sup>

| السكان | الفترة      |
|--------|-------------|
| 67344  | قبل 1520    |
| 56881  | 1520 - 1530 |
| 45331  | 1571 - 1580 |
| 46363  | بعد 1580    |

نلاحظ من خلال الجدول بأن سكان مدينة حلب عرف تراجعاً بـ : 10463 نفراً أي بنسبة 15.53 بالألف في مدة 11 سنة، أما دمشق فتراجع سكانها من 57326 نفراً سنة 1525م إلى 42779 نفراً سنة 1595م أي بتناقص وصل إلى 14547 نفراً، وهذا يخالف ما حصل في مدن الدولة العثمانية الأخرى

<sup>(1)</sup> - مصطفى أوزتورك: " دفتر عوارض خانة الشام عام 1086هـ / 1675 - 1676م، ترجمة سهيل صابان، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، العدد 3، 2016، ص 196.

<sup>(2)</sup> - OmarLotfi Barkan, « essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siècles » op cit, p27.



مثل اسطنبول التي عرفت زيادة في عدد سكانها وهي ظاهرة شهدتها حتى مدن حوض البحر المتوسط خلال القرن 16م.<sup>(1)</sup>

أما الرحالة الفرنسي جان باتيست تافرنيه الذي زار حلب في النصف الأول من القرن السابع عشر (حوالي سنة 1638م) فيشير إلى أن سكان حلب كانوا في حدود مائتين وخمسين ألف نسمة<sup>(2)</sup>، ويبدو أن الرقم مبالغ فيه بدليل أن مواطنه الذي كان قنصلا في المنطقة الفارس دارفيو يقدم معطيات مغايرة تماما حيث يذكر أن سكان مدينة حلب التي زارها سنة 1683م عرف تزايدا بمقدار 13854 خانة عما كان عليه سنة 1584م والذي كان حينها 9049 خانة أي بزيادة قدرها 53%<sup>(3)</sup>، وباعتماد المعامل 5 الذي استخدمه الباحث عمر لطفي برقان نجد 69270 نسمة.

ما نلاحظه بالنسبة لسكان أكبر مدينتين في بلاد الشام وهما دمشق وحلب هو أنه لم يتجاوز 60.000 - إلى 70.000 نسمة ، ورغم ذلك تصورها كتب الرحلات على أنها مدن ضخمة مكتظة بالسكان، والملاحظة الأخرى هي وبخلاف المدن العثمانية الأخرى مثل اسطنبول وبورصة وأدرنة التي عرفت نموا في عدد سكانها؛ نجد مدن بلاد الشام على النقيض بحيث عرفت تراجعاً في عدد سكانها بين بدايات القرن 16م ونهاياته، فمثلا عرفت العاصمة الأولى للعثمانيين مدينة بورصة تضاعفا لعدد سكانها ما بين الفترة 1520 - 1535م ونفس الشيء حدث في 12 مدينة أخرى حيث وصل نمو سكانها نسبة 90% في المتوسط.<sup>(4)</sup>

ومن المدن الشامية الصغرى نجد مدينة حماة التي تم تقدير عدد سكانها سنة 1581م بما يتراوح بين 12000 و14000 نسمة ثم ارتفع إلى نحو 1700 سنة 1002هـ ، قبل أن تشهد تناقصا في السنوات الأخيرة للقرن 17م، ويبدو أن مدن بلاد الشام توافقت مع النموذج الكلي الذي رسم فرناند بروديل خطوطه

(1)- ibid, p28.

(2)- jean Baptiste Tavernier ;les six voyages, op cit, p137.

(3)- André RAYMOND, Alep à l'époque Ottoman (xvle sicles) , op cit , p101.

(4)- Omer lutfi Barkan Essaisur les données statistiques des registres de recensements dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siecles » op cit, pp 27-28.

العريضة: نمو في القرن 16م وجمود أو تدهور في القرن 17م، ثم اندفاع جديدة من النمو بعد سنة 1700م<sup>(1)</sup>.

سكان مدن بلاد الشام في أواخر القرن 16م<sup>(2)</sup>:

| المدينة      | عدد السكان (خانة) |
|--------------|-------------------|
| دمشق الشام   | 9790              |
| حلب          | 9347              |
| حماة         | 4747              |
| حمص          | 2939              |
| صفد          | 2523              |
| القدس الشريف | 2191              |
| طرابلس       | 1588              |

تبين الإحصاءات الخاصة بمدينة دمشق الشام تطور عدد المحلات الموجودة في المدينة والعدد الاجمالي للسكان المقيمين فيها ، لكن دفاتر الطابو لا تشير إلى عدد الأزقة الموجودة بالمدينة<sup>(3)</sup>

أما مدينة القدس فكانت تتكون من 15 محلة هي :

محلة باب الحطة : تقع شمال المسجد الأقصى وهي من أكبر المحلات في المدينة وتعتبر حارات الحدادين والطورية الشرقية وحارة المشاركة من أكبر حاراتها: محلة باب القطنين: تحمل اسم سوق القطن المتواجد بها، وحارة باب الحديد من أبرز حاراتها .

محلة شرف (كانت تعرف باسم محلة علم): وهي مجاورة لحارة المغاربة غرب المسجد الأقصى، وتضم حارات الحيادرة والسلطية والفستقة

محلة باب العمود وتقع في الشمال الغربي ومن حاراتها نجد: الافرنج و القصيلة والحصرية

(1) - خليل اينالجيك ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، مج2، مرجع سابق، ص 84.

(2) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 85.

(3)- André RAYMOND, Alep à l'époque Ottoman (xvIe sicles), op cit, p101.

محلة زراعة: وتضم حارات بني سعد وحارة النصارى وحارة الزراعة

محلة الريشة تقع إلى الجنوب الغربي من محلة شرف، وبها حارة اليهود الجوانية وهي جزء من حارة

اليهود الرئيسية

محلة بني حارث: وتقع خارج أسوار المدينة عند القلعة وأخذت اسمها من إحدى القبائل البدوية

محلة بني زيد: وتشتهر بزقاق يسمى زقاق السعديين

محلة ضوية

محلة خوالدي (جوالدي) وتقع جنب حارة شرف<sup>(1)</sup>.

أما طرابلس الشام فكانت تضم 26 محلة وهي: (محلة التبانة، محلة ساحة عميرة، محلة قبة النصر، محلة اليعقوبية، محلة بين الجسرين، محلة باب الحديد، محلة التريعة، محلة الناعورة، محلة اليهود، محلة القواسير، محلة عديمي المسلمين، محلة عديمي النصارى، محلة حجارين النصارى، محلة حجارين المسلمين، محلة سويقة النوري، محلة القنواطي، محلة آق طرق، محلة زقاق الحمص، محلة سويقة الخيل، محلة مسجد الخشب، محلة المزابل، محلة الشيخ فضل الله، محلة العوينات، محلة الصباغة، محلة الرمانة، محلة الأكوز)<sup>(2)</sup>.

كان السكن في محلة من محلات المدينة أو حارة من حاراتها يمنح الفرد الشعور بالانتماء إلى حيّ مميز، وبما أن الانتقال من دار إلى أخرى لم يكن بالشيء المألوف كان ارتباط الفرد وبالتالي العائلة إلى حارة ما ارتباطاً قوياً فكان هذا الارتباط إلى الحارة يعطي صاحبه الشعور بالاعتزاز مثله مثل الانتماء إلى طائفة أو مذهب أو غير ذلك من الارتباطات<sup>(3)</sup>.

كانت روح التكافل والتضامن قائمة على مستوى المحلة الواحدة فقد ورد في إحدى الحجج الشرعية أنه (حضر كل من الحاج أحمد والحاج شعبان شيخ محلة قبة النصر، ومحمد بشة وحسن جعفر بن محمد وعلي بن محمد الحموي، والجميع من سكان المحلة المزبورة، وقرروا وأقروا جميعاً وفرداً بالطوعية

(1) - لواء القدس الشريف من دفتر مفصل 427، سبق ذكره، ص ص 20 - 23.

(2) - سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 2، ص 101، نقلاً عن صبحي نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص ص 263 - 264.

(3) - خالد زيادة: سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، مارس 2017، ص 142.

والاختيار بأنهم كفّلوا كل من حسن ومصطفى بن التقي اللذين هما من أهل المحلة المذكورة (1)، وكانت المحلات تقع عادة تحت اشراف الحكام ورقابتهم المباشرة ولم يكن لشيخ المحلة أن يتدخل بعد إلقاء القبض على أفراد محلته (2).

تشكل المحلة وحدة اقتصادية تجارية وصناعية، إضافة إلى كونها وحدة سكنية، وشملت المحلة خانا أو أكثر (3).

إلى جانب الخانات كانت في المحلة كذلك الأسواق، وكثيرا ما ارتبط اسم السوق بالحرفة الغالبة عليها كسوق العطارين وسوق الأساكفة (4)، كما كانت المحلة بمثابة وحدة إدارية إذ كانت كل محلة ملزمة بدفع مقدار من الضرائب أو العوارض وأهل المحلة يشتركون في دفعها متكافلين ولعل هذا الترابط هو الذي عزز مشاعر ابن المحلة بمحلته (5).

كانت المحلة أو الطائفة أو القرية وحدة لا يدخلها إلا من ترضى عنه، فقد وردت قضية على إحدى المحاكم الشرعية في مدينة حماة أن أهالي محلة العليليات بحماة طردوا حمصيا لأنهم لا يرضون بسكناه عندهم لخوفهم من ضرر الحكام - حسب قولهم (6)، كما قام أهالي قرية كفر بهم بطرد دخيل على قريتهم لأنه - بحسب زعمهم - بسكناه يحصل له ولأهالي القرية منهم الضرر (7) وقد يلجأ أهل المحلة لطلب وجود كفيل أو أكثر من أجل أن يسمحوا لدخيل أن ينزل بمحلته كما فعل شيخ حارة اليهود الذي نزل في محلته ثلاثة من يهود دمشق حيث طلب منهم كفلاء إن حصل منهم ضرر لأهل المحلة ففعلوا (8).

(1) - خالد زيادة: سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح، المرجع السابق، ص 144.

(2) - نفسه، ص 145.

(3) - احتوت محلات طرابلس الشام على نحو مائة خان مع وجود تفاوت فيما بينها، ففي حين كان عدد الخانات في محلة التبانة ثلاث خانات، كان العدد في محلة الناعورة تسع خانات. سجلات محكمة الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 2، ص 101، نقلا عن صبحي نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 263.

(4) - خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح، مرجع سابق، ص 146.

(5) - نفسه، ص 147.

(6) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "تاريخ حماة"، مرجع سابق، ص 76.

(7) - نفسه، نفس المكان.

(8) - نفسه، نفس المكان.

## 2 - سكان الريف :

معروف أن الدولة العثمانية قد قسمت بلاد الشام إلى ولايات أو إيالات كبرى تتكون كل واحدة من مجموعة سناجق أو ألوية تتركب كل سنجق أو لواء من أقضية أو نواحي، والناحية اجمالاً هي عبارة عن مدينة أو قصبة، بينما ما حولها من قرى ومزارع تشكل الأرياف، وترد معلومات دقيقة حول هذه التقسيمات في دفاتر الطابو التي تبين عدد الألوية في كل إيالة وما تتكون منه من نواحي ثم تذكر عدد القرى والمزارع، وتعطينا أعداد السكان فيها من مسلمين ونصارى ويهود، وتميز بين الخانة والمجرد، وتذكر من منهم معفون من الضرائب كالإمام والمؤذن وكذا ذوي العاهات كالأعمى.

كان الاقتصاد العثماني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر يعتمد على الزراعة، وبالتالي فمعظم الناس يسكنون القرى والأرياف، ويمكن التمييز بين قسمين من سكان الريف :

- عائلات المزارعين أمراء الإقطاعات من أرباب التيمار الذين كانوا يقيمون في القرى التي جرى تخصيص دخلها لهم، إلى جانب محافظي القلاع (حراس القلاع) وكذا العاملين في الوظائف الدينية والعاملين في الإدارة المحلية مثل الصوباشي، وكان للبعض منهم مزارع (جفتلك) يفلحونها بأنفسهم، وكونهم ينتمون إلى الفئة العسكرية فإن ذلك لم يعن أبداً وجود اختلاف في حياتهم عن حياة القرويين الآخرين<sup>(1)</sup>.

- العائلات التي تزرع ما يعرف بالمقاطعات وأصحاب الملك الخاص أي العائلات التي تشتغل في الفلاحة<sup>(2)</sup>.

يقطن سكان الريف في بلاد الشام القرى والمزارع المحيطة بالمدن، فقد كان لواء دمشق الشام حسب الدفتر 998 يضم في مطلع العهد العثماني واحداً وعشرين ناحية مجموع عدد قراها 844 قرية بها 283 مزرعة<sup>(3)</sup>، أما في لواء حمص، فإننا نجد في أواخر القرن السادس عشر نسبة 20.38% من مجموع سكان

(1) - أكمل الدين احسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص 567.

(2) - نفسه، نفس المكان.

(3) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 81.

اللواء فقط متواجدين داخل المدينة بينما الباقي من سكان الريف ومن العشائر التركمانية كما يوضحه الجدول التالي<sup>(1)</sup> :

| النواحي        | نفس | قرية | مزرعة | مسلمون |      | نصارى |      | يهود |
|----------------|-----|------|-------|--------|------|-------|------|------|
|                |     |      |       | خانة   | مجرد | خانة  | مجرد | خانة |
| نفس حمص        | 1   |      |       | 2507   |      | 389   |      | 43   |
| ناحية حمص      | -   | 70   | 402   | 2293   | 876  | 208   | 69   | -    |
| حصن الأكراد    | 1   | 45   | 138   | 803    | 54   | 1257  | 3    | -    |
| مناصيف         | -   | 47   | 352   | 1370   | 91   | 15    | 11   | -    |
| عشائر تركمانية | -   |      | -     | 3164   | 1138 | -     | -    | -    |

معظم سكان قرى وريف بلاد الشام من العرب أبناء البلاد وقليل من التركمان والأكراد الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع العرب في هذه القرى والبعض الآخر يعيش في قرى منفردة، فالأكراد يتواجدون في حماة مثلاً في قرى أرجزا وحنيك والصهرية وبارين والشيحة إلى جانب أهلها العرب، بينما نجدهم في قرى أكراد الديسنية والجولكية منفردين<sup>(2)</sup>، ونفس الملاحظة نجدها مع التركمان، فقد تواجدوا في قرى دويرة شبيب والبياضة والبكمشلية وجرجية وبراق وبيرين وتل قدح وغيرها منفردين، ويأتي ذكر تواجد التركمان في دفتر مفصل رقم 192 العائد لسنة 945 هـ / 1538 م في ناحية سائل عثليث الغربي من مرج بني عامر حيث يقدر عددهم بـ 32 خانة و 4 مجرد<sup>(3)</sup> وفي بعض القرى نجد بأن النصارى هم الذين يشكلون الأغلبية من ساكنيها كما هو الحال في قرى كفر بهم وأفيون ومحرده والنقير وبسلوم وتنورين... وكان لهم في

(1) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 79.

(2) - عبد الودود يوسف: "بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر ونماذج من قراه" من مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد العشرين الجزء الأول والثاني، سنة 1970، ص 41.

(3) - محمد عدنان البخيت: "الأسرة الحارثية في مرج بني عامر 885 هـ / 1480 م - 1088 هـ / 1677 م" مجلة آداب الرافدين العدد 15، كلية الآداب جامعة الموصل، 1 جانفي 1982، ص 135 - 135.

كل قرية كنيسة تماماً مثلما كان للمسلمين مسجداً وأحياناً زاوية<sup>(1)</sup> وبالنسبة لليهود فكانوا يتواجدون بأعداد قليلة نسبياً ويعيشون متفرقين لكن أكبر تجمع لهم يوجد في قرية كفر بهم إلى جانب النصارى<sup>(2)</sup>.

أما من حيث الطوائف الدينية فقد كانت معظم القرى يقطنها مسلمون لهم مسجدهم وأحياناً زاوية، مع وجود بعض القرى التي تحوي بعض النصارى واليهود إلى جانب المسلمين، وفي بعض القرى نجد النصارى يشكلون الغالبية مثلما هو الحال في كفر بهم وأفيون وبسيرين والنكير والبيا ومحرذا وتنورين وساسكون وغيرها في ريف حماة، بل وكان لهم كنيسة في كل قرية يسكنونها، في حين كان اليهود متفرقين، وأن أكبر تجمع لهم كان في قرية كفر بهم<sup>(3)</sup>.

أما في ولاية طرابلس فإن الدفتر رقم 68 الذي يعود تاريخه إلى سنة 1519 يقدم معلومات حول ناحية الكورا وأنفة التابعة لطرابلس (والتي بين طرطوس واللاذقية على الساحل السوري حالياً) تحوي ما مجموعه 30 قرية و12 مزرعة ودير واحد مستقل ودير آخر وقد ذكر مع مزرعة، أما القرى والمزارع التابعة لناحية أنفة فهي تحوي: 13 قرية و18 مزرعة وديران أحدهما مستقل والثاني ملحوظ بمزرعة، وهكذا يكون العدد الإجمالي هو 43 قرية مأهولة و30 مزرعة<sup>(4)</sup>، أما الدفتر 513 العائد لسنة 1571م فيذكر وجود 46 قرية و30 مزرعة مع استمرار وجود ثلاث مزارع بأسماء أديرة،<sup>(5)</sup> وما نلاحظه بين الإحصاءين هو زيادة ثلاث قرى في الناحية بين 1519 و1571م.

وفيما يخص توزيع أهالي القرى حسب انتمائهم الديني؛ فإنه من بين 43 قرية أحصاها الدفتر 68 العائد لسنة 1519م فإن 9 قرى مختلطة أي يسكنها مسلمون ونصارى، أما القرى التي يسكنها المسلمون فقط فعددها 4، في حين أن 30 قرية يسكنها النصارى وحدهم، مما يشير إلى أن ناحية أنفة والكورة معظم سكانها من الطائفة المسيحية،<sup>(6)</sup> غير أن إحصاء 1571 من دفتر 513 يشير إلى وجود 16 قرية مختلطة من

(1) - محمد عدنان البخيت: "الأسرة الحارثية في مرج بني عامر، المرجع السابق، ص 41،

(2) - نفسه، ص 42،

(3) - نفسه، ص 41 - 42 .

(4) - عصام خليفة: أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 20.

(5) - نفسه، ص 20 - 21.

(6) - نفسه، ص 23.

أصل 46 قرية أحصاها هذا الدفتر ، بينما ظلت 4قرى يسكنها المسلمون فقط في حين تناقص عدد القرى التي يسكنها النصارى لوحدهم إلى 24 قرية.<sup>(1)</sup>

بلغ عدد المسلمين المذكور في ناحية الكورة وأنفة التابعة لطرابلس سنة 1519م 255 ذكرا في مقابل 387 ذكرا من النصارى ، وبعد مرور 52 سنة بين الإحصاءين نجد تراجع أعداد المسلمين حتى وصل إلى 262 ذكرا ، بينما عدد النصارى زاد بشكل ملفت إلى 1005 ذكرا عام 1571م،<sup>(2)</sup> وعلى الرغم من أنه لا يمكن الجزم بالسبب الذي يقف وراء بطء نمو المسلمين مقارنة مع النصارى في الناحية إلا أنه يمكن ربط الأمر ببعض التساؤلات والفرضيات حول ما إذا حصلت هناك هجرات قصرية في المنطقة بسبب الفتن الداخلية في تلك القرى ، أم أن الأمر يتعلق ببعض الأمراض والأوبئة ، لكن هذا مستبعد أن تشمل المسلمين فقط من دون النصارى ، أم أن السبب يعود إلى انحراط مسلمي الناحية في التشكيلات العسكرية والادارية للدولة العثمانية من خلال مقتضيات نظام التيمار ، مع العلم بأن الحروب بين العثمانيين والصفويين استنزفت الكثير من السكان العثمانيين ، أم أن السبب يعود إلى البنية العائلية الداخلية الاسلامية حيث التزواج كان إلى حد كبير يتم بين الأقارب ؟<sup>(3)</sup>

#### البناء الاجتماعي للقرية :

تختلف القرى عموما فيما بينها من حيث حجمها وعدد بيوتها إلا أنها تتراوح ما بين حي واحد وخمسة أحياء ، لكل حي منها شيخ أو رئيس يجري انتخابه من طرف أبناء حيه ويثبون انتخابه أمام القاضي ليكون الرئيس والمتكلم باسمهم في كل الأمور التي تعنيهم ، وهو يمثلهم أمام السلطات المحلية في القرية أو سلطة اللواء الذي تتواجد به القرية ، كما أنه هو الذي يتكفل بجمع الرسوم المقررة على القرية من الفلاحين ويحصل في مقابل عمله أجرا سنويا من الفلاحين ، ولا شك بأن عامل الثقة هو الأساس في اختيار هذا الشيخ<sup>(4)</sup> ، لذلك فوجوده كان ضروريا لإعمار القرية واستتباب النظام فيها ، وفي حالة ما إذا عجز الفلاحون عن اختيار شيخ لهم طلبوا من القاضي أن يعين لهم رئيسا حتى لا تتعطل قريتهم ويهجروها

(1) - عصام خليفة : أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 24.

(2) - نفسه ، نفس المكان.

(3) - نفسه ، ص ص 28 - 29.

(4) - نفسه ، ص 42 .



أهلها<sup>(١)</sup>، أما الفلاحون أنفسهم فيمكنهم تقديم شكوى ضد هذا الشيخ إذا ما لاحظوا بأنه خالف أحكام القانون في جباية الرسوم أو أنه أضاف رسوماً أكثر مما هو مقرر أو أن هذا الشيخ لجأ إلى تسخير الفلاحين للعمل في مزرعته الخاصة دون أجر<sup>(٢)</sup>، أما حسابات القرية فتوكل إلى كاتب مهمته ضبط ما يتم جمعه من رسوم وغرامات من طرف رؤساء الأحياء، وعادة ما يكون هذا الكاتب هو خطيب القرية لما يتصف به من صفات الصلاح والاستقامة، ويقابله بالطبع أحد القساوسة في القرى المسيحية، ويحصل الكاتب عن درهمين عثمانيين عن كل رجل من القرية وفي نفس الوقت يتحملون عنه ما يفرض على القرية من غرامات المخالفات<sup>(٣)</sup>، ومن أجل ضمان الأمن في القرية يلجأ الفلاحون إلى اختيار فلاح يتولى حراسة القرية ليلاً ويحصل منهم على أجرة إضافة لتحملهم الرسوم عنه، وقد يلجأ الفلاحون إلى استئجار الحارس من خارج القرية أو أنهم يضطرون إلى تنظيم الحراسة بأنفسهم بالتناوب وعليهم أن يتحملوا ثمن كل ما يسرق من القرية ليلاً<sup>(٤)</sup> وكانت سمة التكافل بين أبناء القرية الواحدة بارزة، سواء في جباية الرسوم أو حراثة الأرض وجني المحصول أو رد مظالم الموظفين الإداريين عنهم، وكانوا يرفعون صوتهم حتى إلى السلطان إن لم ينصفهم البكربكي أو السنجبكي، وهذا ضروري بالنسبة لهم، فتماسكهم وتعاضدهم وتعاونهم هو الكفيل بحماية أنفسهم والنأي بها عن كل ما من شأنه أن يلحق بهم الضرر.

### 3 - البدو:

يمثل البدو جزءاً معتبراً من التركيبة السكانية لبلاد الشام، فغير بعيد عن المراكز الحضرية القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط أو المناطق الداخلية القريبة منه نجد البدو الذين ينتشرون في باقي المناطق متنقلين في أرجاء الصحراء الواسعة الممتدة من أعالي نهر الفرات حتى بلاد الحرمين الشريفين، ويذكر الرحالة التركي كاتب جلبي المعروف بـ (حاجي خليفة) أسماء العشائر العربية في بلاد الشام في تسع مجامع كبيرة هي :

- (١) - عصام خليفة: أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 42.
- (٢) - كان شيخ القرية أحياناً ينتخب من بين أصحاب التيمار الذين يتواجد إقطاعهم في تلك القرية، نفسه، ص 42.
- (٣) - نفسه، ص 43.
- (٤) - نفسه، ص 41.

أ - عشيرة طيء وتنقسم إلى ثلاثة أفخاذ هي :

- الفضل : وإليها تنسب عشائر بني ريشة (أبو ريشة) على امتداد نهر الفرات

- آل عمرو : من أعقابها عشيرة بني مرة بجوار حوران

- آل علي : بجوار دمشق

ب - عشيرة بني مهدي : يقيمون في أطراف البلقاء في أراضي بني الحارث و شهرتهم باسم طره باي

ج - عشيرة بني جورم<sup>(1)</sup> بجوار غزة من ضمنهم عشائر بني سائلة ، بني عابد ، بني آل محمد ، حويطات<sup>(2)</sup> ، بني عطية<sup>(3)</sup> وبني لام وتقيم هذه العشائر في الأراضي الواقعة على طريق القافل التجارية

د - عشيرة بني ثعلبة : يقيمون في الطريق الممتد من دمشق إلى عمان ، وينقسمون إلى فرعين : ماس ورفيق وهم ينتسبون إلى عوف بن ثعلبة الحمداني .

هـ - عشيرة زبيد القحطانية : و يأخذ كل فرع من فروعها اسم الموضع الذي يسكنه مثل : زبيد مرج ، زبيد أخلاف قرب الرحبة ، وهذان الفرعان استقرا على مقربة من آل الفضل

و - عشيرة بني خالد<sup>(4)</sup>

(1) - ورد ذكر الجرامنة منذ أيام الحروب الصليبية ، و كانوا يسكنون من غزة نحو الخليل ، أما في العهد المملوكي فكان شيخهم يحمل لقب (مقدم) ثم لقب أمير وكان مقرهم في قرية قباب الساوية قرب بئر السبع (فلسطين) ، غير أن القبيلة فقدت مكانتها بدليل أن لا أحدا من شيوخها كان ضمن الوفد العشائري الذي قابل السلطان سليم بعد دخوله الشام سنة 922هـ/1516 م . أنظر ماكس فراهير فون أوبنهايم وآخرون ، البدو ، ج2 فلسطين - سيناء - الأردن - الحجاز ، ترجمة محمود كبيو ، تحقيق وتقديم ماجد شبر ، ط 2 ، شركة دار الوراق للنشر ، لندن 2007 ، ص ص 96 - 97.

(2) - تضم الحويطات قبائل : السريعين ، الغنامين ، الشوامين ، الطقيقات ، السلالة ، العبيدات ، الجرافين و الدبور ، و تنتقل في منطقة جبل الراحة . نفس المرجع ، ص 230.

(3) - انتقل بنو عطية من الحجاز ، و يمتنون تربية الابل و الغنم ، و كان شيخهم من ضمن الزعماء الذين إلتقوا مع السلطان سايم بعد عودته من مصر سنة 1517م ، و هم أنفسهم الذين تحالفوا مع الوالي المتمرد على السلطة العثمانية جان بردي الغزالي . نفسه ، ص 401 ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج3 ، ص 1213

- hammer -Purgstall, (J-V) :histoire de l'empire ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, tome 4, traduit de l'allemand par j.j,hellert, Parir, sans date d'edition, p344.

(4) - يتواجدون بالقرب من حمص حتى حماة والسلمية ، و يعيشون على تربية قطعان أغنامهم الكثيرة مما أكسبهم غنى بين قبائل البدو ، ويدعون بأنهم ينتسبون إلى خالد بن الوليد ذكرهم ابن طولون في حوادث أواخر القرن 9هـ/15م (سنة 893هـ/1490 م)

ز - عشيرة بني حارثة<sup>(1)</sup>

ح - عشيرة بني عقبة<sup>(2)</sup>

ط - عشيرة غازية (الغزاوية)<sup>(3)</sup>

والعشائر الثلاثة الأخيرة هي حمدانية<sup>(4)</sup>

حدثت في النصف الثاني للقرن السابع عشر الميلادي هجرة كبيرة من الجزيرة العربية لقبائل شمر<sup>(5)</sup> وعنزة<sup>(6)</sup> وتمكنت من اضعاف عشيرة الفضل،<sup>(ل)</sup> بل والسيطرة على بادية الشام حتى نهر الفرات مما دفع

حول ثورة قام بها (عرب خالدية) بسبب تعرض شيخهم البدوي قرقماس للاعتقال . أنظر : ماكس أوينهايم، البدو ، ج 1، ص 465-466.

(1) - توجد في وادي الحوارث في السهل الساحلي إلى الغرب من طولكرم (فلسطين)، وكان بنو حارثة من قبيلة من طيء استقرت بفلسطين، وأقاموا في العهد المملوكي في جنين، وفي عام 803هـ/1400م شاركوا في الفرقة العسكرية التي قدمها أمير الفضل للسلطان المملوكي لمواجهة تيمورلنك المغولي، و ورد ذكر عائلة شيوخ بني (حارثة ابن طراباي (طربية) في بداية القرن 10هـ/16م حيث شغل رئيس العائلة منصب أمير الدرين أي أنه كان مسؤولاً عن أمن الطريقين العسكريين الكبيرين، وبهذه الصفة كان أول من استقبل نبأ انتصار العثمانيين على المماليك قرب القاهرة، وهو أيضاً الذي قدم الخدمة للسلطان سليم بعد عودته إلى دمشق، ويرجح أن يكون هو نفسه قراجة بن طراباي الذي نجح والي الشام (المتنرد على الدولة العثمانية) جان بردي الغزالي من اعتقاله ومن ثم شنقه في 925هـ/1519م وهو ما دفع ابنه طراباي بن قراجة إلى الانحياز إلى صف الدولة العثمانية ضد قبائل جنوب بلاد الشام التي أعلنت ولاءها لجان بردي الغزالي في تمرده مما عزز مكانته لدى السلطات العثمانية، أنظر: ماكس فرايهر فون أوينهايم وآخرون، البدو، ج 2 مرجع سابق، ص ص 84-86.

(2) - كان شيخها الحاج محمد العقبي، وعدد خيامها 20 خيمة تنتقل في منطقة أم البقر. نفس المرجع، ص 181.

(3) - يحمل الغزاوية اسم عائلة شيوخهم الذين يحملون لقب أمير، كانوا في القرن الخامس عشر معروفين تحت اسم العائلة: ابن ساعد، ويحكمون منطقة عجلون، وبعد الدخول العثماني إلى بلاد الشام رضى بنو ساعد لهم دون معارضة . نفس المرجع، ص ص 283-284.

(4) - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص ص 93-94.

(5) - جاءت قبيلة شمر من نجد واستقرت بالصحراء السورية، أنظر جنكيز أورهنولو، إسكان العشائر في عهد الامبراطورية العثمانية، ترجمة فاروق زكي مصطفى، الطبعة الأولى، دار الطليعة الجديدة، دمشق، 2005، ص 74.

(6) - جاءت بعد قبيلة شمر بنحو عشرين سنة و تمكنت من دحر قبيلة شمر بمساعدة بعض البدو الآخرين إلى الطرف الآخر من نهر الفرات، وقد نتج عن غاراتها رفقة قبيلة شمر تعرض مناطق واسعة من إيالة الرقة و ناحية منبج التابعة لإيالة حلب والأراضي الواقعة بين لواء حماة وحمص . نفس المرجع، ص ص 74-75.

(7) - نفسه، ص 60.

بعض العشائر البدوية التي كانت تقيم في تلك المناطق إلى مغادرة شرق الأناضول إلى غربه نظرا لازدياد غارات قبائل شمر وعنزة<sup>(1)</sup>.

أما المعلومات الخاصة بالعشائر الدرزية فقد ذكر كاتب جلبي بأنها تتكون من عشيرتين رئيسيتين هما: الطيمانية والدرزية وهي تنقسم إلى فرعين: البيض (أقيلير) وتعرف باسم علم الدين، والحمير (قزليلير) وتعرف بابن معن (المعنيين)<sup>(2)</sup>، وقد حصلوا على لقب الإمارة من العثمانيين غداة انتصارهم في مرج دابق على المماليك<sup>(3)</sup>.

كما كانت ببلاد الشام عدة عشائر كردية وتركمانية منها مجموعات صغيرة سكنت طرابلس الشام كما هو الحال لمجموعة السللورية المتنقلة بين مرتفعات طرابلس صيفا وواحات تدمر شتاء<sup>(4)</sup>، أو مجموعة تركمان تركمان حلب<sup>(5)</sup> ومجموعة أفخاذ رشوان التي تقضي شتاءها في صحراء بلاد الشام<sup>(6)</sup>.

أدركت الدولة العثمانية الطابع العشائري للمناطق التي دخلت إليها في بلاد الشام منذ الوهلة الأولى، وقد وجدنا السلطان سليم الأول يخصص بعضا من وقته لاستقبال زعماء هذه العشائر في القدس أثناء توجهه نحو مصر في أواخر سنة 1516م أو عند عودته منها سنة 1517م، ولعلّ هذا يعطينا فكرة حول الأهمية التي أولاها السلطان للبدو ولإدراكه بمكانتهم كمكوّن أساسي للمنطقة، وتمهيدا للدور الذي يمكنهم الاضطلاع به مستقبلا في سياسة الدولة، وهكذا استقبل زعماء الدروز وعلى رأسهم فخر الدين المعني من جبل لبنان وقدموا له فروض الطاعة والولاء، وبادلهم السلطان بتثبيت الأمير فخر الدين المعني أميرا عليهم، ولعلنا هنا نتيين ما كان له من بعد نظر مكّنه من كسب ودّ الدروز الذين تحوّلوا إلى مؤيدين

(1) - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق نفسه، ص 68.

(2) - نفسه، ص 94.

(3) - كان فخر الدين قد نصح أصحابه بالترث في معركة مرج دابق ريثما يتبين الجانب المنتصر فينضموا إليه، وعندما استقبله السلطان سليم ألقى على مسامعه خطبة نالت إعجابه جاء فيها: " اللهم أدم دوام من اخترته للملك وجعلته خليفة عهدك وسلطته على عبادك وأرضك وقلدته سنتك وفرضك..." فقلده السلطان من حينه إمارة جبل لبنان، أنظر: فيليب حتي: تاريخ سورية و لبنان وفلسطين، ج 2، ترجمة كمال اليازجي، ط 3، دار الثقافة، بيروت، 1959، ص 310.

(4) - جنكيز أورهورونلو: اسكان العشائر، مرجع سابق، ص 41.

(5) - نفسه، ص 40.

(6) - نفسه، ص 43.

وداعمين لوجوده في المنطقة<sup>(1)</sup>، كما استقبل زعماء صفد وطبرية ونابلس والقدس والخليل، وسلّم زعيم أول قبيلة وفد إليه - وهو أحمد بن بكر شيخ قبيلة بني وائل - راية وطبلا إشارة إلى توليه الإمارة على منطقته<sup>(2)</sup>.

وبالرغم من أن السلطان سليم قد حرص على استقبال أكبر عدد من شيوخ وزعماء القبائل، إلا أن كثيرين منهم لم يتمكنوا من مقابلته حتى عودته من مصر ومنهم: بني إبراهيم، وبني سواالم، وبني عطا، وبني عطية، وبني سعد<sup>(3)</sup>، وفي اعتقادنا فإن بعض الزعماء من البدو لم يرغبوا في تحديد موقفهم النهائي من مسألة سقوط النظام المملوكي وظلّوا يتربصون لما ستسفر عنه المواجهة الأخيرة في مصر، أو ربما تندحر القوات العثمانية في صحراء سيناء، وعلى كلّ حال تبقى هذه المسألة دون جواب محدّد، لكن ما هو مؤكّد هو أن هذه العشائر تأخرت في إعلان ولائها للعثمانيين حتى حسمت الأمور على الواقع، فأفصحت عن موقفها.

وتظهر الرسالة التي تقدم بها زعماء نخبة من شيوخ عشائر العرب ومن ضمنهم ابن حروفش، وابن سعد، ومشايخ عشائر بني إبراهيم، وبني صايم، وبني عطا، وشيوخ صفد، ومقدّمى حلب إلى السلطان سليم مدى القبول والترحيب الذي أفصحت عنه للعثمانيين، فقد ورد في هذه الرسالة: " نرغب بالطاعة إليكم لأمن أرواحنا وأموالنا وعوائلنا وديننا، ونرى حكمكم ضروريا لتطبيق الإسلام وإقامة العدل"<sup>(4)</sup>، من جهته تغاضى السلطان سليم عن بعض المشاكل التي سببتها القبائل البدوية للجيش العثماني أثناء تقدمه في الرملة و غزة<sup>(سم)</sup> وأثناء عبوره لصحراء سيناء<sup>(6)</sup>.

(1) - كان فخر الدين قد نصح أصحابه بالترث في معركة مرج دابق ريثما يتبين الجانب المنتصر فينضموا إليه، وعندما استقبله السلطان سليم ألقى على مسامعه خطبة نالت إعجابه جاء فيها: " اللهم أدم دوام من اخترته للملك وجعلته خليفة عهدك وسلطته على عبادك وأرضك وقلدته سنتك وفرضك..." فقلده السلطان من حينه إمارة جبل لبنان، أنظر فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 2، ترجمة كمال اليازجي، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1959، ص 310.

(2) - Hammer-purgstall.(j.v),Tome4,op.cit ,P304.

(3) - Ibid, p344.

(4) - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 137.

(5) - ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مرجع سابق، ص 29.

(6) - Hammer-Purgstall. (J.V) , op.cit,T4, p300.

كانت أسرة البدوي طراباي من الأسر الأولى التي أعلنت ولاءها للسلطان العثماني سليم الأول عند دخوله بلاد الشام في سنة 922 هـ / 1516م<sup>(1)</sup>، ولمكانة أسرة طراباي فقد تولت نيابة صفد كما يذكر ابن طولون<sup>(2)</sup> وكان أميرها من بين الحاضرين في توديع السلطان سليم عند مغادرته دمشق عائدا نحو اسطنبول<sup>(3)</sup>، أما الموقف الأبرز لأسرة طراباي فكانت عند خروج جان بردي الغزالي عن السلطة العثمانية وتمرده ضدها بحيث أعلنت العشائر البدوية مثل بني عطا و بني عطية وبدو جبل نابلس انضمامها لصفوف الغزالي بينما ظلت أسرة طراباي وحيدة وثابتة على ولائها للعثمانيين<sup>(4)</sup>، لذلك عاهدت إليها السلطة العثمانية بناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها كإقطاعات يتصرف بها، وأعدت من أجل ذلك دفترا مفصلا لهذه إقطاعات يعود إلى سنة 945 هـ / 1538م<sup>(5)</sup>، ويورد الدفتر وجود اثنتي عشرة جماعة من الأعراب بالناحية هي: بني زيد، بني زير، العمور، والظهور، والعمرات، والصلبية، ووبني سالم، والدعاكنه، وبني سيرى، وديونه، وفضيل، وبرامكي، وقد بلغ مجموع خاناتها 104 خانات<sup>(6)</sup>

تفيد عمليات التحرير التي كانت تجريها الدولة العثمانية دوريا إلى أعداد البدو المتواجدين في مناطق بلاد الشام وإن كانت بعض المعلومات تشير إلى وقوع تحايل أحيانا أثناء عمليات الإحصاء وهذا بالخصوص خلال القرن السابع عشر وهذا للتهرب من الضرائب التي أثقلت كاهل الكثيرين منهم خاصة أولئك الذين عانوا من الجفاف و شح المطر في مناطقهم، و هكذا تطلعنا دفاتر التحرير الخاصة بلواء القدس نموذجاً لأعدادهم خلال القرن السادس عشر

(1) - أورد ابن طولون الدمشقي أن السلطان سليم في العاشر محرم 923 هـ / 02 فيفري 1517م أرسل مكتوبا من القاهرة الى ابن طربية يخبره فيه عن انتصاره على المماليك حيث يقول بنص الحرف : " ... ورد قاصد من عند ابن طربية أمير الدريب ( أو الدربين ) مع مرسوم ورد إليه من ملك الروم ابن عثمان مكتتب في منزلة بولاق خارج القاهرة مؤرخ بيوم الأحد العاشر المحرم وفيه أن ابن عثمان دخل مصر يوم خامس المحرم و وقع القتال بين الجراكسة يوم الأربعاء والخميس والجمعة وفي آخرها يوم السبت فرت الجراكسة ... مكسورين، وتم التحريص من ابن طربية في مسك من يظفر ( به ) بالدرب من الجراكسة، فشكوا الناس في هذا المرسوم." محمد ابن طولون، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، مصدر سابق، ص 237.

(2) - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 381.

(3) - نفسه، ص 379.

(4) - ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3، مصدر سابق، ص 1213.

(5) - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طره باي سنة 945 هـ / 1538م، دراسة وترجمة وتحقيق محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1989.

(6) - نفسه، ص 6.

فمن خلال الدفتر 289 نجد بأن البدو كانوا مسيطرين على بعض قرى ناحية خليل الرحمن وكان لها أثر واضح على السكان والانتاج وهي : بني عياش ، بني نعيم ، بني عبد (عبيد) ، بني قيس ، بني خضر (خضير) ، بني عامر ، بني نعمة ، بني علوان ، بني رافع ، بني فهد<sup>(1)</sup>

أما في لواء القدس الشريف ، فقد كان عدد السكان البدو قليلا جدا مقارنة مع سكان القرى الآهلة ، وحسب المعلومات التي يمدّنا بها دفتر الطابو رقم T.D.516 is فإنه لا يوجد سوى تجمّعين بدويين هما : طائفة المرازق (المزارق) ، وطائفة هتيم التي تضم جماعات : شقيرات والبراغشة وعساكرة وعوازمة ، وهو ما يبيّنه الجدول التالي<sup>(2)</sup> :

| خانة  | قرية | مزرعة | طوائف البدو |
|-------|------|-------|-------------|
| 10758 | 193  | 446   | 2           |

أما في لواء عجلون فإن محرر دفتر الطابو يشير صراحة بأن طوائف العربان البدو قد تمردت ولم تخضع نفسها أو مواشيها للتسجيل ، وذكر منها : طائفة بني مهدي التي لم يسجل منها سوى 101 خانة من مجموع 1500 خانة ، وطائفة أعراب محمدي ، وبني كريم ، وبني صخر<sup>(3)</sup> ، وكان البدو في لواء عجلون يشكلون ربع السكان بنسبة 25.5%<sup>(4)</sup>

ويشير أحد الأحكام السلطانية الموجهة إلى بكربكي حلب في 20 رمضان 966هـ / 22 جوان 1559م إلى أسماء شيوخ العشائر في بلاد الشام والتي كانت تتعاون مع الدولة نذكر منهم : أمير سنجق (عشيرة) أبو ريش محمد بن مدلج ، الأمير قانصو الغزاوي في ناحية جبل بني سعد ، الأمير فايز بك في جبل كسروان ،

(1) - دفتر تحرير 289 ، سبق ذكره ، ص 48.

(2) - لواء القدس من دفتر مفصل 516 إس ، (970 هـ / 1562م) دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية : محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن ، عمان ، 2011 ، ص 13.

(3) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970 ، سبق ذكره ، ص 15.

(4) - خليل ساحلي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية ، ص 83.

عشيرة بني عطية وبني عطا تابعة للواء نابلس ، الأمير قورقماز شيخ ناحية ابن معن الأمير علي بن طورة بك تابع للواء اللجون<sup>(1)</sup> إضافة إلى عشائر ناحية مرج بني عامر<sup>(2)</sup> وعشائر ناحية بني كنانة<sup>(3)</sup> .

نخلص في الأخير إلى أن دراسة السكان وفئاتهم الرئيسية المكونة له سواء من جانب الوظيفة أو الانتماء الديني أو نمط الاستيطان ، تكشف عن مدى الحركية الاجتماعية داخل كل من هذه المجموعات ، ففيما يتعلق بنمو السكان فقد استفادت المنطقة عموماً من حالة الاستقرار والأمن والهدوء وبرز ذلك مباشرة في عمليات تعمير الريف والمدينة التي شهدت أحيائها توسعاً مستمراً ، كما اتضح بأن هناك توزعاً متنوعاً للسكان في المدن بين المسلمين الذين يشكلون الأغلبية والنصارى واليهود ، بل وكان هناك محلات خاصة بالنصارى واليهود وفي نفس الوقت لم يمنع هذا من وجود محلات تسكنها الطوائف المختلفة في جو من التعايش والتسامح ، أما بالنسبة للبدو فإن أهم ما تكشف عنه الوثائق العثمانية هو أنهم المكوّن الأساسي لجزء شاسع من بلاد الشام ، حاولت الدولة التعامل معه كواقع على الرغم مما كان يسببه من ازعاج في بعض الفترات .

---

(1) - مهمة دفترى 3، ص 21 - 23 ، الحكم 59. نقلاً عن فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، ج 1 ، سبق ذكره ، ص 134 - 138 .

(2) - دفتر تحرير T.D.427 ، سبق ذكره ، ص 24 .

(3) - دفتر تحرير T.D.401 ، محمد عدنان البخيت ، ناحية بني كنانة ( شمالي الأردن ) في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ، 1989 ، ص 54 .



# الفصل الثاني

العلاقات بين مكونات

السكان في بلاد الشام

### أولا -العلاقة بين الحكام والمحكومين:

برغم التقسيم الوظيفي للمجتمع العثماني بين العسكر والرعايا إلا أن الدولة العثمانية تظل من الدول القليلة التي قامت على مبدأ العدالة، غير أن تطبيق هذا المبدأ على أرض الواقع اصطدم في كثير من الأحيان ببعض التصرفات الصادرة عن بعض الموظفين، والتي أخلّت بهذا المبدأ النبيل من خلال التجاوزات التي صدرت عنهم على حساب الرعايا، لكن الأوامر السلطانية التي كانت تصدر من أعلى الهيئات العثمانية كانت تقف بالمرصاد لهم من خلال ما أقرته من إجراءات لمراقبة هؤلاء الموظفين حيث منحت كلاً من القاضي والدفتردار امكانية مراسلة الديوان الهمايوني دون اطلاق البكلربك على المراسلة، وفتحت المجال أمام الرعايا لمراسلة هيئات الدولة، والأهم من ذلك ما أعطته للقاضي من صلاحيات جعلته أداة ردع ضد الفساد، وأساساً لتحقيق العدل سواء على رجال الدولة أو على المجتمع، ولكن في نفس الوقت مارست رقابتها عليه أيضاً حتى لا يحكم في القضايا ويتحكم في الناس طبقاً للأهواء الشخصية، ووضعت له ضوابط تدفعه إلى عدم التسرع في اصدار الأحكام إلا بعد التحري والتحقيقات المعمقة، وعدم التساهل أمام المخالفين والمتجاوزين.

لم تكن الرعاية العثمانية -بدورها - فريسة سهلة للدولة أو لأصحاب الفساد، بل كان لأفرادها صوت مؤثر، عن طريق تقديم الشكايات والدخول كطرف في قضايا ضد كبار رجال الدولة، فالعلاقة التي تربط بين الرعاية والدولة لم تكن قائمة على الظلم، بل كانت قائمة على القانون وتحقيق العدالة ما قد يبدو من أنه ظلم بالأهالي من طرف المسؤولين، إلا أن ظاهرة المراسلات التي يقوم بها القاضي أو العلماء والشيوخ، أو الوفود الرسمية والشعبية المنطلقة من البلدات والقرى الصغيرة من مختلف مناطق بلاد الشام نحو مركز الخلافة في اسطنبول مع بعد ومشقة السفر حاملين احتجاجاتهم أو مطالبهم بحقوقهم؛ لم تكن في كل الحالات غير مجدية، بحيث استجابت لهم السلطة المركزية وتجاوبت مع مطالبهم في ردع الموظفين المتجاوزين على الرعاية .

تشير كتب الإخباريين والتراجم أمثال الحسن بن محمد البوريني إلى أن الرعايا في غالب الأحيان لم يسكتوا عن الظلم من طرف الموظفين<sup>(1)</sup> أو على سوء الأحوال<sup>(2)</sup>، فقد كانت المحاضر والشكايات تصل تباعا إلى مركز الدولة في اسطنبول، ولاشك بأن قيام الرعايا بتقديم محاضر الشكاوي يؤكد بأن هذا الأسلوب مجرد ونافع في غالب الأحيان.

كان أصحاب الشكاوي يكتبون أسامهم وعنوانهم بدون خوف وبدون قلق، مما يوحي أن الدولة لم تكن تتحيز ضد أحد، ولم يكن الناس يخافون من تحيز الإدارة ضدهم لأنهم اشتكوا أحد المسؤولين، ونجد في حكم سلطاني موجه إلى دفتر دار حلب بناء على مراسلة من أهالي بعض المحلات التي تم ذكر أسمائها، وهي: حارة السوق، وحارة الخندق، وحارة الغزاوي، وحارة الأكراد في مدينة حلب يشكون من الإجحاف الحاصل في حقهم أثناء تحصيل ضرائب العوارض، وفعلا استجابت السلطة المركزية وطالبت الدفتر بتطبيق العدل وعدم تكليف أهالي المحلات بشيء خلافا للقانون والدفتر<sup>(3)</sup>.

والدولة نفسها شجعت على الوقوف ضد الظلم مهما كان مصدره، فقد كانت معظم الفرمانات الصادرة باسم السلطات المحلية العثمانية كما يقول خليل اينالجيك تنتهي بالعبارة التالية: "إذا اشتكت لكم الرعية على البكوات أو غيرهم من الشخصيات العسكرية أو الملتزمين فإنكم ملزمون بإرغامهم على إيقاف

(1) - (فأما درويش بك فقد سار إلى الباب العالي، لا زال محفوفاً بالعالي، وذهبت وراءه المحاضر والشكايات عمن وقعت بهم النكايات من أهل هاتيك البلاد الصفدية). البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج 2، مصدر سابق، ص 261.

(2) - (في 15 ذي الحجة 1125 هـ تم جمع الأموال لأجل ارسال وفد إلى اسطنبول يشكو حال البلد وما صار على الناس من الضيق والتعب والنصب شيء من العرب وشيء من الحكام وشيء من الغلاء، على الخصوص غلاء الفحم والحطب نسأل الله اللطف بنا ويسائر = المسلمين). محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص اليومية (1100 - 1136 هـ / 1688 - 1723 م) تحقيق منذر الحايك، ط 1، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق 2012، ص 256.

(3) - أصدر الديوان الهمايوني حكما سلطانيا إلى دفتر دار حلب جاء فيه: "قدم أهالي حارة السوق، وحارة الخندق، وحارة الغزاوي، وحارة الأكراد رقعة إلى ركابي السلطاني ذكروا فيها أنه سجل في محلة الأكراد فيما مضى مائة خانة عوارض، وقد تعرض بعضها إلى الخراب وبقيت منها ثمانون خانة، وسجل في محلة الخندق أربع وثلاثون خانة وقد تعرض بعضها إلى الخراب في الوقت الراهن وبعضها لليهود ولم يبق منها سوى ثلاث عشرة خانة، إلا أنهم يطلبون عوارض الخانات الكاملة على ضوء ما سجل في السابق، لهذا فقد أمرت:

أن تقوم بالنظر ( في الأمر) فإذا كانت الحارات المذكورة لم يتم تسجيلها بهذا العدد من الخانات ثم وقعت بعض خاناتها بيد اليهود وبعضها تعرض للخراب، تأخذ من اليهود عوارض الخانات التي أخذوها، ولا تطلب من هؤلاء عوارض الخانات الخالية التي تعرضت للخراب وغير المسكونة، وأن تطبق العدل في هذا الصدد، وتحول دون طلب شيء خلافا للقانون والدفتر. في 17 محرم سنة 972 هـ / 24 أوت 1564 م. مهمة دفتر 6 ص 39 الحكم 78، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 241.

أعمال الظلم، وإن كنتم غير قادرين على قطع دابر استهتارهم بالسلطة، فعليكم إبلاغ الباب العالي بذلك فوراً، وإن لم تفعلوا فلسوف تتعرضون للعقاب أنتم أيضاً<sup>(1)</sup>.

نلاحظ من خلال نصوص الأحكام السلطانية الخاصة بإيالات بلاد الشام ورود العديد من المراسلات إلى الديوان الهمايوني من طرف الموظفين الرسميين بداية من البكربكي إلى القاضي أو الدفتردار وأمير السنجق، أو من الأهالي سواء من بعض العلماء أو الأشراف والأعيان، وتحمل هذه المراسلات عادة شكاوي ضد البكربكي أو أمير السنجق أو بعض رجاله، أو بعض الفرسان السباهيين بفعل ما ينجم عن تصرفاتهم من ظلم وأذى بالرعايا أو التعدي على ممتلكاتهم أو حتى تهديد حياتهم بالقتل، إن الملجأ الوحيد أمام هؤلاء هو بمراسلة السلطة المركزية المتمثلة في الديوان الهمايوني بإسطنبول، أو بتقديم تظلم إلى كبار رجالات الدولة مباشرة كالصدر الأعظم، وفي غالب الأحيان كان التجاوب من أعلى هرم في السلطة لنداءات الرعية.

كان مصطفى باشا بكربكيا على إيالة الشام برتبة وزير وقائدا للحملة السلطانية ضد اليمن، رغم ذلك قام أهالي الشام بإرسال تظلم إلى الديوان الهمايوني ضده مفاده أنه "استولى على أملاكنا وممتلكاتنا قسراً وسلط علينا الشخص المعروف بابن الحمراوي ليقع الخوف في نفوسنا بأنه سوف تتم معاقبتنا أو حبسنا بالأشغال الشاقة، وتحايل على الشرع وأعطى الموماً إليه أملاكنا وأوقافنا التي نتصرف فيها أبا عن جد بأسلوب الوقف فظلمنا بذلك"<sup>(2)</sup>.

كان رد السلطة المركزية سريعاً، حيث أرسلت له حكماً سلطانياً مؤرخاً في 10 ربيع الأول 976هـ/ سبتمبر 1568م، ورد فيه أنه: "وبعد أن تقدّم عدد من أهالي دمشق بشكوى ضده، تمّ تعيين كلٍّ من قاضي الشام وقاضي المدينة المنورة وأمير سنجق خدانودكار للنظر في هذه الشكوى حسب الشرع"، وأمر الوزير بالتوجه إلى دمشق دون تعلل أو تأخر وعدم مغادرتها إلى حين الحسم في أمر التحقيق، كما حذّره من إبداء

(1)- Halil Inalcik, The Ottoman empire: conquest, organization and economy, collected studies, variorrum reprints, London, 1987, p 134.

(2)- مهمة دفترتي 7، ص 714، الحكم 1960 مؤرخ في 26 صفر 976هـ/ 20 أوت 1569م. نقلاً عن، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، سبق ذكره، ص 167- 168.

المعارضة للأمر، وحتى إذا نصب وكيلا عنه في التحقيق، فعليه ألا يغادر دمشق، لكي لا يتعرض الأمر إلى الإعاقة أو التأخير".<sup>(1)</sup>

أما أمير أمراء حلب قُباذ بن خليل بن رمضان القرماني في عهد سليمان القانوني كذلك، فلم يشفع له منصبه من العزل، ذلك أنه ألحق أذى بأهالي حلب مما جعل قاضي المدينة يقف في صفهم ويرفع شكوى إلى الديوان الهمايوني الذي استجاب لطلب القاضي، وأصدر أمره بعزل قباذ باشا من منصبه، وعيّن مكانه فرهاد باشا واليا على حلب سنة 976هـ/1559م.<sup>(2)</sup>

لم تقتصر تظلمات الرعية من تجاوزات البكربكي، بل طالت أيضا أمير السنجق ومعاوني، وهنا لم يكن الأمر محصورا بمحادثة واحدة، بل نجد أنفسنا أمام كم هائل من الأمثلة عن هذه التجاوزات، وكان الأهالي أحيانا يقدمون شكاويهم إلى البكربكي ضد أمراء السناجق ومعاونيهم، وهو بدوره يرفعها إلى السلطة المركزية، فقد أرسل بكربكي الشام بيرى باشا رسالة إلى الديوان الهمايوني يبلغ فيها عن الظلم الذي يلحقه أمير سنجق صفد (بهرام) بالرعايا والتعدي عليهم، مما نجم عنه تفرق الرعايا عن قراهم ومغادرتهم المنطقة.<sup>(3)</sup>

ويبدو أن أمير السنجق تمادى في ظلمه وتعديه على الرعايا، لذلك ما انفك بكربكي الشام يرسل الديوان الهمايوني، وهذه مراسلة ثانية يكرر فيها سرد الوقائع التي سجلها عن أمير سنجق صفد هو ورجاله وحتى صوباشيته، مما زاد من عدد المشتكين من الرعايا الذين تضرروا أيما ضرر من تماديه في سلوكه دون الخشية من أي رادع.<sup>(4)</sup>

كانت جباية الضرائب إحدى المنافذ التي حاول من خلالها بعض الجباة التعدي على الرعايا الذين عانوا كثيرا على يد بعض الملتزمين الذين لم يتقيدوا بحدود الضرائب، بل رفعوها كلما وجدوا أنفسهم من القوة والسطوة، وهو الأمر الذي دفع بالرعية إلى تقديم الشكاوي ضد بعض الملتزمين، ويطالنا حكم

(1) - مهمة دفترى 7، ص 733، الحكم 2011. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 3، سبق ذكره، ص 175.

(2) - رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف بن الحنبلي، در الحبيب في أعيان حلب، ج 2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973، ص 57.

(3) - مهمة دفترى طوب قابي E12321، ص 99ب 100، الحكم 227 مؤرخ في 26 ذي القعدة 951هـ/8 فيفري 1545م. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 94-95.

(4) - مهمة دفترى E12321، ص 199 أ 200ب، الحكم 484. فاضل بيات، نفسه، ص 116-118.

سلطاني مؤرخ في 17 ربيع الأول 978 هـ / 18 أوت 1570 م توجه إلى بكربكي الشام ودفتردارها بشأن التجاوزات الصادرة عن أحد الملتزمين في دمشق وفرضه رسوما عرفية حسب هواه مما دفع بعلماء دمشق إلى تقديم طلب بعزله من الالتزام،<sup>(1)</sup> وهو ما تم فعلا حيث استجابت الإدارة المركزية لهذا الالتماس المقدم وصدر حكم سلطاني ثان بعزل الملتزم نزولا عند رغبة المشتكين من الرعية.<sup>(2)</sup>

وردت مراسلة أخرى إلى الديوان الهمايوني لم يعرف من هم أصحابها، ولكنه من السياق يبدو بأنهم من معاوني محافظ قلعة الكرك الذي تعرض للقتل من طرف أمير سنجق الكرك والشوبك، كما قطع أجور جنود القلعة وأعطاهم لرجالها، غير أن سعيدا المذكور (أمير سنجق الكرك والشوبك) تقدم بدوره برسالة توضيحية إلى الديوان الهمايوني يشرح فيها الموقف، مفادها ارتيابه من المحافظ الذي تصاهر مع البدو العصاة.<sup>(3)</sup>

امتدت تجاوزات أفراد فئة العسكر ضد الرعية إلى الصوباشيين الذين كانوا يساعدون القاضي في النواحي، فقد ورد في شكوى تقدم بها بعض أهالي القرى مفادها بأن الصوباشيين كانوا ينزلون على القرى ويأخذون مبالغ من الأموال لرجال أمير السنجق، إضافة إلى ما يأخذونه شهريا من كميات من الشعير والغنم ومأكولات أخرى لصالح أمير السنجق، وبأسماء مختلفة أحيانا باسم مشاهرة (أي كل شهر) وأحيانا أخرى (هدية).<sup>(4)</sup>

رغم ما قد يبدو بأنه تعسف وتجاوز لا حدود له في العلاقة بين مسؤولي الدولة من فئة السيفية أو العرف إلا أن هذا بالعكس يجعلنا ندرك بأن اهتمام السلطة المركزية ممثلة في الديوان الهمايوني بالأمور اليومية ومعالجة القضايا الاجتماعية والأمنية وبالدقة المطلوبة يدلّ على أن هذه الأمور كانت نادرة الحدوث وليس بالأمور التي اعتادها الناس، ولا شك بأن الكثيرين من المسؤولين الذين كانوا منصفين بحق الرعية، ويذكر

(1) - مهمة دفتر 14، ص 298، تسلسل 427، نقلا عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 3، مصدر سابق، ص ص 80 - 81.

(2) - مهمة دفتری 14، ص 278، تسلسل 399، نقلا عن: فاضل بيات، نفسه، ص 82.

(3) - مهمة دفتری 3، ص 77، الحكم 194. فاضل بيات، نفسه، ص 155.

(4) - نفسه، ص ص 118 - 119.

محمد البوريني في (تراجم الأعيان) بأن أمير الأمراء أحمد باشا المعروف بـ "شمسي" الذي ولاه السلطان سليمان القانوني إمارة الأمراء بالشام والذي اتصف بقلة الضرر بالناس وكثرة النفع لهم.<sup>(1)</sup>

كانت الإجراءات التي تتخذها السلطة المركزية العثمانية في حالة حصول خلافات بين الرعايا من أهل البلد ومنتسبي الصنف العسكري، هي بالعودة إلى القاضي والذي هو المكلف بحل الخلاف، وتطلعنا الأحكام السلطانية الموجهة إلى القضاة في بلاد الشام بالإجراءات التي يطالب الديوان الهمايوني باتباعها، وهي القيام بإجراء تحقيق في موضوع الشكوى، وأن يستمع إلى الرعايا المشتكين ويقابلهم بالمدعى عليه، وهنا يمكننا أن نوضح النقاط الواجب على القاضي الالتزام بها أثناء عمله وهي:

- أن يلتزم الشرع القويم

- أن يرد المظالم إلى أهلها

- أن يظهر اهتمامه بالقضية ولا يهملها

- أن يلتزم الحياد ويتعد عن المحاباة ويتفادى الانحياز لأي طرف

- أن يتوخى الحذر من التزوير والتلفيق وشهود الزور

- وفي الأخير على القاضي أن يقدم تقريراً مفصلاً للديوان الهمايوني عن المظالم التي صدرت من أمير السنجق، وعن المتضررين الذين استردوا حقوقهم<sup>(2)</sup>.

شملت مواضيع الشكوى جنود الحاميات العسكرية، ففي بداية الحكم العثماني لبلاد الشام مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي رفع أهالي حلب سنة 926هـ / 1529م مظلمة إلى الصدر الأعظم بيري باشا شاكين له ظلم العساكر العثمانية وتعديهم عليهم أثناء تواجدهم هناك، حيث قاموا بنهب المحاصيل الزراعية واستولوا على بيوت الأهالي وأخذوا خيولها وأعلافها، ولم يتمكن قائدهم فرهاد باشا من وضع حد لاعتدائهم وابتزازهم للأهالي<sup>(3)</sup>، لقد كان أملهم كبيراً من وراء هذه المظلمة من أجل استعادة بعض من حقوقهم المسلوبة، وطمعا في إحقاق الحق وإقامة العدل.

(1) - تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 188.

(2) - مهمة دفترتي E12321، ص 196 ب، الحكم 476. نقلا عن: فاضل بيات، المصدر السابق، ص 113.

(3) - فيصل عبد الله الكندري، مظلمة أهالي حلب إلى الصدر الأعظم في عهد السلطان سليمان القانوني، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة الدولية المنعقدة بدمشق من 26 إلى 30 سبتمبر 2005، إرسিকা، اسطنبول، 2009، ص 97-98.

كانت السلطة المركزية تتفادى تكليف القاضي الذي يعمل في نفس سنجق الأمير إذا كان نفسه محل شكوى من أجل حمايته من أية ضغوطات قد تقع عليه وبالتالي تؤثر على سير التحقيق، فكانت تلجأ إلى تعيين قاض من خارج السنجق تحقيقاً للعدالة، والتأكد قبل اتخاذ أي إجراء ردعي ضد المدعى عليهم حتى وإن كانوا من رجال الدولة أنفسهم وكبار موظفيها ومن حرصها على ممارسة القاضي لمهامه بكل حرية وشفافية أبتت القضاة مرتبطين مباشرة بمركز الدولة مع استقلاليتهم عن كبار الموظفين من أهل العرف.<sup>(1)</sup>

عدت الضرائب ركناً أساسياً في قيام واستمرار الدولة، وفي نفس الوقت كانت عملية الجباية هي المنفذ الأساسي للذين يقومون بالتجاوزات وللأسف باسم الدولة، لذلك وقطعا للطريق أمام هؤلاء كانت عملية تحصيل الضرائب لا تتم إلا بموجب ما قام به المحررون المكلفون من قبل السلطان بتحريره في الدفاتر سواء المفصل أو الإجمال، وكانت العملية تتم بإشراف الدفتردار وهي من ضمن مهامه، لذلك فإذا ما لاحظت السلطة المركزية ممثلة في الديوان الهمايوني وجود خلل ما في عمليات التحرير فإنها تسارع إلى توجيه أمرها إلى الدفتردار باعتباره المسؤول عن ذلك، وتطلبه بإجراء عملية تحرير فورية، وما حدث في لواء حمص عينة من هذا، بحيث أرسل الديوان الهمايوني أمراً إلى دفتردار الشام علي جلبي في محرم 976هـ/جويلية 1568م يطالبه بالقيام - وعلى الفور ومن دون تأخير - بمباشرة تحرير اللواء المذكور، ويتوخى منه أن يجري ذلك على أساس العدل<sup>(2)</sup>، كما حرصت السلطة العثمانية على عدم فسخ المجال -بأي حال من الأحوال - لأهل العرف في مسألة الضرائب دون قرار من القاضي مهما كانت الظروف، سواء بتحديد قيمة الضرائب أو الغرامات، خاصة إذا تعلق الأمر بمن هم معفون من ضرائب العوارض قبل أن يقوم القاضي بإجراء تحقيق معمق في الأمر، فقد تقدم أهالي مدينة الخليل بشكوى إلى القاضي بالقدس الشريف ضد أمير لواء

(1) - يُظهر الحكم السلطاني الموجه إلى بكربكي حلب سعي الدولة من أجل نزاهة واستقلالية القضاء، ووقوفها بحزم في وجه أي مسؤول يسعى لعرقلة عمل القاضي أو الضغط عليه، وبالأخص في القضايا المتعلقة بكبار الموظفين، فقد لاحظ قاضي العسكر لجوء البكربكي أو السنجق بكى إلى إلزام القضاة العاملين في مناطقهم بالعمل إلى جانب قضاة التحقيق أو التفتيش، مما يؤثر على عمل هؤلاء؛ فصدر حكم سلطاني -بتوصية من قاضي العسكر - بإبطال هذه الإجراءات، وصدرت التعليمات بأن تتضمن -منذ ذلك الحين - براءة تعيين القاضي هذا الأمر، وما جاء في هذا الحكم المؤرخ في 2 رجب 959هـ/ 24 - 6 - 1552م: "صدر أمري بأن لا يلحق البكربكيون قاضياً آخر بقاضي الأرض...وإذا يقوم القضاة بالنظر في الدعاوى خارج نطاق أفضيتهم بأمر مكتوب من البكربكيين وأمراء السناجق وذلك في حالة تسلمهم أمراً شريفاً من سدة سعادتني". أنظر: مهمة دفتري طوب قابي 888، ص 285، نقلاً عن فاضل بيات، (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (أواسط القرن 10هـ/16م)، مج 2، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2011، ص 187 - 188.

(2) - مهمة دفتري 7، ص 612، الحكم 1718. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 2، سبق ذكره، ص 153.



القدس بشأن تطبيق المرسوم السلطاني القاضي بإعفائهم من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية، وتنكر أمير اللواء لأمرهم ومطالبة أعوانه لهم بدفع هذه الضرائب، وعند اطلاع الحاكم الشرعي على الوثائق أمر القاضي بمنع التعرض لأهالي الخليل أو مطالبتهم بدفع هذه الضريبة عملاً بالمرسوم السلطاني،<sup>(1)</sup> وفي حال حدوث تجاوز من أي موظف فإنه في هذه الحال يكون تحت طائلة القانون وبالتالي عرضة للعقاب،<sup>(2)</sup> لكن ذلك لم يمنع حدوث تجاوزات من قبلهم على الفلاحين أو حتى الأوقاف السلطانية.<sup>(3)</sup>

### إجراءات السلطة المركزية:

لقد كانت ردود فعل الدولة في مثل هذه الحالات حاسمةً وصارمةً، ويتجلى ذلك في الأوامر التي تصدر سواءً للكلربكي أو للقاضي تطالبهما بإجراء تحقيق وتقصي حول الحادث المشار إليه، وتأمروهما في حال ثبوت الدعوى باتخاذ الإجراءات الرادعة؛ وعلى الفور ودون تأخير أو إضاعة وقتٍ أو تماطلٍ أو تهاونٍ، وأن يوافياها بتقرير مفصل حول نتيجة التحقيق، وما هي الإجراءات التي تمّ اتخاذها؟ وكَم من الأهالي تضرّروا ولحقهم الأذى؟ وكَم منهم استردّ حقوقه؟ وهذا تمهيداً لمباشرة القاضي مهامه بكل حرية، وحرصاً منها على تحقيق العدالة لجأت الدولة إلى تعيين قضاة من خارج الإيالة تفادياً لأي ضغط على القاضي أو تحييز منه، وهذا بتكليف قضاة من خارج الإقليم للإشراف على التحقيق وحسّم القضية بالقانون<sup>(4)</sup>، فالقاضي كان عليه أن يفرّق بين الدولة ومسؤول الدولة الفاسد في محاولة منه لتطبيق العدل، وهو ما جعل الناس العاديين يميلون إلى أخذ حقوقهم وإن كان ذلك ضد كبار المسؤولين في الدولة أو الإيالة.

تضمنت أدبيات الأحكام السلطانية الموجهة لموظفي الدولة في الإيالات الكثير مما يجعلنا ندرك مدى تموّع مسألة إحلال العدل وتطبيق الشرع والقانون في سياسة الدولة مثلما توضحه هذه النماذج:

(1) - حجة رقم 11، مؤرخة في أوائل ذي القعدة 1082هـ / 28 - 02 - 1672م، سجل 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ج2، ص ص 347 - 348.

(2) - أحمد آق كوندوز، الدولة العثمانية المجهولة، مرجع سابق، ص 606.

(3) - قام صوباشي أمير سنجق غزة بأخذ محصول أوقاف العمارة الواقعة في القدس الشريف "التي أقامتها والدته الأميرة سليم الثاني" وزوجة السلطان سليمان القانوني، لذلك ما كان من الديوان الهمايوني إلا أن أرسل حُكماً إلى قاضي غزة والرملة في محرم 973هـ / أوت 1564م بالتقصي في الأمر على وجه الحق، وأن يحول دون قيام أي أحدٍ بأمرٍ مخالفٍ للشرع مهمة دفتر طوب قايي، E12321، ص 99 - 100، الحكم 227. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج1، سبق ذكره، ص 94 - 97.

(4) - مهمة دفتر طوب قايي، ص 743، الحكم 2035. نقلاً عن فاضل بيات، نفسه، ص 180 - 181.

- "عند وصول حكمي الشريف تقوم بالبحث والتقصي وبالوجه المناسب وعلى أساس الحق لترى إذا ما ثبت وظهر"<sup>(1)</sup>.

- "بناء على ما عُرض ؛ ولاعتماداى السلطاني على تدينكم وحسن استقامتكم أن تقوموا عند وصول حكمي الشريف بالمباشرة - بأنفسكم - دون تأخير وتتقصون... كما أمرت أن يتم النظر في قضايا الرعايا الذين يطالبون المشار إليهم بحقوق"<sup>(2)</sup>.

- "أمرت: أن تقوم عند وصوله (الحكم الشريف) بالتحقق مما إذا كان المذكور أمينا وملتزما بالفعل ونوع العمل الذي دخل فيه، وفي حال مطالبته بما تبقى في ذمته من المال، فما مقداره؟ ومن أين ترتب هذا الباقي؟ وهل من الممكن تحصيله؟ وتكتب كل ذلك بالتفصيل وتبلغه"<sup>(3)</sup>.

- "عند وصوله (الحكم الشريف)؛ أن تقوم وبدقة وباهتمام بالنظر بموجب الشرع القويم وعلى وجه الحق بمواجهة الخصوم والدعاوي التي لم يتم حسمها... إن المسألة المذكورة من أهم الأمور فلن أرض مطلقا برضاي الشريف في أيام عدالتي؛ إلحاق الظلم والتعدي بأي فرد، بل ينبغي النظر على وجه الحق في شكوى الفقراء والضعفاء، وأن تحول دون قيام أي فرد بمعاودة الشكوى متذرعاً بعدم النظر في تظلمه، وتقوم بإحقاق الحق وتكتب عن ذلك حسب وقوعه وتبلغنا عنه"<sup>(4)</sup>.

- "أن تقوموا - عند وصوله - بمواجهة صوباشيي المشار إليه مع خصومهم إن كان هناك أشخاص يطالبونهم بحق، وتستقصون عن القضايا التي لم يتم البت فيها بالمرّة بالشكل المناسب وعلى وجه الحق، لتتحققوا مما إذا ثبت وظهر - بحسب الشرع الشريف - حقّ أحدٍ على صوباشيي المشار إليه، وتستردّونه منه لأصحابه وبلا نقص، وتكتبون عما يثبت ويظهر عندكم حسب الشرع من المواد الواردة في العرض أو غيرها، وكم من الأشخاص تم استرداد حقوقهم، تكتبونها بالشرح والتفصيل وتعرضونها. في 16 ربيع الآخر سنة 967هـ / 14 جانفي 1560م.<sup>(5)</sup>

(1) - مهمة دفترى طوب قابي سراي E12321، ص 99 - 100، الحكم 227. فاضل بيّات، نفسه، ج 1، ص 96.

(2) - مهمة دفترى E12321، ص 199؛ 200 ب، الحكم 484، نفسه، ص 119.

(3) - مهمة دفترى 3، ص 69، الحكم 166، نفسه، ص 151.

(4) - مهمة دفترى 7، ص 714، الحكم 1960، نفسه، ج 2، ص 169.

(5) - مهمة دفترى 3، ص 244، الحكم 701. نقلا عن: فاضل بيّات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، ص 185.

نستخلص -على ضوء هذه النماذج - مدى العناية التي أولتها الدولة للأمن الاجتماعي، وهذا بالدفاع عن الرعايا ضد ظلم وأذى رجال الدولة وكبار موظفيها أنفسهم، وحرصها على توفير الحماية للأهالي، وتأمين سلامتهم، وإرساء العدالة، وتحقيق الاستقرار والسلم، وقطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه التصرف خارج التوجيهات العامة لسياستها، لذلك فإنه من غير اللائق تحميل بعض السلوكيات التي تصدر عن بعض الموظفين بالإيالة إلى الدولة، بل يجب تحميلها إلى أصحابها، وأن هذه المواقف من الدولة - وفي الوقت المناسب - كانت عاملا حاسما ساعد في استمرار الوجود العثماني وتجذره في بلاد الشام، كما ساعد في تعلق الرعايا بالسلطة التي تحميهم من ظلم موظفيها.

### ثانيا - العلاقة بين الفلاح والسباهي صاحب الأرض:

كانت صلة السباهيين بالفلاحين وثيقة جدا فهم من جهة كانوا أنفسهم فلاحون، ومن جهة ثانية كانت عملية وراثة السباهية للإقطاعيات - على الرغم من اقتصرها على الأبناء المؤهلين - ووراثة الفلاحين لأراضي التصرف قد أوجدت روابط وصلات قوية بين الطرفين زادت من وحدتهما وتماسكهما، لكن في ظل خضوع الرعية للسباهية<sup>(1)</sup>، ورغم ذلك لم يكن للسباهي أن يطرد الفلاحين من أراضيهم دون سبب، ولا استبعاد ورثتهم الشرعيين، ولا جمع أكثر ما كان مخلولا بجمعه من العشر والمستحقات الأخرى، فهو مقيد بالقوانين حتى في أدق التفاصيل.<sup>(2)</sup>

شعر الكثير من الفلاحين العاملين في إقطاعات الزعماء التيماريين بأنه قد تم وضع قيود قاسية عليهم، فهم من غير المسموح لهم بترك قراهم والانتقال للمدن<sup>(3)</sup>، وكثيرا ما عُرضت في المحاكم الشرعية مثل هذه القضايا، وكان حكم القاضي فيها يختلف باختلاف القضايا، مع مراعاة القوانين العثمانية المنظمة لهذا الجانب، ويمكن ذكر المثالين التاليين: ففي إحدى القضايا تقدم صاحب زعامت يُدعى خرم بك بن عبد الله الزعيم بدعوى إلى المحكمة طالبا الفلاح منصور بن جبران من قرية كفر الدوس في حماة بعد أن تغيب عنها

(1) - جب و بوون : المجتمع الاسلامي و الغرب ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 347.

(2) - نفس المرجع ، ص ص 347 - 348.

(3) - رغم محاولة الكثيرين الربط بين النظام الإقطاعي المطبق في الدولة العثمانية والنظام الإقطاعي الأوربي في العصور الوسطى، إلا أن الاختلاف يبدو واضحا بينهما، ففي النظام الأوربي كان الفلاح ملزما بالعمل لدى سيده الإقطاعي يومين في الأسبوع، بينما تطالب القوانين العثمانية الفلاح أن يعمل ثلاثة أيام فقط في أرض السباهي خليل إينالجيك: الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ص 25.

ثلاث سنوات، وتضمنت دعواه بأن الفلاح ترك أرضه بوراً<sup>(1)</sup>، وهو يطالب بحاصل الثلاث سنوات بموجب القانون العثماني، فكان حكم القاضي هو إلزام الفلاح بدفع حاصل هذه السنوات بسبب هربه من القرية، لكن وبعد استماع القاضي للفلاح ومعرفته بحقيقة الهرب المتمثل في الظلم الذي تعرض له في القرية، ذكر القاضي للفلاح بأنه يمكنه رفع دعوى ضدّ من ألحق به الضرر<sup>(2)</sup>، وفي قضية ثانية تتعلق بمغادرة الفلاح لقريته، يصدر حكم القاضي لصالح الفلاح الذي كان قد غادر قريته منذ سبعة عشر عاماً أقام خلالها في مدينة حماة، مبطلاً بذلك طلب التيماري صاحب الزعامة، وقد كانت حجة القاضي في حكمه أن الفلاح لم يعد يملك في تلك القرية لا بيتاً ولا عملاً<sup>(3)</sup>، لكن في بعض الحالات كان العلاقة بين الطرفين تتطور إلى حدّ ارتكاب الجرم<sup>(4)</sup>.

أمام تسلط بعض الزعماء أو بعض الموظفين بما فيهم الصوباشي قام الفلاحون باختيار شيخ أو أكثر للقرية الواحدة للتوسط بينهم وبين السلطة، وكذا لأجل تمثيلهم في استقبال الموظفين والقوات العسكرية العثمانية واستضافة الغرباء في مضافة القرية، وبعبارة أخرى فالشيخ هو ممثل عنهم يتكلم باسمهم، ويتلقى نظير ما يقوم به مرتباً سنوياً من أهل القرية، ويمكن لأهالي القرية -مثلما انتخبوه- أن يقوموا بعزله إذا شعروا بأنه تعسف في استخدام صلاحياته خاصة ما تعلق منها بالضرائب<sup>(5)</sup>.

وفي المقابل نجد بأن فلاحي القرية بدورهم لديهم مصلحة في منع مغادرة أحد الفلاحين للقرية لأن ذلك معناه بأن قسماً من أراضي القرية سوف يبقى بدون استغلال وبالتالي يتوجب على باقي الفلاحين أن يدفعوا كامل الضرائب المفروضة عليهم جماعياً، فقد أقر عدد من أهالي إحدى قرى قضاء سلمية أن "

(1) - كان الفلاح إذا ترك الأرض عاطلة ثلاث سنوات متعاقبة دون عذر فإن السباهي صاحب الملك يمكنه استعادتها وإعطاء حق استغلالها لشخص آخر، أما إذا قلت مدة التعطيل ثلاث سنوات فإن الفلاح يكون ملزماً بتأدية ضريبة يطلق عليها اسم : ( رسم تعطيل المزرعة أو جفت بوزان رسمي) مقابل للأضرار التي لحقت بصاحب الملك نتيجة لعد حصوله على عشر المحصول من تلك الأرض. صالح سعداوي، مصطلحات التاريخ العثماني: معجم موسوعي مصور، مج2، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2016، ص 473.

(2) - عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية و ملكية الأراضي في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس عشر" مجلة دراسات تاريخية، العددان 35 - 36، مارس 1990، ص ص 120 - 121.

(3) - نفسه ص 121.

(4) - بناء على مراسلة من بكليركي الشام واعتماداً على ما أورده القاضي فإن سليمان بن برق وأخاه وهما من سباهي الشام قاما بقتل بعض أهالي القرى بغير حق ولا حدّ لفسادهما ومساوئهما. مهمة دفترتي 3، ص 69، الحكم 116، نقلاً عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 151.

(5) - المرجع السابق، ص 120.

للتيماري مبلغ خمسة وستين سلطانيا عليهم بطريق القرض الحسن<sup>(1)</sup> وهم متضامنون في ذلك ، فضلا عما كان بذمتهم من حنطة البذار ومن الدين ، وأشهدوا عليهم المقربين بأنهم يزرعون أرض قريتهم ولا يتركوا أي جزء من الأرض بورا ، ولا يخرجوا إلى المزارع الأخرى خارج قريتهم حتى يتمموا أرض قريتهم من الصيفي والشتوي على العادة القديمة<sup>(2)</sup> ، كما تضامنوا بأن إذا رحل أحد منهم من القرية يرجعه الآخر إلى قريته ، وتصادقوا على ذلك"<sup>(3)</sup>.

تنوعت العلاقات الزراعية بين الفلاحين في الأرياف وبين الجنود أصحاب التيمار من ذلك وجود عمليات المزارعة والمباذرة والمشاركة ، مثال ذلك ما حدث بين المدعو (خواجة فتحي بيك أغاجان العجمي) وعلي بن عبد الله اللذين اتفقا على الحصاد بطريق الشركة على وجه المزارعة في حلب ، كما ذكرت عملية مباذرة بين فلاحين وفخر الزعماء غضنفر بك بن عبد الله التيماري في قرية دير قومية في حماة حيث تم الاقرار بذلك في المحكمة<sup>(4)</sup>.

اعتاد الفلاحون من أهل القرى أن يقتضوا المال من الأمين المسؤول عن الخواص السلطانية من أجل زراعة الأرض واعتبروا مسؤولين جماعيا أمامه عن أداء الدين ، فقد ورد في إحدى وثائق المحكمة الشرعية لحماة بأن عددا من أهالي قرية أبي قبيس في قضاء شيزر تعهدوا في محكمة حماة الشرعية أصالة عن أنفسهم ووكالة عن باقي سكان قريتهم الجارية يومئذ في خواص برويز بك أمير لواء حماة أنهم يقبلون في عهدهم غلال قريتهم من شتوي وصيفي والرسوم الواقعة في سنة 993هـ/1585 بمبلغ 170 سلطانيا بطريق القرض الشرعي وهم متضامنون ومتكافلون في ذلك<sup>(5)</sup> ، وفي الحقيقة فإن مثل هذه المعاملات بين العسكريين

(1) - كان التيماري يقدم للفلاحين ما يسمى بالتقاوي ، وهي قروض نقدية أو قروض على شكل حنطة وشعير وفول وعدس وبصل وبذار قطن ، وأبقار ، يقدمها لهم في أول الموسم ، حين البذر ، ويقوم بجبايتها منهم بعد انتاج المحصول وحصادها وغالبا ما تكون بدون فائدة ، ورغم ذلك كان بعض الفلاحين يستدينون قروضا بفائدة في حدود خمسة عشر بالمئة ، وقد ترتفع إلى أكثر من ذلك لكن يبدو أن الفلاح حينما يشكو صاحب الدين إلى القاضي ، كان هذا الأخير يحكم ببطالها ، ويأمر الفلاح بعدم دفعها ، ويقبل الدائن مرغما. عبد الودود يوسف برغوث: "بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر" ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، مج20 ، الجزآن 1 و2 ، السنة 1970 ، ص32.

(2) - كان التيماري صاحب الأرض يتفق مسبقا عند استلامه إقطاعه بأن يقوم الفلاحون على زراعة جميع الأرض التي خصصت مواردها له ، ويشترط بأن لا يتروا منها شيئا بورا ، فإن فعلوا فإنه يجبرهم على دفع خراج الأرض التي لم يزرعوها ، كما يطلب منهم أن يزرعوا الأرض موسمين : موسما شتويا وموسما صيفيا. نفسه ، نفس المكان.

(3) - عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية وملكية الأرض في بلاد الشام" ، مرجع سابق ، ص122.

(4) - نفسه ، ص123.

(5) - نفسه ، ص118.

من أصحاب الزعامت والتمار وبين القرويين كانت منتشرة على نطاق واسع وفي مناطق عدة من بلاد الشام<sup>(1)</sup>.

إن ما مُنح من نفوذ للسباهية التيماريين إنما كان فقط من أجل استمتاعهم بالعائدات التي يزودهم بها الرعايا وفق القانون وليس أكثر، لذلك يرى المستشرقان جب وبوون بأن النظام المتبع من السلطة العثمانية في هذا المجال كان متوازنا فيما يتعلق بالحقوق الممنوحة والواجبات المفروضة على أصحاب الاقطاعيات والفلاحين وفي ظل قوة الدولة ورقابتها<sup>(2)</sup>، لذلك فإن ما شاب هذه العلاقة في أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر إنما يعود إلى التغييرات التي قامت بها السلطة نتيجة الأزمات المتعددة، وبالتالي أدت إلى التراخي والانحطاط الذي دبّ في جسم الدولة وأدى في الأخير إلى التراجع عن أسلوب الاقطاع العسكري التيماري<sup>(3)</sup>.

أما الوجه الآخر للعلاقة بين التيماري وأهل البلد فكان في الشق الاجتماعي، حيث حاول أرباب التيمار من الزعماء الاستقرار ببلاد الشام بعد تقاعدهم، وهذا باللجوء إلى عمليات شراء العقارات السكنية والتجارية من دور ودكاكين وخانات في مراكز المدن، إضافة إلى الأراضي الزراعية أو غراسها خارج المدن مستفيدين مما أمكنهم جمعه من الاقطاعات التي كانوا يتصرفون بها، فقد ورد في إحدى وثائق المحكمة الشرعية بحماة بأن المدعو فخر الزعماء مصطفى آغا بن عبد الله - وكان من أعيان الزعماء بحماة - " اشترى بماله لنفسه من أفراد أسرة جلعود بحماة فباعوه جميع الغراس المختلف الأجناس من مشمر وغير

(1) - بلغ عددها في سجلات المحكمة الشرعية بحلب للفترة 1630 - 1635م نحو 239 قضية مثلت ما نسبته 34% من مجموع القضايا المطروحة. خليل ابنالجيک : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، ص 147.

(2) - جب وبوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ج 1، مرجع سابق، ص 348.

(3) - يرى البروفيسور خليل بنالجيک بأن أبرز العوامل التي مهدت الطريق لأزمات أواخر القرن 16م وأوائل القرن 17م تتمثل في تواصل الضغط السكاني في الأناضول وانضمام آلاف المزارعين من الرعايا للانخراط في الجيش كحراس للقلاع أو كمرتزقة مما غرض المبدأ الموجه للنظام العثماني لمخاطر لا يمكن الرجوع عنها وهو المبدأ القائم على الفصل بين الرعايا والعسكر، أما العامل الثاني فهو تعرض مبدأ الاستقلالية التقليدية للإدارة العثمانية التي كانت الضامن لمصالح الدولة، بحيث تقلصت مع وفاة السلطان سليمان القانوني سنة 1566م ومجيء السلطان سليم الثاني، وما تعرض له الصدر الأعظم صقولو محمد باشا من مراكز النفوذ الجديدة، وكان نتيجة هذا هو تحول أراضي الميري (أراضي الدولة) من سيطرة الدولة إلى وضعية أراضي ملك (أراضي ملكية خاصة) وأوقاف (مؤسسات دينية)، أما العامل الثالث فهو الحرب العثمانية - الصفوية بين 1578 - 1603، وتزامنها مع الحرب ضد النمسا بين 1593 - 1606م والحاجة المتزايدة إلى أعداد اضافية من الجنود وبالتالي اللجوء إلى فرض مزيد من ضرائب العوارض والجزية على غير المسلمين، وجاء عامل تخفيض قيمة العملة العثمانية ليزيد من سوء الوضع بسبب تدفق الفضة الرخيصة من أوروبا بعد سنة 1580م، فغرقت الأسواق العثمانية بالفضة الأوربية والعملة المزورة، وكانت النتيجة أن تحطم نظام التيمار (القطاع العسكري) الذي لم تعد معه الدولة العثمانية بنفس الحيوية التي كان عليه في القرن السادس عشر. أنظر: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مج 1، مرجع سابق، ص 68 - 72.

مثمر، القائم أصوله بالبستان ظاهر حماة بزور الخمسة، ويعرف ببستان الغراف وشربه من ماء نواير الزور... وجميع غراس البستان بزور الوقف... وجميع الدكان ظاهر حماة بسوق البرادعية بالنصف الغربي وتعرف بالقهوة... وجميع الدكان بالسوق المزبور بالسوق الغربي المعدة للقصابة... وقطعتي أرض ظاهر حماة... وجميع الحقلين ظاهر حماة بسعر خمسمائة سلطاني<sup>(1)</sup>، وتوضح هذه الوثيقة بأن كثيرا من أصحاب الزعامت والتمار الذين كانوا في أصلهم غرباء عن بلاد الشام كما توضحه أسماؤهم مثل: خرم وغضنفر وجاويش... إلا أنهم اندمجوا في المجتمع الشامي وتملكوا السكنات والأراضي والدكاكين وغيرها.

### ثالثا - العلاقات بين المسلمين : (الصراع بين القيسية واليمينية / أو بين الرايات الحمر والرايات الصفرة)

من أهم القضايا الشائكة التي واجهت الدولة العثمانية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين في بلاد الشام وكانت لها تداعيات على سياستها هي قضية الانقسام الحاصل بين الأهالي إلى طائفتين هما القيسية واليمينية<sup>(2)</sup> ودخولهما في صراع وعداوة شديدة بحيث يقوم الغالب بقتل المغلوب ونهب أمواله، وترتب عن ذلك وقوع أعداد كبيرة من القتلى.

وتشير الأحكام السلطانية إلى هذه الصراعات وسياسة الدولة نحوها، فقد أدى مقتل عدد كبير من الأشخاص، وحدثت عمليات النهب والسلب للأرزاق في بعض قرى إيالة الشام، إلى تدخل الديوان الهمايوني وإصداره حكما سلطانيا لبكلربكي الشام بتاريخ ذي الحجة 966هـ/سبتمبر 1559م يؤكد عليه أن يواصل جهوده المبذولة في التنكيل بأهل الفساد بمقتضى الشرع والقانون، والحيلولة دون إلحاق الأذى بالرعية، وبذل كل ما من شأنه أن يعيد الأمن والاطمئنان لهم، ولا مجال للتسامح معهم<sup>(3)</sup>، وقد لجأت

(1) - عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية و ملكية الأرض في بلاد الشام"، ص 123 - 124.

(2) - شهدت المنطقة الممتدة من طرابلس الشام إلى القدس الشريف صراعا طائفيا بين القيسية اليمانية، وهو صراع قديم منذ الجاهلية وصدر الإسلام، وأخذ أبعادا خطيرة في العصر الأموي، فقد كانت القيسية من عدنان (وهم عرب الشمال)، وينتسبون إلى قيس عيلان من مضر، وتضم قبائل سليم و غطفان سعد وثقيف وعبس، وكانت مقربة من بني تغلب وبني تميم، أما اليمينية فهم القحطانيون (أو عرب الجنوب)، وإليهم تُنسب قبائل جُمَيْر وكهلان وطيء وهمدان، ومن جُمَيْر ينحدر بنو كلب الذين استوطنوا مناطق أعالي الفرات في شرق بلاد الشام، إضافة إلى التنوخيين، وبرز الصراع شديدا بين الفريقين في مطلع العهد الأموي عندما اعتمد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد على بني كلب اليمينية، مما جعل القيسية يساندون خصمهما عبد الله بن الزبير حتى هزمته في معركة مرج راهط سنة 65هـ/684م، ورغم أنه خف قليلا، إلا أنه انتقل إلى الأندلس، وبقي متجنزا في بلاد الشام، حيث ميز العلاقات بين الأسر الكبيرة التي لعبت دورا في المنطقة الممتدة من حوران إلى وادي التيم وجبل لبنان، فأعلن المعنيون أنهم قيسية مثلما أعلن الأرسلاونيون (آل أرسلا) أنهم يمانيون. أنظر: ج. و. د. سورديل، معجم الإسلام التاريخي، سبق ذكره، ص 740- 741، 784- 785، محمد كامل حسين، طائفة الدروز: تاريخها وعقائدها، دار المعارف، مصر، 1963، ص 27.

(3) - مهمة دفترتي 3 ص 121 الحكم 315. نقلا عن: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، م 2، سبق ذكره، ص 36 - 37.



بعض الأطراف إلى استغلال هذه الأحداث والاستفادة من هذا الصراع لتحقيق مصالحها الشخصية، ولو كان ذلك على حساب الأهالي المتواجدين بالمنطقة، فقد كان المدعو (توقلي محمد) وهو من بين السباهية ويملك تيمارا في لواء حماة، وهو عضو في طائفة ذوي الرايات البيض (القيسية) المتخاصمين مع ذوي الرايات الحمراء (اليمنية) واستغل نفوذه في هدم بعض المباني ذات النفع العام وتحويلها لصالحه، ومنها البرج الذي كان يحتمي به الرعايا وكذا المشفى الموجود هناك منذ عهد المماليك، ولم يكتف بهذا بل عمل على إثارة الفلاحين ضد أمير نابلس -الذي عُيّن أميراً على سنجق حماة - وحثهم على عدم الإذعان لأوامره وعصيانه، الأمر الذي تسبب في عودة التشاجر للمنطقة.

صدر أمر سلطاني مستعجل إلى بكربكي الشام بالتحرك لإجراء تحقيق وتقصي حول ما إذا كان المشار إليه (أي السباهي توقلي محمد) هو مثلما عُرِض، وعندما يُثبت عنده فساد وشقاوة السباهي على الوجه المذكور يقوم بتأديبه دون فسح أي مجال له، وفي نفس الوقت عليه أن يحتاط من إلحاق الظلم والحيث بمن لا ذنب له<sup>(1)</sup> رغم هذه الصرامة في التعامل فإن الدولة في نفس الوقت حاولت تطبيع العلاقة بين الطائفتين لإزالة نقاط الخلاف بينهما، وأكثر من ذلك لم تفكر أبداً في الاستفادة من هذا الشجار لصالحهما ولم تقم بتغذيته لكي يخلو لها الجو، بل نظرت إلى الأمور من زاوية المصلحة العامة، فإن إشاعة الفوضى والاضطرابات تهدد السلم الأهلي، وتدفع بالفلاحين إلى هجر أراضيهم وقراهم وتعطيل نشاطهم وفقدان كسبهم، كما تطال هذه الأوضاع السلبية مصلحة الدولة فلا تقدر على تحصيل الضرائب، خاصة وأنها كانت في أمس الحاجة إلى الحبوب لجنودها<sup>(2)</sup>.

لأجل هذا كانت الدولة العثمانية تتدخل دوماً وكلما تدهورت الأوضاع الأمنية للعمل وبذل كل جهودها لإزالة التوتر بين الطائفتين، ولم تسلم المدن في بلاد الشام من وجود الانقسامات التي كثيراً ما ألحقت الخراب والدمار ونشرت الذعر والخوف في نفوس السكان ولعل أبرز مظهر لهذا الانقسام هو ذلك الموجود بين القيسية و اليمنية وقد حاولت السلطة العثمانية التصدي لهذا الوضع بحزم وصرامة ويذكر حكم سلطاني موجه الى بكربكي الشام بتاريخ 28 ربيع الأول 973هـ الموافق لـ 22 نوفمبر 1565م حالة الانقسام الذي شهدته مدينة الخليل بين القيسية واليمنية جاء فيه: " أرسل أمير سنجق القدس الشريف إلياس

(1) - مهمة دفترى طوب قايي سراي 888، ص 477ب 478أ، فاضل بيات، نفسه، ص 42.

(2) - يبدو أن الدولة العثمانية كانت كثيراً ما تفضل تحصيل الضرائب عينا على الحبوب بشكل خاص نظراً لحاجتها لتموين الجيوش بالغذاء لجنودها والأعلاف لحيواناتها.



رسالة ذكر فيها أن أهالي مدينة خليل الرحمان ينقسمون إلى فرقتين القيسية واليمينية، ومنذ القدم لا تخلو العداوة بينهما ويحارب أشرار الطرفين بعضهم بعضا، وقد أصيب عدد منهم بجراح، كما قتل أحدهم، وغدا المسلمون لا يصلّون الجمعة خوفا منهم ولا تقرأ الخطبة، وعندما قام المشار إليهم باعتداءاتهم اجتمع المسلمون وذكروا أن أهالي المدينة أصبحوا منذ القدم فرقتين وظهر بينهم عدد من المفسدين يثيرون الاضطرابات دائما وبسبب شرهم قمنا بترك المقام الشريف مع أهلنا وعيالنا، ومسبب الفتنة هو المدعو بركات وينبغي تأديبه إذ أننا لم نتمكن منه ولا نتحمل ما يقوم به من فساد وننوي ترك أماكننا".<sup>(1)</sup>

واستمر الصراع بين الفئتين إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وإن كان هذه المرة في ثوب الطائفية المذهبية، فقد ظهر شيخ من الحزب اليميني ينتمي إلى المتأولة في المنطقة الواقعة بين الجليل وصيدا سنة 1698م، لكن سرعان ما قام أمير الدروز بالتحالف مع باشاوات كل من صيدا وطرابلس بقمع هذه الحركة<sup>(2)</sup>.

#### رابعا - العلاقة بين الدولة العثمانية وأهل الذمة في بلاد الشام:

عندما تدخل إحدى البلدان تحت سيادة الدولة الإسلامية كان غير المسلمين مخيرين بين ترك أراضي الدولة الإسلامية أو الإقامة فيها داخل أراضيهم التي يسكنونها في إطار أسس معينة من التفاهم والاتفاق الذي يعقد بينهم وبين الدولة الإسلامية يطلق على هذا الاتفاق الذي يعقد بين الطرفين اسم عقد الذمة، ويطلق على غير المسلم اسم "الذمي"، ويتعهد الذمي في هذا العقد بقبول ما تنص عليه القوانين الإسلامية من حيث الأساس، ودفع ضريبة الرأس التي تعرف بالجزية مقابلا لإعفائه من الجندية، بينما تتعهد الدولة لقاء ذلك بتأمينه على روحه وماله، والسماح له بالعيش على الدين الذي هو عليه،<sup>(3)</sup> وكانت الدولة العثمانية قد صنفت رعاياها غير المسلمين على أساس المذهب الديني الذي يدينون به، وليس على أساس الجنس أو القومية أو اللغة<sup>(4)</sup>، كما لم يكن من طبيعة العثمانيين أن يتدخلوا في الشؤون الدينية لأي طائفة تعيش فوق أراضيهم أو في لغاتهم أو الجانب الأعظم من كياناتهم الاجتماعي والإداري، وظهر ذلك بوضوح مباشرة بعد ضم بلاد الشام تحت الحكم العثماني، حيث بذلت جهدها لعدم التعرض لأهل الذمة أو إلغاء

(1) - مهمة دفترتي 5 ص 176 الحكم 428، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج1، سبق ذكره، ص 305.

(2) - هـ. جب وهـ. بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، مرجع سابق، ص 314.

(3) - أكمل الدين احسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص 497.

(4) - عبد العزيز الشاوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص 68.

الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها آنفاً، ويشير الفرمان الذي منحه السلطان سليم بنفسه لزعمائهم بالقدس حين زيارته للمدينة حيث استقبل بطريرك الروم وباقي الرعايا المسيحيين بالمدينة بعد أن ناشدوه أن يوكل إلى بطريركهم بإدارة كنائسهم وأديرتهم ومزارعهم داخل القدس وخارجها وأن يتصرف بها بنفس الطريقة التي كان معمولاً بها من قبل<sup>(1)</sup>، وبالفعل فقد استجاب السلطان سليم لمناشدتهم وقبل أن يقوم بطريرك الروم والمسيحيين بمدينة القدس الراهب عطا الله بالتصرف في شؤون الطائفة المسيحية بالقدس وفقاً لما جاء في العهدة العمرية التي منحها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب -رضي الله عنه، وليس هذا فقط، بل أن السلطان قام بإعفائهم بالكامل من الضرائب والرسوم الجمركية وباقي التكاليف، وأمر ألا يتم التدخل في شؤونهم من قبل الطوائف الأخرى أو الاعتداء عليهم ورسم بأن يكون بطريرك الروم مقدماً عليهم، وأن يتم التقيّد بالأمر السلطاني من قبل الوزراء، والعلماء، والقضاة، وأمراء الأمراء، وأمراء الألوية، وقسامي بيت المال، والصوباشية، والزعماء، وأرباب التيمار، والمتفرقة، والجاويشية، والسباهية، والانكشارية<sup>(2)</sup>.

لذلك فقد اندمج أهل الذمة في المجتمع العثماني وانخرطوا في الطوائف الحرفية<sup>(3)</sup> بل كانت بعض الطوائف مشتركة بين المسلمين والمسيحيين<sup>(4)</sup> في التجارة والزراعة والصناعة سواء في عصر العنب<sup>(5)</sup>، أو حياكة الحرير<sup>(6)</sup> أو الصياغة<sup>(7)</sup>، وبالتالي لا يمكن الحديث عن اختلافات اجتماعية، بل أن الكثير من وجهاء المسيحيين كانت لهم علاقات وطيدة بالولاية في الأمور التجارية والمالية، أو معاونين لهم، وما كان للولاية في غالب الأحيان أن يفرقوا بين أن يكون هذا المعاون مسلماً أو مسيحياً، بل وحصل أن استخدم الولاية عدداً من المسيحيين المحليين وكلاء ماليين ومعاونين وملتمزين في كثير من المناطق<sup>(8)</sup>.

(1)- Hammer-Purgstall (j.v), histoire de l'empire ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, op cit, p282.

(2) - فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 1، سبق ذكره، ص ص 64 - 66.

(3) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة في القرن السادس عشر"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 19، العددان 1 و2، السنة 1969، ص 89.

(4) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 4، أبريل 1981، ص 42.

(5) - المرجع السابق، ص 91.

(6) - نفسه، ص 92.

(7) - نفسه، ص 93.

(8) - خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح "مرجع سابق، ص - ص 123 - 124 - 125.

كانت الدولة العثمانية تعتبر غير المسلمين من بين رعاياها سواء من النصارى أو اليهود، لكن الحريات التي تمتع بها النصارى في بلاد الشام لم تمتنع من وقوع تجاوزات من جانبهم فكثيرا ما انتهك بعضهم الحرمات وتفشى شرب الخمر جهارا وفتح الخمارات، لذلك جاءت الأحكام السلطانية ضمن هذا الاتجاه، فقد لاحظ قاضي حلب استمرار المقاهي والخمارات مفتوحة ليلا ونهارا حيث تحولت إلى مجمع للفاسقين رغم قرار الحظر الذي صدر بشأنها، لذا صدر الحكم السلطاني إلى بكربكي حلب بالعمل على إزالتها بشكل قطعي ودون تأخر أو إهمال، وأن يقوم بالإبلاغ عن أسماء من يخالف قرارات الشرع<sup>(1)</sup>.

وتكرر تقريبا نفس الحادث في لواء القدس الشريف من انتشار من يخالف الشرع في مدن وقصبات فلسطين، ونلاحظ هنا -من خلال الأمر السلطاني - بأن الدولة فعلا نظرت إلى الخمر من وجهة نظر دينية، مما يعطينا الانطباع عن المكانة التي يحتلها الشرع لدى المسؤولين العثمانيين وهذا ما يشير إلى مدى تشبّثهم بالعقيدة الإسلامية وتشربهم بمبادئها، فقد أرسل السلطان سليمان القانوني حكما شريفا إلى أمير سنجق القدس وقاضيه في 3 ذي الحجة 972هـ/ 1 جويلية 1565م، جاء فيه: " ليس من رضاي ارتكاب أمر يخالف الشرع في مدن وقصبات وقرى سلطنتي، لذا فقد أمرت بمنع الخمر منعاً باتاً من المسلمين"<sup>(2)</sup>، لكن يبدو أنّ هذا الأمر لم يتم تنفيذه على الوجه الأكمل، فقد استمر تدفق الخمر على القدس من طرف التجار الأجانب وبيعه هناك، لذلك شدّد الأمر السلطاني على اتخاذ موقف صارم من أمير اللواء اتجاه هذا الوضع وإلا كان مصيره العقاب والعزل من منصبه<sup>(3)</sup>.

وهكذا نرى بأن الدولة ركّزت اهتمامها على حماية الفرد من الآفات الاجتماعية وما ينجم عنها من أضرار، وهذا باتخاذها مواقف صارمة للحد من انتشارها.

أما عن علاقة طوائف النصارى ببعضها البعض فإنه كثيرا ما نشب خلاف بين ممثلي هذه الطوائف خاصة في مدينة القدس الشريف حيث توجد أهم الأماكن المقدسة مثل كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم، وكانت الخلافات في جلها حول مسألة الإشراف عليها، وأولوية الدخول وإقامة الشعائر الدينية، من ذلك الصراع الذي نشب بين طائفة اللاتين والطوائف الأخرى المنافسة لها حول شؤون كنيسة القيامة، ففي

(1) - مهمة دفترى 6، ص 560، الحكم 1218 مؤرخ في شهر ذو القعدة 972هـ/ جويلية 1565م. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 280.

(2) - مهمة دفترى 6، ص 608- 609، الحكم 1344. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، ص 281- 282.

(3) - نفسه، ص 282.

سنة 1029هـ / 1629م حدث خلاف بين اللاتين والروم الأرثوذكس حسمته الدولة العثمانية لصالح الروم الأرثوذكس<sup>(1)</sup>.

سادت العلاقات الطيبة في التعاملات المختلفة بين المسلمين وأهل الذمة من النصارى واليهود، وتبين سجلات المحكمة الشرعية أمثلة عن حجج شرعية لتعاملات متبادلة بين المسلمين واليهود، ففي إحداها نجد ادعاء يهودي على مسلم وأمام الحاكم الشرعي بالقدس الشريف المولى مصطفى أفندي بن يحيى، حيث ورد في إحدى هذه الحجج أنه: " ادعى اليهودي المدعو شوعيا ولد ايسا اليهودي على الحاج ابراهيم بن الحاج أحمد اللمداني، وبعد تقديم كل واحد لقرائنه أصدر القاضي أمره إلى الحاج ابراهيم بأن يرفع يده على المغزل الغربي محل النزاع ويسلمه للوكيل ويدفع الأجرة المتبقية، وبعدها تصادق الطرفان وثبت مضمون ذلك لدى الحاكم الشرعي،<sup>(2)</sup> وفي موقف مماثل حدث ادعاء مسلم على يهودي حيث أنه: " لدى الحاكم الشرعي قاضي القدس الشريف مصطفى أفندي إدعى الحاج عمر بن المرحوم الحاج حسن بن نمر على اليهودي المدعو نحميا ولد ياسف لتحصيل ثمن بضاعة بمبلغ قدره سبعمائة غرش عديدة، وأصدر القاضي حكمه لصالح الحاج عمر.<sup>(3)</sup>

وهذه الصورة من العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة سواء من السلطة أو الأفراد تبين الحقوق والحريات التي تمتع بها هؤلاء في ظل الإدارة العثمانية وهو ما جعل المؤرخ الأمريكي دونالد كواترت يقول بشأن العلاقة بين مكونات المجتمع العثماني بشكل عام: "والحق أن معاملة الإدارة العثمانية لرعاياها لا يمكن وصفها بأنها معاملة قاسية، فالنظام السياسي العثماني يقضي بعدم التعرض للناس في ممارسة شعائهم الدينية سواء أكانوا مسلمين أم يهودا أم نصارى، ولا غرو فالإسلام يقوم على مبدأ التسامح فيما يتعلق بأهل الكتاب أو أهل الذمة، والدين الاسلامي يحض على حماية الذميين في البلاد المفتوحة وعدم المساس بحريتهم في ممارسة عقائدهم الدينية، وهذا لا يعني أن رعايا الدولة من مسيحيين ويهود لم يضطهدوا من حين لآخر بالرغم من مبدأ التسامح الثابت الذي أصرت الدولة على التقيد به، والحق أن هذا المبدأ العام

(1) - أحمد حامد ابراهيم القضاة، نصارى القدس في ضوء الوثائق العثمانية، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 2007، ص 460.

(2) - حجة 1، مؤرخة في 19 شوال 1082هـ/ 17- 02- 1672م، سجل 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ج 2، سبق ذكره، ص ص 317- 319.

(3) - حجة رقم 1، مؤرخة في أواخر شعبان 1082هـ/ 30- 12- 1671م، سجل 173، نفسه، ص 256.

بقي لعدة قرون يحكم العلاقات بين مختلف شرائح المجتمع العثماني ، ومهما يكن من أمر فقد قدمت الدولة العثمانية للعالم نموذجاً للتعايش بين مختلف الطوائف والأعراق<sup>(1)</sup>.

#### خامساً - علاقة السلطة العثمانية مع العشائر البدوية في بلاد الشام:

اتبعت الدولة العثمانية إجراءات عدة في تعاملها مع العشائر، وإن كانت في مجملها تصب في خانة التعامل بمرونة قصد استمالتها وكسبها إلى جانبها من ذلك :

- إشراك العشائر وإعطاؤها دوراً في إدارة المناطق التي تتواجد فيها.

- إغراؤها بالمال في شكل صرة سلطانية لزعماء البدو المتواجدين على طريق قافلة الحج للحيلولة دون إقدامهم على الإغارة على الحجاج و سلبهم متاعهم.

- اعتماد سياسة لإسكان العشائر ومنحها أراضي للاستقرار بها وممارسة الزراعة.

#### 1 - اشراك العشائر في السلطة العثمانية :

اتبعت الدولة العثمانية مع العشائر التي أبدت ولاءها لسلطتها أسلوب إمارة العشيرة، أو أسلوب إمارة السنجق وإمارة الحج.

أ - إمارة العشيرة:

كانت الدولة العثمانية تتعامل مع أمراء العشائر المحلية كزعماء محليين لهم ثقلهم العسكري والاجتماعي والاقتصادي، حتى أصبح أمير العشيرة بمثابة أمير سنجق<sup>(2)</sup>، ثم ضم العشائر في مجلس كبير أطلقت عليه مجلس عشائر الشام ويشرف عليه أحد الشيوخ<sup>(3)</sup>، لكن مما هو متوفر من وثائق مازال هناك صعوبة في التوصل إلى تحديد ما إذا كان هذا الشيخ يعين أو يتم انتخابه من زعماء العشائر الآخرين، لكن ما

(1) - دونالد كواترت : الدولة العثمانية (1700 - 1922م)، تعريب أيمن الأرمنازي، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض 2004، ص 38.

(2) - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص ص 158 - 159.

(3) - صدر حكم سلطاني موجه إلى أمير حلب سنة 951هـ/1544م (مازال حينئذ لواء تابعا لولاية العرب أو الشام قبل أن يتم تحويلها إلى إيالة سنة 956هـ/1549م) يتضمن الموافقة على منحه إمارة الشام ( المقصود هنا إمارة عشائر الشام). حكم صادر في 3 رمضان 951هـ/18 نوفمبر 1544م، مهمة دفترتي 12321، تسلسل 36، ص 17، نقلا عن: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 1، سبق ذكره، ص 215.

كانت تركز عليه السلطة العثمانية هو قدرة من يتولى المنصب على الحفاظ على الأمن وحماية طرق القوافل من سطوة اللصوص وقطاع الطرق.<sup>(1)</sup>

وتبين الأحكام السلطانية الموجودة في دفاتر المهمة هذا الأسلوب بوضوح، فقد ورد في إحداها بأن الشيخ محمد بن راشد ذكره حكم سلطاني مؤرخ في ربيع الأول 959هـ / فيفري 1552م باسم "أمير لواء البادية" بمعنى أمير اللواء الذي يشرف على سنجق (إمارة العشيرة)<sup>(2)</sup>، ويرتبط الأمير بعشيرته وليس بالمنطقة التي يقيم بها<sup>(3)</sup>، فهو بذلك وسيط بين أبناء عشيرته والدولة التي تشترط فيه أن يحرص دوماً على "الرعايا وصون البرايا"<sup>(4)</sup>، والانصياع لأوامر الدولة وسياساتها والانسجام مع باقي أمراء السناجق في منطقته<sup>(5)</sup>، فضلاً عن المشاركة بمقاتليه في الحملات السلطانية والأهم من ذلك - بالنسبة للدولة - أن يتحقق الاستقرار داخل العشيرة، ولا يهملها من يكون على رأسها، وفي حالة لجوء العشيرة إلى العصيان فإن أقصى ما تفعله الدولة هو تغيير زعيمها دون أن تسعى لإلغائه.

#### ب - إمارة اللواء وإمارة الحج :

اتبعت الدولة العثمانية سياسة استرضاء زعماء وأمراء العشائر البدوية، فمنحتهم مناصب رفيعة على رأس العديد من الألوية، وكلفتهم بإمارة الحج، ونجحت في كسب خدماتهم وفي نفس الوقت تجنبت إهدار الأموال والأرواح في إخضاعهم، وتمكنت بالمقابل من جباية الضرائب في المناطق التي تخضع لسلطتهم، وكان تعيين هؤلاء الزعماء لتولي إمارة قافلة الحج يأتي بناء على مقترح من كبار الموظفين في الإيالة مثل البكربكي والقاضي والدفتردار، ومن ثمة ترسل السلطة المركزية للمعني براءة تعيين رسمية.

(1) - فاضل بيات، نفسه، ص 214.

(2) - مهمة دفترتي طوب قابي سراي 888، ص 84 ب. نقلاً عن: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، م 1، سبق ذكره، ص 213.

(3) كان رؤساء الأفخاذ الذين تتكون منهم العشيرة وكذا الأفراد المستنون هم الذين يرشحون ويختارون الشخص الذي يرويه مناسباً لتولي منصب بيك العشيرة، ويبدون رأيهم ويعلنون قناعتهم وقبولهم به صراحة، عندها ما على الدولة العثمانية سوى المصادقة على هذا الاختيار، وإصدار براءة بتعيينه رئيساً للعشيرة، بينما قبيلة رشوان التي كانت تقضي فصل الشتاء في بادية بلاد الشام لم يكن رئيس العشيرة فيها يعين براءة تعيين من الحكومة، بل كان وجهاء ومسئول القبيلة هم الذين يقومون بعملية اختيار وتعيين رئيس عشيرتهم. جنكيز أورهورولو: اسكان العشائر، مرجع سابق، ص 37 - 38.

(4) - المرجع السابق، ص 213.

(5) - مهمة دفترتي طوب قابي سراي 888، ص 84 ب - 85 أ. نفسه، ص 213.

من أبرز من تولّى إمارة الحج الشامي من أمراء السناجق؛ الأمير قانصوه الغزاوي بن مساعدة<sup>(1)</sup>، وهو ما نستشفّه من الحكم السلطاني الموجّه إليه باعتباره أمير سنجق الكرك، والمؤرّخ في 21 جمادى الآخرة 979هـ / 10 نوفمبر 1571م، والقاضي بتعيينه لهذا المنصب وتذكيره بالمهام الموكلة إليه، والشروط الواجب عليه قبولها نظير ذلك، والقيام ببذل قصارى جهده في تنفيذ الأوامر المتعلقة بمستلزمات وأموال قافلة الحجاج للموسم القادم<sup>(2)</sup>، وقد مكث في هذا المنصب مدة خمسة عشر سنة يشغل إمارة لواء عجلون وإمارة الحج من سنة 980هـ / 1572 - 1573 إلى سنة 995هـ / 1586 - 1587م<sup>(3)</sup>.

ثم جاء بعده الأمير منصور بن الفريخ<sup>(4)</sup> أمير البقاع أميراً على قافلة الحج الشامي، رغم أن هذه الأسرة تولت إمارة لواء نابلس بشكل متقطع<sup>(5)</sup> لأنه جرى تعيين آخرين بدلا منهم إلا أن فردا آخر من الأسرة تمكن من الحصول على إمارة الحج وهو فروخ بن عبد الله الشركسي<sup>(6)</sup> سنة 1021هـ / 1612م.

أما الأسرة البدوية الثالثة والتي نجحت الدولة في الاستفادة من خدماتها فهي أسرة طرة باي التي كانت تقيم في منطقة اللجون<sup>(7)</sup> حيث كان أبرز من تقلد إمارتها هو الأمير أحمد بن طرة باي الذي أعلن ولاءه للدولة العثمانية<sup>(1)</sup>.

(1) - قانصوه الغزاوي هو أمير عجلون والكرك وأمير الحج الشامي نحو خمس عشرة سنة، كان من أحسن الأمراء سيرة وكان من يحج في زمانه يستريح في سفره، وكانت العرب تطيعه وتخافه فيحصل للحجاج الأمن والراحة، وتوفي في غرة محرم سنة 1000هـ / 1592م. أنظر: نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ج3، سبق ذكره، ص ص 201 - 202.

(2) - ورد في حكم سلطاني مؤرخ في 21 جمادى الآخرة الموافق لـ 10 نوفمبر 1571م موجه إلى أمير سنجق الكرك قانصوبك أن بكركبي الشام السابق وقاضي الشام و دفتر دار فرع الشام عرضوا عليه بأنه وجدوا في شخص قانصو الشخص المناسب لتولي إمارة الحج، وبناء عليه أمرت بتعيينك أميراً للحج إلى جانب توليك لواء عجلون. مهمة دفترتي 16، ص 355، تسلسل 628. نقلا عن: فاضل بيات، الأحكام السلطانية، ج3، سبق ذكره، ص 264.

(3) - كان الأمير قانصوه الغزاوي أحد أمراء العشائر البدوية ذات النفوذ والقوة، في لواء عجلون وكثيرا ما تمرد على سلطة الدولة حتى أنها سعت إلى استدراجه بالحيلة وحبس. مهمة دفترتي 7، ص 748، الحكم 2048، مؤرخ في 18 ربيع الأول 976هـ / 10 سبتمبر 1568م، نفسه، ص 190.

(4) - منصور بن الفريخ البدوي أمير البقاع بعد أولاد الحنش، ولي الإمارة وتصدى للأشقياء وقطاع الطرق، ثم أصبح أمير سنجق نابلس وأخيرا أمير الحج الشامي. أنظر: الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، مصدر سابق، ج2، ص ص 666 - 668.

(5) - زهير عبد اللطيف غنايم: "مهام أمراء الألوية الادارية والأمنية والاقتصادية في فلسطين 921 - 1110هـ / 1516 - 1700م" المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 9، العدد 2، سنة 2015، ص 48.

(6) - تولى حكومة نابلس وإمارة الحج وحراسة الركب ظل في منصبه حتى وافته المنية بمكة المكرمة سنة 1030هـ. الحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج 3، القاهرة 1284هـ / 1869م، ص 271.

(7) - كانت أسرة البدوي طراباي من الأسر الأولى التي أعلنت ولاءها للسلطان العثماني سليم الأول عند دخوله بلاد الشام في سنة 922هـ / 1516م وقد أورد ابن طولون الدمشقي أن السلطان سليم في العاشر محرم 923هـ / 02 فيفري 1517م أرسل مكتوبا من القاهرة الى ابن



ووقف دوما في صفها<sup>(2)</sup>، وعارض الأمير فخر الدين المعني الثاني في أثناء تمرده على الدولة العثمانية، والأمير طراباي بن علي الحارثي الذي يوصف بأنه أمير لواء اللجون، كما نجد بأن السلطان العثماني يوكل إليه سنة 1002هـ/1594 أمور سنجق غزة أثناء غياب أميرها عندما كان أميراً لقافلة الحج وحافظ طراباي على منصبه إلى غاية وفاته سنة 1010هـ/1601 م<sup>(3)</sup> وظلت أسرة طرة باي تتصرف في لواء اللجون إلى غاية أواخر القرن الحادي عشر الهجري (1088هـ)<sup>(4)</sup>.

أما زعماء العشائر البدوية الأخرى فقد اتبعت السلطة العثمانية معهم استراتيجية على المدى البعيد تركز على النقاط التالية:

- التمييز بين العشائر المتمردة وتلك التي يمكن كسبها واستمالتها إلى جانب الدولة.
- إرغام العشائر المتمردة على التخلي عن أعمالها العدائية ضد الدولة عن طريق التضييق عليها وفرض حظر في التعامل معها.
- إصدار العفو عن العشائر التي تتخلى عن تمرداتها وعدائها للدولة وتحويلها من موقف العداء إلى موقف التحالف والتعاون معها.
- وإنما عمدت الدولة إلى هذا الأسلوب من أجل أن تشعر العشائر التي لم تنضو تحت سلطة الدولة بالأمان من الدولة وبالتالي تحذو حذو تلك التي أصبحت في صف الدولة، وفي نفس الوقت حافظت على مصداقيتها في تعاملها معهم إلى أقصى حد، فلم تلجأ - بأي حال من الأحوال - إلى خداعهم أو الغدر

---

طرية بحره فيه عن انتصاره على المماليك حيث يقول بنص الحرف : " ... ورد قاصد من عند ابن طرية أمير الدريب ( أو الدرين ) مع = مرسوم ورد إليه من ملك الروم ابن عثمان مكتتب في منزلة بولاق خارج القاهرة مؤرخ بيوم الأحد العاشر المحرم وفيه أن ابن عثمان دخل مصر يوم خامس المحرم ووقع القتال بين الجراكسة يوم الأربعاء والخميس والجمعة وفي آخرها يوم السبت فرت الجراكسة ... مكسورين ، وتم التحريض من ابن طرية في مسك من يظفر(به) بالدرب من الجراكسة ، فشكوا الناس في هذا المرسوم " ، مما يشير بأن أحد أبناء طراباي كان ضمن الجيش العثماني المتواجد بمصر لمحاربة المماليك. أنظر - محمد ابن طولون : إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، مصدر سابق ، ص 237.

(1) - نظراً لمكانة أسرة طراباي فقد كان أميرها من بين الحاضرين في توديع السلطان سليم عند مغادرته دمشق عائداً نحو اسطنبول كما تولت نيابة صفد كما يذكر ابن طولون في مفاكهة الخلان ، ص 379 ، 381.

(2) - الموقف الأبرز لأسرة طراباي كان عند خروج جان بردي الغزالي عن السلطة العثمانية وتمرده ضدها بحيث أعلنت العشائر البدوية مثل بني عطا وبني عطية وبدو جبل نابلس انضمامها لصفوف الغزالي بينما ظلت أسرة طراباي وحيدة وثابتة على ولائها للعثمانيين. ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 1213 .

(3) - محمد عدنان البخيت : " الأسرة الحارثية في مرج بني عامر .. " مجلة آداب الرفدين ، العدد 15 ، سنة 1982 ، ص 146.

(4) - محب الدين المحبي ، خلاصة الأثر ، سبق ذكره ، ص 162 - 163 ، محمد عدنان البخيت : " الأسرة الحارثية ... " نفسه ، ص 155.



بهم، فلم يسبق أن منحت الدولة الأمان ثم غدرت بمن تم استئمانه، ولم تشر أي من الأحكام السلطانية التي توفرت لدينا إلى مثل هذا الأسلوب، وهو ما أثر إلى حد كبير في إعادة كثير من العشائر المتمردة إلى جادة الطريق فتخلت عن غاراتها واعتداءاتها.

أما العشائر التي دأبت على العصيان والتمرد ضد سلطة الدولة فإن أبرز مثال عنها هي عشيرة أبو ريش التي كانت في منتصف القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي إحدى العشائر البدوية القوية في المنطقة والتي شقت عصا الطاعة ولم تتمكن الدولة من ردعها أو إخضاعها، لذا اتبعت الدولة استراتيجية متكاملة في التعامل معها، يمكننا أن نحددها في الخطوات التالية، فقد لجأت إلى القضاء - كخطوة أولى - على المتحالفين مع هذه العشيرة، وهو ما بينه هذا الحكم السلطاني الموجه إلى أمير لواء سلمية التابع لإيالة حلب مؤرخ في 14 رجب 959هـ/ جويلية 1552م مشيدا بدوره وجهوده في الإيقاع "بعصاة الأعراب من آل صبح" المتعاونين مع أبو ريشة "المغرور" مبلّغا إياه بالتكريم الذي يستحقه لقاء هذا العمل<sup>(1)</sup> ومواصلة لهذه الاستراتيجية في عزل عشيرة أبو ريش واستمالة العشائر الأخرى لصف الدولة، قامت الدولة بما يشبه حملة دعائية أشادت من خلالها بمدى نجاعة سياستها، حيث أبلغت عن استتباب الأمن والاستقرار في ولاية حلب بعد أن نجحت في التكيل بالموالين لـ(أبو ريشة)، وطلبت صد كل الأبواب أمامه وإغلاق كل المنافذ في وجهه، أما بالنسبة لأمير سنجق حماة الذي تهاون في القيام بدوره في العملية فقد صدر الأمر بعزله في مقابل التكريم الذي حظي به سليمان بن سيالة الذي تقلد لواء السخنة والطيبة وتكريم أبيه بمنحه خلعة سلطاني<sup>(2)</sup>.

واستمرت الدولة في تضيق الخناق على عشيرة أبو ريش الذي يبدو أنه فر ولجأ عند المدعو عثمان بن محمد زيادة الذي يتبع ولاية بغداد، لكن في نفس الوقت يبدو أن الدولة ظلت تتوجس خيفة من معاودته الكرة وقيامه بأحداث اضطرابات لذلك أكدت على أمير سنجق سلمية على أن يظل يقضا وعلى أتم الاستعداد لصد أي اعتداء من عناصر أبو ريش، وهذا كي يتمكن الرعايا من زراعة الأرض بأمان وهي التي لم تزرع مطلقا في أرجاء البرية منذ القدم، وأن محصول القمح كان وفيرا في ذلك الموسم<sup>(3)</sup>.

(1) - مهمة دفترى طوب قابي سراي 888، ص 1303. نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، ج 1، سبق ذكره، ص 270.

(2) - مهمة دفترى طوب قابي سراي 888، ص 322 مؤرخ في 27 رجب 959هـ/ جويلية 1552، نفسه، ص 272.

(3) - مهمة دفترى طوب قابي سراي 888، ص 1371 مؤرخ في 23 شعبان 959هـ/ 14 أوت 1552م، نفسه، ص 273- 274.

ويبدو أن أبو ريش تضرر من هذه الاستراتيجية فما كان منه إلا أن غير رأيه وقبل الانصياع إلى أوامر الدولة، فقد أبلغ بكربكي الشام في 19 رمضان 959 هـ / سبتمبر 1552 م أن عثمان (عم أبو ريش) أرسل إليه أحد رجاله ليبلغه بتعهده بجلب أبو ريشة لو منح أماناً له، وأنه (أي البكربكي) أرسل إليه رسالة تتضمن منحه الأمان للقيام بالإيفاء بتعهده، ومن المؤمل أن يأتي أبو ريشة ويعلن الولاء<sup>(1)</sup>.

وهكذا نجحت سياسة الدولة في كسب هذه العشيرة البدوية التي نعمت فعلاً بالأمن ودخلت في خدمة الدولة وأضحت من أشد حلفائها، حتى أن كثيرين من أبنائها تم تقليدهم منصب أمير لواء كما هو الحال بالنسبة للشيخ محمد بن مدلج الذي خاطبته الأحكام السلطانية بـ (أمير لواء عانة دام عزه)<sup>(2)</sup>، بل وأنه تلقى مرسوماً شريفاً من السلطان بالثناء عليه لقاء الخدمات التي أسداها للدولة<sup>(3)</sup>، كما أصبح أفراد العشيرة يشاركون في الحملات السلطانية التي تأمر بها<sup>(4)</sup>.

ويبدو أن الدولة العثمانية هنا قد وصلت إلى قناعة مفادها بأن إخضاع العشائر البدوية لا يمر دوماً عبر اللجوء إلى القوة بل أحياناً يمكن لوسائل اللين والاستمالة أن تجدي نفعاً دون أن يكلفها ذلك أية خسائر، كما أنها توصلت إلى قناعة أخرى هي أن هذه العشائر يمكن أن تغير مواقفها بسهولة وبوسائل بسيطة، ومن ثم تسهل عملية إخضاعها وحتى تأديبها إن اقتضت الضرورة، ولعل أحسن مثال لتعامل الدولة في هذا الإطار وبهذه الطريقة ما تم مع عشيرة أبو ريشة في أعالي الفرات في شمال شرق بلاد الشام حتى إيالة حلب.

لقد أثرت سياسة الدولة العثمانية في تعاملها مع العشائر البدوية المتواجدة في بلاد الشام في تحقيق مكاسب معتبرة للدولة وللشعائر في آن واحد، فمن جهة نجحت الدولة في إدماج أفراد هذه العشائر في جهازها الإداري كموظفين تابعين لها، ومن جهة أخرى استفادت من الضرائب التي تقوم بجبايتها من هذه المناطق والقوات التي يتم تجهيزها من التيمارات، كما ساعد وجود هذه العشائر في حماية طريق الحج بإسناد إمارة الحج لزعمائها، فضلاً عن الأمن والاستقرار الذي نعمت به الدولة والرعايا في هذه المناطق.

(1) - مهمة دفترى طوب قابي سراي 888، ص 432 أ - ب، نفسه، ص 278 - 279.

(2) - مهمة دفترى 12، ص 64، تسلسل 140. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 3، ص 150.

(3) - جاء في هذا المرسوم: "هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني أرسلناه إلى قدوه الأمراء الكرام... أمير لواء عانة أبو ريش دام عزه..." أنظر: مهمة دفترى 10، ص 89 تسلسل 292. نقلاً عن: فاضل بيات، نفسه، ص 282 - 283.

(4) - مهمة دفترى 7، ص 112، الحكم 292. مؤرخ في 23 ربيع الأول 975 هـ / 27 سبتمبر 1567 م. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، ص 83.

## 2 - المساعدات المالية ( الصرة السلطانية):

لجأت الدولة العثمانية إلى اعتماد استراتيجية خاصة مع العشائر البدوية ليس فقط مع تلك الواقعة في طريق قافلة الحج بل كل العشائر المتواجدة في بلاد الشام، من ذلك تكليفهم بأداء بعض الخدمات العامة كحماية الطرق وتوفير الأمن للمسافرين<sup>(1)</sup> وتعمير الأماكن ونقل الحمولات الخاصة بقافلة الحج إلى جانب تقديم بعض الإغراءات المالية بمنحهم الصرة السلطانية<sup>(2)</sup> لزعمائها قصد الحيلولة دون قيامهم بالإغارة على قوافل الحجاج<sup>(3)</sup>، ومن أبرز من كان في وفاق مع الدولة العثمانية ومحل ثقة لديها هو الشيخ عامر بن شاهين شيخ عشيرة بني عطية وهي من العشائر العربية في منطقة العقبة على طريق الحج، والذي لم يتوانى في إسداء الخدمات وتقديم الدعم اللازم وبذل الجهود في نقل الحمولات الخاصة بأمر الحج من الحبوب المتعلقة بالدشيشة، لذلك صدر الحكم السلطاني بمنحه كمية من الصرة السلطانية على شكل مبلغ نقدي وكمية من القمح، ليستمر في قيامه بحراسة طريق الحج وتعمير الأماكن التي يلزم تعميرها.<sup>(4)</sup>

## 3 - سياسة إعادة الإسكان:

اعتمدت الدولة العثمانية أسلوب الإسكان فنجدها تلجأ إلى تخصيص بعض الأولوية لإسكان العشائر ومنحها الأراضي الزراعية لاستغلالها، وهكذا نجدها في أواخر القرن السادس عشر تضيف إيالة جديدة إلى

(1) - أرسل السلطان حكماً شريفاً إلى أحد زعماء أسرة طراباي البدوية واسمه عساف مكافأة له على الجهود التي بذلها في خدمة حراسة الطريق بين لواء لجون إلى دمشق نحو القاهرة. محمد عدنان البخيت: "الأسرة الحارثية في مرج بني عامر..." مرجع سابق، ص 143 - 144.

(2) - ورد حكم إلى بكليركي مصر بتاريخ 13 رمضان 951هـ/28 ديسمبر 1544 م يتعلق بصدر أمر سلطاني بتعمير الموضع المسمى بالعقبة والواقع في طريق مكة، وأن عامر بن شاهين شيخ عشيرة بني عطية (وهي من العشائر العربية) قد قدم معلناً طاعته ومتفانياً في إسداء خدماته، كما بذل جهوداً في نقل الحمولات الخاصة بأمر الحج من الحبوب...ولهذا صدر الأمر بمنحه كمية من الصرة على شكل مبلغ نقدي وكمية من القمح...وإنه سيقوم بالاعتناء بالمواضع المذكورة ويحرسها، كما يقوم بتعمير الأماكن التي يلزم تعميرها ويحافظ عليها. مهمة دفترى طوب قابي سراي 12321 تسلسل 121 ص 56 أ - ب، نقلاً عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 1، سبق ذكره، ص 209 - 210.

(3) - قامت الدولة العثمانية بمحاولة الحد من خطر العشائر البدوية على قوافل الحجاج بمنح مخصصات مالية تحت اسم "الصدقة السلطانية" و"الإكرامية" و"الإنعامية" شريطة تأمين الطريق أو على الأقل كي لا تقوم هي نفسها بقطع الطريق. زكريا قورشون "الترميم والحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام والمدينة المنورة في القرن التاسع عشر"، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 26 - 30 سبتمبر 2005، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيك)، اسطنبول، 2009، ص 44 - 45.

(4) - مهمة دفترى طوب قابي سراي 12321، تسلسل 121، ص 56 أ - ب، نقلاً عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 1، سبق ذكره، ص 209 - 210.

تقسيماتها الادارية وهي إيالة الرقة<sup>(1)</sup>، حيث خصصت جزء هاماً منها لهذه العشائر، لكن العملية الأهم لإسكان العشائر كانت في أواخر القرن السابع عشر وبالضبط عملية الإسكان التي تمت بين سنتي 1691 و1696م،<sup>(2)</sup> قصد وضع حدّ للأضرار الفادحة التي تلحق بالأهالي،<sup>(3)</sup> وفي نفس الوقت السعي لإعادة إعمار المناطق الخربة والمهجورة<sup>(4)</sup> واستصلاح الأراضي البور واستثمارها في الزراعة<sup>(5)</sup>، إضافة إلى

(1) - تم تأسيس إيالة الرقة سنة 994هـ/1586م في أقصى الشمال الشرقي من بلاد الشام من اقتطاع أجزاء من كل من إيالات: ديار بكر، والشام وحلب، وبرزت أهميتها على الطريق المائي عبر نهر الفرات نحو البصرة، ولتواجد العشائر البدوية على أراضيها، وفي إطار سياسة الدولة العثمانية لتوطين الأراضي غير المأهولة بالسكان، فإنها عمدت إلى تشجيع العشائر البدوية على الاستقرار في هذه الإيالة، وربما يعود الهدف الأساسي لذلك هو التحكم في هذه العشائر وإبقائها تحت رقابتها المستمرة لإدراكها فعلاً بأنه يصعب عليها التحكم في البدو، لهذا لم تجد الدولة العثمانية بُدّاً من السعي لاسترضاء زعماء هذه العشائر طالما تقبّل هؤلاء سلطتها، بل ومنحتهم -لأجل ذلك - ألقاباً تشريفية، حتى وإن كانت في واقع الأمر مجرد أمور شكلية بسيطة، لكنها لم تكن لتسمح أبداً بأن يشعر هؤلاء بقدرتهم على مواجهة الدولة، وهو الأمر الذي يراه البروفيسور خليل ساحليّ أوغلي بأنها سياسة الهدف منها "تطبيب خاطر الموالين للدولة من زعماء العشائر البدوية. أنظر خليل ساحليّ أوغلي: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، بحوث ووثائق وقوانين، مرجع سابق، ص 503.

(2) - اعتمدت الدولة خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر على إشراك زعماء هذه العشائر في إدارة وتسيير كثير من الأولوية كما كلفتهم بأداء بعض المهام وخصصت لبعضهم الآخر مساعدات ومنح مالية قصد اغرائهم بعدم تهديد أمن بعض الطرق خاصة طريق الحج، لكن الأمور تغيرت بفعل حدوث موجة من هجرات القبائل البدوية من وسط الجزيرة العربية نحو أطراف بلاد الشام مما قوّض هذه السياسة، كما زادت هذه الهجرة بدورها من شح الموارد وبالتالي في دفع العشائر التي كانت تستغل تلك المناطق إلى التحرك غرباً في الأناضول، كما كان للظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها الدولة في هذه الفترة بسبب أعباء الحروب في شرق أوروبا أثراً بالغاً انعكس مباشرة على الظروف الاجتماعية حيث زادت أعمال الغزو والسطو وبالأخص في أنحاء حلب والرقة من مجموعات التركمان والأكراد موقعين خسائر فادحة. أنظر: جنكيز أورهنولو: اسكان العشائر، مرجع سابق، ص ص 60 - 67 - 68 - 71.

(3) - من المعروف أن أسلوب ونمط حياة البدو القائم على التنقل بين المصافي والمشاتي يتعارض إلى حد كبير مع نظام الدولة المركزية الذي يتطلب الانضباط والاستقرار، لذلك فعلى الرغم من التعهدات التي يقطعها البدو على أنفسهم وأمام الدولة بعد التعرض للأهالي المقيمين، إلا أنهم كانوا في أثناء تنقلهم بين المصافي والمشاتي يوقعون أفدح الأضرار بدءاً برعي المزروعات، مروراً بنهب المحاصيل الزراعية والمواشي، انتهاءً بتهديم البيوت وعمليات الخطف والإيذاء والقتل والتي كانت من طبيعتهم، وكانت هذه العمليات تكثُر بالخصوص أثناء فترات الحروب عندما تخلو البلاد من قوات الأمن أو لوجود أعداد قليلة منها فقط، فكان هؤلاء البدو يتحركون بأعداد هائلة يهدمون القرى والبلدات التي يصادفونها في طريقهم. أنظر: نفسه، ص 67.

(4) - معروف أن الدولة العثمانية أثناء إجراءاتها لعمليات التحرير كانت تحصي وتدوّن أسماء المزارع والمواقع الخربة ومقدار ما كان يحصل منها في حالة صلاحها مما يؤكد الدقة من جانب سلطتها الادارية. محمد عدنان البخيت: "الأسرة الحارثية في مرج بني عامر..". مرجع سابق، ص 142.

(5) - أدى اتساع رقعة الخراب في بلاد الشام الناجم عن غزوات البدو الذين تجمعوا من جديد حول قوات عشائر شمر وعزة بعد أن تم إضعاف عشائر الفضل التي لطالما دخلت في تناغم ونظام متوازن مع الدولة منذ بدايات الحكم العثماني في بلاد الشام وحتى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، ومن القرى التي تعرضت للخراب نجد قرى ناحيتي سروج وحران في لواء أورفا التابع لإيالة الرقة وناحية منبج التابعة لإيالة حلب والأراضي الواقعة بين لواء حماة وحمص، وكحل لإعمار هذه الأراضي وإحيائها والذي تضررت منه الدولة وحكام أقاليمها بدأت في منحها لمن يديرها بشرط أن يجلب لها سكاناً من خارج المنطقة يزرعونها ويعملون على ازدهارها. أنظر: جنكيز أورهنولو، المرجع السابق، ص ص 73 - 74 - 75.

استخدام بعضها في حراسة الثغور والممرات الجبلية الهامة خاصة الواقعة على طريق التجارة بين حلب و دمشق<sup>(1)</sup>.

#### أ - الإسكان في ولاية حلب :

كان مقررا إسكان جزء من العشائر في الأراضي الخالية من الرقة ثم تم العدول عن ذلك<sup>(2)</sup> وحولوا إلى منطقة منبج التابعة لحلب ، وتم اسكان 1038 عائلة استفادت من 1481 فدانا من أراضي القرى وتروى بمياه نهر الساجور ، ثم أضيفت لها 245 فدانا استفادت منها 197 عائلة.<sup>(3)</sup>

#### ب - الإسكان في الرقة :

تم اختيار لواء أورفا الذي خصصت فيه مساحة 1764 فدانا استفادت منها 1264 عائلة.<sup>(4)</sup>

#### ج - الاسكان في لوائي حمص وحماة :

تم إقرار اسكان جزء من العشائر بتاريخ 24 ربيع الثاني 1102 هـ / 25 جانفي 1691م في المناطق الخربة و المهجورة الموجودة في لوائي حمص وحماة التابعين لولاية طرابلس وكان جلهم من التركمان<sup>(5)</sup> كما صدر في سنة 1692 م قرار بإسكان عشيرة آل وهيب العربية في قضاء أعزاز وهذا بسبب الضرر الذي ألحقته في منطقة أنطاكية التي كانت تتواجد بها.<sup>(6)</sup>

يبين دفتر التحرير رقم 131 سياسة الدولة العثمانية المتبعة مع العشائر البدوية حيث منحت لهذه العشائر التيمارات لزراعتها ، وكانت الغاية من وراء ذلك هي ربط العشائر بالأرض والفلاحة وتحسيسها

(1) - بناء على مراسلة من قاضي اللاذقية وقره آغاخ يخبر فيها السلطة المركزية أن المعبر المعروف باسم (دربند قزقلي) الواقع بين قضاءي اللاذقية وقره آغاخ بلواء حميد هو معبر مقفر صخري ومخيف ، وأن شخصا باسم حسين قولي و معه مجموعة من الأشقياء قتلوا ما بين سبعة أو ثمانية من المسلمين و سلبوا أموال عدد من التجار مستغلين خلو المعبر من الحراس ، لذلك أمر الحكم السلطاني بتاريخ 25 ربيع الأول 975هـ/ 29 سبتمبر 1568 م باتخاذ الاجراءات المناسبة بتعيين محافظين وحراسا آخرين بدلا منهم لحماية المعبر. مهمة دفترى 7 ص 114 الحكم 297 ، نقلا عن فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، مج 2 ، سبق ذكره ، ص ص 84 - 85.

(2) - راعت السلطة العثمانية التقرير الذي قدمه معمار كان قد أرسل إلى هناك أشار فيه إلى ندرة وجود الماء ، وأن اسكان العشائر سوف يضعها في خطر طالما لا وجود للماء ، اضافة لتدخل والي الرقة و كذا أعيان وأشراف حلب وعينتاب وكلس الذين رأوا في اختيار منطقة منبج أمرا معقولا .أنظر : جنكيز أورھونلو، المرجع السابق، ص 95.

(3) - نفسه ، ص 95 - 96.

(4) - نفسه ، ص 93.

(5) - نفسه ، ص ص 98 - 99.

(6) - نفسه ، ص 103.

بوجودها الفعال والمنتج في حدود الناحية التي تتواجد بها،<sup>(1)</sup> وفي الحقيقة فإن هذه السياسة المطبقة مع عشائر بلاد الشام قد سبق وأن تم تطبيقها في منطقة الأناضول فقد لجأت الدولة العثمانية إلى توزيع أراضي رعوية صيفية وشتوية ذات حدود واضحة ومسجلة في السجلات الرسمية للدولة تحت اسم (يورت yurt) وفي مناطق اليورت ومع عناية البدو بالماشية انخرطوا ولو هامشيا في الزراعة وقد استصلحوا أراضي في الغابات والمستنقعات لزراعة القمح والقطن والأرز لتأمين حاجاتهم وحاجات السوق، وهكذا فأنشاء اقامتهم الشتوية يقومون باستصلاح جزء من الأراضي بغرض انتاج محاصيل تدر عليهم أموالا نقدية صعبة كالقطن والأرز، أما عند رحيلهم الى المراعي الصيفية فقد كانوا يتركون خلفهم مراقبين ليعودوا من أجل الحصاد<sup>(2)</sup> دون اغفال ما كان لرعاية الماشية من دور في تأمين كثير من المنتجات الغذائية والمواد الخام الأساسية مثل الصوف والجلود للصناعات المدنية وبالتالي فقد كان لها أثرا اقتصاديا حيويا في المجتمع.<sup>(3)</sup>

ولأن الجمال هي الحيوان الرئيسي في البادية فان البدو اهتموا به ليس فقط في حياتهم الخاصة، بل سمح لهم باحتكار المواصلات على صعيد الدولة، فالجمال كان عادة يستخدم في نقل الأمتعة في الظروف الصعبة لذلك فالجمال لم يكن فقط للذبح من أجل الطعام بل استخدم في أوقات الحروب في نقل المعدات الثقيلة كالأسلحة والذخائر والمؤونة، وكذا في نقل المنتجات التجارية الثقيلة والضخمة، بحيث أن للجمال قدرة حمل حوالي 250 كلغ أي ما يوازي ضعفي حمولة الحصان أو البغل، وكلفته قليلة نسبيا، لذلك نجد بأن الجيوش العثمانية اعتمدت على البدو سائقي الجمال لمواصلاتهم وخدماتهم اللوجستية ولهذا السبب لم تكن طرق العثمانيين ذات سطحية قاسية.<sup>(4)</sup>

أهم ما تكشف عنه الوثائق العثمانية هو فشل الحكم العثماني رغم كل الاجراءات التي قام بها من السيطرة على البدو في المنطقة التي بقوا يشكلون فيها تهديدا متواصلا لسكان الريف والمدينة ويخلقون المشاكل للفلاحين ويدفعونهم إلى التخلي عن أراضيهم والهجرة نحو المدن، وقد تناولت الكثير من الأحكام السلطانية هذه المسألة كما يذكر العديد من الرحالة أمثال فولني والباحثين مثل أندري ريمون دور البدو ليس فقط في القرنين 16 و17م بل امتد حتى ق 18م رغم أن الدولة اضطرت إلى انشاء ايالة خاصة وهي الرقة

(1) - نوفان رجا السواري: ناحية غزة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي: دراسة في الادارة والسكان والتميز، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مجلد2، عدد3، سنة 2008، ص ص 82 - 117، ص 88.

(2) - خليل اينالجيک : " الدولة والرعايا " مجلة الاجتهاد عدنان 41 - 42، مرجع سابق، ص 119 - 120.

(3) - اينالجيک، نفسه، ص 121.

(4) - نفسه، ص 122 - 123.

سنة 1584م إلى جانب الصرة واشراكهم في الحكم (أمير العشيرة و تكليف البعض بإمارة الحج مثل قانصو الغزاوي)، لكن الدولة العثمانية أخذت في الحسبان مسألة الاختلاف الموجود ما بين منطقة وأخرى، فاعتمدت سياسات مرنة في تعاملاتها مع هذا الواقع المتميز بتربع أعيان الريف تارة وزعماء العشائر البدوية تارة أخرى على مناطقهم، وطوال القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن السابع عشر تركت الدولة العثمانية هامشا هاما لمشاركة هؤلاء في الإدارة المحلية، بمعنى التحول في مسار الدولة من المركزية إلى اللامركزية، وهكذا فمن ناحية اعتبر تعيين الزعماء المحليين البارزين الذين لهم أتباع بين البدو في مناصب قيادية سواء بتعيينهم قادة ألوية على بعض السناجق خاصة في المناطق الجنوبية من بلاد الشام، أو تكليفهم بإمارة قافلة الحج دليلا على اللامركزية في التسيير، ولكن من ناحية أخرى تم اعتبار هذه المرونة من الحكومة العثمانية عملية تكيف فرضه منطق الحكمة الذي تعاملت به دون أن تفقد زمام السيطرة، مما جعل كثيرين ينظرون إلى هذه المرونة من جانب الدولة عامل قوة وليست ضعفا، وبالتالي فهي مصدرا للاستمرار لا سببا للانحطاط.<sup>(1)</sup>

ما يمكن استخلاصه من العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع في بلاد الشام في ظل السلطة العثمانية هو أن ما حدث من تجاوزات صادرة سواء من الولاة أو أمراء السناجق أو المسؤولين الأمنيين في الأرياف بحق الرعايا، أو الصراعات الداخلية من بعض الطوائف وبتأثير حساسيات قديمة لم يؤثر بشكل كبير على سيرورة المجتمع، فبمجرد التخلص من ذلك المسؤول أو تغييره يسترجع المجتمع عافيته وحياته العادية، وأقصى ما يمكن إحداثه بفعل هذه التجاوزات لا يعدو أن يكون تعطيلًا للقادرة الاقتصادية دون التمكن من تدميرها نهائيا.

ومن جهة ثانية أدرك المجتمع بأن سلوكيات بعض ممثلي السلطة يبقى تأثيرها سطحيا باعتبار أنهم في الأخير هم كذلك جزء من تلك التركيبة الاجتماعية والثقافية، وعلى حد تعبير المستشرقين هاميلتون جب وهارولد بوون فإن أقصى ما ينشأ من جشع بعض الموظفين هو تعطيل استغلال الأرض أو أحداث تحول حرفة ما ( لكن طالما أن الجماعات نفسها بأعضائها الإداريين القدماء بقيت سالمة، وطالما أن تدخل وظلم

(1) - خليل ابنالجيكي : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، مج 2 ، مرجع سابق، ص 240 - 242.



الحكام العسكريين محدود بالأرباح مع تجنب المساس برأس المال وأسلوب الحياة، فقد أظهر النظام الاجتماعي قدرة رائعة على استعادة عافيته.<sup>(1)</sup>

أما فيما يخص جانب العشائر البدوية فإن الوثائق العثمانية أظهرت مدى فشل الحكم العثماني في السيطرة على البدو في المنطقة التي كانوا يقيمون فيها، وبالتالي ظلوا يشكلون فيها تهديدا متواصلا لسكان الأرياف والمدن على حد سواء وبالاخص خلال القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م وهذا على الرغم مما بذله الدولة من امكانيات وأساليب وسياسات في تعاملها معهم.

---

(1) - هـ. جب، وهـ. بون، المجتمع الاسلامي والغرب، ج 1، مرجع سابق، ص 303.



# الفصل الثالث

مظاهر من الحياة الاجتماعية

إن دراسة العلاقات بين مكونات المجتمع من خلال تناول قضايا المرأة ومكانتها في الأسرة، وعقود الزواج والمهور والحضانة والميراث والطلاق ومساهمة المرأة في الجانب الاقتصادي، يساعدنا على الوقوف على جانب القيم والعادات التي تنظم قيام مؤسسة العائلة، وتمكننا من دراسة عوامل التقارب والتلاحم، وأسباب التوتر والتنافر في العلاقات الزوجية، مع حصر النزاعات الحاصلة بين الزوجين وأسباب ذلك، إضافة إلى أن ما يصاحب حياة الأسر من عادات وتقاليد في أنماط معيشتها ومسكنها ومأكلها وتسليتها، وما يتخللها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية تكشف صورة مشرقة، ومؤشرا هاما وصادقا لحالة المجتمع ككل، وما يتمتع به من استقرار سياسي ورفاه اقتصادي واجتماعي.

## أولا - الحياة الأسرية:

### 1 - مكانة المرأة في المجتمع:

حظيت المرأة في المجتمع بقسط كبير من الاحترام والتقدير، ويظهر من خلال الألقاب والصفات التي يذكرها القاضي في عقد النكاح، حيث جاء في عقد نكاح "نور الله وآمنة سنة 1081هـ: الست المصونة الدرة المكنونة ذات الحجاب المنيع والستر الرفيع صاحبة النسب العالي المصون الست آمنة خاتون<sup>(1)</sup> وبمثل ما حرصت المراسلات الرسمية العثمانية على إطلاق نعوت وأوصاف التفخيم على القضاة وكبار الموظفين فإنها نحت على نفس النحو مع نساء و زوجات وبنات الحكام، فالمتمعن في سجلات القضاة التي تتناول زوجات الحكام يلاحظ فعلا مثل هذا التفخيم مثل: (معتوقة فخر المخدرات -تاج المستورات - ذات الحجاب الرفيع - الحصن البديع المنيع...) وهو لا يخرج عما هو مألوف في ذكر هذه الصفات حتى قبل مجيء العثمانيين إلى بلاد الشام، أي في العهد المملوكي، لكن التركيز على مثل هذه الصفات يشير فعلا إلى مدى حرص المجتمع ككل ومن خلال القضاة على حفظ الأخلاق وعلى العفاف والشرف، وهذا بخلاف ما كان يذكر بشأن المغنيات اللواتي كن يعملن في إحياء الحفلات والغناء ويعرفن باسم "الفرحيات"، فليس من المنطقي إذن عدم التفريق بين الصنفين، ولعل استعراض مراسم الزواج والمهور والطلاق وحق المرأة في الميراث والحضانة إلى جانب الدور الاقتصادي للمرأة في المجتمع الشامي خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين يعطينا فكرة عن مكانة المرأة في هذا المجتمع.

<sup>(1)</sup> - كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية، مج3، وثيقة من السجل 171 مؤرخة في 8 شعبان 1081هـ، ص 56.

## 2 - الزواج:

الزواج ذو أهمية في حياة الأمم والأفراد، ومن خلال عقود المحاكم الشرعية<sup>(1)</sup> يمكن التعرف على علاقات المصاهرة، مستوى المهور، مقدارها، المستوى الاجتماعي للأزواج، وتشير عقود الزواج التي تتم أمام القاضي إلى مجموعة المراسيم الخاصة به، فعقد الزواج لا يتم إلا تحت إشراف الحاكم الشرعي أو من يأذن لهم من علماء المسلمين وفقهائهم، وأن عقود الزواج لا تتم إلا بوجود وكيل (ولي) غالبا ما يكون أحد المقربين: سواء أب، أخ، أو عم، ففي جلسة عقد القران يحضر وكيل عن الزوجة ووكيل عن الزوج ويتفقان على الصداق عامة وعلى المعجل منه والمؤجل، وبحضور بعض الشهود الذين يشهدون بأن الزوجة لا أزواج لها وليس لها عدة، كما يشهدون بأنه ليس هناك أي مانع شرعي يمنع إتمام الزواج، ومن نماذج عقود الزواج هذا النموذج من إحدى سجلات محكمة حماة في أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي فقد ورد فيه: (الزوج: سلامة بن سليمان وكيله والده، الزوجة ست الأهل بنت عبد الحميد القسا وكيلها والدها، الصداق: ثمانون سلطانيا، المعجل من ذلك أربعون سلطانيا مقبوضة، والباقي مؤخر، شهود الوكالة على الزوج والزوجة وخلوها من الأزواج والعدد والموانع الشرعية....علق الوكيل المزبور طلاق ست الأهل زوجة ولده سلامة المزبور بحيث أنه متى سافر ولده بها من حماة بغير إذنها ورضاها، تكن طالقة منه طلقة واحدة تملك بها نفسها تعليقاً شرعياً... قرر بتاريخه.<sup>(2)</sup>

نلاحظ بأنه يوجد اختلاف في صيغ وعقود الزواج وديباجته بين الفئات الاجتماعية تبعا للمكانة الاجتماعية والاقتصادية، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال هذه الوثيقة التي هي عقد نكاح يبدو أنها لأحد من عليّة القوم وما يشير إلى ذلك هو يبدو لنا اعتناء القاضي - الذي قام بتحرير العقد - بتنميق العقد وتحليلته بصنوف البيان حيث جاء فيها: "...لدى سيدنا ومولانا قدوة قضاة الاسلام ذخر ولالة الأنام صدر

(1) -اعتمدنا على الحجج الواردة في سجلات محكمة القدس الشرعية، الأول يحمل رقم 155، رقم 155، يغطي الفترة بين (محرم 1068 - ختام ذي القعدة 1068هـ / أكتوبر 1657 - 29 أوت 1658م)، إعداد إبراهيم ربايع، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2013، والسجل الثاني يحمل رقم 172، ويعود للفترة (1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م، من إعداد الباحث الرئيس: شامخ زكريا علاونه، نشر عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2014، أما السجل الثالث فيحمل رقم: 173، ويغطي كذلك الفترة: (1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م، ويقع في جزأين، من إعداد الباحث الرئيس: شامخ زكريا علاونه، نشر عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2017.

(2) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: " تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والاداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989هـ / 1581م"، مرجع سابق، ص 77.

المحققين العظام الحاكم الشرعي المولى علي أفندي الموقع خطه الكريم...تزوج الفاضل الألمي الكامل اللوذعي البالغ في المجد منتهاه مولانا الشيخ نور الله نجل قدوة المشايخ المكرمين نخبة الأفاضل الموقرين مولانا الشيخ عبد الرحمن الشهير نسبه المبارك الخطير بابن غضية شيخ الحرم القدسي المنير بمخطوبته الست المصونة الدرة المكنونة ذات الحجاب المنيع والستر الرفيع صاحبة النسب العالي المصون الست آمنة خاتون ابنة زبدة المصدرين عمدة الأفاضل المكرمين ..... ، تحريراً في الثامن من شعبان سنة إحدى وثمانين وألف.<sup>(1)</sup>

وفي عقد زواج مماثل في النصف الثاني للقرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي نجد ذكر فضائل الزوج دون الزوجة، فقد ورد فيه: "لدى الحاكم الشرعي أحمد أفندي دام بقاؤه، تزوج فخر الفضلاء الكاملين عهدة الأتقياء الاعتباريين الشيخ حسن بن المرحوم الشيخ اسماعيل الزيلعي بمخطوبته قدسية خاتون بنت ناصر النابلسي المرأة الكاملة الخالية من الموانع الشرعية."<sup>(2)</sup>

كما أن العقود المؤجلة عند التسجيل (وهنا نتحدث عن عقد النكاح) يعطينا فكرة عن المستوى الاجتماعي لكلا الزوجين، ففي وثيقة لعقد نكاح جرى في القدس يظهر المستوى المعيشي من خلال الأوصاف التي أوردتها القاضي وهو يعرف بالزوج حيث (تزوج الفاضل الألمي الكامل اللوذعي البالغ في المجد منتهاه مولانا الشيخ نور الله....بمخطوبته الست آمنة خاتون ابنة زبدة المصدرين عمدة الأفاضل المكرمين (...).<sup>(3)</sup>

أما سن الزواج فقد أشارت العديد من العقود إلى عدم بلوغ الزوجة سن الرشد عند زواجها فقد تزوج عبد الكريم بن أحمد المغربي بمخطوبته كاملة بنت أحمد غراب البكر القاصرة الخالية من الموانع

(1) -كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية ، مج 3، مرجع سابق، ص ص 56 -57.

(2) - حجة 3، مؤرخة في 3 ربيع الأول 1082 هـ / 9 - 7 - 1671 م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج2، سبق ذكره، ص 345.

(3) -المرجع السابق، ص ص 56 -57.

الشرعية<sup>(1)</sup>، كما تزوج الشاب الزيني محمود ابن الحاج حسين بمخطوبته ألفة بنت علي البكر القاصر الخالية من الموانع الشرعية.<sup>(2)</sup>

لكن عموماً كان سن الزواج هو البلوغ، فقد تزوج الحاج محمد بن علي الفتياي بمخطوبته عائشة بنت الحاج اسماعيل الرومي المرأة الكاملة الخالية من الموانع الشرعية<sup>(3)</sup>، كما علي بن حسين الرومي بمخطوبته آمنة بنت يوسف المرأة الكاملة الخالية عن الموانع الشرعية.<sup>(4)</sup>

في حال كون الزوجة أرملة أو مطلقة<sup>(5)</sup> يرد في عقد الزواج ألفاظ مختلفة مثل: الحرمة<sup>(6)</sup>، المرأة<sup>(7)</sup>، ويلاحظ بأن صداق هذه الحالات كان منخفضاً، بلغ في بعضها عشرة غروش<sup>(8)</sup>، وفي بعضها الآخر ثمانية غروش، فقد تزوج الرجل المدعو علي بن علاء الدين جبوش بمخطوبته الحرمة زمانة بنت خداوردي الخالية من الموانع الشرعية أصدقها صداقاً جملة ثمانية غروش الحال لها من ذلك خمسة غروش مقبوضة بيدها.<sup>(9)</sup> بيدها.<sup>(9)</sup>

(1) - حجة 3، مؤرخة في 9 ذو الحجة 1081 هـ / 18 - 4 - 1671 م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 1، سبق ذكره، ص 60.

(2) - حجة 4، مؤرخة في أوائل صفر 1082 هـ / 8 - 6 - 1671 م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 1، ص 281.

(3) - حجة 1، مؤرخة في 4 ذو الحجة 1081 هـ / 13 - 4 - 1671 م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 1، ص 37.

(4) - حجة 2، مؤرخة في غرة ذي الحجة 1081 هـ / 10 - 4 - 1671 م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 1، ص 42.

(5) - تشير الكثير من عقود الزواج إلى ارتفاع نسب المتزوجات بعد الطلاق أو وفاة الزوج، وربما يعود كثرة الاقبال على الأرامل والمطلقات لتدني مهرهن فمهر المطلقة يعادل نصف مهر البكر. ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري، مرجع سابق، ص 149.

(6) - الحجة رقم 1، مؤرخة في 2 ذي الحجة سنة 1081 هـ / 11 - 04 - 1671 من سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل 173، ج 1، ص 44.

(7) - الحجة رقم 1، مؤرخة في 19 ذي الحجة سنة 1081 هـ / 18 - 04 - 1671 م، سجل 173، ج 1، ص 70.

(8) - "تزوج الرجل المدعو بالحاج محمد الرملي بمخطوبته الحرمة شمسية بنت حيدر المرأة الكاملة الخالية عن الموانع الشرعية أصدقها على بركة الله وتوفيقه وسنة نبيه (ص) صداقاً جملة عشرة غروش فضية عددية الحال من ذلك ستة غروش مقبوضة بيدها،... والباقي أربعة غروش مؤجلة..." حجة الحجة رقم 1، مؤرخة في 2 ذي الحجة سنة 1081 هـ / 11 - 04 - 1671 من سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل 173، ج 1، ص 44.

(9) - حجة 4 مؤرخة في 4 ربيع الأول 1082 هـ / 10 - 7 - 1671 م من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج 1، ص 344.

ويبدو أن الأهل في بلاد الشام كانوا كثيرا ما يؤثرون زواج ابنهم من احدى قريباته فالقراية والأخلاق الطيبة والدين الصحيح كانت تأتي في المرتبة الأولى قبل الجمال والمال<sup>(1)</sup> وكان لا يمكن لفتاة من أسرة معينة أن تتزوج من فرد من خارج أفراد أسرتها إذا كان ابن عمها يريدتها.<sup>(2)</sup>

ولا يتم الزواج بغير رأي المرأة، فقد حضرت امرأة أمام الحاكم الشرعي وأخبرته بأن هناك من يرغب أن يتزوجها بغير إذننا فتدخل الحاكم الشرعي في ذلك ومنع حدوث الزواج.<sup>(3)</sup>

ساهم الزواج في تحقيق الاندماج الاجتماعي بين فئة العسكر والرعايا وهذا من خلال الزيجات الكثيرة بين الموظفين العثمانيين وبنات الأسر المحلية في بلاد الشام، فقد تزوج علي بك الزعيم بالقدس الشريف من مخطوبته خاتون بنت عبد الله بصدائق جملة خمسون غرشا عديدة منها ثلاثون غرشا مقبوضة بيدها وعشرون مؤجلة،<sup>(4)</sup> كما عقد محمد جلبي بن المرحوم حسين بلوكباشي قرانه بمخطوبته رضية بنت محمد بن جعارة في شهر ذي الحجة 1081هـ / 1671م بصدائق جملة ثلاثة وعشرون غرشا الحال منها من ذلك خمسة عشر غرشا مقبوضا بيدها باعتراف وكيلها، والباقي بعد الحال وقدره ثمانية غروش مؤجل لها عليه إلى الفراق موت أو طلاق بائن.<sup>(5)</sup>

### 3 - الصداق والمهر:

تعتبر مسائل المهور من المعاملات الهامة بخصوص المرأة، وقد تفاوتت قيمة المهور حسب المكانة الاجتماعية والاقتصادية للزوج والزوجة، وما إذا كانت البنت بكر أم ثيبا، ويمكن معرفة مقدار المهر الذي كان يقدم للزوجة من خلال عقود الزواج وأحيانا حتى من خلال حجة الطلاق، خاصة حينما يتم قبل سداد مؤخر المهر، وكان في كل مدينة من مدن بلاد الشام وفي كل محلة من محلاتها مأذون يقوم بعقد النكاح بين الزوجين ثم يتولى ايصالها إلى المحكمة.<sup>(6)</sup>

(1) - ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري، مرجع سابق، ص 147.

(2) - نفسه، ص 148.

(3) - عبد الودود يوسف برغوث: "تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والاداري..."، مرجع سابق، ص 57 - 84، ص

ص 77

(4) - سجلات المحكمة الشرعية العثمانية بالقدس، سجل 173، ج 1، ص 50 - 51

(5) - الحجة 2، ص 34، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية سجل 173، ج 1، ص 94.

(6) - يوسف محمد البطوش، تاريخ الحياة الاجتماعية في مدينة حلب، مرجع سابق، ص 143

تباينت عملية مقدار الصداق وشروطه الأخرى حسب الطبقة الاجتماعية التي يمكن ملاحظتها من خلال قيمة الصداق، ومن خلال الأسماء الواردة في نص الحجاج الشرعية، فقد تزوج المدعو صبحي بن غيث من المدعوة رمانة بنت عبد الله مطلقة الحاج، بصداق قدره سبعة غروش، أربعة منها في الحال مقبوضة بيدها، وثلاثة غروش مؤجلة<sup>(1)</sup>، لكن عندما يتعلق الأمر بالنساء اللواتي حملن ألقاباً تفخيمية مثل: فخر المخدرات، الست المصونة الدرة المكنونة ذات الحجاب المنيع والستر الرفيع صاحبة النسب العالي المصون، فإننا نجد الصداق مرتفعاً ويصل إلى مائة غرش عديدة،<sup>(2)</sup> ونفس الشيء لأبناء الأعيان مثل: الفاضل الألمعي، فخر أقرانه، فخر السادات.<sup>(3)</sup>

أما عندما يكون زواج السباهي من بنات بلاد الشام فيكون الصداق مرتفعاً نوعاً ما، فقد أصدق علي بك الزعيم بالقدس مخطوبته ليلي خاتون صداقاً جملة خمسون غرشاً عديدة الحال منها ثلاثون غرشاً مقبوضة بيدها، والباقي بعد الحال عشرون غرشاً عديدة مؤجلة.<sup>(4)</sup>

يقسم الصداق في غالب الأحيان إلى شطرين معجل و مؤجل: (...أصدقها على بركة الله... صداقاً جملة أربع مائة غرش عديدة الحال من ذلك مائتا غرش مقبوضة بيدها بحسب اعتراف وكيلها... والباقي بعد الحال وقدره مائتا غرش عديدة مؤجلة لها عليه إلى الفراق بموت أو طلاق بائن...) <sup>(5)</sup>، هذا وقد يؤجل المبلغ

(1) - حجة رقم 2 مؤرخة في 7 محرم سنة 1081هـ/ 17 ماي 1671م، الصفحة 65، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، السجل رقم 172، ص 140.

(2) - حجة 1 مؤرخة في 3 ربيع الأول سنة 1082هـ/ 9 - 7 - 1671م، الصفحة 141، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، السجل رقم 172، سبق ذكره، ص 344.

(3) - نورد هنا وثيقة عقد نكاح تضمن أوصافاً عديدة لكل من الزوج و الزوجة جاء فيها: "...لدى سيدنا ومولانا قدوة قضاة الاسلام زخر ولالة الأنام صدر المحققين العظام الحاكم الشرعي المولى علي أفندي الموقع خطه الكريم...تزوج الفاضل الألمعي الكامل اللودعي البالغ في المجد منتهاه مولانا الشيخ نور الله نجل قدوة المشايخ المكرمين نخبة الأفاضل الموقرين... بمخطوبته الست المصونة الدرة المكنونة ذات الحجاب المنيع والستر الرفيع صاحبة النسب العالي المصون". كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية، مج 3، مرجع سابق، ص ص 56 - 57.

(4) - ح 2، مؤرخة في 4 ذو الحجة 1081هـ/ 13 - 4 - 1671م، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، سجل 173، 173، ج 1، ص ص 50 - 51.

(5) - وثيقة 41، سجل 171، بتاريخ 8 شعبان سنة 1081هـ، المرجع السابق، ص ص 56 - 57.

المبلغ كله فيبقى دينا يقدمه الزوج لزوجته خلال حياتهما المشتركة ... وأحيانا يرافق المال المعجل سجادة أو بعض المتاع.<sup>(1)</sup>

ولا يسقط المؤجل من الصداق حتى ولو توفي الزوج قبل تسديده، فقد أمر القاضي الحاكم الشرعي بالقدس الوصي على أيتام يوسف وراث عيسى القرمي بدفع مؤخر صداق موكلته صالحة زوجة الحاج عيسى القرمي وقدره ثلاثون غرشا بموجب كتاب الزوجية المؤرخة في شعبان 1074هـ وذلك من مخلفات المتوفي،<sup>(2)</sup> كما طالبت زوجة عساف باشا من قاضي القدس أنها لم تحصل على مؤجلها المقدر بخمسة آلاف غرش سوى ألف غرس والباقي وهو أربعة آلاف غرش باقية بذمته ومستحقة الأخذ من متروكاته<sup>(3)</sup>، وكان الأمير عساف قد تولى إمارة الحج الشامي أواخر القرن 17م.<sup>(4)</sup>

عموما فإن مستوى الصداق يختلف حسب مكانة أهل العريسين، كما يمكن أخذ فكرة عنه من خلال عقود الزواج التي تسمح لنا التعرف على مؤخر الصداق الذي تراوح بين خمس سلطانيات وخمسة عشر سلطانيا في النصف الثاني للقرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ثم نجده ابتداء من سنة 990هـ/ 1582م يشهد ارتفاعا حتى بلغ مؤجل الصداق في مدينة حلب مائة سلطاني في بعض الحالات، ولا شك بأن ذلك مرده بالنسبة لمدينة حلب إلى التحسن الكبير في المستوى المعيشي للسكان، إلا أنه أحيانا كان وكيل الزوجة وهو والدها في غالب الأحيان يلجأ إلى تزويج ابنته طمعا بزيادة المعجل حتى دون رغبة منها مثلما حصل مع المرأة زاهدة بنت بركات عندما أقنعها الأب أن تتزوج بزواج مقابل مهر مرتفع بلغ مائتي دينار معجل وكانت النتيجة في النهاية هي ذهاب الزوجة إلى مجلس الشرع و رفعها دعوة على وكيلها أنه زوّجها مقابل مهر قبضه من زوجها دون رغبة منه كما وضحه حكم المحكمة الشرعية لحلب في شهر جمادى الثانية 990هـ/ جويلية 1582م.<sup>(5)</sup>

(1) - عبد الودود يوسف برغوث : "تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والاداري..." مرجع سابق ، ، ص 77.

(2) - الحجة رقم 6 المؤرخة في 24 ذو الحجة سنة 1081هـ/ 4 ماي 1671م من الصفحة 61، السجل رقم 172، ص 134.

(3) - الحجة 2، مؤرخة في 19 ذي القعدة 1081هـ/ 1671م، ص 35، السجل رقم 173، ج 1، ص 97.

(4) - الحجة 1، مؤرخة في 21 ذو الحجة 1081هـ/ 1671م، السجل رقم 173، ج 1، ص 98.

(5) - يوسف محمد سالم البطوش، تاريخ الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2004، ص 144.



كانت مهوور النساء المتزوجات من خارج المدن من أهل الريف والبدو منخفضة مقارنة مع نظيراتها بالمدن الشامية فقد تزوجت امرأة بدوية في ربيع الأول سنة 990هـ/أفريل 1582م بمهر معجل بلغ خمس رؤوس من الماعز.<sup>(1)</sup>

والحديث عن الزواج يؤدي إلى الحديث عن تعدد الزوجات وهو ما تشير إليه سجلات المحكمة الشرعية وإن كان في الغالب يكتفي الرجل بامرأة واحدة، فقد كان المجتمع المحلي الشامي يميل إلى عدم تعدد الزوجات، فقد كان الزواج من أكثر من امرأة في وقت واحد أمرا نادر الحدوث،<sup>(2)</sup> وربما يفسر ذلك بأسباب اقتصادية أو بتدني متوسط الأعمار وهذا على الرغم من أن نسبة الاناث كانت تفوق نسبة الذكور بين البالغين،<sup>(3)</sup> كما أن المرأة لا تجد غضاضة أو حرجا إن هي أقدمت على الزواج بعد طلاقها أو وفاة زوجها.<sup>(4)</sup>

#### 4 - الطلاق:

يعتبر الطلاق من الأمور الشرعية المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية وذلك لكثرة الأسباب التي تؤدي إليه كال فقر والعقم وغياب الزوج في مكان غير معروف، أو سفره لمدة طويلة، إضافة لتناقض المصالح والمقاصد بين العائلات وتزويج البنت بالإجبار والزواج المبكر وكذلك العصبية القبلية ما بين القيسية واليمينية، والملاحظ هو أن نسبة الطلاق بين أبناء الأسر المعروفة بغناها وعراقتها ونفوذها كان أقل بكثير مما هو موجود بين عامة الناس، فالأسر العريقة تتفادى اللجوء إلى الطلاق خوفا من إساءة العلاقات فيما بينها.

رغم ذلك فإن حالات الطلاق كانت مرتفعة نسبيا، البعض يحدث أحاديا من جانب الرجل وهذا لم يكن معقدا بعمليات<sup>(5)</sup>، فالفراق بين الزوجين يتم بالسفر أو الطلاق أو الموت، ففي السفر يفرض الزوج

(1) - نفسه، نفس المكان.

(2) - خليل اينجليك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص 282.

(3) - عبد الكريم رافق: "مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، العدد 15 - 16، جامعة دمشق، سوريا، ماي 1984، ص 13.

(4) - الحجة رقم 4، مؤرخة في 14 محرم 1081هـ / 24 ماي 1671م، الصفحة 67، من السجل 172، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 143.

(5) - جاء في حجة شرعية أمام الحاكم الشرعي بالقدس الشريف: "أشهد عليه السيد محمد ابن موسى الحنبلي بأنه طلق زوجته حمدة بنت عبد الجليل طلاقا بائنا اشهادا شرعيا وفي حضر الشهود: الشيخ زكريا، الشيخ نورالدين الشيخ علي، الشيخ فتح كاتبه.

لزوجته نفقة يحددها بمشورة القاضي حتى يعود ونص النفقة طريف يبين الحاجات الأساسية للمرأة وهذا نموذج عنه: " فرض وقدر الحاكم الشرعي على الرجل المدعو ناصر بن زغيب القضماني لزوجته المستمرة في عصمته المدعوة ألف بنت الحاج والي الحاضرة معه في المجلس برسم نفقتها: لطعامها وشرابها وزينتها وصابونها وحمامها وكسوتها وسائر لوازمها الشرعية في كل يوم يمضي من تاريخ هذا الكتاب سبعة دراهم ونصف"<sup>(1)</sup>، لذلك فقد نجد بأن بعض حالات الطلاق سببها أن الزوج قد غاب فترة طويلة من الزمن كتاجر مثلا، أو أنه حصل على عمل في مناطق نائية أو أجنبية، وفي هذه الحالة قد يحقق الطلاق مصلحة كل من الزوج و الزوجة، فقد يرغب الزوج في تجنب دفع معظم رأسماله لإعالة زوجته أثناء غيابه، على حين كانت الزوجة غالبا ما ترغب في إنهاء وضع تتحمل فيه كل مسؤوليات الزوجة ولا تتحصل إلا على القليل من المزايا، وعادة ما يتضمن عقد الزواج في هذه الحالة شرطا كأن يقر الزوج بأن الزوجة تكون طالقا إذا لم يرجع في تاريخ معين، أو ينيب عنه من يطلقها،<sup>(2)</sup> ويبدو أن هذا النوع من الزواج المشروط كان شائعا، بل أن الزوج يمكنه ارجاع زوجته والعدول عن الطلاق في هذه الحالة، فقد " حضر الرجل المدعو عصفور بن (...) الرملي لدى الحاكم الشرعي المولى يوسف أفندي بن محمد، وأشهد عليه هو في حال يعتبر شرعا أنه علق طلاق زوجته شمسية بنت الحاج مصطفى فرار على صفة أنه متى غاب عنها من مدينة القدس الشريف مدة خمسة أشهر وتركها بلا نفقة ولا منفق شرعي تكون زوجته المزبورة طالقة بائة..."<sup>(3)</sup>

يحدث الطلاق بطلب من الرجل أو المرأة، وأمام القاضي، ففي حال تقدم الزوج بطلب الطلاق فإنه يقدم لزوجته كامل المؤجل من الصداق، فقد أمر القاضي بالقدس الشريف عبد القادر بن قره حسن بدفع التسعة عشر قطعة بقية مؤخر صداق مطلقته صاحبة بطلب منصور بن علي وكيلها بموجب سجل

حجة رقم 1، السجل 172 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، مؤرخة في 24 ذي القعدة سنة 1081هـ/ 04 - 04 1671م، ص 118.

(1) - عبد الودود محمد يوسف برغوث، تاريخ حماة، مرجع سابق، ص 78.

(2) - خليل اينالجي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 283.

(3) - حجة رقم 4، من السجل 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ج 2، ص 35.

سابق،<sup>(1)</sup> كما أمر الحاكم الشرعي في القدس الشريف علاء الدين بن موسى البيراوي بدفع غرشين لزوجته فاطمة بقية صداق عليه بعد أن طلقها طلاقاً بائناً أمراً شرعياً<sup>(2)</sup>.

كان القاضي يحدد نفقة للمطلقة تختلف باختلاف الوضع المادي للزوج الذي يتكفل أمامه بدفعها حيث فرض القاضي على المدعو محمد بن محمد المغربي الذي طلق زوجته طلاقاً واحدة مستوفية لطلقتين شرعياً واعترف أن مؤخر صداقها ثلاثة غروش، وقسط عليه الحاكم الشرعي نفقة العدة وأخرى السكن نصف قطعة ونصف قطعة من مهرها تقسيطاً شرعياً.<sup>(3)</sup>

أما إن كان طلب الطلاق صادراً من الزوجة نفسها وهي الحالة التي كانت فيها الزوجة تشتري الخلع لاعتبارات شخصية<sup>(4)</sup> أو مالية، فهذه موجودة في مختلف المناطق الحضرية أو الريفية، فكانت المرأة التي تطالب بالطلاق تتخلى عن مطالبتها بالإعانة المالية خلال فترة العدة، فكانت تتخلى كذلك عن مؤخر الصداق الذي كان يجب دفعه عند وفاة الزوج أو طلاقه لزوجته من جانب واحد، تعفيه منه ومن نفقتها

(1) - حجة رقم 3 مؤرخة في 2 محرم سنة 1081هـ / 12 ماي 1671م، الصفحة 63، السجل 172 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 136.

(2) - حجة رقم 7، مؤرخة في 16 ذي الحجة سنة 1081هـ / 1671/4/26م رقم 8 من السجل رقم 172 نفسه، ص 127.

(3) - حجة رقم 8، مؤرخة في 16 ذي الحجة سنة 1081هـ / 1671/4/26م رقم 8 من السجل رقم 172 نفسه، ص 127.

(4) - حينما تكون المشاكل التي تحدث بين الزوجين مستعصية الحل يكون المناس هو الفراق، فالزوجة عندما لا يكون أمامها أي حل للتحرر من زوجها سوى قيامها بالخلع، تلجأ إلى القاضي وتقوم بإبراء زوجها من حقوقها ومستحققاتها الزوجية سواء من باقي المعجل أو المؤجل أو المتاع أو النفقة أو المصاغ، فيكون الخلع حلاً أخيراً من الزوجة للخلاص، فقد سأل فضل الدين الفران الوكيل من قبل شقيقته كاملة الثابت وكالتها عنها في الإبراء التالي ذكره وفي ذلك بشهادة كل واحد من الحاج أحمد بن رجب المغربي ومحمد بن رجب العارفين بها تعريفاً شرعياً زوجها اسماعيل بن بركات النابلسي أن يطلقها طلاقاً واحدة بآئنة تملك بها نفسها على براءة ذمته لها من مؤخر صداقها عليه قدره عشرون غرشاً بموجب كتاب الزوجية، ومن نفقة العدة وأجرة السكن، ومنها ومن سائر حقوقها اللازمة قبل الفرقة. حجة بتاريخ 28 ذي القعدة سنة 1081/4/8/1671م، رقم 9، ص 53 سجل رقم 172 نفسه، ص 120.

ونفقة عدتها<sup>(1)</sup>، بل وفي حالات نجد المرأة هي التي تقدم مبلغا اضافيا من المال<sup>(2)</sup>، أو تتعهد بأن تكون قائمة على نفقة أولاده منها<sup>(3)</sup>.

أما في حالة الوفاة فالقاضي يعين من يكون وصيا على الأطفال و يكون عادة من الأقرباء كما يمكن أن يكون أحد فضلاء المدينة و خيريها ، ومثال ذلك هذه الحجة الشرعية: (يتعاطى الوصي مصالح أطفال الميت ويتصرف في أموالهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء وسائر التصرفات في أموالهم)<sup>(4)</sup>، وقد يحدث الموت والزواج مسافرا بعيدا عن أسرته، وهنا يشترط الحاكم الشرعي من أجل الفراق أن يشهد مجموعة من الشهود أن الزوج قد مات بالفعل، فقد شهد عند القاضي اثنين من التجار أنهما رأيا أبا بكر الجحافي "غرق في بحر الملح بين دمياط وطرابلس ومات وأنهما شهدا غرقه في البحر".<sup>(5)</sup>

## 5 - الوصاية والحضانة:

اهتمت الدولة العثمانية عن طريق قضاتها ومسؤوليها بتوفير الرعاية الكاملة للأطفال الأيتام والقاصرين، ومن يتكفل بهم من أوصياء أو حاضنين لمتابعة تربيتهم والاهتمام بشؤونهم من مختلف النواحي، وكان يتم تعيين الوصي من قبل القاضي الشرعي والحاكم الشرعي ويتم تعيين رجل أو امرأة كوصي على قاصرين عندما يثبت القاضي الأمانة والعفة والصدق والتقوى، فقد نصب الحاكم الشرعي بالقدس الشريف الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الوهاب الحنبلي وصيا على يتيم أخيه الشيخ كمال الدين المتوفى سابقا المدعو عبد النبي والحمل المشتعلة عليه زوجته ألفت بنت الشيخ أحمد بضبط ما جرّه الإرث

(1) - ورد في إحدى حجج محكمة القدس الشرعية : " سألت فاطمة بنت الحاج أحمد زوجها الحاج موسى ابن كريم الدين المصري أن يخلعها من عصمته و عقد نكاحه على أن تبرأ ذمته من مؤخر صداقها عشرة غروش ، ونفقة العدة وأجرة السكن ومنها وسائر حقوقها الشرعية ، فأجابها على سؤالها وخلعها من عصمته وخلع نكاحه..." حجة رقم 5، سجل 172، نفسه، ص 58.

(2) - عبد الودود محمد يوسف برغوث، تاريخ حماة، مرجع سابق، ص 78.

(3) - ح 1 بتاريخ 19 ذو الحجة 1081 هـ / 10 - 3 - 1671م، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 124.

(4) - المرجع السابق، ص 78.

(5) - نفسه، ص 78 .

الشرعي إليهما من قبل والدها<sup>(1)</sup>، كما نصب أحمد أفندي الحاكم الشرعي بالقدس الشريف مصطفى جلبي ناظرا شرعيا على وصي يتيمة أخيه : لا يغفل كليا ولا جزئيا عن مصالح اليتيمين.<sup>(2)</sup>

كما تم تعيين أم وصية على حقوق ابنتها القاصرة بعد وفاة والدها ، فقد عين قاض طرابلس الشام بتاريخ 19 من ذي القعدة 1077هـ الحرمة فقهة بنت الشيخ كمال وصيا شرعيا على ابنتها القاصرة المدعوة "علما" الحاصلة من زوجها أحمد جلبي ابن الحاج جمال الدين المتوفي من قبل ، وأذن لها أن تضع يدها على جميع ما جره الإرث الشرعي إلى القاصرة من أبيها ، وأن تصرف عليها ما يسوغ لها صرفه<sup>(3)</sup>.

## 6 - الميراث (المتركات):

تتضح مكانة المرأة كذلك في ما منحها الاسلام من حق مشروع في الميراث وتوجد الكثير من الحجج الشرعية التي ضمنت للمرأة أخذ حقها من الميراث من زوجها أو أبيها أو ابنها ، لذا كانت الطريقة الأهم لحصول المرأة على الممتلكات هي الميراث ، لذلك فمن العادة أن يلجأ أي شخص أراد أن يكتب وصية قبل موته بتوزيع ممتلكاته أو أن يجعل جزء منها تحت تصرف شخص معين وفي هذه الحالة : يجب عليه أولا تبليغ القاضي حتى يحكم بمشروعيتها وجوازها شرعا ، أما بالنسبة للميراث فيتولى عملية تقسيم تركة المتوفى بمحل القاضي وكان الحرص شديدا على أموال المتوفى حيث يقوم القاضي بتعيين شخص لضبط هذه المخلفات سواء أاثاث البيت أو أمتعة أما إن كان المتوفى لا أهل له ولا وريث فإن أمين بيت المال هو المسؤول عن ضبط هذه التركات ، بينما يقوم موظف تابع للهيئة القضائية بتقسيم التركات يطلق عليه اسم "القسام" ويتوجب عند التقسيم حضور كل الأطراف في مجلس المحكمة أو في بعض الحالات من ينوب عن الورثة بالوكالة.<sup>(4)</sup>

كان من حق المرأة أن يكون لها ممتلكات شخصية وعقارية ووفقا للشريعة لا يمكن للزوج أن يمس ممتلكات زوجته أثناء حياتها ويبقى مسؤولا عن اعالتها حتى ولو كانت لديها ممتلكات خاصة بها ، لذلك فإن ملكية المرأة للعقارات كانت شائعة أكثر كما هو الحال في حلب حيث ترى كثير من العائلات الحلبية أنه

(1) - الحجة رقم 3، المؤرخة في 14 محرم 1081هـ / 24 ماي 1671م، الصفحة 67، السجل رقم 172، ص 143.

(2) - ح 2 مؤرخة في 9 محرم 1082هـ / 12 - 5 - 1671م، سجل 173، ج 1، ص 217.

(3) - سجلات محكمة القدس الشرعية، السجل رقم 1، ص 15، حكم بتاريخ: التاسع عشر من ذي القعدة لسنة سبع وسبعين للألف هجرية. نقلا عن : صبحي نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال سجلات المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 210.

(4) - يوسف محمد سالم البطوش، تاريخ الحياة الاجتماعية في حلب ، مرجع سابق، ص 149

يمكن ترك ممتلكات قيمة بأيدي النساء<sup>(1)</sup> وربما يعود السبب إلى رغبة هذه العائلات الغنية حماية ثروة العائلة في حال فشل أعمالها، وعلى ذلك نجد كثيرا من المساكن الحلبية يملكها الزوج والزوجة سويا<sup>(2)</sup>.

وفي دراسة أجريت اعتمادا على السجل الأول لمحاكم دمشق الشرعية خلال سنة واحدة تمتد من 3 رمضان 991هـ/ 20 سبتمبر 1583م إلى 3 رمضان 992هـ/ 8 سبتمبر 1584م برزت النساء كبائعات للعقار بنسبة 21.19% أكبر من نسبتهن كمشتريات 03.11% ويتعاملن أكثر بالعقارات السكنية أكثر من العقارات التجارية، و يفسر بيع النساء للعقارات بما يرثنه من حصص فيها فيعمدن إلى بيعها إذا لم يكن في استطاعتهن الاستثمار فيها، أما النساء كمشتريات فنجد نسبتهن 18.34% خاصة في مجال العقارات السكنية بحيث مثلت هذه العقارات وخاصة في المدن المجال الأسهل والأكثر ضمانا للنساء لتوظيف أموالهن فيه إلى جانب اقتناء الحلي والعملات الذهبية.<sup>(3)</sup>

ولم يقتصر شراء المرأة للعقارات على دمشق لوحدها بل كانت ظاهرة منتشرة في بلاد الشام عموما وحتى خلال القرن السابع عشر، فقد اشترت الحرمة حامدة بنت المرحوم ديب الباسطي بمالها لنفسها دون غيرها الدار الكائنة بمحلة النصارى بالقدس الشريف.<sup>(4)</sup>

## 7 - النشاط الاقتصادي للمرأة:

كانت دائرة الأعمال التي تتعاطاها المرأة في المدن فيما عدا أعمال البيت محدودة، ولاشك بأن هناك نسوة كن ينشدن في الموالد والمناسبات الدينية كما كان بعضهن يشتغلن بالتدريس للفتيات أو بمهمة القبالة، ومن المهن الأخرى نجد مهنة المزيّانية، وهي وظيفة تزيين النساء وتمشيطهن في الأفراح والمناسبات، وقد قام قاضي القدس بنفسه بتنصيب كل من أصيل بنت عمر الصيعري والحاجة نبوية، وقد اتخذ القاضي هذا القرار بناء على ما اتصفت به المعنيتان من حسن السلوك<sup>(5)</sup>، إضافة إلى مهنة الفرحيات أو الراقصات

(1) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مج 2، مرجع سابق، ص 283.

(2) - نفسه، ص 284.

(3) - عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية و ملكية الأرض في بلاد الشام" مرجع سابق، ص ص 134، 130.

(4) - الحجة 1، بتاريخ 4 ذو الحجة سنة 1081هـ/ 13 أبريل 1671م، سجل رقم 173، ج 1، ص 15، ص ص 49 -

50

(5) - حجة رقم 2، مؤرخة في 8 صفر 1068هـ/ 15 - 11 - 1657م، سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 155

(محرم 1068 - ختام ذي القعدة 1068هـ / أكتوبر 1657 - 29 أوت 1658م)، إعداد إبراهيم ربابعة، جامعة القدس

المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2013، ص 34.

والمغنيات والعازفات، وكانت هذه المهنة تدر على البعض مالا وفيرا بالنسبة للمشهورات منهن اللائي كن يتخصّصن بالأمرء والأغنياء، في حين كان البعض الآخر يعيش على شفا التسوّل، كما أن المجتمع لم يكن يرضى عن هذه المهنة بدليل أن الفرحيات يلجأن إلى الانتقال إلى المدن والبلدات البعيدة عن موطن نشأتهن، ففي مدينة القدس كان أكثر الفرحيات من أصل شامي أو حليبي، كما أن البعض منهن كنّ يلجأن إلى التخلي عن مهنتهن أو يتبنّين<sup>(1)</sup> كما تشير إليه حجج المحاكم الشرعية.<sup>(2)</sup>

أما التملّك فقد ورد أن كثيرا من النسوة قد تملّكن البساتين والدور والعقارات المختلفة وبالطبع تصرفت فيها بحرية كاملة بيعا وشراء، فقد باعت الشقيقتان: فاطمة بنت بكير بشر ابن سفر وشقيقتها الحرمة لطيفة الحانوت المخلف لهما من أبيهما الكائن ببركة الشحم بتاريخ العشرين من جمادى الآخر سنة 1078هـ،<sup>(3)</sup> وباعت الحرمة مريم بنت يوسف دارها في محلة صاحبي خان التحتاني، واشترت الحرمة فرحة بنت إبراهيم شقير النابلسي دارا بمحلة باب حطة بالقدس الشريف من امرأة أخرى تدعى لطيفة بنت زيتون النابلسي، وإن كانت عملية الشراء تمت عن طريق وكيل البائعة ربما لأنها ما زالت قاصرا أو لعدم تمكنها من الحضور أمام القاضي<sup>(4)</sup>، وكذلك امتلكت المرأة أنس بنت حسين بستانا يحوي على أشجار مختلفة وقامت

(1) - "بين يدي القاضي تقي الدين بالقدس الشريف، أشهدت الحرمة أصيل بنت خليل الهجان الدمشقية الفرحية بالقدس الشريف...بحق الاختيار أنها من اليوم فما بعده لا تحضر الأفراح مع الفرحيات ولا تضرب على الدف المصنّج ولا على المزهر، ورجعت عن ذلك وتابت إلى الله تعالى توبة نصوحا..." سجل رقم 31، ص382، سنة 963هـ، نقلا عن: العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج3، مرجع سابق، ص55.

(2) - "لدى مولانا القاضي محمود الحنفي دام فضله قاطع فخر الخدام خضر بن أحمد والملتزم على مال مغاني بموجب المرسوم الوارد من حضرة أمير الأمراء الكرام شام بكربكي دام عوه الحرمة زينب المرأة الكامل ابنة المرحوم عمر الرئيسة، وتعرف بزوجة الرز والحرمة كرم المرأة ابنة المرحوم عبد النبي الحلبية والشامية الفرحيين بالقدس الشريف على تعايطي إعلان العرس بالدف مدة سنتين من غرة شهر شعبان المكرم من شهور سنة إحدى وسبعين وتسعمائة، بمبلغ قدره من الذهب السلطاني الجديد السليمانى الجيد الجاري في المعاملة...." سجل 46، ص219، سنة 972هـ، نقلا عن كامل جميل العسلي، نفسه، ص49.

(3) - سجلات محكمة القدس الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 1، ص115، نقلا عن نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس، ص231.

(4) - حجة 1، مؤرخة في 7 صفر 1068هـ / 14 - 11 - 1657م، سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 155، ص15.

بعرضه للبيع، كما باعت المرأة ستيتة بنت رتبة دارا لها في محلة خان السبيل بحلب،<sup>(1)</sup> وباعت كريمة بنت إبراهيم الناجي -عن طريق وكيلها - دارها الواقعة بالقرب من درج الحرافيش بالقدس الشريف.<sup>(2)</sup>

يوجد من النساء من تملّكن الأراضي، حيث باعت المرأة أسماء بنت حسين قطعة أرض لها في محلة داخل باب المقام، وهو ما يعطي فكرة على أن الملكية في المجتمع آنذاك لم تكن حكرا على الرجال فقط.<sup>(3)</sup>

كما كان في مقدور المرأة أن تقوم بإيجار أو استئجار العقارات فقد جاء في إحدى الحجج الشرعية أن المرأة خديجة بنت الحاج علي قد أجرت دارها في محلة باب قنشرين للخواجة علي بن محمد.<sup>(4)</sup>

كما لوحظ لجوء المرأة إلى توكيل أحد أقاربها كأن يكون زوجها أو والدها أو أحد أقاربها في مسألة بيع أو شراء مثلما فعلت الحرمة فاطمة بنت بكير بشر ابن سفر وشقيقتها الحرمة لطيفة اللتين وكلتا زوج الأولى المدعو حسن بن علي غزال الذي حضر أم القاضي كوكيل عن الأختين في قضية بيع حانوت ببركة الشحم بمدينة طرابلس الشام في 20 جمادى الآخر 1078 هـ<sup>(5)</sup>، وكذلك فعلت الحرمة عايشة عندما وكلت زوجها الحاج إبراهيم في بيع بستانها بأرض الأنبياء ظاهر حلب، وكان مبدأ التوكيل هو من باب أن المرأة منشغلة بمسؤولياتها المنزلية وتربية أطفالها وليس فيه انتقاص لمكانة المرأة أو تعدي على حقوقها.<sup>(6)</sup>

وفي مجال الأوقاف الذرية كان للمرأة نصيبها وحصتها من أوقاف والدها أو زوجها، وهي بذلك تذهب لمجلس الشرع لأخذ حصتها من المتولي على الوقف، وكل هذا يبين بأن المرأة في بلاد الشام عموما

(1) - يوسف محمد سالم البطوش، تاريخ الحياة الاجتماعية في مدينة حلب، مرجع سابق، ص 141.

(2) - حجة رقم 2، مؤرخة في 18 صفر 1068 هـ / 25 - 11 - 1657 م، سجل رقم 155، من سجلات محكمة القدس الشرعية، ص 35.

(3) - نفسه، ص 142.

(4) - نفسه، نفس المكان.

(5) - سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 1، ص 115، نقلا عن نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 231.

(6) - المرجع السابق، ص 142.



كانت تتفاعل مع المجتمع اجتماعيا واقتصاديا وتملك النقود وتخرج خارج المنزل وأنها ليست حبيسة البيت أو منعزلة عن الناس.<sup>(1)</sup>

كان القاضي يعين للمرأة العاجزة عن الكسب نفقة للعيش ، فقد عين القاضي بمجلس الشرع الشريف بطرابلس ، وبتاريخ 23 شوال 1078هـ لنفقة البنت العاجزة عن الكسب المدعوة فاطمة على أبيها الحاج علي القطريب الدباغ الميسر في كل يوم ثمان عثمانيات فضيات برسم طعامها وشرابها وسائر لوازمها وكسوتها.<sup>(2)</sup>

## 8 -الجواري :

استمر شغل الناس في اقتناء الجواري ودفع الأموال الطائلة في شرائهن مثلما كان عليه الأمر منذ زمن المماليك ، فكان الأعيان والأمراء والقضاة يقدمون للسلطان مع الهدايا جواري ، غير أن الورع لدى الكثيرين يدفعهم إلى عتق رقاب جواريتهم تقربا إلى الله عز وجل ، فقد كان عتق الجارية من سبل البر والتقرب إلى الله عز وجل ، فقد أعتق الحاج علي آغا كتحدا أبراج طرابلس جاريته المدعوة سالمة بنت عبد الله السوداء اللون لوجه الله ، وبمقتضى ذلك صارت حرة من أحرار المسلمين لها ما لهم وعليها ما عليهم ، وكان ذلك في أواسط جمادى الآخر سنة ثمان وسبعين وألف ،<sup>(3)</sup> لكن يلاحظ كثرة العتق في شهر رمضان تقربا لله -عز وجل- في شهره الكريم طمعا برحمته ورضوانه ، فقد " حضر الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ محمد الشهير بابن الخليلي إلى مجلس الشرع وأنجز عتق مرقوقته دجانة بنت عبد الله الحبشية الجنس.<sup>(4)</sup>

(1) -سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس الشام ، سجل رقم 1، ص 115 ، نقلا عن نهدي الحمصي ، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، مرجع سابق ، ص 143.

(2) -سجلات محكمة القدس الشرعية بطرابلس الشام ، سجل رقم 2، ص 27، نقلا عن نهدي الحمصي ، تاريخ طرابلس ، 250.

(3) - سجلات المحكمة الشرعية لطرابلس الشام ، سجل رقم 1، ص 114 ، نفسه ، ص 228.

(4) - غالب عربيات : "الريق والجواري في القدس العثمانية: قراءة في نماذج وثائق سجلات محكمة القدس الشرعية (دراسة وثائقية)" مجلة المنارة للبحوث والدراسات ، المجلد 23 ، العدد 4 ، جامعة آل البيت ، الأردن ، سنة 2017 ، ( ص ص 275 - 333 ) ، ص 290.

## ثانيا -الحياة اليومية :

### 1 - الاحتفالات :

تقدم الاحتفالات العائلية والأعياد مؤشرا هاما وصادقا على مدى تقدم المجتمع وما يتمتع به من استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي ، لأن النظرة على الكثرة من الأعياد والاحتفالات وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية تكشف صورة مشرقة لما يعيشه المجتمع من حياة مستقرة في ظل نظام سياسي متين واقتصاد مزدهر وأوضاع أمنية وطيدة ، لكن هذا لا يمنع من أن تفقد هذه الأعياد بهجتها عند توالي الأزمات أو الأوبئة ، فضلا عن انتشار الفزع والخوف وانعدام الأمن .

### 1 - أ - احتفالات الزواج :

اتصفت الحياة الاجتماعية والعائلية في المجتمع الشامي بكثرة الاحتفالات والأفراح ومظاهر التفاخر ، وأول هذه الأفراح العائلية هو الزواج ، فما إن يبلغ الابن مبلغ الرجال حتى يشرع والداه بتزويجه ، فقد مال الناس إلى الزواج المبكر ، وكانت الأم هي التي تختار الزوجة لابنها ، لتبدأ الاحتفالات الخاصة بالخطوبة وعقد القران وصولا إلى يوم العرس .

وللتعرف على جانب من هذه التقاليد الخاصة بالزواج أمكن العودة إلى أهم الوثائق التي تصوّر عادات الأعراس في بلاد الشام وهو كتاب (نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء الأخيار) للشيخ علي بن عطية الحموي المشهور بالشيخ علوان والمتوفى سنة 936هـ ، ورغم أن الكتاب في الأساس يتناول موضوع الزهد والتصوف وذكر كرامات الأولياء ، إلا أنه ولحسن الحظ ضمّنَه فصلا كاملا حول كيفية الاحتفال بالزواج في مدينة حماة في مطلع القرن العاشر الهجري ، وفيه بين الشيخ علوان أنواع البدع التي سادت هذه المناسبة الاجتماعية ، ويعتبر ما قدمه في كتابه وصفا وثائقيا للأعراس وما شابها من تغلب البدع والابتعاد عن السنة النبوية وأوامر الشريعة بداية من الخطوة الأولى وهي اختيار الزوجة .

### 1 - أ - أ - اختيار العروس :

كان الأساس الذي يتم اختيار الزوجة وفقه هو معيار الغنى دون النظر إلى الخلق ، ف : (إذا أراد انسان نكاحا لا تراه يسأل عن دينها ولا عن نسبها وإنما يسأل عن جمالها وجهازها ، وهل معها قماش كثير وجهاز

ثقل، والحامل على هذا كله، التساهل في الدين، فإذا ذكرت له امرأة متجهزة كثيرة المال أرسل إليها وأقبل بكلية عليها، والحال أنها مغتابة نامة كذابة تاركة للصلاة، سيئة الخلق<sup>(1)</sup>.

### 1 - أ - ب - الخطبة:

تتم الخطبة بشروع الأم أو الأخت أو القريبات بالبحث في بيوت البلدة على البنات، وربما استغرق ذلك أشهراً، بل أحياناً سنة أو سنتين، فإذا اتفق رأيهن على بنت لحسنها ولأصلها وأدبها تقدم أقرب رجل إلى الزوج ومعه وجهاء أهل بيته وخطبوها من أقرب رجل إليها<sup>(2)</sup> وعينوا معه المهر الذي يختلف في قيمته حسب المكانة الاجتماعية والمادية للزوجين، وفي العادة يكون هذا المهر قسمين معجل وتقبضه البنت حالاً، ومؤجل يذكر القاضي قيمته في عقد النكاح.

خلال فترة الخطبة تتلقى أسرة العروس الهدايا الكثيرة التي يقدمها العريس وأصدقاؤه وبعض الجيران والأقرباء ورؤوس الحارات والوجهاء، وتفادياً للإحراج يندفع بعض الفقراء فيرسلون بدورهم الهدايا التي تكون غالباً طعاماً ولحماً يرسلونه (على رأس الحمال مكشوفاً رياء وسمعة ليقال هذا عشاء فلان)<sup>(3)</sup>.

واعتماد الناس على المغالاة حتى في عقد النكاح ليس في تحديد قيمة الصداق فقط بل في الطريقة التي يكتب بها القاضي العقد والوسيلة التي يكتب عليها، فقد كان أهل العروس يصرون على أن يكتبوا ذلك (على حرير نحو ذراع أو أكثر اسرافاً وتبذيراً)<sup>(4)</sup>.

### 1 - أ - ج - الزفاف:

بعد الخطوبة وعقد القران تأتي الخطوة الثالثة وهي الزفاف ويبدأ بإعداد الجهاز ونقله إلى بيت العريس حيث يجتمع (أهل محلة الزوج غالبهم، صغيروهم وكبيرهم، وصحبوا معهم البغال، وأكثروا الصخب والجدال، وتوجهوا إلى محلة الزوجة لنقل جهازها)<sup>(5)</sup>، أما أهل العروس فيظهرون شيئاً من الممانعة من خلال بعض المطالب من أهل العريس (فيتلقاهم أهل تلك المحلة بالمدافعة والمشاقة والممانعة، وطلبوا منهم

(1) - علي بن عطية البهتي الحموي المعروف بالشيخ علوان (المتوفي سنة 936هـ): نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء الأخيار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت لبنان، 2001، ص 345.

(2) - كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج 1، طبع المكتبة المارونية بحلب، ص 249.

(3) - المصدر السابق: ص 246.

(4) - نفسه، ص 346.

(5) - نفسه، ص 346.

رؤوسا عديدة من الغنم، وقالوا إن لم تأتوا بها لا تطيقون أخذ ما جئتم بصددته<sup>(1)</sup>، وهؤلاء يبدون بدورهم قبولهم لكن بشروطهم أيضا (فيقولون لهم: إذا كان كذلك فقوموا بواجب حقنا لديكم من المأكول والمشرب الكثير)<sup>(2)</sup>، وخلالها تحدث بعض التصرفات التي أنكرها الشيخ علوان معلقا بأنها قمة الرياء والنفاق وأشد ما تكون بعدا مما أمر به الشرع، وكلّها عيب وفضيحة، (فيذهب كل منهم إلى بيته، وينهر زوجته ويأمرها بالقيام إلى تحصيل الضيافة والطعام، فرما تكون زوجته مشغولة ببعض شأنها فيلعنها ويلعن آباءها وإخوانها وفي الحقيقة ما لعن إلا نفسه...، وربما يكون الإنسان منهم فقيرا لا يملك قوت ليلته أو عنده ما يكفي أولاده، فيتركهم يتألمون من الجوع، بينما يحمل قوتهم في رياء وسمعة...، وربما يصنع بيضا أو لحما وأولاده الصغار ييكون على أمهم)<sup>(3)</sup>.

يضع أهل الزوجة الموائد والأطباق ويبدأ الناس في تناول الطعام في جو من المزاح والفرح، بينما آخرون يكونون قد وضعوا الأثاث في الأطباق ونشروا المتاع على الدواب ورفعوا الحلي على رؤوس الحمالين، وأشار الشيخ علوان إلى ظاهرة الاختلاط في هذا الاحتفال حيث (انتشر النساء والرجال مختلطين في الأزقة والأسواق رافعين الأصوات بالزغاليط قاصدين المفاخرة والمكاثرة)<sup>(4)</sup>.

يتم حمل جهاز العروس إلى بيتها الجديد وسط احتفالات صاخبة على ظهر الدواب التي تغطي رؤوسها بوسائل الزينة وتعصب بالمناديل الملونة ويحدث هذا وسط النهار، بينما جماعة من الشبان يلعبون بالسيوف ومعهم طبل وزمر ومنشدين، محدثين جلبة في الشارع، وتتعالى أصواتهم أكثر فأكثر كلما استمروا في السير، بحيث تستطيع أن تسمع أصواتهم من مسافة غير قليلة<sup>(5)</sup>، ويتناسب ذلك مع مكانة صاحب العرس، فإذا كان من أوسط الناس سار موكب العرس من الأقارب والمعارف من أبناء الحارة.

في ليلة العرس تعد الأطعمة من طرف أهل العريس وأقربائه وجيرانه، وربما يكون صاحب العرس فقيرا فيستدين ويتكلف فوق طاقته، قاصدا بذلك تكثير الطعام وتحسينه، لئلا يعاب عليه بتقصيره عن القدر

(1) -كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، طبع المكتبة المارونية بحلب، المصدر السابق، ص 346.

(2) -نفسه، ص 346.

(3) -نفسه، ص ص 346- 347.

(4) -نفسه، ص 348.

(5) -ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف إلى طرابلس - دمشق - حلب - الرقة - دير الزور - بغداد - عانة - الفلوجة - هيت - كركوك - أربيل في النصف الثاني للقرن السادس عشر الميلادي، ترجمة سليم أحمد خالد، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008، ص 82.

الذي أولم به جاره<sup>(1)</sup>، وتوجه الدعوة إلى (أكابر العلماء وأعيان الناس والامراء)، والقصد من وراء ذلك المفاخرة والمباهاة أمام الجيران (فيقول: كان عندي الشيخ الفلاني والامير الفلاني رياء وسمعة)، لكنه قد يكون غفل عن دعوة (الأرملة والمسكين والفقير واليتيم)<sup>(2)</sup>.

والعرس عرسان واحد للنساء وآخر للرجال، فإن صاحب العرس يعزم جماعة كثيرة حتى إذا فرغوا من الأكل حبسهم - كما يقول الشيخ علوان - لغرامة أضعاف ثمن ما أكلوه، ويقول لبعض أصحابه نادي بالشاباشي، فيقول هذا النادي إذا أعطاه أحد شيئاً شاباشي يا فلان هذا، وجماعة من النساء يستمعون صوت النادي، فإذا سمّي البازل للنقوط رفعوا أصواتهم بالزغاليط خصوصاً إذا كان النادي باسمه من وجوه الناس... فهناك تقع المفاخرة والمغايرة بين الأقران ... فينفقون أموالهم رياء وسمعة...، ومما ينادي النادي: أخلف الله عليك يا فلان.<sup>(3)</sup>

عندما تنتهي وليمة الرجال يتوجه الجميع برفقة العريس إلى الحمام ويسيرون في موكب كبير في أجواء من البهجة والسرور ومعهم الشموع<sup>(4)</sup>، فإذا فرغ المدعوون من الاستحمام لبس العريس أجمل ثيابه وتطيب وتعطر وتوجه إلى مكان العرس (بين يديه وخلفه جماعة كثيرة رجال ونساء مختلطين وربما رفع النساء أصواتهم بالزغاليط فيعجب حينئذ في نفسه ويتبخر في مشيته).<sup>(5)</sup>

يأتي العريس في ساعة متأخرة من الليل إلى مقر الاحتفال ليتعرف إلى عروسه فتستقبله النسوة (والوجوه بادية والزينة ظاهرة لا حجاب ولا جلباب، فيدخل الزوج للجلى بل للعمى والظلام فيتلقينه بالشمع والزغلطة وهن سافرات عن وجوههن مبديات لزيتهن، فتعضده امرأتان من أقاربه واحدة من يمينه والأخرى عن شماله، وربما يدخل معه شبان بالغون من الأقارب كأخيه البالغ، فهناك يجلس على مكان

(1) -ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف إلى طرابلس - دمشق - حلب - الرقة - دير الزور - بغداد -عانة - الفلوجة - هيت - كركوك -أربيل في النصف الثاني للقرن السادس عشر الميلادي، ترجمة سليم أحمد خالد، ط1، الدار العربية للموسوعات، المرجع السابق، ص 348.

(2) -نفسه، ص 348.

(3) -نفسه، ص 348.

(4) -نفسه، ص 349.

(5) -نفسه، ص 350.

رفيع فتتقدم كل امرأة إليه وتلصق الدراهم بين عينيه<sup>(1)</sup>.... ثم تخرج العروس هي وماشطتها مرتدية شيئاً يقال له الشربوش والذي يظهر لي في معناه في زماننا وتلبسه النساء على رؤوسهن يسمونه المقنزع<sup>(2)</sup>.

فاذا خرجت وامثلت بين يدي الزوج قام لها وكشف شيئاً يقال له الجلاية عن وجهها وألصق الدراهم في جبهتها...، ثم تذهب بها الماشطة إلى بيت وتخلع عنها تلك الهيئة وتفرغ عليها ثياباً غير تلك الثياب وتلبسها عمامة كعمامة القاضي والفقيه وتمسك سيفاً مسلولاً معها، فتأتي إلى الزوج فيأخذ السيف منها ويضربها ببطنه على رأسها ثلاث ضربات... وأعظم من هذا أنه إذا دخل البيت قامت أم الزوج ففشخت رجلها مع صدغي الباب أي عضادتيه ولا تمكّن الزوجين من الدخول إلا بعد انحنائهما<sup>(3)</sup>.

ويعلق بن عطية الشيخ علوان على هذه العادات ويعتبرها من المنكرات والاسراف (بعض الناس يقدم بدعة قبيحة جداً ويصنع لعمره مرسحاً وفيه منكرات كثيرة من إضاعة المال، فإنه يحتاج فيه إلى مال كثير في شراء الزيت وأجرة المغنين، ويتفق فيه اختلاط الرجال بالنساء وسماع الدف المصنج والغناء والفحش والبذاءة....)<sup>(4)</sup>.

كثيراً ما لجأ الأغنياء إلى الاستعانة بالمغنيات والراقصات في تنشيط حفل الزفاف، وعرف المجتمع الشامي وجود مجموعة من الفرحيات أي الراقصات والمغنيات والعازفات، وسمحت هذه الأعراس لبعضهن الحصول على مال وفير، غير أن الأخريات كن يعشن على شفا التسول، ويبدو أن المجتمع لم يكن يرضى بوجودهن، لذلك كن يمارسن نشاطهن بعيداً عن موطنهن الأصلي، فكانت معظم الفرحيات في مدينة القدس إما من أصل شامي أو حلبي، ففي وثيقة مسجلة لدى قاضي القدس جاء فيها: (بين يدي مولانا القاضي تقي الدين أشهدت عليها الحرمة أصيل ابنة خليل الهجان الدمشقية الفرحية بالقدس الشريف)، وكانت من قبل ممن (تحضر الأفراح مع الفرحيات وتضرب الدف المصنج)<sup>(5)</sup>.

هذا وتختص هذه العادات بالمسلمين، بينما للنصارى عاداتهم الخاصة بهم.

(1) -ليونهارت راوولف، المصدر السابق، ص 351.

(2) - نفسه، ص 352.

(3) - نفسه، ص 353.

(4) - نفسه، ص 354.

(5) -الوثيقة 40، من السجل 31، سنة 963هـ، كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، المجلد 3، مرجع سابق، ص 55.

## ب - الولادة والنفاس:

من الاحتفالات العائلية التي كان يحتفى بها في بلاد الشام منذ عصر المماليك واستمرت باقية هي مناسبة وضع الأم مولوداً جديداً في الأسرة، فكانت الزغاريد ترتفع من حناجر النسوة اللواتي يقبلن بالدفوف والرقص واللعب، في حين تدوي المزامير والأبواق على أبواب المنزل، وعندما تنتهي الداية من قطع السرة للمولود يجتمع حوله حشد كبير من صغار الأطفال، أما السكين التي يتم القطع بواسطتها فتحتفظ به الأم تحت رأس مولودها أربعين يوماً حتى لا يصيبها شيء من الجن حسب زعمهم<sup>(1)</sup>.

إذا كان الطفل ذكراً (خاصة إذا كان بكراً) فإن عدد الزائرات يكون كبيراً جداً، كما تحضر موسيقيات وتنهمك النسوة في فرجهن الصاحب كالعادة، وفي بعض الأحيان ينجم عن هذه العادة السيئة عواقب غير محمودة، كما أن أي كلام حول هذا الموضوع لا يجدي نفعا، إلا إذا مرضت النفساء مرضاً شديداً، ولا تراقب اضطرابات الطفل السريرية، أما عندما يكون المولود أنثى فإن النسوة يكنّ أكثر اعتدالاً في أفراحهن، كما يأتي عدد أقل لتقديم التهنئة<sup>(2)</sup>.

تبقى النساء الحديثات العهد بالولادة من الطبقة الميسورة في السرير مدة ستة أيام، وفي اليوم السابع يرفع السرير ويستقبلن الزائرات وهن جالسات على الأريكة، أما النسوة من عامة الشعب فإنهن يغادرن السرير في اليوم الرابع أو الخامس، بينما يغادرنه في وقت مبكر في القرى<sup>(3)</sup>.

في اليوم السابع يقيم الوالد "عقيقة" للمولود يذبح خلالها شاة إن رزق بنت ويتضاعف الفرح عند الوالد إذا كان المولود ذكراً فيلجأ إلى ذبح شاتين، حيث يقوم بأداء الأذان في الأذن اليمنى والإقامة في اليسرى<sup>(4)</sup>، وكان الوالد يدعو إلى وليمته الأهل والأصدقاء ويفرط في عمل ألوان الطعام الفاخر، هذا عدا عن مظاهر التكريم التي تحظى بها أم المولود خاصة إذا كانت الأسرة ميسورة الحال، ورغم أن الشيخ علوان

(1) - فريال بدوي يوسف الزربا، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير مقدمة قسم التاريخ بالجامعة الأردنية سنة 1980، ص 329.

(2) - ألكسندر وباتريك راسل، تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، ترجمة خالد الجبيلي، (طبع لأول مرة في لندن سنة 1795)، ط 1، دمشق، 1997، ص 178.

(3) - نفسه، ص 179.

(4) - الشيخ علوان، علي بن عطية الحموي: الجوهر المحبوك في طريق السلوك، مخطوطة موجودة في مكتبة جامعة الملك سعود في قسم المخطوطات، الرقم 6295 ف، الورقة 15 ب، محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه: حوادث حمص اليومية 1100 - 1136هـ، مصدر سابق، ص 84.

علي بن عطية المعروف بزهد لا ينكر هذه العادات ، إلا أنه كان يرى بأن الوالد حينما يرسل للجيران والمساكين بالطعام أو يوجّه لهم الدعوة إلى بيته يكون قد وفّى.<sup>(1)</sup>

### ج - الختان:

من الاحتفالات العائلية التي شملت مختلف الفئات الاجتماعية في بلاد الشام هو الاحتفال بختان الطفل ، وكانت مناسبة هامة للأسرة حيث توجه الدعوة للأهل والأصدقاء ، ولا بد للمدعوين في هذه المناسبة من تقديم النقود لأهل الطفل ، أما والد الطفل فيأخذ جزء من شعر الصبي ويزنه ويتصدق بمقداره ذهباً أو نقوداً ويقوم بتوزيعه صدقة على المساكين وذوي الأرحام<sup>(2)</sup> ، لذلك نرى بأن أهل العلم والشيخة لم يعارضوا هذه الاحتفالات التي كانت موجودة في المجتمع ، ويذكر محمد بن عبد الرحمان السخاوي (المتوفي سنة 902هـ/1496م) صاحب كتاب: التبر المسبوك في ذيل السلوك بأنه هو شخصياً أقام وليمة كبيرة عندما رزق بولد دعا إليها الفقراء والصلحاء وطلبة العلم وغيرهم ممن توسم فيهم الخير.<sup>(3)</sup>

إضافة إلى الاحتفال بمناسبة الختان ؛ هناك احتفال نذر الحلاقة ، حيث تتم الحلاقة الأولى لشعر الصبي المندور ، ذلك أن المرأة التي ترغب بمولود ذكر تنذر ألا تحلق شعره حتى عمر سبع سنين مثلاً ، فتكون الحلاقة باحتفال في المكان المحدد النذر ، ويكون عادة ضريح أحد الأولياء<sup>(4)</sup> .

تقدم الاحتفالات والأعياد مؤشراً هاماً وصادقاً على مدى تقدم المجتمع وما يتمتع به من استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي ، لأن النظرة على الكثرة من الأعياد والاحتفالات وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية تكشف صورة تفيض بالبهجة والاشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة في ظل نظام سياسي متين واقتصاد مزدهر وأوضاع أمنية وطيدة جعلت هذه الصورة صحيحة في مجملها ، لكن هذا لا يمنع من أن تفقد هذه الأعياد بهجتها عند توالي الأزمات أو الأوبئة فضلاً عن انتشار الفرع والخوف وانعدام الأمن .

(1) - علي بن عطية الحموي ، نفس المصدر ، ورقة 16 أ .

(2) - نفس المصدر ، ورقة 16 أ .

(3) - السخاوي ، محمد بن عبد الرحمان ، التبر المسبوك في ذيل الملوك ، تحقيق نجوى مصطفى كامل و لبيبة ابراهيم مصطفى ، ج3 ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة 2005 ، ص94 .

(4) - محمد بن عبد الباقي الخنقاء ، مصدر سابق ، ص 205 ، ص267 .



#### د - الإنشاد:

كان هناك نساء ينشدن في المناسبات الدينية و الموالد وغيرها من المناسبات ، وهنا نشير إلى وجود بعض النسوة اللواتي يمتنهن الغناء حرفة ويُعرفن باسم الفرحيات أي الراقصات والمغنيات والعازفات ، وكانت هذه المهنة تدرّ على البعض منهن مالا وفيرا وبالأخص اللواتي يتقربن من الأمراء والولاة ، بينما كان البعض الآخر يعيش على حافة التسوّل ، ولم يكن المجتمع يرضى بهذه المهنة لذلك تضطر هذه الفرحيات إلى الابتعاد عن موطنهن إلى مدن بعيدة ، فقد كانت معظم الفرحيات في مدينة القدس في القرن السادس عشر من أصل دمشقي أو حلبّي ، وجاء في إحدى وثائق المحكمة الشرعية بالقدس الشريف أن "أصيل ابنة خليل الهجان" الدمشقية الفرحية بالقدس الشريف وقفت أمام القاضي وتعهّدت بالتوبة والتوقف عن ممارسة مهنة الفرحيات<sup>(1)</sup> ، ومن الأسر التي عُرفت في حمص عائلة "خسترك"<sup>(2)</sup> والتي امتنعت بناتها وأزواجهن الرقص ، وقد لا تكون تلك العائلة محترمة في مجتمعتها ، لكن وجودها يؤكد حاجة المجتمع لها في بعض أفراده ومناسباته .

#### هـ - التسلية:

كانت أهم مظاهر التسلية في الحارات والأحياء الشعبية هي جلسات الرجال بعد عصر كل يوم على أبواب الدور ، وأهم ما كان يجري فيها هو تناقل الأخبار التي غالبا ما تكون إشاعات ، وخلالها يتم التسلّي بألعاب بسيطة ، ومن بين الألعاب توجد لعبة " الطاب والدك " وفي المساء كانت الجلسات تنقل إلى المقاهي<sup>(3)</sup> حيث الحكواتي<sup>(4)</sup> وخيال الظل " كركوز " ، ففي مدينة حمص كان البهلوان يقوم بألعابه قرب القلعة<sup>(5)</sup> وكذلك المزعبر أي الساحر<sup>(6)</sup> .

أما في الأعياد الدينية فإن المجال يكون للتواصل بين الأسر وكذلك لبعض التسلية ، ومن بين الأعياد: عيد الفطر ، عيد الأضحى ، المولد النبوي الشريف ، ( حيث كانت تقرأ قصة المولد النبوي في المناسبات

(1) - سجل 31 ، أواخر رجب 963هـ نقلا عن كامل جميل العسلي ، وثائق مقدسية تاريخية ، مج 3 ، مرجع سابق ، ص 55.

(2) - المرجع نفسه ، ص 274.

(3) - يذكر الخانقاؤه بأنه توجد في حمص مقهى معلقة بمعنى توجد في الطابق الثاني فوق الدكاكين فسميت بالمعلقة. نفسه ، ص 110.

(4) - نفسه ، ص 65.

(5) - نفسه ، ص 270 ، ص 316.

(6) - نفسه ، ص 317

الأسرية<sup>(1)</sup>، وإحياء منتصف شهر شعبان (التي ذكرها الخانقاه بـ ليلة المحيا وهي ليلة النصف من شعبان)، وهي ليلة مباركة يتم إحيائها بالذكر والصلوات والأدعية، وصيام نهارها.<sup>(2)</sup>

أما الوجهاء والحكام والأغنياء مثل المفتي والحاكم والنقيب فكان لهم تقاليدهم الخاصة في التسلية، ومنها النزعات والولائم التي تكون في البساتين صيفا وكان منها ما هو دور على كل واحد من الأكابر مرة، أي دور ضيافة كل يوم عند أحد فكان كل واحد ينظم وليمة يدعو إليها، وتكون تارة في البساتين وتارة أخرى في بيوتهم.<sup>(3)</sup>

#### و - مراسيم الجنازة:

عادة عندما يشتد المرض بأحد الأشخاص يجلس شيخ أو شيخان بجوار المحتضر ويأخذان في تلاوة القرآن والدعاء له، وعندما يلفظ أنفاسه الأخيرة يقوم أهل الميت بإدارة وجهه باتجاه القبلة، وما إن يلفظ أنفاسه حتى تبدأ النسوة في الغرفة بالصياح والبكاء وسرعان ما تنضم إليهن النساء الأخريات من القريبات، ولا يستطيع الرجال اسكاتهن ومنعهن من فعل ذلك، أما الجثمان فيغسل من طرف أشخاص يمتنون ذلك، يحضرون إلى البيت ومعهم طاولة خشبية طويلة تكون عادة من الأملاك العامة للمنطقة، ويكون الغسل بالماء العادي عدة مرات، ثم بالماء الممزوج بالكافور، كما تُسدّ الفتحات الطبيعية في الجسد بالقطن، ويُرشّ على بعض أجزاء الجسد مسحوق من أعشاب عطرية، وتقوم النساء بغسل المتوفيات بنفس الطريقة، ويلف الجثمان الكفن وهو قماش أبيض نظيف ويوضع في التابوت<sup>(4)</sup> وتتراوح تكاليف تجهيز الكفن بين غرش<sup>(5)</sup> غرش<sup>(5)</sup> وسبعة غروش<sup>(6)</sup>، وقد يصل إلى ثلاثين غرشا<sup>(7)</sup>.

يحضر جنازة الميت معارفه وأقرباؤه، يتقدم الجنازة المشايخ المسنين، ثم يأتي النعش خلفهم محمولا من طرف حمالين يُستخدمون لهذه الغاية، وفي بعض الأحيان يأخذ مكانهم بعض الأشخاص الذين يعتقدون بأنه من الواجب المساعدة في حمل النعش، وتتقدم الجنازة إلى أحد المساجد حيث تؤدي صلاة الجنازة

(1) - يذكر الخانقاه بأنه توجد في حمص مقهى معلقة بمعنى توجد في الطابق الثاني فوق الدكاكين فسميت بالمعلقة. نفسه، ص 261.

(2) - نفسه، ص 87.

(3) - نفسه، ص 228.

(4) - راسل: تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 180 - 181.

(5) - حجة رقم 1، مؤرخة في أواخر ربيع الأول 1081هـ / 15 - 8 - 1670م، سجل 173، ج 1، ص 106.

(6) - حجة رقم 2، مؤرخة في 5 جمادى الأولى 1081هـ / 19 - 9 - 1670م، سجل 173، ج 1، ص 106.

(7) - حجة رقم 1، مؤرخة في أواخر ربيع الثاني 1081هـ / 13 - 9 - 1670م، سجل 173، ج 1، ص 130.

ويحمل النعش باتجاه القبر الذي أُعدّ خصيصاً حيث يوضع الجثمان بشكل متكئ بحيث يكون اتجاه الرأس نحو الغرب والوجه نحو القبلة في مكة المكرمة، ثم يأخذ الإمام حفنة من التراب ويلقيها على الجثمان، ثم توضع أحجار مسطحة على القبر تحول دون سقوط التراب مباشرة على الجثمان ثم يهال عليها التراب<sup>(1)</sup>، في خلال الأيام الأولى للدفن يقوم أقل الميت والوثيقو القرابة بزيارة القبر في اليوم الثالث واليوم السابع واليوم الأربعين<sup>(2)</sup>.

شهد أهالي دمشق في مطلع العهد العثماني أول جنازة لشخصية رسمية عثمانية وهو حليم شلبي القسطنطيني خُصِّص السلطان سليم الأول ويقال إمامه وشيخه وهو الذي حث السلطان على بناء جامع محي الدين بن العربي بالصالحية، وعلى عادة العثمانيين تم الاعلان عن الوفاة من أعلى مآذن الجامع الأموي، وهو ما لم يكن يعتده أهل دمشق، وصلى الولوي بن الفرفور على الجنازة، لكن عندما حضر السلطان سليم نفسه أعاد الإمام الصلاة ثانية، ثم حُمل نعش الميت في سحلية على أيدي العسكر، وقد وضع شاشاه عليها ثم دفن في تربة المحيوي ابن العربي<sup>(3)</sup>.

تشير سجلات المحاكم الشرعية أنه بعد اتمام مراسم الدفن تجري عملية حصر إرث الميت وتقسيمه بين الورثة، وهذا بعد طرح المبلغ الذي يصرف في تجهيز وتكفين الميت ودفنه، ويتم ذلك عند الحاكم الشرعي، وهكذا لما مات المرحوم الأستى أحمد بن ناصر الدين الصايغ من مدينة القدس الشريف، وانحصر الإرث في زوجته وأخيه انحصارا شرعيا وضبطت جميع مخلفاته بموجب دفتر القسمة الصادر لدى الحاكم الشرعي المولى أحمد أفندي بن مصطفى، تم تثبيت مضمون القسمة بعد المصادقة عليها من الورثة<sup>(4)</sup>، وفي بعض الحالات يتم بيع متروكات الميت وتقسيم المبلغ بين الورثة، كما حدث للمرحوم الأستى أحمد بن ناصر الدين الصباغ نفسه، وصدر ذلك لدى الحاكم الشرعي القسام بالقدس<sup>(5)</sup>.

تزرخ كتب الإخباريين عن ذكر الموت ومن مات في ذلك الشهر أو السنة وسبب الموت، وفي الحقيقة فإن السكان كانوا عرضة لثلاثية الموت الرهيبة والمرعبة: المجاعة والوباء والحروب، فكانت هذه من أدوات

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 181.

(2) - نفس المصدر، ص 182.

(3) - محمد بن طولون الدمشقي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 373.

(4) - حجة رقم 1، مؤرخة في أواسط رمضان 1082هـ / 14- 01- 1672م، دفتر رقم 173، ج2، ص 366.

(5) - حجة رقم 2، "دون تاريخ" سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج2، ص 367.

الموت الجماعي التي كانت تحصد من حين لآخر أعدادا تقل أو تكثر بحسب الرقعة الجغرافية التي تشملها والفترة الزمنية التي تستغرقها<sup>(1)</sup>.

## 2 - المأكّل:

الحديث عن أمور المطبخ في الفضاء العثماني يجرّ حتما إلى الحديث عن المطبخ ليس فقط في مركز الدولة العثمانية اسطنبول إنما يشمل أيضا كافة الولايات المنتمة لهذه الدولة الواسعة الأرجاء والتي في الأخير تشكل مطبخا ليس مختلفا بقدر ما هو متنوّع وغني بأصنافه ومكوّناته، فكثيرا ما يطرح التساؤل عن ماهية الطعام الذي كان الناس يتناولونه، والمواد التي تتكون منه، وهل يوجد مطبخ شامي أم أننا يمكننا الحديث عن مطبخ عثماني بشكل عام طالما أن بلاد الشام في الفترة التي نحن بصدد دراستها هي جزء من الدولة العثمانية؟

في الحقيقة لم نعثر على دراسة خاصة بالأكل، لكن يمكننا من خلال بعض المعلومات المتنوّعة والمتناثرة هنا وهناك سواء عن المحاصيل الزراعية من دفاتر الإحصاء، أو من حجج الأوقاف التي اختصّت في تقديم الطعام للفقراء وطلبة العلم والعلماء وعابري السبيل، أو من خلال الطوائف الحرفية في مدن بلاد الشام، أو من خلال بعض المنتجات التي يتم تبادلها عن طريق التجارة كما هو الحال بالنسبة لزيت الزيتون أو اللحوم، أو ما كتبه بعض الرحالة الغربيين الذين أوردوا بعض الإشارات إلى ما كانوا يتناولونه أثناء تنقلاتهم، أو حتى من بعض العادات التي دخلت حديثا في حياة الناس كما هو الحال بالنسبة لانتشار المقاهي التي تقدم القهوة الخ .. فمن خلال هذه المعلومات يمكننا أخذ تصوّر عن الأكل بصفة عامة في بلاد الشام.

اعتادت غالبية أهالي دمشق الشام شراء ما يحتاجون إليه من الأطعمة المطهية التي تزرع بها الأسواق والطرق بدل طبخها في البيوت، والسبب في ذلك هو ارتفاع أثمان الحطب<sup>(2)</sup>، ولم تقتصر ظاهرة شراء الطعام على فئة دون أخرى بل شملت الغالبية العظمى من الناس مهما بلغ ثراؤهم، فكانت جميع المأكّل

(1) - يمكن العودة إلى حوادث حمص اليومية للخانقاه في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. ومطلع القرن الثامن عشر، حيث لا تكاد تمر فترة دون تسجيل العديد من الوفيات الخانقاه : ص 76، 77، 78، 79، 80، 81، 83، 85، 88، 89، 87.

(2) - أكرم العليبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906 - 922هـ / 1500 - 1516م، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، ط 1، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق 1982، ص 117، وبلغ ثمن قطار من الحطب في لواء عجلون في النصف الأول من القرن السادس عشر 300 آقجة، دفتر مفصل عجلون، سبق ذكره، ص 83.

تباع في الشوارع والطرقات حيث انتشر في أماكن كثيرة من المدينة طهارة أمامهم اللحوم المتنوعة يطهون كل شيء، ويتنقلون في أنحاء المدينة حاملين متاعهم من موقد ومقلاة يغلي ما فيها، وماء مثّلج، أما الزبائن فيجلسون على صفات في الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر<sup>(1)</sup>، بل ومن الغريب أنه توجد سوق لبيع الماء على كثرة وجود المياه في دمشق في محلة باب الجابية<sup>(2)</sup>، ويذكر ابن عبد الهادي ابن المبرد وجود مائة وخمسين سوقاً في دمشق لوحدها، وفي معرض حديثه عن سوق الطباخين؛ يقول بأنهم متفرقون في كامل محلات وأحياء دمشق<sup>(3)</sup>، فكان الناس يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق.

اهتم أهل الشام بطعامهم فقد كان المطبخ غنيا بأنواع مأكولاته وطرق تحضيرها، وقد أتت وقفية خاصكي سلطان بالقدس على ذكر أنواع الأطعمة المقدمة لعامة الناس، ولعل هذا يقدم فكرة عن مدى غنى الطعام، فالوجبات المقدمة في التكية في كل يوم عدا ليالي الجمع الشريفة تتكون من: مرق بالسمن مرتين - مرق بالأرز غداء، ومرق بالحنطة عشاء، أما في ليالي الجمع الشريفة فيتم طبخ مرق بالحنطة في وجبة الغداء، بينما تقدم في وجبة العشاء الأطعمة النفيسة الآتي ذكرها:

( من أجل طبخ وجبة مرق الأرز عيّنت الوقفية: عشرين منّا قدسيا من الأرز الصافي، ومن السمن ثلاثة أمان، ومن الحمص ثلاثة أواق ( الأواق الإسطنبولي يساوي نصف من)، ومن البصل أربعة أواق، ومن الحطب ستين منا يكون مائة وعشرون أوقية ومن الملح منان ونصف من (يكون خمس أواق)، ومن اللبن الحامض خمسة وعشرون منا (يكون خمسين أوقية)، ولثمن المعدنوس أربعة دراهم، أما مرق الحنطة: في كل نوبة من الحنطة النقية أربعة أمداد قدسية، ومن السمن ثلاثة أمان (يكون ست أواق)، ومن الملح خمس أواق ومن البصل منان، ومن الحطب سبعين منا قدسيا ومن الكمون ثلاثة أواق، ومن الحمص منا ونصف

(1) -دفتري مفصل عجلون، سبق ذكره، ص 117.

(2) -ابن عبد الهادي (المعروف بابن المبرد)، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق (بدمشق)، تحقيق حبيب زيات / مجلة المشرق، السنة السابعة والثلاثون، الأعداد 1 - 2 - 3، سنة 1939، ص 23.

(3) -نفسه، ص 27.

من<sup>(1)</sup>، وشرطت الواقعة أن يطبخ في كل ليلة من ليالي الجمعة الطعام المعروف باسم (دانة برنج وزردة)<sup>(2)</sup>.

والمتممّن في مكوّنات الطعام الذي يحضّر في تكيّة خاصّكي سلطان بالقدس الشريف يجد بأنها تتكون من: الأرز، لحم الضأن، السمن، الحمص، البصل، الفلفل، الملح، العسل، الزعفران، ولم تغفل الواقعة عن تخصيص مبلغ من المال لشراء الحطب للطهي.<sup>(3)</sup>

أما في ليالي رمضان فإنه يتم تحضير نوعين من الطعام والمعروفان باسم (دانة برنج، وزردة) بجميع المكوّنات السالفة الذكر، بينما في يوم عاشوراء تقدّم وجبة من المرق بجميع حوائجه، توزّع على علماء القدس وفقرائها وصلحائها وأغنيائها على وجه العموم، وخبز يطبخ في فرن العمارة يعرف باسم (فدولة)<sup>(4)</sup>، وشرطت الواقعة أيضا أن يعطى من الأطعمة اليومية كل غداة وعشية لكل واحد من مجاوري المسجد الأقصى طعام واحد مقداره ملء مغرفة واحدة وخبز واحد، وفي ليلة الجمعة يضاف إليها قطعة من اللحم<sup>(5)</sup>.

كما يمكن أخذ فكرة عن نوعية الغذاء مما كان يبيعه حرفيو الأطعمة في الأسواق وهو ما يعطي انطبعا بأن الناس لم يكونوا يعانون من قصور في الموارد الغذائية، خاصة أنّ ما كان يقدّم أو يباع في الحوانيت لا علاقة له بما كان يحضّر داخل بيوت أو قصور رجال السلطة.<sup>(6)</sup>

لم يقتصر الأمر على الطعام فقط بل أحبّ الشاميون كذلك تناول أنواع متعددة من الحلوى، وقد أتت قوائم الطوائف الحرفية في مدن بلاد الشام مثل مدينة حماة على ذكر طائفة الكعبيكاتية والبقسماطية وهي التي تصنع البقسماط وهو من أنواع الكعك على شكل ألواح الصابون<sup>(7)</sup>، وطائفة الحلالونة التي تصنع

(1) - كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، ط 1، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1983، ص 138 - 139.

(2) - الزردة : أكلة تركية يلوّن فيها الأرز بالزعفران ويحلى بالعسل. كامل جميل العسلي : نفسه، هامش 40، ص 144.

(3) - نفسه ص 139.

(4) - فدولة : خبز بني اللون كان شائعا في الأسواق. نفسه، ص 144.

(5) - نفسه، ص ص 139 - 140.

(6) - زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مرجع سابق، ص 166.

(7) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: " طوائف الحرف و الصناعات أو طوائف الأصناف في حماة في القرن السادس عشر " مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 19، الجزء 1 - 2، السنة 1969، ص 88.

تصنع الحلوة الشعبية المعروفة بمدينة حماة بالطحينية، وطائفة الكنفاتية التي تصنع أنواع المعجنات والحلويات، والزبانية أي صانعو الزلاية، وطائفة المطافجية صانعو الناطف وهو مزيج بين السكر وبعض المواد العطرية، وهو مادة أساسية في معظم الحلويات الشعبية<sup>(1)</sup>، وطائفة الأقسماويين التي تصنع الأقسما وهو نوع من المثلجات الحلوة، تتألف من الدبس المستخرج من الزبيب، أو منقوع الزبيب، والثلج، وبعض المواد العطرية، وكان الثلج يجلب المرتفعات الجبلية المحيطة بحماة كجبل الزاوية، حيث يحمل على ظهور الجمال إلى أماكن خزن خاصة رطبة أعدت لذلك<sup>(2)</sup>، وهناك مادة أخرى اشتهرت بها بلاد الشام ألا وهي البقلاوة التي كانت تصنع من الحبوب، وعلى الرغم من أن أسلوب تحضيرها في عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول هو الشائع، إلا أن الناس كانوا يستمتعون بل يتوقون لبقلاوة حلب ودمشق<sup>(3)</sup>.

كما توجد طوائف حرفية لكل من القصابين الخبازين، والدقاقين الذين يبيعون الطحين ويوزعونه على الخبازين<sup>(4)</sup> والقصابين والكبوديين (بمعنى بائعو الأكباد والكلى والقلوب بحماة)<sup>(5)</sup>، والحمصانية الذين الذين يطبخون الحمص والفل ويبيعونه<sup>(6)</sup>.

كان المحتسب يقوم باستمرار بمراقبة من يتولون تحضير هذه الأطعمة والحلويات حتى تكون موادهم نقية وأنيتهم نظيفة وعملهم مستقيماً، ليمنع الغش ويشرف على شؤون النظافة،<sup>(7)</sup> وكان اللحم على اختلاف أنواعه مادة أساسية في تحضير أي وجبة من الأطعمة، لذلك اهتمت الدولة بمراقبة أماكن الذبح كما أصدرت أوامر بمنع عمليات الذبح في البيوت والدكاكين، بل وأنها اشترطت على القصاب؛ قبل أن يشرع في ممارسة عمله؛ أن يحصل على وثيقة من الحاكم الشرعي<sup>(8)</sup>.

(1) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات أو طوائف الأصناف في حماة في القرن السادس عشر، ص 90.

(2) - نفسه، ص ص 90 - 91.

(3) - إيلبير أورتايلى: إعادة استكشاف العثمانيين، ترجمة بسام شيحا، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2012م، ص 93.

(4) - المرجع السابق، ص 89.

(5) - نفسه، ص ص 89 - 90.

(6) - نفسه، ص 90.

(7) - زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، مرجع سابق، ص 165.

(8) - دفتر تحرير T.D.427، سبق ذكره، ص 100.

كثيرا ما انتشرت محلات الشوائين بالقرب من محلات القصابة فكانت موضع لقاء بين مختلف مكونات المجتمع لتبادل الأحاديث والحوار وعقد الصفقات مع نيل قسط من الراحة ذلك أنه لا توجد أبنية أو ساحات للنشاطات العامة، فانحصرت معظم أوجه النشاط الاجتماعي في داخل الأسواق باستثناء الولائم والمواسم والأعياد<sup>(1)</sup>.

إن ورود معلومات كثيرة عن وجود أشجار الزيتون في معظم مناطق بلاد الشام وبأنواعه المختلفة الروماني والاسلامي، وكذا وجود معاصر الزيت، وذكر أحمال الصابون التي تصدر من بلاد الشام سواء من القدس أو دمشق نحو مصر كلها معلومات تشير إلى مكانة زيت الزيتون في الحياة العامة وفي المطبخ الشامي، فضلا عن كونه جزء من المطبخ المتوسطي، فكان الناس يستخدمونه في طهيهم لما له من فائدة غذائية.

وبما أن بلاد الشام كانت منطقة زراعية فإن الخضروات كانت واسعة الانتشار وحاضرة بكثرة في الطعام باعتبارها منتوجات محلية وبأنواع مختلفة، وللحفاظ على البعض منها مدة أطول بدأت الخضروات المخلفة تكتسب أهمية كبيرة، بل وأن كل منطقة أصبح لها طريقته في التخليل، كما أغرم أهل الشام باستعمال التوابل في أطعمتهم حتى أن أشهر أسواق دمشق مختص في بيع التوابل خاصة الفلفل منها وهو سوق البزورية<sup>(2)</sup>، وكانت أسواقهم تعج بأنواع العقاقير والأعجوة.

#### أ - أنواع الخبز:

انتشرت مطاحن القمح والشعير على مجاري المياه في القرى، لتوفير مادة الدقيق لصناعة الخبز، فكان الحرفيون يصنعون أنواعا من الخبز منها: الطابوني وهو الخبز المخبوز في الطابون الذي هو في الأصل الموضع الذي تدفن فيه الجمار وتحفظ لكيلا تنطفئ، لذا أخذ هذا الخبز اسمه من الفرن، وقد وصف الطبيب الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف هذا النوع بقوله ( إن الخبز الذي يتناولونه هنا جيد ومغذي وأبيض اللون لا سيما في حلب... لذلك فهم يصنعون عدة أشكال من هذا الخبز يمزجون في البعض منه صفار البيض، بينما يمزجون في البعض الآخر عدة حبوب كالسمسم والكزبرة والزعفران وغيرها<sup>(3)</sup>، و"المعروك"

(1) - دفتر تحرير T.D.427، سبق ذكره، ص 165.

(2) - ابن المبرد، نزهة الرفاق في شرح أحوال الأسواق، مصدر سابق، ص 23.

(3) - ليونهارت راوولف، الرحلة، مصدر سابق، ص 101.



وهو نوع من الخبز يعالج بطريقة خاصة حتى يصبح كالإسفنج، والخبز "التنوري"<sup>(1)</sup>، وهو الذي يخبز في التنور.<sup>(2)</sup>

#### ب - أوقات الأكل وطريقة تقديم الطعام:

يتناول المسلمون طعام غداثهم عند حوالي الساعة الحادية عشرة ظهرا في الشتاء، في حين يكون أبكر في فصل الصيف، وتختلف مكونات الوجبة وطريقة تقديمها حسب المستوى المعيشي لأصحابها، وكذا بين سكان المدن والأرياف، فالميسورون عادة تكون طريقة تقديم الطعام كالتالي: تُفرش على المائدة قماشة مستديرة لحماية السجادة وسط الإيوان أو يوضع عليها حامل قابل للطي، أو كرسي صغير لحمل طبق مستدير كبير أو منضدة تكون في بعض الأحيان من الفضة أو من النحاس المطلي بالقصدير، وتُصفّ فوقها عدة أطباق بانتظام تحتوي مخللات وسلطة ولبن وملح، وتوضع قرب الحواف من جميع الجوانب قطع رقيقة من خبز شديد البياض وملاعق خشبية، وهم لا يستعملون سكاكين أو شوكات على المائدة، بل يستعملون أصابعهم بدلا منها، ويكون اللحم مشويا كثيرا، ويتناول كل ضيف طعامه، وإذا كانت كمية الطعام كبيرة جدا، فإن قطع الخبز تحل محل الصحون، وتفرش على الأرض منشفة من الحرير التي يضعها الضيوف فوق ركبهم عندما يجلسون، قبل تناول الطعام يُجلب إبريق وطست لغسل الأيدي ثم يجلس الضيوف على باطن ركبهم وكواحلهم، أما الأطباق فتُجلب وهي مغطاة ويوضع الواحد تلو الآخر في وسط المائدة، ويتكون الطعام عادة من عدة أصناف، حيث يكون الطبق الأول عبارة عن حساء تتلوه أطباق أخرى متنوعة نذكر البعض منها: وضع قطع من لحم الضأن مع قطع من التفاح وتشوى، أو يفرم لحم الضأن ناعما ويعمل بشكل كرات ويشوى ويسمى هذا اللحم كبابا، وتوجد وجبة أخرى مكونة من لحم الضأن مع القرع والجذور والأعشاب ولحم الدجاج والحمام وفي بعض الأحيان طائر السماني، ويتكون المحشي من لحم الضأن المفروم والأرز والفتق الحليبي واللوز والشحم والبهارات والثوم، ويطهى في أشكال متعددة بتعدد الخضار أو الفاكهة المحشوة، من قبيل محشي الباذنجان، والقرع، كما يلف في ورق السلق أو العنب، فضلا عن أنواع أخرى من القشدة والفطائر وأنواع من الحلوة مثل البقلاوة التي تصنع بالعسل أو الدبس وهي

(1) - شرف الدين موسى الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، ج 1، مصدر سابق، ص 173.

(2) - التنور شكل مخروطي من الطين الجاف له فتحة من الأعلى لإدخال الخبز منها وإصاقه على جدران هذا الشكل المخروطي بعد أن يكون الحطب بداخله أصبح جمرا، وبذلك يتم صنع الخبز فيه لذلك يعدونه من أجود أنواع الخبز. محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، ط 1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، 1988. ص 71.

لذيذة وشهية - على حد وصف راسل - أما السمك فنادر ما يتناوله أهل حلب أو دمشق لبعدهم عن البحر، وتقدم في الأخير المرطبات إضافة إلى صحن كبير من الخشاف (وهو عبارة عن تين مجفف أو كشمش "زبيب" أو كرز أو تفاح أو أي نوع من الفاكهة التي تطهى وتترك مغمورة بالسائل وهي تقدم باردة وفي بعض الأحيان مجمدة<sup>(1)</sup>).

أما بالنسبة لموائد الأشخاص العاديين من الطبقات الدنيا فإن الوجبة تكون أقل بكثير، وحتى الأسر المتوسطة الحال يندر أن يقدم أكثر من ثلاثة أو أربعة أطباق توضع كلها دفعة واحدة على المائدة، تكون في غالبيتها لدى الطبقات الدنيا من الخضار، بينما عند متوسطي الحال يستخدم الكثير من الدهون والتوابل والمقبلات إلى جانب الليمون أو الرمان، وبعد الانتهاء تحضر القهوة<sup>(2)</sup>.

أما بالنسبة لأهالي القرى فإن الأسرة القروية في الغالب نجدها تمتلك بقرة أو اثنتين، وزوجاً من الثيران أو الجاموس، وعدداً من الماعز والأغنام والدجاج، وحقلًا تزرع فيه الخضار ومستلزمات البيت، ويحصل القروي على طعامه بوجه عام من الحيوانات التي يقوم بتربيتها، ومن البساتين التي يزرعها، حيث ينتج الحبوب كالقمح والشعير والعدس والأرز، وكذلك البقوليات، أما الغذاء الرئيسي عند أهل القرية فهو الحليب والزبادي وأنواع الجبن، والفاكهة الطازجة والجافة، ولحم الأغنام، وعسل النحل، والجوز وغيرها...<sup>(3)</sup>

أما عن الطريقة التي يقدم بها القروي طعامه، فإن الطبيب الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار المنطقة في النصف الثاني للقرن السادس عشر قدم وصفاً دقيقاً عن كيفية تناول أهل القرى لطعامهم حيث قال: (يتناول الأهالي طعامهم على الأرض، فحين يأذن وقت الطعام تفرش الأرض بقطع من الجلد فوقها الأبسطه والمطارح ثم يجلسون عليها وسيقانهم متقاطعة، وقبل أن يمدّوا أيديهم لتناول الطعام يشكرون الله

(1) - راسل : تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص ص 120 - 121، كامل الغزي، نهر الذهب في أخبار حلب، ج1، مصدر سابق، ص 277.

(2) - راسل، نفسه، ص 122.

(3) - اكمل الدين احسان اوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص 598.

ثم يأكلون ويشربون بسرعة متناهية،<sup>(1)</sup> ولا تتناول النساء الطعام مع الرجال بل بمفردهن، وحين ينتهي الرجال من تناول الطعام ينهضون سوية وبخفة.<sup>(2)</sup>

### 3 - الملبس:

يشمل مصطلح الملبس أو اللباس ما يرتديه الإنسان من كسوة أو ثوب، أو زيّ، إضافة إلى غطاء الرأس، والحلي والزينة، وهذا الجانب يشكل جزء من ثقافة الشعوب وعنصراً أساسياً من عناصر حضارتها، كما يؤشر إلى المستوى الذي وصلته الحضارة المادية وما كانت عليه من نمو اقتصادي وفكري، والحديث عن الشكل العام للألبسة الناس وبالاتماد على ما ورد في كتب الرحالة ومعاجم الألبسة أمكن أخذ فكرة عامة عن اللباس بصفة عامة سواء للبسطاء أو للميسورين وموظفي الدولة، كما أن التسميات والأوصاف لمختلف أنواع الملابس تحتاج إلى وصف دقيق من أجل أن يستطيع أي باحث تكوين صورة واضحة في الأذهان لسبب بسيط هو أن الكثير منها لا يستعمل في الوقت الحاضر، لكن على العموم كان هناك تشابه كبير فيما بين الألبسة في معظم المدن الشامية.

تبين المبيعات المعروضة في الأسواق أو الدكاكين نوعية اللباس الذي يرتديه الناس خلال القرن السادس عشر، حيث ينقل الطبيب الرحالة الهولندي ليونهارت راوول قوله: ( المنسوجات القطنية كالمناديل اليدوية، وعصب الرأس، والأحزمة التي يشدون بها أوساطهم، والطرحات على رؤوسهم).<sup>(3)</sup>

كان لباس معظم الأهالي من الناس فقيرهم وغنيهم، رجالهم ونسائهم هي الشقق التي منها يعمل القفطان<sup>(4)</sup> أو القنايز<sup>(5)</sup>، إلى جانب الشال القطني والحريري والزنانير<sup>(1)</sup> والشملات<sup>(2)</sup> إضافة إلى وضع

(1) - ليونهارت راوولف، رحلة إلى طرابلس ودمشق وحلب، مصدر سابق، ص 104.

(2) - نفسه، ص 105.

(3) - نفس المصدر، ص 88.

(4) - القفطان كلمة فارسية تركية معربة معناها في الفارسية: ثوب من القطن يلبس فوق الدرع؛ ومعناه في التركية جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن، والقفطان لفظة مولدة وتعني ثوب فضفاض سابغ مشقوق المقدم يضم طرفيه حزام ويتخذ من الحرير أو القطن، وتلبس فوقه الجبة. رجب عبد الجواد ابراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، ط 1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002، ص 399.

(5) - وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع وقد تفتن صانعوه في نقشه وصبغه خاصة في دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس ومنها ما هو مصنوع من الحرير أو القطن لذلك فهي غاية في الجمال والمتانة. محمد كرد علي، خطط الشام، ج 4، ط 3، مطبعة النوري، دمشق، 1983، ص 203.

الكوفيات على الرأس، وكانت هي الأخرى مصنوعة من القطن أو الحرير وموشاة بنقوش ورسوم فضية.<sup>(3)</sup>

أما لباس أهل الريف في بلاد الشام فكانت معظم ملابس الفلاحين منسوجة بالصوف أو الشعر أو الجلد لكنهم يزرعون القطن في بعض الأماكن للغزل والحياكة منزلياً<sup>(4)</sup> فنجد الرجل يلبس قميصاً وسراويل من الخام البلدي المطرز، ويلبس فوق القميص صدرية ويلف خصره بحزام من الصوف، ثم يتشح بعباءة<sup>(5)</sup>.

#### أ - لباس الرجل:

يضع الرجال على رؤوسهم أنواعاً من العمامات والكساوي، فمنهم من يضع على رأسه سربوشاً ذو طرة من الحرير أو الكتان أو الغزل، ويعتم فوقه بالشاش المطرز بالحرير الهندي المعروف بالأغباني<sup>(6)</sup>، ويمكن أن نميز من حيث طريقة وضعه بين فئات اجتماعية عديدة، فالتجار وأواسط الناس يلفونه دورين أو ثلاثة، وأما الأصناف الحرفية والبساتنة وبعض الفلاحين فأكثر، ومن هؤلاء من يلف تحت الأغباني شاشاً أبيض أو منديلاً ملوناً لتكبر عمامته، أما الطلبة والعلماء فهم يضعون فوق السربوش شاشاً أبيض ورقيق، وأحياناً نجد البعض الآخر يبدلونه باللون الأخضر أيام الشتاء، في حين أن الشبان من عامة الناس سواء من المسلمين أو النصارى فيضعون فوق السربوش منديلاً أو أكثر تكون ملونة وموشاة،<sup>(7)</sup> وعلى كل؛ هناك العديد من الطرق في وضع السربوش وما يعتم به من الشاش أو المناديل وبألوان مختلفة.<sup>(8)</sup>

(1) - الزنار: هو في الغالب نسائج ملونة من الحرير تصنع لأجل التمنطق بها فقط. رجب عبد الجواد ابراهيم، المرجع السابق، ص 215، بينما يشير الزنار في الأندلس إلى مئزر غليظ يلبسه الفلاحون. رينهاردت دوزي (المستشرق الهولندي)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، ط 1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2012، ص 175.

(2) - المرجع السابق، ص 203.

(3) - نفسه، ص 203.

(4) - (هـ) جب و(هـ) بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ج 1، مرجع سابق، ص 344.

(5) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2003، ص 340.

(6) - يُعرف كذلك بالأغباني: وهو شال يتخذ من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان يوضع على الكتف، أو تلف به الرأس والرقبة في الشتاء. رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، مرجع سابق، ص 340.

(7) - كامل الغزي، نهر الذهب، ج 1، مصدر سابق، ص 286.

(8) - نفس المصدر، ص 287.

أما العمامة فلم يقتصر استعمالها على الرسميين والقضاة والعلماء، إنما ارتداها عامة الأهالي مع اختلاف ألوانها وتنوع خامة صنعها، فهي تتألف من قبعة مستديرة يطلقون عليها اسم قاووق،<sup>(1)</sup> وشاش يلف حولها يكون عادة من (الموسلين) تكون عادة بيضاء اللون وأحيانا خضراء،<sup>(2)</sup> أما عند عامة الناس فالمسلمون والنصارى على حد سواء يرتدون قبعة قماشية صغيرة يلفون حولها شاشا خشنا بشكل فضفاض.<sup>(3)</sup>

أما اليهود فكانوا في هذه الفترة من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي يرتدون على رأسهم قبعات حمراء دون حواف، لكن مع بداية سنة 1009هـ / 1600م أصدر الصدر الأعظم أوامره بإجبارهم على ارتداء القبعات الزرقاء على أن يبقى الشاش أحمر.<sup>(4)</sup>

يرتدي الرجال الفرو والأثواب الصوفية خاصة في الأيام الباردة، لذلك نجدهم يرتدون هذا النوع لمدة تصل إلى ستة أشهر في السنة ليقبهم برد الشتاء القارس الذي يعقب الخريف، ويعتبر الفرو<sup>(5)</sup> اللباس المفضل المفضل لدى أفراد الطبقة الميسورة نظرا لغلاء أسعاره، وعادة يرتدي الرجل منهم ثلاث قطع من الفرو الواحدة فوق الأخرى، تصل الأولى حتى منتصف الفخذ وهو دون أكمام، أما الثانية فتصل إلى منتصف الساق، وهذه لها أكمام قصيرة تصل حتى انحناء الذراع، وتكون فضفاضة على الجسم ويطلق أهل حلب عليها اسم (الجبة)، أما الثالثة فتدعى الفرو أو القرق، وهو ثوب عريض فضفاض ذو أكمام طويلة واسعة،

(1) - وهو: كلمة تركية فارسية دخلت العربية في العصر العثماني وأصل معناها في اللغتين: المجوف الفارغ، والقاووق في العربية من لباس الرأس يشبه القدر ويغطي الرأس، واستعمله الناس في بلاد الشام والمصر والعراق في العهد العثماني. رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة، ص 371.

(2) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 78.

(3) - نفس المصدر، ص 78.

(4) - يوسف نعيمة، يهود دمشق، مرجع سابق، ص 29.

(5) - الفروة كلمة فارسية معربة أصلها في الفارسية: بروه، ومعناها في الفارسية الإزار، اللباس، أما الفراء فهو ثياب تتخذ من جلود بعض الحيوانات تدبغ وتخيظ ولا بد أن يكون عليها وبر أو صوف، والفراء جمع والمفرد فرو وفروة، والفراء على أنواع منها السمور والأزرق والقاوقون والسنباب، ويعتبر السمور أعلاهن وأغلاهن، ويكون الفراء ثيابا من جوخ ونحوه تبطن بجلود بعض الحيوانات. رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص، مرجع سابق، ص 356.

يكون أحيانا ضيقا عند الرسغ ووبرها الذي يكسوها يكون عادة من النوع الباهض الثمن،<sup>(1)</sup> بينما يكتفي الفقراء بفراء الغنم.<sup>(2)</sup>

أما الألبسة التي يرتديها هؤلاء تحت الفرو فهي القميص<sup>(3)</sup> الذي يكون من الحرير أو الكتان ويصل إلى الركبتين، وتكون السراويل من القماش الأبيض في الغالب وكان المسورون يرتدون سراوالا داخليا، وسراوالا من قماش أحمر يساعدهم في ركوب الخيل، بينما نجد ما يرتديه العامة أو أصحاب الحرف الوسخة تكون مصبوغة بالنيل،<sup>(4)</sup> مع الإشارة إلى أن سراويل المسلمين تختلف عن تلك التي يرتديها النصارى أو اليهود من حيث كون الأولى طويلة تصل إلى القدمين، بينما الأخرى عند الركبتين فقط، بينما يتم ستر الساقين بالجوارب.<sup>(5)</sup>

كما يستعملون صدارة تدعى (قنباز) تصل إلى أسفل الركبة، تكون لدى التجار وبعض الخواص لها زوائد ترد على صدر لابسها وتسمى (الرد)، بينما يكون عند العامة من الشبان مفتوح الصدر يسمى (الياقة) وعادة يكون مزودا بأزرار من العنق حتى البطن، حيث يقوم الواحد منهم بشد حزام فوقه يطلق عليه اسم الزنار مصنوع من الشال العجمي أو الهندي، يستخدم لوضع خنجر صغير.<sup>(6)</sup>

كما يوجد ثوب آخر يكون طويلا يصل حتى الكعبين يطلقون عليه اسم الضلماية<sup>(7)</sup> يغطي جميع القطع الأخرى،<sup>(1)</sup> ويفضل شيوخ الاسلام بالخصوص أن تكون واسعة عريضة الأكمام، بينما يفضلها أصحاب الحرف الشاقة والبساتنة أن تكون ضيقة قصيرة الأكمام يصل طولها إلى ما دون الركب.<sup>(2)</sup>

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 74.

(2) - كامل الغزي، نهر الذهب، مصدر سابق، ص 288 - 289.

(3) - القميص: يذكر المستشرق الهولندي (رينهارت دوزي) أن الشرقيين يلبسون القميص فوق السراوال وليس تحت السراوال كما هي عادة الأوروبيين، و قميص الرجال مصنوع من التيل أو من الكتان، أو من القطن، أو الشاش الموصلي، أو من الحرير أو من الحرير والقطن المخططين، لكن هذه القمصان كلها بيضاء لا تشوبها ألوان أخرى، أما قمصان النساء فمشغولة من الحرير، ومن القطن الرفيع الخيوط للغاية. المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، مصدر سابق، ص 328 - 329.

(4) - كامل الغزي، مصدر سابق، ص 287.

(5) - نفس المصدر، ص 288.

(6) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 78.

(7) - الضلماية أو الضلمة: كلمة تركية معربة وأصلها في التركية طولامة؛ وهي تعني لباس قديم مفتوح من أمام يشبه الجبة كان يصنع من الجوخ ويلبسه الرجال والنساء، وتُضم حاشيتا الفتحة فوق الصدر والكمات واسعان متموجان، ونصف الضلمة الأعلى

وما تجدر الإشارة إليه أن العلماء والفقهاء اختصوا عن غيرهم بلبس اللون الأبيض حتى أن أرديتهم الشتوية الفوقانية نسجت من الصوف الأبيض، غير أن اليهود والنصارى يرتدون لباسا مغايرا لما يرتديه المسلمون.<sup>(3)</sup>

اعتنى الشاميون بلباسهم وأحذيتهم، ووجدت أسواق مخصصة للأساكفة والخفافين (الذين يبيعون الحذاء الخف) في ودمشق وحلب<sup>(4)</sup> وحماة حيث يصنعون الأحذية ويصلحونها<sup>(5)</sup> وكان أكثر ما يستخدمون (البابوج).<sup>(6)</sup>

## ب - لباس المرأة:

أما لباس المرأة فهو يشبه كثيرا لباس الرجل كالسراويل والقمصان، مع فروق طفيفة فالقمصان مصنوعة من قماش الحرير الناعم تتدلى حتى القدمين وتضع ثلاث أحزمة مطرزة<sup>(7)</sup> وتتجلب بملاءة سوداء غزلية كثيفة تضعها على رأسها مسدلة أياها حتى القدمين دون أن تشدها من وسطها، وتضع على وجهها منديلا رقيقا شفافا.<sup>(8)</sup>

ضيق ونصفها الأسفل واسع، أما الضلعة النسائية فتجاوز الركبة قليلا إلى أسفلا، لكن الضلعة التي كان يلبسها الانكشارية والخاصكية طويلة، ويشد على وسطها حزام مخطط، وكان الانكشارية يلبسون فوق الضلعة القبوط أو معطف المطر، وهناك نوع من الضلعة يعرف بالضلعة المربعة، وهذا النوع خاص برجال البريد، ولما كان معظم هؤلاء من التتار فكانت تعرف باسم ضلعة التتار. رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص، مرجع سابق، ص 295.

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 74 - 77.

(2) - كامل الغزي، نهر الذهب، ج 1، مصدر سابق، ص 288.

(3) - المصدر السابق، ص 78.

(4) - كانت في حلب طائفتان حرفيتان مختصتان في صنع وبيع الحذاء الخف منقسمتان حسب هوية أفرادهما، إحداهما للخفافين الأروام (أي الأتراك)، والثانية من أبناء العرب. عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 4، أبريل 1981، ص 43.

(5) - عبد الودود محمد يوسف يرغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حلب في القرن السادس عشر"، مرجع سابق، ص 97.

(6) - كلمة من أصل فارسي تشير إلى ما يرتديه الرجال أو النساء في أرجلهم في القرن السادس عشر سواء البدو أو سكان الحضر، في فصل الشتاء وهي مصنوعة من الجلد. دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، مصدر سابق، ص 51 - 52.

(7) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 81.

(8) - Laurent d'Arvieux, Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du roy à la porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres échelles du levant. Tome sixième, p 426.

يقول الفارس دارفيو في معرض حديثه عن نساء حلب: "إنهن يرتدين سراويلات طويلة مثل الرجال، ويلبسن فوقها قميصا طويلا عريضا من الشاش الموصل المخطط المرقط، أو من نسيج آخر، لا يختلف في شيء عن نسيج أقمشة قمصان الرجال"<sup>(1)</sup>، ويضيف الفارس دارفيو في زيارته لحلب أن "النسوة الحليات كن يلبسن قطنسوة مصنوعة من الورق المقوى متساوية الأطراف لها بطانة من قماش رقيق مصبوغ بلون من الألوان ولها ظهارة من قماش حريري أو قطني".<sup>(2)</sup>

كما أن النساء مولعات بوضع الأقراط والأساور الذهبية حول الرسغ، وخلخال حول الكاحل، وقلادة قريبة من الشعر على الجبين، وأخرى طويلة حول الجسم، أما الخواتم حول أصابع اليد فهي شائعة لدى الجنسين<sup>(3)</sup>.

يذكر الطبيب الإنجليزي (ألكسندر راسل) أن أهل الشام ليسوا ميالين إلى الموضة، لذلك فما كان يرتديه الناس في القرن الثامن عشر عندما كان يمارس مهنته كطبيب في حلب هو نفسه تقريبا ما كان سائدا في الأزمنة القريبة منه<sup>(4)</sup>.

تضع النسوة في أرجلهن حينما يخرجن من البيت أحذية عالية صفراء رقيقة تصل حتى الساق، ويرتدين فوقها بابوجا أصفر أو خفا، بينما في الطقس الماطر فيحل القبقاب الخشبي محل الخف<sup>(5)</sup>.

#### 4 - البيت الشامي:

اختلفت البيوت في بلاد الشام خلال فترة الدراسة من بيت لآخر من حيث هندسة البناء، وأقسامه المختلفة، لكن في الغالب نجدها تشترك في بعض العناصر، فهي بشكل عام من حيث مواد البناء قد اتفقت في معظمها على الاعتماد على الحجر والجير<sup>(6)</sup>، وإن كان الحجر مقتصرًا في الغالب على القادرين على نقله

(1)- ibid, pp 426-425.

(2)- ibid, p426.

(3) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 81.

(4) - نفسه، ص 82.

(5) - نفسه، ص 84.

(6) - ح2، مؤرخة في 3 ذو الحجة 1081هـ / 13 - 3 - 1671م، سجل 173، ج1، سبق ذكره، ص 159.



وتشديده،<sup>(1)</sup> وبسبب ارتفاع تكاليف الحجر كان الطين المادة المنافسة في البناء على الرغم من فارق الصلابة والمتانة، لكن توفره المجاني جعل منه حلاً أمثل لعامة الناس، وللطين شكلان في العمارة: "اللبن"<sup>(2)</sup> وهو مكعبات تجفف في الشمس أو "الدك" الذي يصب في قوالب خشبية كبيرة، وأحياناً يكون البيت خليطاً من الحجر والطين بحسب الحالة المادية للشخص صاحب البيت، أما الأسقف فكانت لجميع الأبنية من جذوع خشبية طويلة تسمى "السواميك" ترتكز عليها عوارض من الخشب ويوضع فوقها حصير من القصب ويعلوها تراب، أما الجدران فهي تغطي بطبقة من الطين المزوج بالطين ويطلق عليها اسم (التسيعة: أي يجبل التراب مع التبن والماء ويمد على جدران اللبن والدك لحفظها من التآكل وبفعل العوامل الجوية في الشتاء.<sup>(3)</sup>

ويمكن العودة إلى سجلات المحاكم الشرعية<sup>(4)</sup> أو لما سجله الرحالة الأجانب الذين زاروا بلاد الشام خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي<sup>(5)</sup> لرسم صورة مقربة للبيت في بلاد الشام بشكل عام.<sup>(6)</sup>

(1) - تشتهر مدينة حمص بوجود مقالع للحجر الأسود الذي يجلب من منطقة الوعر التي تبعد عنها بنحو خمسة كيلومترات وهو من النوع البركاني الأزرق الذي يميل إلى السواد. محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص اليومية (1100 - 1136هـ / 1688 - 1723م)، مصدر سابق، ص 220.

(2) - Arvieux Laurent d', Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli et autres Echelles du Levant, Tome second, op cit, p447.

(3) - المصدر السابق، ص 220.

(4) - اعتمدنا بشكل أساسي على السجلين رقم 172 و 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية اللذين يعودان إلى سنة 1081 - 1083 هـ / 1670 - 1672م، الصادرين سنة 2014 و 2017 عن عمادة البحث العلمي من جامعة القدس المفتوحة.

(5) - أزار الفارس دارفيو الفرنسي دمشق في منتصف القرن السابع عشر أي نحو 1660م.

Arvieux Laurent d', Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli et autres Echelles du Levant, Tome second, op cit.

(6) - يتشابه البيت الشامي إلى حد ما بما هو موجود في بعض مناطق الأناضول و شمال افريقيا، حيث يتميز بوجود الفناء الداخلي الذي لا يمكن رؤيته من الشارع وهو مغطى بأسوار دون نوافذ، وللحفاظ على الخصوصية يتم استخدام الطابق العلوي للسكن والطابق الأرضي للخدمة وهذا بالنسبة للميسورين، أما الفقراء فعادة ما يشتركون في فناء مركزي حوله البيوت، وتكون الخصوصية هنا داخل المسكن فقط. خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 260.

### أ - أقسام البيت :

يتألف البيت الشامي عادة من طابقين: علوي وسفلي،<sup>(1)</sup> ساحة مكشوفة<sup>(2)</sup> أو حوش سماوي<sup>(3)</sup> أو أكثر،<sup>(4)</sup> فيه بعض الأشجار،<sup>(5)</sup> وكثيرا ما تتوسطه بركة ماء أو بئر، وبعض البيوت نجد بها صهاريج تستغل لجمع ما الأشتية،<sup>(6)</sup> وساحة البيت مبلطة بالحجر المنحوت، ومنها ما هو بدون بلاط في الدور الفقيرة، ويحيط سور بهذه الساحة، أما الغرف والبيوت فتتواجد بأطراف البيت، تبدأ بقبو يكون منخفضا عن سطح البيت أو الساحة، وهو مخصص بشكل عام للحيوانات الأليفة سواء الأحصنة إذا كان البيت لأحد الوجهاء أو نوع آخر من الماشية للبسطاء من الناس،<sup>(7)</sup> ويوجد في بعض البيوت مكان يطلق عليه اسم اسم " العلية" وهي غرفة علوية في الدار تبنى فوق البيوت الأرضية وغالبا ما تكون أصغر من الغرف المعتادة، وتسمى "الطيارة" عندما تكون لها نوافذ من معظم جهاتها،<sup>(8)</sup> أما في بيوت الأغنياء والوجهاء فعادة ما تكون هناك قاعة كبيرة فوق القبو مفروشة بالبلاط العادي أو المرخم تحوي إيوانا أو أكثر مفروش بالبلاط أيضا، تشمل مخادع تتفاوت في صغرها وكبرها حسب كبر القاعة<sup>(9)</sup> والإيوان،<sup>(10)</sup> أما المطبخ<sup>(11)</sup>

(1) - بعض البيوت يتعرض طابقها العلوي للهدم بفعل تعرضه للعوامل الخارجية، لذلك يكون الطابق السفلي الذي يحوي عادة على بيوت للسكن. حجة 2، مؤرخة في 27 ذو الحجة سنة 1081هـ / 6- 5- 1671م، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 181.

(2) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: " تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989 هـ / 1581م"، مرجع سابق، ص 72.

(3) - حجة 2، مؤرخة في 3 ذو الحجة 1081هـ / 13- 3- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 159.

(4) - تم شراء دار في محلة باب حطة بالقدس الشريف تحتوي على ساحتين سماويتين. حجة 2، مؤرخة في 25 صفر 1082هـ / 2- 1082هـ / 2- 7- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 332.

(5) - حجة 2، مؤرخة في 4 صفر 1082هـ / 11- 6- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 283.

(6) - حجة 2، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 181؛ حجة 1، سجل 173؛ ج 1، ص 131؛ ح 1، مؤرخة في 13 ربيع الثاني 1082 / 18- 8- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 443.

(7) - حجة 2، مؤرخة في 25 صفر 1082هـ / 2- 7- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 332، ح 1، مؤرخة في 20 شعبان 1082هـ / 21- 12- 1671م، سجل 173، ج 2، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 233.

(8) - محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص اليومية، مصدر سابق، ص 97.

(9) - يفضل أهل حمص أن تكون " القاعة" غرفة كبيرة تتجه نوافذها نحو الجنوب لتستقبل شمس الشتاء وهي بذلك بمثابة المقر الشتوي لإقامة الأسرة وغالبا يكون سقفها على شكل قبة، نفس المصدر، ص 201.

(10) - عادة ما يكون الإيوان مع البيوت في الطابق العلوي والذي يمكن الوصول إليه بسلم حجري. حجة 2، مؤرخة في 3 ذو الحجة 1081هـ / 13- 3- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 159.

(11) - حجة 2، مؤرخة في 4 صفر 1082هـ / 11- 6- 1671م، سجل 173، ج 1، ص 283.

فيقوم بجوار الإيوان، وتستبدل هذه الأواوين في الدور الفقيرة بالغرف الصغيرة،<sup>(1)</sup> عادة ما يتم ربط الغرف والأواوين بدهاليز مسقوفة<sup>(2)</sup> بها شبابيك مغطاة بشبك الحديد أو من عيدان الخشب المشبك<sup>(3)</sup> تطل على صحن الدار أو الساحة، غير أنها لا نجد لها تطل على الشارع إلا نادرا وتكون مغطاة بمحاجز عيدان الخشب المشبك، في حين كانت الأبواب من الخشب أو من الحديد.<sup>(4)</sup>

تكون الأسطح الخاصة بالبيوت في معظمها مستوية ( ما عدا المقبب منها ) وتكون مطلية بمزيج من الملاط والقار والرماد والرمل الذي يصبح مع مرور الوقت شديد الصلابة، بشرط أن يتم طلاؤها في الموسم المناسب وإلا تعرضت شتاء إلى التشقق، ويتم فصل هذه الأسطح بمحاجز من الجدران، حيث تكون صيفا مكانا لنوم معظم الناس بسبب ارتفاع درجة الحرارة، ولا يتواصل السكان عبر هذه الأسطح، بل بالعكس فإذا كانت الأسطح مكشوفة فيتم رفعها إلى الأعلى<sup>(5)</sup>، أما الطابق السفلي لهذه الدور فكثيرا ما يكون عبارة عن حوانيت تستعمل في الصناعة أو التجارة<sup>(6)</sup> على الرغم مما هو قائم من فصل بين المناطق السكنية والأسواق.<sup>(7)</sup>

(1) - يذكر الخانقاه أن أهالي حمص يخصصون غرفة تكون مفتوحة على باحة البيت بإزالة جدارها الشمالي ويسمونها "الإيوان" وكانت المكان المفضل للأسرة في فصل الصيف . حوادث حمص اليومية، مصدر سابق، ص 201.

(2) - حجة 2، مؤرخة في 27 ذو الحجة 1081 هـ / 6 - 5 - 1671م، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 181.

(3) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "تاريخ حماة" مرجع سابق، ص 73.

(4) - حجة 1، مؤرخة في أواخر ذي الحجة 1081 هـ 8 - 5 - 1671م، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 131.

(5) - يعتبر السكان بأن القفز على هذه الجدران لا يقل عن السطو على المنزل بحد ذاته، كما أن إقدام الأشخاص على الإطلال سواء سواء كانوا على السطح نفسه أو على سطح مجاور يعد أمرا بعيدا عن الشهامة. راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 41.

(6) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "تاريخ حماة" مرجع سابق، ص 72 - 73.

(7) - من المؤشرات التي توحى بمدى وجود علاقات اجتماعية هو مسألة تشكيل المناطق السكنية والميزة الأساسية هنا هو أن الدكاكين الدكاكين والأسواق سواء كانت مغطاة أو مفتوحة تخلى من الناس ليلا باستثناء عدد محدود من العابرين الذين يقيمون في الخانات بمعنى أن مناطق النشاطات مفصولة عن الأحياء السكنية وهذا الاجراء لم يمنع وجود بعض الدكاكين الصغيرة التي تتبع الحاجات اليومية مثل البقالة و المخازن. خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 260.

أما في الريف فإن الدور التي تملكها أسر فلاحية نجدها مكونة من: بيت للسكن، واسطبل، ومخزن للحبوب تبني بالطين والخشب.<sup>(1)</sup>

يختلف ثمن البيوت حسب موقعها وحسب ما تتضمنه من بنايات و لواحق، ففي حماة -مثلا - وخلال أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي؛ كان ثمن البيت يتراوح ما بين ثمانية إلى عشر سلطانيات ويمكن أن تصل إلى مائة وثمانين سلطانية،<sup>(2)</sup> وفي أواخر القرن 11هـ / 17م بلغ ثمن بيت بالقدس الشريف يشتمل على مطبخ وساحة سماوية بها ثلاثة أشجار وصهريج معد لجمع ماء الأشتية سبعون غرشا.<sup>(3)</sup>

### -أنواع المباني السكنية:

يمكن تصنيف بيوت السكن إلى ثلاث فئات، الأولى: السرايات أو القصور، الثانية: بيوت التجار الأغنياء، والثالثة: بيوت الطبقة المتوسطة والناس العاديين.

على الرغم من أننا في الأساس نحاول إلقاء الضوء عموما على البيوت والتي تتشابه إلى حد ما بما هو موجود في القاهرة حسب الملاحظات التي أبدتها الرحالة الفرنسي بيير بولون (Pierre Belon) أثناء مروره بدمشق قادما إليها من القاهرة<sup>(4)</sup> إلا أن هناك اختلافا واضحا بين ما هو مخصص لإقامة الوالي وبين ما هو مخصص لعموم الناس، لكن لا بأس لأخذ فكرة ولو بشكل موجز عن الدور التي يقيم فيها البكركي أو السنجق بكي، فالسراي التي يقيم فيها البكركي (الباشا) تقع عادة بالقرب من القلعة وهي في الغالب عبارة عن بناء واسع جدا و يحيط بها جدار متين يكون عادة مرتفع، كما يوجد في باحاته مساكن الجنود واسطبلات الخيول وساحة كبيرة للألعاب، وإضافة إلى هذا السراي أنشأ الولاة لأنفسهم مباني جديدة في حجم السراي،<sup>(5)</sup> بينما كان السنجق بكي يقيم في دور أقل من السراي، ففي سنجق حماة كان كبار رجال

(1) - (هـ) جب و(هـ) بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، مرجع سابق، ص344.

(2) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "تاريخ حماة" مرجع سابق، ص74.

(3) - ح2، مؤرخة في 4 صفر 1082هـ / 11- 6- 1671م، سجل 173، ج1، ص283.

<sup>4</sup> Belon de mans, les observations de plusieurs singularites et choses mémorables, traversées en grèce,Asie, Inde, Egypte, Arabie et autres pays étrangères, Paris 1555, page 339.

(5) - كانت بمدينة حلب منذ أواخر القرن السابع عشر ما بين خمس أو ست من السرايات. الأخوين راسل: تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص37.

حماة وحكامها يقيمون في دار الإبراهيمية في محلة باب حمص بالقرب من مسجد العلا،<sup>(1)</sup> ويبدو السراي من بعيد مثل كتلة ضخمة من الأبنية غير المتناسقة وعلى الرغم من ذلك يبقى جمالها<sup>(2)</sup> وتكيفها مع الظروف المناخية واضحا جدا.<sup>(3)</sup>

## ب - 1 - بيوت المسلمين:

يمكن تصوّر التدرج في بيوت المسلمين انطلاقا من متوسطي الحال حتى نتمكن من وضع تصور لبيوت الطبقة الميسورة مثل التجار والطبقة الدنيا المتواضعة، حيث يلاحظ بأن بيوت التجار نادرا ما يكون فيها باحة غير مرصوفة، ويكون المدخل من الزقاق مباشرة بواسطة باب كبير، وتكون الشقق الخارجية صغيرة ومؤثثة ببساطة وأناقة وتستخدم لاستقبال الزوار الأقارب في الصباح أو عند المساء وفي المناسبات الخاصة، ونادرا ما يكون بهذه البيوت أكثر من باحة واحدة، إلا أن الكثير منها يوجد به قاعة، بينما تحوي كلها إيوانا وحديقة صغيرة أو بركة أمامها،<sup>(4)</sup> بينما غرف السكن تكون في عمومها مقبولة من حيث التهوية والنظافة،<sup>(5)</sup> أما أدنى هذه البيوت وأكثرها تواضعا نادرا ما تكون بدون إيوان، ويوجد فيها على الأقل بضع شجيرات مزروعة في الباحة، وتكون أفضل البيوت مطلية بصورة سيئة ويزين السقف بأدوات نحاسية بدلا من الخزف الصيني.<sup>(6)</sup>

## ب - 2 - بيوت النصارى:

(1) - عبد الودود يوسف برغوث: "تاريخ حماة"، مرجع سابق، ص 69.

(2) - إن زخرفة السقوف بالحصص في الإيوان والغرف وقسم الحريم، إضافة إلى نافورة المياه من المكونات الأساسية للسراي. راسل،

تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 38.

(3) - نفسه، ص 37.

(4) - وصف الرحالة الفرنسي الفارس دارفيو الذي زار دمشق في منتصف القرن السابع عشر أي نحو 1660م دور دمشق المبنية في غالبيتها العظمى باللبن، بأنها تبدو هزيلة الحجم من الخارج، لكنها في الداخل مختلفة تماما، إذ أن الشقق فيها كبيرة وجيدة التخطيط، كما أنها أنيقة وحسنة التأثيث خاصة بالمفروشات، أما مظهرها فهي مليسة ومزخرفة ومزدانة بالرسوم وفق الطابع المحلي، ومن النادر جدا أن تكون هناك دار بدون نافورة ماء في وسطها، مما يضفي عليها رونقا ويوفر الرفاهية لساكنيها.

Arvieux Laurent d', Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli et autres Echelles du Levant, Tome second, Paris, p447 .

(5) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 40.

(6) - نفسه، نفس المكان .

تتألف بيوت النصارى من الطبقة الراقية من باحة واحدة تشبه الحرم ملك في بيوت التجار المسلمين بينما القليل منها فقط من بها باحة خارجية أو مكان منفصل للنساء، ما عدا البيوت التي بنيت في الأصل لأحد المسلمين، أما مداخل البيوت فلا يوجد اختلاف بينها لدى المسلمين والمسيحيين، إلا أنه للكثير من البيوت القديمة باب منخفض وصغير جدا لا يتناسب مع البهاء والعظمة الذي يمكن إيجاده داخل البيوت، وعموما كانت البيوت رحبة وبها حجرات جميلة ومؤثثة بثناء، في حين لا يكاد يُرى فرق بين بيوت الطبقة الدنيا من المسيحيين وبين بيوت المسلمين، إلا أنها أكثر تميزا من حيث أناقتها.<sup>(1)</sup>

### ب3 - بيوت اليهود:

يملك اليهود الأوروبيون بيوتا مشيدة على الطريقة الشرقية وهي نظيفة،<sup>(2)</sup> أما اليهود المحليون فلا يهتمون بمسألة النظافة في بيوتهم رغم أن العديد منهم يملك بيوتا كبيرة وجميلة، أما الطبقة الدنيا منهم فتعيش حياة بائسة والكثير من بيوت أصحاب هذه الطبقة في حالة متداعية ويكون مستوى هذه البيوت منخفضا عن مستوى الشارع بكثير، وكثيرا ما تعرضت بيوت عدد آخر من اليهود إلى انبعاث الروائح الكثيرة من خندق المدينة كما هو الحال لحلب، وبما أن جميع هذه البيوت مكتظة بالسكان فهم يهملون النظافة إلى درجة تثير الاشمئزاز بحيث تصبح هذه الأماكن مرتعا لكثير من الأمراض المعدية.<sup>(3)</sup>

كما يوجد نوع من الأبنية السكنية المخصصة للطبقات الأدنى من الغرباء كالبندو والأكراد أو مسلمين آخرين من أصل أجنبي، والمسيحيين الأرمن تدعى "قيسارية"، وهي أرض واسعة يحيط بها عدد من البيوت الوضيعة المنخفضة يتألف كل منها من غرفتين أو ثلاث غرف، وتكون الأرض مشتركة بين جميع السكان ومرصوفة بغير انتظام، ما عدا الأرض الواقعة أمام البيوت التي تغرس فيها بعض الشجيرات، ولا يوجد بركة ماء بل توجد عدة آبار، وتتنوع على أطراف مدينة حلب العديد من هذه القيساريات.<sup>(4)</sup>

أما بيوت الفلاحين في الريف فإنها في معظمها مبنية بالطوب، حيث يوضع لوحان من الخشب بشكل طولي متواز طولاً ولوحان صغيران آخران بشكل عرضي ليتشكل قالب مقفل الجوانب تستند قاعدته إلى

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق.

(2) - نفسه، نفس المكان.

(3) - نفسه، ص 41.

(4) - نفسه، ص 49.

الأرض، ويملاّ القلب بالتراب والحصى الممزوجين بالماء ويضغط المزيج بعد ذلك بمدقة من خشب حتى يصبح كتلة واحدة، بعدها يتم رفع القلب وتكرر العملية دواليك.<sup>(1)</sup>

تُعرف منازل القرية بأسماء أهلها، وفي بعض الأحيان تشتهر بأسماء ملاكها السابقين، أما في الحواضر فإن حجج بيع وشراء المنازل التي تتم بموجب وثيقة لدى القاضي تشير إلى أن لكل منزل حدود معروفة يتم من خلالها الاستدلال عليها أو التعرف إليها<sup>(2)</sup>، بعضها بجانب الطريق السالك<sup>(3)</sup>، أو بجانب طريق صغير أو زقاق<sup>(4)</sup>، أو قرب معصرة أو جامع أو خانقاه<sup>(5)</sup>، أو أرض كرم<sup>(6)</sup> أو حاكورة<sup>(7)</sup>، أو بجوار بجوار منازل لأناس آخرين من الملاك المعروفين.<sup>(8)</sup>

### ج - أثاث البيت :

أما أثاث البيت فلم تكن الأثاثات المنزلية الحديثة موجودة فكان الناس يضعون ثيابهم في حقائب من الجلد أو صناديق من الخشب<sup>(9)</sup>، وتشير سجلات المحكمة الشرعية من خلال دفاتر ضبط متروكات المتوفية<sup>(10)</sup> على أنه يتكون من: زربية ومخدة ولحاف، وطاسة نحاس، وصحن نحاس، علبة لباس،

(1) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، دراسة اقتصادية واجتماعية، مرجع سابق، ص 330.

(2) - حددت حجة شرعية خاصة يشراء دار في محلة بالب حطة بالقدس الشريف موقعها بدقة: "يحدها قبلة دار القيادة، وشرقا الدار المزبورة، وشمالا دار الداجوني، وغربا الطريق السالك..." حجة 3، مؤرخة في 19 جمادى الآخرة 1082هـ / 22 - 10 - 1671م، سجل رقم 173، ج2، ص 117.

(3) - حجة 1، مؤرخة في 10 جمادى الثاني سنة 1081هـ / 13 - 10 - 1671م، سجل 173، ج2، ص 105.

(4) - حجة 2، مؤرخة في 11 رجب 1082هـ / 12 - 11 - 1671م، سجل 173، ج2، ص 155.

(5) - حجة 2، مؤرخة في 14 رجب 1082هـ / 15 - 11 - 1671م، سجل 173، ج2، ص 157.

(6) - حجة 2، مؤرخة في 15 رمضان 1082هـ / 14 - 1 - 1672م، سجل 173، ج2، ص 272.

(7) - حجة 1، مؤرخة في 12 شعبان 1082هـ / 13 - 12 - 1671م، سجل 173، ج2، ص 217 - 218.

(8) - تم شراء دار بمحلة النصارى بالقدس الشريف يحدها من جهة القبلة: دار الحاج عمر بن نمر، وشرقا: دار عبد الرحيم الشهير بالسلمونة اللدي، وشمالا: دار صالح النصراني. حجة 3، مؤرخة في 18 رجب 1082هـ / 19 - 11 - 1671م، سجل 173، ج2، ص 166.

(9) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، مرجع سابق، ص 599.

(10) - الحجج الشرعية الخاصة بضبط متروكات المتوفى كانت للنساء أكثر مما هو للرجال، والتي تشير إلى أثاث المنزل التي تركها الميت وهي عادة جزء من جهاز المرأة عند زواجها، أنظر:

J-P. Pascual ;Meubles et Objets domestiques quotidiens des intérieurs Damascains du XVIIe siècle.in Revue du monde musulman et de la mediterrannée. N° 55-56.1990, p200.



جرة<sup>(1)</sup> إضافة إلى الزبادي القاشاني<sup>(2)</sup> والفناجين القاشاني والصحون القاشاني<sup>(3)</sup>، لوازم حمام، ستار، ستار، قفة، مرآة، ابريق نحاس، مقص<sup>(4)</sup> تنجرة نحاس، سطل نحاس<sup>(5)</sup>.

## 5 - القهوة والمقاهي:

البحث في أنواع التسلية يقودنا إلى عرض ظاهرة برزت مع بداية العهد العثماني في بلاد الشام ألا وهي القهوة والقهواوي، وما صاحب ظهورها من جدل فقهي رافق دخولها مدينة دمشق، مع محاولة إلقاء نظرة على جانب التسلية فيها، ومدى مراقبة السلطة المركزية لبعض المظاهر السلبية التي رافقت ظهورها والموقف الصارم الذي اتخذته ضد المخالفين لتعليماتها.

تزامن دخول بلاد الشام تحت الحكم العثماني بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي مع وصول مشروب جديد غير معروف في المنطقة وهو القهوة التي عرفت انتشارا سريعا في المجتمع وسط جدل شديد بين الفقهاء بين مؤيد لها ومعارض، محدثة بذلك حركية فكرية ثقافية، وسلوكيات اجتماعية جديدة مع ظهور المحلات التي تقدم مشروب القهوة، وما تبعها من تحول هذه المقاهي أو القهواوي إلى مراكز للتجمع وللتسلية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ابتدع شرب القهوة بادئ الأمر باليمن في أواخر القرن التاسع الهجري، ثم انتشر استخدام البن كثيرا في القرن العاشر الهجري، حيث امتد إلى مصر والحجاز من خلال المتصوفة الذين شربوا القهوة عند قيامهم بالذكر، وما لبث شرب القهوة أن عمّ باقي الولايات من الدولة العثمانية، فأصبحت القهوة قضية عثمانية وإسلامية عامة وليست قضية محلية فقط<sup>(6)</sup>، فانتقلت هذه العادة من مصر إلى الشام ثم اسطنبول، التي تم

(1) - حجة 3، مؤرخة في أواخر ربيع الأول 1081هـ / 15 - 8 - 1670، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية، ص 106.

(2) - القشاني نسبة إلى مدينة قاشان الإيرانية حيث ظهرت صناعة ألواح الخزف منذ القرن الثالث عشر الميلادي وانتقلت إلى آسيا الصغرى ثم عم بلاد الشام ومدينة إزنيق التركية خلال القرنين 16 و 17م، وتقوم صناعة الخزف القاشاني على الرسم تحت الطلاء مع استخدام اللون الأزرق الزهري والأخضر والأصفر والأحمر، من أبرز نماذج استخدام القاشاني نجد جداريات قصر توب قابي في اسطنبول. عفيف بهنسي: "القاشاني الدمشقي: مقدمة في صناعة الخزف في دمشق"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 38 - 39، 1988 - 1989، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ص 14 - 15.

(3) - حجة 1، مؤرخة في أواخر ربيع الأول 1081هـ / 15 - 6 - 1670م، سجل 173، ج 1، ص 105.

(4) - حجة 2، مؤرخة في 15 ربيع الثاني 1081هـ / 1 - 8 - 1670، سجل 173، ج 1، ص 104.

(5) - حجة 2، مؤرخة في أواسط ربيع الأول 1082هـ / 20 - 8 - 1671م، سجل 173، ج 1، ص 440.

(6) - محمد.م الأرنؤوط، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، ط 1، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2012، ص 37.



بها افتتاح أول محلين لتقديم القهوة عام 1554م، وكان صاحباهما من الشام، حيث جاء الأول من حلب والآخر من دمشق<sup>(1)</sup>، فقد وصف الرحالة الهولندي مشروب القهوة بعد زيارته بلاد الشام في النصف الثاني للقرن السادس عشر (1573 - 1575م) بأنه: (شراب حسن جدا، وهو مفيد جدا للمرض، ولا سيما أمراض المعدة، وهم يشربونه في الصباح الباكر وفي أماكن مفتوحة دون أدنى خوف أو اعتبار، وهم يصبّونه في أقداح صينية، وبأعلى حرارة ممكنة حيث يرشفونه بين آونة وأخرى، وفي هذا الماء ثمرة يدعونها البن)<sup>(2)</sup>.

انتشرت عادة تناول مشروب القهوة في دمشق عبر المتصوفين الدمشقيين الذين زاروا القاهرة إبان النصف الأول من القرن السادس عشر، وقابلوا فيها أشخاصاً اعتادوا شربها، وخصوصاً من متصوفي اليمن أو ممن جاء من الحجاز<sup>(3)</sup>، واستناداً إلى المؤرخ الدمشقي المعاصر نجم الدين الغزي (ت 1061هـ / 1651م) يبدو أن القهوة أصبحت تشرب خارج البيوت في دمشق حوالي سنة 948هـ / 1540م وهذا في معرض حديثه عن الشيخ علي بن محمد الشامي الذي كان قد ذهب إلى الأناضول وعاد أخيراً إلى الشام في سنة 947هـ / 1539م، حيث يذكر الغزي أن الشامي "قد أشهر شرب القهوة، فاقتدى به الناس وكثرت من يومئذ حوانيتها"<sup>(4)</sup>، مما أدى إلى انتشار ظاهرة القهاوي في دمشق انتشاراً واسعاً، حتى أنها أصبحت في وقت قصير جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية للمدينة، بل وأصبحت منذ ذلك الحين فضاء مهماً للحياة الاجتماعية الذكورية ليس في دمشق وحدها وإنما في حلب أيضاً أين اكتست أهمية اجتماعية توازي أهمية الحمامات.<sup>(5)</sup>

(1) - نللي حنا، تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار، ترجمة وتقديم: رؤوف عباس، العنوان الأصلي: Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'il Abu Taqiyya, Dr.Nelly Hanna, Publisher/ Syracuse Univirsity Press May 1, 1998، ص 115.

(2) - ليونهارت راوولف، رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف إلى طرابلس - دمشق - حلب - الرقة - دير الزور - بغداد - عانة - الفلوجة - هيت - كركوك - أربيل، مصدر سابق، ص 97.

(3) - يروي في هذا الخصوص المؤرخ نجم الدين الغزي أن الشيخ سعد الدين علي بن محمد بن عراق جلب في عام 1540م [947هـ] حبوب القهوة من الأراضي المقدسة إلى دمشق، وأشهر شرب القهوة بدمشق فاقتدى به الناس وكثرت من يومئذ حوانيتها. نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة في أعيان القرن العاشرة، ج 2، مصدر سابق، ص 198.

(4) - نفسه، نفس المكان.

(5) - راندي ديغوليهيم: "القهوة في دمشق ورسالة الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي" ترجمة محمد وليد حافظ، مجلة التراث العربي مج 17، العدد 67، اتحاد المؤرخين العرب، دمشق، ماي 1997، ص 38 - 39.

#### أ - الجدل حول القهوة بين الفقهاء:

أثار انتشار شرب القهوة جدلاً حاداً بين أنصار ومعارض القهوة، مع تركيز أنصارها على ربطها بالبن تميزاً لها عن القهوة القديمة التي تعني الحمرة<sup>(1)</sup>.

وقد تأرجح الموضوع منذ البداية بين التحليل والتحريم، حيث نادى قاضي حلب الشيخ محمد بن عبد الأول الحسيني بمنع شرب القهوة على الوجه المحرم، ثم انضم إلى الشيوخ الذين نادوا بتحريمها مثل ابن سلطان الحنفي والشيخ يونس العيثاوي وهذا سنة 953هـ / 1545م<sup>(2)</sup>، بينما كان القاضي محمد أبو الفتوح المالكي من أنصار القهوة المتخذة من البن<sup>(3)</sup>، أما شيخ الإسلام أبو السعود أفندي زمن السلطان سليمان القانوني فإنه حينما سئل في بدايات ظهور القهوة وقبل أن يكمل اشتهاها وبعدما قرر له اجتماع الفسقة على شربها فأجاب بقوله: "ما أكب أهل الفجور على تعاطيه، فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويبتغيه" وهذا ليس فيه تصريح بتحريمها بل يقتضي الأولى تركها حذراً من التشبه بالفجار<sup>(4)</sup>.

غير أن ذلك لم يمنع انتشار ظاهرة شرب القهوة في أماكن معينة تعرف بالمقهى، كما أصبحت القهوة تقدم في المناسبات العائلية مثل مجالس العزاء كما حدث في القدس منذ القرن السابع عشر، كما كان من عادة سكان القدس تقديم القهوة للضيوف القادمين وبالأخص إذا كانوا يتمتعون بمكانة وأهمية في المجتمع<sup>(5)</sup>.

لكن الأمر لم يطل كثيراً فسرعان ما أصدر قاضي دمشق أمراً بتحريم القهوة في ربيع الأول 953هـ / ماي 1546م، لكن عندما تولى البكركي لالا مصطفى باشا (971 - 976هـ / 1563 - 1568) والذي كان من أنصار شرب القهوة -برز من جديد أنصار شرب القهوة، ورغم التباينات في المواقف اتجه موضوع القهوة إلا أنها انتشرت من دمشق نحو حلب، ومن هناك نحو اسطنبول نفسها<sup>(6)</sup>.

(1) - محمد الأرناؤوط: من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، مرجع سابق، ص 34.

(2) - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ج 2، مصدر سابق، ص 39.

(3) - نفسه، ج 3، ص ص 21 - 22.

(4) - نفسه، ج 3، ص ص 35 - 36.

(5) - بشير بركات: "مقاهي القدس في العهد العثماني"، مجلة حوليات القدس، العدد 13، صيف 2012، ص 53.

(6) - محمد الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، ط 1، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، 1993، ص 102.

وفي الحقيقة فإن الارتباب من بيوت القهوة والطقوس المصاحبة لشربها آنذاك، وتحوّل بعض المقاهي عن طبيعتها الأساسية إلى الاضرار بالسلوك العام، هو ما أثار حفيظة الدولة وبعض العلماء، فقد لاحظ قاضي حلب استمرار المقاهي والخمارات مفتوحة ليلاً ونهاراً، بل وتحوّلت إلى مجمع للفاسقين رغم قرار الحظر الذي صدر بشأنها، لذا صدر الحكم السلطاني إلى بكربكي حلب بالعمل على إزالتها بشكل قطعي ودون تأخر أو إهمال، وأن يقوم بالإبلاغ عن أسماء من يخالف قرارات الشرع،<sup>(1)</sup> ولم يقتصر الأمر على حلب لوحدها بل نفس الشيء عرفته القدس الشريف ودمشق، فقد انتشرت القهوة والمقاهي في القدس في مطلع العهد العثماني، وتم افتتاح العديد من المقاهي بلغت في منتصف القرن 16م (1565م) خمس مقاهي، مما أثار مخاوف بعض الشيوخ والعلماء، فراسل القاضي الديوان الهمايوني بهذا الشأن مبرراً ذلك بتأثيرها المباشر على الأهالي الذين كانوا قبل فتح المقاهي مواظبين على الطاعة والعبادة في الأوقات الخاصة، وتحوّل هذه المقاهي إلى مجمع للمتسكعين والفسق والفجور، فصدر الأمر إلى قاضي القدس الشريف بإزالة هذه المقاهي وعدم ترك أي محل يستخدم كمقهى في القدس، والحيلولة دون تجمع الناس فيها والقيام بالإبلاغ عن كل مخالف لهذه الأوامر.<sup>(2)</sup>

وتمّ تعميم الأمر على مقاهي دمشق التي تجاوز نشاطها تقديم القهوة فقط إلى اللهو والطرب و"الأوضاع المنكرة من قبل المرد" الأمر الذي اعتبره الديوان الهمايوني مخالفاً للشرع، والأمر بإزالتها مع البوزه خانات<sup>(3)</sup> والخمارات، حيث صدر حكم سلطاني إلى بكربكي الشام وقاضيه يأمرهما بإزالة كل ما بقي قائماً ينضوي تحت اسم الخمارة والبوزه خانه والمقهى وحماية الرعايا من أهل الفساد والشناعة، وإلقاء القبض على القائمين بأوضاع مخالفة للشرع ومن يعاونونهم.<sup>(4)</sup>

(1) - مهمة دفترى 6، ص 560، الحكم 1218 مؤرخ في شهر ذو القعدة 972هـ / جويلية 1565م. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 280.

(2) - مهمة دفترى 5، ص 238، حكم رقم 612، مؤرخ في 9 جمادى الأولى 973هـ / 2 ديسمبر 1565م، نقلا عن: فاضل بيات (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (أواخر عهد السلطان سليمان القانوني)، مج 3، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، دغسطنبول، 2014، ص ص 330 - 331.

(3) - البوزه ماء أبيض يسقى في صحاف، له حموضة، مصنوع من حب الدوقي، لذلك يسمى الدوقي بوزه أي ماء الدخن، ويطلق على المكان الذي يباع فيه اسم البوزه خانة. ابن بطوطة أبو عبد الله محمد اللواتي (ت. 779هـ / 1377م)، تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1958، 209.

(4) - مهمة دفترى 6، ص 620، حكم 1363، نقلا عن فاضل بيات: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 3، ص 329.

أدى انتشار القهوة في بلاد الشام خاصة القدس الشريف ودمشق وحلب إلى بروز بيوت القهوة أو المقاهي التي تحولت فيما بعد إلى أماكن تجمع الناس لقضاء أوقات فراغهم، وهو ما جلب أنظار الرحالة الذين زاروا بلاد الشام، فأما الرحالة الفرنسي جان دي تيفنو الذي زار دمشق ربيع 1664م، فقد ذكر مقاهي دمشق بأنها جميلة وتتميز بوفرة المياه، لكن أجمل المقاهي متواجدة في الضواحي، ومن بينها قهوة السنانية التي يطلق عليها اسم "القهوة الكبرى" لاتساع مساحتها، ومقهى آخر بالقرب من باب السروجية حيث يتواجد بالقرب منها جدول يجري بأحد جوانبها وتوجد مصاطب لجلوس روادها، كما توجد مقهى ثالثة هي "قهوة النهرين بالقرب من القلعة"<sup>(1)</sup>، أما الرحالة الإنجليزي (هنري موندل) الذي زار دمشق أواخر القرن السابع عشر الميلادي (1697م) فذكر وجود مقهى تستوعب أربع أو خمسمائة شخص ولها فسحتان لاستقبال الرواد إحداهما تلائم الصيف وأخرى للشتاء<sup>(2)</sup>.

كما ورد ذكر المقاهي عند الرحالة الخياري الذي زار دمشق سنة 1080هـ/1669م، حيث جاء ذكرها في معرض حديثه عن الجامع الأموي حين قال: "ومن أشهر أبواب الجامع باب جيرون وهو الباب الذي كان يكثر دخولنا منه لسكنانا بجهته وقربه، ولما حواه من اللطائف التي لا توجد في غيره، فمن أعجبه أن أول ما يخرج الانسان منه ويجاوزه غير بعيد على يمينه محل منتزه أمام خان القهوة، معدود من متنزهات الدنيا، يكون به كثير من الفضلا، يشربون به القهوة التي لم يحظ غيرها بأن يكون له أسوة"<sup>(3)</sup>.

انتشرت المقاهي بسرعة في بلاد الشام، لكن منظرها ما زال يجلب النظر خاصة بالنسبة للأجانب والأوروبيين بشكل خاص ذلك أنها لم تكن معروفة بعد فيها، ويورد الأخوين راسل حول المقاهي بمدينة حلب أن: "المقاهي تنتشر في جميع أحياء المدينة وبعضها واسع ونظيف وهي مطلية بألوان زاهية ومزودة بمصاطب مكسوة بالحصر والمقاعد، ويوجد في المقاهي الجيدة بركة في الوسط وشرفة يجلس عليها الموسيقيون، ويستطيع العابرون مشاهدة ما يجري داخل المقهى من نوافذه الكبيرة، ويقدم لرواد المقهى كراسي صغيرة واطئة مجدولة بالقصب، وفي الصيف غالبا ما يفضلون الجلوس في الهواء الطلق أمام باب

(1) - أحمد أيش (ترجمة وتعليق)، رحلات في بر الشام في القرن السابع عشر الميلادي: نصوص منتقاة لمجموعة من الرحالين الأوروبيين، ط 1، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي 2012، ص 118.

(2) - نفسه، ص 119.

(3) - عبد القادر الرجاوي: "رحلة الخياري إلى سورية في القرن 11هـ: صفحات من مخطوط لم ينشر"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 15، الجزء 2، 1965، ص 19.

المقهى، والمقاهي عادة لا يرتادها الأشخاص من الطبقات العليا لكن أحيانا يمكن أن نجد بها أناسا من كل الطبقات الأخرى لذلك يندر أن تكون فارغة بل بالعكس تكون في بعض الساعات شديدة الازدحام وهو المشهد الذي يشير دهشة الأجانب لأنهم لم يعتادوا رؤية الزي والعادات الشرقية.<sup>(1)</sup>

إن الانتشار الذي عرفته القهوة والمقاهي في بلاد الشام أدى إلى وجود أسماء لأشخاص ارتبط اسمهم بمهنة القهوة، ويذكر الخانقاه في يومياته بمحمص (ابن السيد عثمان بتاع البن: بمعنى الشخص الذي يقوم بتحضير القهوة قبل استهلاكها، فكان تحضير البن يمر بمراحل عدة قبل غليه وتقديمه في المقاهي مثل: التخمير ثم الغسل ثم التجفيف و بعدها فرز الحبوب و الطحن وهذا ما كان يقوم به بتاع البن أي صاحب البن<sup>(2)</sup>، كما نشطت تجارة البن حيث بلغ ثمن قنطار بن القهوة بالقدس الشريف مائتان وخمسون غرشا عديدة أواخر القرن 11هـ / 17م<sup>(3)</sup>.

كانت بعض القهاوي مخصصة لكل طبقات الشعب على وجه العموم وبلا استثناء، في حين أن مقاهي أخرى كان لها زبائن أكثر تحديداً،<sup>(4)</sup> فكان بعض الحرفيين الذين ينتمون إلى المجال الحرفي نفسه يترددون إلى بعض القهاوي المعينة.

مع مرور الوقت أصبحت القهوة والمقهى من ضمن المرافق التي اهتم بنائها بعض الولاة، فقد أنشأ والي دمشق دارا للقهوة بجوار السوق الذي أنشأه بالقرب من الجامع الأموي سنة 979 - 980هـ<sup>(5)</sup>، كما أن والي حلب ابشير باشا بنى - إلى جانب جامع وخان وثلاث قيساريات ومصبغة - مقهى مجهزة تجهيزا فاخرا سنة 1653 - 1654م.<sup>(6)</sup>

(1) - ألكسندر راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 35 - 36.

(2) - محمد عبد الباقي الخانقاه: حوادث حمص اليومية، مصدر سابق، ص 309.

(3) - حجة رقم 1، مؤرخة في أواخر شعبان 1082هـ / 30 - 12 - 1671م، سجل 173، ج2، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 256.

(4) - محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، مرجع سابق، ص 367.

(5) - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، مصدر سابق، ص 151.

(6) - أندري ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، الطبعة الأولى، القاهرة، 1991، ص 167.

وأصبحت المقاهي من العقارات التي يتم استئجارها لممارسة النشاط الاقتصادي، فقد أجّر "فخر المدرسين مصطفى أفندي بالمدرسة القادرية بالقدس الشريف المقهى المعروفة بقهوة باب القطانين لشخصين من دمشق لمدة خمسة أشهر بمبلغ قدره ثلاثون غرشاً فضية".<sup>(1)</sup>

#### ب - دور المقاهي في التسلية:

كانت نتيجة نقاش استمر لقرنين من الزمن في الأخير هي شيوع ظاهرة شرب القهوة وما نشأ عنها من تقاليد في المجتمع من ارتياد للمقاهي حتى اعتبرت بيوت القهوة من أهم أماكن التسلية والمتعة، ففي دمشق أخذت المقاهي تستقطب رواد الطرب للتمتع بالاستماع إلى المغنين مثل مصطفى بن تنكز الذي كان يغني في بعض مقاهي دمشق،<sup>(2)</sup> ومما زاد من بروز المقاهي هو ظهور بعض فنون التسلية التي أصبحت تميز المقاهي كالحكواتي والكراكوز،<sup>(3)</sup> في الأخير انتشرت القهوة والمقاهي وأصبحت جزء من حياة الناس ووصل الحد إلى عدم إمكان تصور المجتمع خاصة البدوي دون القهوة.

#### 6 - الحمامات:

تشكل الحمامات التي كانت منتشرة في أحياء ومحلات معظم مدن بلاد الشام وبالأخص حلب ودمشق والقدس فضاء مميّزاً للترفيه والتسلية مما استوجب البحث في بنيتها وأقسامها وأوقات ارتيادها، والقسط الذي نالته المرأة في هذا الجانب الاجتماعي الذي لطالما وصف بأنه مجتمع ذكوري.

تعرف بلاد الشام فترات طويلة من الجو البارد جعلت وجود الحمامات أمراً ضرورياً لاسيما في فصل الشتاء، ونظراً لخلو الغالبية العظمى من البيوت للحمامات المنزلية الخاصة بسبب افتقارها إلى مصدر الماء الدائم، واقتصارها على بيوت أفراد الطبقة الميسورة،<sup>(4)</sup> إضافة إلى صغر مساحتها وعدم تمكنها من استقبال استقبال أعداد كبيرة من الناس<sup>(5)</sup> فإن الحاجة لوجود حمامات عامة أصبحت من الضرورة بمكان، ليكون

(1) - حجة رقم 3، مؤرخة في غرة شعبان 1082هـ / 02- 12- 1671م، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج2، ص ص 382- 383.

(2) - محمد.م. الأرنؤوط، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، مرجع سابق، ص 44.

(3) - نفسه، ص 49.

(4) - كان لارتفاع أثمان الخطب سبباً لثلا تكون في البيوت حمامات خاصة، لكن هذا لم يمنع من وجودها في بيوت بعض الميسورين. الميسورين. أكرم حسن العليبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص 121.

(5) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 97.

الحمام مكانا يجتمع فيه الأهل والأحبة للتحدث في شؤونهم العامة والخاصة وقضاء وقت في التسلية والسمير في وقت انعدمت فيه أماكن التسلية الأخرى قبل أن تنتشر المقاهي.

كانت عادة ارتياد الحمامات العامة ركنا أساسيا من العادات والتقاليد المرتبطة بسكان بلاد الشام بشكل عام ولدى الجنسين،<sup>(1)</sup> وهو ما أدى إلى انتشار هذا النوع من المنشآت في مختلف أرجاء بلاد الشام، كما أن هذه العادة في كثير من الأحيان لم تكن من أجل الحصول على النظافة و التطهر التي هي صفة من صفات المسلم و شرط لأداء فرائضه الدينية فقط، وإنما تعدى ذلك إلى كونه وسيلة من وسائل التسلية في أوقات الفراغ، حيث يعتبر المتنفس الوحيد للناس بعد الإفراغ من أعمالهم لنيل قسط من الراحة والاستجمام والتسلية مع الأهل والأصحاب، وبالنظر إلى طبيعة النشاط اليومي والذي يتمحور في معظمه حول حوانيت الباعة والخبازين وصناع الحلويات وباعة المنسوجات والصباغة والصناعات المعدنية، يبرز دور الحمام الذي يصبح عنصرا رئيسيا وهاما في المدينة الإسلامية.

#### أ - الحمامات في المدن الشامية:

انتشرت الحمامات في كل مدن بلاد الشام وقد بلغ عددها في حماة في سنة 989هـ / 1581م خمس حمامات<sup>(2)</sup>، وفي القدس الشريف ذكر الدفتر (515 أنقرة) وجود حمامات عديدة أحدها حمام الست في محلة باب القطنين<sup>(3)</sup> حمام السعدي،<sup>(4)</sup> حمام الشفا،<sup>(5)</sup> أما في دمشق فكان عدد الحمامات يتجاوز الستين الستين حماما، وكان من أشهرها في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي: حمام ابن الفرفور جنوبي المدرسة القيمرية - حمام ابن القصيف - حمام اسرائيل في العمارة شمالي جامع الجوزة - حمام باب توما - حمام بيدمر في ميدان الحصى - حمام بين النهرين - حمام تنكز قرب جامع تنكز في الشرف الأدنى - حمام جكارا في العقبية - حمام الجوزة قرب باب توما - حمام الحموي في مسجد القصب - حمام قيتباي قرب حمام الحموي - حمام العين في سوق ساروجا - حمام الصوفية

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 97.

(2) - هذه الحمامات هي: حمام الجديد بمحلة باب المراتب بزقاق التركمان، وحمام الخيام، وحمام السلطان قرب المدرسة النورية داخل باب الناعورة، كان لهذا الحمام ناعورة خاصة اسمها ناعورة السلطان، وحمام القاضي بمحلة باب الصفصافة، وحمام في محلة المراتب. عبد الودود يوسف برغوث: "تاريخ حماة الاقتصادي والاجتماعي"، مرجع سابق، ص 67 - 68.

(3) - لواء القدس الشريف من دفتر مفصل (T.D. 515 An.) (1005هـ / 1596 - 1597م) سبق ذكره، ص 265.

(4) - نفسه، ص 264.

(5) - نفسه، ص 266.



قرب تربة الصوفية في الشرف الأدنى - حمام النسر في باب الجابية - حمام نور الدين في مكان سوق الحميدية اليوم - حمام الحاجب بالصالحية - حمام الراهب جوار جامع التوبة - حمام الذهب - حمام الربوة - حمام الحديد في منطقة القيمرية - حمام المدرسة الطيبية - حمام سامي في البدرائية - حمام العلائي بالعمارة - حمام العين شرقي الشامية البرانية بالعقبة - حمام قصيفة قرب جامع حسان - حمام قصيفة في قصر حجاج - حمام الكاس شرقي الشريفة قرب الأموي - حمام كمال قرب القلعة، وحمام منصور والناصري، والجوزة، والورد، والملك الظاهر، إضافة إلى حمامات الصالحية.<sup>(1)</sup>

وفي حلب يورد الرحالة الفرنسي تفارنييه عدد الحمامات في المدينة أثناء زيارته لحلب سنة 1638م بنحو خمسين حماما للرجال والنساء على حد سواء، كل بدوره المخصوص، ودخول الحمام بالنسبة للنساء متعة كبرى فتراهن يجمعن فضل أموالهن طوال الأسبوع كيما يدفعن كراء الحمام ويذهبن ويقمن في غاية اللهو والانبساط.<sup>(2)</sup>

#### ب - وصف الحمام:

أما الحمام من الداخل فهو يتكون من الجواني والبراني،<sup>(3)</sup> فالحجرة الأولى أو الخارجية تدعى البراني وهي كبيرة ومرتفعة مسقوفة بقبة مكسوة بالرخام وذات نوافذ تطل على الشارع، إلا أن إنارتها الرئيسية تتم بواسطة منور القبة، وبالقرب من الجدار على الجانبين تمتد مصطبة مرتفعة مكسوة بالحصر والسجاد، وفي الوسط بركة كبيرة من المرمر عادة للزينة وغسل مناشف الحمام، وتكون حرارة هذه الحجرة معتدلة لأن تأثير الموقد لا يكون كبيرا فيها، وعبر رواق ضيق يمكن للمستحم أن يعبر إلى الحجرة المتوسطة حيث توجد الأجران الحجرية للمياه الساخنة، كما توجد طاسات نحاسية لصب الماء<sup>(4)</sup>، وتكون حرارتها أكثر من الحجرة الأولى أو الخارجية، ومن هذه الحجرة الوسطى تفتح أبواب إلى الحجرة الداخلية (الجواني) الذي تكون مساحته أكثر من "الوسطاني" ويكون ارتفاعها أقل من الحجرة الأولى، وتعلوها قباب بها فتحات

(1) - أكرم حسن العليبي، دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص ص 119 - 120.

(2) - Jean Baptiste Tavernier ; les six voyages de Jean Baptiste Tavernier ECUYER BARON D'AUBONNE Qu'il a Fait EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDES ; 1<sup>ere</sup> partie, Paris, p137.

(3) - حجة 1، مؤرخة في 6 محرم 1082 هـ / 14 - 5 - 1671م، سجل 173، ج 1، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 211.

(4) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 97.



صغيرة مكسوة بزجاج سميك ملون يسمح بمرور ضوء خافت إلى الجدران، أما عن طريقة تسخين الحمامات فتتم بواسطة مواقد في الأسفل وتكون الحرارة الاعتيادية حوالي (37.7°م) أو 100 فاهرنهايت، ويمكث الرجال في الحجرة الداخلية نحو ربع ساعة بينما يكون زمن مكوث النساء أطول، بعض الحمامات تكون مخصصة لأحد الجنسين فقط إما الرجال أو النساء، لكن في العادة فإن الحمام يخصص من الصباح إلى الظهر للرجال، ومن الظهر إلى المغرب للنساء.<sup>(1)</sup>

#### ج - تشغيل الحمام:

وردت أخبار كثيرة في يوميات الخانقاه في حوادث حمص اليومية ذلك أن حمامات البيوت لم تكن قد انتشرت بعد، وكان كل حمام له معلّم هو صاحبه غالبا ومعه طاقم خدمة كامل: من الزبال الذي يجمع الوقود لحرقه في "القميم" لتسخين الماء، إلى المكيس المشهور باستخدامه لكيس الحمام الذي يفرك به الأجساد، إلى عمال النظافة وخدمة المستحمين،<sup>(2)</sup> ولكون الوقود الأساسي المستخدم في تسخينها هو في الأصل عبارة عن روث الحيوانات وقاذورات الإصطبلات وقشور الفواكه إضافة إلى الفضلات والنفايات التي يقوم أشخاص يجوبون الشوارع بجمعها لهذا الغرض، فإن الحمامات يمكن اعتبارها من بين أكثر المناطق ازعاجا داخل المدينة.<sup>(3)</sup>

#### د - أوقات الحمام:

كانت بعض الحمامات مخصصة للرجال وأخرى للنساء، لكن غالبا ما كان الحمام الواحد مخصصا من الظهر إلى بعيد الغروب للنساء ثم تخصص باقي الفترة للرجال، وبالإضافة للأوقات المعتادة للذهاب إلى الحمام تذهب النسوة إلى الحمام بعد الولادة، وبعد الشفاء من المرض، وقبل حفل الزفاف، وفي فترات معينة بعد وفاة أحد الأقارب، وفي هذه المناسبات الاحتفالية يستأجر أحد الأعيان الحمام حيث لا يُقبل فيه إلا المدعوون، وتستغرق هذه الجلسات عادة من 4 - 5 ساعات.<sup>(4)</sup>

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 99.

(2) - محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص اليومية، مصدر سابق، ص 17.

(3) - ألكسندر راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 43.

(4) - العليبي، دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص 121.

#### هـ - الدور الاجتماعي للحمام:

لعبت الحمامات دورا اجتماعيا نسائيا مميزا في بلاد الشام، فالحمام كان هو المتنفس الوحيد للمرأة، فهي ليس باستطاعتها الخروج من بيت زوجها إلا بالذهاب إلى الحمام، ولا تستطيع اللقاء بباقي النسوة إلا في الحمام،<sup>(1)</sup> وقد اعتادت النسوة في كل أسرة من الأسر أو زقاق أو حي أن يذهبن في موعد متفق عليه إلى الحمام، وكن يحملن معهن الأطعمة والأشربة المعدة سلفا، إضافة إلى بعض أدوات الطرب والغناء حتى أن ساحة الحمام تتحول إلى حلبة للرقص،<sup>(2)</sup> لذلك تبقى النسوة في الحمام فترة أطول مما يقضيه الرجال، والنساء في كثرتهن مغرمات بالحمام لأنه يكاد يكون المكان الوحيد لتجمعهن، ويتيح لهن عرض مجوهراتهن ولقاء معارفهن وسماع القصص المنزلية، لذلك لا تتساوى الحمامات من حيث الشعبية فبعضهن أكثر شهرة من الأخرى وبالتالي تستقطب نسوة من أماكن بعيدة، وعندما تقيم نسوة من عائلات مختلفة حفلة في الحمام فإن ذلك يمثل فرصة لتناول المأكولات والمشروبات في جو من المتعة والبهجة.<sup>(3)</sup>

ارتبطت بالحمام العديد من الأحداث والمناسبات الاجتماعية، فالحمام هو أنسب مكان تتم فيه الخطبة، فالأم إذا ما وصل ابنها لسن الزواج فإن أنسب مكان تبحث فيه عن العروس هو الحمام وتظل تراقب الفتيات حتى تجد ضالتها فيه<sup>(4)</sup>، كما أن الحمام يرتبط بشكل وثيق مع حفل زفاف العروسين حيث يذهب العريس والعروس إلى الحمام كل مع صحبته.<sup>(5)</sup>

#### و - عادات وتقاليد دخول الحمام:

أما عن تقاليد الحمام فبالإضافة لكونه وسيلة من وسائل النظافة وصورة معبرة عنها، فإنه في ذات الوقت وسيلة من وسائل المتعة والانشراح مثله مثل المتنزهات بالنسبة لأهل بلاد الشام بصفة عامة فقد كان رواد الحمام يقضون ساعات طويلة فيه في الأكل والشرب واللهو.<sup>(6)</sup>

(1) - محمد عبد الرزاق معوض، الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي حتى نهاية العصر العثماني: دراسة أثرية مقارنة، منشورات المكتب العربي للمعارف، ط 1، القاهرة 2014، ص 140.

(2) - إبراهيم زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، مرجع سابق، ص 172.

(3) - المرجع نفسه، ص 99.

(4) - محمد عبد الرزاق معوض، حمامات العامة بمدينة حلب، مرجع سابق، ص 141.

(5) - أنظر إبراهيم زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، مرجع سابق، ص 170 - 171.

(6) - أكرم العليبي، دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص 121.

إذا قرر الرجل الذهاب إلى الحمام فإنه يأخذ معه مواد التنظيف التي كانت حينئذ هي: الصابون، والسدر، والأشنان،<sup>(1)</sup> وعندما يدخل أحدهم إلى الحمام يتفحصه القيم فإن آنس فيه الغنى والوجاهة رحب به وتركه يدخل، وإلا شارطه الأجرة مسبقاً، وبعد الشروع في الاستحمام يخصص وقتاً للراحة واستعادة الأنفاس ويخرج ما عنده من طعام، ثم يستأنف الاستحمام، فإن شاء اغتسل لوحده وإن شاء استدعى من "يعكه" أي يغسله بالأشنان أو الصابون بالأجرة، وبعد ذلك يخرج ويجلس في غرفة عامة ويبادل الناس المجاملة بعبارة مألوفة منها "نعيماً"،<sup>(2)</sup> وتتفاوت كلفة الحمام بحسب الخدمات التي تقدّم للزبائن، وعموماً كانت بين نصف درهم وحوالي أربعة دراهم،<sup>(3)</sup> أما حمامات عليّة القوم والحكام وحمامات الأعراس فهي تخضع لمقاييس أخرى، فيذكر ابن طولون بأن السلطان سليم الأول حينما حلّ بدمشق سنة 922هـ/1516م دخل مع جماعته إلى حمام الحموي في محلة مسجد القصب، وأعطى لمن حلق له 500 درهم، ومثلها لمعلم الحمام، ومثلها لمعلم الحمامين.<sup>(4)</sup>

أما النسوة فكان لهن في الحمام شأن آخر، فقد كانت المرأة تطلب من زوجها من الحناء والسدر شيئاً كثيراً، وتبالغ في أجرة القيمة وقد ينتهي بها الحمام أحياناً إلى حد الخصام مع زوجها، فالمرأة كانت تنظر إلى موضوع الخروج إلى الحمام بمثابة التنزه والترويح عن النفس ومن ثمة تبالغ في مطالبتها من الزوج<sup>(5)</sup>، أما إن كان الحمام لعرس أو نفاس، فإن بعض النسوة كنّ ينفردن في جناح خاص بهن في الحمام وتستغرق فترة مكوثهن في الحمام من بعد الظهر إلى الغروب.<sup>(6)</sup>

إن وجود العدد الهائل من الحمامات في المدن الشامية بوجه خاص وفي المدن الإسلامية عموماً وكذا استعمال مواد التنظيف وبالأخص الصابون يشير إلى ما كان للنظافة من مكانة في المجتمع، خاصة وأن ارتياد الحمامات ليس مقصوراً على فئة اجتماعية بعينها ولا بجنس دون الآخر، ولم يقف عدم وجود الحمام في البيوت عامة واقتصراره على بيوت الميسورين عائلاً أمام السعي وراء النظافة، بل وفّرت الحمامات العامة

(1) - نفسه، ص 121.

(2) - أكرم العلبي، دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق ص 122.

(3) - نفسه، ص 123.

(4) - ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 340.

(5) - العلبي، المرجع السابق، ص 123.

(6) - نفسه، ص 124.

حاجة أفراد المجتمع للنظافة، ولأن نظافة المجتمع من نظافة الفرد فإن الجانب الصحي للمجتمع كان متقدما إلى حد كبير إذا ما قورن بنظيره في المدن الأوربية خلال نفس الفترة.

# الفصل الرابع

## المؤسسات الاجتماعية

## أولا -التعليم في بلاد الشام خلال القرنين 10 -11 هـ/ 16 -17م:

ما يزال موضوع التعليم في الدولة العثمانية ككل وفي بلاد الشام خصوصا في الفترة التي تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين واقعا تحت تأثير نظرة تنطلق من زاوية ضيقة تركز على إهمال القرون الثلاثة الأولى للحكم العثماني لبلاد الشام، يزعم أصحابها أنها متسمة بالجمود والانحطاط والخمول ولا حركة فكرية حيّة فيها، مع تحميل الدولة العثمانية الحاكمة مسؤولية تلك السمات، واختصار الموضوع فقط على القرن التاسع عشر واعتباره قرن النهضة ... ، فإلى أي حد وصلت الحياة الفكرية والعلمية خلال هذه الفترة، وهل فعلا لم تعرف أي شكل من الحياة الفاعلة والحركية المستمرة تماشيا مع معطيات وقيم تلك الفترة؟

ما يكمن الإشارة إليه هو أن التعليم في الدولة العثمانية عموما هو في النهاية جزء لا يتجزأ من تاريخ التعليم والتربية في العالم الاسلامي، بحيث يشكل هذا الموضوع أهمية كبيرة في فهم التاريخ العثماني واستيعابه في مجمله، ويمكننا التذكير بأن المؤسسات التعليمية كانت موجودة في المنطقة قبل الدخول العثماني، وأنها كانت تضطلع بدور هام في الحياة العلمية والحضارية، وما الانتاج الفكري والأدبي إلا مؤشر واضح عن ذلك<sup>(1)</sup>، وليس الغرض هنا تتبع أحوال التعليم في بلاد الشام منذ نشأته، لكن ما يهمهم هو التعرف على المؤسسات التعليمية النشطة، وأوضاع المدرسين والعلوم المدرّسة وطرق التدريس وخصوصياته، ولا شك بأن التعليم هو المنهل الذي ينهل منه أبناء الأمة في مؤسساته التي أعدت خصيصا لتخريج جيل يحمل الفكر الإسلامي في داخل الدولة ويسير على مفاهيمه ونظرياته، ويؤدي دوره في المجتمع من جانب العمل على تشكيل عقل الدولة ووعياها.

كانت المراكز التعليمية في بلاد الشام في الفترة المملوكية تتمثل في دور العبادة: الكتاتيب، المساجد، المدارس، دور القرآن، دور الحديث، المؤسسات الصوفية التعليمية، أو حتى في البيماريستانات والبيوت، والكنائس عند أهل الذمة، والمكتبات، واستمرت على النحو ذاته مع دخول المنطقة تحت الحكم العثماني مطلع القرن 10 هـ/ 16م، إذ لم تنشأ المدارس النظامية إلا في أواخر العهد العثماني، وفي الواقع فإن معاهد التعليم على تنوع أماكنها كانت تشهد تنوعا في مواد العلوم وفي طرائق التعليم تلقينا وإقراء واملاء، ففي الجوامع كان عامة الناس يستمعون إلى دروس العلماء في الفقه والتفسير والحديث، وكان هذا النوع من التعليم متاحا لمن أراد من الذكور والإناث حضور تلك الدروس، فالاستماع متاح للجميع دون مقابل

(1) - تميّز العصر المملوكي بظهور الموسوعات الكبرى في الأدب، والنحو، وعلم الحديث، والفقه، والتاريخ، مثل: صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي المتوفي سنة 821 هـ/ 1418م وهو في 14 جزء، لسان العرب وهو معجم لغوي من تصنيف ابن منظور الأنصاري، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ومؤلفه محمود بن أحمد العيني (المتوفي سنة 855 هـ)، وفيات الأعيان وهو من أم المصادر في التراجم والتاريخ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري....

والإفادة ذهنية وروحية معا، وبرز من كل جمع من الحضور فئة يهتمون بالعلم فيلازمون العالم في كل دروسه وحلقاته العلمية، ويصبحون من تلامذته وخريجي مدرسته ومنهجه يتخرجون على يديه فيمنحهم الإجازة بما أخذوه عليه ويصبحون مؤهلين للجلوس والتعليم والتدريس.<sup>(1)</sup>

حظيت دمشق - باعتبارها من بين أهم الحواضر في بلاد الشام - خلال العهد العثماني بنصيب كبير من الأهمية الدينية والثقافية باعتبارها إحدى العواصم المركزية للدول الإسلامية والتي عمل العثمانيون على تعزيزها حتى أنهم أطلقوا عليها اسم "شام شريف"<sup>(2)</sup> وكانت الرابعة من حيث الأهمية بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، ونظرا لهذه الأهمية فقد توافد عليها العلماء من كل جهة وأقاموا في الجوامع والمساجد والزوايا التي انتشرت في أحياء المدينة وزاولوا فيها مهام الخطابة والإمامة والوعظ والتدريس وتأديب الأطفال، ولعل أهم هذه المؤسسات التي استقطبت إليها هؤلاء هو الجامع الأموي الذي يمثل أحد أكثر المرافق من حيث الدور والمكانة من جانب الولاة العثمانيين.<sup>(3)</sup>

## 1 - المؤسسات التعليمية:

### أ - الكتاتيب:

سميت المدارس التي أقيمت في مختلف أرجاء الدولة العثمانية لتعليم المبادئ الأولية للأطفال بالكتّاب أو مدرسة تعليم الصبيان،<sup>(4)</sup> وكانت تقام عادة بالقرب من المساجد أو في المساجد نفسها أو في الزوايا، أو في منزل الشيخ المعلم نفسه، ولما كان المستمعون للدروس في المسجد من الكبار من الرجال والنساء، كانت هذه المدارس الصغيرة التي عرفت بمكاتب الأطفال، أو الكتّاب، تؤدي وظيفة تعليم الأطفال الذين هم دون سن البلوغ، وتستمر لمدة تتراوح بين ست وثمان سنوات.<sup>(5)</sup>

(1) - عمر عبد السلام تدمري، "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م"، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، إعداد صالح سعداوي، تقديم أكمل الدين احسان أوغلي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، 2000م، ص 5.

(2) - يرد هذا الاسم في كثير من الأحكام السلطانية التي توجهها السلطة المركزية العثمانية إلى موظفيها في بلاد الشام. انظر بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ترجمة وإشراف فاضل بيات، 3 أجزاء، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 2011.

(3) - مهند أحمد سالم المبيضين، أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في مدينة دمشق خلال الفترة (1121 - 1172هـ/ 1708 - 1758م)، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق 2005، ص ص 121 - 122.

(4) - أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج 1، دار صادر، بيروت، (دون تاريخ)، ص 699.

(5) - أتفيانو بون (سفير جمهورية البندقية في إسطنبول 1604 - 1608م)، سراي السلطان، دراسة وتحقيق وترجمة زيد عيوض الرواضية، ط 1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2014، ص 120.

ويبدأ تعليم الطفل في الكتاب منذ سن مبكرة، ويقتصر تعليمه في المرحلة الأولى على القرآن الكريم تلاوة وحفظاً عن ظهر قلب، ثم القراءة والكتابة والحساب، والمعارف الدينية واللغوية<sup>(1)</sup>، وكانت هذه العناصر عاملاً أساسياً في نمو الأمية وترسيخ اللغة العربية على ألسنة الأطفال، من خلال تحفيظهم للقرآن الكريم، ومنحهم ولو رصيذاً محدوداً من المعارف المبدئية يمكنهم من فهم ما يمكن أن يقدمه لهم الشيوخ الكبار إذا ما تابعوا تعليمهم، كما يؤهلهم للاستفادة منه في مهنتهم المختلفة التي ينخرطون فيها، ويعدّهم لإكمال ثقافتهم في زوايا الطرق الصوفية<sup>(2)</sup>، ويبدو أن هذا التعليم الأولي للأطفال كان معمولاً به كذلك لدى الطوائف المسيحية في بلاد الشام أي في الكتاتيب والأديرة والكنائس، وإن كانت اللغة الثانية التي يكتسبها الأطفال المسيحيون هي السريانية باعتبارها لغة الطقوس الدينية قبل أن تتخلى عنها كل الطوائف في القرن 17م.<sup>(3)</sup>

كان التعليم يتم من قبل أئمة الجوامع التي أقيمت فيها هذه الكتاتيب، وكان يطلق على المعلم في الكتاب لقب الشيخ أو المؤدب، وأحياناً في بيوت خاصة تشرف عليها سيدة تلم بالقراءة والكتابة وتعرف باسم "الخوجاية"<sup>(4)</sup>، أما البيوت التي فيها عالم أو شيخ أو مدرّس فمن البدهة أن تكون أول مدرج للأبناء في رحلة العلم والتعلم، لاستمرار المناصب العلمية والوظائف الدينية في أبنائها وللحفاظ على المستوى المعيشي والاجتماعي للأسرة.<sup>(5)</sup>

كان التعليم في الكتاب مجانياً، إذا كان مؤسسها من الأغنياء قد أوقفها لهذا الغرض، أما إذا كان الكتاب للشيخ، فإنه كان يتقاضى من كل تلميذ أجرة زهيدة تعرف بـ (الخميسية) لأن الشيخ كان يتسلمها كل خميس من الأسبوع.<sup>(6)</sup>

أما الأطفال الأيتام والمساكين فكان لهم مدارسهم وكتاتيبهم الخاصة بهم، ولم يحرموا نعمة العلم، وبدون أجر حسب شروط الواقف<sup>(7)</sup>، حيث وقف رضوان آغا دزدار قلعة طرابلس مكتبا في محلة "العديمي"

(1) - عبد القادر محمد النعيمي، الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، دمشق 1948، ج 1، ص 9.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، مج 2، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 1999، ص 310.

(3) - نفسه، ص 310.

(4) - عمر عبد السلام تدمري: "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م"، مرجع سابق، ص 7.

(5) - يبدو هذا واضحاً في توارث أفراد الأسرة الواحدة لوظيفة معينة لعشرات السنين. نفس المرجع، ص 7.

(6) - أكمل الدين احسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 2، مرجع سابق، ص 309.

(7) - عمر عبد السلام تدمري، المرجع السابق، ص 6.



بالقرب من المدرسة الحجيكية لاقراء الأطفال وتعليمهم أحكام القراءة، وكان ممن تقرر للتدريس به الشيخ ابراهيم بن الشيخ أحمد سنة 1079هـ/1668م.<sup>(1)</sup>

أما الوسائل فكانت بدائية، والصبي عادة ما يجلسون على الأرض، فترة الدراسة من الصباح إلى المساء، وتعتمد الدراسة على أسلوب التلقين والاستظهار، وعندما ينتهي الطالب من المرحلة الدراسية الأولية في الكتاب كانت تقام له حفلة وهي وليمة يدعو لها والده مع الشيخ والأصدقاء وينشدون المدائح النبوية بهذه المناسبة.<sup>(2)</sup>

أما المرحلة الثانية من التعليم والتي تلي التعليم الأولي فكانت تتم في الجوامع والمساجد والمدارس وكذا الزوايا والخوانق والربط المنتشرة في كل مدينة أو محلة من بلاد الشام على الرغم من كون كل مؤسسة تختلف عن الأخرى في حجمها ومعلميها وعدد طلابها وحتى مناهج تعليمها وكذا بمقدار الأوقاف التي تم رصدها لها<sup>(3)</sup>، فكان الطالب يحضر فيها الفقه الإسلامي والحديث في موطأ مالك وصحيح البخاري، والجامع الصغير، وتراجم الرجال بشكل عام.<sup>(4)</sup>

#### ب - المساجد والجوامع:

حافظت الدولة العثمانية على تقاليد المؤسسات التعليمية التي كانت موجودة في بلاد الشام، ولم تخضعها لنظامها التعليمي الذي شهد ثورة منذ اعتلاء السلطان سليمان القانوني العرش،<sup>(5)</sup> منها في دمشق: دمشق: جامع بني أمية، أو المسجد الأموي أو جامع دمشق الجامع المعمور، بناء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة 86هـ/705م في مدينة دمشق،<sup>(6)</sup> ودائما في دمشق ابتداء السلطان سليم عهده بإنشاء جامع

(1) - عمر عبد السلام تدمري، المرجع السابق، ص 23.

(2) - يوسف نعيمة، مجتمع مدينة دمشق ما بين 1772 - 1840، ج2، دار طلاس، دمشق، 1986، ص 389.

(3) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج2، مرجع سابق، ص 311.

(4) - المرجع السابق، ص 389.

(5) - أنشأ السلطان سليمان جامع السليمانية وألحق به مجموعة مدارس محمد الفاتح وبايزيد الثاني حيث كان العلماء يتخرجون من هذه المدارس كمدرسين وقضاة ومفتين وأحيانا كتابا متفقيين في دوائر الدولة العثمانية، وكانت هذه المدارس تضم قاعات للتدريس الطلبة، وغرفا لإقامتهم وأخرى للقائمين على شؤونها، بعدها أوجد السلطان سليمان نظامه التعليمي الذي سارت عليه الدولة في تخرج المدرسين والقضاة والعلماء وحتى الأطباء، ونظم السلطان التعليم في اثنتي عشر درجة، لكل منها اسمها الخاص، ولا يمكن للطلاب أن يرتقي للدرجة التالية إلا بعد حصوله على إجازة، وعند الدرجة السادسة التي يدرس فيها الطالب في " صحن ثمانية" يكون بمقدوره أن يعمل مساعد مدرس في الدرجات الأولى، ويمكن أن يواصل تعليمه في الدرجات الست الباقية حتى يحصل على أعلى الدرجات والوظائف مثل منصف المولوية أو القاضي الكبير. (هـ) جب و(هـ) بوون: المجتمع الاسلامي والغرب، ج2، مرجع سابق، ص 210 - 211، اكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج2، مرجع سابق، ص 312.

(6) - عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، مصدر سابق، ص 285.

(الشيخ محي الدين بن العربي) في الصالحية وعين ابن طولون في منصب الخطابة والإمامة والتدريس به،<sup>(1)</sup> كما أنشأ السلطان سليمان القانوني جامعاً وتكية حيث خصص لهما أوقافاً عديدة وجعل التدريس بهما للمفتي الحنفي.<sup>(2)</sup>

كما حرص الولاة الذين تم تعيينهم في دمشق على تشييد المساجد والجوامع والخانقوات والزوايا الفخمة مع منحها أوقافاً وفيرة، نذكر على سبيل المثال منها مسجد عيسى باشا شرق القيصرية،<sup>(3)</sup> وخانقاه أحمد شمسي باشا مع التكية الملحقة بها في سوق الأروام بدمشق،<sup>(4)</sup> وجامع المرادية الذي أنشأه الوالي مراد باشا 976هـ/1568م،<sup>(5)</sup> وجامع الدرويشية الذي أمر ببنائه والي الشام "درويش باشا" سنة 980هـ/1572م خارج باب الجابية وأوقف عليه أوقافاً واشترط أن يكون المدرس به هو الشيخ اسماعيل النابلسي<sup>(6)</sup> وجامع السنانية خارج باب الجابية بدمشق والذي أنشأه الوالي سنان باشا بين سنتي 999هـ/1590م.<sup>(7)</sup>

كما أنشأ الأمير بروجيز بن عبد الله أحد أعيان دمشق والمتوفي سنة 1015هـ/1606م، وكان سابقاً مولى لعللي جلبي دفتردار الشام بتعمير مسجد في محلة القيصرية التي يقيم بها،<sup>(8)</sup> وعمر حسن باشا بن عبد الله الأمين المعروف بـ "شوربزة حسن" أحد أعيان دمشق المنتمي إلى الصدر الأعظم سياغوش باشا، والذي دفع إليه مالا وأمره أن يبني له مسجداً بدمشق والمعروف بالسياغوشية في حارة القصاصين داخل باب الجابية بدمشق، وكان وقد توفي سنة 1027هـ/1617م،<sup>(9)</sup> وظهرت زاوية لشيخ الطريقة الخلوتية بدمشق سنة 1045هـ/1635م التي شيدها والي الشام أحمد باشا الوزير المعروف بكوجك أحمد الأرندلي،<sup>(10)</sup> أما

(1) - محمد ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 377، نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، ج 1، مصدر سابق، ص 212.

(2) - نجم الدين الغزي، نفس المصدر، ج 3، (ترجمة: سليم الأول) ص ص 156 - 157.

(3) - ابن جمعة، ولاة دمشق في العهد العثماني: ويتضمن الباشات والقضاة، والوزراء اذين حكموا دمشق لابن القاري، جمع وتحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، 1949، ص 5، هامش 1.

(4) - نفسه، ص 5.

(5) - محب الدين المحبي، خلاصة الأثر، ج 3، (ترجمة: محمد بن اليتيم الصوفي)، مصدر سابق، ص 321.

(6) - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، ج 3، مصدر سابق، ص ص 150 - 151.

(7) - المصدر السابق، ج 2، ص 214.

(8) - نفسه، ج 1، ص 451.

(9) - نفسه، ج 2، ص ص 24 - 25.

(10) - نفسه، ج 1، ص 385، ص 388.

في حلب فقد أنشأ ولاتها العديد من المساجد والجوامع مثل جامع خسرو باشا مع المدرسة الخسروية سنة 938هـ / 1531م.<sup>(1)</sup>

كان بجوامع الشام وحلب وطرابلس أكثر من وظيفة واحدة للتدريس والوعظ والتحديث والإقراء وفي أكثر من مذهب، على سبيل المثال كان في الجامع المنصوري الكبير بطرابلس: المحدث والمدرس والواعظ والمفسر والفقيه الشافعي والفقيه الحنفي وغيرهم، وكانوا يتناوبون مهامهم في أوقات متفق عليها، فهذا يحدث بعد صلاة الفجر، وذاك قبل صلاة الظهر، والآخر بعد الظهر، وغيره قبل العصر، وآخر بعد العصر، وبعضهم بين المغرب والعشاء، وهكذا طوال أيام السنة، وتتضاعف حلقات الدرس في شهر رمضان بحيث يدرس عالمان في وقت واحد كل منهما يأخذ جانباً من حرم الجامع، وكان الشيوخ يتقاضون راتباً من ناظر الوقف المرتب المخصص لوظائفهم، وبعضهم يتطوع حسبة لله.<sup>(2)</sup>

### ج - المدارس ودورها التعليمي:

من سمات العصر العثماني أن المدرسة كمؤسسة تعليمية الهدف الأساسي من نشاطها هو تلقين علوم الدين والفقه والحديث، كانت تقام فيها الشعائر الدينية، بل في أحيان كثيرة لعبت دور المسجد، وما يميزها فقط عن المسجد هو وجود مساكن للطلبة، وبعض المدارس كانت رباطاً لبعض الجماعات الصوفية، ومن العادات السائدة أنه كلما تم بناء جامع من الجوامع إلا وفتحت مدرسة بجانبه أو ملحقة به.<sup>(3)</sup>

تشير المصادر إلى وجود الكثير من المدارس في بلاد الشام وبالأخص في دمشق، حتى أن أحدها تم تخصيصه للمدارس فقط لصاحبه عبد القادر النعيمي (المتوفى سنة 927هـ / 1521م)، والذي يعتبر من أوائل الذين أرخوا للحياة الفكرية والتعليمية خلال هذه الفترة، وهو الذي يحمل عنوان: "الدارس في تاريخ المدارس"، ومن خلاله أمكن التعرف على أهم المدارس في دمشق، وهي:

- دار القراءة الصابونية بسوق الغنم، خارج باب الجابية، وقد أنشأها أحمد البكري المعروف بابن الصابوني.

- دار القرآن والحديث التنكزية في سوق التبني وراء سوق البزورية وكانت عامرة بالقراء وتعليم الأولاد، وقد توارث مشيختها أسرة الحلواني، وكانت أهم دور الحديث.

(1) - رضي الدين ابن الحنبلي، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب، ج2، حققه محمد محمود الفاخوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972، ص ص 10 - 11.

(2) - عمر عبد السلام تدمري، "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م"، مرجع سابق، ص 5.

(3) - فاضل بيّات: التعليم في العراق في العهد العثماني، القسم الأول، مجلة المورد، مج22، عدد 1، 1994، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ص، 32.

-دار الحديث الأشرفية الأولى (الجوانية) في أوائل سوق العسرونية من الجانب الغربي ، ودار الحديث الأشرفية الثانية (البرانية) التي تقع بسفح جبل قاسيون وكانت موقوفة على قضاء الحنابلة.<sup>(1)</sup>

كما قام القاضي محمد جلبي ابن شيخ الاسلام أبي السعود أفندي بترميم المدرسة القليجية في دمشق سنة 964هـ / 1556م وافتتحت أبوابها سنة 1564م.<sup>(2)</sup>

أما بالنسبة لمدينة طرابلس فإن أقدم وثيقة تشير إلى وجود مدرسة لتعليم الأطفال في المدينة تعود لسنة 1078هـ / 1667م حيث تفيد أنه كان بالقرب من جامع التوبة مكتب يعرف بالأحمدية لتعليم الأطفال<sup>(3)</sup> وآخر في جامع محمود بك السنجق لطلب العلم وتقرر فيه المنصب للشيخ عمر بن جلال الدين لقاء غرشين أسدين لكل سنة لطلب العلم الشريف اعتبارا من نصف رجب 1079هـ / 1667م ، كما توجد مدرسة القادرية ومدرّسها هو محمد بن مرحبا الذي توفي وخلفه ابنه أحمد بن محمد مرحبا سنة 1078هـ / 1667م ، مدرسة الطرمشية (الدرمشية) المعروفة بالمدرسة النورية الواقعة اتجاه حمام النوري حيث كان يوجد مكتب لتعليم الأطفال قراءة القرآن ويتقاضى المدرس بهذا المكتب 6 ست عثمانيات فضية كل يوم من وقف المدرسة على وظيفته حتى تاريخ وفاته سنة 1088هـ / 1675م ، وعلى مسافة نحو 50 مترا كانت مدرسة الطواشية وبها مكتب لتعليم الأطفال تولى التعليم فيه الشيخ شحادة بن مصطفى القادري قبل أن يخلفه خير الدين بن محمد سنة 1096هـ / 1683م ،<sup>(4)</sup> إضافة إلى المدرسة الدبوسية<sup>(5)</sup> ، والمدرسة السلطانية بمحلة القنواتي ، وهي التي كانت تعرف بالمدرسة الناصرية التي بناها السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون<sup>(6)</sup> ، والمدرسة الخاتونية بالقرب من جامع أرغون شاه ومن أبرز من تولى التدريس بها الشيخ محمد السندروسي ، وكان يأخذ 30 قرشا أسدية في السنة.<sup>(7)</sup>

وفي القدس الشريف كانت هناك العديد من المدارس منها: المدرسة التنكزية (دكزية)، المدرسة الحسينية، المدرسة الشيخونية، المدرسة الصلاحية، المدرسة الطيلونية، المدرسة الفخرية، مدرسة قايتباي

(1) - محمد أديب الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق ، ج3 ، منشورات دار الآفاق ، بيروت ، 1979 ، ص 139.

(2) - نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 301.

(3) - عمر عبد السلام تدمري ، "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م " ، مرجع سابق ، ص ص 18 - 19.

(4) - نفسه ، ص 19.

(5) - نفسه ، ص 22.

(6) - نفسه ، ص 21.

(7) - نفسه ، ص 21.

بالقدس، مدرسة لولو غازي، المدرسة المالكية بالقدس، المدرسة المزهرية، المدرسة المعظمية الحنفية، المدرسة المنجكية.<sup>(1)</sup>

## 2 - دور الوقف في تمويل التعليم:

لم يكن من الواجبات المنوطة بالدولة العثمانية النهوض والارتقاء بالخدمات الاجتماعية والثقافية، كما لم يكن من دأبها الانفاق على الخدمات من بيت المال، بل انحصر دورها بصورة رئيسية من خلال جهاز القضاء أساساً ثم ديوان الأحباس في الإشراف على الأوقاف ومراقبة تنفيذ شروط الوقفيات، والاهتمام بصيانة العقارات الموقوفة، وتعيين الأكفاء لإدارتها تنفيذاً لشروط الواقفين وإحسان المحسنين، ومن هنا لم تكن هناك سياسة تعليمية للدولة أو السلاطين، فكانت الدوافع الدينية والسياسية للسلاطين والمسؤولين هي المحفز على إنشاء هذه المؤسسات، وبذلك لعبت الأوقاف دوراً مهماً في التعليم سواء في المدارس أو المكاتب، وبالتالي فهي التي ثبتت أركان المدرسة ودعّمت نظامها، ومكنتها من القيام برسالتها، وكان الربيع الذي تغله المصادر الموقوفة على المدرسة نقداً أو عيناً هو الضمان لاستمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الواقف.<sup>(2)</sup>

لم يقتصر أثر الوقف على التعليم على أنه المورد المالي للمؤسسة التعليمية، بل تعدى الأمر إلى جوانب العملية التعليمية ككل، ويمكننا أن نعتبر حجة الوقف بمثابة القانون الأساسي للمؤسسة التعليمية التي تضم الأسس التربوية للتعليم، والشروط الواجب توفرها في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وعلى أي مذهب فقهي تتم الدروس في الجوامع.<sup>(3)</sup>

وما زاد الوقف ازدهاراً هو إجازة العلماء له على طلب العلم واعتبار ذلك من وجوه البر، وأن هذا الباب من الانفاق يعادل الجهاد في سبيل الله، استناداً إلى الأحاديث النبوية التي تضع مرتبة العلم والعلماء في مرتبة أعلى من الجهاد والشهداء، فقد ورد عن الرسول عليه السلام (أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد، فأما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأهل الجهاد جاهدوا بأسيا فهم على ما جاءت به الرسل)، لذلك حرص السلاطين العثمانيون وكبار موظفيهم وأمرائهم على رصد الأوقاف الكثيرة على المؤسسات التعليمية للصرف عليها من أجل ضمان استمرار العمل بها بصورة منتظمة.

(1) - لواء القدس الشريف من دفتر مفصل (T.D.515 An.) (1005هـ/ 1596 - 1597م) دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية مع الشروحات الإيضاحية محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2012م، ص 166 - 171.

(2) - وقفية بيرم جاويش بن مصطفى على رباطه ومكتبه في القدس الشريف، سنة 952هـ، كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 3، مرجع سابق، ص 122.

(3) - عبد السلام تدمري: "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م" مرجع سابق، ص 6.

لكن تواجدت فئة في المجتمع انخرطت في الحياة العلمية على الرغم من أنها ليست من رجال العلم، لكن وربما لأسباب شخصية فإنها توالي العلماء وتساعدهم وتهب لهم الهبات وتتولى أمور البعض منهم وتصرف عليهم لكي يتفرغوا إلى العلم والدراسة.<sup>(1)</sup>

إن ارتباط المؤسسات التعليمية بالأوقاف هو ما كفل لتلك المؤسسات حرية الحركة والاستقلالية العلمية والتي مكنتها (المؤسسات) من أداء دورها على الوجه اللائق والأنسب.<sup>(2)</sup>

### 3 - أوضاع التدريس والمدرسين في الدولة العثمانية :

تمتع الذين يتولون الوظائف الدينية في الدولة العثمانية في مجال القضاء خاصة في مدن حلب والقدس ودمشق والمدينة والقاهرة وبورصة وأدرنة ومكة واسطنبول، أو منصب قاضي العسكر في الرومللي والأناضول أو شيخ الاسلام بمكانة مرموقة في الدولة العثمانية، وهذا يعطينا فكرة عن مكانة مدن بلاد الشام في الجانب العلمي والقضائي<sup>(3)</sup>، لكن هذا لا يعني بأن هذه الفئة لا تعاني من النقائص والمشاكل، فقد عرفت فئة العلماء أزمة حادة دفعت بها أحيانا إلى التمرد والغليان في المدارس، وكذا حالة السخط التي كان القضاء الصغار يعبرون عنها بالاحتجاجات الكتابية والتظاهرات<sup>(4)</sup>.

وإذا كانت حالة السخط وسط المدرسين واضحة في المدن الكبرى للدولة العثمانية أو القريبة من المركز، فإن الوضع ظل نوعا ما غير واضح بالنسبة للمدرسين في البلدات والمدن الإقليمية، فالفرق يبدو واضحا بين أوضاع المدرسين والعلماء في المدن الكبرى حيث الجاه والأمل بالترقي، وأوضاع علماء المدارس الصغيرة والقضاة المحليين الذين تنتهي مطامعهم بالوجهة المحلية<sup>(5)</sup>.

(1) - ندى زاهد صعيدي : العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري على ضوء كتاب الغزي "الكواكب السائرة" رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، سنة 1974، ص 40.

(2) - تناولنا في موضوع الأوقاف الدور الذي قامت به في مجال التعليم سواء بالنسبة للطلبة أو الموظفين، أو المؤسسات التعليمية.

(3) - ثريا فاروقي : "العلم والعلماء والدولة : دراسة في الأصول الاجتماعية للعلماء في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة الاجتهاد عدد 4، دار الاجتهاد، بيروت، 1989، ص 186.

(4) - لقد أدت الزيادة الكبيرة لأعداد الخريجين من المدارس في مقابل تواضع عدد المناصب في المدارس والقضاء إلى حدوث أزمة في التوظيف، أما الأوقاف فكانت تتزايد بشكل مطرد، وبخاصة أنها تمكن الواقف من إبقاء ملك يده خارج نطاق الدولة أو مصادرتها، ولأن الوقف على المدارس كان يتضمن أيضا مخصصات مادية للطلبة فإن هذا يعني أن فئة العلماء كانت مفتوحة لأناس خارج كل الوقت، أما هؤلاء المتخرجون وبعد فترة جلوس طويلة على مقاعد الدراسة يجدون مشقة في العثور على عملهم. نفس المرجع، ص 199.

(5) - كثيرا ما وقف علماء المراتب العليا أثناء حدوث الاضطرابات مع الادارة والسلطان ضد صغار القضاة وصغار المدرسين، وهذا يشير إلى حجم الشرخ الذي حدث بين المراتب العليا للعلماء وبين المراتب الدنيا في الجاه والمناصب ووجوه التفضيل والوراثة الأسرية والشراء والعلاقات المشابكة بالإدارة السلطانية. نفس المرجع، ص 200.

أما الترقّيات فإنّه ليس من الواضح إن كانت هناك مدارس من نوعيات مختلفة للصعود أو للبقاء في نطاق التدريس المحلي من خلال سير العلماء، لكن مدارس الدولة العثمانية في عهد مراد الرابع كانت ذات هرمية دقيقة من حيث ما يدرّس فيها، ومن حيث المدرّسين، والهرمية مهمة لاختلاف مرتبات المدرّسين فيها<sup>(1)</sup>.

عموما لم تكن أجور المدرّسين كبيرة، إلا أنها تكفي لحياة كريمة، وقد لوحظ بأن أجر المنصب التدريسي الرفيع في اسطنبول<sup>(2)</sup> كان يعادل مرتين تقريبا أجر السباهي، وأربعة أضعاف أجر الانكشاري<sup>(3)</sup>.

كانت الامتحانات تجري لطالبي التدريس بالمدارس في حال وجود أكثر من مرشح للمنصب التدريسي الواحد، فأحيانا يذكر "عطائي" أسماء الممتحنين والممتحنين، وموضوعات الأسئلة المطروحة، والفائز الذي تولى المنصب، بل والمنافس الذي خسر في الامتحان، لكنه حصل على الرغم من ذلك على منصب آخر، ومعنى هذا أن البراعة الأكاديمية كانت تلعب دورا في الوصول إلى منصب ما في (العلمية)<sup>(4)</sup>.

كان المعيار في نجاح العالم المدرّس في تعليمه، ثقافته الموسوعية المكيّنة المؤيدة بالعديد من إجازات العلماء له الذين درس عليهم، أكانوا من بلده أم من البلدان الاسلامية الأخرى، أم من العلماء الوافدين من أنحاء البلاد العربية والاسلامية لزيارة مؤقتة، أو أثناء رحلة من رحلاتهم العلمية، أو أثناء رحلة الحج، وفي الحقيقة فإن وجود دولة اسلامية واحدة مترامية الأطراف تحكم معظم تلك الأصقاع هي الدولة العثمانية قد ساعد في تنقل العلماء بين البلاد العربية والاسلامية مما شكل ظاهرة علمية وتعليمية صحية استفادت منها الحياة الثقافية والفكرية في بلاد الشام وفي البلاد العربية والاسلامية عموما<sup>(5)</sup>.

#### 4 - موضوعات التعليم واتجاهاته:

يمكننا من خلال تراجع علماء القرنين 10 و 11هـ في كتاب نجم الدين الغزي: (الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة)، ومحب الدين الحبي (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) التعرف على مواد وموضوعات الكتب المدروسة والمدرّسة، وهي على العموم: العلوم الاسلامية، اللغة وآدابها، العلوم

(1) - كان المدرّس في المدارس الأولية المسماة "حاشية تجريد" يتلقى فيها من 15 - 20 أقة يوميا، ثم تأتي مدارس "المفتاح" و تدفع يوميا من 30 - 35 أقة يوميا، ثم تأتي المدارس المعروفة بـ "قرقلي مدرسة" لأن المدرس كان يتقاضى 40 أقة يوميا. نفسه، ص 194.

(2) - المدارس التي يتولاها القرقلي أي الأربعين أقة، أو تلك المعروفة بمدارس "الخارج" والتي تدفع 50 أقة في اليوم. نفسه، ص 195.

(3) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، مج 2، مرجع سابق، ص 333 - 334.

(4) - ثريا فاروقي، المرجع السابق، ص 190.

(5) - نفسه، ص 334.



العقلية الرياضية والفلك، الأدبيات التاريخية والجغرافية، والعلوم الطبية، كما كانت العلوم التي تدرّس في مختلف المؤسسات التعليمية العالية تختلف من مدرسة لأخرى، ومن المدرسة إلى الزاوية، ومن حلقة في مسجد إلى حلقة أخرى، وإن وكان الهدف الديني هو الأغلب،<sup>(1)</sup> فنجد التصوف يدرّس في الزوايا والخوانق<sup>(2)</sup>، ولكن هذا لم يمنع وجود هامش لتدريس العلوم الشرعية الأخرى في هذه الزوايا، إلى جانب علم تفسير القرآن حيث ظهر تفسير شيخ الاسلام في الدولة العثمانية أبي السعود بن محمد العمادي (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، والذي انتهى منه في شهر شعبان 973هـ، وقدمه للسلطان سليمان القانوني<sup>(3)</sup>، ومحمد بدر الدين الغزي الدمشقي المولود سنة 904هـ والمتوفى سنة 984هـ/1577م، والذي وضع ثلاثة تفاسير.<sup>(4)</sup>

الجانب الثاني الذي اهتم به المدرسون هو اللغة العربية وعلومها كعلم الصرف والنحو والبلاغة بما تتضمنه من علم للبيان، والمعاني، والبدیع، دون إغفال علم العروض، والفائدة الأساسية من تلقي هذا الجانب من علوم اللغة هو تسهيل فهم العلوم الدينية.

كانت العلوم العقلية على قدر من الأهمية بالنسبة للمدرّسين، على الرغم مما صدر من أحكام قاسية ومجحفة من كثير من الباحثين العرب والغربيين بأنها لم يُنتج في ميدانها انتاجا ذا شأن يمكنه أن يتناسب مع ما كانت قدمته الحضارة العربية والاسلامية في عهود سابقة، والمقصود بالعلوم العقلية: الرياضيات والفلك، والطب والفيزياء، والكيمياء والنبات والحيوان وغيرها بل واعتبر أولئك الذين تابعوا دراساتهم في المجالات المتعلقة بالرياضيات والفلك والتاريخ إنما فعلوا ذلك بدافع الاهتمام الشخصي وليس الاهتمام الوظيفي، ولعل الحجة التي يسوقها دوما هؤلاء هي أن الدولة العثمانية كانت تقتصر في اهتمامها بالدرجة الأولى بإعداد القضاة وكبار المدنيين والعسكريين.<sup>(5)</sup>

(1) - ثريا فاروقي، المرجع السابق، ص 308.

(2) - كانت هناك مدارس تُلقن فيها أصول الصوفية، وقد أوقفت لها الأوقاف الواسعة، وأطلق على بعضها اسم (الخانقاه)، وهو مكان لإيواء الفقراء، وعلى بعضها اسم (الزوايا) وهي معابد يأوي إليها الزهاد والنسك المتعبدون وفيها مسجد ومضافة. انظر خير الدين الأسدي، موسوعة حلب المقارنة، ج3، إعداد محمد كمال، ط1، جامعة حلب، 1987، ص 302.

(3) - مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج1، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين بالتقيا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 65.

(4) - واحد من هذه التفاسير منشور، واثنان منظومان، وكان المشهور فيها المنظوم الكبير في مائة ألف بيت وثمانين ألف بيت وحاشيتان على شرح المنهاج للمحلي. نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة، ج3، ص 6.

(5) - أنظر (هـ) جب و(هـ) بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ج2، مرجع سابق، ص 213.



أما الطب ؛ فكان من العلوم التي درّست في مدارس صحن ثمانية في عاصمة الدولة اسطنبول ، والتي كان بها مستشفى ملحق بها<sup>(1)</sup>، في حين كانت ببلاد الشام أربعة مدارس لتعليم الطب في دمشق وحلب<sup>(2)</sup>، وممن برز من العلماء محمد بن مكي المتوفى سنة 938هـ / 1532م عالم بالطب والهندسة<sup>(3)</sup>، و خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين المتوفى سنة 971هـ عالم الحساب والميقات والموسيقى والطب<sup>(4)</sup>، والطبيب محمد بن يونس المتوفى سنة 1008هـ<sup>(5)</sup>، وفي القرن 17م برز الطبيب صالح بن نصر الله المعروف بابن سلوم الحلبي الذي تولى منصب رئيس الأطباء في الدولة العثمانية.<sup>(6)</sup>

ومن الموضوعات الطبية التي حظيت بالاهتمام لدى أطباء تلك الفترة هو داء الطاعون نظرا لكثرة ما أصاب الناس من فتكه، حيث ظهر كتاب الطبيب فتح الله محمود بن محمد بن الحسن الحلبي المعروف بالبيلاوني الشافعي المتوفى سنة 1042هـ / 1631م، والذي وضع له عنوان: "خلاصة ما يعول عليه الساعون في أدوية دفع الوباء والطاعون"<sup>(7)</sup>، والطبيب مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي نسبة لطول كرم كرم بالقرب من مدينة نابلس وكتابه أحدهما بعنوان "تحقيق الظنون بأخبار الطاعون"، والثاني بعنوان "ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون".<sup>(8)</sup>

ونالت العلوم الرياضية حظها من الاهتمام خاصة الحساب والهندسة والفلك، وهذه العلوم لها صلة بحياة الناس سواء بالنسبة للحساب وما يتعلق بتوزيع التراكات على وراثتها، أو علم الهندسة وما يرتبط به

- 
- (1) -أنظر (هـ) جب و(هـ) بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ج2، مرجع سابق، ص 210.
- (2) -أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج2، مرجع سابق، ص 342.
- (3) -محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، مرجع سابق، ص 52.
- (4) -نفسه، ص 53.
- (5) - نفسه، ص 55.
- (6) -محب الدين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج2، مصدر سابق، ص 240.
- (7) - نفسه، ج3، ص ص 254 - 255.
- (8) - نفسه، ج4، ص ص 358 - 359.

من إنشاء الأبنية وإقامة الجسور التحصينات العسكرية، وقد برز في الدولة العثمانية المعماري سنان<sup>(1)</sup> الذي بنى العديد من المنشآت،<sup>(2)</sup> أما علم الفلك فله صلة بالعبادات والمعاملات اليومية.

ما يمكن ملاحظته بالنسبة لهذه الفترة هو أن المدرسين كثيرا ما كانوا يجمعون بين علوم مختلفة ومتداخلة، وأحسن مثال على ذلك " ابن طولون الصالحي الدمشقي المؤرخ<sup>(3)</sup>، والذي أخذ العديد من العلوم كالمنطق<sup>(4)</sup>، والطب<sup>(5)</sup>، والهندسة<sup>(6)</sup>، والحساب وعلم الفرائض<sup>(7)</sup> والفلك<sup>(8)</sup>، وله كتاب في الحساب بعنوان: ( لب الباب في فنون الحساب) ويشتمل على علم الحساب المفتوح، والقلم، والمساحة، والخطأين، والجبر والمقابلة، والدور، والوصايا، وحساب الدرهم والدينار.<sup>(9)</sup>

وتزخر كتب التراجم المختلفة<sup>(10)</sup> بذكر عشرات العلماء والمدرسين في مختلف المجالات مما يعطي فكرة واضحة عن الجو العلمي والدراسي للمنطقة خلال فترة القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين.

(1) - ولد سنان حوالي 1490م وتوفي سنة 1588م، وخلال هذا العمر الطويل عمل بصفته معمار باشي (أي رئيس المعمارين) لمدة لا تقل عن خمسين سنة أي منذ سنة 1537/1538 إلى 1588م وهي فترة مكنته من تشييد المئات من المباني المتنوعة من مساجد وقصور وأسبلة ومستشفيات وجسور وغيرها، بل وكان مهندسا معماريا من الطراز الرفيع في التخطيط والتنفيذ والعناية بالجانب الجمالي والذي أعطى قيمة إضافية للفن المعماري الاسلامي وجعله يصل إلى قمة جديدة. ميري شيفير موسنسون، تاريخ العلوم عند العثمانيين: الإبداع الثقافي والتبادل المعرفي، ترجمة محمد شعبان صوان، ط 1، دار الروافد الثقافية، بيروت بلبنان، 2019، ص ص 226 - 227.

(2) - على الرغم من كثرة هذه المنشآت المنجزة يبقى أهم مشروعين يرتبطان بالمعماري سنان هما السلمانية في اسطنبول التي أنشأها للسلطان سليمان القانوني بين سنتي 1551 - 1557م، والسلمية للسلطان سليم الثاني في أدنة بين 1556 - 1575م، إلى جانب قيامه بصيانة القنوات والسدود. نفس المرجع، نفس المكان.

(3) - كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وإعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى.

(4) - محمد ابن طولون، الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون (سيرة ذاتية للمؤلف)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن ابن حزم، ط 1، بيروت، 1996، ص 45.

(5) - نفسه، ص 46.

(6) - نفسه، ص 47.

(7) - نفسه، ص 48.

(8) - نفسه، ص 50.

(9) - نفسه، ص 129.

(10) - برزت الكثير من كتب التراجم والحياة الفكرية عموما، ويبقى النعيمي وكتابه (الدارس في تاريخ المدارس) فاتحة الاهتمام بهذا الجانب من الحياة العلمية، إلى جانب محمد ابن طولون الدمشقي (مفاكهة الخلان)، الحسن بن محمد البوريني (تراجم الأعيان من أبناء الزمان)، محمد الأمين المحبي (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، رضي الدين الحنبلي (در الحبيب في تاريخ أعيان حلب)، نجم الدين الغزي (الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة) عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) محمد ابن خليل المرادي (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر).

## 5 - مناهج وطرق التعليم:

عرفت المؤسسات التعليمية بمختلف أنواعها في بلاد الشام حركية تعليمية نشطة ساعدت الدولة العثمانية على تفعيلها، لكن في نفس الوقت تركت لها هامشا كبيرا في جوهر العملية التعليمية، بحيث لم تتدخل في فرض لغتها التركية<sup>(1)</sup>، وأبقت على اللغة العربية في مختلف مراحل التعليم، بل أنها كانت اللغة التي فرضت الدولة على العلماء العثمانيين المدرسين المرسلين إلى ايلات بلاد الشام أن يعلموا بها، وجعلوا منها لغة التعليم في المدارس العثمانية ذاتها.<sup>(2)</sup>

ومثلما لم تفرض الدولة اللغة التركية، فإنها لم تعتمد منهجا محددًا للتدريس واكتفت بالإبقاء على ما هو معهود في كل مؤسسة، لكن في المقابل حرصت إلى حد ما على نشر المذهب الحنفي وتعليمه، فقد كان القاضي الحنفي في ايلات بلاد الشام يقترح مبدئيًا أسماء المدرسين من العلماء الذين يرى تسليمهم المناصب الشاغرة بسبب العزل أو الوفاة ممن عرف واشتهر في بلده بالعلم الواسع والأخلاق الفاضلة، ويتوخى ما أمكن تنفيذ ما أتى في شرط الواقف، لكن هذا التعيين يبقى متوقفا على البراءة السلطانية التي تأتي من اسطنبول إن كان المنصب في المؤسسات الكبيرة والمشهورة، أو من السلطة المحلية في المدن الأخرى<sup>(3)</sup>، لذلك يمكن أن يتم تعيين مدرسين من الأتراك والأعاجم أو من العلماء الوافدين من أنحاء العالم الاسلامي، بالأخص منهم من كان يتقن اللغة العربية وكان عالما في العلوم التي يدرسها.<sup>(4)</sup>

لكن قد يشترط صاحب الوقف أن يكون المدرسون من مذهب غير المذهب الحنفي، فقد كانت بعض المساجد مخصصة للتعليم وفق المذهب الشافعي حسب شرط الواقف كما هو الحال في مسجد ومدرسة "

(1) - على الرغم اتخاذ الدولة العثمانية اللغة التركية لغة رسمية للدولة، فإنها لم تسع إلى تغيير البنية اللغوية في بلاد الشام وفي باقي الولايات العربية. أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج2، مرجع سابق، 308.

(2) - فاضل بيات: " التعليم في العراق في العهد العثماني ( دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية ) " القسم الأول، مرجع سابق، ص30.

(3) - كان التعيين في وظيفة مدرس يتم بموجب عقد شرعي يحرره القاضي ويتم فيه ذكر اسم المدرس، ومكان التدريس سواء مدرسة أو جامعا، كما يعين عليه مصدر و مبلغ الأجرة التي يتلقاها المدرس، فقد جاء في حكم شرعي عن القاضي بمحكمة طرابلس الشام أن القاضي عيّن " فخر الطلبة النجب " الشيخ عمر بن المرحوم الشيخ محمد بن مرحبا في أواسط شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية في وظيفة التدريس بجامع التوبة الكائن باطن طرابلس، من متحصلات وقف الجامع المذكور، في كل يوم خمس عثمانيات فضيات سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 1، ص140، نقلا عن: نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال سجلات المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 225.

(4) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، مج2، مرجع سابق، ص 333.

البرطاسي " في مدينة طرابلس الشام<sup>(1)</sup> ، ونفس الشيء في جامع العطار على المذهب الشافعي باعتبار أنه هو المذهب السائد قبل دخول العثمانيين إلى بلاد الشام.<sup>(2)</sup>

يشير محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي إلى الطريقة التي تلقى بها علومه بأنها: تعتمد على القراءة والحفظ والعرض على العلماء الذين بدورهم يمنحون إجازة للطلاب بعد عرضه حيث يقول بأنه: " حفظ كتاب (المختار) في الفقه على مذهب أبي حنيفة، وعرضه على شيخ الاسلام زين الدين بن العيني الصالحي بمحل تدريسه بالجامع الأموي داخل دمشق، ثم توفي ولم يكتب له عرضا، ثم حفظ كتاب (المنار) في أصول الفقه للعلامة حافظ الدين النسفي، وكتاب ( الخلاصة الألفية) في النحو للإمام جمال الدين بن مالك، و) المقدمة الأجرومية) للإمام أبي عبد الله بن آجروم... وعرضهم على شيوخه، ومنهم شيخ الشافعية تقي الدين ابن قاضي عجلون، وكتب في عرضه: " فقد عرض علي الولد المبارك، اللبيب الأريب النجيب، ذو الهمة العلية، والفتنة الزكية، عرضا حسنا محررا متقنا، دلّ ذلك على حفظه لجميع الكتب المذكورة، أعانه الله على درايتها، كما وفقه لروايتها، وجعله من العلماء العاملين، والأئمة المهديين."<sup>(3)</sup>

كان التدريس يتم في مجالس عامة وخاصة<sup>(4)</sup>، ويشير المرادي بأنه من عادة المدرسين والوعاظ بالجامع الأموي "الجلوس على كرسي مرتفع"<sup>(5)</sup>، وفي هذه المجالس يتم تدريس مختلف الفنون والعلوم كالنحو والصرف والبيان والمعاني والمنطق والأصول والحديث<sup>(6)</sup>، وهناك من العلماء من جمع بين العلوم النقلية والعقلية ومن ثمة جاءت افادته لطلبته متنوعة ويذكر المرادي بأن: عثمان بن رجب المعروف بالشمعة الشافعي المولود قبل سنة 1080هـ بقليل وهو من أخذ العلم عن الشيخ عبد الغني النابلسي وجلس لإفادة العلوم في الجامع الأموي، وعكف عليه الطلبة في كل فن من العلوم النافعة فكان يقرئ في أكثر من عشرة

(1) - جاء في الوقفية: بسم الله الرحمن الرحيم: أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسي عفا الله عنه وعلى المنشغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعي وإقامة الجُمع والصلوات المكتوبة، وشرط أن لا يُرسم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له الحق في ذلك. عمر عبد السلام تدمري، "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م"، مرجع سابق، ص 6.

(2) - نفسه، ص 6.

(3) - ابن طولون، الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون (سيرة ذاتية للمؤلف)، مصدر سابق، ص 28 - 29.

(4) - كان الشيخ أبو الفتح العجلوني الدمشقي المولود أحد مدرسي الجامع الأموي و من مقيمي الذكر في الجمعات في المشهد المعروف بالسفرجلاني على الطريقة الشاذلية. محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني، ج 1، المطبعة الميرية العامرة، بولاق، القاهرة، 1301 هـ، ص 66.

(5) - نفسه، ج 1، ص 11.

(6) - نفسه، ص 66.

علوم وفي أصول الدين والفقه وأصوله، والفرائض والحساب والنحو والصرف والمعاني والبيان والبدیع ومصطلح الحديث والمنطق ومع براعته في التفسير والقراءات.<sup>(1)</sup>

## 6 - مواقيت التدريس:

تكون المواعيد عادة مرتبطة بالمدرس، فهناك من يدرس "بين العشاءين وبكرة النهار"،<sup>(2)</sup> ويذكر المرادي في سلك الدرر بأن أبا المواهب بن عبد الباقي الحنبلي عاد إلى دمشق بعد وفاة والده سنة 1072 هـ، وجلس للتدريس مكانه في محراب الشافعية بين العشاءين وبكرة النهار لإقراء الدروس الخاصة، فقرأ بين العشاءين الصحيحين والجامعين الكبير والصغير للسيوطي، والشفا ورياض الصالحين للنووي، وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه واثخاف البررة بمناقب العشرة للمحب الطبري وغيرها من كتب الحديث والوعظ<sup>(3)</sup>، أما في حالة شغور منصب التدريس كثيرا ما كان القاضي أو أحيانا والي دمشق هو الذي يتدخل بإسناد التدريس إلى مدرس جديد.<sup>(4)</sup>

من الأماكن الأخرى التي يتم فيها التدريس نجد كذلك دور القرآن الكريم حيث يذكر النعيمي وجود سبعة منها في دمشق هي: الخيضرية، الجزرية، الدلامية، الرشائية، السنجارية، الصابونية، الوجيهية<sup>(5)</sup>، بالإضافة إلى دور الحديث الشريف، منها دار الحديث الأشرفية، دار الحديث الأشرفية البرانية، دار الحديث البهائية، دار الحديث الحمصية، دار الحديث السامرية، دار الحديث السكرية، دار الحديث الشقيشقية، دار الحديث العروية، دار الحديث الفاضلية، دار الحديث القلانسية، دار الحديث القوصية، دار الحديث الكروية، دار الحديث النورية، دار الحديث النفيسية، دار الحديث الناصرية.<sup>(6)</sup>

إلى جانب التدريس في المدارس والجوامع والكتاتيب كان بطرابلس الشام منتزه التل الذي كان قديما يعرف بتل المشتهى وهو تل مرتفع من الرمال كان يعتبر خارج المدينة في العصر العثماني ويقع بين طرابلس والميناء وكان الناس (رجالا ونساء) يقصدونه للتنزه، وبه مصلى ومنبر لإقامة صلاة العيدين، ومن تولى التدريس به الشيخ علي بن أحمد السنيني.<sup>(7)</sup>

(1) - نفسه، ج 3، ص ص 166 - 167.

(2) - نفسه، ج 1، ص 68.

(3) - نفسه، ص 68.

(4) - حينما توفي العلامة السيد محمد بن عجلان النقيب في سنة 1096 هـ تدخل قاضي الشام المولى السيد مصطفى الاسكداري

الرومي وعين اسماعيل بن تاج الدين المحاسني بأمر من الدولة العلية للشروع في التدريس بالجامع الأموي. نفس المصدر، ص 251.

(5) - النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص ص 7 - 14.

(6) - نفسه، ص ص 15 - 90.

(7) - عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ص 24.

وعلى الرغم من وجود كل هذه المؤسسات على اختلاف أنواعها ومستوياتها يقتصر الرحالة الفرنسي جان باتيست تافرنيه الذي زار حلب في النصف الأول للقرن 17م (1638م) في مطلع رحلته الثانية حول التعليم بالمدينة بذكر ما يلي: " في حلب مدرستان أو ثلاث، إنما بهن قلة من الطلاب وعدد من الأدباء المعينين بالأجرة لتدريس قواعد اللغة وشيء من الفلسفة بالإضافة إلى الشؤون المتعلقة بدينهم، وهي العلوم التي يصرفون إليها جل اهتمامهم ودأبهم".<sup>(1)</sup>

## 7 - المكتبات:

الحديث عن التعليم يجرنا إلى الحديث عن المكتبات الخاصة والموقوفة وأسماء الكتب وأسعارها وأماكن تواجدها، وتدل مقتنيات المكتبات الخاصة على ثقافة صاحبها الدينية والدينية، فمن خلال فهرس المكتبة يمكن معرفة اهتمامات أصحابها، فهذا علي بن هبة الله من سكان مدينة طرابلس احتوت مكتبته على كتب في الطب، والعلوم، والفقه، والسيرة، والأصول، والأدب، والتوحيد، والتاريخ، واللغة العربية، والحديث، والزهد، والنحو والصرف، والتفسير والعقائد، والشعر، والفرائض، ومجاميع في التركية، قُومت بعد وفاته بمبلغ مائتين وعشرين قرشا أسديا.<sup>(2)</sup>

تدل المكتبات والكتب التي تم اقتناؤها على مدى سعة الاطلاع وكذا ثقافة أصحابها، فمن خلال فهرس المكتبات التي تركها أصحابها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي بطرابلس الشام والتي ضمت كتباً في الطب والعلوم والفقه والسير والأصول والأدب والتوحيد والتاريخ واللغة العربية والزهد والنحو والصرف والتفسير والعقائد والشعر والفرائض يمكننا أخذ فكرة على الاهتمامات العلمية لتلك الفترة<sup>(3)</sup>، وهي لا تختلف كثيراً على ما كان سائداً خلال القرنين 10 - 11 الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وهو ما توضحه حجج سجلات المحاكم الشرعية، وبالاتماد على بعض الوثائق الشرعية من محكمة القدس مثل وقفية الشيخ يحيى شرف الدين بن محمد ابن قاضي الشلت سنة 1007هـ لكتبه على طلبة العلم، (وكان هذا الشيخ يقيم بمدينة القدس في المدرسة الأمينية بالقرب من ساحة الحرم القدسي) وفيها دفن سنة 1040هـ،<sup>(4)</sup> واعتماداً على نص الوقفية التي أوقف بها كتبه يصبح بإمكاننا التعرف على الجو الثقافي السائد في تلك الفترة من القرن العاشر إلى غاية القرن الحادي

<sup>1</sup> Jean Baptiste Tavernier ; les six voyages de jean Baptiste Tavernier ECUYER BARON D'AUBONNE Qu'il a Fait EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDES ; 1ere partie, Paris, p136

<sup>(2)</sup> - عمر عبد السلام تدمري، المرجع السابق، ص 26.

<sup>(3)</sup> - نفسه، ص ص 26 - 27.

<sup>(4)</sup> - كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، مرجع سابق، ص 153.

عشر في بلاد الشام عموماً ومدينة القدس التي كان يقيم فيها الواقف بحيث كانت هذه المكتبة تضم أزيد من مائة عنوان لعل أبرزها: تفسير البيضاوي وتفسير الزمخشري (الكشاف) وصحيح البخاري ومسلم...<sup>(1)</sup>

من خلال قائمة الكتب الموقوفة يمكن أخذ فكرة عن الكتب ومجالات المطالعة التي كان المثقفون خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين يتداولونها، وكيف كان الجو العلمي في تلك الفترة، ومجموع الكتب الموقوفة يزيد عن المائة عنوان، وفي حقول مختلفة من الثقافة الإسلامية خاصة التفاسير وكتب النحو وغيرها، ويبدو أن المثقفين في ذلك العصر اهتموا بالأساس بالثقافة الدينية، بينما لا تكاد المواضيع أو الكتب التي تتناول مجالات الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة تذكر إلا لدى القليلين، وانصرف جلّ اهتمام الناس عنها.

ويبدو من خلال الوثائق الثلاثة الموجودة بين أيدينا والتي تتعلق الأولى كما أسلفنا إلى وقفية أكثر من مائة عنواناً، أما الوثيقة الثانية فموضوعها هو الكتب المخلفة عن الشيخ شرف الديري إمام الصخرة المشرفة سنة 984هـ، ومن أبرز عناوين الكتب الواردة في الوثيقة هي: أحكام القرآن للرازي في ثلاث مجلدات، الحكم (لأبن عطا)، الاسعاف في الفتاوى الكبرى، وقاضي خان في جلدتين، شرح الألفية لابن عقيل، النجوم الزاهرة في السبع المتواترة، صدر الشريعة، العيني على الكنز، شرح المجمع لابن فرشتا، مجموع به الناسخ والمنسوخ لابن عربي، تفسير البيضاوي، شرح الشذور، شرح التوضيح...<sup>(2)</sup>، أما أسعار الكتب فكانت مرتفعة بالنسبة لسواها من المقتنيات، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كونها مخطوطة باليد، وتحتاج في كتابتها إلى جهود مضيئة، وما يشير إلى هذه الأسعار هو وثيقة تتمثل في دعوى رفعها "فخر الأفاضل" ملا محمود على شخص يدعى محي الدين بن عبد الله من أرض روم بشأن سرقة حوائج مختلفة وكتب له كانت في حجرته بالمسجد الأقصى، فقد بلغ سعر كتاب أبي حامد الغزالي "إحياء علوم الدين" أحد عشر سلطانيا ذهباً، كتاب الفتوحات المكية لابن عربي، قيمته ست وعشرون ذهباً، كتاب الأحاديث الشريفة لابن حجر قيمته خمس وخمسون قطعة (فضية)، كتاب الفصوص وشرحه لملا جامي قيمته أربع سلطانيات ونصف ذهباً...<sup>(3)</sup>

(1) - (1) - كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، مرجع سابق، ص 153 - 154.

(2) - نفسه، ص 252 - 258.

(3) - نفسه، ص 261.



## ثانيا - المؤسسات الصحية:

لا يخفى ما للجانب الصحي من أهمية كبيرة لارتباطه المباشر بحياة الانسان وتأثيره على النشاط الاقتصادي والاجتماعي، وقد عانى السكان في بلاد الشام على الدوام من الأمراض الفتاكة، لا سيما الطاعون الذي ضرب المنطقة خلال فترات متتالية<sup>(1)</sup>.

ليس المقصود من دراسة الجانب الصحي تتبع تاريخ نشأة الطب في بلاد الشام وتطوره، ولا مدى شفاء الناس من الأمراض التي تصيبهم، بقدر ما نبحت في معرفة كيف وأين كان الناس يعالجون خلال القرنين الأولين من الوجود العثماني في المنطقة، وهل توافر الأطباء والمشافي، وما مستوى الرعاية الصحية المقدمة؟

### 1 - المؤسسات الاستشفائية:

تتمثل أساسا في البيماريتسان (بفتح الراء وسكون السين) وهي كلمة فارسية الأصل مركبة من مقطعين: (بيمار) وتعني المريض أو العليل أو مصاب، و(ستان) بمعنى مكان أو دار، فهي إذن: دار المرضى وفي الاصطلاح هو المكان الذي يعالج في المرضى بإشراف أطباء مختصين، ويحتوي على خدمات متكاملة يحتاج إليها المريض من دواء وطعام وشراب، وكل ما يلزم للطبيب من أدوات وخدمات مساعدة<sup>(2)</sup>

كانت البيماريستانات موجودة في بلاد الشام قبل دخول العثمانيين، ولعل ما عرفته المنطقة من قلاقل وحروب ونزاعات سواء مع المغول أو الصليبيين قد زاد من الاهتمام بها وبشؤون المرضى والجرحى والعجزة وحتى من الغرباء<sup>(3)</sup>، ويعتبر البيمارستان النوري (نسبة إلى نور الدين محمود الزنكي) المتوفى سنة 569هـ / 1174م، الذي بني سنة 549هـ / 1154م في مقدمتها، بل وكان من أشهر البيماريستانات التي عهدها

(1) - تعرضت بلاد الشام في القرن الرابع عشر الميلادي لوباء خطير وصفته المصادر العربية بالفناء الكبير، أو الطاعون الأعظم، وقد بدأ بحلب ومنها انتشر إلى جميع بلاد الشام، وعم كل مدينة وقرية، واستمر هذا الطاعون يفتك بالمنطقة منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ملحقا الفناء ببلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي. يوسف درويش غوانمه: "الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام في العصر المملوكي" مجلة دراسات تاريخية، العددان 13 - 14، أكتوبر 1983، جامعة دمشق، ص 75.

(2) - أحمد عيسى، تاريخ البيماريستانات في الاسلام، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة القاهرة، 2012، ص 8، محمد عثمان سعيد الخطيب، الأوقاف الاسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لقسم التاريخ جامعة اليرموك، الأردن، سنة 2007، ص ص 176 - 177، حسن حلاق و عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والتركية والفارسية، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1999، ص ص 48 - 49، محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1990، ص 41.

(3) - محمد عثمان سعيد الخطيب، نفس المرجع، ص 177.



الشرق<sup>(1)</sup>، واستمر في تقديم خدماته حتى أواخر الدولة العثمانية، ومُن تولى منصب رئاسة الأطباء فيه السيد هاشم بن محمد وهو من الأشراف<sup>(2)</sup>، إضافة إلى البماريستان القيّمري في الصاحية بدمشق والذي بدوره استمر يعمل حتى العهد العثماني، وكان للبماريستان عيادة داخلية تضم قاعتين واحدة للرجال والأخرى للنساء مخصصتان للمرض بالهَيْضَة والاسهال، وبه مقصورة كبيرة لحفظ الدواء، كما كانت الأدوية تمنح مجاناً<sup>(3)</sup>، والبماريستان الأرغوني الواقع في محلة باب قنسرين بحلب، الذي يعود تاريخ انشائه إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وقد تولى رئاسة الأطباء فيه جمال الدين بن أحمد الأثروني المتوفي سنة 978هـ/1570م<sup>(4)</sup>.

## 2 - مدى اهتمام الدولة العثمانية بالجانب الصحي:

اهتمت الدولة العثمانية بالعاملين في مجال الطب سواء الجراحين أو الكحالين وسعت لتحقيق الاستفادة من الخدمات التي يقدمها هؤلاء، وما يعطينا فكرة عن تقدم هذا المجال ما وصل إليه جراح وكحال مصري من شهرة دفعت السلطة العثمانية إلى مراسلة البكلربكي بضرورة إرساله إلى العاصمة اسطنبول، لكنه لم يرد في الحكم سبب إرسال طلب احضارهما إلى مركز الدولة، غير أننا يمكن أن نفهم من وراء حرص الديوان في توجيه أمر إرسال الطبيبين ربما يكون من أجل معالجة إحدى الشخصيات البارزة هناك<sup>(5)</sup>.

كما حظي تدريس الطب في مدارس الدولة العثمانية بالاهتمام، فقد كان الطب من العلوم التي درّست في مدارس صحن ثمانية في عاصمة الدولة اسطنبول، والتي كان بها مستشفى ملحق بها<sup>(6)</sup>، كما كان في اسطنبول رئاسة للأطباء يعرف صاحبها بالحكيم باشي والذي كان عضواً في هيئة العلمية، وفي الربع الأخير من القرن السابع عشر بدأ اتصال الأطباء في الدولة العثمانية بالأطباء الأوربيين، وفي القرن الثامن عشر منع الحكيم باشي في عهد السلطان أحمد الثالث (1703 - 1730م) الأطباء الأجانب من ممارسة عملهم<sup>(7)</sup> قبل أن يتراجع عن ذلك خاصة مع ما بدأ الأطباء الملحقين بقنصليات بلدانهم معالجة أفراد الجالية

(1) - جان سوفاجييه، دمشق الشام، تعريب فؤاد أفرام البستاني، تحقيق أكرم حسن العلبي، ط1، 1989، ص 81.

(2) - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ج2، مصدر سابق، ص 255.

(3) - المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج2، مصدر سابق، ص 25.

(4) - رضي الدين ابن الحنبلي، در الحبيب، ج1، مصدر سابق، ص 458-459.

(5) - مهمة دفتری 3، ص 136، حكم 351، نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج2، ص 337. جاء

فيه: "حكم الى بكلربكي مصر: نظرا لضرورة حضور الكحال أحمد بن عبد الله والجراح علي بك الساكنين في المحروسة مصر إلى سدتي لاستخدامهما هناك، فقد أمرت: عند وصوله، تقوم بإرسالهما على الفور ودون تأخير مع مستلزماتهما إلى سدتي العليا مع المذكور، وتحول دون قيامهما بالتعلل والتعذر. في 21 ذي الحجة 966هـ/1559/09/24م."

(6) - جب وبون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج2، مرجع سابق، ص 210.

(7) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج2، مرجع سابق، ص 341.

أو السكان المحليين الذين تربطهم بهم المعاملات التجارية، كما أن بعض المستشفيات كانت مراكز لدراسة الطب بحيث يتم تعيين شيخ للاشتغال بعلم الطب أو مدرس للطب متفق عليه وعلى عدد من الطلبة يشتغلون بالطب معه<sup>(1)</sup>.

### 3 -تنظيم مهنة الطب:

تبين إحدى وثائق المحكمة الشرعية للقدس مؤرخة في 12 ربيع الثاني سنة 971هـ أنه كان لدى رئيس طائفة الأطباء الشيخ شمس الدين محمد الحكيم رئيس الأطباء بالقدس مرسوم سلطاني قدمه أمام قاضي القدس يقضي بعدم جواز ممارسة مهنة الطب أو الجراحة أو الصيدلة إلا بعد اذنه وموافقته، كما يقضي بتأديب المخالفين لهذا المرسوم<sup>(2)</sup>.

كان الطبيب أو الجراح يلجأ إلى القاضي لتحرير عقد بينه وبين المريض يتعهد فيه المريض ببراءة ذمة الطبيب في حالة وفاته، وتزخر سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية بالعديد من الأمثلة، وفي نفس الوقت تعطينا فكرة عن بعض الأمراض التي تصيب الناس في تلك الفترة من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، ومن عرف بالطب في القدس الشريف نجد الطبيب نقولا ولد يافي الجراح النصراني بالقدس، وكان يمارس عمله بعد توقيع عقد أمام الحاكم الشرعي بالقدس يتعهد فيه المريض بعدم متابعة الطبيب في حالة الهلاك، وكان يعالج الفتق للكبار أو للصغار، فقد استأجر (النصراني المدعو حنا ولد اسرائل المسطور من نقولا الطبيب الجراح الرومي على أن يداوي ما به من داء الفتاق، وأن يصنع له الأدوية التي يعرفها بأجرة قدرها اثنا عشر غرشاً عديدة حالاً مقبوضة)<sup>(3)</sup>، ونفس الطبيب استأجره أحد النصاري بالقدس على أن يداويه من داء الفتاق، ووقع عقداً أمام القاضي أنه إن هلك بسبب معالجته إياه لا يذمه ولا يطالبه بأجرة قدرها اثنا عشر غرشاً عديدة مقبوضة<sup>(4)</sup>، واستأجره كذلك المدعو سليمان بن رباح من أهالي طولكرم بجبل نابلس ( لولده موسى القاصر ليداويه من داء الفتاق ويصنع له أدوية لمرضه، وكان أجره خمسة عشر غرشاً عديدة مقبوضة، وتعهد أمام الحاكم الشرعي أحمد أفندي بن مصطفى أفندي أنه إذا مات الابن موسى بسبب العلاج فيكون ذلك بقضاء الله، وليس لوالد الطفل أن يتابع الطبيب أمام

(1) - عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ و الحضارة، ج2 (أوراق في التأريخ الاقتصادي)، ط1، دار الغرب الاسلامي بيروت 2007، ص 254.

(2) - سجل 45، الوثيقة 35، من سجلات محكمة القدس الشرعية لسنة 971هـ، العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج3، مرجع سابق، ص 51.

(3) - حجة رقم 2، مؤرخة في 9 جمادى الأولى 1082هـ / 12 - 9 - 1671م، سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج2، ص 17.

(4) - حجة رقم 4، مؤرخة في 17 جمادى الثانية 1082هـ / 20 - 10 - 1671م، سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج2، ص 107.

المحكمة<sup>(1)</sup>، ونفس الطبيب الجراح تم استجاره من طرف (ميخائيل ولد ناصر النصراني ليداوي له فتقه الذي به بالأدوية والجراحة ويتقيد أما الحاكم الشرعي بالقدس الشريف أحمد أفندي، ويأخذ أجره قدرها اثنا عشر غرشا عديدة، وأشهد عليه أنه إن حلّ به حادث الموت فبقضاء الله)<sup>(2)</sup>.

كما استأجر السيد حسن بن المرحوم السيد يوسف النصراني المدعو نقولا ولد يافي الرومي على أن يداويه من داء الحصار بأجرة قدرها خمسة وعشرون غرشا مقبوضة بالاعتراف الشرعي أنه إن صار له شيء وقضي عليه فلا يُطالب ولا أحد يتعرض إليه بشيء<sup>(3)</sup>.

ويبدو أن هذا الطبيب ذاع صيته ليس فقط في مدينة القدس الشريف وجوارها مثل جبل نابلس، بل وصل إلى مدينة طرابلس، ففي تاريخ 12 شعبان 1088هـ، تعهد (الذمي يعقوب ولد غانم الراهب بدير "البلمند" الواقع بناحية الكورة التابعة لطرابلس الشام أنه استأجر الذمي نقولا ولد يافي الجراح لإخراج ما فيه من فتق في جانبه الأيمن ومداواته بالمراهم تكون أجرته عشرة غروش، ويتعهد أمام القاضي أنه إن مات بقضاء الله وقدره من معالجة المؤجر له، لا يكون ضامنا له، وأبرأ ذمته من دمه وديته، وأن لا يستحق هو ووريثه من بعده من قبل الجراح حقا من الحقوق الشرعية)<sup>(4)</sup>.

في القرن السابع عشر الميلادي برز الطبيب صالح بن نصر الله المعروف بابن سلوم الحلبي الذي تولى منصب رئيس الأطباء في الدولة العثمانية<sup>(5)</sup> وقد استخدم ابن سلوم طرقا كيميائية لتحضير الأدوية<sup>(6)</sup>.

(1) - حجة 2، مؤرخة في 28 ربيع الثاني 1082هـ / 01- 09- 1671م، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج 1، 476.

(2) - حجة 4، مؤرخة في 10 ربيع الثاني 1082 / 15- 08- 1671م سجل 173، ج 1، محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 426.

(3) - حجة 2، مؤرخة في 17 رجب 1082هـ / 18- 11- 1671م، سجل 173، ج 2، محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 162- 163.

(4) - سجلات محكمة القدس الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 2، نقلا عن نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس، مرجع سابق، ص 290.

(5) - ولد ابن سلوم في حلب حيث درس الطب هناك، وسرعان ما صعد حتى أصبح كبير الأطباء محليا، ثم هاجر إلى العاصمة اسطنبول أين أظهر مهاراته المهنية في الطب، وفضائله الاجتماعية، إذ تصفه المصادر بأنه لطيف المزاج، محاور ممتع، راوية جذاب، له صوت غنائي جميل، مما أهله لكي يصبح كبير الأطباء في الدولة، ويؤلف رسالته في الطب أين دمج بين البنية التقليدية والمعارف الطبية الشائعة في الطب العثماني العلمي مع المعارف الجديدة عن الطب الكيميائي الأوربي والتي طرحها الطبيب السويسري (باراسيلسوس : 1493- 1541م). ميري شيفير موسنسون، العلم عند العثمانيين، الإبداع الثقافي والتبادل المعرفي، مرجع سابق، ص 212.

(6) - نفسه، ص 212، المحبي: خلاصة الأثر، ج 2، مصدر سابق، ص 240.

انتبه الرحالة الغربيون الذين زاروا بلاد الشام خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر لما كان يقدمه الأطباء والمستشفيات بصفة عامة، فقد أبدى أحد الرحالة الفرنسيين الذي زار المنطقة سنة 1555م والذي كان هو الآخر طبيباً إعجابه بمهنة الطب في دمشق وخدمة الأطباء فيها، حيث كان الطبيب يأخذ معه الأدوية اللازمة عند زيارة المريض، بل أن الطبيب لا يأخذ أجره حتى يتأكد من أن المريض شفي تماماً<sup>(1)</sup>.

في النصف الثاني للقرن السابع عشر يذكر الفارس دارفيو الذي زار دمشق سنة 1660م وجود مصحة بظاهر المدينة مخصصة للمصابين بداء البرص، إضافة لوجود مشفى يعزل فيه المجانين يسمى المرستان<sup>(2)</sup>، وتواجد في دمشق بعض الأطباء وبعض الجراحين الفرنسيين الذين يأتون من أجل اكتساب مزيد من الخبرة بالإضافة إلى جني شيء من المال<sup>(3)</sup>.

برزت مساهمة هؤلاء الأطباء الأجانب في الجانب الصحي في بلاد الشام إلى جانب الأطباء المحليين، فقد كانت الجاليات الأوربية المتواجدة في المدن الكبرى خاصة حلب تضم في صفوفها أطباء يقومون بمعالجة أفراد الجالية وكذا الأهالي الذين لهم معاملات مع هؤلاء التجار الأجانب، فقد كان هناك طبيب بندقى واحد على الأقل في المدن الشامية التي كانت تضم جاليات بندقية وكان عمله القيام بمعالجة الجالية، لكن لا بد من أن عمله امتد إلى السكان المحليين لا سيما المسيحيين والذين كانت تربطهم صلة المعاملات التجارية مع تلك الجاليات ولم يقتصر على مواطنيه<sup>(4)</sup>.

لم تقف الدولة العثمانية عائقاً في وجه ممارسة هؤلاء الأطباء الأجانب لهذا العمل، بل كانت تشجع العلوم المرتبطة بالطب، وهناك من الأطباء البنادقة من أقام في دمشق وحلب مدة طويلة، وتمكن من اكتساب اللغة العربية والعثمانية، ونجح في عمله، ونال احترام الناس من جميع الفئات<sup>(5)</sup>.

في القرن السابع عشر نجد طبيباً آخر من فلورنسا كان في خدمة الأمير فخر الدين المعني الثاني يدعى "نالدي M.Naldi"، وطبيب آخر من جنسية فرنسية مقيم في بيروت<sup>(6)</sup>، كما أن فخر الدين المعني استعان

(1)- Belon de Mans, Pierre , les observations de plusieurs singularités et choses mémorables, trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays étranges, Paris 1555, pp 332-333.

(2)- Mémoires du chevalier d'Arvieux, T2, p p 457-458.

(3)- ibid, p464.

(4) - ليلي الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، العاشر والحادي عشر الهجريين، ج 1، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989، ص 525.

(5) - نفسه، ص 526.

(6) - نفسه، ص 526.

بأطباء إيطاليين لوقف انتشار وباء الكوليرا الذي اجتاحت حلب في النصف الأول للقرن السابع عشر (سنة 1630 م)<sup>(1)</sup>.

كان المسؤولون الأوربيون يعتقدون بأن مستوى الأطباء في بلاد الشام في هذه الفترة من القرن السابع عشر يبقى محدودا مقارنة بنظيره في الدول الأوربية، لذلك - حسب رأيهم - لم يتمكنوا من معالجة التجار الوافدين من أوروبا على موانئ طرابلس وعكا والاسكندرون في ظل تفشي أمراض وأوبئة عديدة على غرار الطاعون والكوليرا، فكان على الدول الأوربية أن تحذو حذو البندقية في تعيين طبيب لجالياتها، فكان منهم اثنان فرنسيان في مدينة صيدا كانا يعملان طبيين وجراحين في ذات الوقت<sup>(2)</sup>، وفي القرن الثامن عشر يمكن ذكر الأخوين راسل صاحباً كتاب: (التاريخ الطبيعى لحلب)<sup>(3)</sup>، وكان الإقبال كبيرا على هؤلاء الأطباء من طرف السكان المحليين وخاصة من طرف كبار الموظفين<sup>(4)</sup>.

#### 4 - التنظيم الحرفي لطائفة الأطباء:

شكل الأطباء والجراحون والحكماء طائفة حرفية ضمت في صفوفها المتعاطون للطب البشري ومعالجة المرضى، وكان في مدينة القدس البيمارستان الصلاحي وبيمارستان اليهود، وضمت هذه الطائفة في عضويتها المسلمين والنصارى واليهود، ومن أشهر من تولى مشيخة هذه الطائفة كل من الطبيب المعلم محي الدين بن سلطان الجراحي سنة 1054هـ/1644م، والحاج مصلح جلبي رئيس الأطباء في مدينة القدس الشريف خلال سنوات 1098 - 1105هـ/1687 - 1693م، واللذان كانا يقومان بالعديد من العمليات الجراحية<sup>(5)</sup>.

كما كان الحلاقون والجراحون ضمن نفس الطائفة الحرفية، والتي كان لها شيخ واحد، ومن المعروف أن الحلاق كان يقوم ببعض الأعمال الطبية، ولكن ليس من الضروري أن يقوم الجراح بالحلاقة،

(1) - يلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، العاشر والحادي عشر الهجريين، ص 526.

(2) - نفسه، ص 528.

(3) - ألكسندر راسل (1715 - 1768) وبارتريك راسل (1727 - 1805) طبيبان بريطانيان عملا ضمن الجالية البريطانية بحلب، بعد اتقان الأخ الأكبر وهو ألكسندر للغة العربية راح يمارس مهنة الطب ليعالج مختلف الأجناس التي كانت تقيم في حلب من أوربيين ومسلمين ومسيحيين ويهود، وقد سمح له ذلك بالتعرف على المجتمع الحلبي فألف كتابه بعنوان: تاريخ حلب الطبيعى سنة 1756م، أما الأخ الأصغر "بارتريك" فقد انضم لأخيه وخلفه في منصبه كطبيب، وتابع دراساته عن الطاعون، وعن أساليب التلقيح المتبعة في بلاد العرب. الأخوين راسل، تاريخ حلب الطبيعى، ص 12.

(4) - المرجع السابق، ص 529.

(5) - أحمد حسين عبد الجبوري، القدس في العهد العثماني (1640 - 1799م) دراسة سياسية - عسكرية - إدارية - اقتصادية - اجتماعية - ثقافية، ج 2، ط 1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2011، ص 179.

لذلك تبقى مسألة كون اشتغال الحلاق بالطب حقيقة أو أن الجراحين لم يتمكنوا من إيجاد طائفة خاصة بهم فاندمجوا مع الحلاقين<sup>(1)</sup>.

## 5 - الأمراض والأوبئة والوفيات :

يعتبر الطاعون مرض وبائي معد ينتقل إلى الإنسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان، ويصيب الغدد اللمفاوية ويودي بحياة المصاب في مدة لا تتجاوز خمسة أيام، لذلك نعت الطاعون في المصادر العربية بالوباء والفناء العظيم، ووصفته المصادر الغربية بالموت الأسود، وقد عرفت بلاد الشام الطاعون في العديد من المرات مثلما حدث في سنة 1555م، حيث أصاب سكان دمشق طاعون أودى بحياة الكثيرين، حتى أن هناك من يعزو نقصان سكان دمشق في هذه الفترة إلى هذا الوباء<sup>(2)</sup>، أو ذلك الذي أصاب حلب سنة 1669م وخلف بضعة آلاف من الضحايا<sup>(3)</sup>، وتناولت كتب الاخباريين معلومات كثيرة عن معاناة مدن وبلدات بلاد الشام من الأمراض التي تدل عليها الوفيات الكثيرة كما ورد في يوميات الخانقاه في حمص أواخر القرن السابع عشر، لكن الأخطر منها كانت جوائح الأوبئة التي عصفت بحياة السكان، فكان لا حل أمام الوباء الذي ضرب حمص سنة 1126هـ سوى أن أمر القاضي بأن يصعد المؤذنون والأئمة إلى المآذن ليرتلوا القرآن ويتضرعوا إلى الله ليرفع عنهم البلاد<sup>(4)</sup>.

تعددت الأمراض والأوبئة التي أصابت السكان في بلاد الشام وأبرزها الحميات بكل أنواعها سواء المتواصلة، والمتقطعة، التي تنتشر عادة في الربيع وتختفي ابتداء من شهر جوان مع حلول الصيف، والحميات الشاذة التي تبدأ في الظهور في فصل الربيع لكنها تزداد حدة خلال موجات الحر في الصيف، والتي يصحبها الإسهال ويكون الأطفال بوجه خاص الأكثر عرضة لها، كما تنفشي الحميات الإلتهابية، وتلك التي تدعى بالنزلة من شهر ديسمبر إلى مارس أو أبريل<sup>(5)</sup> إضافة إلى أمراض الجداز والملاريا، والتي تصيب اليهود أكثر من غيرهم بسبب عدم أخذهم بأسباب النظافة<sup>(6)</sup>، ويبقى وباء الطاعون أشدها فتكا، لما يخلفه من ضحايا، ومن كثرة ما أصاب المنطقة أن أهالي حلب ساد لديهم الاعتقاد بأن مدينتهم يحل بها هذا الوباء مرة كل عشر سنوات تقريبا، وأن هذا الوباء غير مستوطن بالمدينة بل ينتقل إليهم من البلدات الموبوءة المجاورة مثل كلس

(1) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 40.

(2) - نفسه، ص 6.

(3) - Laurent d'Avrieux, Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la Porte, consul d'Alep, tome sixième Paris, page 414.

(4) - "في 7 ليالي خلت من جمادى الثانية 1126هـ أمر أحمد أفندي حاكم الشرع الشريف بأن يصعد المؤذنون والأئمة إلى المآذن ويقرأوا سورة الدخان لدفع الوباء". محمد عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص، مصدر سابق، ص 264.

(5) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 348.

(6) - نفسه، ص 350.

وغازي عنتاب ومرعش وأورفة من ناحية، أو من دمشق من ناحية أخرى، فإذا ظهر في صيدا، فإن بيروت أو طرابلس أو دمشق تكون عادة القناة التي ينتقل منها إلى حلب، وأنهم يعتقدون مجزمين بأن الوباء ينتشر مع قدوم فصل الربيع بينما تحف وطأته كلما زادت درجة الحرارة مع قدوم فصل الصيف حتى أنه يزول تماما خلال أشهر الخريف<sup>(1)</sup>، لكن من وجهة النظر العلمية للطبيب البريطاني باتريك راسل الذي كان يعمل طبيبا في حلب خلال منتصف القرن السابع عشر الميلادي فإن ذلك يبقى مجرد اعتقادات بعيدة عن المنطق أو تجانب الحقيقة وهذا من خلال الملاحظات التي أبداه في تقريره<sup>(2)</sup>.

## 6 - نظام الرعاية الصحية:

إن نظام وطريقة عمل البيمارستانات يعطينا فكرة عن الرعاية الصحية التي توفرها للمرضى، حيث يتكفل البيمارستان بعلاج المريض وتقديم الأدوية الضرورية له، إلى جانب التغذية المناسبة أثناء إقامته في البيمارستان، ولم يقتصر عمل الأطباء داخل البيمارستان فحسب، بل تعداه إلى تقديم خدمات طبية من خلال ارسال أطباء للأرياف والمناطق النائية لتقديم الخدمات الصحية في فترات معينة<sup>(3)</sup>، بل وهناك تنوع للمستشفيات، فهناك مستشفيات للمجانين وأخرى للمجذومين، ويمكننا -مما ذكره الرحالة أوليا جلبي أثناء رحلته إلى مصر في القرن السابع عشر الميلادي - أن نكون فكرة دقيقة عن هذا الجانب فهو يذكر بأن التداوي في هذه المستشفيات يكون مجانا، ذلك أن النفقات تأتي من الأوقاف أو من برّ أصحاب الخير، وحتى الفقراء يقدمون خدمات للمرضى مجانا<sup>(4)</sup>.

إن المعلومات التي يوردها أوليا جلبي عن المستشفى هامة جدا لمعرفة مستوى الرعاية الصحية بها، فالمشفى به حجرات واسعة بها مقصورات وُجدت خصيصا من أجل استمتاع المرضى باستنشاق الهواء الصحي النقي، وأن المرضى ينامون بأروقة تحت ألحفة حريرية، يساعدهم ممرضون بعناية فائقة، وبعض الأجنحة مخصصة للمرضى المجانين<sup>(5)</sup>.

لا شك بأن هناك ترابط بين الصحة والنظافة، وهو ما لم يغفل عنه القائمون عن الجانب الصحي، لذلك فإن وجود عدد كبير من الحمامات أوقفها أصحابها على خدمة المساجد والجوامع و سائر أوجه الخير هو الأساس في حفظ الصحة، ويحرص أوليا جلبي على أن يولي جانب النظافة في الحمام كل الاهتمام

(1) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 365.

(2) - نفسه، ص 367.

(3) - عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج2، مرجع سابق، ص 254.

(4) - أوليا جلبي، سياحة نامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003، ص 346.

(5) - نفس المصدر، ص 347.



(فأثوابه نظيفة، كما أن صاحبه نظيف، يخصص في الصباح للرجال وأما بعد الظهر فيخصص للنساء، وعند منتصف الليل يطهر الحوض ويملاً بماء جديد طاهر)<sup>(1)</sup> بل أن بعض الحمامات يكون الاستحمام فيها مجانياً<sup>(2)</sup>، ويدل وجود الحمامات على مدى الحرص على النظافة في المجتمع في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش ظاهرة (الوساخة) على حد وصف الرحالة العباسي أحمد ابن فضلان الذي زار بلاد الروس في القرن العاشر الميلادي.<sup>(3)</sup>

إن طبيعة المناخ في بلاد الشام ساعدت كثيراً في الاكثار من استخدام الحمام، ففي الشتاء يؤمن الدفء وفي الصيف يؤمن إزالة العرق والشوائب، هذا إلى جانب أن الطهارة ركن الصلاة الأساسي، كما أن استخدام الحمام أمر شائع لدى أطباء العصور الإسلامية كسبيل للتخلص من بعض الأمراض وهذا ما زاد من مكانة وأهمية الحمامات.

إن أهم عامل يساعد على الرعاية الصحية هو مدى وعي الناس، ولا شك بأن وجود هذا الحسّ والوعي لدى سكان المحلة من شأنه أن يقدم خدمة جليلة للصحة العامة، فما أن يظهر مريض حتى يعرضه أهل المحلة على الباشا، ويستصدرون أمراً بوضعه في المستشفى لمعالجته، ذلك أن المستشفى لا يقبل المريض إلا بأمره<sup>(4)</sup>، وترد الإشارة إلى أمر مهم آخر في الجانب الصحي، وهو إشراف الأطباء بأنفسهم مع مساعديهم على إعداد الطعام للمرضى، فلكل مريض الطعام الذي يناسب المرض الذي يعاني منه، كما يقوم مساعده الأطباء بإطعام المرضى الفاقدين للوعي بأنفسهم<sup>(5)</sup>، ولم يكن الأطباء من أهل المدينة فحسب فحسب وإنما أيضاً من العرب الغرباء عن المدينة<sup>(6)</sup>.

أشار أوليا جلبي إلى وجود الفصادين الذين يقومون بالتلقيح، وتتم معاينة المريض بحس النبض ووصف الدواء، علماً أن الدواء المقدم للمريض يصنع في المستشفى، وتتم عملية جلب العقاقير لصنع

(1) - أوليا جلبي، سياحة نامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، ص 340

(2) - نفسه، ص 341.

(3) - يذكر ابن فضلان في رحلته أن (الروس أقدر خلق الله، لا يغتسلون من غائط أو تبول، ... ولا يغسلون أيديهم من طعام ...) . أحمد ابن فضلان بن العباس بن راشد بابن حماد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ/921م، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1959، ص 151.

(4) - المصدر السابق، ص 347.

(5) - نفسه، نفس المكان.

(6) - نفسه، ص 348.



الدواء من أماكن بعيدة سواء من الصعيد أو الواحات أو بلاد الحبش وبلاد الفونج ، كما خصص جانب من المستشفى للنساء ومجموع خدمته منهن أيضا<sup>(1)</sup>.

لا شك بأن النموذج الذي يقدمه أوليا جلبي عن مصر هو نفسه ما كان في بلاد الشام أو في اسطنبول في أواخر القرن السابع عشر، فقد تم اكتشاف لقاح الجدري الذي تم تلقيح الأطفال به في اسطنبول ضد الجدري سنة 1695م، وفي بداية القرن 18م شاهدت سفيرة إنجلترا في اسطنبول كيفية صنع ذلك اللقاح وأخبرت المعنيين هناك عند عودتها، قبل أن تقرر الأكاديمية العلمية الفرنسية سنة 1764م أن هذا اللقاح "قد يكون مفيدا"<sup>(2)</sup>.

مثلما قامت المؤسسات الوقفية في المجال التعليمي بتقديم الخدمات التعليمية، فإننا نجد البيماريستانات قد قدمت الرعاية الصحية للسكان، وقدمت خدمات في تجهيز الموتى ودفنهم في المقابر وغيرها من الخدمات المختلفة بفضل ما تم رصده لها من أموال ومنشآت وأراضي وبساتين ساهمت في تخفيف العبء عن السكان والاعتناء بصحتهم.

### ثالثا - الأوقاف:

لعب الوقف دورا مهما في بناء المدن حضاريا والمقصود بالجانب الحضاري هنا هو كل ما اشتملت عليه عملية التطور والبناء ليس فقط على المستوى المادي من تنمية اقتصادية وعمرانية كإنشاء البنايات والأسواق والخانات والحارات، بل تشمل أيضا التنمية البشرية والفكرية لمجتمع المدينة في حقول التعليم والمدارس والمكتبات وفي حقول التصوف، كما اشتمل على جانب دعم الفقراء والمساكين وتوفير الطعام والسكن لهم إضافة إلى معالجة المرضى وإيواء المسافرين.

تميزت مدن بلاد الشام خاصة الحواضر الكبرى منها على غرار دمشق والقدس الشريف وحلب مثل غيرها من مدن العالم الاسلامي بكثرة الأوقاف بشقيها الخيري والذري، كما كان للأوقاف دور في تنشيط جميع أوجه مرافق الحياة في مجتمع المدينة وحتى خارجها، فقد أوجدت الأوقاف شبكة من العلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية تميزت بالديمومة، فلأجل استمرارية الوقف كان لابد للواقف من توفير مداخل ثابتة لمؤسسته عبر وقف العقارات التجارية من أسواق ودكاكين وخانات وحمامات، أو عبر وقف

(1) - نفسه، ص 348.

(2) - يلماز أوزتونا، موسوعة الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، مج4، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط1، الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان، 2010، ص ص 534 - 535.

أرض زراعية ليصرف ريعها على هذه المؤسسة وهذا في حد ذاته يخلق شبكة من العلاقات بين القائمين على هذه المؤسسة والعاملين فيها والمستأجرين لعقاراتها وكذا المنتفعين منها.<sup>(1)</sup>

## 1 -تعريف الوقف:

**لغة :** الوقف بمعنى الحبس ، و وقف الأرض على المساكين ، أو للمساكين بمعنى حبسها ، وتقول : وقفت الشيء أفقه وقفا ، ولا يقال : أوقفت إلا على لغة رديئة.<sup>(2)</sup>

**أما اصطلاحا :** فهو عند الحنفية ، حبس العين على حكم ملك الواقف والتصدق بالمنفعة،<sup>(3)</sup> فقوام الوقف حبس العين ، فلا يتصرف فيها بالبيع والرهن والهبة ، ولا تنتقل بالميراث على مقتضى شروط الواقف.<sup>(4)</sup>

أما الموقوف فاشتراط الحنفية أن تكون العين الموقوفة صالحة للبقاء ، لذا قرروا أن الأصل في الوقف أن يكون عقارا ، والعقار في نظر الفقهاء هو الأرض ، وفي أحوال استثنائية قرروا أيضا أن يكون المنقول في بعض الحالات متصلا بالعقار كالبناء والشجر ، أو مخصصا لخدمة العقار كالمحاريث والبقر العامل عليها ، ومنها ما ورد أثر بجواز وقفه كالأسلحة والكراع (للجهاد) ، وما جرى به عرف كوقف الكتب والمصاحف.<sup>(5)</sup>

يعود نظام الوقف الاسلامي في أساس نشأته إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " ومن هنا عُرف الوقف أنه صدقة جارية ، وعُرف عن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) قوله لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما أراد التقرب إلى الله (عز وجل) بأرض له : " إن شئت حبست أصلها و تصدقت بثمرتها " ومعنى تحبب الأصل أن لا يباع ولا يورث ولا يوهب ولكن يترك أصله ويجعل ثمره في سبل الخير وبمعنى آخر: أن

(1) - موسى سرور: " دور الأوقاف الاسلامية في التنمية العمرانية في القدس " حوليات القدس ، العدد 14 مؤسسة الدراسات المقدسية ، خريف - شتاء 2012 ، ص 64.

(2) - ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (وقف) ، مج 9 ، سبق ذكره ، ص 359 - 360.

(3) - محمد بن علي بن محمد الحنفي الحصكفي (ت 1088هـ / 1677م : الدر المختار ، تحقيق عبد المنعم خليل ابراهيم ، منشورات محمد علي بيضون ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 ، ص 369.

(4) - عبد العزيز الدوري ، أوراق من التاريخ والحضارة ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 245.

(5) - نفس المرجع ، ص 249.

الوقف: حبس العين والتصدق بالمنفعة، أو التصدق بربع العين الموقوفة سواء كانت أطيانا أو عقارات سكنية أو حوانيت.<sup>(1)</sup>

## 2 -توسع الأوقاف وانتشارها في بلاد الشام:

انتشرت الأوقاف بشكل واسع في بلاد الشام كما في مصر أيام السلطنة المملوكية<sup>(2)</sup>، وتمثلت في وقف العديد من القرى على المساجد وعلى نحو خاص على المسجدين الأقصى في القدس والابراهيمي في الخليل وكذا على المدارس في القدس ودمشق ونابلس والرملة وحلب، كما وقف السلاطين الأراضي على أنفسهم وذريتهم من بعدهم، وعلى الصوفية والقضاة والولاة والمفتين، وقد وفر الوقف لهذه المؤسسات المال الكافي للإنفاق على المدارس والزوايا والأربطة والمقيمين فيها من طلبة وأئمة وشيوخ وقراء ومحدثين، ثم توسعت لتشمل أملاك بيت المال، وهو إرصاد الحاكم للأراضي الزراعية على جهة بر أو على الأفراد.<sup>(3)</sup>

نظريا يتولى السلطان الاشراف على الأوقاف باعتباره إماما للمسلمين ويمكنه بحكم كونه المسؤول عن الأراضي أن يتدخل بمنحها للآخرين على سبيل الملك أو رصدها على جهة خيرية، ويتبين هذا التوسع من نطاق الأموال الموقوفة، إذ أنها صارت تشمل الأراضي الزراعية، والمباني، والخانات، والقيساريات،<sup>(4)</sup> والحمامات، والطواحين، والأفران، ومخازن الغلال، والمصابن، ومعاصر الزيت.<sup>(1)</sup>

(1) - محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991، ص 15 - 16؛ أحمد هاشم بدرشيني، أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي (1250 - 1517م) دراسة تاريخية - حضارية - وثائقية، رسالة دكتوراه في التاريخ الاسلامي مقدمة لجامعة أم القرى سنة 2001م - المملكة العربية السعودية، ص 1.

(2) - كان من دوافع ذلك هو سعي الممالك لإضفاء الشرعية على حكمهم والتقرب من الرعية، كما أن عددا من سلاطينهم وجدوا في الوقف سبيلا للمحافظة على أملاكهم وتأمين مورد دائم لأنفسهم وأولادهم، ولعل هذا هو السبب في أحداث تطور في تنظيم الوقف وهو وقف عقارات وأراض يزيد ريعها زيادة كبيرة على مصاريف الوقف التي يحددها الواقف في وثيقة وقفه، وينص صراحة على أن الفاضل من ذلك يعود إلى الواقف ثم إلى ذريته من بعده، وبذلك يضمن واردا مجزيا للأولاد والذرية إذ يتعذر حل الوقف. عبد العزيز الدوري: أوراق في التاريخ والحضارة، ج2، مرجع سابق، ص 252.

(3) - أول من أوقف أراضي بيت المال على التكايا والمساجد وغيرها هو السلطان المملوكي نور الدين الزنكي، و وافقه على ذلك جماعة من المذاهب الأربعة بالرغم من أنه لا يصح الوقف من غير المالك، وإنما رأوا بأنه إرصاد وإفراز لبعض مال بيت المال، ثم هذا السلطان صلاح الدين الأيوبي حذوه، فأوقف كثيرا من أراضي بيت المال على الفقهاء بمدارسه بمصر والشام والقدس وعلى الصوفية. محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر 648 - 923هـ/ 1250 - 1517م، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2014، ص 61 - 62.

(4) - القيسارية مبنى مربع يتخذ هيئة الرواق، ويضم غرضا ومخازن وحوانيت للتجار، لكن عادة ما تستخدم في تجارة الجملة، وأحيانا تخصص في تجارة سلعة معينة وتحمل اسمها، ففندق الزيت في تونس (يطلق أهل تونس اسم الفندق على القيسارية) يشمل تجارة الزيت، ووكالة الصابون في القاهرة (الاسم الذي يطلق على القيسارية في القاهرة) كانت المركز الرئيسي لتجارة الصابون، وفي حلب اقتصرت تجارة الصابون على خان الصابون وحده، وهذا التخصص أراح كثيرا التجار الذين هم من أصل قومي واحد،

عندما حلت الدولة العثمانية ببلاد الشام قامت برعاية الأوقاف التي كانت موجودة زمن المماليك<sup>(2)</sup> وأضافت لها أوقافاً جديدة وأحدثت بعض الإجراءات لتتماشى مع الأوضاع الجديدة من ذلك عدم العمل بالاستبدال ، كما أجاز فقهاء المذهب الحنفي الذي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية أن يعلن الامام حل الأوقاف إذا كان ذلك يمثل حاجة لجمهور المسلمين<sup>(3)</sup>، كما أخضعت أراضي الأوقاف لضريبة الخراج ولضرائب أخرى في هذه الفترة<sup>(4)</sup> لكنها استثنت تلك الموقوفة على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وكذا على قبة الصخرة والحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل<sup>(5)</sup>.

أما مسألة إشراف الدولة على الأوقاف فلم يشمل سوى الإشراف على الشؤون الاقتصادية للوقف أكثر منه في الشؤون الاجتماعية، فقد أشرفت الدولة على مراقبة حسابات الأوقاف<sup>(6)</sup> وشؤون العمارة

---

لذلك يمكن القول بأن القيساريات كانت في تنظيمها تشبه تنظيم الطوائف الحرفية، لذلك نجد أنها أحياناً تحت إشراف ناظر الوقف، ويقوم البوابون المقيمون في هذه الأماكن بالمحافظة على الأمن بها. أندري ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، مرجع سابق، ص 185 - 186.

(1) - عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج2، مرجع سابق، ص 252.

(2) - لا شك بأن الدولة العثمانية عند دخولها بلاد الشام واجهت مشكلة عظم أملاك الأوقاف، واتضح بسرعة مدى تأثير ذلك على الموارد السيادية للدولة من جراء إعفاء الأوقاف من الضرائب، لذلك ظهرت منذ البداية عملية الشد والجذب بين الدولة والمتنفعين بالأوقاف، لهذا يمكننا القول بأن ما تناقله بن طولون عما جرى في دمشق من وضع للدولة على أملاك ووثائق الأوقاف لا يعدو أن يكون إجراءات طارئة أو استثنائية في حالة الأزمات الاقتصادية، ولم يكن بأي حال من الأحوال هو جوهر السياسة الثابتة للعثمانيين تجاه موضوع الوقف. محمد ابن طولون، مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 342.

(3) - كان السلطان محمد الفاتح قد لجأ إلى هذا الاجراء خلال فترة حكمه عندما قام بوضع يده على قرابة عشرين ألف قرية ومزرعة ووزعها على أصحاب التيمارات على الرغم مما سببه ذلك من سخط في صفوف العائلات العريقة وكذلك في وسط العلماء والشيخ والدراويش. خليل اينالجيك، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، مرجع سابق، ص 49.

(4) - عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج2، مرجع سابق، ص 252 - 253.

(5) - أورد قانون نامة القدس نصاً واضحاً بشأن ذلك: "سجلت أوقاف الحرمين الشريفين والقدس الشريف و خليل الرحمان عليه الصلاة والسلام في الدفتر العتيق معفاة بشكل كلي من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية والعشر وسجلت في الدفتر الجديد كذلك معفاة من هذه الرسوم." دفتر مفصل (T.D. 516 Is)، ص 129، دفتر مفصل (T.D. 515 An)، ص 207.

(6) - لم تسلم من عمليات الاحتياال حتى أملاك الأوقاف والخواص السلطانية، وربما يأتي الضرر حتى من بعض رجال الدولة أنفسهم، فقد تم توجيه التهمة إلى رجال أمراء السناجق في الشام بالتعدي على الخواص السلطانية وإلحاق الضرر بعملية جبايتها، وهذا إنما حدث بسبب التقصير من جانب الدفتردار - حسب رأي الديوان الهمايوني - لذا صدر حكم سلطاني إلى دفتردار العرب يلومه عن هذا التقصير والتهاون في أداء عمله، وفي نفس الوقت يحمله مسؤولية التلاعب ويأمره بالتحرك فوراً وفي أسرع وقت لوضع حد لهذا التلاعب. مهمة دفتري E12321 ص 73 ب الحكم 165. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 1، سبق ذكره، ص 89.

والترميم<sup>(1)</sup> لهذه الأوقاف فضلا عن أساليب الانتفاع الاقتصادي بالموقوفات، وفي بعض الأحيان وجدت الدولة نفسها مضطرة للإشراف على العديد من شؤون الأوقاف.<sup>(2)</sup>

والمتبع للتاريخ العثماني يجد بأن هناك العديد من العوامل التي ساهمت في ازدهار الوقف في الدولة العثمانية، نجد في مقدمتها التقاليد العثمانية التي أخذها مؤسسو الدولة عن أسلافهم السلاجقة (سلاجقة الروم)، حيث كان للوقف فيها مهام تعليمية دينية اجتماعية مساعدة للدولة، أما العامل الثاني فنجدته مرتبط بنظام الدفشمرة، فالسلطان العثماني وضع نفسه المثل الأعلى لهؤلاء الغلمان الذين أغدق عليهم و وضعهم في أعلى المسؤوليات في جهاز الدولة ومنحهم امتيازات واسعة ساعدتهم في جمع ثروات كبيرة، لذلك كان من مصلحة هؤلاء أيضا الاقتداء بالسلطان في انفاق جزء هام من ثروتهم في مجال الوقف<sup>(3)</sup> وهكذا طالما أن السلطان نفسه يبادر لإنشاء الأوقاف فقد كانوا هم كذلك - من باب تعلقهم واقتنائهم بالسلطان ولائهم للدولة - يسارعون إلى وقف المشاريع الخيرية، ولاشك بأن الوقف ساعد الدولة العثمانية على انجاز هذه المهمة<sup>(4)</sup>، فقد كان الدفشمرة يعتبرون السلطان مثلهم الأعلى وأحسن مثال على ذلك سنان باشا.<sup>(5)</sup>

(1) - كانت أعمال البناء في هذه الحالة تحت إشراف الدولة مباشرة عن طريق رئيس المهندسين المعماريين، فقد أوجدت في كل اقليم مهندسا ومنحته صلاحيات واسعة لتحريك المعلمين المحليين وقوة العمل لإصلاح الجسور والمساجد وتوصيل المياه وإنشاء القنوات والمباني الحكومية الأخرى، أما ما يخص المباني التجارية والأسواق والحمامات العامة والتي كان الوقف هو المصدر الرئيسي للدخل فإن دور الدولة لا يعدو أن يكون دعما لهذه الهيئات الخيرية. خليل اينجليك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية/ مج 1، ص 149، وأحسن مثال على ترميم الأوقاف ما ورد في حجة شرعية تضمنت موافقة القاضي بالقدس على الشروع في اشغال الترميم بعد معاينة أحمد آغا رئيس المعمارية بالقدس والكشف على أماكن تضرر الوقف التابع للمدرسة الصلاحية بالقدس. حجة 1، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج 1، سبق ذكره، ص 56.

(2) - يعود ذلك إلى عوامل متعددة كضرورة الاشراف على أوقاف السلاطين السابقين أو ما يدخل في مهمة الامام في الاشراف على كل ما يهم شؤون رعيته. محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ص 247- 248.

(3) - يذكر لطفي باشا الصدر الأعظم بين سنتي 1539 - 1541م في عهد السلطان سليمان القانوني أن "القائم بمهام الصدر الأعظم يملك إقطاعا يدر عليه دخلا بمليون و مائتي ألف أقجة و له ثياب و خيول بقيمة مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف أقجة من قبل الأمراء... وهكذا لا بد أن يصل دخله السنوي حوالي مليونين و أربعمائة ألف أقجة، و هذا بفضل الله منحة كافية في الدولة العثمانية، و كنت أنفق شخصيا مليوناً و نصف مليون أقجة على حاجات مطبخي و موظفي، و نصف مليون أقجة على الصدقات وأوفر أربع مائة ألف أو خمسمائة ألف في خزينتي". لطفي باشا، قانون بني عثمان المعروف بـ آصف نامه، نشره الأب لويس شيخو، المكتبة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت 1911، ص 9.

(4) - محمد محمود الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الاسلامية، ط 1، دار الفكر، دمشق، 2000، ص ص 42 - 43.

<sup>5</sup> لنا مثال واضح في سنان باشا (1516 - 1596م) الذي تقلد منصب الصدر الأعظم - بعدما جاء هو الآخر من نظام الدفشمرة - أربع مرات ولمدة خمسة عشر عاما، وتمكن من جمع ثروة ضخمة من إيراداته من الدولة خصص الجزء الأكبر منها لخدمة مصالح

علاوة عن كون الوقف ظاهرة القصد منها هو التقرب الى الله - عز و جل - فإنها مع كثرة انتشارها خاصة في العهد العثماني فإنها أصبحت ظاهرة اجتماعية واقتصادية ، ولهذا نجد بأنها (أي الدولة العثمانية) أبدت حرصها الشديد - منذ الوهلة الأولى التي بسطت فيها سلطتها على بلاد الشام<sup>(1)</sup> - بعدم التعرض لمنشآت الوقف وجهات الوقف عليها - حتى ولو كانت لسلطين المماليك أنفسهم الذين حاربوهم - وهكذا نجد أنها تقوم بتحرير الأوقاف وضبطها وإعادة تسجيلها في سجلات خاصة جديدة هي دفاتر التحرير، وكانت أوقاف المساجد والمدارس والتكايا تحتاج إلى جهات لإدارة الأوقاف، فالأوقاف الصغيرة التي كانت تقتصر على عقار واحد أو حتى حصص من هذا العقار تختلف في طبيعة إدارتها عن الأوقاف الكبيرة ذات العقارات العديدة والأراضي الواسعة، فمع اشتراك الأوقاف جميعها في ضرورة وجود ناظر لكل وقف، إلا أن الأوقاف الكبرى تحتاج إلى جهاز إداري كبير للإشراف على شؤونها مع وجود موظفين ذوي مسؤولية مالية يتولون الحسابات المالية للوقف من إيرادات ومصروفات، أما الشؤون الشرعية للوقف من حيث صياغة الحجج ومعرفة المصطلحات الخاصة بالوقف وما يحتاج إليه الوقف من أمور فقهية<sup>(2)</sup> في أحوال متعددة فقد ترك أمرها للقاضي، أضف إلى ما تحتاجه المنشآت الموقوفة عليها من جهاز فني قوامه المهندس والمعماري والمفتش، مع وجود جهاز متكامل من العاملين في مجال الخدمات مهمتهم الحفاظ على نظافة المكان وتنويره وفرشه وما إلى ذلك.<sup>(3)</sup>

الدولة وذلك ببناء الكثير من المنشآت والمجمعات الوقفية التي كثيرا ما ساهمت في الاستقرار السياسي والسلم الاجتماعي، وعاد عليها ماديا من خلال الضرائب ومعنويا من خلال إثبات وجودها. أنظر: نفس المرجع، ص ص 51 - 55 .

<sup>1</sup> أول خطوة قام بها السلطان سليم عقب دخوله بلاد الشام سنة 922 هـ/1516م أنه كلف كلا من القاضي و الدفتردار بإجراء مسح للأراضي والأوقاف و "طلب من كل من له مستند على وقف جامع أو مدرسة أو مسجد أو تربة أو خانقاه أن يظهره . محمد ابن طولون، مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 367 .

<sup>2</sup> تؤكد حجة الوقف في نهايتها لزوم الوقف وثباته وعدم امكانية تبديله أو تحويله ونسخه، وأنه باق إلى ما شاء الله، ولما كان الإمام أبو حنيفة دون تلامذته وباقي الأئمة يبيح للواقف نسخ الوقف، فإنه كثيرا ما لجأ الواقف الحنفي إلى إقامة دعوى شكلية على الناظر أو متولي الوقف وتسجيل الوقف لاستعادة العقار الموقوف إلى ملكيته على أساس أن الوقف الذي أعلنه غير لازم ويمكنه الرجوع عنه، ولدى نظر الدعوى كان القاضي يثبت الوقف استنادا إلى رأي أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة الذي كان يرى عدم جواز رجوع الواقف عن وقفه، أو إلى رأي غير أبي يوسف من الأئمة الشافعية أو الحنبلية، وبذلك كان القاضي يردّ دعوى الواقف ويؤكد لزوم الوقف ويثبت الوقفية. كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، مرجع سابق، ص 79.

<sup>(3)</sup> - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D.131)، ص 99.



### 3 - دفاتر التحرير وقضايا الأوقاف:

أوردت دفاتر التحرير العثمانية رسدا شاملا للأوقاف بأنواعها سواء الخيري أو الذري (الأهلي) أو المشترك بينهما، كما أشارت الدفاتر في أحيان كثيرة إلى أسماء الواقفين فكان من بينهم السلاطين<sup>(1)</sup> وكبار رجال الدولة من الإداريين<sup>(2)</sup> والعسكريين والعلماء ومن فئات اجتماعية أخرى<sup>(3)</sup>، كما تضمنت معلومات دفاتر الإحصاء كذلك توضيح الجوانب والجهات التي أوقفت عليها هذه الأوقاف، فمنهم من أوقف على نفسه وذريته وبعد انقطاع الذرية يعود وقفه على أعمال الخير مثل الكعبة وحجرة النبي عليه السلام وقراءة القرآن وغير ذلك، ومنهم من أوقف على المجاهدين<sup>(4)</sup> والعلماء والصلحاء وعلى ذرياتهم فيما بعد، ومنهم من أوقف على الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، والحرمين الشريفين في القدس والخليل، وعلى المدارس والمساجد<sup>(5)</sup> والخانقاوات<sup>(6)</sup> والزوايا والأربطة<sup>(7)</sup> والتكايا والبيماريستانات<sup>(8)</sup> وقنوات المياه<sup>(9)</sup>، ومنهم من أوقف على قراءة القرآن الكريم وعلى سائر أعمال البر والتقوى<sup>(10)</sup>، ولا تكاد مدينة من مدن بلاد الشام تخلو من الأوقاف وبالأخص في لواء القدس.

- (1) - أوقف السلطان سليمان القانوني محصول الكثير من الرسوم من مدينة القدس مثل محصول رسم كنيسة القيامة، ومحصول رسم كيالة الغلات، وقبان دار الوكالة، ورسوم مخازن الدقايق ومحصول حمام السعدي ومحصول رسم طاحونة في محلة اليهود بالقدس وغيرها والبالغ مجموع وارداتها 188882 أقة سنويا، دفتر تحرير مفصل: (T.D.515 an)، سبق ذكره، ص 154 - 155.
- (2) - وقف مراد جلبي في القدس واردها 1233 أقة، دفتر تحرير (t.D.515 an)، ص 144.
- (3) - وقف سراج الدين محمد وعلي على أولادهم بعد الانقراض على الحجرة النبوية، دفتر تحرير (T.D. 515 An)، ص 147.
- (4) - وقف تميم الداري بالقدس في قرية بريكوت واردها 1506.5 أقة سنويا، دفتر تحرير (T.D.515 An)، ص 144.
- (5) - وقف الملك الظاهر على مسجده في القدس 500 أقة، ووقف شهاب الدين على جامع عثمان بغزة 40 أقة، دفتر تحرير (T.D 515an)، ص 160.
- (6) - يورد الدفتر (T.D. 515 an) وقف ثلاثة خانقاوات في القدس هي: خانقاه باسطية 8564 أقة، وقف الخانقاه الجوهريّة: 9900 أقة، وقف الخانقاه الفخرية: 7175 أقة، وقف الخانقاه اصلاحية 28600 أقة وكما يبدو من اسمائها فهي مرتبطة بالمدارس التي كانت توجد في لواء القدس ودورها مكمل لطلبة العلم في هذه المدارس. دفتر (T.D.515 An) ص 161 - 162.
- (7) - وقف الرباط المنصوري في القدس البالغ 350 أقة. دفتر تحرير (T.D. 515 An)، ص 164.
- (8) - الوقف على البيماريستان الصلاحي في القدس نحو 8589 أقة. دفتر تحرير (T.D. 515 An)، ص 178.
- (9) - نالت المنشآت المائية الاهتمام اللازم من الأوقاف، فقد تم حبس واردات قرى عديدة في القدس على قناة الماء في مدينة القدس الشريف بلغت عائداتها 5973.5 أقة. دفتر تحرير (T.D.515 An)، ص 177، وكذلك وقف قناة الماء في مدينة الخليل في قرية مجدل فضيل نصارى وواردها 5700 أقة. دفتر تحرير (T.D.515 An)، ص 185.
- (10) - أهمها الأوقاف التي رصدها السلطان سليمان القانوني على زوجته والمعروفة بالعمارة العامرة والمهام التي تؤديها في مجالات البر من إيواء واطعام وتقديم مختلف أشكال العون للمنشآت القريبة منها وشملت واردات هذا الوقف: جزية النصارى من قرية بيت لحم البالغة 27000 أقة، والعشر والرسوم من قرية الجيب وواردات 14 قرية ومزرعة وقطعة أرض وبلغت واردات العمارة العامرة في القدس 111935 أقة وهو مبلغ ضخم. دفتر تحرير (T.D. 515 An)، ص 157.

#### 4 -أنواع الوقف:

##### أ - الأوقاف الذرية

يقصد بالوقف الذري ما أوقفه الواقف على نفسه من مال أو عقار أثناء حياته وبعد وفاته على أولاده ثم على ذريته جيلا بعد جيل إلى انقطاع الذرية (النسل) وحسب شرط الواقف: يحق له أن يكون هو الناظر فيه ثم ينتقل النظر بعد ذلك إلى ابنه الأكبر أو الأرشد من أبنائه، وقد يحتوي شرط الواقف بأن يؤول وقفه أو جزء منه إلى عمل الخير.<sup>(1)</sup>

أما الأوقاف الذرية فهي التي يرصد على أهل الواقف حسب الشروط التي يضعها الواقف، وقد يقتصر على الذرية من الذكور دون الاناث وقد يشملهم معا ومن ثم على الفقراء في مكة والمدينة وغيرهما، وقد عمد الكثير من الميسورين سواء الذين تولوا مناصب عليا في السلطة العثمانية<sup>(2)</sup> وجمعوا منها أموالا طائلة أو من الأسر الميسورة، وخوفا من لجوء السلطة إلى عمليات المصادرة لأموالهم خاصة بعد بداية ظهور الأزمة المالية أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن الذي تلاه رد هؤلاء بتحويل أملاكهم إلى أوقاف ذرية، وفي الوقت الذي تعرضت فيه الأوقاف الخيرية إلى التعدي على عوائدها في كثير من الأحيان رغم تدخل الدولة للمراقبة والحماية من خلال اشرافها المباشر عليها عن طريق تعيين أمين عليه والتفتيش دوريا على مداخيلها، إلا أن الأوقاف الذرية هي التي حظيت بالاستمرارية والبقاء بعل أعمال الصيانة التي حرص المستفيدون منها على القيام بها .

تواجد في لواء القدس الشريف نحو تسع عشرة وقفا من الأوقاف الذرية وكان عشرة من الواقفين اشترطوا أن يؤول ريع وقفهم بعد الانقراض وانقطاع النسل إلى الأوقاف الخيرية مثل مصالح سماط الخليل، والحرم النبوي الشريف، وإلى فقراء بيت المقدس، كما أن عددا معتبرا من هذه الأوقاف تعود إلى السلاطين الأيوبيين الذين حبسوا أوقافا على أنفسهم أو أبنائهم مثل وقف السلطان صلاح الدين الأيوبي على أولاده، ولم يقتصر الأمر على السلاطين فحسب بل تعداه إلى عدد من موظفي الدولتين الأيوبية والمملوكية<sup>(3)</sup>، وقد تنوعت الأوقاف بين قرية بأكملها أو مزرعة أو قطعة أرض، وأبقى عليها العثمانيون،<sup>(4)</sup> وبحسب الدفتر 516 إس فقد شمل الوقف الذري في القدس وريفها 42 قرية ومزرعة وبلغ مجموع ريعه 95288

(1) -لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D.131)، ص 93 .

(2) - يمكن العودة إلى نص عقد الوقف الذي وقعه موسى باشا أمير لواء غزة في شهر ذي القعدة سنة 1081 هـ 1671م، السجل 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ج 1، ص ص 71 - 91.

(3) - دفتر تحرير (T.D. 131)، ص 97.

(4) - من بين الأوقاف الذرية المتواجدة في جوار مدينة الخليل والذي توارثته ذريته (التميمون) فيما بعد هو ذاك الذي أوقفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - للصحابي تميم الداري . أنظر: دفتر تحرير (T.D. 427) ص 199، دفتر تحرير (T.D.1015) ص 54، دفتر تحرير (T.D.289 Is) ص 155.



أقجة<sup>(1)</sup>، أما في لواء عجلون من إيالة الشام فيمكن ملاحظة أن الوقف الذري انحصر في خمس أسر هي: شمس الدين بن زمن، زيني بن مهنا، محب الدين بن فرفور، الأمير باز بن عبد الله أولاد بن عباده، وقد بلغت عائدات الوقف الذري السنوية 28784 آقجة.<sup>(2)</sup>

أما إذا انقطع النسل من الوقف الذري فإنه يتحول بعد الموت إلى وقف عام، فقد ورد في حجة شرعية محررة بتاريخ 13 ذو الحجة سنة 1081هـ / 1671م بأن صاحبة الوقف كانت قد أوقفت الوقف على نفسها مدة حياتها ثم بعدها يكون وقفا على طائفة المغاربة القاطنين بالقدس الشريف ثم بعدهم على فقراء المغاربة أينما كانوا وحيثما وجدوا.<sup>(3)</sup>

### ب - الأوقاف المشتركة :

وهي أوقاف جمعت بين الوقف الذري والوقف الخيري، كأن يوقف الواقف على الذرية ويخصص في الوقت ذاته حصصا من وقفه للإنفاق على أعمال الخير أو العكس، كأن يكون الإنفاق أولا على أعمال الخير وما يزيد عن ذلك يوقف على الذرية، وهذا النوع غير منتشر بكثرة بدليل أنه بلواء القدس لم يتواجد سوى وقف واحد ويعود إلى الفترة المملوكية وشملت واردات الوقف أربعة قرى ومزرعتين من توابع ناحية غزة إضافة إلى ريع ستة قراريط من قرية بيت حانون تابع خليل، وريع ثمانية قراريط من قرية نجمية تابع القدس الشريف.<sup>(4)</sup>

### ج - الأوقاف الخيرية :

يعرف الفقهاء الوقف الذري على أنه من الصدقات الجارية والذخائر الباقية لما جاء عن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث" وذكر: "صدقة جارية" وكان ريعه مخصصا للمؤسسات ذات النفع العام مثل المدارس والمساجد والزوايا والتكايا والربط والخانقاوات والبيمارستانات (المستشفيات)...<sup>(5)</sup>، وبرزت أهميته في بلاد الشام وخاصة في لواء القدس حيث تنتشر الأماكن المقدسة في كل قرية أو مدينة على غرار قبة الصخرة والمسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي في خليل الرحمن.

(1) - دفتر (T.D. 289 Is.)، ص ص 139 - 142.

(2) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم (T.D. 970)، ص 24.

(3) - حجة 1 ص 41، السجل رقم 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية التاريخية، ج 1، ص ص 109 - 110.

(4) - يعود هذا الوقف للسلطان المملوكي الظاهر أبو سعيد قانصوه الذي حكم بين 904 - 906 هـ / 1498 - 1501 م الذي أوقفه على جامع في مصر وما فضل على أولاده وذريته وبعد الانقراض يعود على سماط سيدتا خليل الرحمن. دفتر تحرير (T.D.131) ص 98.

(5) - دفتر تحرير (T.D.131)، ص ص 98 - 99.

كان هدف الوقف هو انشاء مشروع خيري يخدم الآخرين في مجال معين كبناء جامع أو مستشفى (بيمارستان) أو مدرسة أو مكتبة أو سبيل وقناة للماء أو جسر للعبور... إلخ ونظرا إلى أن الوقف يريد لمشروعه الخيري أن يبقى قائما بدوره في المجتمع أو أن يستمر إلى الأبد فإن الأمر كان يقتضي تأمين مصادر دائمة للإنفاق لكي تغطي الاحتياجات المطلوبة أو المتطلبة فيما بعد، وهذا الأمر كان يدفع الوقف إلى بناء وقف بعض المنشآت الاقتصادية كالحمامات والاستراحات والخانات والدكاكين وأقنية الري التي تدرّ - بتأجيرها للآخرين - مصدرا ثابتا للدخل يكفي لتغطية نفقات المنشآت الأولى (الخيرية)، وكان الوقف يحرص على تدوين كل المنشآت في الوثائق الخاصة (حجة الوقف) بشكل تفصيلي<sup>(1)</sup>.

انتشرت الأوقاف الخيرية بكثرة خاصة في بلاد الشام، وخصت به المصالح ذات النفع العام مثل المدارس والمساجد والزوايا والتكايا والربط والخانقاوات والبيمارستانات والمزارات والترب وسائر أعمال الخير، وتنوعت أصول الموقوفات من دور وبيوت وحوانيت ومصابن وطواحين وأفران ومخازن وخانات وأراضي وقرى بكاملها أو أجزاء منها وبساتين وكروم وأحكار، وتوزعت على عديد الأماكن والمؤسسات، ونورد نموذج للأوقاف الخيرية في لواء القدس الشريف، حيث نجد أبرزها، وهي:

- **الأوقاف على الصخرة الشريفة:** وفي مقدمتها محصول رسم كنيسة القيامة الذي أوقفه السلطان سليمان القانوني على قراءة أجزاء من القرآن الكريم في قبة الصخرة الشريفة، ورسم كيالية المغل، كما تم وقف ثلث محصول رسم أحمال الصابون المصدرة من القدس إلى مصر، إضافة لمحصول مخلفات مجاوري

(1) - تعتبر وقفية خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني المتوفية في رجب 966 هـ/أفريل 1556م، التي تحمل تاريخ شهر شوال 967 هـ و المدرجة في السجل رقم 270 من سجلات المحكمة الشرعية للقدس الشريف نموذجا للوقفيات الخيرية وتعرف باسم التكية، وتقع حجة الوقف في تسع صفحات ويبلغ عدد كلماتها 4650 كلمة، وتتألف من أربعة أجزاء (بعد مقدمة طويلة) وهي: أ/ بيان مفصل بالمنشآت التي أقامتها الوقفة بالقدس و وصف لها وهي: مسجد منيف، عمارة كبيرة فيها مطبخ ضخم لإطعام الفقراء وحجرات (55 حجرة) لإقامة الدراويش والصلحاء وخان واسع.

ب/ بيان بالقرى والمزارع والعقارات الموقوفة على هذه المنشآت، و يبلغ عدد القرى والمزارع الموقوفة حوالي الثلاثين و في أربعة ألوية هي: غزة و القدس الشريف و نابلس و طرابلس (أكثر القرى الموقوفة كانت في ناحية الرملة بلواء غزة 16 قرية، ثم لواء القدس 6 قرى ثم لواء نابلس 3 قرى، أما في لواء طرابلس فكانت قرية أميون، و أربع طواحين في قريتي شحين وبشنين).

ج/ بيان شامل بأسماء جميع العاملين بالوقف و اختصاصاتهم ومرتباتهم وعلى رأسهم متولي الوقف.

د/ معلومات خاصة بالمطبخ وكميات الأطعمة التي تقدم وأنواعها في اليوميات المختلفة وفي أوقات مختلفة كشهر رمضان وأيام الجمع والأعياد وبيان بكيفية توزيع الطعام على الموظفين والفقراء. أنظر: كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، مرجع سابق، ص ص 125 - 142.

الحرم الشريف وهذا دائما على قبة الصخرة الشريفة، وقد بلغت العائدات من هذه الرسوم مجتمعة 178729 أقةة.<sup>(1)</sup>

- الأوقاف على الصخرة الشريفة والمسجد الأقصى والجامع العمري (أو جامع المغاربة) : وتضم ريع أراضي القرى والمزارع وقطع الأراضي وكذا جزية النصارى من بعض القرى، كما كانت أرض السواد المتواجدة بالقرب من مدينة القدس وقفا على أئمة وخطباء المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبلغ ريع هذه الأوقاف 135853.5 أقةة.<sup>(2)</sup>

- أوقاف الحرمين الشريفين بمكة والمدينة: تم وقف قرى بأكملها أو حصص منها على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلغ ريعها مجتمعة 19221 أقةة<sup>(3)</sup> وقد بلغ مجموع واردات الأوقاف الخيرية على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة في لواء القدس 153625 أقةة<sup>(4)</sup>، في حين وصل مجموع الربوع من القرى المحبسة على خليل الرحمان ما مقداره 123975 أقةة.<sup>(5)</sup>

#### - الأوقاف على المدارس:

تعتبر المدارس أساس الحركة التعليمية والفكرية في مراكز بلاد الشام إضافة لتأثيرها المباشر في الحياة الاجتماعية وذلك من خلال إنفاقها على الهيئة التدريسية وطلبة العلم فيها وعلى عدد الفقراء والأيتام والغرباء والمجاورين والعباد لا سيما وأن وظائفها المختلفة كان يشغلها أناس من أهل المدينة، ويأتي الإنفاق على هذه المؤسسات من خلال ريع الأوقاف التي حبست عليها، لذلك نجد اختلافا في مستوى الإنفاق بين مؤسسة وأخرى بحسب دخل الأوقاف التي رصدت لها، وتبعاً لذلك اختلفت في عدد الذين تستقطبهم من الطلبة والمدرسين وأصحاب الوظائف الأخرى المرتبطة بذلك،<sup>(6)</sup> وأورد الدفتر رقم 289 اس أسماء خمس عشرة مدرسة مع ذكر الأوقاف المحبسة على كل منها، وهذه المدارس يقصدها المدرسون والطلبة والصوفية إضافة إلى الجهاز الإداري والخدمي الذي يسهر على سير هذه المؤسسات، وهذه المدارس هي: المدرسة التنكزية، المدرسة المعظمية، المدرسة الطيلونية، المدرسة الحنفية، المدرسة الصلاحية، المدرسة الخاتونية،

(1) - دفتر تحرير (T.D.289 Is)، ص 155.

(2) - دفتر تحرير (T.D. 289 Is)، ص 159.

(3) - دفتر تحرير (T.D.289 Is)، ص 163.

(4) - دفتر تحرير (T.D.1015)، ص 55.

(5) - دفتر تحرير (T.D.131) ص 101 - 109.

(6) - لواء القدس من دفتر تحرير (T.D.131)، ص 118.

المدرسة الحسينية، المدرسة المزهريّة، المدرسة المنجكية، المدرسة الباسطية، المدرسة الفخرية، المدرسة الجوهريّة، المدرسة الشيوخونية، المدرسة الملكية ومدرسة لولو غازي.<sup>(١)</sup>

#### -الخوانق والزوايا والربط :

أوقفت زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني خرم سلطان<sup>(٢)</sup> سنة 960هـ/1552م أراضي قريتي قاقون وجماسين على التكية العامرة في القدس حسب ما أشار إليه الدفتر 312.<sup>(٣)</sup>

ومعلوم أن اهتمام زوجة السلطان سليمان القانوني خرم سلطان بالوقف كان كبيراً ويتجلى ذلك من انشائها لأهم مجمع عمراني بعد الحرم القدسي سنة 1557م والذي يعتبر أهم مؤسسة خيرية وقفية عرفت باسم تكية خاصكي سلطان أو العمارة العامرة ، ومن خلال وقفية هذه المؤسسة المسجلة في سجلات محكمة القدس الشرعية يتبين أنها شكلت مجمعا عمرانيا ضخما يقع بالقرب من المسجد الأقصى ويضم مسجدا وخانا ومدرسة ورباطا وخمس وخمسين غرفة لإقامة الصوفية بالإضافة الى مطبخ يقدم يوميا وجبات للفقراء والمسافرين ومجاوري المسجد الأقصى بالإضافة الى احتوائها على فرن ينتج يوميا 2000 رغيف من الخبز، ومن أجل توفير النفقات على هذه المؤسسة قامت الواقفة خرم سلطان بوقف أراضي 34 قرية ومزرعة ليصرف ريع انتاجها على تلبية حاجيات هذه المؤسسة.<sup>(٤)</sup>

تم الوقف على المنشآت التي استخدمت مستقرات لجماعات الصوفية أين كانوا يقضون فيها حياتهم ويمارسون نشاطاتهم الدينية والاجتماعية فوفرت لهم الدولة الطعام والشراب واللباس في مقابل التزام المقيم بشرط اتباع تعاليم الطرق الصوفية، وتتكون الخانقاه من بيوت للسكن ومسجد ومطهرة، أما برامج التعليم فتشمل القرآن الكريم وكتب الصوفية ومبادئ الخط، وفي حين يتكون الرباط من بناء يضم أواوين وغرف السكن للمتصوفة ومطهرة، وكانت هذه الأربطة تستقبل القراء وتوفر لهم المأوى ويقتصر التعليم فيها على

(1) - دفتر تحرير (T.D. 289 Is.) ، ص ص 165 - 166 ، بينما ذكر الدفتر (T.D.516 Is.) لسنة 1562م وجود أربعة عشر مدرسة فقط.

(2) - خرم سلطان (أو خاصكي سلطان) : كانت زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م) ، وكانت من قبل جارية روسية واسمها الرسمي هو " خرم" والمؤلفون الغربيون يسمونها روكسلانة أو روسلانة ، فهي روسية الأصل وكان لها نفوذ كبير على السلطان سليمان وقد أقامت منشآت كثيرة في كل من اسطنبول وأدرنة ومكة والقدس وغيرها ... وتوفيت في شهر رجب 966هـ /أفريل 1558م ، ودفنت في جامع السلمانية في اسطنبول . كامل جميل العسلي ، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، مرجع سابق، ص 125.

(3) - زهير عبد اللطيف غنايم، الأوقاف في لواء نابلس في القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر الميلادي ، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 6، العدد 4، 2012، ص 103.

(4) - يمكن العودة الى نص الوقفية في كتاب وثائق مقدسية تاريخية ، كامل جميل العسلي ، ج 1 ، مرجع سابق، ص ص 127 - 142.

القرآن الكريم فقط ، **أما الزاوية** فكان ينقطع فيها المتصوف للعبادة ويلزمه فيها بعض مريديه ، ويتكون مبنى الزاوية من غرف يقيم فيها المتصوف ومسجد ومطهرة وبئر ماء وبالقرب من الزاوية توجد عادة مقبرة يدفن فيها شيخ الزاوية وبعض أتباعه ، أما التعليم فيقتصر فيها على القرآن الكريم و تفسيره. (١٤)

وُجدت في مدينة القدس الشريف زاوية تقع في جبل الطور أنشأها الشيخ منصور المحلاوي (يظهر من اسمه بأنه ينتمي إلى مدينة المحلة بمصر) ومن خلال كتاب الوقف فإنه وقف الزاوية سنة 1064هـ ، وقد شرط واقف الزاوية الشيخ منصور أن المشيخة بالزاوية تكون للشيخ صالح أبي الفتح الدجاني ، ومن بعده لمن لبس الخرقة الصوفية من السادة الدجانية ، لكن مهمة تولي الوقف نشبت حولها نزاعات وخصومات حول طريقة تعميرها وتأجيرها واستبدالها والانفاق عليها. (١٥)

#### - الوقف على الأنبياء الكرام :

تم تخصيص عدة أوقاف على مقامات وأضرحة الأنبياء الكرام - عليهم السلام - توزعت بين قرى بأكملها أو مزارع<sup>(3)</sup> ، وتعتبر أوقاف سيدنا خليل الرحمن - عليه السلام - من أهم الأوقاف لما كان لها من أثر في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والدينية<sup>(4)</sup> ، ولعل العدد الهائل من العمال الذين شغلوا وظائف مختلفة في هذا الوقف والبالغ ثلاثمائة وثمانين عشرة عاملا عدد كبير منهم من الخبازين والطباخين وصل إلى ست وخمسين يشير إلى الخدمات التي يقدمها لسكان مدينة الخليل ولضيوف خليل الرحمن - عليه السلام - حيث يصرف سنويا مبلغ 5000 آلاف أفجة.<sup>(5)</sup>

#### 5 - دور الأوقاف في الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية :

لعب الوقف دورا متزايدا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات الاسلامية عموما والدولة العثمانية بوجه خاص حيث أخذ الأفراد يشاركون الدولة في القيام بالمهام المختلفة وتقديم الخدمات المجانية (انشاء الجوامع والمدارس والجسور والاستراحات وقنوات الشرب والري والمستشفيات والمكتبات

(1) - دفتر تحرير (T.D. 1015) ، ص 66.

(2) - كامل العسلي ، وثائق مقدسية تاريخية ، مج 2 ، مرجع سابق ، ص 232.

(3) - شملت المقامات على أضرحة و ترب النبي صموئيل ، النبي موسى ، تربة النبي موسى ، دفتر تحرير (T.D.289 Is.) ، ص 167.

(4) - توزع على مدينة الخليل والقدس إضافة للقرى والمزارع الواقعة في كلا الناحيتين وخارجهما ، فقد شمل في مدينة الخليل عقارات مختلفة تمثلت في سبعة وثلاثين دكانا وحمامان وخمس بساتين ومصبنة (خراب) وحانوت الوزان ، وحاصل مقاطعة القبان ، وخان (دار) الخضر ريعه السنوي 7200 أفجة ، ومزرعة الحبارة ، وقدر ريع هذه الأوقاف مجتمعة 16706 أفجة ، يضاف إليه جزية النصارى في نفس الخليل والمقدرة بـ 8250 أفجة ، خصصت جميعها للإنفاق على تربة خليل الرحمن . محمد عدنان البخيت ، لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D.131) ، ص 100.

(5) - نفسه ، ص 110.

ودور رعاية الأيتام ...) والتي كان لها دور في امتصاص التوتر و تكريس السلام الاجتماعي ، وبرز ذلك في العديد من الجوانب ، ومن أهمها :

#### أ - في الحياة الثقافية :

##### - التعليم :

لعبت الأوقاف دورا أساسيا في الحياة الثقافية ، فكانت مؤسسات التعليم قبل المدرسة أهلية وتتم في المساجد والكتاتيب<sup>(1)</sup> ودور العلم والمكتبات والربط والزوايا التي يعتمد أغلبها إن لم نقل كلها على الهبات ، وهناك الوقف على زوايا العلم وعلى كراسٍ لتدريس الفقه والحديث والتفسير في الجوامع<sup>(2)</sup> والأوقاف على مدارس الطلبة وعلى خزائن الكتب في المساجد والمكتبات ودور العلم ، وخصصت الأوقاف كمكاتب تعليم الأيتام ، كل ذلك يشير إلى الدور المحوري للوقف في الحياة الثقافية.

##### مصادر الوقف على المدارس :

تنوعت مصادر الوقف التي كانت ترصد للإنفاق على المدارس في بلاد الشام في العهد العثماني والتي كان جزء هام يعود إلى فترة المماليك ، ويأتي الإنفاق على هذه المدارس من خلال ريع الأوقاف التي حبست عليها ، سواء كانت قرى بأكملها أو حصص منها ، أو مزارع ، أو قطع أراضي ، أو عقارات ، كما أن بعضها انتشر في مناطق واسعة ، لذا فقد اختلف الإنفاق من مؤسسة لأخرى حسب جهات الوقف المرصودة عليها ، وعلى مقدار الريع المتحصل منها ، وبطبيعة الحال انعكس هذا الإنفاق على وضع المدرسة من حيث إدامة عينها بالإعمار والترميم المستمر لها ، والإنفاق على كافة الوظائف والخدمات التي تقدمها المدرسة ، ونورد مثلا لمدارس القدس وما تم تخصيصه لها من إيرادات ، فحسب دفتر التحرير (T.D.515 An.) العائد لمطلع القرن 11هـ / أواخر القرن 16م ( 1005هـ / 1596 - 1597م ) تم ذكر اثنتي عشر مدرسة ، تنوعت الأوقاف المخصصة لها ما بين محصول الحمامات وواردات القرى والمزارع وقطع الأراضي الوقفية ، وهذا الجدول يبين أسماء المدارس والموارد الموقفة عليها :<sup>(3)</sup>

(1) - وقف رضوان آغا دزدار قلعة طرابلس مكتبا في محلة "العديمي" بالقرب من المدرسة الحجيكية لإقراء الأطفال وتعليمهم أحكام القراءة ، وكان ممن تقرر للتدريس به الشيخ ابراهيم بن الشيخ أحمد سنة 1079هـ/1668م. عمر عبد السلام تدمري : "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516 - 1918م" مرجع سابق ، ص 23.

(2) - كانت بعض المساجد مخصصة للتعليم وفق مذهب معين حسب شرط الواقف كما هو الحال في مسجد ومدرسة "البرطاسي" في مدينة طرابلس الشام ، حيث اشترط الواقف أن يُدرس فيه العلم على المذهب الشافعي ، جاء في الوقفية : بسم الله الرحمن الرحيم : أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسي عفا الله عنه وعلى المشغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعي وإقامة الجمع والصلوات المكتوبة ، وشرط أن لا يُرسَم فيها على أحد و لا يسكنه من لا له الحق في ذلك . نفس المرجع ، ص 6.

(3) - دفتر تحرير رقم (T.D.515 An.) ، ص ص 166 - 171.

| اسم المدرسة              | واردها من الأوقاف بالأقجة |
|--------------------------|---------------------------|
| المدرسة التنكزية (دكزية) | 6300                      |
| المدرسة الحسينية         | 17702                     |
| المدرسة الشيوخونية       | 6200                      |
| المدرسة الصلاحية         | 19600                     |
| المدرسة الطيلونية        | 4840                      |
| المدرسة الفخرية          | 275                       |
| مدرسة قايتباي بالقدس     | 250                       |
| مدرسة لولو غازي          | 4000                      |
| المدرسة المالكية بالقدس  | 3100                      |
| المدرسة المزهرية         | 2337                      |
| المدرسة المعظمية الحنفية | 15900                     |
| المدرسة المنجكية         | 6060                      |

#### -الوظائف التعليمية والخدمية :

وفرت أوقاف المدارس الكثير من الوظائف سواء دينية أو علمية أو إدارية ومالية ، إضافة للوظائف الخدمية ، ومن أهمها :

**شيخ المدرسة :** وهو صاحب أكبر رتبة علمية في المدرسة والأستاذ في تخصصه وأحيانا تقترن وظيفة المشيخة مع النظارة (أي نظارة وقف المدرسة مما ساهم في ثراء بعضهم)<sup>(1)</sup> ، ويلاحظ بأن تعيين المدرس في المدرسة يكون صادرا من السلطان في اسطنبول بموجب براءة سلطانية شريفة ، وعند صدورهما يقوم القاضي

(1) - بلغ مرتب المشيخة في الخانقاه الصلاحية في مدينة القدس الشريف 3200 أقجة في السنة ، و في المدرسة الفارسية 980 أقجة بينما لم يتجاوز راتب المشيخة في المدرسة الفخرية 300 أقجة . لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D. 131) ، ص 125.



بإقرار مدى صحة التعيين بعد الاطلاع على البراءة والتوثق من مدى صحتها، كما أن البراءات كانت في أكثر الأحيان تصدر للأبناء استناداً إلى براءات سابقة منحت للآباء والأجداد.<sup>(1)</sup>

**الإمام :** وظيفته الإمامة في الصلاة، وكان راتبه في الخانقاه الصلاحية 740 أقة، و المدرسة الفخرية 360 أقة، وفي المدرسة المنجية 220 أقة، وفي المدرسة الصلاحية 600 أقة، وغالباً ما يكون الإمام من أبناء المدينة .

**المؤذن :** وجد في بعض المدارس أكثر من مؤذن كما هو الحال في المدرسة الصلاحية التي بها مؤذنان راتبهما الاجمالي السنوي 500 أقة، بينما راتب المؤذن في الخانقاه الصلاحية 900 أقة في السنة.

**ناظر وقف المدرسة :** وهو المشرف العام على الوقف مهمته كمهمة المتولي وهي الاشراف على الوقف وتنميته والانفاق منه على الوظائف المختلفة، ومراقبة وضع الأبنية وتحسينها، لكن تصرفات الناظر كانت مقيدة بما فيه مصلحة الوقف والموقوف عليهم ومقيدة بشروط الواقف، فلا يجوز للناظر رهن عقارات الوقف عند وقوع دين على الوقف أو على المستحقين لأن ذلك يؤدي إلى بطلان الوقف عند العجز عن إيفاء الدين وبيع الرهن لسداده،<sup>(2)</sup> وكان عليه أن يعدّ كشفاً ( دفترًا ) سنوياً بحسابات الوقف ومصروفات ومراقبة عمل الموظفين، وكان راتب الناظر في وقف المدرسة المعظمية الحنفية في مدينة القدس ربع المتحصل في السنة، أما راتب ناظر وقف المدرسة الخاتونية في القدس دائماً يقدر بـ 50 أقة، بينما يصل الراتب في المدرسة الفخرية إلى 320 أقة، وراتب ناظر وقف المدرسة المنجية 500 أقة، ويصل راتب ناظر وقف رباط علاء الدين إلى 1000 أقة.<sup>(3)</sup>

**المتولي :** هناك تشابه كبير بين عمل المتولي وناظر الوقف غير أن المتولي من مهامه الأساسية الإشراف على الأعيان الموقوفة وإدارتها واستغلالها، وإعمار الوقف، واستثمار فائض أمواله، ومتابعة قضايا الوقف مع الالتزام بشروط الواقف، وإعداد الحسابات السنوية.<sup>(4)</sup>

**المباشر :** جاء ذكر المباشر في وقف المدرسة المعظمية وحبس السلطان الأشرف قايتباي على مدرسته في غزة والقدس الشريف، وأطلق اسم المباشر على المسؤول عن إدارة هذه الأوقاف، وتلخصت مهمته في

(1) - سجلات المحكمة الشرعية بالقدس الشريف، سجل رقم 171، ص 196 لسنة 1080 - 1081هـ، نقلاً عن كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج2، مرجع سابق، ص 223.

(2) - عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج2، مرجع سابق، ص 256.

(3) - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D. 131)، ص 126.

(4) - المرجع السابق، ص 255.



ضبط أصول الوقف وعمارته و وجوه الإنفاق، وكان راتبه في وقف السلطان قايتباي ومدرسته بمدينة القدس 240 أقة في السنة.<sup>(1)</sup>

**الجابي:** هذه الوظيفة مرتبطة بالجانب المالي للوقف، وتتعلق بتحصيل وجمع ريع الوقف ومحاصيله وغلالة، ولذلك يمكن أن نجد في نفس الوقف أكثر من جابي وهذا يتوقف على الأحباس الموقوفة على الوقف، ويقدر راتب الجابي 100 أقة شهريا في المدرسة الصلاحية، بينما لا يتجاوز في المدرسة المنجية 150 أقة في السنة.<sup>(2)</sup>

**الشاد: (المشد)** وهو المفتش على الوقف وإنما أطلق عليه هذا الاسم لما يجب أن يتصف به صاحبه من الشدة والحزم، ويرتبط الشاد بوظيفة الجابي، إذ يعتبر مساعدا له ويسافر نيابة عنه في الكشف عن مصالح الوقف وتحصيل حاصلاته، كما أن مهامه الرقابية شملت مجالات أخرى سواء ما تعلق بالمعمار(مشد المعمار)، أو الإشراف على انتاج الخبز وتوزيعه (مشد الخبز)، وكان راتبه في المدرسة المنجية 180 أقة في السنة.<sup>(3)</sup>

**أمين المخزن (الجراية، المؤونة):** يتولى تخزين المواد الغذائية من حبوب وغلل وزيت وصابون سواء لتقديمها في شكل جراية أي راتب عيني للعاملين فيها، أو تذهب على شكل خدمات أخرى للوقف، فمهمته إذن هي الحفاظ على مخزن الغلة وضبط ما يحمل إليه من الحبوب وآلات الطعام ويخرج ذلك في أوقات إخراجها للاستعمال، فقد كان جزء من إنفاق وقف المدرسة الطولونية في القدس يكون على شكل مؤونة للقراء في المدرسة، كما كانت المدرسة الحسينية تنفق على الصوفية وعددهم خمس عشرة رجلا لكل واحد منهم رطل خبز واحد شهريا، ولكل نفر من الفقراء ثلث رطل خبز، ولكل نفر من المؤذنين والمؤذنين ربع رطل خبز إضافة للراتب النقدي، أما المدرسة التنكزية بالحرم الشريف بالقدس فكانت تقدم لجميع موظفيها ومستخدميها رواتب نقدية وأخرى عينية (الخبز)<sup>(4)</sup>.

**الموقت (المليقات):** وهو الذي يحدد وقت الصلاة، ويتقاضى صاحب هذه الوظيفة راتبا سنويا مقداره 120 أقة.<sup>(5)</sup>

(1) -لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D. 131)، ص 127.

(2) -نفسه، ص 127.

(3) -نفسه، ص 128.

(4) -نفسه، ص 128.

(5) -نفسه، ص 129.

**القيّم (الفرّاش)** وظيفته فرش المدرسة والمسجد بالحصر والبسط، والقيام بالتنظيف والكنس وإيقاد المصابيح وإطفائها، كما ينوب على باب المدرسة، ومن مهامه غسل المطهرة وتنظيفها<sup>(1)</sup>، أما راتبه فيختلف من مدرسة لأخرى بحسب ريع أوافها.<sup>(2)</sup>

**البواب:** وظيفته موجودة في معظم أوقاف المدارس، وكان على البواب ملازمة الباب ليلاً ونهاراً يقوم بفتحه وغلقه متى لزمته الحاجة، ويختلف راتبه من مدرسة لأخرى، فهو في وقف المدرسة المزهرية 150 أقة، ويصل في وقف رباط علاء الدين البصير 260 أقة، وفي المدرسة المنجكية 260 أقة.<sup>(3)</sup>

كان نظام الوقف يمثل العمود الفقري للإنفاق على التعليم، فقد حرص منشؤو المدارس على توفير أوقاف تدر مداخيل وفيرة تضمن تغطية نفقات تلك المدارس والموظفين العاملين بها والطلبة، بحيث يكفل ذلك استمرار هذه المدارس في أداء وظيفتها ورسالتها العلمية، وهو ما ضمن إلى حد بعيد الاستقلالية المالية لهذه المؤسسات التعليمية، إذ أن الأمور المالية في غالب الأحيان يتولاها الواقفون أنفسهم أو من يعينونه للإشراف عليها، وهذا إدراكاً منهم بأن منع تدهور أوضاع المدارس متوقف على مدى الحرص على ما تغلّه أوقاف هذه المدارس من أوقافها المخصصة لها وحسن التصرف فيها، لذا لا غرابة أن نجد في نص الوقفية عموماً ذكر رواتب العاملين والموظفين في المدارس بشكل دقيق، فمن خلال وثيقة شرعية في محكمة القدس يمكن أن نلاحظ أهم الوظائف في المدرسة الطازية (ربما تكون نفسها المدرسة التنكزية) بالقدس، ويبدو أنه من عائدات الوقف تبدو بأنها غنية حيث قدرت بـ: 10.292 أقة سنة 980هـ (أواخر القرن العاشر الهجري)، ومجموع عدد العاملين فيها سنة 980هـ اثني عشر موظفاً، وهم مع ذكر الرواتب المخصصة لكل واحد: الشيخ علي المدرس: 5320 أقة، الناظر والمتولي 640 أقة وستة غراير من الحنطة، عبد العالي شيخ المدرسة 1620 أقة، الشيخ زين العرب بن أبي اللطف المعيد بالمدرسة 530 أقة، الشيخ أحمد إمام المدرسة 220 أقة، الشيخ بدر الدين الدويك مؤذن 110 أقة، الشيخ محمد: شاهد وفقه 220 أقة،

(1) - ورد في إحدى حجج محكمة القدس الشرعية العثمانية، أن الحاكم الشرعي بالقدس المولى حسن أفندي المعروف بمنلا زادة أسند وظيفة الفراشة والشعالة والكناسة بالمسجد الأقصى للشيخ موسى بأجرة قدرها في كل يوم عثماني وما يتبع ذلك من الصرة الرومية والصدقات المعتادة على جاري العادة. حجة 1، مؤرخة في أواسط جمادى الثانية سنة 1081هـ / 1670م، ص 40 من السجل 173 من سجلات محكمة القدس الشرعية، ج 1، ص 107.

(2) - يتقاضى في المدرسة الصلاحية مبلغ 75 أقة وفي وقف المدرسة القاييتبائية في القدس 60 أقة، لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D. 131)، ص 129.

(3) - نفسه، ص 129.

الكاتب 320 أقة، الشيخ نعمان: بواب وفراش 220 أقة، الشيخ محمد: جابي 270 أقة، الشيخ موسى بن داود: قيم 220 الشيخ محمود: فقيه الأيتام 180 أقة.<sup>(1)</sup>

أما عدد الأيتام فكان عشرة أيتام مقيمين بالمدرسة وبلغت مخصصاتهم 250 أقة، إضافة إلى 24 قارئاً يتلقون أجرة تقدر بـ 60 أقة، و 16 طالباً أجرتهم 45 أقة بمجموع 775 أقة.<sup>(2)</sup>

كما تتوفر المدرسة على سكن وظيفي للمدرس، وجدير بالذكر أن المسكن المجاني للمدرس أمر في غاية الأهمية بالنسبة للعاملين في المدرسة مثلما هو الشأن للمدرسة الغادرية بالقدس التي كانت مخصصة للأروام (الترك).<sup>(3)</sup>

### -وقف الكتب والمكتبات:

دفع حب الكتب أهل العلم في العالم الاسلامي عامة إلى اجازة الفقهاء "وقف المنقول الذي جرى بوقفه كالكتب من الأصل العام في الوقف، وهو أن يكون الوقف مؤبداً، فلا يصح إلا في العقار لا في المنقول وجعلوه من باب الاستحسان وسنده المعروف، ومن هنا نشأ وقف الكتب وطفق المسلمون وأهل الخير والاحسان يوقفون الكتب نفعا للناس ولحب المسلمين للعلم وأهله وكذا لعمل الخير.<sup>(4)</sup>

وتنوع الوقف ليشمل مكتبات بأكملها<sup>(5)</sup> أو وقف الكتب على المدارس والمساجد والبيماريستانات والربط والخانقاوات، كما كان هناك نوع من الوقف يتمثل في وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم أو على ورثته، واهتم واقفوا المكتبات المستقلة أو تلك التي تكون في مدارس أو مساجد بتوفير دخل مادي

(1) - سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم: 57، ص 62، سنة 984هـ، نقلا عن: كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية مج 2، ص 217.

(2) - نفسه، نفس المكان.

(3) - سجلات المحكمة الشرعية بالقدس الشريف، سجل رقم 184، ص 226، سنة 1092هـ. ن. قلا عن كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 2، مرجع سابق، ص 225.

(4) - عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة، تاريخها ونوادير مخطوطاتها، منشورات مجلة الرسالة الاسلامية، رئاسة ديوان الأوقاف، ط 1، مطبعة المعارف، بغداد 1969، ص 8.

(5) - وقفية الشيخ يحيى شرف الدين بن محمد ابن قاضي الشلت سنة 1007هـ لكتبه على طلبة العلم، وكان هذا الشيخ يقيم بمدينة القدس في المدرسة الأمنية بالقرب من ساحة الحرم القدسي وفيها دفن سنة 1040هـ، تضم المكتبة أزيد من مائة عنوان لعل أبرزها: تفسير البيضاوي وتفسير الزمخشري (الكشاف) وصحيح البخاري ومسلم وشروحهما، والشاطبية لابن الحاجب وشوحيها، والشفاء للقاضي عياض، وألفية ابن مالك وشروحيها، وكتب النووي والسيوطي وابن حجر العسقلاني، وغيرها من العناوين الموزعة على عدة أصناف أبرزها الحديث والسيرة، التفسير، اللغة والنحو، الفقه، القراءات، علم الكلام والفرائض، التاريخ، المنطق، التصوف، الحساب، الأخلاق... كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج 1، مرجع سابق، ص 153-154.

ثابت لها لصيانتها وترميمها وتحمل التكاليف المادية للعاملين فيها وعيّن بعضهم ريعاً يساعد على نماء المجموعة وازدهارها عبر السنين.<sup>(1)</sup>

## 2 - في الحياة الاجتماعية:

### أ - الوقف على المنشآت المائية:

تم رصد بعض الأوقاف على تحسين خدمات المنشآت المائية من عيون و أقنية والانفاق على إدامة وصول الماء بواسطة قناة السبيل إلى المدن والبلدات في بلاد الشام على غرار القدس والخليل و بالخصوص إلى حرم المسجد الأقصى وحرم خليل الرحمن بوجه خاص<sup>(2)</sup>، وقد بذلت السلطة العثمانية جهوداً كبيرة في توفير الماء لمدينة القدس من خلال الاهتمام بتعمير أو ترميم القناة وحمايتها من التعديات المختلفة، فقد أوكلت أمر حمايتها إلى أهالي القرى التي تمر القناة بأراضيها وأعفتهم في مقابل ذلك من التكاليف العرفية، كما عينت من موظفي الدولة من يتولى أمر الكشف عن القناة باستمرار للتعرف على مناطق الضعف والخراب الذي قد يصيبها إضافة للحفاظ على نظافة الماء، إلى جانب ذلك أصدرت تعليمات بتقنين استخدام المياه المخزنة في الآبار وبالخصوص تلك المتواجدة في ساحة الحرم الشريف، وشددت على طائفة السقائين الذين انتشروا في الأسواق والمحلات بعدم نقلهم الماء من هذه الآبار إلا في أضيق الحالات، وقد أنشأ السلطان سليمان القانوني (ت 974 هـ / 1566م) عدة سبل بمدينة القدس مثل تعمير بركة السلطان وهي اسم جامع للبرك الثلاث المعروفة بالمرجيع في 10 محرم 943 هـ / ديسمبر 1536 م<sup>(3)</sup>، وإنشاء خمسة سبل أحدها يقع بباب القطانين في رجب 943 هـ / ديسمبر 1536م، وثانيهما بباب السلسلة في 22 رجب 943 هـ / ديسمبر 1536م، وثالثها بباب العتم في أوائل شعبان 943 هـ / جانفي 1537 م، ورابعها بباب النذير في 2 رمضان

(1) - يحيى محمود الساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية استبطان للموروث الثقافي ط2، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية 1996، ص33.

(2) - معروف أن مدينة القدس على عكس مدن بلاد الشام الأخرى مثل دمشق الشام وحماة التي تخترقها الوديان أو توجد بها الينابيع فإن لواء القدس تنعدم فيه الأنهار، كما لا توجد ينابيع في مدينة القدس نفسها مما دفع بالسكان دوماً للاعتماد على مياه الأمطار أو ما جرّ لها من عيون القرى المجاورة لها مثل أبو ديس، لذلك اهتم سكان القدس ببناء الصهاريج وحفر الآبار وترميم البرك القديمة كما كانت وظيفة السقاية من الوظائف التي كثيراً ما يتردد ذكرها في مدينة القدس. دفتر تحرير (T.D. 427)، ص ص 153- 152.

(3) - يبدو أن هذه القناة تعرضت كذلك للخراب و وقع نقص فادح في المياه في مدينة القدس وخاصة في الحرم القدسي حتى أن مرتادي المسجد والزوار أصبحوا يجدون مشقة في الوضوء فبادر القاضي مصطفى أفندي الحاكم الشرعي قاضي القدس حينئذ بالسعي لإصلاح القناة وعمارتها بنحو عشرة أكياس والعمل لمدة ستة أشهر، وتكليف أهالي القرى التي كانت تمر القناة بأراضيها بحراستها كل في المنطقة التي يشرف عليها وهي أهالي قرية أرطاس، قرية بيت لحم، قرية أم طوبى، قرية بيت ساحور النصارى، قرية صور باهر، قرية دير أبي ثور، وتضمنت الحجة الشرعية لدى القاضي التذكير بمنعهم من دفع التكاليف العرفية مثلما كان من قبل، وتم تحرير حجة جديدة بذلك في أواخر محرم سنة 1106 هـ. كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 3، مرجع سابق، ص ص 112- 113.

943 هـ / 12 فيفري 1537م، وخامسها في طريق ستي مريم<sup>(1)</sup>، وأورد الدفتر 289 اسم قرية بريكوت ومزرعة كفر يابا وقفا على قناة الماء في القدس بحصة 5873.5 أقة، وقرية أرطاس ومجدل فضيل النصارى كوقف لساقية ورباط وبيمارستان في حرم الخليل بحصة 9365 أقة.<sup>(2)</sup>

## ب - الأوقاف والتوسع العمراني:

ساهمت الأوقاف في إحداث توسع عمراني كبير وبالتحديد في نشوء وتطور المدن في العصر العثماني فقد كان الوقف في البداية يأخذ شكل نواة عمرانية متكاملة من خلال انشاء جامع، مدرسة، سوق حمام خان الخ... مثلما حدث في إدلب، سعسع، خان يونس،<sup>(3)</sup>، أو بتشكيل أحياء جديدة في المدن والحوضر الكبرى مثل: دمشق وحلب، فقد شهدت مدينة حلب في خلال نصف قرن 1544 - 1583م توسعا كبيرا<sup>(4)</sup> باتجاه الغرب بفضل أربع مجتمعات وقفية لولاء حلب، فقد بنى الوالي خسرو باشا في سنة 1544 جامع الكبير في غرب المركز القديم وبنى لأجل تغطية مصاريفه قيسارية احتوت على خمسين دكانا وخانا احتوى على 95 دكانا، وبنى الوالي محمد باشا دو كاجين سنة 1555م إلى الغرب من ذلك جامعا آخر وأنشأ لتغطية نفقات وقفه أربعة أسواق هي: سوق النحاسين، سوق الجوخ، سوق العلبيّة، سوق الفرائين تحتوي في مجموعها 95 دكانا وثلاث خانات أخرى، وفي 1574م بنى الوالي محمد باشا جامعا آخر وأنشأ من أجل تغطية نفقاته خانا مع سوقين هما: سوق خان الجمرك وسوق السقطية يشملان على 344 دكانا بالإضافة إلى قيسارية، وأخيرا بنى الوالي بهرام سنة 1583م جامعته إلى الغرب أيضا وبنى لتغطية الوقف سوقين يشملان على 29 دكانا وقيسارية مكونة من 35 غرفة.<sup>(5)</sup>

أما في دمشق فقد ظهرت أعمال الوزير لالا مصطفى باشا الذي حكم واليا على دمشق بين 971 - 976هـ / 1563 - 1569م في بناء الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق وحمام في سوق السروجية<sup>(6)</sup>، إلى جانب الوالي مراد باشا سنة 976هـ / 1568م الذي بنى جامعا في السويقة عرف بجامع المرادية<sup>(7)</sup>، كما بنى

(1) - لواء القدس من دفتر تحرير (T.D. 427)، ص 154.

(2) - دفتر تحرير (T.D. 289 Is.)، ص 169.

(3) - محب الدين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج2، مصدر سابق، ص 214، محمد الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 55 - 56.

(4) - يشير الباحث الفرنسي سوفاجيه بشأن حلب إلى أن اتساع المدينة يعود بالأساس إلى فقدان حلب لموقعها كمدينة حدودية، فبدأت الاستحكامات الدفاعية التي كانت تميزها في السقوط والاندثار لعدم جدواها لأنها أصبحت بلا فائدة وبدأت الخنادق تغطي لتتحول إلى طرق، وبذلك توسعت المدينة. أندري ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص 35 - 36.

(5) - محمد الأرناؤوط، المرجع السابق، ص 49 - 50.

(6) - ابن جمعة، الباشات والقضاة، (ولاية دمشق في العهد العثماني)، مصدر سابق، ص 15.

(7) - نفس المصدر، ص 16.

درويش باشا والي دمشق سنة 980هـ/1571 - 1572م جامع الدرويشية قرب باب الجابية، إلى جانب عمارته لسبل مختلفة ولحمام بالقرب من الجامع الأموي ولقيسارية قرب سوق الجوخ<sup>(1)</sup>، أما الوزير سنان باشا فقد بنى جامع السنانية في دمشق سنة 999هـ/1590م<sup>(2)</sup> وكانت هذه المنشآت تكملة لما شرع فيه السلطان سليم أولاً ببناء ضريح محي الدين بن عربي في الصالحية بدمشق منذ دخوله إليها سنة 923هـ/1517م،<sup>(3)</sup> ثم هذا حذوه ابنه السلطان سليمان القانوني الذي أنشأ التكية السليمانية بين 962هـ/1554 - 1555م - 967هـ/1559م،<sup>(4)</sup> ومن أجل تعمير طريق الحج الشامي، وجه الديوان الهمايوني حكماً سلطانياً لوالي الشام وقاضيهما سنة 989هـ / 1589م يأمل في بناء مراكز عمرانية في مواضع معينة ويعرض تقديم مساعدات وتسهيلات ضريبية على السكان الذين يرغبون في الإقامة في هذه المراكز<sup>(5)</sup> وممارسة نشاط تجاري، بحيث كان الطريق الرئيسي الذي يخترق بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب يعني الكثير للدولة العثمانية في الجانبين الديني (قافلة الحج والذي يعني استمراره وأمنه هيبة الدولة العثمانية نفسها) والتجاري (شريان التجارة لبلاد الشام).<sup>(6)</sup>

#### ج - الوقف والرعاية الصحية :

أظهر العثمانيون حرصهم الشديد على دوام عمل أهم مؤسستين صحيّتين (البيمارستانان) اللتين ورثاهما عن السلطة المملوكية وهما البيمارستان الصلاحي في مدينة القدس والبيمارستان الموجود في مدينة الخليل، يقدم وقف البيمارستان خدمات صحية إضافة للإنفاق على الفقراء وتغطية نفقات الموتى، ويشرف على شؤون البيمارستان مجموعة من الموظفين هم: الناظر ونائبه، والحاجب، والمتولي، وأمين المخزن، ومشد العمار، ومشرف الشهود، والعمال، والبواب، والطبيب، وخدام الضعفاء، وخدام النساء، لذلك فقد تم تخصيص العديد من الأوقاف لهاتين المؤسستين والحرص على ضبط عائداتهما، فقد تم وقف طاحون ومعصرة في قرية سنجل بالقدس ريعهما 500 أقة و450 أقة على التوالي، ومزرعة خان الإفرنج ريعها 350 أقة لصالح البيمارستان الصلاحي بالقدس الشريف.<sup>(7)</sup>

(1) - ابن جمعة المقار، نفس المصدر، ص 16، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج 3، مصدر سابق، ص 150 - 152.

(2) - شرف الدين موسى الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، ج 1، مصدر سابق، ص 158.

(3) - ابن طولون، مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 370.

(4) - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج 3، ص 156 - 157.

(5) - محمد الأرناؤوط الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 56.

(6) - نفس المرجع، ص 55.

(7) - دفتر تحرير (T.D. 289 Is.)، ص 170.

ساهم الوقف في توفير الامكانيات لعمل هذه البيماريستانات حيث يعالج المرضى ، ويتناول المريض في هذه المؤسسات الدواء والغذاء مجاناً ، هذا إلى جانب تقديم خدمات طبية لبعض المؤسسات والجهات عن طريق ارسال أطباء للمعالجة ، وهنا ترد اشارات إلى ارسال أطباء إلى الجهات النائية وإلى الأرياف لعلاج المرضى في فترة ما ، وهناك تنوع في المستشفيات بما فيها مستشفيات للمجانين والمجذومين<sup>(1)</sup> ، ومثال ذلك البيماريستان الصلاحي في القدس.<sup>(2)</sup>

إضافة لهذه المجالات فقد قدمت الأوقاف خدمات اجتماعية عظيمة تمثلت في رعاية الفقراء والمساكين وابن السبيل والأيتام والأرامل والمنقطعين<sup>(3)</sup> وأرباب العاهات<sup>(4)</sup> وارضاع الأطفال اليتيم ورعاية النساء اللواتي طلقن أو هجرن ، وتوفير مياه الشرب وانشاء الخانات للمسافرين وبناء القناطر والحمامات العمومية ودور الوضوء وانشاء الزوايا والأربطة وفي بعض الجهات لإيواء المسافرين وعابري السبيل وذوي الحاجات خصوصاً في المناطق والنواحي المقفرة البعيدة وهناك الأوقاف لإنشاء المساجد والجوامع والإنفاق على الأئمة والخطباء والمؤذنين والقوام وكافة الوظائف المرتبة لها<sup>(5)</sup> ، ثم الإنفاق على الصوفية ومؤسساتهم من الربط والزوايا والخوانق ، إضافة إلى الأوقاف المتصلة بتأدية فريضة الحج ، وبرعاية الحرمين الشريفين ، سواء بإعادة تعمير المنشآت التي تعرضت للهدم<sup>(6)</sup> ، أو بإنجاز بعض المرافق الخاصة بإيواء الحجاج.<sup>(7)</sup>

(1) - عبد العزيز الدوري ، أوراق في التاريخ والحضارة ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 254.

(2) - كامل جميل العسلي ، وثائق مقدسية تاريخية ، مج3 ، مرجع سابق ، ص ص 87 - 88.

(3) - تم تخصيص طاسة طعام للشيخ علي بن المرحوم الحاج محمد الدمشقي المجاور بمدينة القدس الشريف وهذا في العمارة العامة الجارية في وقف خاصكي سلطان (زوجة السلطان سليمان القانوني) الواقعة في القدس الشريف بإذن من قاضي القدس وذلك بحكم فقره وأنه يستحق ذلك ، وتم منحه وثيقة تقرر الأمر مؤرخة في أواخر ذي القعدة سنة 1081 هـ الموافق لـ 1671/4/9 م. الحجة 3 ، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173 ، ج1 ، ص 23.

(4) - محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، مرجع سابق ، ص 134.

(5) - عبد العزيز الدوري ، أوراق في التاريخ والحضارة ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 253.

(6) - تعرض مسجد الراية بمكة المكرمة للخراب فاستوجب تعميره ، وهذا من خلال مراسلة الديوان الهمايوني حكماً سلطانياً إلى قاضي مكة بتقديم تقرير مفصل حول مقدار المبلغ اللازم لتعمير وترميم ما تعرض للهدم . مهمة دفترتي 7 ، ص 310 ، حكم رقم 886 ، مؤرخ في 17 شعبان 975 هـ / 16 - 02 - 1568 م ، نقلاً عن : فاضل بيات (إعداد وترجمة) ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (الحرمين الشريفان في عهد السلطان سليم الثاني : 974 - 982 هـ / 1566 - 1574 م) ، مج 4 ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - اسطنبول (إرسكا) ، اسطنبول 2015 ، ص 143.

(7) - بناء على مقترح تقدم به قاضي مكة المكرمة إلى الديوان الهمايوني بشأن بناء سبعة دكاكين وأربعين غرفة وفرنا في مكة المكرمة ، تمت الموافقة على المقترح وتقديم المبالغ اللازمة لذلك من الوقف المخصص . مهمة دفترتي 14 ، حكم 667 ، وحكم 668 ، البلاد العربية في الأحكام السلطانية ، مج 4 ، ص ص 147 - 149.



كانت الأوقاف تتجاوز النقاط التي سبق ذكرها إلى قضايا اجتماعية عديدة أبرزها تزويج الأيتام والأبكار اليتيمات، والعناية بالحيوانات المريضة وتخصيص مرتبات للشيخوخة والضعفاء، واستحداث أوقاف لإنارة السبل أمام المارة ليلاً<sup>(1)</sup> وبذلك يتجلى بأن الأوقاف شملت كافة النواحي وغطت كافة المجالات التي تنفق عليها الدولة وبعضها يتمم ما أنفقت عليه الدولة.<sup>(2)</sup>

### 3 - في الحياة الاقتصادية:

#### أ - الأوقاف والنشاط التجاري:

ساهمت الأوقاف في أحداث تطورات كثيرة في المدن الشامية في العهد العثماني، ولعل مدينة حلب كانت الأكثر حظاً في هذا المجال، فقد حولتها الظروف السياسية الجديدة من مدينة تخوم تقع على أطراف الدولة المملوكية إلى مدينة مركزية تضاهي اسطنبول والقاهرة،<sup>(3)</sup> وكانت للأوقاف التي أنشأها أربعة ولايات تعاقبوا على حكمها خلال فترة نصف قرن أكبر الأثر في تحولها إلى مركز تجاري رئيسي في الدولة العثمانية، فقد تضاعف حجم المدينة بين 1544 و 1583م، وبخاصة انشاء الخانات والقيساريات التي خدمت التجارة، لذلك كانت الاختيار الأفضل للواقف نظراً لما كانت تدره من أرباح، لذلك كانت تمثل البناء النموذجي للاستثمارات المربحة، ولهذا فهي من العناصر المكونة الوقف<sup>(4)</sup> بفضل المنشآت التي أقامها: خسرو باشا، محمد باشا دو كاجين، محمد باشا الآخر، وبهرام باشا، فقد أنشأوا على فترات متتالية أربع مجمعات وقفية بحلب، حيث بنى الوالي خسرو باشا في سنة 1544م جامعاً كبيراً في غرب المركز القديم وبنى لأجل تغطية مصاريفه قيسارية احتوت على خمسين دكاناً وخاناً احتوى على 95 دكاناً، وبنى الوالي محمد باشا دو كاجين سنة 1555م إلى الغرب من ذلك جامعاً آخر وأنشأ لتغطية نفقات وقفه أربعة أسواق هي: سوق النحاسين، سوق الجوخ، سوق الفرائين و سوق العلبيه<sup>(5)</sup>، والذي كان أكبر خان بني في حلب حتى ذلك الحين من منتصف القرن السادس عشر<sup>(6)</sup> تحتوي في مجموعها 95 دكاناً وثلاث خانات أخرى، وفي 1574م بنى الوالي محمد باشا جامعاً آخر وأنشأ من أجل تغطية نفقاته خاناً مع سوقين هما: سوق خان الجمرك وسوق السقطية يشملان على 344 دكاناً بالإضافة إلى قيسارية، وأخيراً بنى الوالي بهرام سنة

(1) - المرجع السابق، ص 254.

(2) - محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص 274.

(3) - أندري ريمون، المدن العربية الكبرى، ص ص 35 - 37.

(4) - نفس المرجع، ص 187.

(5) - رضي الدين ابن الحنبلي، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب، ج 2، قسم 1، تحقيق محمود حمد الفاخوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973، ص ص 263 - 264.

(6) - محمد محمود الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 73.



1583م جامعته إلى الغرب أيضا وبنى لتغطية الوقف سوقين يشملان على 29 دكانا وقيسارية مكونة من 35 غرفة.<sup>(1)</sup>

#### ب - وقف النقود :

يعد وقف النقود من الظواهر المميزة للعصر العثماني ، فقد كان الوقف حتى ذلك الوقت يعتمد في مصادر تمويله على تأجير الأراضي والدور والدكاكين لتغطية المنشآت الخيرية التي أنشئ لأجلها ، لكن برز في هذه الفترة شكل جديد للوقف تزامن مع الدخول العثماني لبلاد الشام ، وعلى الرغم من أن منطقة الأناضول سبق وأن عرفت نوعا من المعاملات النقدية في شكل قروض في صفوف التجار ظهرت بموجبه فئة من المقرضين من الطائفة اليهودية التي حقق أصحابها أموالا طائلة<sup>(2)</sup> ، غير أن وتيرة الاقتراض زادت مع ما أصبح يعرف ب: وقف النقود<sup>(3)</sup> ، وإذا كان الغرض الأساسي للوقف هو الحفاظ على ديمومة الوقف وتوجيه العائد منه لأغراض خيرية فإن الوقف المثالي هو الذي يقوم على ملك يبقى إلى الأبد على الرغم من استخدامه<sup>(4)</sup> ، وهو ما ينطبق على النقود ، فقد صدرت فتوى من المفتي أبي السعود أفندي<sup>(5)</sup> أجازت هذا

(1) - محمد محمود الأرناؤوط ، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 49 - 50.

(2) - شوكت باموك ، التاريخ المالي للدولة العثمانية ، تعريب عبد اللطيف الحارث ، الطبعة الأولى ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2005 ، ص 58.

(3) - أصبح وقف النقود سائدا في الدولة العثمانية منذ القرن الخامس عشر واستمر إلى غاية القرن السادس عشر على الرغم من الآراء الفقهية المتعددة التي أطلقها الفقهاء ، فالشافعي أجاز الوقف والهبة والحبس بدون أي قيد لنوع الموقوف و وصفه ، كوقف المنقول كالعقار ، والدرهم والدينار سواء بسواء ، وأجاز الحنابلة وقف المنقول كالعقار ، كما أجاز الامام مالك وقف المنقول وغير المنقول مؤقتا ومؤبدا ، وأجاز ابن تيمية وقف الدراهم على رأي الامام أحمد بن حنبل ، وأقرها أبو السعود أفندي من المذهب الحنفي بوقف الدراهم والدنانير (مضاربة) .أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (897 - 982هـ) ، رسالة في جواز وقف النقود ، حققها وعلق عليها أبو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني ، ط 1 ، دار ابن حزم ، بيروت 1997 ، ص 12 - 13 ، ص 30 .

(4) - جون ماندفيل : "المردود الخيري للربا ، الخلاف حول وقف النقود في الدولة العثمانية " ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، مجلة الاجتهاد ، العدد الثالث والأربعون ، السنة الحادية عشرة ، صيف 1999 ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ص 179.

(5) - أبو السعود أفندي: (896 - 983 هـ / 1490 - 1575م) عمل مدرسا منذ 1516م ثم قاضيا ببورصة سنة 1533م وارتقى إلى رتبة قاضي عسكر مدة ثماني سنوات وعينه السلطان سليمان القانوني شيخا للإسلام ومكث قرابة 29 سنة وكان له تفسير في القرآن وفتاوى مرتبة على أبواب الفقه وتوفي بإسطنبول. الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الأعيان من أبناء الزمان ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 239 - 244.

النوع من المعاملة<sup>(1)</sup> وينسب تراوحت بين 10٪ في القرن الخامس عشر الميلادي إلى 11٪ و 13٪ في القرنين التاليين.<sup>(2)</sup>

كانت المؤسسات الوقفية عادة تطلب نسبة خمسة عشر في المائة، وكانت عملية تحصيل هذه المؤسسات الوقفية للفوائد على قروضها قد أسهم في إضفاء الشرعية على هذه الممارسة التي دافع عنها المفتي أبو السعود من وجهة نظر عملية صافية لأن منع أخذ الفائدة سوف يؤدي إلى انهيار كثير من المؤسسات الوقفية، وهذا الوضع سوف يؤدي إلى الإضرار بالأمة الإسلامية<sup>(3)</sup>، لكن هذه الفتوى ظلت محدودة في حلب التي لم تشكل عمليات الإقراض سوى نسبة ضئيلة من عمليات الائتمان، وهذا التصرف كان من باب أن سكان بلاد الشام نادرا ما كان شائعا بينهم وجود أوقاف تقرر النقود.<sup>(4)</sup>

ورد في سجلات محكمة القدس الشرعية نص وقفية تضمنت نقودا ودارا سنة 984هـ جاء حسب محررها بأنها "وقف صحيح شرعي، وعقد حبس صريح مرعي صدر بمدينة القدس الشريف" وأمام القاضي الحنفي أن "الحاج خدوردي بن المرحوم الشيخ حسين الخلوتي أنه أوقف وحبس وسبل وأبد وحرّم وتصدق من خالص ماله وحلال كسبه وجار في ملكه وحوزته وتصرفه بالطريق الشرعي وهو من نقد الذهب السلطاني الجديد أربعماية سلطاني ذهب".<sup>(5)</sup>

جاء في سجلات محكمة القدس الشرعية عقد وقف نقود كوقف شرعي مؤرخ في أوائل رمضان 1081هـ / 1671م "...أنه وقف وحبس وتصدق وأبد بالوكالة عن موكله جميع المبلغ النقد من ماله وقدره مائتا غرش صحاحا أسدية عنها بحساب القطع الفضية الجارية في معاملة يوم تاريخه مائتي غرش وأربعون غرشا عن كل غرش ثلاثون قطعة مصرية وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا لا ينمحي اسمه ولا يندرس رسمه... وأنشأ الواقف المشار إليه وقفه هذا على جهات مرعية ومصاريف خير، وهي أن المتولي على هذا الوقف يرابع بالمبلغ المزبور المراجعة الشرعية ويتقي من ذلك شبهات الربى، ويجعل ربح كل عشرة غروش في كل سنة غرشين، فيكون جملة المتحصل من الربح في كل سنة ثمانية وأربعين غرشا عديدة،

(1) - رغم ما أثير من جدل محموم حول هذه العملية، إلا أن الرأي الاجتهادي الذي أصدره أبو السعود الذي بنى موقفه على أن (ما هو مفيد للجماعة الإسلامية هو مفيد للإسلام) جعل رأيه الاجتهادي يتحول إلى قانون ساري المفعول. انظر: أحمد آق كوندوز، الدولة العثمانية المجهولة، مرجع سابق، ص 578.

(2) - شوكت باموك، مرجع سابق، ص 160؛ محمد م. الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 74.

(3) - خليل اينجليك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 148.

(4) - نفسه، نفس المكان.

(5) - سجل رقم 57 ص 95 من سجلات محكمة القدس الشرعية لسنة 984هـ. كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 3، مرجع سابق، ص 264.

يصرف منها المتولي أربعين غروشا في كل سنة ثمن عشرين رطل شمعا بالوزن القدسي ....<sup>(1)</sup> ويبدو بأن خلافا حول شرعية هذا العقد قد وقع ، حيث أراد الوكيل الذي قدم النقد الرجوع بحجة أن " وقف النقود غير صحيح " لكن المتولي عن الوقف أجابه بأن " وقف النقود وما تعلق به من الشروط والقيود صحيح مشروع "،<sup>(2)</sup> وعلى الرغم من ذلك استمر مثل هذا القرض الشرعي في معاملات الناس.<sup>(3)</sup>

ظل موضوع وقف النقود موضع خلاف كبير بين العلماء وهذا لحساسية الموضوع واتصاله بالربا لكن كما بين أبو السعود مفتي الدولة العثمانية فقد أجاز ذلك على أساس المتاجرة بالنقود وما تغله من كسب يعتبر ريعا يصرف طبقا لشروط الواقف ، وكان هذا يمثل اجتهدا فقهيا جزئيا بالنسبة لعصره.<sup>(4)</sup>

من خلال مبدأ الاستبدال ، وهو إخراج العين الموقوفة عن جهة وقفها وبيعها ، وشراء عين أخرى تكون وقفا بدلها<sup>(5)</sup> والتوسع فيه مع ما رافق ذلك من اختلاف بين المذاهب الفقهية<sup>(6)</sup> انفتح الباب أمام الموقوفات للحركة الاقتصادية ، والذي -لولا - لجمدت معظم ثروة الأوقاف ، إلا أنه في مقابل ذلك هناك من اتخذ من الاستبدال شكلا من أشكال التلاعب بالأراضي الزراعية الوقفية ، أي استبدال أرض زراعية بديكان أو بيت بحجة ضعف الريع أو ما شابه ذلك ، لذلك نجد بأن بعض الفقهاء قد تشددوا في الحد من الاستبدال بعد أن تنبهوا لاستغلاله في التلاعب بالأوقاف ، حتى أن بعضهم ذهب لمنع الاستبدال أو الشك فيه خاصة إذا كان أحد طرفيه من الولاية أو كبار المسؤولين لأنه في هذه الحالة يكون الاستبدال لصالح الطرف القوي.<sup>(7)</sup>

(1) -الحجة 1، سجل 173، ج 1، ص 58.

(2) -نفسه ، نفس المكان.

(3) -حجة رقم 9، مؤرخة في 23 ذي الحجة سنة 1081هـ/1671/5/3م، الصفحة 60 من السجل رقم 172، سجلات محكمة القدس الشرعية، ص 133.

(4) -محمد محمود الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 83.

(5) -عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج 2، مرجع سابق، ص 260.

(6) -لم يجز المالكية بيع العقار الموقوف وإن صار خرابا وصار لا ينتفع به ، ولا استبداله بغيره من جنسه ، إلا لمصلحة عامة كتوسيع مسجد أو طريق عام ، وأجاز البعض من المالكية المقابلة بعقار آخر يحل محل الوقف إذا لم يكن ذا منفعة ، أما الشافعية فقد تشددوا في موضوع الاستبدال كيلا يكون ذلك سببا في ضياع الأوقاف ، أما الحنفية فاتفقوا على أن الاستبدال جائزا في حالة ما إذا كان يحقق المنفعة واشتروطوا أخذ إذن القاضي. نفس المرجع، ص 260 -261.

(7) -محمد الأرناؤوط: " الوثائق الوقفية كمصدر من مصادر التعرف على الحياة الزراعية في ضواحي دمشق في العهد العثماني " مجلة دراسات تاريخية، عدد 43 -44، جامعة دمشق، سبتمبر 1992، ص 173.

أما الدور الآخر للأوقاف اقتصاديا فهو التشغيل، فدور الأوقاف هنا كمؤسسة تستخدم موظفين لديها<sup>(1)</sup>، وبالتالي امتصاص وتشغيل القوى العاملة جنبا إلى جنب مع المؤسسات الأخرى للدولة، فالثابت أن وظائف الأوقاف استوعبت معظم فئات المجتمع، ومدى أهمية رواتب هؤلاء الموظفين سواء بالنسبة لهم أو من خلال إعادة طرح هذه الأموال في السوق، دون أن نهمل عمليات الشراء الواسعة من جانب المؤسسات الوقفية من شراء للحبوب والأطعمة والملابس والزيوت، أو مواد البناء لتعمير أو لترميم المؤسسات الخيرية الوقفية، فإن ذلك حتما يؤدي إلى رواج الحركة الشرائية في الأسواق.<sup>(2)</sup>

كما أن عمليات الاستثمار من جانب بعض الأوقاف من خلال تشييد عقارات جديدة كالحانات والأسواق كما رأينا في نماذج دمشق وحلب في عهد ولاية مشهورين، كلها قيمة اضافية إلى اجمالي الثروة الاقتصادية<sup>(3)</sup>.

لم تقتصر أهمية الأوقاف على الحياة الاقتصادية بشكل مباشر فقط، بل نجم عنها العديد من الآثار غير المباشرة التي قدمتها الأوقاف لتشجيع التجارة الداخلية، فقد نشأت بعض الأوقاف أساسا حول مسجد<sup>(4)</sup> أو ضريح لأحد الأولياء أو في طريق الحج، والثابت أن هذه الأوقاف ساعدت على رواج تلك الأسواق الدينية.

كما أن انشاء الأوقاف على غرار أحواض المياه المخصصة للدواب وأسبلة المياه المخصصة للإنسان على الطرق التجارية الهامة كخدمة انسانية كان لها الأثر الاقتصادي الواضح، والذي تمثل في تشجيع ورواج النشاط الاقتصادي على هذه الطرق بالنسبة لقوافل التجارة.<sup>(5)</sup>

(1) -تضمنت حجة شرعية أقرّ فيها قاضي القدس للشيخ موسى بن المرحوم القطب المؤقت نصف وظيفة الفراشة (أي فرش المسجد الأقصى)، والشعالة (أي إشعال وتزييت قناديل المسجد الأقصى)، والكناسة بالمسجد الأقصى الشريف بما لها من المعلوم وقدره كل يوم عثماني. الحجة رقم 1، من سجلات محكمة القدس الشرعية، السجل 173، ج1، ص 107.

(2) - محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص 208.

(3) - أنشأ والي حلب خسرو باشا في 1544م جامع الكبير في غرب المركز القديم لمدينة حلب، وبنى لأجل تغطية نفقات قيسارية احتوت على خمسين دكانا وخانا احتوى على خمسة وتسعين دكانا، أما والي محمد باشا دوكاجين فقد بنى سنة 1555م جامعا كبيرا، كما أنشأ -لتغطية نفقات وقفه - أربعة أسواق هي: سوق النحاسين، سوق الجوخ، سوق العلبة، سوق الفرائين تحتوي في مجموعها 95 دكانا وثلاث خانات أخرى. محمد محمود الأرنؤوط، دور الوقف في المجتمعات الاسلامية، مرجع سابق، ص ص 49-50.

(4) - أحسن مثال عن ذلك هو سوق القطانين الملاصق للحرم القدسي الشريف والذي كوّن مركزا تجاريا ذا طراز معماري جديد ودخل على المدينة المقدسة والذي اعتبر أهم روافد الحرم اقتصاديا. موسى سرور: "دور الأوقاف الاسلامية في التنمية العمرانية في القدس" حوليات القدس، العدد 14، مؤسسة الدراسات المقدسية، خريف - شتاء 2012، ص 26.

(5) - محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص 209.

لم يقصر الدور على التجارة الداخلية فقط ، بل كان للتجارة الخارجية نصيب من تأثير الأوقاف وهذا من خلال خانات وحوانيت الأوقاف مثلما أنشأه دوكاجين في حلب.

#### 4 - الأثر الاقتصادي للأوقاف على السلوك الاجتماعي :

كان للعامل الاقتصادي للوقف أثر هام على انحراف السلوك الاجتماعي لفئات اجتماعية عديدة ، خاصة بالنسبة للوقف الذري أو الأهلي ، فقد نشأ نوع من التحاسد والتباغض بين الإخوة والأقارب على العائد الاقتصادي لأوقافهم ، والذي وصل أحيانا إلى حد الاتهام بالخيانة أمام القاضي ، أو الاستفادة بنصوص معينة في حجة الوقف لإخراج الأقارب من المنفعة بالعائد الاقتصادي واحلال الزوجة مكانهم.

كما نجد ظاهرة استغلال حجة الوقف لحرمان البنت أو بنات الأقارب من ريع الوقف ، إذ نصت بعض الحجج الوقفية على أن يكون الوقف على الذكور فحسب.

خلاصة القول نجد بأن المؤسسات الأهلية أو الأفراد ومن خلال الأوقاف التي تم رصدتها في مختلف الجوانب قد لعبت دورا هاما ومحوريا مكملا لدور الدولة في التكفل بمختلف جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية على الرغم من بروز بعض الظواهر ، حيث أننا يمكن أن نلمس بعض الآثار في السلوكيات لدى بعض الأفراد ، وإن كانت ليست بالظاهرة العامة ، فقد كان للعامل الاقتصادي دور في ابراز انحرافات السلوك الاجتماعي والتناقضات داخل الفئات الاجتماعية في المجتمع.<sup>(1)</sup>

(1) - محمد عفيفي ، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ، مرجع سابق ، ص 217.

# الفصل الخامس

دمشق وقافلة الحج

ارتبط اسم دمشق في العهد العثماني بقافلة الحج الشامي التي كانت تنطلق منها سنويا باتجاه أرض الحرمين الشريفين ونظرا لكون الحج ركن الاسلام الخامس فقد حرصت الدولة العثمانية على إدارة شؤونه بنفسها من خلال الاهتمام بتسيير قوافل الحج سنويا باعتبار أن ذلك يمثل مظهرا لسيادتها وتأكيدا لزعامة السلطان العثماني على العالم الاسلامي، وقد ظهر هذا جليا منذ الوهلة الأولى التي أصبح فيها السلطان سليم الأول يحمل لقب (خادم الحرمين الشريفين) غداة دخوله حلب سنة 1516م، ومن ثمة أصبح مسؤولا عن القيام بخدمة حجاج بيت الله الحرام وتيسير وصولهم إلى مكة المكرمة، إضافة إلى المساعدات والأعطيات النقدية والعينية التي ترسل إلى فقراء وعلماء وأشراف الأماكن المقدسة<sup>(1)</sup>، والتي يحملها موظف خاص يسمى الصره أمني، أو أمين الصرة يغادر اسطنبول كل سنة في أواسط شهر رجب الحرام وسط احتفالات شعبية ورسمية، ويحلّ بدمشق مع أوائل شهر رمضان من كل عام<sup>(2)</sup>.

#### أولا - دمشق محطة الحجاج:

يمثل موسم الحج حدثا مميزا ليس فقط بالنسبة لدمشق التي تنطلق منها قافلة الحج نحو البقاع المقدسة إنما كذلك بالنسبة لباقي مدن بلاد الشام التي يمر بها يحمل الحج القادم من العاصمة اسطنبول التي يخرج منها في حفل رسمي وتمر عبر الأناضول ثم حلب وحماة وحمص وصولا إلى دمشق، بل تعدى تأثير هذا الحدث الجانب الديني إلى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

(1) - أول من خصص من العثمانيين ( صرة) لأهل مكة والمدينة هو السلطان بايزيد الأول (1389 - 1402م) والتي أصبح يتم دفعها سنويا وبانتظام من طرف السلطان محمد جلبي (1413 - 1421م)، كما خصص السلطان محمد الفاتح بعد نجاحه في فتح القسطنطينية في 29 ماي 1453م صرة لأهل مكة والمدينة مناصفة مقدارها أربعة عشر ألف دوكة ذهبية ترسل سنويا في عيد الأضحى. أنظر: ضياء كازيبي: "خدمات الدولة العثمانية للحرمين الشريفين" من: الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصدر وثائقها في العهد العثماني، ج1، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، تونس، 1986، ص586؛ اسماعيل حقي جارشيلي، أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت 2003، ص ص 38 - 39.

(2) - عبد الكريم رافق: "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد السادس، أكتوبر، 1981، ص ص 12 - 13.

يجتمع في دمشق كل سنة ما يربو عن عشرين ألف حاج أو يزيد<sup>(1)</sup> يصلون إليها من منطقة البلقان والأناضول والعراق<sup>(2)</sup> وأواسط آسيا، ومنها يخرجون في موكب بهيج نحو الحجاز في منتصف شهر شوال<sup>(3)</sup> من كل سنة<sup>(4)</sup>.

## ثانيا - خدمات الدولة العثمانية لقافلة الحج الشامي :

### 1 - تعيين أمير الحج :

أولت الدولة العثمانية اهتماما كبيرا لقافلة الحج الشامي من خلال العمل على توفير كامل الشروط والظروف المناسبة لإتمام العملية، بداية من تعيين أمير لركب الحج والذي يسند في الغالب لأحد كبار

(1) - Volney (C-F), Voyage En Egypte Et En Syrie Pendant Les Années 1783,1784 et 1785, T2, 5eme Ed, Bossage Frères Libraires, Paris, 1822, p 10.

(2) - إن أهمية الحج بالنسبة للدولة العثمانية هي التي جعلتها تحتكر لوحدها مسألة تنظيم الحج على غرار ما دأب سلاطين المماليك القيام به، وإدراكا منها للأضرار التي قد تلحق بها في حالة ما إذا تمكن طرف آخر من القيام بهذه المهمة التي تكفلت بها لوحدها باعتبار أن السلطان العثماني هو خادم الحرمين الشريفين، ويُسندل هذا من خلال الحكم السلطاني الذي أصدره السلطان العثماني ردًا على رسالة تقدّم بها أعيان البصرة طالبين إياه أن يسمح لهم بالسفر لأداء فريضة الحج سالكين الطريق المباشر بين البصرة ومكة والذي يمكن عبوره في ظرف عشرين يوما بدل سلوك طريق الشام، لكن السلطان رفض الموضوع قطعيا بحجة انعدام الأمن والخشية من تعرض الحجاج لهجمات البدو، بل وأصر على الطلب منهم سلوك الطريق المؤدية إلى الشام والخروج ضمن قافلة الحج الشامية، وتأكيدا على رفضه أوعز إلى شريف مكة بتشديد الخناق على مستعملي الطريق بين البصرة ومكة، وفي نفس الوقت كاتبت السلطات العثمانية والي البصرة بمعاينة كل من يجزأ على استخدام الطريق، وإذا كانت الحجج التي ساقته الدولة ظاهريا متعلقة بالمسائل الأمنية والخوف على سلامة الحجاج فإن الاعتقاد الغالب في الموضوع هو أن من وراء هذا الموقف هو الخشية من أن تتخذ الدولة الصفوية في إيران هذه الطريق لتسيير قافلة حج خاصة بها، لذلك نجدها تغلق الباب في وجه مثل هذا الاحتمال وتخير الحجاج الراغبين أداء ركن الحج بالخروج ضمن قافلة الحج الشامية أو المصرية. مهمة دفتری 6، حكم 761 - 762، ص 255، نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 3، منشورات ارسیکا، اسطنبول، 2014، ص 101 - 102.

(3) - يتهيأ الموكب في الثامن من شوال ويتم تدوير الحمل ووراءه سنجق الرسول - عليه السلام - ويتهيأ أمير الحج وكبار الموظفين الذين يرافقونه إلى جانب الجنود الذين يرافقون القافلة والخدم الذين يقدمون خدماتهم للحجاج أثناء الرحلة. أنظر: محمد بن عيسى بن كنان، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسم الثاني، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة السورية، 1992، ص 345 - 349.

(4) - لم تتعطل قافلة الحج عن الخروج سوى في سنتي 1516م - 1517م بسبب اضطراب الأوضاع الأمنية التي أعقبت سقوط النظام المملوكي، وعدا هذا، فقد كانت السلطة العثمانية تشرف مباشرة على تسيير قافلة الحج وتحرص على أن تخرج في وقتها المناسب دون تأخير. محمد بن طولون، إعلام الوری بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، مصدر سابق، ص 241.



موظفيها سواء برتبة دفتر دار<sup>(1)</sup>، أو أمير لواء<sup>(2)</sup> قبل أن يصبح مع مطلع القرن الثامن عشر من مهام الوالي شخصياً<sup>(3)</sup>.

أهم من تولّى إمارة الحج وشغله لسنوات طويلة قاربت الخمس عشر سنة هو أمير لواء عجلون قانصوه بن مساعدة الغزاوي<sup>(4)</sup> من 980 هـ - 995 هـ / 1572 م - 1587 - 1588 م، ويظهر الحكم السلطاني الصادر من الديوان الهمايوني في الدولة العثمانية في 21 جمادى الآخرة 979 هـ / 10 أكتوبر 1571 م اسناد منصب إمارة الحج الشامي إلى قانصو بن مساعدة الغزاوي أمير سنجد الكرك - الشوبك - إضافة إلى لواء عجلون، حيث تم تكليفه ببذل قصارى جهده في تنفيذ الأوامر المتعلقة بمستلزمات وأموار قافلة الحجاج للموسم القادم،<sup>(5)</sup> ومَن تولّى إمارة الحج الشامي كذلك كل من الأمير منصور بن الفريخ أمير البقاع الذي بسط نفوذه إلى صفد وعجلون ونابلس، والأمير طراباي، والأمير عساف<sup>(6)</sup>، والأمير فروخ بن عبد الله<sup>(7)</sup>، وابنه محمد بن فروخ أمير لواء نابلس سنة 1081 هـ / 1672 م<sup>(8)</sup>.

1672 م<sup>(8)</sup>.

(1) - أرسل الديوان الهمايوني حكماً إلى دفتر دار الشام السابق يقضي بتعيينه أميراً للحج موسم 978 هـ / 1571 م بناء على التوصية التي تقدم بها بكربكي الشام، وطلب منه الشروع في تهيئة لوازم ومتطلبات سير القافلة. مهمة دفترتي 16، ص 355، الحكم 628، مؤرخ في 21 جمادى الآخرة 979 هـ / 10 نوفمبر 1571 م. نقلاً عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، سبق ذكره، ص 264.

(2) - يبدو أن الدولة العثمانية في هذا الموسم كانت ترغب في تعيين أمير لواء غزة رضوان باشا لإمارة الحج فطلبت منه الشروع في إعداد ما يلزم، لكنها عدلت عن قرارها في آخر لحظة بناء على توصية تقدم بها بكربكي الشام بتعيين دفتر دار الشام السابق أميراً للحج. مهمة دفترتي 14، ص 814، تسلسل 1184، حكم مؤرخ في 23 رمضان 978 هـ / 13 فيفري 1571 م، نفسه، ص 135 - 136.

(3) - عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ط 1، دمشق، 1967، ص 224.

(4) - كان الأمير قانصوه بن مساعدة الغزاوي أحد أمراء العشائر البدوية ذات النفوذ والقوة، في لواء عجلون وكثيراً ما تمرد على سلطة الدولة حتى أنها سعت إلى استدراجه بالحيلة وحبسه، لكنه في الأخير قبل بتقلد منصب أمير الحج لفترة طويلة. مهمة دفترتي 7، ص 748، الحكم 2048، مؤرخ في 18 ربيع الأول 976 / 10 سبتمبر 1568 م، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، ص 190.

(5) - مهمة دفترتي 16، ص 355، تسلسل 628. نقلاً عن: فاضل بيات، نفسه، ص 264.

(6) - حجة رقم 2، سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173، ج 2، ص 376.

(7) - عبد الكريم رافق: "قافلة الحج الشامي، وأهميتها في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 7.

(8) - حجة رقم 1، مؤرخة في 23 ذي القعدة 1081 هـ / 21 - 03 - 1672 م، من سجلات محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 2، ص 375.

## 2 - توفير الدعم اللوجستي للقافلة:

إن خروج أعداد كبيرة من الحجاج رفقة الحامية العسكرية والسير في أراضٍ مقفرة لمدة تصل إلى ثلاثة أشهر يحتاج إلى توفير مستلزمات السفر والمؤونة، لذلك كثيراً ما يصدر الديوان الهمايوني أوامره إلى دفتردار الشام ليدفع إلى أمير الحج ما يحتاج إليه من أموال لتوفير كافة المستلزمات خاصة المواد الغذائية<sup>(1)</sup> إضافة إلى توفير العلف للجمال<sup>(2)</sup> باعتبارها وسيلة النقل الوحيدة آنذاك<sup>(3)</sup>، وإذا كانت خزينة الشام لا تملك المبالغ اللازمة فإنه يتم اللجوء إلى دفتردار حلب ليقدم المبلغ الضروري حتى يتسنى للقافلة أن تخرج في موعدها<sup>(4)</sup>.

موعدها<sup>(4)</sup>.

في المواسم التي تعاني فيها البلاد من شح في المطر ونقص في المنتج الزراعي تسعى الدولة إلى توفير المال الكافي لمستلزمات تسيير قافلة الحج من خارج إيلات الشم، فقد وجهت أمراً لبكركبي مصر مؤرخ في 27 صفر 975هـ / 2 سبتمبر 1567م من أجل أن يقدم مؤناً غذائية لحجاج الشام بما يعادل ألفي ذهب لكون ولاية الشام تعاني قحطا في هذا الموسم<sup>(5)</sup>.

## 3 - توفير الأمن للقافلة:

أمام الأهمية التي تكتسيها قافلة الحج بالنسبة للدولة العثمانية فقد عملت ما في وسعها لضمان سلامة الحجاج أثناء عبورهم نحو الحجاز، وبالأخص أن الطريق التي تسلكها قافلة الحج تمرّ عبر مناطق القبائل

(1) - مهمة دفتري 7، ص 405، الحكم 1165، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، ص 113- 114.

(2) - مهمة دفتري 7، ص 525- 526، الحكم 1506. نفسه، ص 138- 139.

(3) - كانت الدولة تحصل على الجمال من مشايخ قرى منطقة حوران الذين يقومون بتأجيرها للمسؤولين عن قافلة الحج في دمشق. أنظر: عبد الكريم رافق، "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 201؛ محمد عدنان البخيت "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتراطبو (T.D.474) سنة 977 هـ / 1569م"، مرجع سابق، ص 63- 64.

(4) - اعتبر البدو ما يُمنَح لهم كمخصّصات نقدية إنّما هو حقٌّ مكتسب لهم، ورغم ذلك أصرّ البعض منهم على مهاجمة قافلة الحج بعد أن استلموا مخصصاتهم النقدية طمعا في الحصول على أموال إضافية. أنظر: زكرياء قورشون: "الترميم والحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام والمدينة المنورة في القرن 19م"، سبق ذكره، ص 45.

(5) - كثيراً ما تعرضت قافلة الحج لاعتداءات قطاع الطرق أو لهجمات البدو، ورغم ذلك كان طريق دمشق من أكثر الطرق أمناً فمن قدم من الحجاج دمشق حج، وإلاّ بطلَ الحج لانتشار الفساد. أنظر: عبد القادر بن محمد الأنصاري الحنبلي، الدررُ الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، مج 2، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ط 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 53.

البدوية، ونظرا لاستحالة نشر قوات كافية على طول الطريق من الشام إلى الحرمين<sup>(1)</sup>، لما يتطلبه ذلك من تكاليف باهظة من جهة، ولكون الحاميات الكبيرة ستستهلك معظم المياه التي يحتاجها بصورة ملحة الحجاج والبدو، السكان الدائمون في المنطقة الصحراوية<sup>(2)</sup>، فإن الدولة العثمانية التي تعتبر بأن سلامة الحجاج كانت مسألة حيوية، لم تتوقف عن تقديم المدفوعات حتى خلال الفترات الصعبة<sup>(3)</sup> وهذا من أجل استرضاء البدو بمنحهم مبالغ مالية<sup>(4)</sup> تختلف من سنة لأخرى حسب الظروف السياسية، ففي مطلع القرن السابع عشر كانت الإدارة العثمانية تدفع ما بين 15.000 و 17.000 قطعة ذهبية للبدو الذين يقطنون على مقربة من طريق القافلة<sup>(5)</sup> لكن هذا لم يمنع السلطة العثمانية من إغفال الجانب العسكري، فقد كانت ترسل مع القافلة قوات عسكرية من الانكشارية والفرسان السباهية لمرافقة الحجاج وتأمين الطريق،<sup>(6)</sup> فقد أصدر الديوان الهمايوني حكما سلطانيا إلى آغا الانكشارية مؤرخ في 28 رمضان 975هـ/ 27 مارس 1568م يطالبه بتلبية حاجة أمير الحج في تزويده بعدد كاف من الجنود الانكشارية لحماية قافلة الحج المتوجهة مع الحمل الشريف، والعمل تحت إمرة أمير الحج.<sup>(7)</sup>

(1) - يبلغ طول الطريق بين الشام والمدينة المنورة 1150 كلم، وتحتاج الإبل لقطع ما بين 345 - 350 ساعة تقريبا، ويعبره في كل موسم من مواسم الحج ما بين 50000 و 100.000 حاج بأعداد متفاوتة، ويبدو هذا الرقم أكثر قليلا مما كان عليه خلال القرنين 16م و 17م، لكنه متقارب إلى حد ما مع ما ذكره volney في أواخر القرن 18م. أنظر: زكرياء قورشون "الترميم والحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام والمدينة المنورة في القرن التاسع عشر"، مرجع سابق، ص 44.

(2) - ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين: الحج أيام العثمانيين، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، منشورات الجمل المركز الدولي للخدمات الثقافية، ط 1، بيروت، 2010، ص 93.

(3) - نفسه، ص 132.

(4) - اعتبر البدو ما يُمنَح لهم كمخصصات نقدية إنما هو حقٌ مكتسب لهم، ورغم ذلك أصرَّ البعض منهم على مهاجمة قافلة الحج بعد أن استلموا مخصصاتهم النقدية طمعا في الحصول على أموال إضافية. أنظر: زكرياء قورشون: "الترميم والحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام والمدينة المنورة في القرن 19م"، مرجع سابق، ص 45.

(5) - ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، مرجع سابق، ص 98.

(6) - كثيرا ما تعرضت قافلة الحج لاعتداءات قطاع الطرق أو لهجمات البدو، ورغم ذلك كان طريق دمشق من أكثر الطرق أمنا فمن قدم من الحجاج دمشق حج، وإلاَّ بَطُلَ الحج لانتشار الفساد. أنظر: عبد القادر بن محمد الأنصاري الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، مصدر سابق، ص 53.

(7) - مهمة دفترتي 7، ص 405، الحكم 1164. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، سبق ذكره، ص 112 - 113.

وتختلف أعداد الجنود الذين يخرجون مع القافلة حسب أعداد الحجاج، لكن هذا ليس معناه أن قافلة الحج تضم الحجاج وحدهم، فكثيراً ما كان التجار يخرجون مع القافلة مستفيدين من الحماية والأمن الذي تضمنه الدولة، لذلك يتم اللجوء إلى طلب قوات إضافية من الإيالات المجاورة<sup>(1)</sup> خاصة من إيالة قرمان.

لا يقتصر دور السلطة العثمانية على إرسال القافلة إلى الحج بل وأثناء رحلة العودة كذلك، فكثيراً ما كانت المؤونة التي مع الحجاج تنفذ؛ مما يستوجب التدخل من الدولة وهذا بإرسال ما يحتاجه الحجاج من مواد غذائية وألبسة وعلف للجمال، ومرافقتها بالقوات العسكرية لحمايتها حتى تصل إلى دمشق<sup>(2)</sup>.

#### 4 - استقبال الحجاج عند عودة قافلة الحج من البقاع المقدسة :

ففي غرة ذي الحجة 975هـ/ 28 ماي 1568م تم ابلاغ الديوان الهمايوني بمعاناة الحجاج بالمدينة المنورة جرّاء نقص المواد الغذائية، فصدر الأمر إلى أمير سنجق عجلون بالإسراع في استقبال قافلة الحج بالمواد الغذائية الكافية، وحرصاً منه على تنفيذ مهمته جرى تحذيره من مغبة الإهمال أو التهاون في تنفيذ هذا الأمر المستعجل،<sup>(3)</sup> كما صدر الأمر إلى دفتر دار الشام يطالبه بالإسراع في توفير المال اللازم لشراء المواد الغذائية للحجاج، بل ويحذّره من أيّ إعاقة أو عرقلة في هذا الشأن، وأن يتدبّر المبلغ اللازم حتى وإن اقتضى أن يؤمّنه بطريقة القرض، ويذكره بمغبة الإهمال والتهاون وأن "المسألة المذكورة من أهمّ الأمور وعليك التقيد بها بالشكل اللازم"،<sup>(4)</sup> فمسألة الحج من الأمور الهامة للدولة وعلى كافة الموظفين السهر على عودة الحجاج إلى ديارهم بيسر وعافية، وعلى كلّ موظّف أن يتحمّل عواقب أيّ ضرر يلحق بهم<sup>(5)</sup>.

(1) - صدر حكم سلطاني إلى بكربكي قرمان بالتوجه إلى الشام رفقة ألف انكشاري من الأكفاء ومن الزعماء التيماريين نظراً لحلول موسم الحج والحيولة دون تعرض مصالح الحجاج إلى الضرر. مهمة دفترتي 7، ص 214، الحكم 593 مؤرخ في 28 جمادى الآخرة 975هـ/ 30 ديسمبر 1567م. نقلاً عن: فاضل بيات، نفسه، ص ص 93-94.

(2) - كانت الدولة العثمانية تعين أحد أمراء الألوية - ثم أصبح أحد الأمراء أو الوزراء بعد 1708م - على رأس قافلة محمّلة بالمؤن لاستقبال قافلة الحج في طريق عودتها من البقاع المقدسة، وتشكّل الأغذية والملابس والعلف والحبّال أهم احتياجات الحجاج. أنظر: إبراهيم فاعور الشرعة "سليمان باشا العظم والي دمشق" دراسة تاريخية وثائقية، مجلة الدارة، العدد الأول، محرم 1429هـ، السنة الرابعة والثلاثون، ص 188.

(3) - مهمة دفترتي 7، ص 523، الحكم 1501 مؤرخ في غرة ذي الحجة 975هـ/ 28 ماي 1568م. نقلاً عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، سبق ذكره، ص ص 136 - 137.

(4) - مهمة دفترتي 7، ص 525، الحكم 1505 مؤرخ في غرة ذي الحجة 975هـ/ 28 ماي 1568. فاضل بيات، نفسه، ص 137.

(5) - مهمة دفترتي 7 ص ص 525 - 526، الحكم 1506. فاضل بيات، نفسه، ص ص 138 - 139.

يُعرف المكلف بالخروج لملاقاة قافلة الحج أثناء عودتها حاملاً معه المؤن والمساعدات التي تنقصها بأمر الجردة أو باشة الجردة أو أمير الملاقاة، ونظراً لتعرض الجردة لهجمات البدو فقد اضطرت للتسلح، وكثيراً ما تولّى إمارة الجردة أمراء محليون وقادة انكشارية وموظفين عثمانيين، وكانت الجردة تغادر دمشق في العادة في شهر ذي القعدة أو ذي الحجة، وفي حالة ما نجح البدو في الإغارة عليها وجب إعداد جردة ثانية بدلها،<sup>(1)</sup> وبذلك نرى بأن الدولة العثمانية اعتبرت أن ما تقوم به من جهود لصالح قافلة الحج ورعاية الحجاج على علاقة وثيقة بمشروعية الخلافة الإسلامية التي تمثلها<sup>(2)</sup> ليس فقط بالنسبة لرعاياها بل لكل المسلمين في البقاع الأخرى.

### ثانياً - انعكاسات قافلة الحج الشامي على مدينة دمشق:

شكلت مسألة تجمع الحجاج في دمشق قبل انطلاق القافلة نحو البقاع المقدسة جانبا هاماً من حياة المدينة انعكس على جوانب الحياة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية والثقافية فيها، ويبرز هذا من خلال:

#### 1 - الجانب الاجتماعي:

أدى التنوع في جنسيات الحجاج الذين حلوا بدمشق للالتحاق بقافلتها وبقاء بعضهم للعيش والعمل فيها إلى تعدد الأقوام في دمشق، وكثيراً ما أقام هؤلاء في أحياء خاصة مثل حي الخراب والسويقة بالنسبة للحجاج الأعجم، أو في زوايا تحمل اسمهم، مثل زاوية المغاربة وزاوية الهند القائمة ظاهر دمشق بمحلة السويقة والتي تولّى أمرها الهند، وزاوية للموصلين بمحلة ميدان الحصى،<sup>(3)</sup> وقد رغب الكثير من المسلمين الأغراب الإقامة في دمشق سواء منهم من قدم إليها بمناسبة الحج، أو الذين قصدوها خصيصاً بهدف المجاورة لبعض الوقت أو للإقامة فيها كنزلاء، ومن اجتذبهم دمشق بصورة خاصة العلماء والمتصوفة<sup>(4)</sup> بينما فضل البعض الآخر العودة إلى بلاده رغم مشاق وصعوبات السفر، لكونهم غير منتمين للدولة العثمانية.<sup>(5)</sup>

(1) - عبد الكريم رافق: "قافلة الحج الشامي"، مرجع سابق، ص 10.

(2) - زكريا قورشون: "الترميم والحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة في طريق الحج..."، مرجع سابق، ص 47.

(3) - رافق، المرجع السابق، ص ص 20 - 21.

(4) - نفسه، ص 21.

(5) - يشير حُكم سلطاني موجّه لأمير الحج في موسم 975هـ/1568م إلى الاهتمام الذي أولته الدولة للحجاج المسلمين من غير العثمانيين، فقد طلب حجاج سمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر إذناً من السلطان بأن يسمح لهم بالعودة إلى بلدانهم بحراً عن طريق ميناء كفة نظراً لكون الطريق البرية لم تعد آمنة، لهذا صدر الأمر إلى خان القرم بأن يقوم بإيصالهم إلى الحدود آمنين سالمين، وصدر أمر آخر إلى بكربكي حلب بأن يساعدهم في العبور إلى كفة من أي مكان يرغبون حتى يبلغوا منطقة القرم كي يتسنى لخانها إيصالهم

وجه آخر لتأثير الحج على دمشق هو ظهور مقابر الغرباء نتيجة كثرة من يموتون بها من الحجاج العابرين، وعلى الرغم من ذلك فقد كان العلماء منهم يدفنون في الغالب حيث دفن علماء دمشق.<sup>(1)</sup>

مثلت مناسبة وصول المحمل الشريف إلى دمشق وأهميته الروحية والرمزية، وقدوم العلماء وبروز السياحة الدينية (بمفهوم الوقت الحالي) من خلال الإقامة في جامع الأموي أو التوجه لبيت المقدس) بعد أن يكون قد خرج من اسطنبول<sup>(2)</sup> حدثاً مميزاً بالنسبة لسكان دمشق الذين يخرجون لمشاهدة المحمل، ويذكر ابن طولون بأن قافلة الحج عازمت الخروج لأول مرة من دمشق بعد أن تعطلت سنتين، وأن أمير الركب "دار بالمحمل دورة دمشق، ومعه خيول ملبسة وهجن مكورة، وجمال مرحلة، ورجال مدرعة، وخرج من دار السعادة وعاد إليها ومعه الصنjq، وهما على هيئتهما أيام الجراكسة، غير أنه مكتوب عليهما اسم سلطان الروم، وجيء بمحمل المحمل إلى جان بردي الغزالي ليتفقداه أمام القلعة".<sup>(3)</sup>

كما تمثل مناسبة خروج الحجاج نحو البقاع المقدسة حدثاً اجتماعياً هاماً لأهالي الحجاج ولسكان دمشق بصفة عامة، حيث تغادر القافلة دمشق في موكب حافل، يسير في أمير الحج رفقة الوالي ويحمل فيه المحمل والسنjq، وترافقه قوات كثيرة<sup>(4)</sup>، ويكون ذلك عادة بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال، ثم يتوقف أمير الحج عند قبة الحج خارج بوابة الله (سميت بهذا الاسم لأنها تؤدي إلى بلاد الله في الحجاز والقدس) بانتظار تجمع كل الحجاج، الذين كثيراً ما يتباطؤون في الخروج بسبب رغبة بعضهم في مشاهدة موكب الحج أو لتوديع أقربائهم<sup>(5)</sup>.

إلى أوطانهم مهمة. دفترى 7، ص 241، الحكم 671 مؤرخ في 8 رجب 975هـ / 8 ديسمبر 1568م. نقلا عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، سبق ذكره، ص 97.

(1) - رافق: "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 21.

(2) - كان الموكب يتهيأ في الثامن من شوال ويتم تدوير المحمل ووراءه سنjq الرسول -عليه السلام - ويتهيأ أمير الحج وكبار الموظفين الذين يرافقونه إلى جانب الجنود الذين يرافقون القافلة والخدم الذين يقدمون خدماتهم للحجاج أثناء الرحلة. أنظر: محمد بن عيسى بن كنان، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسم الثاني، مصدر سابق، ص 345- 349.

(3) - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 385.

(4) - يذكر الرحالة الفرنسي (Pierre Belon) الذي مر بدمشق في منتصف القرن السادس عشر بأن القوات التي ترافق قافلة الحج تراوح تعدادها بين ألف وثلاثة آلاف جندي لدرء الخطر الذي قد تتعرض له أثناء مرورها في الطرق الوعرة والمقفرة.

. Belon de mans, les observations de plusieurs singularitess et choses mémorables, traversées en grèce,Asie, Inde, Egypte, Arabie et autres pays étrangères, op cit, p 336

(5) - عبد الكريم رافق: "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني" مرجع سابق، ص 16 - 17.

ويحدث نفس الشيء عند عودتها، فقد كانت القافلة تصل عموماً في النصف الأول من شهر صفر حيث يخرج أعيان دمشق لاستقبالها<sup>(1)</sup>.

## 2 - الجانب العمراني:

أمام هذا الدور الجديد لدمشق المرتبط بالحج كان وجود الخانات والمستودعات والقيساريات أمراً ضرورياً لحاجتها لاستقبال هذه الأعداد الكبيرة من الوافدين إليها وانتظار خروج قافلة الحج نحو مكة المكرمة<sup>(2)</sup>، لكن التوسع العمراني الأهم الذي عرفته مدينة دمشق كان نحو الجنوب على امتداد طريق الحج، مما يوضح الدور الأساسي المؤثر الذي أصبح تلعبه قافلة الحج الشامي بالنسبة للمنطقة ككل، فمع تزايد النشاط سنوياً على محور الحج نشأ مع بداية العهد العثماني حي جديد سمي بحي الميدان في اتجاه الطريق المؤدية إلى الحجاز وإلى أراضي حوران الخصبة مشكلاً ضاحية بطول نحو ثلاثة كيلومترات من المستودعات والمباني التي طغت على قرية القبيبات، وأخذ الحي اسمه من ميدان الحصى القديم وعلى طرفه الجنوبي باب الله، وهو المكان الذي يترك فيه الحجاج دمشق متوجهين نحو بيت الله الحرام<sup>(3)</sup>، كما اتسعت محلات أخرى في دمشق كسوق ساروجا والعقبة والسوق بفعل تلك الحركة التي يعرفها المدينة، وحدث الشيء نفسه في الصاحية بفضل وصول وافدين جدد<sup>(4)</sup>.

كما برز تأثير موقع دمشق كمنطلق لقافلة الحج الشامي في الأبنية الثقافية والدينية التي نشأت فيها كالجوامع والمدارس والتكايا والزوايا المنتشرة على طول محور الحج، وكذا المباني التي شيدت لخدمة الحجاج والوافدين، وهكذا ليس من المصادفة أن يقوم السلطان سليم الأول (1512 - 1520م) بعد استقراره في دمشق ببناء "عمارة" إلى جانب الجامع الذي أنشأه حول ضريح الشيخ محي الدين بن العربي، وأصبحت هذه العمارة التي عُرفت لدى الدمشقيين باسم "التيكة" رمزا للعصر العثماني في بلاد الشام، كما ظهرت العمارة السليمانية (نسبة إلى السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566م) التي تم انشاؤها سنة 962هـ / 1554م، والتي تعتبر من أجمل وأضخم المنشآت التي بنيت في دمشق خلال العصر العثماني، كما أنشأت زوجة السلطان سليمان (خرم سلطان) تكية مشابهة لها في القدس عُرفت باسم "تيكة خاصكي

(1) - عبد الكريم رافق: "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني" مرجع سابق، ص 18.

(2) - جان سوفاجيه، دمشق الشام، مرجع سابق، ص 101.

(3) - نفس المرجع، ص ص 102 - 103.

(4) - نفسه، ص 103.



سلطان" سنة 962هـ / 1556م<sup>(1)</sup>، وتكية العسالي بدمشق<sup>(2)</sup>، وقد بنيت معظم هذه المباني على طراز جوامع اسطنبول بقبابها الفسيحة نصف الكروية، ومآذنها العتيقة<sup>(3)</sup>، وقد قامت هذه المؤسسات بتكريس التكافل الاجتماعي، وضمنت إلى حد ما -على سبيل المثال - ألا يبيت فيها فقير وهو جائع.<sup>(4)</sup>

وانشاء المحطات في طريق الحج تقع القطيفة في إقليم القلمون ما بين حمص ودمشق ويمر بها طريق الحج الشامي، وتواجد بها خان للمسافرين، لكنه تعرض للهدم مما دفع والي الشام سنان باشا (1587 - 1595) بإنشاء نواة عمرانية جديدة للقطيفة تتألف من: جامع، وعمارة (تكية لتقديم الوجبات المجانية) بيوت متعددة للمسافرين، رباط (لنزول الواردين)، حمام ودكاكين، مما حولها إلى محطة مهمة على طريق الحج<sup>(5)</sup>.

### 3 - الجانب الاقتصادي:

استفادت دمشق كثيرا من قافلة الحج الشامي التي لم تكن مجرد قافلة للحج فقط بل كانت قافلة للتجارة أيضا، فقد كانت دمشق تنهياً لموسم الحج قبل عدة أشهر من خلال تحضير كل مستلزمات الرحلة من طعام وشراب، وكان الحجاج يتزودون بالأطعمة من دكاكين الحجيح، فانطلاقا من السنانية (نسبة إلى جامع سنان باشا)<sup>(6)</sup> تبدأ في الظهور مجموعة من الأسواق يجد فيها المسافرون وأرباب القوافل وباعة القمح من الفلاحين وأصحاب الإبل من البدو كل ما يحتاجون إليه من ثياب وأحذية ومعدات للمضارب وأكياس ورحال وما شاكل،<sup>(7)</sup> ولعل وسيلة النقل هي من أكثر الأمور ضرورة، لذلك كان تأمين الجمال بالعدد

(1) - محمد م. الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في أواخر القرن السادس عشر، مرجع سابق، ص 104.

(2) - وهي من المساجد العثمانية يعود تاريخها إلى سنة 1045هـ تقع في حي القدم بدمشق، تنسب إلى الشيخ أحمد بن علي الحريري شيخ الطريقة الخلوتية الصوفية المتوفى بدمشق سنة 1048هـ والمدفون في الجامع المعروف باسمه هناك (جامع العسالي) ونسبته إلى العسالي أن نزل في قرية عسال فأقام بها وعرف بهذا الاسم ودفن بالجامع ودفن إلى جواره فيما بعد والي دمشق الذي بنى الجامع (كوجك أحمد باشا). أمانى خليل الرحال، طريق الحج وعمائره الخدمية في سورية في الفترة العثمانية (دراسة تاريخية مقارنة) رسالة ماجستير جامعة دمشق، 2015، ص 113.

(3) - جان سوفاجية: دمشق الشام، مرجع سابق، ص 103.

(4) - المرجع السابق، ص 105.

(5) - محمد م. الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 59 - 61.

(6) - تولى سنان باشا حكم دمشق سنة 998هـ / 1589م وبنى فيها مجمعا عمرانيا متقاربا ومتكاملا ضم الجامع وإلى جانبه السبيل السبيل والمكتب والحمام. ابن جمعة، الباشات والقضاة ضمن كتاب ولاية دمشق في العهد العثماني، مصدر سابق، ص 20.

(7) - جان سوفاجية، دمشق الشام، مرجع سابق، ص 102.



والنوعية المناسبين يشكل أحد أصعب المشاكل التي تواجه إداريي القافلة، فقد كان يتم شراء آلاف الجمال من قبل التجار والحجاج مما عاد على البدو وعلى متعهدي الجمال في دمشق بالمال الوفير نظرا لأن كل حاج يدفع ما بين 50 و55 قطعة ذهبية للذهاب من دمشق إلى مكة المكرمة.<sup>(1)</sup>

الواقع أن عبور أعداد كبيرة من الحجاج من بلدان مختلفة في بلاد الشام من شمالها إلى جنوبها والإقامة في المدن الواقعة على الطريق وخاصة دمشق، قد ساهم في تنشيط الحركة التجارية، إذ أن بعض الحجاج كانوا يعمدون إلى ممارسة التجارة في طريقهم لتغطية نفقات الطريق، كما أن بعض التجار كان يفضل مصاحبة قافلة الحج نظرا للحماية التي ترافقها طوال الطريق وهذا من دون شك زاد من أعدادها<sup>(2)</sup>، وهكذا نجد بضائع البلقان والأناضول تتجمع في دمشق، ويتكرر الأمر مع بضائع الحجاز والشام في طريق العودة إلى الأناضول والبلقان.<sup>(3)</sup>

#### أ - زيادة النشاط الحرفي:

أفادت قافلة الحج الشامي النشاط الحرفي بصفة عامة، فقد نشطت في دمشق طائفة حرفية اختصت في صنع البقسماط وهو مصنوع من طحين خاص يشكّل في قوالب، وكان يشترط فيه أن يكون يابسا ظاهره كباطنه ليتحمل السفر، ويبلّ بالماء عند أكله<sup>(4)</sup> وتتمون به القافلة بكميات كبيرة بما يكفي الأعداد الهائلة من الحجاج، وبالطبع فقد وانعكس هذا النشاط على أفراد هذه الطائفة التي ترتفع مبيعاتها في هذه المناسبة إلى آلاف القناطير، وما يقال عن دمشق ينطبق على حلب بالنسبة لطائفة البقسماطية.<sup>(5)</sup>

#### ب - الخدمات المتنوعة:

كما أفادت مناسبة انطلاق قافلة الحج الشامي من دمشق طائفة أخرى قدمت خدماتها في ميدان النقل ونقصد هنا طائفة "العكامين" الذين يقودون الجمال التي يستعملها الحجاج في تنقلهم إلى الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وهو ما عاد بأرباح هامة لمشايخ العشائر القريبة من دمشق مثل منطقة حوران

(1) - ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، مرجع سابق، ص ص 84 - 85.

(2) - رافق: "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 19.

(3) - رافق، نفسه، ص ص 18 - 20؛ أندري ريمون، المدن العربية الكبرى، مرجع سابق، ص 40.

(4) - عبد الكريم رافق، نفسه، ص 12.

(5) - نفسه، ص 19.

أو مشايخ البدو في منطقة حماة وحلب والذين تمكنوا من تأجير الآلاف من جمالهم لنقل الحجاج والقوات والبضائع المرافقة للقافلة.<sup>(1)</sup>

#### 4 - الجانب الثقافي:

ساهمت قافلة الحج وانطلاقها من دمشق في إثراء الحياة الثقافية والعلمية لدمشق وهذا بتوافد العلماء الزائرين والعلماء المقيمين، بل أن الكثيرين من هؤلاء العلماء شغلوا مراتب عليا فيها سواء منهم من تولى الإمامة أو التدريس على اختلاف مستوياته، وفي المقابل استغل العلماء المحليون وجود العلماء الأغراب في دمشق بمناسبة الحج فحصلوا منهم على الإجازات فيما اختصاصوا به من علم، ولم يقتصر الإفادة على العلماء بل شملت حتى العوام.<sup>(2)</sup>

كما كانت مناسبة تجمع الحجاج في دمشق فرصة لتبادل الآراء بين العلماء الأغراب والمحليين وللتعليم والتعلم في آن واحد، كما كانت هذه المناسبة فرصة ساعدت في نشر التصوف والطرق الصوفية كما هو الحال بالنسبة للطريقة النقشبندية التي انتشرت بدمشق أواخر القرن 17م علي يد جد الأسرة المرادية الذي ينحدر من بخارى، وأمّ دمشق بمناسبة الحج واهتم بنشر هذه الطريقة بدمشق، وبدوره ساهم انتشار الطرق الصوفية في دمشق وانتساب العلماء المحليين إليها بأن رفع من مستواها وأزال عنها كثيرا من الغلو والتطرف، وتعززت الروابط بين أفراد الطريقة الواحدة دون حساسيات مفرطة لأنها في معظمها كانت ذات شعائر اجتماعية متقاربة.<sup>(3)</sup>

نستخلص من كلّ ما ذكرناه بأنّ قافلة الحج الشامي أكسبت بلاد الشام وبالأخص دمشق أهمية دينية وسياسية، فقد أصبحت نقطة التقاء عشرات الآلاف من الحجاج من بلاد البلقان والأناضول وبلاد فارس والعراق وأواسط آسيا قبل أن ينطلقوا متجهين صوب مكة المكرمة في قافلة تمثل هيبة الدولة العثمانية، وانعكست هذه الأهمية والمكانة على دمشق ازدهارا وحركية اجتماعية واقتصادية وثقافية استمرت معها خلال فترة قوة الدولة العثمانية نفسها، قبل أن يلحق بها بعض الضرر نتيجة فترة الضعف التي تجلّت منذ أواخر القرن السابع عشر.

(1) - جان سوفاجيه، دمشق الشام، مرجع سابق، ص 101.

(2) - رافق: "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 22.

(3) - نفسه، ص 22.

# الباب الثاني

- الفصل الأول: الزراعة
- الفصل الثاني: الصناعة
- الفصل الثالث: التجارة
- الفصل الرابع: الضرائب
- الفصل الخامس: المكايل والأوزان والمقاييس والنقود

# الفصل الأول

الزراعة

تعد الزراعة الأساس الذي تبلورت حوله أقدم الحضارات الانسانية، وهي بذلك تعد أهم مصادر الثروة عندها، ومن هنا فإن وضع يد الدولة على الأراضي الزراعية يعني التحكم في هذه الثروة، فضلا عن ارتباط الأنشطة الاقتصادية الأخرى بها فاعتمدت كثير من الصناعات على المحاصيل الزراعية، ونشطت التجارة والنقل بفضل توافر المنتجات الزراعية.

## أولا -تنظيم الأراضي:

### 1 -ملكية الأرض في التشريع العثماني:

اعتبرت الدولة العثمانية بأن الأراضي التي تم فتحها في بلاد الشام سنة 922هـ/1516م تكون رقبتها للسلطان العثماني الذي يبسط سيادته عليها ومن ثم فهو الذي يمتلك حق استخدامها، واتبع العثمانيون مبدأين للملكية الأراضي هما: الفتح والاحياء، فالفتح أعطى حق رقبة الأرض للفتح وهو ما يمثل الدولة عموما، والدولة هي التي لها وحدها سلطة اعطاء الأرض في اطار بعض الشروط وأهمها الاحياء (أي احياء الأرض).

صنفت الدولة العثمانية أراضي بلاد الشام إلى خمسة أقسام هي: أرض الميري، أراضي الوقف، أراضي الملك، الأراضي المتروكة، الأراضي الموات.

اتبعت الدولة العثمانية في بلاد الشام في موضوع الأراضي نفس التنظيم المتبع في كامل أرجاء الدولة وهو أسلوب الإقطاع العسكري المعروف بالتيمار والذي ورثته عن الدولة السلجوقية<sup>(1)</sup> حيث تقوم بتوزيع الأراضي الأميرية في شكل إقطاع على موظفيها من طبقة العسكر الذين يتفانون في خدمة الدولة فتعترف لهم بحق جمع الضرائب المفروضة على تلك الأراضي بدلا من حصولهم على رواتب شهرية، وبالتالي من أجل توفير موارد مالية ثابتة لأعداد كبيرة من أفراد جيشها، واعتبرت القوانين العثمانية ريع هذه التيمارات

(1) - يرى اكمل الدين احسان أوغلي بأن هناك تطابقا بين النظام الذي طبقه الوزير نظام الملك عند السلاجقة و النظام المتبع لدى العثمانيين، غير أن العثمانيين أجروا عليه كثيرا من التعديلات حتى جعلوه -من خلال التطبيق الذي استمر قرونا - يحمل هوية تتناسب مع ظروف عصرهم. الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج1، مرجع سابق، ص ص 267 -268، وهناك من يرى بأن هذا النظام الإقطاعي تم اقتباسه من النموذج البيزنطي، فكان الجنود الذين يستحقون المكافأة نظير ما يقدمونه للدولة بمنحون -بإحدى الأمر - إقطاعا صغيرا يكون على مالكيه السابقين من الفلاحين أن يواصلوا حرثه و زرعهم بوصفهم رعايا، فهو يغل على المقطع دخلا يتراوح بين 3000 و20000 أقيجة في السنة الواحدة، وكان على المقطع لقاء ذلك أن يقدم للجيش عددا من الفرسان يتراوح بين الاثنين والأربعة، و يدعى هذا الإقطاع تيمار، وكانت الخدمة هي التي تؤهل التيماري لإقطاع أكبر يدعى الزعامت، أما ابنه فكان يتعين عليه أن يبدأ بتيمار. أنظر: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، لبنان، 1968، ص 485.

بمثابة مال للمقاتلة، فالتيمار كما جاء في رسالة عين علي في مطلع القرن 17م هو "أجر خصص لهم مقابل ملاقات العدو"<sup>(1)</sup>، والذي يحدد نوع الإقطاع الممنوح هو قيمة حاصلاته المسجلة في الدفاتر، فالذي يدرّ دخلاً سنوياً يقل عن 20.000 أقة يسمى (تيماراً)، والذي يزيد عن 20.000 ولا يتجاوز 100.000 أقة يسمى (زعامت)، أما الإقطاع الذي يزيد عن مبلغ 100.000 أقة فيسمى (خاصاً)<sup>(2)</sup>، وكان على صاحب أحد من هذه الإقطاعات أن يشارك بنفسه في الحرب وأن يجهز عدداً من الجنود يُعرف الواحد منهم باسم (جبلو) يتوافق مع إيراد الإقطاع الممنوح له<sup>(3)</sup>، على اعتبار أن مقدار العائد من التيمار يعرف باسم (قليج) أو السيف، وإذا ما بلغ هذا العائد مقداراً معيناً وجب تجهيز عدد من الجنود مع أسلحتهم وذخائرهم.<sup>(4)</sup>

يضم نظام التيمار ثلاثة أطراف أساسية هي :

- **الرعايا** (أي فئة الفلاحين العاملين في التيمار)، **والسباهي** (الذي يحمل صفة صاحب الأرض أو التيمار)، وهو الذي يشرف على فلاحه هذه الأرض وجمع الضرائب التي قررتها الدولة على الرعايا المقيمين فيها، وهو في هذه الحالة لا يعدو أن يكون مجرد موظف رسمي يفلح أراضي الدولة، ويمثل الحاكم في سلطته على الأراضي الواقعة تحت مسؤوليته، أما الطرف الثالث فهو **الدولة** التي هي صاحبة الملكية المطلقة على الأراضي التابعة لنظام الإقطاع.<sup>(5)</sup>

توجد ثلاثة أنواع من إقطاعات الأراضي يتم التمييز بينها على أساس المردود المالي للتيمار، وهي :  
الأراضي الأميرية (الميرية)، الأراضي الوقفية، وأراضي الملك الخاص، ومن خلال دراسة دفاتر التحرير العثمانية يلاحظ بأن ملكية الأرض كانت بالدرجة الأولى عائدة للدولة العثمانية، وتقسّمها إلى :

أ - جزء من عائدات الأرض يخصصه السلطان لأصحاب **الخاص** والزعامت والتيمار، كما كان يخصص جزء ضئيلاً منها باسم خاص شاهي (أو سلطاني).

(1) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 652.

(2) - علي جاوش الصوفيوي، قوانين آل عثمان، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 702.

(3) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 650 - 651.

(4) - المقصود من مصطلح (قليج) أو سيف - حسب ما جاء في قوانين آل عثمان - لعلي جاوش الصوفيوي : هو معرفة مقدار الزعماء وأرباب التيمار في سنجق ما فما بلغ عدد السيوف من زعامت وتيمار إنما يمثل صاحبه من السباهية (الفرسان). المرجع السابق، ص 703.

(5) - المرجع السابق، ص 269.

ب - قسم من الأراضي سواء مزارع أو قطع أرضية كانت موقوفة إما وقفا خيرياً أو وقفا ذرياً.

ج - إضافة إلى نسبة ضئيلة جداً من الأرض يشار إليها باسم ملك.<sup>(1)</sup>

الدولة هي المسؤولة عن توزيع التيمارات (الأراضي) لذا لم تكن التيمارات ثابتة بل تتغير باستمرار فقد كانت الدولة تجري عملية التوزيع بين الفينة والأخرى وتنقل أصحابها من منطقة لأخرى، لذلك يمكن أن يتحول الخاص الشاهي إلى خاص للبكلربكي أو تيمارا أو زعامت، أو العكس وهو أن التيمار يصبح زعامت أو خاصاً وهذا حسب الجهة المسؤولة عن توزيعها، لذلك كانت التيمارات من حيث حق منحها على نوعين:

**التيمار بتذكرة (تذكرة لو):** وهو التيمار الكبير ويتوقف منحه على الديوان الهمايوني بحيث ينص على وجوب أخذ صاحب التذكرة براءة من الديوان بعد مراسلة إلى اسطنبول.

**أما تيمار بدون تذكرة (تذكرة سوز):** فهو يشمل التيمارات الصغيرة التي خول القانون للبكلربكي منحها دون انتظار الحصول على البراءة السلطانية.<sup>(2)</sup>

إلى جانب البكلربكي يشارك بعض الموظفين في توزيع التيمار لكن تحت مسؤوليته الكاملة وهم **الدفتدار**<sup>(3)</sup>، **كتخدا الدفتر**<sup>(4)</sup>، **أمين التذكرة**، **التذكرة جي**<sup>(5)</sup>، فقد ورد في حكم سلطاني موجه إلى بكلربكي الشام مؤرخ في 16 جمادى الآخرة 976هـ/6 ديسمبر 1568م: "...عند وصوله، وعند شغور أحد التيمارات بعد اليوم يُعقد اجتماع يحضره الدفتدار وكتخدا الدفتر وأمين التذكرة والتذكرة جي والكتاب جميعهم ويُتفق موضع التيمار المحلول (الشاعر) بمشاركتك أنت كذلك حسب العادة والقانون وعندما

(1) - محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1989، ص 18.

(2) - علي جاوش الصوفيوي: "قوانين آل عثمان" خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 703، أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 270.

(3) - الدفتدار: هو المسؤول عن الشؤون المالية في الولاية. فاضل بيات: بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، سبق ذكره، ص 381.

(4) - كتخدا الدفتر أو كتخدا دفتر الولاية: وهو المسؤول عن الأمور المتعلقة بالتيمارات في الولاية. فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، سبق ذكره، ص 312.

(5) - تذكرة جي: هو المحرر أو الموظف الذي يقوم بضبط خلاصة الدعاوى. نفسه، ص 301.

يستوجب منح هذا التيمار يقوم الدفتردار بالإشارة في الدفتر بمعرفتك أنت ، ويأخذ التذكرة جي صورته ويسجلها في الروزنامة ، ثم تمنح أنت تذكرته...ولا يجوز منح أحدهم تيمارا بشكل سري"<sup>(1)</sup> .

## 2 -أنواع الأراضي:

### 2 -أ. الأرض الميري:

تعرف بالأراضي الأميرية تعود ملكيتها<sup>(2)</sup> للدولة ، وهي أراضي ومزارع تزرع بالحبوب ومراعي ومحاطب ، والدولة هي صاحبة الحق الوحيد في التصرف بها بوساطة أصحاب التيمار والزعامات الذين يمنحون حق الاستفادة من ريع هذه الأراضي ، بينما يكون الفلاح مجرد مستأجر دائم لها يدفع عنها ضرائب نظير استغلاله لها<sup>(3)</sup> ، وقد أقطعتها الدولة على كبار رجال الدولة والفرسان السباهية فيما يعرف بالتيمار في مقابل ما يؤدونه من خدمات أثناء الحملات العسكرية ، فهم لا يملكون الأرض إنما يحصلون على نصيب الدولة من الضرائب المفروضة على الأراضي والفلاحين.<sup>(4)</sup>

وقد عدّت أراضي بلاد الشام أراضي صلح تبقى في يد أصحابها على أن يدفعوا عنها الخراج ، هذه الأراضي تقع ضمن صنفين : الأراضي المسجلة بالطابو والأراضي المؤجرة دون سند الطابو<sup>(5)</sup> ، ولم يكن

(1) - مهمة دفترتي 7 ، ص 942 ، الحكم 2589 . نفسه ، ص 240.

(2) - يقوم مفهوم ملكية الدولة للأراضي من وجهة النظر الإسلامية على الفيه ، بمعنى أن الأراضي المفتوحة تكون وفقا على عامة المسلمين ما بقوا ، وقد استند سيدنا عمر بن الخطاب في شرعية قراره الى الآية القرآنية 7 من سورة الحشر : ( ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فله و للرسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم ...) ، وكان السلطان العثماني يؤكد على حقه بشأن سيادته على أراضي الشام بكون هذه الأراضي فتحت عنوة و بالتالي فمن حقه -كمتمصر - أن يكسب حقا مطلقا على الأشخاص المهزومين و أملاكهم بما فيها الأراضي . أنظر : خليل اينالجيك ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص 175 - 176.

<sup>3</sup> أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 639 - 640.

(4) - زهير غنايم عبد اللطيف : " الرسوم والضرائب على الأراضي الزراعية في فلسطين خلال الفترة ( 921 - 1246هـ / 1516 - 1831م ) العشر والخراج والرسوم " ، المجلة الأردنية للتاريخ و الآثار ، المجلد 3 ، العدد 3 ، سنة 2009 ، ص 77.

(5) - يمكن التمييز بين الأراضي المسجلة ضمن سند الطابو و تلك المؤجرة دون سند الطابو في كون الصنف الأول (سند الطابو) يتضمن وحدات المزارع الممنوحة لأرباب الأسر من الفلاحين وتقتضي وضعها خاصا ينبع من أصل الاخضاع (قولوك) والذي يقتضي دفع الخمس و تأدية بعض الالتزامات و الرسوم و تقديم بعض الخدمات للدولة و السباهي ، أي أنها تتضمن الأراضي المسجلة في دفاتر المسح (الطابو) مع عائدات ضريبية محددة وأهلية اكتسابها محصورة بمن يستطيعون زرعها و دفع ضرائبها و هم الفلاحون و الرعايا بمعنى أن أهل المدن ليسوا ضمن هذه الفئة ، بينما الصنف الثاني (دون سند الطابو) فيتضمن الأراضي الخاضعة لعقد إيجار بسيط (مقاطعة) يدفع بموجبه مبلغا (مقطوعا) متفقا عليه بدلا من الخمس و لم يكن ملزما بأية ضرائب تفرض على الفلاحين . للمزيد يمكن العودة إلى خليل اينالجيك ، التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص 181 - 182



بإستطاعة الحائز على سند الملكية بحسب نظام الطابو أن يتصرف فيها بالبيع أو الاعطاء أو الوهب أو الرهن أو الترك بإرادته ، كما لا يستطيع تغيير استخدامها الأصلي بتحويلها إلى كرم عنب أو بستان فاكهة أو انشاء مبان عليها ، وفي المقابل يمكن انتقال الأرض من مزارع لآخر وحق التوريث للأبناء وحق الاكتساب للزوجة والابنة والأخ<sup>(1)</sup> ، وفي حال التخلي عن الأرض سواء بموت الفلاح الذي يستغلها أو هجره لها يلجأ صاحب التيمار إلى منحها لمن يريد استغلالها ، نظير دفع بدل الطابو في المحاكم الشرعية<sup>(2)</sup> مثلما بينته إحدى الحجج الشرعية من أن عبد السلام كتخدا وهو من الانكشارية قد اشترى أرضا من حسين بن جعفر الانكشاري كان قد ورثها عن أبيه ، وقد فرغ حسين بن جعفر لعبد السلام كتخدا حق التصرف بالأرض وجعل له العوض عن الأرض مبلغ 1500 قرشا ، مما يشير أيضا بأنه ليس الفلاح وحده من يهجر الأرض بل حتى الجنود من فئة العسكر.<sup>(3)</sup>

يستغل الفلاح الأرض بإذن من صاحب التيمار بعد أن يلتزم بدفع الضريبة المفروضة على هذه الأرض ، إلا أنه لم يكن بوسعه تغيير الاستخدام المألوف للأرض كحقل أو مرعى أو بستان ، وإذا انقطع الفلاح عن العمل في الأرض ثلاث سنوات متتابة بدون سبب أصبح من حق صاحب التيمار أن يمنح هذه الأرض لفلاح آخر.<sup>(4)</sup>

تنقسم الأراضي الميري إلى ثلاثة أقسام هي : الخاص والزعامت والتيمار.

## 2 - أ - أ - الخاص

وينح لخواص السلطان وخواص الوزراء وأمير الأمراء وأمير السنجق ، وهو ما كان العائد فيه مخصصا لصاحب منصب يتصرف به مدة بقائه في منصبه ويتصرف بخواصه المخصصة للمنصب سواء قلت أو كثرت ، فمتى عزل انتقلت إلى من تولى المنصب بعده باستثناء تلك المخصصة لزوجات السلاطين فإن أصحابها لا

(1) - نفسه ، ص 184 ، (هـ) جب و (هـ) بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 336.

(2) - كانت أهلية اكتساب الأرض عن طريق الطابو محصورة بمن يستطيعون زرعها ودفع ضرائبها ، ويسجل عقد الطابو في المحكمة في شكل صك بيع يعلن فيه التيماري أنه باع الأرض المعنية مع كل الحقوق المتعلقة بها ، وأنه في المقابل قد حصل على ثمن الطابو نقدا ، ويصادق القاضي على أن مجمل العملية قد تمت وفقا للتعاليم الشرعية ، وأن العقد سوف يحفظ في سجلات المحكمة. أنظر : خليل اينالجيک ، نفسه ، ص 182- 183

(3) - أسماء رمضان ، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي دراسة اقتصادية واجتماعية مرجع سابق ، ص 84.

(4) - خليل اينالجيک ، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، ترجمة محمد. م. الأرناؤوط ، ط 1 ، دار المدار الاسلامي ، بيروت ، 2002 ، ص 174.

يقبلن العزل، فيتصرفن بخواصهن مدة حياتهن<sup>(1)</sup>، ويزيد وارد هذه الأراضي عن 100 ألف أقة، وهو نوعان:

## 2 - أ - أ - 1 - الخاص الهمايوني (السلطاني):

خصّصت عائداته لخزينة الدولة، ويوجد في معظم ألوية بلاد الشام، ويشير الدفتر (T.D. 131) العائد للفترة (932 - 938هـ/1525 - 1532م) إلى أن أراضي قرى بيت لحم وبيت جالا وأبو ديس وبيت نثيف في لواء القدس الشريف من الخاص الهمايوني وبلغت عائداته منها 9175 أقة سنوياً<sup>(2)</sup>، وفي ناحية الصلت بلواء عجلون بولاية الشام الشريف كان وارد الخاص السلطاني منها 1950 أقة<sup>(3)</sup>، ووفقاً للدفتر (T.D.131)، فإن الخاص الهمايوني لم يقتصر على الأراضي فقط بل شمل رسوم الجزية 10000 أقة والقمامة<sup>(4)</sup> (كنيسة القيامة) 40000 أقة ومحصول سوق الخيل المقدّر بـ 800 أقة والاحتساب المقدّر بـ 12000 أقة والجزارين بـ 2500 أقة، ورسوم القطعان الضالة وبيت المال ومال المفقود المقدّر بـ 1300 أقة في القدس و2000 أقة في الخليل<sup>(5)</sup> ويشير الدفتر (T.D. 1015) العائد للفترة (945هـ/1538 - 1539م) إلى أن مجموع إيراد الخاص السلطاني في لواء القدس الشريف بلغ 565.775 أقة<sup>(6)</sup> وهو يختلف كثيراً عن إيراد الخاص السلطاني في لواء دمشق الشام الذي يورد دفتر طابو (T.D. 474) العائد لسنة 977هـ/1568م أنه يقدر بـ 11.044.300 أقة من مجموع 15.804.300 أقة محصولات لواء دمشق الشام<sup>(7)</sup>، ويمكننا أن نأخذ فكرة عن محصول الإيرادات من نفَس<sup>(8)</sup> الشام باعتبار أن ريعها يُعتبر من خاص خاص السلطان مما يلي:

(1) - علي جوش الصوفي: "قوانين آل عثمان". خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 692.

(2) - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير T.D.131، سبق ذكره، ص ص 159 - 163.

(3) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970 اسطنبول، سبق ذكره، ص ص 96 - 97 - 98.

(4) - تعني الرسوم التي تتم جبايتها عند باب كنيسة القيامة من الزوار الذين يقصدونها للزيارة. لواء القدس الشريف من دفتر تحرير 131 لسنة 932هـ/1525م - 938هـ/1531م - 1532م، سبق ذكره، ص 300.

(5) - نفسه، ص ص 159 - 161.

(6) - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير T.D.1015، لسنة 945هـ/1538 - 1539م، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2008، ص 32.

(7) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو T.D."474، سبق ذكره، ص 1.

(8) - النفَس بمعنى المدينة الصغيرة أو القصبَة و حولها مجموعة من القرى تتبعها. أنظر: خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 65.

محصول احتساب نفّس الشام في السنة ستمائة ألف أقة، محصول القبان و دار الخضر 16000 أقة، محصول سوق الحيوانات 60000 أقة، سوق الأسرى 30000 أقة، سوق الأغنام 220000 أقة الجُمرك 230000 أقة، دار الضرب 100000 أقة، ميزان الحرير 120000 أقة، وعلى العموم فإن مجموع مقاطعات الإيرادات تبلغ 56 محصولاً، تعطينا صورة شاملة لمجموع الأنشطة الاقتصادية في لواء الشام سنة 977هـ / 1569م<sup>(1)</sup>، أما في لواء عجلون من إيالة الشام فقد شمل الخاص السلطاني 10 قرى و 60 مزرعة موزعة في مختلف أنحاء اللواء، بلغت عائداتها السنوية 91691 أقة.<sup>(2)</sup>

## 2 - أ - أ - 2 - خاص أمير الأمراء ( خاص ميرميران) :

يُنح لأمر الأمراء وكبار الموظفين والعسكريين ويبدأ وارده من مائة ألف أقة، ويصل إلى مليون أقة للبكلربكي (يتمثل في إيرادات الأرض مع بعض الرسوم الأخرى) حسبما يفيد به دفتر طابو(474 T.D.) الخاص بلواء دمشق الشام<sup>(3)</sup>، بحيث يزودنا بمعلومات مفصلة عن محاصيل خاص أمير أمراء الشام وهي: محصول بادهاوا مع رسم العروس في نفّس الشام 130000 أقة، العسسية (حرس الليل) 20000 أقة، رسوم براءات (التيمار) 15000 أقة، محصول سوق الخمر (الذي يجلبه النصاري لأنفسهم شرط ألا يبيعه للمسلمين) في السنة 40000 أقة، محصول سوق الدواب في قضاء حوران حيث كانت قافلة الحج تمرّ بها وتتزود منها بالإبل.<sup>(4)</sup>

أما في ناحية بني كنانة التابعة لقضاء حوران الذي يشكل جزءاً من لواء الشام فإن دفتر تحرير (401 T.D.) العائد إلى زمن السلطان سليمان القانوني والذي يرجع تاريخه لسنة 950هـ / 1535م فيشير إلى أن أمير الشام أو البكلربكي يملك خاصاً بها مجموع ريعه 20350 أقة ثم ارتفع إلى 23400 أقة كما بينه الدفتر (99 T.D.) العائد

(1) - المرجع السابق، ص ص 57 - 58.

(2) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970، سبق ذكره، ص 16.

(3) - نفسه، ص 4.

(4) - نفسه، ص ص 59 - 63.

لسنة 1005هـ / 1596 - 1597م<sup>(1)</sup>، في حين يبين الدفتر (T.D. 1015) العائد لسنة 945هـ / 1538 - 1539م أن خاص أمير لواء القدس الشريف من ناحيتي القدس و خليل الرحمان لم يتجاوز 79444 أقة<sup>(2)</sup>.

أما في مطلع القرن السابع عشر فيبين **عين علي أفندي** في رسالته في التيمار **عوائد خواص أمراء بعض السناجق في بلاد الشام** بلغت بالنسبة لأمير لواء القدس 250480 أقة، و 508330 أقة لأمير غزة، و 394000 أقة لأمير لواء حماة، و 220290 أقة لأمير لواء حمص<sup>(3)</sup> كما بلغت 6000 أقة في ناحية الصلت بلواء عجلون<sup>(4)</sup>.

كما امتدت **الخواص السلطانية** في لواء حماة وبالضبط في قرى كازو وأرجزي والظاهرية ومعرتقب والدحاجية وكفر بهم وأفيون وهي من أكبر وأغنى قرى هذا اللواء<sup>(5)</sup> حيث يقوم موظف يحمل اسم (أمين) يكون مسؤولاً أمام الدفتردار عن جميع الخواص في الأراضي الميرية، ويساعده في عملية جمع المال الميري موظف يدعى الصوباشي و هو في الأساس مسؤولاً عن الأمن ، ويبين الجدول التالي حصص الخاص السلطاني من العشر والخراج في نواحي دمشق من دفتر الاجمال 998 العائد لسنة 932هـ / 1525م: <sup>(6)</sup>

(1) - محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن 10هـ، مرجع سابق، ص 16.

(2) - دفتر تحرير. T.D.1015، سبق ذكره، ص 34.

(3) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 633 - 634.

(4) - دفتر مفصل عجلون، سبق ذكره، ص 99.

(5) - عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية وملكية الأراضي في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس عشر" مجلة دراسات تاريخية،

العددان 35 - 36، مارس 1990، ص 118.

(6) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 100.

| مقدار الايراد الضريبي   |                          | الناحية               |
|-------------------------|--------------------------|-----------------------|
| الخاص السلطاني (الشاهي) | خاص البكلربكي (ميرميران) |                       |
| -                       | 30611                    | وادي العجم            |
| 24100                   | 20863                    | اقليم الزيب وشعرا     |
| 80850                   | 31000                    | وادي البلان والداراني |
| -                       | 66110                    | مزة وشوف الحرادين     |
| 124754                  | 16947                    | الزبداني و وادي بردى  |
| -                       | 1680                     | وادي التيم            |
| 70212                   | 42912                    | حمارة وشوف البياض     |
| 83660                   | 46220                    | غوطة و المرج          |
| 126484                  | 18432                    | جبة العسال            |
| 426400                  | 274835                   | المجموع               |

-أما الخاص السلطاني في لواء القدس الشريف فبلغ 565757 أقة موزعة على مدينة القدس ومدينة الخليل ونحو 18 قرية و 2 مزرعة مع ملاحظة أن 10 مزارع معطلة ولم يذكر المحرر سبب التعطيل<sup>(1)</sup> ، بينما بلغ خاص أمير اللواء في القدس 79444 أقة من إيرادات مدينة القدس ومدينة الخليل اضافة 18 قرية و 11 مزرعة<sup>(2)</sup> .

(1) -دفتر تحرير 1015 ، سبق ذكره ، ص ص 29 -32.

(2) -نفسه ، ص ص 32 -34.

وفي لواء عجلون من ايلة الشام فقد بين الدفتر رقم ( T.D.970 ) خاص أمير الأمراء في اللواء وهي موزعة في الجدول التالي :<sup>(1)</sup>

| الناحية   | القرى | المزارع | الربيع / أقيجة | ملاحظات            |
|-----------|-------|---------|----------------|--------------------|
| عجلون     | 19    | 05      | 105624         |                    |
| السلط     | 15    | 59      | 117489         |                    |
| الكرك     | 08    | 33      | 65741          | منها 28 مزرعة خراب |
| الغور     | 02    | - -     | 11220          |                    |
| الشوبك    | 03    | 01      | 29680          |                    |
| وادي موسى | 02    | 01      | 11875          |                    |
| جبل حميدة | 07    | 05      | 55870          |                    |
| المجموع   | 56    | 104     | 397499         |                    |

## 2 - أ - ب - الزعامت:

ورد في قوانين آل عثمان لعلي جاويش الصوفيوي بأن الإقطاع من نوع زعامت يمنح لكبار القادة العسكريين من السباهية<sup>(2)</sup> ويتراوح وارده السنوي بين عشرين ألف أقيجة ومائة ألف أقيجة إلا أقيجة واحدة، وتكون عادة من نصيب دفتر دار الخزينة أو أمير الآلاي والكتخدا، ولا يمكن أن تنتزع منهم وتعطى لغيرهم دون سبب ما داموا قائمين ودائمين في خدماتهم، ومن أسر أو استشهد أو مات أو انقطع خبره في سبيل السلطان انتقلت زعامته وتيماره إلى أبنائه فإن لم يكن له أبناء تعطى لغيره<sup>(3)</sup>، ويقدم صاحبها (جبه لو) عن كل ثلاثة آلاف أقيجة<sup>(4)</sup>، ويذكر عين علي أفندي في رسالته بأن السباهي صاحب الزعامت مفروض عليه الإقامة في السنجق الذي يوجد فيه إقطاعه وإلا كان ذلك سببا في عزله<sup>(5)</sup> وقد ذكر الدفتر (T.D. 131) العائد إلى الفترة (932 - 938هـ/ 1525 - 1532م) بأنّ لواء القدس الشريف كان يضم ست

(1) - دفتر مفصل لواء عجلون، سبق ذكره، ص 17

(2) - علي جاويش الصوفيوي: "قوانين آل عثمان"، خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 693.

(3) - نفسه، ص 694.

(4) - نفسه، ص 702.

(5) - نفسه، ص 656.

زعامات<sup>(1)</sup>، بينما لم يذكر دفتر تحرير(T.D. 1015)الذي يعود إلى سنة945هـ/1539م إلا زعامت واحدة عائدة إلى أحمد بك أمير آلاي لواء غزة التي تراجع واردها إلى 15000أقجة.<sup>(2)</sup>

أما دفتر تحرير (T.D.289.Is)الذي يعود إلى الفترة961هـ/1553 -1554م فيشير إلى زعامتين واحدة لأمير آلاي القدس وبلغ مجموع ريعها19300أقجة، والثانية لعلي جلبي أمين دفتر ولاية الشام وبلغ مجموع ريعها 16800أقجة<sup>(3)</sup>، ولعل السبب في تراجع عدد الزعامات ووارداتها يعود إلى التوسع في منح الاقطاع من النوعين الخاص السلطاني وخاص أمير اللواء<sup>(4)</sup>.

في لواء الشام يذكر الدفتر (T.D. 401)العائد لسنة 930هـ/1523م بأنه توجد زعامتين في ناحية بني كنانة مجموع ريعهما 20999أقجة ثم ارتفع العدد إلى 13 زعامت أواخر القرن 16م<sup>(5)</sup>، ولا توجد إلا زعامة واحدة في لواء عجلون هي زعامت قاسم بك أمير آلاي الكرك والشوبك، واقتصرت زعامته على ناحية علان وعائدات من كان يسكنها من أعراب، وقد بلغت عائدات هذه الزعامت 60000أقجة سنويا.<sup>(6)</sup>

60000أقجة سنويا.<sup>(6)</sup>

وعلى الرغم من أن السباهي مفروض عليه الإقامة في الاقطاع الذي منح له إلا أن قلة منهم من انتقلوا فعلا للإقامة هناك بل أنه كثيرا ما وجدت عبارة مدونة بجانب التيمار(الموكل له) أو (في عهدة) مما يطرح تساؤلا حول مدى متابعة الدولة لالتزام موظفيها<sup>(7)</sup>، لكن السبب ربما يعود إلى خروج هؤلاء في الحملات العسكرية التي تستغرق مدة طويلة أو تكليفهم بمهام خارج حدود القرية أو المنطقة التي يتواجد بها تيمارهم.

(1) -دفتر تحرير.T.D.131، سبق ذكره، ص25

(2) -يشير دفتر تحرير.T.D.1015 إلى أن هذه الزعامت توزعت بين حاصل قرية أريحا في ناحية القدس الشريف المقدّر بـ 12000أقجة وحاصل قرية ترقومية في ناحية الخليل المقدّر بـ 3000أقجة. ص ص 206 -207، 340 -341.

(3) -دفتر تحريرT.D.289Is لسنة(961هـ/1553 -1554م)، سبق ذكره، ص72.

(4) -المصدر السابق، ص35.

(5) -محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص16.

(6) -دفتر مفصل لواء عجلون، سبق ذكره، ص17.

(7) -دفتر 131، سبق ذكره، ص24.

في مطلع القرن السابع عشر يقدم لنا عين علي في رسالته في التيمار عدد الزعامت في إيالة الشام والتي بلغت 128 زعامت مقابل 129 في إيالة حلب و63 في إيالة طرابلس و28 في إيالة الرقة.<sup>(1)</sup>

كان الهدف من اقطاع الزعامت وكذا التيمار أن يكون واردهما بمثابة مرتب لأصحابهما من الفرسان السباهية، أما بالنسبة لطريقة تعيين الزعيم والتيماري، فإن الزعيم يعين بأمر سلطاني على الزعامت التي تضم أكثر من قرية ومزرعة ملحقة بها، ويقوم والي الولاية التي تتبعها الزعامت بتعميم أمر تعيين الزعيم على رؤساء القرية والفلاحين فيها، فقد حدث ذلك حينما عين السلطان العثماني سنة 1585م شخصا يدعى اسكندر بك وهو من طائفة الجاويشية الملحقة بخدمة السرايا في اسطنبول زعيما على (نقير الجلة) ومزرعتها المسماة (قبادة) وعلى مزرعتي العروس والدرهمية التابعتين لقرية كيسون، وقد عمم والي طرابلس أمر السلطان وأعلم رؤساء وفلاحى هذه المناطق بذلك، وأوكل إلى صوباشي القرية أمر الزعامت إلى حين وصول اسكندر بك.<sup>(2)</sup>

## 2 - أ - ج التيمار:

هو أكثر الأنواع انتشارا رغم كونه أقل الأنواع ريعا حيث تتراوح عائداته المالية بين ستة آلاف أقة وعشرين ألف أقة إلا أقة واحدة، ويوجد في معظم بلاد الشام<sup>(3)</sup>، ويذكر محرر دفتر تحرير(T.D.1015) بأن عدد التيمارات في ناحية القدس الشريف بلغ 37 تيمارا<sup>(4)</sup> مجموع وارداتها بلغت 210.444 أقة<sup>(5)</sup> و يلاحظ بأن إيرادات التيماريين تختلف ففي حين نجد بأن التيماري يوسف بن جعفر توزع تيماره على قرية و مزرعة إلا أن تيماره يدر عليه مبلغ 5200 أقة على عكس التيماري صولاق مصطفى الذي بلغ إيراده 15333 أقة.<sup>(6)</sup>

(1) - ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص ص 647 - 649.

(2) - عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية وملكية الأرض في بلاد الشام" مقال سابق، ص ص 118 - 119.

(3) - كان لواء القدس الشريف بإيالة الشام يضم 90 تيمارا، 46 منها في ناحية القدس و 44 في ناحية الخليل. أنظر:

دفتر تحرير T.D.131، سبق ذكره، ص ص 27 - 45.

(4) - دفتر 1015، سبق ذكره، ص ص 36 - 46.

(5) - نفسه، ص 46.

(6) - نفسه، ص ص 36 - 49.



أما في ناحية الخليل فقد قدرت بـ 66672 أقة<sup>(1)</sup>، في حين يوضح الدفتر (T.D.289 Is) العائد لسنة 961 هـ/ 1553 - 1554 م بأن عدد التيماريين في ناحية القدس بلغ 39 تيماريا بلغ ريع أدناها 1800 أقة وأعلاه 10119 أقة<sup>(2)</sup>، وبلغ عدد التيماريين حسب الدفتر (T.D.401) أربعون تيماريا في ناحية بني كنانة من لواء الشام عدد منهم من الممالك الذين جرى ادماجهم في نظام التيمار في إطار سياسة الدولة العثمانية لدمج هؤلاء بعد القضاء على تمرد جان بردي الغزالي، لكنهم منحوا الشريحة الدنيا من الريع المخصص للتيمار<sup>(3)</sup>.

كان عدد التيماريين في لواء عجلون 51 تيماريا، ويلاحظ بأن معظم أصحاب هذه التيمارات كانوا من العناصر التركية، تدل على ذلك أسماؤهم ويبرز من بينهم أحمد جاوش أحد خدام شان شاه بن بايزيد الثاني، وبهرام، وعلي بن بالي، وطور علي بن حمزة، وأورنوس، موسى بن أوغور عالي بن أبارجي، اينال باي، محمود صوباشي.....<sup>(4)</sup>، لكن هذا لم يمنع انخراط العناصر العربية في صفوف الجيش العثماني أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ولعل في أسماء من حصلوا على تيمارات ليعطي دلالة على ذلك، فقد استحق الحاج بروانة من الناصري محمد السباهي ابن الحاج عبد الله السباهي الضرائب الحاصلة له في قرية بيرين من ناحية بني كنانة ومقدارها 2200 أقة عن سنة 993 هـ/ 1585 م، وأولاد منصور خريس الذين منحتهم الدولة تيمارات في قارا عند سفوح جبال القلمون وكانت قيمة تيمارات كل واحد منهم 2000 أقة لقاء ما كانوا يقومون به من حراسة وحفظ الطرق والممرات الجبلية مع الإشارة إلى أن قاطني هذه المناطق كانوا يقومون بهذه المهمة حتى قبل دخول العثمانيين إلى بلاد الشام.<sup>(5)</sup>

(1) - دفتر 1015، سبق ذكره، ص 49.

(2) - دفتر تحرير لواء القدس الشريف T.D.289 Is لسنة 961 هـ/ 1533 - 1534 م، سبق ذكره، ص 82 - 87.

(3) - محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص 17.

(4) - دفتر مفصل عجلون، سبق ذكره، ص 18.

(5) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص 93 - 94.

كما حصل على التيمار كذلك بعض زعماء العشائر البدوية لقاء ما كانوا يقومون به من خدمات لصالح الدولة العثمانية وبالاخص في حماية طريق الحج الشامي ، ومن هؤلاء حتى من تولى قيادة قافلة الحج كما هو الحال بالنسبة لقانصو الغزاوي<sup>(1)</sup> وطراباي<sup>(2)</sup>.

يقوم التيماري بجباية موارد سواء من انتاج القرية على شكل حصة من انتاج الأرض أو بشكل ضريبي كالعشر أو الخراج أو من الرسوم التي تحصل من الأهالي كرسوم الطواحين ورسم المعاصر ورسم العسسية ورسم البادهوا...

بلغ عدد أصحاب هذا النوع من التيمار في ناحية القدس 39 تيماريا، في حين لم يتجاوز عدد التيمارات في ناحية الخليل عن ثمانية تيمارات مع وجود تباين في ريوعتها من واحد لآخر، ويوضح الجدول التالي أسماء أصحاب التيمار وتوزيع تيماراتهم ومقدار ريعهم في ناحية الخليل من لواء القدس الشريف: <sup>(3)</sup>

(1) - كان الأمير قانصوه الغزاوي أحد أمراء العشائر البدوية ذات النفوذ والقوة، في لواء عجلون وكثيرا ما تمرد على سلطة الدولة حتى أنها سعت إلى استدراجه بالحيلة وحبس. مهمة دفترتي 7، ص 748، الحكم 2048، مؤرخ في 18 ربيع الأول 976/10 سبتمبر 1568م، نقلا عن: فاضل بيات، إعداد و ترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (977هـ/1570م - 979هـ/1572م)، ج3، سبق ذكره، ص 190.

(2) - تقيم أسرة طرة باي في منطقة اللجون، حيث كان أبرز من تقلد إمارتها هو الأمير أحمد بن طرة باي الذي أعلن ولاءه للدولة العثمانية ووقف في وجه الأمير فخر الدين المعني الثاني في أثناء تمرد على الدولة، وظلت أسرة طرة باي تتصرف في لواء اللجون إلى غاية أواخر القرن الحادي عشر الهجري (1088هـ) : محب الدين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مصدر سابق، ص ص 162 - 163.

(3) - لواء القدس من دفتر مفصل 289 اس، سبق ذكره، ص ص 88 - 91.

| صاحب التيمار                | عدد القرى | عدد المزارع                                 | الربع / أقيجة |
|-----------------------------|-----------|---------------------------------------------|---------------|
| جركس أحمد                   | 01        | 02                                          | 4000          |
| أمير أحمد بن إلياس          | 03        | 02                                          | 3950          |
| حاجي بن محمد ومحمد بن اسحاق | 01        | 03                                          | 360           |
| سوندوك وإلياس               | 00        | 02 مع معاصر الدبس                           | 6885          |
| يوسف                        | 00        | احتساب مع عادت قصابية وباج بازار مع مزرعتين | 4100          |
| تيمار محلول (أ)             | 03        |                                             | 7147          |
| تيمار محلول (ب)             | 03        | 01                                          | 8630          |
| تيمار محلول (ج)             | 01        | 02                                          | 17215         |

والملاحظ هو اشتغال أحد التيمارات على محصول مزرعتين إلى جانب محصول من عادة الاحتساب والقصابية و باج بازار ( أي رسم السوق )، إضافة لوجود تيمارات محلولة دون معرفة الأسباب التي تقف وراء ذلك.

قد تتم المبادلة بالتيمارات بموجب أمر سلطاني من الباب العالي كما ورد في دفتر (T.D. 169. ist) سنة 938هـ/1531م، ففي ناحية حمارة تمت المبادلة بتيمار مقداره 18366 أقيجة ينتفع به كل من محمد طاش وقاسم ومحمد بن حسن و يوسف طباح إذ انتقلت حصة قاسم من هذا التيمار إلى محمود بن يعقوب المعزول عن ناحية حوران، وكان الغرض من هذه المبادلة هو تعديل إيرادات الجند و كذا عدم تثبيتهم في مكان واحد بشكل دائم.<sup>(1)</sup>

تتنوع موارد التيماري من انتاج القرية بين حصة من انتاج الأرض أو بشكل ضرائب من العشر والخراج أو من الرسوم التي يحصلها من الفلاحين كرسوم الطواحين والمعاصر والحماية وغيرها، ويبيّن دفتر (T.D.1015) العائد لسنة 945هـ/1538 - 1539م مقدار تيمار موسى بن ولي بك دوكري في ناحية القدس الشريف من رسم الحماية 1568 أقيجة، وحصل التيماري غازي حسن 6500 أقيجة من رسم

(1) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص74.

الطاحونة والمعصرة ، والتيماري حمزة جاوش 843 أقة من العشر المتحصل مع رسوم أخرى من قرية بيت ساحور ، ويمكننا التعرف على ايراد التيماري من خلال دفتر التحرير (T.D. 1015) فالتيماري حمزة جاوش من لواء القدس بلغ تيماره 9462 أقة حصل على 850 أقة من العشر ورسوم قرية بتير ، و1949 أقة رسوم من قريتي كفر عنا وعرورا ، و1350 أقة من العشر في قرية قلونية<sup>(1)</sup> ، ويظهر هذا بأن التيماري له ايراد أكثر من قرية وهذا في حالة عدم كفاية الايراد من قرية واحدة ، لكن الراجح أيضا بأن الدولة تتعمد هذا التوزيع من أجل إضعاف سلطة التيماري حتى لا يشكل قوة في منطقته.

أما عدد التيماريين في مطلع القرن 17 م فوصل في ايلة الشام إلى 877 تيماريا ، و1653 في ايلة حلب ، 570 في ايلة طرابلس ، وأخيرا 665 تيماريا في الرقة.<sup>(2)</sup>

وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ أراضي اللواء كان يتم توزيعها على الأنواع الثلاثة ، ويبين لنا الجدول التالي واردات التيمار بكل أنواعه في لواء القدس<sup>(3)</sup> على النحو التالي:

| نوع التيمار             | وارده السنوي |
|-------------------------|--------------|
| الخاص السلطاني (الشاهي) | 565.775      |
| خاص أمير الأمراء        | 79.444       |
| الزعامت                 | 15.000       |
| التيمار                 | 277.116      |

وهكذا تصل واردات لواء القدس الشريف من الأنواع الثلاثة ما مجموعه 937.335 أقة في السنة.

## 2 - ب - أراضي الأوقاف:

ما أن تمكن السلطان سليم من الدخول إلى بلاد الشام سنة 922هـ/1516م حتى أمر دفتداره بإجراء عملية مسح الأراضي وإحصاء السكان عليها،<sup>(1)</sup> كما كلف القاضي زين العابدين بن زيرك بمحصر اقطاعات الأوقاف و تقديم المستندات الخاصة بها.<sup>(2)</sup>

<sup>(1)</sup> دفتر 1015 ، سبق ذكره ، ص ص 40 - 41.

<sup>(2)</sup> - عين علي ، رسالة في التيمار ، من كتاب : من تاريخ الأقطار العربية ، لخليل ساحلي أوغلي ، مرجع سابق ، ص ص 637 - 649.

<sup>(3)</sup> نفس المكان.

لاحظ المكلفون بإجراء المسح بأن أراضي الوقف كانت واسعة الامتداد ومترامية منذ أواخر العهد المملوكي،<sup>(3)</sup> فكان لابد من تنظيم شؤون الوقف بأن قرر السلطان سليم الأول ومن بعده ابنه السلطان سليمان القانوني الإبقاء على الأوقاف السلطانية الأولى المخصصة لرعاية المدن المقدسة<sup>(4)</sup> وقد أُضيفت إليها الأوقاف السلطانية الجديدة ووضعت تحت إدارة الدفتردار.<sup>(5)</sup>

منذ قيام الدولة العثمانية عمد السلاطين إلى منح الأراضي -وبشكل خاص - ليسمحوا لأعضاء النخبة بتأسيس أوقاف دينية وهو هدف واضح من سندات التملك، وغالبا ما كانت الأراضي الكبيرة الموهوبة تعطى لزوجات السلاطين أو للوزراء لتمكينهم من انشاء مؤسسات وقفية كبيرة<sup>(6)</sup>، وكانت هذه الأراضي عادة مهجورة وغير مستخدمة وقسما منها كان أرضا مواتا<sup>(7)</sup> فأصبح بإمكان من حصل على كتاب تملك (ملك نامه) قرية أو مزرعة - حسبما جاء في قوانين آل عثمان- أن يلجأ إلى وقفها وحبسها<sup>(8)</sup> وإذا أقرها سلطان الوقت روعي فيها شرط الواقف<sup>(9)</sup>، والمقصود بالوقف هنا أن عائد هذه القرى يكون للواقف وأبنائه وذريته من بعده (أي وقفا ذريا) وفي المقابل تبقى رقة هذه الأملاك التي منحها السلطان للدولة ولا يمكن بيعها أو وقفها إلا بموجب قرار من السلطان، بمعنى توريث إيراد هذه القرى والمزارع من خلال تخصيص منافع ورسوم وأعشار واجارة أرضها ويسجل ذلك في دفاتر الطابو وفق العبارة التالية:

(1) -ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مرجع سابق، ص 25.

(2) -ابن طولون، مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 367-374.

(3) -يهدف التملص من القانون ومن خطر المصادرات لجأ الكثير من ملاك الأرض و مقطعوها إلى تسجيل أرضهم أو أملاكهم وقفا لصالح الأعمال الخيرة مع اشتراط عدم تنفيذ الوقف إلا بعد انقطاع النسل. المرجع السابق، ص 48.

(4) -يحصي الدفتر 427 العائد لسني 932هـ/ 1525 - 1526م. 934هـ/ 1527 - 1528م عدد الأوقاف الذرية من عهد المماليك بنحو 35 وقفا ذريا و 143 وقفا خيريا بلواء القدس وحده. لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد و غزة و القدس الشريف، سبق ذكره، ص 116-128.

(5) -ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري، مرجع سابق، ص 49.

(6) -خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مج 1، مرجع سابق، ص 200-201.

(7) -كان السلطان العثماني وكبار الإداريين يعارضون بشدة التنازل عن القرى المزدهرة مع العائلات الفلاحية التي تقطنها للأفراد، وإنما كان القصد من منح الأراضي الموات أو المهجورة أو غير المستخدمة هو بشكل أساسي استصلاحها وإحيائها وإيجاد مصادر جديدة للدخل، وبالتالي التمكن من تقديم خدمات عامة هامة، لأن معظم هذه الأراضي كانت لاحقا توهب من قبل أصحابها لأعمال خيرية عن طريق انشاء أوقاف دينية مثل بناء المساجد والمدارس والمكتبات والأسواق والمحال التجارية والجسور وسبل المياه.أنظر: نفس المرجع، ص 202.

(8) -خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 692.

(9) - كان الهدف الذي يسعى أي ممن منحت له هذه الأراضي بعد استثمار رأسماله في تحسين وضعها إنما كان لرغبته في إيجاد أعمال خيرية في شكل وقف، أو في معظم الأحيان لتأمين مصدر ثابت للدخل لعائلته ولذريته في ظل ما يعرف بالوقف الذري أو وقف العائلة. المرجع السابق، ص 203.

(بموجب قانون همايوني وخط توفيقى كانت ملكا وأصبحت وقفا)، وكان هذا الشكل من أكثر الأنواع شيوعا في نواحي دمشق خلال منتصف القرن السادس عشر<sup>(1)</sup>، ففي سنة 1004هـ/1595م منح السلطان العثماني وزيره سنان باشا أملاكاً في قرى الغوطة ومزارعها فوقفها لأعمال الخير، وقبله كان الوزير مصطفى باشا قام بوقف قرى وهبها إياه السلطان سنة 981هـ/1573.<sup>(2)</sup>

أما في ناحيتي القدس وغزة فنجد العديد من القرى والمزارع والبساتين وقطع الأراضي التي أوقفها أصحابها سواء على أنفسهم ثم أولادهم ثم على ذريتهم من الذكور إلى انقطاع النسل حيث يؤول الوقف بعد ذلك -حسب شرط الواقف - إلى جهات الخير المختلفة كالحرمين الشريفين وحرم الخليل وقبة الصخرة والجوامع وقراءة القرآن، أو على تعليم الأيتام، أو على عتق الرقيق وهو ما يعرف بالوقف الذري، أو ما تم وقفه على جهات الخير المختلفة من مدارس ومساجد وبيماريستانات وزوايا ومختلف أوجه الخير لذلك يعرف بالوقف الخيري.<sup>(3)</sup>

اختلفت نسبة الوقف الخيري إلى الذري أو الأهلي من فترة لأخرى تبعا للأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية المؤثرة، ففي أواخر القرن السادس عشر الميلادي مثلاً كانت نسبة الوقف الخيري هي الغالبة بسبب بناء الولاة العثمانيين العديد من الجوامع مثل جامع لالا باشا والمرادية والدرويشية والسنانية بدمشق، وجامع بهرام باشا في حلب.<sup>(4)</sup>

انتشرت أراضي الوقف في معظم أرجاء بلاد الشام، واختلفت حصة الوقف من أراضي القرية أو المزرعة فبعضها كانت حصة الوقف فيها أجزاء من 24 قيراطاً، وبعضها تم وقفها بالكامل أي 24 قيراطاً، وتم تقدير ناتجها من الحاصل عينا أو نقداً، وكانت أراضي الوقف تدفع نسبة معينة من المال تعرف بالعرش

(1) -رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن 10هـ/16م، مرجع سابق، ص104.

(2) -نفسه، ص105.

(3) -نوفان رجا السواري: "الحياة الاقتصادية لناحية غزة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي" من المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 3، العدد 3، سنة 2009، ص59.

(4) -عبد الكريم رافق: "الفئات الاجتماعية وملكية الأرض في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس عشر"، مرجع سابق، ص115.

يذهب عادة لصاحب التيمار وأحيانا كان هذا العشر يدفع عينا، وقد اعتبر قانوننامة القدس الشريف أوقاف الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وكذا الحرمين في القدس والخليل وقبة الصخرة معفاة من العشر.<sup>(1)</sup>

بالرغم من وجود مساحات شاسعة من مناطق حوران والبقاع من ايالة الشام ضمن أراضي الخواص السلطانية فإن معظم أراضي الغوطة كانت وقفا على جوامع دمشق وأبنيتها الدينية الأخرى<sup>(2)</sup>، وقد بلغ مجموع واردات الأوقاف الخيرية على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة في لواء القدس 153625 أقجة<sup>(3)</sup>، في حين وصل مجموع الريوع من القرى المحبسة على خليل الرحمان ما مقداره 123975 أقجة<sup>(4)</sup>.

## 2 - ج - أراضي الملك الخاص:

كانت أراضي الملكية الخاصة المزروعة والتي تم الحصول عليها إما منحا أو بيعا أو وراثة واسعة جدا منذ فترة ما قبل مجيء العثمانيين إلى بلاد الشام، لذا كان على الدولة تأكيد حقوق الملكية الخاصة الوراثية للعائلات القديمة المالكة للأراضي، لكن في نفس الوقت ادعت الدولة بأن مثل هذه الأراضي كانت في الأصل تصنف على أنها أراض مفتوحة (خراج) والدولة تمتلك حقوق السيادة المطلقة على الرعايا الذين يزرعون مثل هذه الأراضي، ولها حق حصري في الضرائب المفروضة عليها.<sup>(5)</sup>

تقع أراضي الملكية الخاصة أي (ملك) ضمن أربعة فئات هي: ملك من خلال تمليك سلطاني لحقوق الملكية الخاصة على أراضي الميري - ملك مكتسب من خلال استصلاح الأرض الموات - ملك من خلال عقد البيع بحسب الشريعة الإسلامية - أراضي الملك التي كانت تملكها النخبة من العائلات العريقة قبل مجيء العثمانيين و ثبتها السلطان.<sup>(6)</sup>

(1) - جاء في قانوننامة القدس الشريف: " سجلت أوقاف الحرمين الشريفين والقدس الشريف و خليل الرحمان عليه الصلاة والسلام في الدفتر العتيق معفاة بشكل كلي من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية والعشر، وسجلت في الدفتر الجديد كذلك معفاة". دفتر طابو رقم Is516، (970هـ/1562م)، سبق ذكره، ص 180.

(2) - عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص 117.

(3) - دفتر تحرير T.D.1015، سبق ذكره، ص 55.

(4) - دفتر تحرير T.D.131، سبق ذكره، ص 101 - 109.

(5) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مج 1، مرجع سابق، ص 207.

(6) - نفسه، ص 223.

غير أنه يلاحظ في مطلع العهد العثماني بأن مساحة الأراضي الملك الخاص للأفراد أصبحت محدودة جدا مقارنة مع الأراضي التي كانت ملكا للدولة ، ولم تنشأ هناك ملكيات كبيرة بل أن مساحتها لا تكاد تقارن مع مساحات الأراضي المحبسة أو الموقوفة على شكل وقف ذري أو خيرى ، وحدد الدفتر (427 T.D.) بأن أراضي الملك انحصرت في 10 قرى و8 مزارع.<sup>(1)</sup>

تتمثل أراضي الملك غالبا في المساحات الصغيرة والمحدودة من الأراضي التي سمحت الدولة للأفراد بتملكها ، وبإمكان أصحابها التصرف فيها سواء بالبيع<sup>(2)</sup> أو بالإيجار ، ومعظمها داخل القرى والقصبات وما حولها ، ويطلق عليها اسم حاكورة أو بستان ، وتكون مزروعة بأشجار الفواكه ، وهي غالبا ما سجلت في الحجج الشرعية مع البيوت<sup>(3)</sup> ، وذكر دفتر تحرير (T.D.1015) مجموع ربوع الأملاك الخاصة في ناحية القدس 9090 أقة<sup>(4)</sup> ، وناحية الخليل ما مجموعه 4255 أقة<sup>(5)</sup> .

في مطلع القرن 11هـ أي 1005هـ / 1596 - 1597م يورد الدفتر (T.D.515) أن بأن الأملاك في لواء القدس قليلة جدا لا تزيد عن سبعة مزارع وقريتين في كل من ناحيتي القدس والخليل يبلغ مجموع عائداتها 8653 أقة<sup>(6)</sup>.

بينما في دفتر مفصل لواء عجلون الذي من المرجح أنه يعود إلى فترة السلطان سليمان القانوني<sup>(7)</sup> فقد ذكر محرر الدفتر بأن : " جل أهل المدينة من أهل الكسب لا يملكون أرضا ولا فداناً ، غير أن للبعض منهم

(1) - لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد و غزة و القدس الشريف رقم 427 ، سبق ذكره ، ص ص 139 - 141.

(2) - تشير وثيقة شرعية موقعة لدى الحاكم الشرعي القاضي القدس الشريف إلى شراء حاكورة من طرف المدعو اسماعيل بن المرحوم موسى الجبالي من الحرمة المدعوة صفية بنت سليمان القضمانى الحاكرة الواقعة بمحلة باب حطة بالقدس الشريف والمشملة على أشجار مختلفة وبثر معدة لجمع مياه الأشتية ج.2 ، مؤرخة في 14 شعبان 1082هـ / 15 - 12 - 1671م ، سجل 173 ، ج2 ، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية ، سبق ذكره ، ص 245.

(3) - حجة 2 ، مؤرخة في 4 صفر 1082هـ / 11 - 6 - 1671م ، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173 ، ج2 ، ص 283.

(4) - دفتر تحرير T.D.1015 ، سبق ذكره ، ص 73.

(5) - دفتر 427 ، سبق ذكره ، ص 74.

(6) - لواء القدس الشريف دفتر مفصل 515 أن (1005هـ / 1596 - 1597م) سبق ذكره ، ص 185.

(7) - لم يرد في الدفتر سنة التحرير غير أن محقق الدفتر الدكتور محمد عدنان البخيت يقدر بأن تحريره قد تم في عهد السلطان سليمان القانوني ، إذ ورد في ثنياه عدد الاقطاعات التي كانت ممنوحة إلى الأمير البدوي طره باي أمير لواء اللجون ، وإقطاع هذا الأمير كما ورد في الدفتر رقم 192 يعود إلى سنة 945هـ / 1538 م . دفتر مفصل لواء عجلون ، سبق ذكره ، ص 9.



أشجار زيتون وتين ورمان وغير ذلك أحصيت برمتها ووضع عليها الخراج ويؤدي كل منهم ما عليه من خراج ولا يطالب الفقير الذي لا يملك شجرا ولا بستانا بأي شيء. <sup>(1)</sup>

## 2 - د - الأراضي المتروكة :

هي الأراضي المملوكة لبيت المال التي تكون قريبة من العمران، وتترك للأهالي ليتنفعوا بها على سبيل الشيوخ والعموم، ولا يمكن أن يستأثر بحق الانتفاع بها شخص معين دون غيره، ولا يمكن لأحد تملكها وإنما الانتفاع بها على وجه العموم، وعادة مايرد اسمها بالأراضي السليخة والتي هي من الأراضي غير المغروسة، حيث ورد في وقفية سنان باشا في دمشق الشام ذكر قطع من الأراضي في منطقة القابون من الأراضي السليخة. <sup>(2)</sup>

## ثانيا -النشاط الزراعي :

تعتبر الزراعة المصدر الرئيسي للحياة بصفة عامة، فهي عنصر أساسي في توفير الغذاء للسكان وعليها تقوم الصناعات الغذائية، اضافة لدخولها في العديد من الصناعات والتي كان جزء منها يصدر خارج الايالات والباقي يستفيد منه أهل البلد،

ولما كان اقتصاد بلاد الشام اقتصادا زراعيا ، فإن القرية بما يتبعها من مزارع وقطع أراضي تمثل الوحدة الأساسية في هذا النظام ، وتورد دفاتر التحرير عدد الأفدنة المزروعة من أراضي كل قرية وذلك عند ايراده حاصل القرية ، وأن عدد هذه الأفدنة بقي ثابتا ولم يطرأ عليها أي تغيير. <sup>(3)</sup>

## 1 - أهمية دفاتر التحرير في دراسة النشاط الزراعي :

يجد المهتم بدراسة موضوع الزراعة في دفاتر التحرير العثمانية كل ما يحتاجه من معلومات عن أنواع المحاصيل الحقلية والأشجار المثمرة التي كانت تزرع في مجموع نواحي بلاد الشام. <sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> - دفتر مفصل لواء عجلون، سبق ذكره ، ص 56.

<sup>(2)</sup> - محمد الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في القرن السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 139.

<sup>(3)</sup> - (T.D.515.An) الذي يعود إلى سنة 1005هـ / 1596 - 1597م ، سبق ذكره ، ص 85.

<sup>(4)</sup> - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طره باي سنة 945 هـ / 1538 م ، سبق ذكره ، ص 6.

من خلال المعطيات التي تزودنا بها دفاتر الطابو العثمانية<sup>(1)</sup> يمكن أن نلمس الطابع الزراعي لمعظم مناطق بلاد الشام التي كان اقتصادها زراعيا بالدرجة الأولى وأن معظم سكانها امتنوا الزراعة واعتاشوا منها مستفيدين من التربة المناسبة وكمية المطر المتهاطل بها ، وكانت المنتوجات الفلاحية متنوعة من ناحية لأخرى وعلى رأسها الحبوب وترد في الدفاتر معلومات حول كل منطقة ومساحة الأرض المزروعة بالقمح فيها ، ففي ناحية غزة يذكر الدفتر 427 العائد للفترة 932هـ/1525 - 934هـ/1527م بأن مساحة الحبوب بلغت 66 فدانا<sup>(2)</sup> يدفع عنها الأهالي على وجه المقطوع 3200أقجة<sup>(3)</sup>.

ولما كانت الظروف المناخية هي التي تتحكم في ممارسة هذا النشاط بشكل أساسي فإن بلاد الشام محل الدراسة يمكن التمييز فيها بين ثلاثة مناطق زراعية متفاوتة المياه وهي:

**المنطقة الأولى** وتتمثل في غوطة دمشق وسهول حمص والساحل المشرف على البحر الأبيض المتوسط وغور الأردن وهي من أجود الأراضي وأغزرها ماء وترتوي بمياه عدة أنهار مثل بردى والعاصي واليرموك والليطاني ، لذا تتواجد بها كثافة سكانية مرتفعة.

**المنطقة الثانية** وتتمثل في سهول دمشق والزبداني والبقاع والقلمون وحوارن والجولان وهذه المناطق تتلاءم وزراعة الحبوب بشكل أساسي.

**المنطقة الثالثة :** وتمتد في البادية ويقطنها البدو وتتلاءم وزراعة الشعير، كما أنها تعد من أفقر المناطق<sup>(4)</sup>

(1) - تعكس دفاتر التحرير العثمانية مدى عناية الدولة العثمانية بتحديد مصادر الدولة المالية من الرسوم والعوائد من مقاطعاتها على النشاط الاقتصادي سواء من الجانب التجاري والصناعي وكذا الرسوم على المرافق العامة من دكاكين وطواحين ومطاحن مصانع ومصاين ، إضافة الى المصادر الأخرى كالجزية المفروضة على أهل الذمة ورسوم الحجاج النصاري والبادهوا ورسم غروسانة والعسسية ، وأيضا وارداتها من القرى والمزارع وقطع الأراضي من الثروة الزراعية كالحبوب والأشجار المثمرة وكذلك وارداتها من الثروة الحيوانية كالماعز والأبقار والخيول والابل . دفتر طابو رقم 427 ، سبق ذكره ، ص 56.

(2) - الفدان : وفق قانون نامة الشام هو الزوج من الثيران للحرث ، والفدان أنواع منها : **الفدان الروماني** ، وهو مقدار ما يحرثه الزوج من الثيران من أرض في يوم و ليلة ، والفدان الاسلامي وهو ما يستطيع زوج من الثيران حرثه من الأرض في يوم كامل ، أما ما يحرثه الزوج حتى وقت الظهر فهو فدان الحراث ويعرف كذلك بفدان الأرض. أنظر : لواء القدس الشريف من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف رقم 427 ، سبق ذكره ، ص 150.

(3) - نوفان رجا السوارية : "الحياة الاقتصادية للاحية غزة في النصف الأول للقرن 10هـ/16م" ، مرجع سابق ، ص 34 - 35.

(4) - دفتر طابو رقم 427 ، سبق ذكره ، ص 56.

## 2 - طرق الاستغلال:

اختلفت طرق استغلال الأرض في مناطق بلاد الشام حسب نوع التربة وتوفر ماء الري أو كمية المطر وأهم الأساليب الزراعية المستخدمة هي : نظام الدورة الزراعية وطريقة التبوير، وإن كان الأسلوب الأول هو الأكثر شيوعاً، بحيث يسمح بزراعة أكثر من محصول في عام واحد، لكن هذا الأسلوب خاضع لبعض العوامل ، فحصة القرية من الماء تؤثر على الحياة الزراعية فالأرض التي تصلها مناوبة ريها في مدة تتجاوز أسبوعين لا يمكن فيها زراعة المحاصيل التي تحتاج إلى ري دائم كالخضروات<sup>(1)</sup> كما أن بعض الأراضي تسودها الزراعات الثابتة كالأشجار المثمرة، ويمكننا أن نتصور شكل الحقل المزروع، فكان الزيتون يغرس وسط الحقل أما المشمش فيوضع على ضفاف الجداول والأقنية، أما ما يسيح الحقل فهي أشجار الحور غير المثمرة التي تقوم بدور مصدات الرياح.<sup>(2)</sup>

أما الأراضي غير المشجرة فيتم استغلالها في زراعة الحبوب خاصة القمح والشعير وأنواع الأعلاف كالجلبان والكرسنة والهدف منها هو إراحة الأرض بدلا من تبويرها والحصول على علف للحيوانات، لكن لا يخفى أن إرهاق الأرض بزراعتها لموسمين خلال العام الواحد يؤدي إلى إلحاق الضرر بها.

في بعض المناطق تم تقسيم الأرض الزراعية إلى قسمين : قسم لزراعة الحبوب كالقمح والشعير اللذين يعتمدان على مياه الأمطار فقط، بينما القسم الثاني لزراعة الأرز بالقرب من بحيرات الماء والذي يحتاج إلى كميات كبيرة منه.<sup>(3)</sup>

ويمكن أن يكون أسلوب الدورة الزراعية بزرع السمسم أو الذرة في الموسم الذي يسبق زراعة القمح والشعير أو زراعة القثائيات في الموسم الذي يليهما إذا كانت المياه متوفرة.<sup>(4)</sup>

في المناطق قليلة المطر تنتشر الزراعة البعلية حيث الأشجار المثمرة إضافة للزراعة الشتوية كالقمح والشعير، بينما تسود أشجار التوت والكرمة في المناطق الجبلية الباردة.

(1) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 291.

(2) - نفسه، ص 290 - 291.

(3) - نفسه، ص 291.

(4) - نفسه، ص 292.

أما أسلوب التبوير فيقوم على ترك الأرض بورا دون زراعة مدة عامين ثم تزرع في العام التالي لثلاث أو أربع سنوات متتالية،<sup>(1)</sup> وهو أسلوب كان شائعا في العهد السابقة ويشير النويري وهو من مؤرخي العهد المملوكي إلى الأسلوب المعتمد في استغلال أهل الشام للأرض بأن "عادتهم بسائر بلاد الشام أن كل فلاح يقسم الأرض التي بيده شطرين، فيزرع شطرا ويتعاهده بالحرث ثم يزرعه في القابل، ويريح الشطر الذي كان به الزرع"<sup>(2)</sup>، واستمر هذا الأسلوب في الاستغلال دون تغيير بل أنه في بعض الأحيان يزرعون الحقل لعام ويتركونه للراحة عامين.<sup>(3)</sup>

أما الخضروات فإن الفلاح لا يعتمد دورة زراعية ثابتة وهذا لاختلاف مواعيد زراعتها ونموها ومدى حاجتها للماء<sup>(4)</sup>، وعلى هذا الأساس نجد بأن الأحوال التي مورست فيها الزراعة في بلاد الشام قد ارتبطت بجغرافية المنطقة ومناخها.<sup>(5)</sup>

أما بالنسبة لأساليب استغلال الأرض فإن الفلاح عادة كان يستغل المزرعة الصغيرة (جفت خانة) من خلال زراعتها والاعتناء بها بنفسه وبمساعدة أفراد عائلته سواء ابنه المتزوج (بناق) والأعزب (المجرد)، فيقوم بحراثتها وبذرهما وحصادها، كما يمكن استئجار الأرض بغرض زراعتها، وهنا كانت عقود الإيجار بين سنة وثلاث سنوات، ولأجل ذلك استعمل مصطلح العقد للدلالة على الثلاث سنوات، فإذا تم تحديد مدة الإيجار بعقدين فذلك يعني ست سنوات، وقد تصل مدة الإيجار ستة عقود كأقصى حد أي خمسة عشر سنة<sup>(6)</sup>، ويتضمن عقد استئجار الأرض المغروسة بالأشجار المثمرة أن يتعهد المستأجر بسقيها ورعايتها لقاء سهم واحد من ألف سهم ويحتفظ لنفسه بالبقية، وهو ما كان يمثل غبنا كبيرا لصاحب الأرض التي عادة ما

(1) -أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 292..

(2) -شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، ط1، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة 1931، ص256.

(3) - (هـ) جب و (هـ) بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ص342.

(4) - عبد الغني النابلسي، علم الملاحة في علم الفلاحة، قرأه وعلق عليه: يحي مراد (بدون تاريخ ولا مكان نشر)، ص ص 15 - 16.

(5) - يشير النويري إلى أن "قانون البلاد الشامية مبني على نزول الغيث و وقوع الأمطار في إبانها وأوقات الاحتياج إليها" أنظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، ص 255.

(6) - محمد الأرنؤوط: "الوثائق الوقفية كمصدر من مصادر التعرف على الحياة الزراعية في ضواحي دمشق في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، عدد 43 - 44، جامعة دمشق، سبتمبر 1992، ص 171.

تكون في هذا الشكل وقفا في مقابل الربح الكبير الذي يعود على مستأجر الأرض<sup>(1)</sup> ، أما بالنسبة للأجر فإن أجرة السنة الأولى عادة تدفع سلفا، بينما كانت الأجرة السنوية تقسم إلى عدة أقساط على مدار السنة، ويكون التعامل أساسا بالنقود، لكن في بعض الحالات يمكن دفعها عينا، فقد تم تأجير بستان في كفر سوسة بدمشق لمدة ثلاث عقود كوامل ( أي لمدة خمسة عشر سنة) بأجرة قدرها عن كل سنة خمسة وسبعون قرش، ومدين (02) زيتون أسود، ومدين زيتون أخضر.<sup>(2)</sup>

وفيما يخص نظام الري فإنه بالاعتماد على وقفية سنان باشا والي دمشق في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي يمكن تحديد الطريقة المتبعة في ري الأراضي الزراعية، فمفتاح هذا النظام هو "العدان" أو "الحجر"، فدورة الري الكافية للأراضي التي تسقى من نهر كانت تسمى "العدان"، وهذا "العدان" كان يتكرر حسب المناطق كل سبعة أيام أو خمسة عشر يوما، أو ستة عشر يوما، أما نصيب كل أرض من الدورة المتكررة للري فيحدد بالأيام أو الساعات، فقد كانت حصة أو "عدان" قرية حمورية "عدان السبت بكماله، وعدان الثلاثاء كله"، والثلاثان من عدان الأربعاء من كل أسبوع، وإلى جانب هذا كان من الشائع تقسيم العدان اليومي، بحيث يحدد لكل أرض ساعات معينة.<sup>(3)</sup>

كما يوجد نظام ثاني للري يتخذ مقياسا له "الحجر" الذي يبدو أنه كان وحدة قياسية لكمية الماء التي تخص قطعة أرض معينة حسب ما هو متعارف في منطقة بعينها، ويبدو أنها أيضا كانت قابلة للتقسيم إلى أجزاء، فمثلا كان بستان الطيبات في قرية القدم المجاورة لدمشق ينال حصته على الشكل التالي: "حجر كامل في نهار الاثنين وثمانية أحجار من خمسة وعشرين حجرا في كل ليلة جمعة وليلة السبت من كل أسبوع مرة ليلا ومرة نهارا".<sup>(4)</sup>

ويوجد نظام ري ثالث يسمى نظام المواصي، ومفردتها "ماصية"، وهي مصدر الري من النهر، تفتح وتغلق حسب العرف والدور المتبع في المنطقة، فأراضي القوابين الثلاثة المجاورة لدمشق، أي القابون الفوقاني

(1) - عبد الكريم رافق: "العلاقات الزراعية في بلاد الشام في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، عدد 43 - 44، جامعة دمشق، سبتمبر 1992، ص 126.

(2) - محمد الأرناؤوط: "الوثائق الوقفية كمصدر من مصادر التعرف على الحياة الزراعية في ضواحي دمشق في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 172.

(3) - محمد محمود الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، ص ص 80 - 81.

(4) - نفسه، ص 81.

والوسطاني والتحتاني، فإن المواصي على طول نهر يزيد كانت تسد، ويترك الماء بكامله للقوابين الثلاثة، وفي باقي الأيام كانت أراضيها تروى من ثلاثة ماصيات فقط، ونظرا للدقة التي تميز بها هذا النظام في الري فقد استمر متبعا في القرون الثلاثة اللاحقة.<sup>(1)</sup>

### 3 -العوامل المؤثرة على النشاط الزراعي:

#### أ -العوامل المناخية:

يستنتج من المصادر التي كتبها الإخباريون عن بلاد الشام في الفترة العثمانية عن مدى ارتباط ممارسة النشاط الزراعي بالظروف المناخية من برد وصقيع وجفاف ومطر، فكثيرا ما أشاروا إلى الحالات التي تجود فيها السماء بالغيث الوفير مستبشرين مثلهم مثل باقي الناس بموسم الخصب ووفرة الغلال وانخفاض الأسعار، فيذكر ابن جمعة في حوادث سنة 1087هـ/1676م أن "المطر تهطل في دمشق مرتين فكانت الأسعار رخيصة"<sup>(2)</sup>، أما محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه فيذكر في حوادث حمص الكثير من الأخبار المتعلقة ببداية هطول المطر<sup>(3)</sup> وهطول الثلج وكمياته والبرد وحجمه<sup>(4)</sup>، ولم يغفل صاحب الحوادث الخانقاه عن ذكر الكوارث الزراعية مثل انتشار الجراد أو تكاثر فأر الحقول، وركز على حالات انقطاع المطر<sup>(5)</sup>، ولأهمية العلاقات الزراعية كان الخانقاه حريصا على ذكر مواعيد التقويم الزراعي مثل : بدء الحصاد (وهو حصاد الشعير والبقول) الذي يكون عادة في أوائل شهر أيار، ويليه حصاد القمح في أواخر أيار.<sup>(6)</sup>

كثيرا ما تأثر الانتاج الزراعي بعوامل طبيعية مثل تساقط المطر بكثرة أو سقوط البرد في وقت غير ملائم للزراع مما يتسبب في اتلاف المحاصيل والمواشي والطيور كما أشار إليه ابن جمعة في أحداث 1086هـ/1675م<sup>(7)</sup>، يضاف إلى هذه العوامل تحرك أسراب الجراد التي تلحق أضرارا بالمحاصيل مثلما حدث بدمشق

(1) -محمد محمود الأرنؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، ص ص 81 - 82.

(2) - محمد ابن جمعة المقار، الباشات والقضاة في دمشق، جمع وتحقيق ونشر صلاح الدين المنجد، دمشق، 1949، ص 42.

(3) - في 3 أيام خلت من شهر هيار (أي أيار) صار بعد العشا رعد وبرق وصواعق وشيء عظيم وأمطار مثل أفواه القرب ... نسأل الله أن تكون سنة مباركة رخيصة على المسلمين. حوادث حمص اليومية، مصدر سابق، ص 122.

(4) -نفس المصدر، ص 147.

(5) - نفسه، ص 33.

(6) -نفسه، ص 122.

(7) - محمد ابن جمعة، الباشات والقضاة في دمشق، مصدر سابق، ص 42.

سنة 1093هـ/1682م<sup>(1)</sup>، كما أن الأوبئة تتسبب في فقدان البلاد لقسم هام من طاقاتها البشرية وحتى الحيوانية حيث أكد ابن جمعة بأن وباء أصاب البقر فما سلم منها إلا القليل.<sup>(2)</sup>

#### ب -العوامل السياسية:

لم تكن الزراعة بمنأى عن العوامل السياسية فهجمات الأعراب على قافلة الحج وتعتديهم على الأرياف وحقول الفلاحين أثر على الزراعة، فانتشار الاضطرابات يؤدي إلى قلة السلع والمواد الغذائية إضافة لابتزاز بعض الموظفين لأهل الريف ومطالبتهم بضرائب غير قانونية يؤدي إلى إلحاق أضرار بالغة.<sup>(3)</sup>

#### 4 -المحاصيل الزراعية:

يتميز الانتاج الزراعي العثماني بشكل عام في كونه موجها بالأساس للاستهلاك الذاتي الخاص، بمعنى أن الفلاح ينتج ما يكفيه وعائلته من الحبوب والخضروات وغيرها، والجزء القليل هو ما يوجه إلى السوق المحلي، نظرا إلى أنه خلال القرن السادس عشر بالخصوص كانت معظم الضرائب تؤدي عينا و بالتالي كانت الحاجة للنقود محدودة، فكانت الزراعة موجهة للكفاف، لذلك عرفت بلاد الشام انتاج

(1) - نفس المصدر ، ص44 ، ويضيف المحبي بأن دمشق عرفت وصول أسراب الجراد ثلاث سنوات متوالية في عهد الوالي صاري حسين باشا سنة 1083هـ : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ج2، مصدر سابق ، ص142.

(2) - ابن جمعة ، الباشات والقضاة ، مصدر سابق ، ص53.

(3) - حرصت السلطة العثمانية على عدم فسخ المجال -بأي حال من الأحوال -لموظفيها في الأرياف مثل الصوباشي بأن يتصرف بمفرده دون قرار من القاضي مهما كانت الظروف ، كأن يقوم مثلا بإقرار ضرائب أو فرض غرامات قبل أن يقوم القاضي بإجراء تحقيق معمق في الأمر ، وفي حال مخالفته يكون تحت طائلة القانون وبالتالي عرضة للعقاب ، ورغم ذلك فإننا نجد بعض الصوباشية لا يلتزمون بذلك ، بل أن الحد بلغ ببعضهم أن استغلوا ظلم أمير السنجق في تحقيق أطماعهم ، وهو ما لاحظته بكلربكي الشام بيرى باشا الذي قام بإبلاغ السلطة المركزية بممارسات أمير سنجق صفد المسمى "بهرام" والذي ألحق ظلما برعايا سنجقه وتعدى على ممتلكاتهم ، ورغم منازعة قاضي نابلس له بسبب أخذه مبلغ مئة وعشرين ألف أقجة من المال الميري إلا أنه لم يسددها ، أما صوباشيته فوجدوا الفرصة سانحة ليحذوا حذوه في أخذ الأموال من النواحي خلافا للشرع والقانون ، بحيث يقدر الديوان الهمايوني ما أخذه بنحو أربعين ألف أقجة ، رغم أن الرعايا يصرحون بأنه أكثر من ذلك ، وهكذا يلجأ الصوباشيون إلى القرى وينزلون ضيوفا على الرعايا ، ثم يفرضون عليهم غرامات على شكل عوارض نقدية ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل أنهم يقومون في نهاية كل شهر بجمع كميات من الشعير والدجاج والأغنام لأمر السنجق تحت مسميات متعددة ، وكلها يدع لنهاية لها ، لذلك صدر الحكم الشريف لقاضي الشام في 26 ذي القعدة سنة 951هـ / فيفري 1545م يأمره بالبحث والتقصي - وبالوجه المناسب وعلى أساس الحق - لوضع حد لهذه التجاوزات واسترداد ما كان يؤخذ ظلما. مهمة دفترى 7، ص588، الحكم 1653. نقلا عن: فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، ج2، سبق ذكره ، ص149 - 150.

-مهمة دفترى طوب قابي ، 12321 E ، ص 99 - 100 ، الحكم 227. نقلا عن: فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، ج1، سبق ذكره ، ص94 - 97.

محاصيل متنوعة تبعا لاختلاف التضاريس والتربة والمناخ ، وتنتج المحاصيل الصيفية و الشتوية ، وتشمل هذه الغلال :

**-المحاصيل الشتوية :** شملت زراعة الحبوب كالقمح والشعير والحمص والعدس والكرسنة والشوفان والجلبانة والبصل والثوم... وكانت معظم هذه المحاصيل تعتمد على مياه الأمطار.

**-المحاصيل الصيفية** تشمل عادة ، الذرة والسمسم والأرز ، والكسبرة والمقاثي ، إلى جانب الوسمة (النيلة)<sup>(1)</sup> والقرطم (العصفور) والكتان والقطن والذي كان بحاجة إلى الري الدائم من مياه الينابيع.<sup>(2)</sup>

#### أ -الحبوب :

احتلت الحبوب أهمية بالغة في بلاد الشام باعتبارها الغذاء الأساسي للسكان ، لذا كانت سياسة الدولة تقوم على الحث على زراعتها في كافة القرى والنواحي ، بحيث كانت حاجة الدولة الماسة الى القمح من أجل توفير الغذاء للسكان ولتموين عساكرها ، والى الشعير من أجل توفير الأعلاف لدواب العسكر وتأمين قافلة الحج الشامي وللجردة التي تستقبلها ، إضافة الى أن الحبوب ترسل أحيانا كثيرة لسكان مكة المكرمة والمدينة المنورة هو السبب في هذا الحرص.

**-القمح :** يزرع في أغلب نواحي وقرى بلاد الشام ، ففي لواء الشام يمكننا التعرف على مناطق انتاج القمح في نواحي لواء الشام بين سنتي 932 -1005هـ ، وهي : الغوطة وادي العجم ، شوف البياض ، وتليها ناحية جبة العسال<sup>(3)</sup> ، وفي لواء القدس<sup>(4)</sup> ، أما في ناحية مرج بني عامر فقد ورد في الدفتر المفصل العائد لسنة 945هـ/1538م أن مجموع ريع قرى الناحية بلغ 167.5 غرارة من القمح قيمتها 20100أقجة<sup>(5)</sup> والجدول التالي يوضح مقادير الانتاج من القمح من نواحي لواء الشام وفق الدفترين (T.D.401) العائد لسنة 932هـ و(T.D.195) العائد لسنة 1005هـ بالغرارة:<sup>(6)</sup>

(1) - وردت باسم "بذر النيل" تحت اسم "مال صيفي" في دفتر 515 أنقرة، ص 361.

(2) - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر، سبق ذكره، ص 6.

(3) -أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 302.

(4) -أكثر محرر الدفتر رقم 427 الذي يعود إلى مطلع العهد العثماني (932هـ/1525 -1526م - 934هـ/1527 -1528م من ذكر

القرى المنتجة للحنطة والشعير في مزارع وقرى القدس الشريف و خليل الرحمان، ص 237 -238.

(5) -دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر، سبق ذكره، ص 7.

(6) -أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 302.



| الناحية      | دفتر 401(932هـ/1525م) | دفتر<br>195 ( 1005 هـ / 1596م ) |
|--------------|-----------------------|---------------------------------|
| الحولة       | 602                   | 908                             |
| جبة العسال   | 1988                  | 2256                            |
| الغوطة       | 594                   | 1626                            |
| إقليم البلان | 720                   | 1276                            |
| وادي العجم   | 2898                  | 5366                            |
| شعرا         | 1556                  | 2116                            |
| شوف البياض   | 1776                  | 2048                            |
| حمارة        | 487                   | 1005                            |
| قلمون        | 225                   | 690                             |
| شوف الخرادين | 849                   | 1314                            |
| عرقوب        | -                     | 30                              |

**الشعير:** يزرع في معظم القرى والمزارع، وحسب دفتر التحرير رقم (T.D. 401) العائد لسنة 950هـ / 1534م فإن محصول الشعير في قرى ناحية بني كنانة من لواء الشام بلغ 269 غرارة شعير بقيمة 18830 أقة، وهذا بتراجع طفيف عما أورده الدفتر رقم (T.D. 430) العائد لسنة 930هـ / 1523م الذي يشير إلى إنتاج مقدار بـ 284 غرارة بقيمة 19880 أقة،<sup>(1)</sup> أما في ناحية مرج بني عامر فبلغ مجموع ريع القرى 95 غرارة من الشعير بقيمة 6716 أقة.<sup>(2)</sup>

بلغ انتاج الشعير في نواحي لواء الشام حسب الدفترين (T.D.401) و(T.D.195):<sup>(3)</sup>

(1) - محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة (شمالي الأردن) في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 28.

(2) - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر، سبق ذكره، ص 7.

(3) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 305 - 306.

| الناحية      | دفتر 401(932هـ/1525م) | دفتر 195(1005هـ/1596م) |
|--------------|-----------------------|------------------------|
|              | بالغرامة              | بالغرامة               |
| الحولة       | 236                   | 488                    |
| جبة العسال   | 164                   | 904                    |
| الغوطة       | 1860                  | 2570                   |
| إقليم البلان | 416                   | 848                    |
| وادي العجم   | 1366                  | 3222                   |
| شعرا         | 488                   | 1096                   |
| شوف البياض   | 1048                  | 1336                   |
| حمارة        | 223                   | 706                    |
| شوف الحرادين | 300                   | 1062                   |
| قلمون        | 450                   | 1320                   |

من خلال المصادر العثمانية ونعني بها دفاتر الإحصاء العثمانية التي تشير إلى المقادير المفروضة على الفلاحين دفعها، يمكننا أن نعرف من خلالها كمية الانتاج، فقد أشار الدفتر (T.D.427) أن حاصل قرى ناحية غزة عينا مقدرا بالغرامة (وحدة الكيل) وما يقابل ذلك من قيمة البدل النقدي بالأقجة وقد بلغت حصة التيمار من ناحية غزة عينا ونقدا المقادير التالية :

- القمح 696.5 غرارة بقيمة 150أقجة للغرارة الواحدة بقيمة اجمالية بلغت 104475 أقجة

- الشعير 666.5 غرارة بقيمة 105 أقجة للغرارة و بقيمة اجمالية بلغت 69982.5 أقجة،<sup>(1)</sup> أما بعض المحاصيل الصيفية فنجد من ضمنها الذرة، فقد بلغت في قرى ناحية غزة 64غرارة،<sup>(2)</sup> إلى جانب البصل كمنتوج صيفي.

<sup>(1)</sup> -نوفان رجا السوارية: "الحياة الاقتصادية لناحية غزة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي" مرجع سابق،

ص36.

<sup>(2)</sup> - نفسه، ص37.

## ب - الحبوب الجافة :

العدس : هو من المحاصيل الشتوية وقد ورد ذكره في محاصيل قرية كفر عنا بلواء القدس الشريف<sup>(1)</sup>  
كما يزرع في لواء الشام في ناحية حمارة وشعرا ، وهو للاستهلاك المحلي وبلغ سعر الغرارة الواحدة منه 70  
أقجة.<sup>(2)</sup>

الفاول : ورد ذكر محصول الفول في مزرعة قسطا بناحية خليل الرحمن ، وبلغ ثمن غرارة الفول 130  
أقجة،<sup>(3)</sup> عادة يزرع بعد القمح في الدورة الزراعية ، وسعر غرارة الفول 70أقجة في نواحي لواء الشام في  
دفتر (T.D.401).<sup>(4)</sup>

الحمص : بلغ محصوله حسب ما ورد في دفتر (T.D.401) 3 غرارات بقيمة 130أقجة للغرارة  
الواحدة في قرى ناحية بني كنانة<sup>(5)</sup> بينما نجد ناحية شوف الحرادين بريف لواء الشام الأكثر انتاجا  
للحمص.<sup>(6)</sup>

السسم : يزرع السسم بعد القمح أو الشعير وتكمن أهميته في استخراج زيت السيرج في معاصر  
لعصر السسم ، ويزرع في قرى ونواحي الشام مثل ناحية الحولة وكان ثمن الغرارة هو 70 أقجة.<sup>(7)</sup>

الذرة : بلغ محصول الذرة في قرى ناحية بني كنانة من لواء الشام 9 غرارات قيمة الغرارة الواحدة  
20أقجة.<sup>(8)</sup>

(1) - (T.D.427) ، سبق ذكره ، ص 67 ، ص 237.

(2) - أسماء رمضان ، ريف منطقة دمشق ، مرجع سابق ، ص 306.

(3) - دفتر 1015 ، سبق ذكره ، ص 341.

(4) - المرجع السابق ، ص 308.

(5) - محمد عدنان البخيت ، ناحية بني كنانة ، مرجع سابق ، ص 25.

(6) - أسماء رمضان ، ريف منطقة دمشق ، مرجع سابق ، ص 309.

(7) - نفسه ، ص 308.

(8) - محمد عدنان البخيت ، ناحية بني كنانة ، مرجع سابق ، ص 24.

## ج -الأشجار المثمرة:

كانت الأشجار المثمرة وغير المثمرة منتشرة في قرى بلاد الشام خاصة تلك المشرفة على مجاري المياه الموجودة على غرار العاصي وبردی، ومن أهم الأشجار : الزيتون، وكروم العنب، والتين والتوت لإنتاج الحرير والجوز والمشمش والدراق واللوز والرمان.

## -الزيتون:

انتشرت الأشجار وزراعتها وبالأخص الأشجار المثمرة في غالبية بلاد الشام خاصة تلك المشرفة على مجاري المياه على غرار العاصي وبردی، ورغم تعدد أنواعها تبقى زراعة الزيتون من أشهر هذه الزراعات، ويتميز الزيتون بأنه يحتاج إلى فترات ري أقل مقارنة بالأشجار المثمرة الأخرى، لذلك نشأت زراعته أولاً في المناطق الجبلية الشمالية والغربية كجبال القلون وجبال لبنان ثم انتشرت في باقي المناطق وهذا منذ أزمنة موعلة في القدم.<sup>(1)</sup>

وكان لاهتمام الناس بتوفير مادة الزيت دوراً فعالاً في انشاء العديد من المعاصر لعصر الزيتون<sup>(2)</sup> ويعود سبب هذا الاهتمام بهذه الشجرة هو حاجة الأهالي والدولة نواتج الزيتون سواء ما تعلق بالزيت كمادة غذائية أو ما تعلق باستعماله في الإنارة سواء للمساجد أو المدارس أو التكايا و الخانات والأديرة والكنائس، فقد بلغت كمية الزيت المنتجة في قرى ناحية القدس الشريف حسب الدفتر 269 العائد لسنة 961هـ / 1553 - 1554م نحو: 22769 مّا بقيمة 145655أقجة،<sup>(3)</sup> وكذا بالنسبة للصابون باعتبار أنه

(1) - تم العثور على التوثيق الأول لأشجار الزيتون و إنتاج الزيت في أرشيف إبلا القديمة ( تعرف اليوم باسم تل مردوخ وتقع في محافظة ادلب السورية الى الغرب من مدينة حلب )الذي يعود تاريخه إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، حيث تناول اثني عشر رقما مسماريا ذكر معلومات مهمة عن زراعة الأراضي التي تعود ملكيتها للملك و الملكة بغراس الزيتون، اضافة لما ذكر عن تقديم الملك الأنواع الفاخرة من الزيتون كهدايا قيمة لملوك الدول المجاورة للمملكة. بشرى خير بك: "معاصر زيت الزيتون في العهد العثماني في دمشق وريفها"، مجلة مهد الحضارات، عددان 17 - 18، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، السنة 2014، ص 167.

(2) - نفسه، ص 167 .

- دفتر تحرير لواء عجلون، سبق ذكره، ص 63، ص 66، ص 78.

(3) - دفتر تحرير 289 إس، سبق ذكره، ص 132 - 141.

يدخل بشكل أساسي في صناعته حيث انتشرت المصابن في معظم المدن الشامية بما فيها القدس وحماه ودمشق بل أن جزءا هاما من الصابون الذي تنتجه بلاد الشام يتم تصديره نحو مصر.<sup>(1)</sup>

نال الزيتون اهتمام المشرع العثماني من خلال إدراجه في القانوننات المتعلقة ببلاد الشام حيث نجده يميز بين أنواع الزيتون المختلفة فيذكر تارة الزيتون الروماني<sup>(2)</sup> الذي يحتاج عناية أكبر من الفلاح ، وتارة أخرى الزيتون الاسلامي<sup>(3)</sup> وبالتالي يبين وضع كل نوع بالنسبة للفلاح ، كما يبين حصة الدولة حسب المواسم فلم يساوي بين الحصة في موسم الإقبال و الحصة في موسم الإحمال ، وقد نص قانوننات القدس في البنود : 2، 3، 5، و6 في الدفتر 516 الذي يرجع تاريخه إلى 970هـ/ 1562 - 1563م على كيفية التصرف بالزيتون الموجود في لواء القدس الشريف :

**البند2 :** يتصرف الفلاح بنصف الزيتون الروماني الواقع في اللواء لقاء عنايته به ، ويتصرف صاحب الأرض (صاحب التيمار) بالنصف الآخر.

**البند3 :** يجبى عن كل شجرتي زيتون إسلامي عثمانية واحدة

**البند5 :** يكون نصف محصول الزيتون الروماني لصاحب الأرض (صاحب التيمار) والنصف الآخر يتصرف به الفلاح لعنايته بالأشجار ، وفي بعض الأماكن لا يمتلك أصحاب الأراضي (التيماريين) نصف المحصول ، وربما أخذوا عثمانية واحدة خراجا عن كل شجرة زيتون رومانية ، وهم يأخذون سنويا أقجة واحدة عن كل شجرة زيتون في الإقبال والإحمال ، إلا أنهم لا يأخذون نقدا ، والذين يأخذون قسما من الزيت في موسم الإقبال لا يأخذون أقجة في موسم الإحمال ، وتم تدوينه قسما في موسم الإقبال.

(1) - ذكر ابن بطوطة أن بلاد الشام تشتهر بزيت الزيتون الذي يصنع منه الصابون المطيب الذي يسوق في مدن الشام ومصر. ابن بطوطة ، الرحلة ، ج1 ، مصدر سابق ، ص39.

(2) - دفتر تحرير لواء عجلون ، سبق ذكره ، ص 63 ، ص 66 ، ص 78. حجة رقم 2 ، سجل 173 ، ج2 ، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية ، ص 44.

(3) - دفتر تحرير لواء عجلون ، نفس المكان.

**البند6:** كذلك فإن الزيتون الإسلامي من نفس القبيل أيضا، والذي يؤخذ الخراج منه منذ القدم على أساس الزيت...وهذا النوع من الأماكن والذي تؤخذ قسمته في زمن الإقبال على أساس الزيت لا يؤخذ عنه خراج في زمن الإحمال.<sup>(1)</sup>

و تشير الضرائب المفروضة على بعض القرى إلى وجود الزيتون في لواء عجلون في عدة قرى<sup>(2)</sup> بلغت حصة الدولة من خراج الأشجار المثمرة ومن بينها الزيتون مع كروم العنب: 172385 أقة.<sup>(3)</sup>

وإلى جانب زراعة الزيتون نجد كذلك أشجارا مثمرة متنوعة على غرار:

**كروم العنب:** ارتبطت زراعة العنب بإنتاج الدبس والزبيب انتشرت زراعة العنب واستخراج الدبس، فقد بلغت كمية الدبس الحاصل في قرى ناحية القدس الشريف 786منا بقيمة 3550 أقة<sup>(4)</sup> والزبيب الذي بلغ مجموع إنتاج لواء القدس منه 108.5 منا بثمن مقدرب 350 أقة.<sup>(5)</sup>

**الجوز:** ورد ذكر الجوز في قانوننامة لواء عجلون من دفتر تحرير 970 زمن السلطان سليمان القانوني<sup>(6)</sup>

**التين:** ورد في دفتر مفصل لواء عجلون-خراج التين في قرية الربض تحت قلعة عجلون كحاصل قسم من الربع وبلغ 300 أقة وكذا في قرية نخلة التابعة لبني علوان.<sup>(7)</sup>

**التوت:** انتشرت أشجار التوت بكثرة في طرابلس حتى أنه توجد هناك غابات بأكملها لا تحتوي إلا على أشجار التوت، وهذا بحسب شهادة خبير عاش في حلب فيما بين 1656 و1663م كان مكلفا بشراء الحرير لصالح تجار بنادقة بحيث يذكر أن تقام أكواخ في وسط الغابات في الفترة ما بين شهري أفريل وجوان

(1) -دفتر تحرير رقم 516 اس، سبق ذكره، ص ص 176 - 177.

(2) - المصدر السابق، ص 51، 68.

(3) - نفس المصدر، ص 20.

(4) -دفتر تحرير 289 اس، سبق ذكره، ص ص 132 - 141.

(5) - نفس المصدر، ص 144.

(6) -دفتر مفصل لواء عجلون، مصدر سابق، ص 51، 68.

(7) - نفسه، ص 59، 62، ص 63، 68.

لتسهيل تغذية دودة القز، وبلغ انتاج طرابلس من الحرير الخام نحو أربعة آلاف قنطار<sup>(1)</sup>، كما ورد ذكر أشجار التوت في قرية الرض تحت قلعة عجلون.<sup>(2)</sup>

**الفستق :** ولعل الأشهر هو الفستق الحلبي الذي تتواجد أشجاره في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية من حلب، ويعتبر الفستق الحلبي من أجود الأنواع في العالم وتتلاءم زراعته مع الأراضي الجافة، وبما أن الأزهار المؤنثة والمذكرة تنمو على أشجار منفصلة فإنه من الضروري زراعة شجرة مذكرة في فواصل بين الأشجار المؤنثة من أجل تلقيح الفستق.<sup>(3)</sup>

كما ينتج في منطقة حلب الكثير من الفواكه مثل التين والرمون والكرز والمشمش والخوخ التفاح والإجاص والسفرجل اللوز والجوز والبندق والعناب ...<sup>(4)</sup>

مثلما ارتبطت كثير من أنواع الأشجار المثمرة بإنتاج بعض المحاصيل مثلما ارتبطت من جهة أخرى ببعض النشاطات التي تتطلب وجود منشآت كالمعاصر لإنتاج الزيت للطعام ولقافلة الحج، ولعل ما يشير إلى هذه الأنواع هو ما ورد في دفاتر التحرير في قانون نامة اللواء من تفصيل لمقدار الرسوم التي تجبى عن كل نوع منها، فقد بلغ محصول المعصرة الواقعة في القدس الشريف بالقرب من الحرم 720 أقة في السنة، بينما بلغ محصول معصرة أخرى واقعة في قرية سنجل من لواء القدس 450 أقة سنوياً.<sup>(5)</sup>

#### د - الخضر :

هي من بين المحاصيل الزراعية التي يقبل الفلاح على زراعتها سواء لسد حاجته أو لتموين حاجات قريته، لذلك كانت مسألة القرب أو البعد عن السوق ضرورية بالنسبة للفلاح من أجل تسويق منتوجه، ومن بين الخضار المنتجة في بلاد الشام نجد القنبيط واللفت والفجل والسلق والبصل والخض والخيار

(1) - خليل إينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص ص 165 - 166.

(2) - دفتر تحرير لواء عجلون، سبق ذكره، ص 59.

(3) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 51، 68 - 69.

(4) - نفسه، ص ص 69 - 70.

(5) - دفتر تحرير 289 إس، سبق ذكره، ص 147.

والباذنجان والقرع والبقدونس ، وأورد دفتر تحرير 516 العائد لسنة 970هـ/1562 - 1563م هذه المحاصيل بالمال الصيفي.<sup>(1)</sup>

وعموما فإن القاء نظرة على الرسوم المفروضة على القبان ودار البطيخ في نفس الشام بحسب الدفتر 474 العائد لسنة 977هـ/1569م يعطينا فكرة واضحة على مختلف السلع والمنتجات الزراعية في المنطقة فنجد: الدبس، العسل، الأرز، الجبن، حب الرمان، التمر العراقي، الزيت التين، الفستق والبندق، زيت السيرج (من السمسم)، الخيار، الكمأة، المشمش، التفاح، البطيخ والشمام، الدراق (الخوخ)، الإجااص، العنب، الجوز<sup>(2)</sup>، وتكتمل الصورة بشكل أكثر وضوحا من خلال تفحص العناوين الواردة تحت اسم: "عوائد دار الخضر" في نفس الشام من نفس الدفتر 474، لتتعرف على أنواع الخضروات الطازجة أو الناشفة، وأسماء الثمار التي تزرع في بلاد الشام عموما وما يعصر منها زيتا، أو ما يجفف كالزبيب والمشمش والفستق والبندق فنجد: البصل، الباذنجان، اللوبيا، القرنبيط، العجور (من الفقوس) الرمان الحامض، الجزر<sup>(3)</sup>، وتعتبر ناحية وادي العجم ثم ناحية الغوطة في دمشق الأغزر انتاجا في مجال الخضروات تليهما قرى سقبا والمرج وإقليم الزبيب.<sup>(4)</sup>

#### هـ - الأعلاف:

يلائم زراعة الأعلاف المناطق البعلية مثل الكرسة<sup>(5)</sup> والجلبان والتبن المستخرج من القمح والشعير وهي عنصر أساسي في تربية الحيوانات.

القطن: في ناحية بيت ساحور النصارى وشعفات و كفر هر بلواء القدس الشريف<sup>(6)</sup> وقدر حاصل القرية شعفات من القطن 10 رطل بقيمة 20 أقة.<sup>(7)</sup>

(1) - دفتر تحرير 516 إس ، سبق ذكره، ص 75.

(2) - محمد عدنان البخيت : "العوائد المالية المقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو 474"، مرجع سابق، ص ص 6 - 14.

(3) - نفسه، ص ص 15 - 16.

(4) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 323.

(5) - ورد ذكرها ضمن محاصيل قرية كفر عنا بلواء القدس الشريف، دفتر تحرير 427، سبق ذكره، ص 67، ص 237.

(6) - نفسه، ص 58.

(7) - نفسه، ص 268.



## 5 -الثروة الحيوانية :

تعد الثروة الحيوانية جزءاً أساسياً في حياة الناس فنجد حيوانات تستخدم في التنقل بين المناطق وأخرى لحراثة الأرض ، وحيوانات تربي من أجل لحومها وألبانها وجلودها وأصوافها لذلك عني الناس بها ، ونظراً لأنه يعيش في بلاد الشام عدد هائل من البدو فإنه تم الاعتناء بتربية الإبل والغنم والماعز إلى جانب الحيوانات التي تستعمل للركوب أو نقل الأحمال مثل الخيول والدواب ، فكانت هذه الحيوانات مصدر عيش للقبائل البدوية بما تقدمه من منتجات متنوعة مثل الصوف الذي تصنع منه النسوة الحبال وينسجن منه الألبسة ، والجلود التي يصنع منها الرجال مستلزماتهم<sup>(1)</sup> وبما توفره من خدمات للدولة وللتجارة ولقافلة الحج مثل الخيول والجمال ، ولسكان المدن من مادة اللحوم.

إن وجود ثروة حيوانية في بلاد الشام يعتبر أمراً طبيعياً نظراً للظروف الطبيعية و كذا النشاط الزراعي ككل ، وقد اعتنى الفلاحون في قرى بلاد الشام بتربية شتى أنواع الحيوانات سواء المخصصة الحمل والحراث والركوب كالجمال والخيول والبغال والحمير أو تلك المخصصة لإنتاج الغذاء ، لذلك يمكن التمييز بينها على النحو التالي :

### أ -حيوانات الحمل والركوب والحراث :

اعتمد السكان في بلاد الشام على هذه الحيوانات بشكل رئيسي فهي وسيلة الركوب والتنقل وكذا النقل وفي نفس الوقت الأداة الرئيسية في عملية حراثة الأرض ، ومن هذه الحيوانات :

-الجمال : وكانت تربي بكثرة ، قد كثر تواجدها في جنوب بلاد الشام ، وكان من أحد الأسباب للاهتمام بتربيتها هو تأجيرها أثناء موسم الحج وتسيير قافلة الحجاج التي كانت دمشق المحطة الأهم في قافلة الحج الشامي حيث يتم بواسطتها حمل مؤن الحجاج ، ونقل بضائع التجار كما كان الجيش يستأجر أعداداً منها قبل أن يلجأ إلى تربيتها بنفسه ، إلى جانب ذلك استخدمت الجمال في المناسبات العائلية خاصة الأعراس بعد أن يقوموا بتزيينها.<sup>(2)</sup>

(1) -أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص598.

(2) - نوفان رجا الحمود ، عمان وجوارها خلال الفترة 1281هـ / 1864م - 1340هـ / 1921م ، منشورات بنك الأعمال ، ط 1 عمان، 1996 ، ص330.

**الخيول :** كان الاعتناء بالخيول واقتنائها من الأمور الشائعة والمألوفة في أرجاء بلاد الشام وهي الوسيلة الأساسية للركوب والتنقل.

**البغال والحمير :** تستعمل في النقل وأعمال الحراثة والدريس ، وكانت التجارة فيها مربحة ورائجة نظرا للطلب عليها ، كما يستخدم الحمير في نقل الماء من العيون وفي الأعمال المنزلية المتنوعة لذا كانت الحاجة شديدة لهذه الحيوانات في زمن كانت فيه وسيلة النقل الوحيدة المتوفرة للسكان.

**الأبقار والجواميس :** وخاصة الثيران للحرث ويسمى الزوج من الثيران للحرث باسم الفدان وكان الفلاحون يعتنون بتربيتها ويقتنونها باستمرار.

## ب - حيوانات انتاج الغذاء :

ويستفاد من انتاجها في الغذاء كالحوم و الحليب و مشتقاته ، وهذه الحيوانات هي :

**الإبل :** ويستفاد من حليبها الذي يعتبره البدو عنصرا أساسيا لذلك يملكون أعدادا كبيرة منها ، إضافة إلى أوبارها في توفير لباسهم وصنع خيمهم .

**الأغنام (الماعز والضأن) :** تمتلك العشائر البدوية بالخصوص أعدادا هائلة منها مستفيدة من المراعي في بعض الأماكن و متقلة بحثا عن الكأ في مرات أخرى ، فكانت مصدرا للغذاء بلحومها و ألبانها أو الحصول من تجارتها على الاحتياجات الأخرى فكان السمن إحدى المواد التي يبيعها الفلاحون لسكان المدن والقصبات ، وعموما كان الفلاح يبيع نتاج أغنامه للإنفاق على أسرته وفلاحته وعلى باقي غنمه.

كما اهتم البدو المتواجدون بكثرة في بلاد الشام بتربية الغنم ، كما ترد الإشارة إليها كذلك عند ذكر الأسواق حيث تجري عملية البيع حيث كانت الدولة تتقاضى رسوما من هذه الأسواق ويحدد قانون نامه لواء الشام أنواع الحيوانات التي كانت تباع في السوق والرسوم المجبأة عند البيع وهي على النحو التالي :

6- أقجاة عند بيع الحصان ويكون المبلغ مناصفة بين البائع والمشتري

8- أقجاة عند بيع الجمل ويكون المبلغ مناصفة بين البائع والمشتري

4- أقجاة عند بيع الحمار ويكون المبلغ مناصفة بين البائع والمشتري

8- أقجات عند بيع الجاموس أو الثور ويكون المبلغ مناصفة بين البائع والمشتري.<sup>(1)</sup>

يعطينا دفتر الطابو معلومات عن تربية الماعز حيث تتم جباية الرسوم عنها وبلغت في 11 قرية في ناحية القدس الشريف 405 أقجات من هذه القرى.<sup>(2)</sup>

**البقر والجواميس :** وكان الفلاح يستفيد من ألبانها ومشتقاتها ، كما يستفاد من جلودها

**الطيور الداجنة :** للاستفادة من لحومها وبيضها كالدجاج والوز والحمام والدجاج الهندي.

**النحل :** لا يكاد يخلو بيت من خلية نحل ويرد كثيرا ذكر النحل في دفاتر التحرير نظرا لأهميتهما بالنسبة للفلاح فكان العسل يستعمل بدل السكر.

---

<sup>(1)</sup> -لواء القدس من دفتر تحرير 427، سبق ذكره، ص 102.

<sup>(2)</sup> - نفسه، ص 101.

# الفصل الثاني

الصناعة

## أولا -التنظيم الحرفي وطوائف الحرف :

### 1 -نشأة التنظيمات الحرفية (الأصناف) :

شكلت التنظيمات الحرفية أو طوائف الأصناف شكلا دقيقا للتنظيم الاجتماعي والصناعي للمدينة في الدولة العثمانية حيث انتظم قسم كبير من السكان فيها، ومنها مدن بلاد الشام محل الدراسة، فقد بلغت درجة كبيرة من التنظيم وبرزت كمجموعة أخوية مميزة في مجتمع كل مدينة، أما أصولها فتعود إلى فترات سابقة من التاريخ الاسلامي،<sup>(1)</sup> حيث عرف التصوف الاسلامي جماعات الآخية الفتيان<sup>(2)</sup> والتي كان من شروط الانتماء إليها أن يكون الشخص مسلما صاحب حرفة، فلم يكن للعاطل أن ينخرط في تشكيلاتها، ولعل ذلك ما أنقذ الزوايا من أن تكون موثلا للعاطلين<sup>(3)</sup>، كما أن انخراط أصحاب الحرف في تشكيلات الفتوة جعل من الاحتراف والفتوة أمرين لا ينفصلان وظلا مرتبطين حتى بعد ابتعاد أصحاب الحرف عن الزوايا فقد ظلوا يحافظون على شروط ارتباط أهل الحرف بالفتوة كالصدق والوفاء والكرم والمروءة وغيرها وهي الصفات التي جاهد أصحاب الحرف على التمسك بها.<sup>(4)</sup>

وكانت التنظيمات الحرفية تضم في صفوفها معظم الحرفيين رغم وجود البعض -الذي ليس بالقليل - لا ينتمي إلى هذه النقابات على غرار الباعة وأهل الحرف المتجولين، كما شكل الرقيق أو العبيد قسما من قوة العمل غير المنتمية لأي طائفة، إلى جانب النساء اللواتي كن يعملن في البيوت ويبيعن بضاعتهم في الشوارع، هذا كله يدفعنا للتساؤل حول ما إذا كانت طوائف الحرف على اختلاف تخصصاتها وانتماءاتها جزء من الديناميكية التي كان المجتمع يعيشها، أم أنها صورة لحالة الجمود والانعزال والانغلاق والنمطية

(1) - يرى برنارد لويس أن الاهتمام بطبقات أصحاب الحرف يعود إلى فرقة الإسماعيلية، ويستدل على ذلك بالفصل الذي خصصه (إخوان الصفا) في رسائلهم للنظر في الحرف اليدوية وتصنيفها ونبيلها والإشادة بأصحاب الحرف، لكن هذه الطوائف الحرفية -حسب لويس دائما - عرفت نوعا من الاضطهاد تحت الحكم السني الذي أخضعها لقيود لا تعد، وحرماها من حقوق قانونية من خلال إيجاد وظيفة المحتسب الذي أصبحت مهمته هي مراقبة الطوائف وقتل أي محاولة للعمل المستقل فيها منذ المبدأ، وهو يستشهد في هذا الصدد بما تناولته كتب الحسبة من خطر أهل الصنائع حيث أشارت إلى (أحسن الطرق للسيطرة عليهم) وهذا في عديد المحلات من العالم الاسلامي سواء القاهرة أو حلب أو مالقة بالأندلس. برنارد لويس: "النقابات الاسلامية"، ترجمة عبد العزيز الدوري، مجلة الرسالة (لصاحبها: أحمد حسن الزيات)، العدد 356، القاهرة 29 أبريل 1940، ص 735. وهو يشترك في ذلك مع المؤرخ التركي كوبريلي الذي يشير إلى الارتباط الوثيق بين هذه الطوائف وبين القرامطة. محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967، ص 161.

(2) - تناول ابن بطوطة هذه الطائفة التي لقيها في مدن الأناضول الرئيسية مثل أنطاليا، وقونية وكلحصار وقيصريه وسيواس وأرزمروم ومغنيسيا وبروسة وقسطموني وسينوب تحت اسم (الآخية الفتيان) وتحدث عن زواياهم التي توجد في كل قصبة وقرية، وذكر أن (الآخي): "رجل يجتمع أهل صناعته من الشبان الأغراب والمتجربين، ويقدمونه على أنفسهم، وتلك هي الفتوة أيضا، فيبني زاوية ويخدم الغرباء من الناس، ويأخذ على أيدي الظلمة..." تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج 1، مصدر سابق، ص 181.

(3) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مرجع سابق، ص 723.

(4) - نفسه، ص 723.

البعيدة عن التجديد كما وصفهم المستشرقان جب وبوون وغيرهما<sup>(1)</sup>؟ وهل كانت هذه الطوائف الحرفية فعلا خارج التطورات التي كان المجتمع يعيشها، ألم تكن جزء من التطور الحاصل في الداخل والخارج؟ ألم تؤثر المعاملات التجارية للتجار الأوربيين على وضعيتهم؟ ألم يكن لها أي تأثير في التطور الذي شهدته أوروبا في أواخر القرن 18م؟

## 2 -التنظيم الهيكلي للطوائف الحرفية:

نظرا لعدم وجود نموذج تنظيمي مفروض من المركز أي الدولة العثمانية فإننا نجد اختلافات أحيانا في البناء الهيكلي بين ولاية وأخرى، ففي اسطنبول اعتبر الشيخ أو الكتخدا ابتداء من القرن السادس عشر<sup>(2)</sup> بمثابة الاداري الأول في تشكيلات أرباب الحرف والصناعات، ويتمتع بصلاحيات ووظائف منها: تنظيم العلاقة بين الدولة وأعضاء التشكيل، وتوفير المواد الخام لأعمالهم وحلّ الخلافات الناشئة فيما بينهم، ومعاقبة المذنب بعد استشارة أهل الخبرة، والقيام بأعمال انتقال الكدك<sup>(3)</sup>، أما النقيب أو رئيس الفتية فكان مسؤولا عن الأمور الداخلية بين أرباب الحرف وكانت وظيفته: تقسيم المواد الخام بين الحرفيين<sup>(4)</sup>، والانشغال بأمور الزاوية أو النقابة، وإدارة مراسم التمنطق بالمتزر<sup>(1)</sup>، والسعي لفض المنازعات

(1) - ظلت نظرة الكثير من الباحثين على غرار هاملتون جب وهارولد بوون وغابرييل بير تعتبر الطوائف الحرفية على أنها قوالب جامدة تتحكم الدولة في حركتها، وفي نفس الوقت صورت الحرفيين والمهنيين على أنهم غير مؤهلين لتغيير أنماطهم ومنتجاتهم، حيث رأى هؤلاء الباحثون بأن القواعد الصارمة لنظام الطوائف تحد - إلى حد كبير - من حركتهم، وبالتالي وصفوا هذه الطوائف الحرفية بمثابة "بنى خارج التاريخ" وتعمل بنفس النظام، بغض النظر عن التغييرات التي تلحق بالسياق الاقليمي المحيط بها، فكان تركيز هذه الدراسات على ابراز الطبيعة الجامدة لنظام الطوائف الحرفية، ونركز هنا على ما تناوله غابرييل بير Gabriel Bear من أن الطوائف هي بنى تقليدية يجتمع تحتها أشخاص من نفس المهنة، أما الدولة فهي تعترف بها لكنها في نفس الوقت تتحكم في أنشطتها بشدة، وهذا ما لم يشجع التنافس بين أعضائها لتحسين وتطوير مهاراتهم ومنتجاتهم، لكن "بير" يعود ويعترف بأن الدولة "وضعت قواعد عادلة للتعامل مع أعضاء الطائفة الحرفية" ثم يعود ويؤكد بأن "النظام المتبع داخل الطائفة لحماية أعضائها من المنافسة يحد من توسع الطائفة، حيث يرى بأن الدولة وضعت قيودا صارمة للحصول على عضوية الطائفة، فلم يكن بمقدور أي حرفي غير منتم للطائفة أن يمارس الأنشطة التي تختص بها الطائفة. أنظر: نيللي حنا، مصر العثمانية والتحولت العالمية 1500 - 1800، ترجمة مجدي جرجس، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2016، ص ص 108 - 109.

(2) - الكتخدا: كلمة فارسية مركبة من مقطعين: كد = بمعنى الدار، وخدا = بمعنى الرب أو الصاحب. أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، ج1، مرجع سابق، ص 724.

(3) - اصطلاح عثمانى يعني المكان أو الموقع الذي يشغله أشخاص يقومون بوظائف معينة ضمن مجموعة معينة لا تزيد أعدادها أو تنقص مع الوقت، فإذا شغرت وظيفة قامت الدولة على الفور بتعيين شخص آخر فيها، وكان جنود المتطوعة في ولايات الحدود وجنود المتفرقة وبعض الجاوشية وجنود القلاع وبعض الأسطاوات من أرباب الحرف من ذلك النوع. نفس المرجع، ص 724. (هامش)

(4) - من الصعب معرفة ما إذا كانت النسوة منتظمات في طوائف حرفية خاصة بهن، إلا أن أحد القضاة في حلب عين للمدعوة فطمة بنت الشيخ محمد نصف حصة من قسم الشحم المعد لعمل الشمع الشحمي تأخذه من المسلخ أسوة بطائفة الشماعين الذين يشتغلون بالشمع الشحمي، وهذا بتاريخ 5 صفر 1037هـ/ 16 أكتوبر 1627م وبحضور شيخ طائفة الشماعين والذي أمره القاضي بأن يعطي المرأة حصتها يوما بيوم كما هي عادة الشماعين بحلب. عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، العدد 4، جمادى الثاني 1401هـ/أفريل 1981، ص 34.

بين الأساطوات ، واحالة المستعصي منها على الحال للكتخدا<sup>(2)</sup> وفي مصر فإن الرحالة أوليا شلبي يقدم وصفا دقيقا للتنظيمات الحرفية في القاهرة أثناء زيارته لها سنة 1660م ، حيث أحصى وجود 262 طائفة حرفية أوردها في كتابه (سياحتنامه مصر).<sup>(3)</sup>

أما في بلاد الشام وهو موضوع دراستنا ، فقد بلغت التنظيمات الحرفية درجة كبيرة من التنظيم إبان الحكم العثماني ، ولعبت دورا رئيسيا على أكثر من صعيد<sup>(4)</sup> حيث يأتي شيخ شيوخ الحرفة على رأس التنظيم الهيكلي لطوائف الحرف ثم يليه شيخ الحرفة وأخيرا الطائفة الحرفية.

#### أ - شيخ الطائفة:

شكلت كل حرفة جماعة أو طائفة ، على رأسها شيخ<sup>(5)</sup> يرعى شؤونها ويمثلها ، ويتم اختياره من بين معلمي الحرفة أنفسهم وباتفاق بينهم ، إلا أن الاختيار يحتاج -لكي يصبح نافذا - إلى موافقة القاضي الشرعي الذي يقر الشيخ على رأس حرفته ، ويشترط فيه:

-أن يكون صاحب دين وخلق

-أهلا للمشيخة لائقا بها

(1) - كان لكل حرفة في الفتوة شيخ مرشد ، وكان التمنطق بالمنزلة أحد المراسم الرئيسية في احتفالات التهاني لدى جماعة الآخية هو دليل على عملية لبس السروال وربط الشدة تحولت إلى مراسم تقام لمن بلغ في الحرفة مرتبة الأستاذية. أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ، ج1 ، مرجع سابق ، ص 723.

(2) - نفسه ، ص 725.

(3) - يقدم أوليا جلبي جردا لأهم التنظيمات الحرفية الموجودة بالقاهرة في النصف الثاني للقرن السابع عشر حيث يذكر بأن أبواب كل الطوائف تابعون لإدارة المحتسب ، ويصنف طائفة المزارعين في مقدمة جميع الحرف ، ومن الطوائف التي تأتي بعدهم نجد الكيالين (الذين يكيلون الغلال) ، ثم صنف المغربلين (الذين يغربلون القمح) وأخيرا صانعو الغرابيل والمناخل ، أما الفئة الثانية فهم البستانيون ، فقد كانوا من أوائل الفلاحين الذين تمتعوا بإمكانات الاتحاد المهني أو مزاياء ، إذ بدأوا في الانتظام في صنف خاص بهم تحت رئاسة زعيمهم الخاص (شيخ البساتنة) ، ثم السقائين والحمالين ، ويستمر أوليا جلبي في إحصاء الطوائف الحرفية الموجودة في القاهرة على غرار صنف صناع الزيت ( خاصة زيت السيرج) وزيت السمسم وصنف المعمارين ، ويدخل في هذا الصنف النجارون ، والحجارون(الذين يقطعون الحجارة) ، ثم الرخامون (الذين يصنعون الأحواض ويفرشون الحمامات بالرخام) ، وأخير حفارو الآبار والذين يصنعون دواليب السواقي والطواحين ، ثم صنف الجزارين والطباخين ، التجار وأهل السوق ، كما أشار لطائفة هامة لها علاقة بالناحية الصحية وهم الجراحون ( من الحكماء وصناع المعاجين والمحضرين للأدوية ) ، وصنف صناع أنواع الأسلحة (كالسيوف ونصال الرماح والسكاكين والبنادق وصناع البارود...) ، أما الصنف التالي فهم الخبازون ، ويذكر أوليا جلبي بأن عدد حوانيت بيع الخبز كان سبعون حانوتا فقط لكل سكان القاهرة . أوليا جلبي ، سياحتنامه مصر ، ترجمة محمد علي عوني ، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، 2003 ، ص 453 - 458.

(4) - عبد الكريم رافق : "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني" مقال سابق ، ص 30.

(5) - كان لكل حرفة في الفتوة شيخ مرشد ، وكان التمنطق بالمنزلة أحد المراسم الرئيسية في احتفالات التهاني لدى جماعة الآخية هو دليل على عملية لبس السروال وربط الشدة تحولت إلى مراسم تقام لمن بلغ في الحرفة مرتبة الأستاذية. أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ، ج1 ، مرجع سابق ، ص 723.

-يقع اختياره من كامل الشيوخ ويعلنون رضاهم به  
-يوافق القاضي والسلطان على تعيينه

يعين القاضي شيخ الحرفة بموجب عقد يتم تحريره بحضور زملائه الذين يمارسون نفس النشاط ، لكن لا يجب الاعتقاد هنا بأن القاضي هو الذي يتدخل في الاختيار، بل أن وظيفته تدخل في إطار تنظيم النشاط فقط في ظل وجود رغبة لدى زملائه، فقد حضر تجار مدينة حماة كلهم إلى القاضي " وذكروا للحاكم الشرعي ...أن سيدي محمد بن الحاج عبد الرحمان بن حيار مشهور بالاستقامة والصلاحية واللياقة في المشيخة على التجار، وكونه أحق بها وأهلها حق وصدق لا شك فيه ولا ريب يعتليه، وأنهم جميعا راضون منه، وشاكرون، لحسن سيرته ذاكرون، ولجميع الثنايا ناشرون ...فقرره مولانا الحاكم الشرعي.. في ذلك "، وأرسل الديوان الهمايوني يطلب الموافقة فأتى أمر شريف " أن حضرة أمير المؤمنين قد جعله شيخا على التجار المقيمين بسوق العدل بحماة ومتكلما عليهم يتعاطى ما كان يتعاطاه من تقدمت من مشايخ السوق ... " وهذا بعد أن تم التأكد من أنه " رجل مستقيم ودين، وقادر على ما عين له، لائق للمشيخة في السوق ... "(1) وليست القضية مقتصرة على مدينة واحدة فقط بل هي ظاهرة عامة لمدن بلاد الشام وسجلات المحاكم الشرعية لكل من مدن القدس (2) وحماة وطرابلس تزخر بالعديد من الأمثلة (3).

ومثلما يعين شيخ الحرفة برغبة وموافقة من زملائه في الحرفة مثلما يمكنهم إزاحته وهذا دائما بتقديم دعوى أمام القاضي، فقد رفعت طائفة الدباغين بطرابلس الشام دعوى على الحاج شحادة الملقب بعنتر الدباغ أمام القاضي بمجلس الشرع الشريف بطرابلس الشام بأنه " من أهل الشر والفساد والسعي بأضرار العباد وقد غمز عليهم وسعى بإتلاف أموالهم واضمحلال أحوالهم، وهو يسلط عليهم أعوان الظلمة "، فما كان من القاضي بعد اخبار جمهور العلماء والأشراف والأعيان وعوامهم إلا أن أصدر القرار بقتله " لما في ذلك من الراحة من شره لعامة المسلمين وهذا في أواخر صفر 1079هـ. "(4)

(1) -عبد الودود محمد يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات أو طوائف الأصناف في حماة في القرن السادس عشر " مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 19، الجزآن 1 -2، السنة 1969، ص85.

(2) - الحجة رقم 3، سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج1، ص 418.

(3) -ورد في إحدى سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس الشام: "بمجلس الشرع الشريف حضر كل من السيد...وبياقي أهالي الحرفة المزبورة، والتمسوا من الحاكم الشرعي أن ينصب أحمد الجرائحي شيخا عليهم، و أذن له أن يتعاطى خدمة المشيخة كما جرت بها العادات من غير تعد على الشرع ولا مجاوزة للقانون، وحرر ذلك أوائل شوال من سنة ثمانية وسبعين بعد الألف ". أنظر : نهدي صبحي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص130.

(4) -سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس الشام، سجل رقم 2، ص 96، نفسه، ص 267 -268.



أما في حالة الوفاة فإن معلمي الطائفة يقومون بالاتفاق على من يخلفه على أن يتم ذلك دائما عند الحاكم الشرعي الذي يقره في وظيفته.<sup>(1)</sup>

وتتلخص مهام شيخ الطائفة بالدرجة الأولى في :

أن يكون متكلماً عليهم، يحل مشاكلهم، ويشرف على تنفيذ اتفاقاتهم<sup>(2)</sup>، ويطلب من القاضي تسجيل هذه الاتفاقات، وتتصل الدولة بالطائفة عن طريقه<sup>(3)</sup> ويرفع شكاوي الطائفة على طائفة أخرى إلى القاضي بنفسه وبحضور بعض أبناء طائفته، ومدته غير محدودة طالما لم يوجد اعتراض من أبناء طائفته<sup>(4)</sup> بينما تبقى مسألة هل الشيخ يتقاضى مرتباً من طائفته ؟ محل أخذ و ردّ، بين من يرى بأن الشيخ يعيش -في الغالب - من عمله مع بعض الامتيازات التي تمتع بها<sup>(5)</sup>، وبين كونه يأخذ من أبناء طائفته مرتباً لقاء مشيخته للطائفة، وكمثال على ذلك ما جاء في الاتفاق المعقود بين أبناء طائفة المبيضين (الذين يقومون ببياض الأواني النحاسية، أي طليها بالقصدير) الذين كان عددهم بمدينة حماة سنة 1003هـ/1594م عشرة

(1) - جاء في إحدى وثائق المحكمة الشرعية لطرابلس الشام : " سبب تحرير هذا الترقيم الذي هو على النهج القويم هو أنه حضر بمجلس الشرع الشريف ومحل الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية أجله الله تعالى لدى متولي مولانا وسيدنا أعلم العلماء الأعلام تاج الموالى العظام المولى الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم بأعاليه دامت فضائله ومعاليه وحسنت أيامه ولياليه، كل من الأستاذ محمد بن عبد الرحيم، والأستاذ أحمد بن محمد العنبرة، ومحمد بن علي، وجويد بن الحاج رمضان، والشيخ محمد بن الشيخ أحمد، وحسين بن مصطفى، ورجب ضوبر، والأستاذ محمد الحلبي، وباقي طائفة العقادين بطرابلس، وقرروا أن شيخهم السابق المدعو بالحاج محمد الحلبي قد انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى، وأنهم اختاروا من بينهم الأستاذ علي بن سفر الوججي باشي بقلعة طرابلس المحمية، والتمسوا من الحاكم الشرعي المشار إليه أجرى الله الخير على يديه أن ينصبه شيخاً عليهم فأجابهم إلى ملتسمهم ونصبه شيخاً ومتكلماً على أهالي الطائفة المزبورة على السنن المعتادة سالكا بذلك تقوى الله في السر والعلانية، نصبا وإذنا شرعيين مقبولين من الأستاذ علي المذكور القبول الشرعي وجاها وشفاها، وجرى ذلك وحرر في شهر ربيع الأول الأنور من شهور سنة تسع وسبعين وألف" خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2017، ص 135.

(2) - كانت طائفة القصابة من الطوائف الهامة في مدينة حماة ضمت سنة 949هـ/1542م ستاً وعشرين حرفياً موزعين على أحياء حماة اثنان منهما من اليهود، وكانوا يشترون الأغنام مشتركين ثم يتوازعونها فيما بينهم كل حسب حاجته، وقد اتفقوا مع بعضهم أمام القاضي أن يسافر بعضهم لجلب الغنم، ويبيع الباقيون اللحم في دكاكينهم، كما تعاهدوا أمام المحتسب أن يكفل بعضهم بعضاً، في كل ما يترتب على بعضهم من حقوق، وكان من أهم اتفاقاتهم أن يتعهدوا جميعاً ببيع اللحم وتقصيله من الصباح إلى المساء دون انقطاع، كما كانوا يذبحون أغنامهم في دكاكينهم، وقد حاول مرة شيخ الحرفة اجبارهم على الذبح في مسلخ واحد، فاشتكوا إلى القاضي الذي أمر بإبطال هذه البدعة و أجاز لهم أن يذبحوا أنى شاؤوا. عبد الودود محمد يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات ..." مرجع سابق، ص 89.

(3) - يتصل البكركي بأبناء الطائفة عن طريق هذا الشيخ. أنظر: سيار جميل، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، ط1، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1997، ص 86.

(4) - عبد الودود محمد يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات" مرجع سابق، ص 86.

(5) - عبد الكريم رافق : "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام" مرجع سابق، ص 36.

معلمين وصناع بحمة، وقد اختاروا بالإجماع شيخا عليهم ورضوا بأن يعطوه 3/1 (ثلث) أرباحهم مقابل مشيخته.<sup>(1)</sup>

## ب - شيخ مشايخ الحرف :

يتم تعيين شيخ مشايخ الحرف بإجماع من الشيوخ ورؤساء الحرف ويقوم القاضي بتحرير وثيقة عند مجلس الشرع الذي يمثله القاضي<sup>(2)</sup>، ونجد في المدن التجارية مثل حلب وطرابلس وحمة بأن شيخ التجار يتقدم على سائر مشايخ الحرف الأخرى<sup>(3)</sup> على الرغم من الاشارات التي توحى بأن عمله في بعض الأحيان لم يكن مهنيا بقدر ما كان شعائريا يتعلق بالإشراف على اقامة الاحتفالات والطقوس الرمزية بين أعضاء الحرف على حد تعبير المحبي.<sup>(4)</sup>

## مهام شيخ مشايخ الحرف:

كانت مهمة رئيس الحرف الاشراف على طوائف الحرفة ومشايخها وهو صلة الوصل بين الحكام وهذه الطوائف، ولا يتم أي تغيير فيها إلا بعلمه ورأيه، وكان مشايخ الحرف كلهم ينتخبون بحضوره ويزكون بتزكيتهم<sup>(5)</sup> وإذا حدث أن اشتكت طائفة من الطوائف عليه أي سحبت ثقتها فيه فإنه يترك المشيخة خاصة إذا

(1) - عبد الودود محمد يوسف، المرجع السابق، ص 95.

(2) - جاء في وثيقة تعيين السيد علي بن السيد في منصب مشيخة آخي بابا في طرابلس سنة 1090 هـ : " هذه حجة شرعية يعرب مضمونها أنه بمجلس الشرع الشريف ومجلس الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية ...لدى متولي مولانا وسيدنا أعلم العلماء الأعلام....حضر كل من أحمد جلبي شيخ حرفة التجار، والحاج منصور شيخ حرفة البوابجية، والدرويش علي بن منصور نقيب الحرفة المزبورة، ومحمد بن بشة وأخيه من أهالي الحرفة المرقومة، والأسطى مرعب بن أحمد شيخ حرفة الخياطين والأستاذ محمد بن علي شيخ حرفة العقادين، والحاج حسن شيخ حرفة الخلاقين، ومحمد بن جمال الدين شيخ حرفة الأساكفة، وأحمد بن محمد شيخ حرفة الخبازين، والسيد يوسف بن مصطفى شيخ حرفة الدباغين وغيرهم من أهالي باقي الحرف والصناعات بطرابلس الشام وقرروا جميعا وأفرادا بأن فخر السادات الكرام السيد علي بن السيد جمال آخي بابا سابقا كان هو وأبوه وجده من قبله كانوا يتعاطون خدمة الباباتية، وأنه قادر على تعاطيها ولايق (لائق) بها وقيام (قائم) فيها لكونه صحيح النسب بين الأشراف ويعامل أهل الحرفة المرقومة بالعدل والانصاف ويعد نفسه كأحدكم فلا يتكبر عليهم، وإذا دعاه أهل الحرفة للإصلاح فيذهب إليهم ويقنع منهم بما أعطوه.... وطلبوا من الحاكم الشرعي أن يقرره في خدمة آخي بابا ومشيخة السبعة.... فقرره بها وأذن له بتعاطيها سالكا بذلك تقوى الله تعالى فيها وفيهم...."سجلات محكمة طرابلس الشرعية، سجل رقم 2، ص 345، نقلا عن نهدي صبحي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال سجلات المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص ص 305 - 306.

(3) - عبد الودود محمد يوسف برغوث، المرجع السابق، ص 85.

(4) - يذكر المحبي بأن السيد محمد بن محمد السيد الشريف كمال الدين بن عجلان الدمشقي الميدان الشافعي شيخ مشايخ الحرف الرفاعي الطريقة كان من السادة أهل الصلاح والسكون صحيح النية حسن الأخلاق، وربما كان يأكل من كسب يمينه ونسج الحرير، وكان يقيم الذكر في زاويتهم يوما في الأسبوع، وكان كريما سخيا عاقلا كاملا قليل الاختلاط بالناس....وشيوخ المشايخ هو الذي يعقد "الشدة" والعهد لأهل الصناعات. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج 4، مصدر سابق، ص ص 144 - 145.

(5) - نفسه، ص 86.

كانت الطائفة كبيرة ومهمة، فقد اضطرت طائفة السمانية بحماة شيخ مشايخ الحرف أو شيخ سوق حماة إلى الاستقالة سنة 1000هـ/1591م بعد شكواها عليه.<sup>(1)</sup>

### ج - الطائفة الحرفية أو الصنف :

يخضع التعليم الحرفي إلى تراتبية دقيقة من الأدنى إلى الأعلى أي من الصبي المبتدئ إلى الصانع المدرب إلى المعلم المتمرس والخبير،<sup>(2)</sup> وعلى هذه القاعدة كانت الترقية تجري في أجواء مميزة وفق مراسم خاصة وشروط محددة، حيث يشترط عند الارتقاء من درجة إلى درجة أعلى أن تتوفر في المترشح العديد من الشروط الأخلاقية والمهنية، وأن تتم تزكيتة من طرف معلمي الصنعة لدى شيخ الحرفة الذي يدعو جميع صناع الحرفة وأساتذتها إلى حفلة خاصة تجري وفق مراسيم خاصة تسمى بالشّد،<sup>(3)</sup> حيث يشد من سيرقى إلى رتبة أعلى بحزام خاص، وخلال الحفلة يقدم شيخ الحرفة جملة من النصائح التي ترسم طريقه مستقبلاً،<sup>(4)</sup> ثم يوجه خطابه لأهل الصنعة سائلاً إياهم : هل يستطيع أن يكون هذا المشدود صانعاً ؟ فيجيبوه بالإيجاب، ثم يمسكه معلمه بيده ويقول له : عاهدني بعهد الله ورسوله أن لا تخون أهل الحرفة ولا تغش الصنعة، فيعاهده، ثم يهنئ الجميع الصانع الجديد، وتوزع الهدايا التي جلبها على الحاضرين، ويتناول الجميع طعاماً مهيباً لهم،<sup>(5)</sup> ويتدرج هؤلاء من المحارفي المبتدئ إلى الصانع إلى المعلم، وقد حدد القاضي أجور العاملين في البناء فقال : أجر المعلم : خمس قطع، وللصانع مع المحارفي ثلاث قطع.<sup>(6)</sup>

### المبتدئ أو الأجير :

يأتي في أسفل السلم المهني، يستخدم من طرف المعلم بموجب عقد رسمي<sup>(7)</sup>، ويتعلم المحارفي المبتدئ (أو الأجير)<sup>(1)</sup> صنعته سواء بالانضمام إلى معلم يخدمه ويتعلم المهنة منه وتطول المدة وهو يتعلم بهذا

(1) - عبد الودود محمد يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات ..." مرجع سابق، ص 100

(2) - وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1988، ص 48.

(3) - حفلة الشّد هي حفلة ترفيع المستوى: المبتدئ إلى الصانع أو الصانع إلى معلم وهي تلخص في المجلد وعبر من يحضرها من شيخ الحرفة ومن معه، ومن أهالي الحي والأقارب وأهل الحرفة، ومن أمثلة ذلك ربط المحزم في وسط المشدود (الحرفي الذي تجري ترقيته). نفس المرجع، ص 48.

(4) - ورد في إحدى النصائح من شيخ الحرفة : "يا بني إن الحرف أمانة على الأموال والأعراض والأرواح، والأمانة هي الدين، فإذا راج عملك فاحفظ دينك، كن صادقاً وأميناً، وإياك أن تخون أبناء حرفتك لأن الخائن سوف يجازيه الله يوم القيامة". عبد الودود محمد يوسف : "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص 87.

(5) - نفس المرجع، ص 87.

(6) - نفسه، ص 86.

(7) - استأجر محمد الحلبي الطباع لدى القاضي الشافعي بدمشق ابن أخيه البالغ عبد الرحمن فأجره على نفسه بإذن الحاكم ليشغل عنده في صناعة الطباعة لعقدين كاملين، مدة كل واحد منهما ثلاث سنوات، تبدأ في يوم العقد، وكان أجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضية مصرية

بهذا الشكل ، وفي أثناء ذلك يحصل من معلمه على أجر ضئيل<sup>(2)</sup> ، غير أن هناك طريقة مغايرة وهي أن يدفع هو للمعلم مالا محدودا مقابل أن يتعلم صنعة معينة يتقنها بعد مدة محددة متفق عليها<sup>(3)</sup>.

### الصانع:

أما الصانع فهو الذي أتقن صناعته لكنه لم يصل بعد إلى درجة المعلم بمهارته أو غناه أو امكانية فتح دكان خاص يعمل به ، وهو يعمل مع معلمه وفق اتفاق خاص يبين فيه أجره والمدة<sup>(4)</sup> التي سيعمل بها لدى معلمه.<sup>(5)</sup>

أما من حيث العدد ، فإن الصنائع يمثلون العدد الأكبر في الحرفة إذا ما تمت مقارنتهم بأعداد المعلمين أو الأجراء ، وكانوا هم الأساس في الحرفة ، وتقاضوا على ما يقومون به أجرا ، وبما أن الصانع الذي يرتقي إلى رتبة معلم يمكنه فتح دكان أو مشغل خاص به فإن بعض المعلمين قد حاولوا تأخير ترقيةهم إلى رتبة معلم حتى يتحاشوا المنافسة لهم.<sup>(6)</sup>

---

، أربع منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من مأكوله ومشروبه وزينته وسائر لوازمه التي لا بد منها ، والمصريتان الباقيتان تدفعان إلى عبد الرحمن ، وتم العقد بحضور عبد الرحمن. عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي" ، مرجع سابق ، ص 37.

(1) - وهو من استأجرته على عمل أو أعمال بمدة معلومة بأجرة معلومة ، وكل من اشتغل عند معلم تحت يد صانع ، يقال له أجير. محمد سعيد القاسمي ، قاموس الصنائع الشامية ، تحقيق ظافر القاسمي ، ط 1 ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، سوريا ، 1988 ، ص 35.

(2) - من أمثلة ذلك أن السيد محمد الحلبي الطباع استأجر لدى القاضي الشافعي بدمشق ابن أخيه البالغ ، عبد الرحمان ، فأجره نفسه بإذن من الحاكم ليشغل عنده في مهنة الطباعة لعقدين كاملين ، مدة كل منهما ثلاث سنوات تبدأ من يوم العقد ، وكان أجر عبد الرحمان اليومي ست قطع فضية مصرية : أربعة منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمان من مأكله ومشربه وزينته وسائر لوازمه التي لا بد منها ، و القطعتان المتبقيتان تدفعان إلى عبد الرحمان ، وتم العقد بحضور والد عبد الرحمان . عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص 37.

(3) - أوردت سجلات المحكمة الشرعية في حماة لسنة 979هـ/1571م أن المسمى عبد الوهاب بن أحمد بن البكش اتفق مع معلم وشركائه كي يعلموه صنعة سبك النحاس من صنف قدور الحمامين وقدور المصابين مقابل تسعة عشر سلطانيا ذهباً قدمها لهم . عبد الودود محمد يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصنائع في حماة" ، مرجع سابق ، ص 87.

(4) - ليس من المعلوم ما إذا كانت هناك مدد زمنية لا بد للصانع أن يلتزم بها قبل أن يرتقي إلى مرتبة الأستاذ أو المعلم ، أم أن إجادته المهنة بقطع النظر عن المدة هي وحدها الكفيلة بأن تسمح له بالانتقال إلى المرتبة العليا. عبد الكريم رافق ، مرجع سابق ، ص 36.

(5) - كمثال على ذلك : اتفق الأستاذ محمد العجمي المطافجي سنة 979هـ/1571م مع أحمد بن صاروباشي على أن يعمل معه خمس سنوات في صنعة المطاف (وهو نوع من القطر يدخل في استعمال مختلف الحلويات الشعبية) بأجر قدره خمسون سلطانيا ذهباً ، كما اتفق حائك مع صانع ليعمل عنده و لمدة ثلاث سنوات متواليات في صنعة الحياكة بأجرة قدرها ستمائة درهم حلبي ، ويقدم له أجرة كل شهر في آخره خلا عما يحتاج إليه من الكسوة والنفقة ، أسوة بأمثاله. عبد الودود محمد يوسف برغوث ، المرجع السابق ، ص 87.

(6) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي" ، مرجع سابق ، ص 36.

### المعلم أو الأستاذ:

يتمتع المعلم أو الأستاذ<sup>(1)</sup> بأهمية كبرى في المراتب المهنية وضمن الطائفة الواحدة، فهو الذي أتقن الصنعة تماما وتوفر لديه ما يكفي من المال لفتح دكان خاص به يمارس فيه صناعته، ويعمل فيه الصانع والأجراء، وقد يرتقي المعلم إلى شيخ حرفة أو يصبح شيخ مشايخ الحرف كلها.

### 3 -أنواع الطوائف الحرفية :

لم يكن عدد الطوائف الحرفية متساويا بين مدن بلاد الشام وذلك بسبب اختلاف كل مدينة عن الأخرى من حيث نوعية نشاطها الاقتصادي سواء على الصعيد المحلي أو الدولي، ففي مدينة حماة نجد بأن عدد الطوائف الحرفية يناهز السبعة والستين طائفة،<sup>(2)</sup> وفي طرابلس نحو اثنتين وستين طائفة<sup>(3)</sup> وزاد العدد في دمشق وحلب،<sup>(4)</sup> وتتميز حلب بوجه خاص بعدد الطوائف وتنوعها وتفرعاتها<sup>(5)</sup> نظرا لتنوع نشاطاتها الاقتصادية وغناها<sup>(6)</sup>، كما أن بعض الطوائف لم تستمر طويلا وانقرضت أو تضاعل شأنها بتناقص الحاجة لمنتجاتها،<sup>(7)</sup> وبعضها ازدهرت وكثرت وبالتالي تفرعت عنها طوائف جديدة.<sup>(8)</sup>

تنوعت الطوائف الحرفية من حيث اختصاصها فمنها ما كان ميدانه التجارة ومنها ما اتجه نحو الصناعات الغذائية<sup>(9)</sup> أو النسيجية<sup>(1)</sup> أو المعدنية<sup>(2)</sup> أو الخشبية<sup>(3)</sup> أو صناعة الأسلحة<sup>(4)</sup> إضافة إلى مهن مختلفة مختلفة متنوعة.<sup>(5)</sup>

(1) - تنطق أستاذ أو أستاذ وهي طلمة فارسية الأصل حورت أحيانا إلى كلمة أسطه، كما أشير إليه بكلمة معلم العربية. عبد الكريم رافق، نفسه، ص 36؛ خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 135.

(2) - عبد الودود يوسف: "طوائف الحرف والصناعات" مرجع سابق، ص 88 - 102.

(3) - خالد زيادة، المرجع السابق، ص 134.

(4) - تم احصاء نحو مائة و ثلاث و ستين طائفة خلال القرون السابع عشر و الثامن عشر و التاسع عشر الميلادية بحسب ما ذكر في سجلات المحاكم الشرعية. رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام" مرجع سابق، ص 32.

(5) - كثيرا ما تعرضت الطائفة الواحدة إلى الانقسام والتفرق، وبالتالي تنشأ عنها أكثر من طائفة، فقد كانت طائفة البقسماطية في مدينة حماة خلال القرن السادس عشر (التي كانت تصنع كعكا على شكل ألواح الصابون) تشكل طائفة واحدة مع الخبازين إلا أنهم انفصلوا عن بعضهم و اتفقوا: (أن كلا الفريقين لا يختلط بالفريق الآخر..وأن كلا منهما يعمل صناعته على جاري العادة من غير تعرض للآخر). عبد الودود محمد يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات..." مرجع سابق، ص 88.

(6) - رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي" مرجع سابق، ص 30.

(7) - حين شاع استخدام القوالب في صنع الطواقي أو الطرابيش في دمشق ظهرت طائفة الطواقية في مطلع القرن الثامن عشر لكن في نفس الوقت أدى ذلك إلى اندثار ثلاث طوائف حرفية كانت موجودة من قبل هي طائفة الطواقي الزربا وطائفة الزربانية وطائفة طواقي المخمل. نفس المرجع، ص 31.

(8) - نفسه، ص 31.

(9) - تضم: طائفة الخبازين - طائفة الكعيكاتية و البقسماطية - طائفة دقاقي الطحين - طائفة القصابين - طائفة الكبوديين (بائعو الأكباد و الكلى و القلوب) - طائفة الحمصانية (يطبخون الحمص و الفول و يبيعونه) - طائفة المعصرانية - طائفة الحلاونة (يصنعون أنواع الحلوة

هناك من الطوائف الحرفية من اختص بالإنتاج مثل طائفة القطنان التي تعمل في حلج القطن وقد تجاوز عدد دكاكين حلج القطن بحماة المائة،<sup>(6)</sup> أو طائفة الحياك والتي شكلت أكبر طائفة صناعية في حماة حيث احتوت المدينة على أكثر من ثمانمائة نول حياكة موزعة في أنحاء المدينة وتحولت هذه الطائفة أنسجة القطن والصوف والحرير<sup>(7)</sup> وهناك من اختص بالتسويق كما هو الحال بالنسبة لطائفة التجار التي كانت أقوى طائفة

(الشعبية) - طائفة الكنفاتية (يصنعون كافة أنواع المعجنات و الحلويات) طائفة الزلبانية ( يصنعون الزلاية) طائفة المطافجية أو النطفجية) يصنعون الناطف و هو قطر أبيض مطبوخ من مزيج من السكر و بعض المواد العطرية و يدخل في صنع معظم أنواع الحلويات الشعبية) - طائفة الأقساميين (يصنعون الأقسام و هو نوع من المثلجات الحلوة) - طائفة الحمارين ( و يصنعون الخمر و كانوا من اليهود والمسيحيين ) - طائفة صانعي النشاء - طائفة القضماني (يصنعون و يبيعون مختلف أنواع المسليات) - طائفة العلافين ( يبيعون الأعلاف) عبد الودود محمد يوسف برغوث : " طوائف الحرف و الصناعات ... " مرجع سابق ، ص ص 88 - 91 .

(1) - وتضم : طائفة القطنان ( العاملون في حاج القطن) - طائفة الصوافين - طائفة الغزالين - طائفة الحياك ( يشكلون أكبر طائفة حرفية بحماة و يحول هؤلاء أنسجة القطن و الصوف و الحرير ، كما يحكيون العبي و الشال و الفوط التي كثيرا ما استخدمت في الاحرام في موسم الحج و كانت آتخذ من أشهر الفوط لدى حجاج بيت الله الحرام) - طائفة الخوام (ويتاجرون بالخام في السوق) - طائفة الصباغين - طائفة القصارين (يقومون بإزالة ما يعلق بالأقمشة البيضاء من أوساخ وألوان حين حياكتها) - طائفة الدقايق (يقومون بكبي الأقمشة بطرقها بمطارق خشبية عريضة مصفحة و يتجمع هؤلاء في سوق الدقايق بحماة) - طائفة الخياطين - طائفة الحبالين ( صانعو الحبال) - طائفة الشعارين (يصنعون الحبال و البسط والخيام) عبد الودود محمد يوسف برغوث ، نفسه ، ص ص 91 - 93.

(2) - ضمت كلا من : طائفة الصياغ (يذكر يوسف بن عبد الهادي أنهم كانوا في دمشق على صنفين : الجوانية وبيع فيها الزلّو والجوهر وغير ذلك ، والبرانية يعمل فيها الخواتم والأساور وغير ذلك مما يباع. نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، ص 22) - طائفة الحدادين - طائفة المساميرية - طائفة النحاسين - طائفة الأهوانية ( يقومون بسبك قدور الحمامات و قدور معامل الصابون) - طائفة المبيضين ( يقومون ببياض الأواني النحاسية و هذا بطلائها بالقصدير .عبد الودود محمد يوسف برغوث : " طوائف الحرف و الصناعات ... " ، ص ص 93 - 95.و يشير يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد إلى وجود سوقين للحدادين في دمشق : واحد باب الجابية والثاني بالشاغور. أنظر : نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق (بدمشق) ، تحقيق حبيب زيات ، مجلة المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، الأعداد 1 - 2 - 3 ، سنة 1939 ، ص 24 .

(3) - طائفة النجارين - طائفة نجاري الصمودية ( ينجرون ما يحتاجه الفلاح من أدوات زراعية ) - طائفة نجاري النواير - طائفة الخراطين - طائفة الخطابين - طائفة النشارين - طائفة الفحامين .عبد الودود محمد يوسف برغوث ، مرجع سابق ، ص ص 95 - 96.

(4) - طائفة الخنجارية و السيوفية - طائفة الأساورية ( الذين يصنعون قرابات السيوف و الخناجر من قرون الجواميس وقبضات الخناجر) - طائفة البارودية - طائفة الأفواسية - طائفة الوتارين . عبد الودود محمد يوسف برغوث : " طوائف الحرف و الصناعات ... " مقال سابق ، ص 99.

(5) - طائفة الدباغين - طائفة الحوارين (صانعو الحور أي دابغي جلود الغنم و الماعز ، وقد انفصلوا عن طائفة الدباغين ) - طائفة الأساكفة - طائفة الزراميزية ( يصنعون الزراميز أي الأحذية الخفيفة و كان الحور أساس مهنتهم) - طائفة الفرائين (صانعو الفراء و يستخدمون جلود الأغنام مما أدخلهم في نزاع دائم مع الدباغين و الحوارين الذين يحتاجون إلى نفس الجلود) - طائفة السراجين (يصنعون سروج كل دواب الركوب) - طائفة البرادعية (يصنعون برادع حيوانات الركوب) - طائفة البيطرة - طائفة المنجدين (يصنعون كافة أمواع المفروشات) - طائفة البنائين - طائفة العطارين - طائفة المصابنة - طائفة السمانة - طائفة القاشانيين (يصنعون الخزف تحت الطلب) - طائفة الفخارين - طائفة الصيارفة (كانوا يميزون النقد الزائف من الصحيح) - طائفة المكارين أو الجمالين (كانوا يقودون القوافل عبر الآفاق و يحملون على جمالهم أحمال البضائع المختلفة) - طائفة الحمامية (العاملون في الحمامات) - طائفة الغرابلية (يصنعون الغرابيل) - طائفة الدالين و السماسرة - طائفة الوزانين أو القبانين . عبد الودود محمد يوسف برغوث ، نفسه ، ص ص 96 - 102.

(6) - نفسه ، ص 91.

(7) - نفسه ، ص 92.

في حماة كما كان شيخها هو شيخ مشايخ الطوائف الحرفية كلها بالمدينة ، وكان التجار يبيعون الأقمشة بأنواعها المختلفة القطنية منها والحريرية والصوفية والكتانية ، سواء المصنوعة في حماة أو القادمة من مصر أو التي يتم جلبها من أوروبا<sup>(1)</sup> وهناك قسم ثالث مزج بين العاملين معا مثل دقاقي الطحين في حماة حيث كانوا يبيعون الطحين ويقومون بتوزيعه على الخبازين ، كما كانوا يشترون كميات الحنطة من السوق ويتقاسمون بها وفق حاجة كل منهم ، وقد تعهدوا أمام القاضي بعد حدوث أزمة دقيق في البلد ( أن كل واحد منهم يعمل في دكانه خمس فردات<sup>(2)</sup> طحين ويسد الذي عليه من الخبازين وغيرهم من أهل البلد وإلا يعمل معه السياسة بمعنى العقوبة) وكان عدد هذه الطائفة سنة 1580م أربع عشرة حرفيا.<sup>(3)</sup>

ضمّت بعض الطوائف الحرفية أكثر من مهنة وهذا نظرا لتكامل بعض الحرف أو لاعتماد حرفة على أخرى أو للاشتراك في دفع الضرائب،<sup>(4)</sup> كما كانت بعض الطوائف الحرفية مختلطة بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكان لكل من تلك الطوائف شيخ للحرفة ، كما يحصل أن يكون لحرفة واحدة متكلمان أو شيخان ، ولم تكن الحرف معزولة عن بعضها بل قامت علاقات بينها وبين حرف متشابهة أو متكاملة خصوصا إذا كان عدد الطائفة ضئيلا أو محدودا.<sup>(5)</sup>

إذا ما وجدت طائفة على أساس مذهبي مثل طائفة اليهود العطارين بمدينة حلب اشترك شيخ طائفة العطارين وممثلون عن أعضائها على اختلاف مذاهبهم في اقتراح تعيين ( يكييت باشي)<sup>(6)</sup> على طائفة اليهود العطارين هذه.<sup>(7)</sup>

(1) -عبد الودود محمد يوسف برغوث : طوائف الحرف والصناعات، المرجع السابق، ص 88.

(2) -الفردة : بفتح الفاء و سكون الراء و هي كثيرا ما تستعمل في تجارة البن ، و هي : " الباله" و تزن 185 كلف .محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ، ط 1 ، دار الشروق ، القاهرة ، 1993، ص 425 .

(3) -عبد الودود محمد يوسف برغوث ، المرجع السابق ، ص 89.

(4) -اتفق أفراد طائفتي الحماميين وطائفة الحلاقين بحلب بتاريخ 28محرم 1055هـ/26 مارس 1645م على كيفية تنظيم العمل بينهما كما اتفق أفراد طائفة الأبارين (صانعو الإبر) مع أفراد طائفة المدادين للشريط ، كما اعتاد أفراد طائفتي البقالين و الخضرية على اقتسام القطين الذي يجلب إلى حلب بالتساوي . عبد الكريم رافق : مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام" مرجع سابق ، ص 40.

(5) -خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية، مرجع سابق، ص 136.

(6) -اليكييت باشي : الكلمة مشتقة يكييت التركية و تعني الفتى ، أي الرجل الأخلاقي الشريف الكريم ، وباشي وتعني الرئيس. عبد الكريم رافق : " مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام" مقال سابق ، ص 38 ، (هـ) جب و (هـ) بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ج 1 ، ص 396.

(7) -رافق ، نفسه ، ص 43.



#### 4 -وظائف الأصناف الحرفية:

أدت طوائف الحرف دورا محوريا في المجتمع خاصة في تنظيم علاقات السكان بعضهم ببعض ومع الحكومة، فقد كان شيوخ الطوائف أو الأصناف بإمكانهم أن يشكلوا ضغطا على الحكام بطريق غير مباشر وهذا من خلال استغلال علاقاتهم مع هؤلاء خاصة في مجال التجارة<sup>(1)</sup>، فكثيرا ما خطب هؤلاء الحكام ودّهم وتمكنوا من توفير قليل من الحماية للسكان من أعمال الطغيان التي كانت تصدر من حين لآخر من بعض هؤلاء الحكام.<sup>(2)</sup>

#### أ - في الجانب الاقتصادي:

كانت الطوائف الحرفية تمارس نظام رقابة ذاتية تتعلق بنوعية الانتاج، ومراعاة الأسعار، وحقوق بعض الحرفيين على بعضهم، وكان قيام أحد شيوخ الطائفة الحرفية بمحابة عضو من الطائفة على حساب الآخرين، أو الإقدام على تصرف غير مشروع مع الإصرار على ذلك رغم إخطار أعضاء الطائفة له إنما يشكل سببا كافيا لقيامهم بتقديم شكوى للقاضي مطالبين بعزله، وعندئذ كان للقاضي -إذا ثبت لديه الأمر -أن يعزله من وظيفته.<sup>(3)</sup>

كان شيوخ الطوائف الحرفية يكفلون بعضهم البعض في التعهد بعدم التدني بدرجة الجودة في السلع وتجنب البيع بأسعار تفوق ما حددته الدولة، وكذلك تجنب المنافسة غير العادلة، وفي حال تهادى البعض في تصرفاته يستدعى للمثول أمام القاضي.

تحكمت الطوائف الحرفية في نوعية الانتاج ومواصفاته وجودته وأجرته وأسعاره، ففي مطلع القرن السابع عشر اتفق أعضاء طائفة الحريرية في حلب على انتاج نوعين من الأثواب المعروفة بالعتايتية كل نوع بمواصفاته، وإذا ثبت غش أحد الصناع يتعرض للعقوبة حسب الشرع وبمعرفة شيخ طائفة الحريريين أو من يقوم مقامه ولا يكون للمحتسب دخل في ذلك<sup>(4)</sup>، كما حدثت اتفاقات مختلفة بين أفراد أكثر من طائفة في الالتزام النتوج ومحاربة كل أنواع الغش.<sup>(5)</sup>

(1) - كثيرا ما كان بعض الموظفين الكبار مشاركين في النشاط التجاري خاصة في مطلع القرن السابع عشر. أنظر: صبحي نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس، مرجع سابق، ص 106.

(2) - (هـ) جب (هـ) بون، المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ج 2، ص 116.

(3) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية، ج 1، مرجع سابق، ص 728.

(4) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 44.

(5) - حدث أن اتفق شيخ طائفة الحريريين في حلب في مطلع القرن السابع عشر رفقة شيخ طائفة العقادين مع شيخ طائفة الفتالين للحرير الشطي الشطي والأبلى و البلدي على أن الحرير الذي تفتله الطائفة الأخيرة تكون أجرته قرشين لكل ألف درهم، وإذا صبغ الحرير باللون الأزرق بعد القتل يصبح وزن المائة درهما بعد الصبغ ستة وسبعون درهما، وإذا أصبح الوزن أقل من ذلك يكون الحرير مغشوشا بالزيت ويؤخذ النقص من



تبدو النقابات العثمانية أساسا كتنظيمات أنشأتها الحكومة المركزية للإشراف على الحرفيين و فرض الضرائب عليهم، ولكن هذا ليس معناه التقليل من استقلالية هذه الطوائف الحرفية، على الرغم من ذلك يعتقد البعض في ارتباط هذه النقابات بالحكومة من خلال حضور ممثل عنها في حفل التخرج الذي تقيمه هذه النقابات وعادة يكون من الدراويش أو الأشراف أي حضور المبادئ الدينية والأخلاقية.<sup>(1)</sup>

في القرن السابع عشر أصبح هناك تمييز بين بعض الأعمال التي وصفت بالمحترمة والبعض الآخر المرتبطة بالسمعة السيئة، كما أن هناك اعتبارات تحدد المكانة التي قد تتمتع بها إحدى الحرف فدباغة الجلود وعصر الزيتون تؤدي إلى فقدان المكانة الاجتماعية،<sup>(2)</sup> كما أن هناك النشاط المرتبط بصياغة الذهب التي تعتبر مريبة من وجهة النظر الدينية<sup>(3)</sup> وكان من المهم أيضا إذا كان أهل الحرفة من الأغنياء أم من الفقراء، لذلك كانت حرفة تجارة المنسوجات مهنة مشرفة.

كانت المواد الخام التي يستعملها أفراد الطائفة الواحدة أو أحيانا تشترك عدة طوائف في نفس المادة يتم شراؤها بشكل جماعي ويقوم شيخ الطائفة بتوزيعها على أهل الحرفة بما تتحمله حالهم، فقد اتفقت طائفة القصابين في حماة سنة 949هـ/1542م أنهم يشترون الأغنام مشتركين ثم يتوازعونها فيما بينهم، كما اتفقوا أمام القاضي أن يسافر بعضهم لجلب الأغنام بينما يبيع الباقون اللحم في دكاكينهم، وتعاهدوا كذلك أمام المحتسب أن يكفل بعضهم بعضا في كل ما يترتب عن ذلك من حقوق<sup>(4)</sup>، كما كان أفراد طائفة المعصرانية بحماة والذين يقومون بعصر السمسم لاستخراج زيت السيرج منه والطحينة يشترون جميع كميات السمسم المعدة للعصر والواردة إلى السوق ويتقاسمونها فيما بينهم<sup>(5)</sup>، ونفس الشيء يفعله أفراد

---

الفتلا الذي قتله و يعامل بما يستحق من الاهانة و التحقير، كما اتفقت طائفة الحياك في نفس المدينة أي يكون طول الفوط ثلاثة أذرع إلا ربعا وعرضها ذراعان إلا ربع ذراع، وأن يكون اعتبار ذراعها بعد بلها بالماء وجفافها، ومن خالف يتعرض لأنواع العقارة، وأضاف = طائفة الغرابلية في حلب أن الذي يثبت عليه الغش في صناعته -إلى جانب تحقيره- أنه يغرم بألف عثمانية لجهة وقف الجامع الأموي الكبير بحلب. نفس المرجع، ص 44.

(1) - خليل ابنجليك، بالتعاون مع دونالد كواترت، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 269.

(2) - لكن هل كان ذلك يؤدي إلى وصول أصحابها إلى حالة التهميش أو الاسكان حتى خارج أسوار المدينة كما كان سائدا في أوروبا. جاك لوغوف (إشراف) التاريخ الجديد، المنظمة العربية للترجمة، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، ط 1، بيروت 2007، ص 448.

(3) - المرجع السابق، ص 76.

(4) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة" مرجع سابق، ص 89.

(5) - نفسه، ص 90.

طائفة الصباغ وكانوا في مدينة حماة كلهم من المسيحيين واليهود واتفقوا أنهم يدفعون الرسوم متساوين كما يستلمون النقود الموزعة من الدولة على الأسواق والواردة من ضربخانة<sup>(1)</sup> حلب ويتقاسمون بالتساوي.<sup>(2)</sup>

كثيرا ما كان عمل الحرفيين فرديا رغم ما رأينا من اشتراكهم في شراء المادة الأولية لاستعمالاتهم، ونادرا ما لجأوا إلى الشركة فيما بينهم، ومثال ذلك ما اتفق فيه أفراد طائفة صباغي الحرير الملون بدمشق<sup>(3)</sup> على أن الحرير الذي يأتيهم للصبغة يصبغونه بطريق الشركة، ثم يقتسمون الأجرة فيما بينهم، لكنهم سرعان ما عدلوا عن ذلك وتراجعوا عما اتفقوا حوله دون ذكر الأسباب وقرروا بدلا من ذلك أن يشتغل كل منهم على حدة، ومهما حصل لأحدهم من أجر يتناوله لنفسه<sup>(4)</sup> ويستنتج من خلال الأحكام التي يصدرها القاضي في مثل هذه القضايا أن مسألة الفردية أمر شجعته الأنظمة الحرفية، فقد طلب القاضي من طائفة المخومين للسروج (الذين يعملون السروج من جلد الجمال) أن يشتغل كل واحد منهم في دكان مستقل ولا يشتركون في العمل لأن فيه ضررا للمسلمين على حسب تعبير القاضي<sup>(5)</sup> وهذا يتماشى مع سياسة الدولة العثمانية عموما في حماية المستهلك أو الزبون بحيث لم يكن يسمح ببيع السلع أو أداء الخدمات بأعلى ما يتم تحديده، بينما ترك لهم حرية البيع بأقل من ذلك إن أرادوا، لكن ذلك لم يكن بالأمر الشائع باعتبار أن دكاكين الحرفيين عادة ما تكون متجاورة وفي نفس الحي أو الشارع، فكان فرض التسعيرة يستهدف بوجه خاص منع الإساءة في حقوق الاحتكار للطائفة ككل أكثر من كونه موجها ضد رفع الأسعار بشكل فردي،<sup>(6)</sup> لكن لا يجب أن يوحي هذا بأن السلطة مارست ضغوطا أو وضعت عراقيل أمام أفراد الطوائف، فرغم اشتراك أفراد الطائفة الحرفية الواحدة في تصنيع مادة خام معينة وإنتاج سلع ذات مواصفات محددة منها، إلا أن هناك من الحرفيين من فاق زملاءه مهارة، وقام بتصنيع سلع أكثر جودة أو بأوصاف

(1) -الضربخانة: لغة وهي كلمة مركبة من مقطعين ضرب الدرهم أي سكه وطبعه، و (خانة) من الفارسية بمعنى منزل أو دار، وهي في المصطلح العثماني: دار سك النقود وضربها، سحر محمد ابراهيم، مصلحة الضربخانة المصرية بالقاهرة: دراسة أرشيفية ديبلوماتية تاريخية= من 1844 إلى 1963، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2016، ص45. محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص341.

(2) -عبد الودود محمد يوسف برغوث، المرجع السابق، ص ص 93 -94.

(3) -كان اللون الأحمر من بين الألوان التي استقطبت كثيرا اهتمام الأوربيين وبالأخص الفرنسيين وظل إنتاج اللون الأحمر مكلفا في أوروبا بينما كان ينتج على نطاق واسع في مراكز النسيج في الدولة العثمانية مثل أدرنة وأزمير ودمشق والقاهرة. نللي حنا، مصر العثمانية والتحويلات العالمية 1500 -1800، ترجمة مجدي جرجس، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2016، ص165.

(4) -عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام" مرجع سابق، ص 45.

(5) -نفسه، نفس المكان.

(6) - (هـ). جب و (هـ). بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، مرجع سابق، ص394.

مختلفة ، ومثل هؤلاء كانت حقوقهم محفوظة،<sup>(1)</sup> وهذا الموقف يخالف ما حاول المستشرقان (هـ) جب و(هـ) بوون رسمه من صورة نمطية للحرفي في البلاد العثمانية.<sup>(2)</sup>

بعض الطوائف الحرفية كانت لها أماكن محدودة و معينة على غرار سوق الحرير أو سوق القطن أو سوق القوافين ، كما أن بعض الطوائف فرضت عليها دواعي الأمن أو تيسير المتاجرة أن تتواجد في أسواق خاصة كما هو الحال لطائفة الصياغ<sup>(3)</sup> والسيوفية<sup>(4)</sup> أو السروجية من أجل تمكين الشاري من الحصول على حاجياته في مناطق متقاربة و لتسهيل العمل لشيخ الطائفة في مراقبة عمل الحرفيين و مدى جودة منتوجهم وكذا جمع الضرائب منهم ، غير أن بعض الحرف لم يكن باستطاعتها التجمع في مكان واحد ، فلم يكن هناك حي للمصاوغ<sup>(5)</sup> أو للحياكة،<sup>(6)</sup> بينما تجمعت طائفة الشعارين في حارة الجعابرة خارج حماة،<sup>(7)</sup> غير أن البعض من أفراد الطوائف حاول الخروج على المعتاد ، كما هو الشأن لبعض العناصر من طائفة الزراميزية ( يصنعون الزراميز : أي الأحذية الخفيفة) بحلب الذين لجأوا إلى بيع منتوجاتهم خفية في الأزقة والمقاهي بدلا من السوق المخصصة لهم بالقرب من الجامع الأموي الكبير بحلب ، لذلك اشتكى باقي أفراد الطائفة للقاضي خاصة بعد اكتشافهم بأن ما يتم بيعه بهذه الطريقة سيء الصنع ويسيء إلى حرفتهم لذلك نبّه القاضي المخلين بالنظام ألا يبيعوا في غير السوق المخصصة لهم،<sup>(8)</sup> أما بعض الحرف فافتضت خصوصيتها التواجد في أماكن متباعدة ولا يمكن تجميعها في منطقة واحدة على غرار طائفة البارودية تفاديا

(1) -أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية، مج 1 ، مرجع سابق ، ص ص 728 -729.

(2) - يرى المستشرقان البريطانيان بأن الحرفي في البلاد العثمانية لم يكن مسموحا له بأي تغيير في الأزياء أو مخالفة الزي القديم . المجتمع الإسلامي والغرب ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 394.

(3) - كان لطائفة الصياغ بحماة ثلاثة أسواق أحدها بالموقف ، وآخر عند باب العميان بالقرب من جامع الحسين ، وثالث في محلة المرباط. عبد الودود محمد يوسف : " طوائف الحرف والصناعات "، مرجع سابق ، ص 94.

(4) - كان عدد دكاكين السيوفية في حماة أواخر القرن العاشر الهجري (997هـ) الموافق لـ 1588م خمسة فقط يتجمعون في سوق الخناجيرية و تدعى أحيانا بسوق السلاح. نفسه ، ص 99.

(5) - انتشرت المصاوغ في حماة في المدينة و في الأرياف ، وقد بلغ عددها أربعة عشر مصبغة بعضها ملك لخواص السلطنة و بعضها ملك للأوقاف للأوقاف و بعضها الآخر ملك لأصحابها العاملين فيها ، وتتميز منهما مجموعتان هما : صباغو اللون الأحمر و صباغو اللون الأزرق . مع العلم أنه في هذه الفترة كانت الصناعة النسيجية الأوربية تجد صعوبة بالغة في الوصول الى صباغة الألوان بينما كانت هذه التقنية في مراكز الدولة العثمانية سواء في أدرنة أو أزمير أو دمشق والقاهرة كانت رائدة وهو ما دفع الحرفيين الفرنسيين الى بذل جهود مضنية للحصول على هذه التقنية من الحرفيين في الدولة العثمانية . عبد الودود محمد يوسف : " طوائف الحرف والصناعات في حماة "، ص ص 92 -93 ؛ نللي حنا ، مصر العثمانية 1500 - 1800 ، مرجع سابق ، ص ص 165 -166.

(6) - تم احصاء أكثر من ثمانمائة نول حياكة في مدينة حماة لوحدها موزعة في أنحاء المدينة وليس في منطقة بعينها . عبد الودود محمد يوسف برغوث ، نفسه ، ص 92.

(7) - نفسه ، ص 93.

(8) - عبد الكريم رافق : " مظاهر من التنظيم الحرفي " مرجع سابق ، ص ص 46 -47.

لخطر الانفجارات التي قد تحدث،<sup>(1)</sup> أو طائفة الدباغين التي اقتضى طبيعة عملها التواجد في منطقة معينة وتكون قريبة من المسلخ للتزود بالجلود وكذا المياه لغسلها، كما أن الروائح الناتجة عن العمل أوجب حصرها في مكان معين، لذلك كان مركز الدباغات في دمشق محصوراً في باب السلام، وقد تدخل القاضي بعد شكوى تقدم بها بعض الدباغين على أحدهم الذي مارس الدباغة في داره في محلة القبيبات بدمشق، حيث ألزمه القاضي بعد تعاطي حرفته خارجاً عنهم.<sup>(2)</sup>

وحرص أصحاب كل طائفة على منع العناصر الغريبة من تعاطي حرفتهم بهدف ضمان جودة الانتاج، واستثثاراً بالأرباح، ومشاركة جميع أعضاء الحرفة في تحمل الأعباء الضريبية، وقد اتفق أفراد طائفة الدباغين في حماة أنه إذا اشتغل أناس من خارج الطائفة بالمهنة دون علم أبنائها فإنهم يشتكون إلى القاضي الذي يجبر هذا بالدخول في الطائفة ومساواة أبنائها في دفع الرسوم أو التوقف عن العمل،<sup>(3)</sup> وفي دمشق احتج جماعة من الدباغين كذلك ضد أحد الحرفيين لأنه لم يتقدم بالإذن لشيخهم بتعاطي المهنة كما لم يسبق لأجنبي الدخول في صناعتهم خشية منهم في حدوث الخلل، وقد وافقهم القاضي في ذلك<sup>(4)</sup>، وهنا نرى بأن تدخل القاضي كان بغرض حفظ نظام الطائفة لكن لا نعتقد بأن القاضي يمنع شخصا من ممارسة حرفته إذا كان متقنا بالفعل لها.

#### ب - في الجانب الاجتماعي:

في الجانب الاجتماعي حافظت الطوائف الحرفية على بعض المميزات السائدة في المجتمع، كما ساعدت بفضل تنظيماتها وأخلاقيتها المهنية على النهوض بمستوى الأخلاق العامة خاصة التضامن والتعاون والتكافل، كما طبعت الحرفة صاحبها بطابعها ولصق اسم الحرفة بكثير من الناس حتى غدا كنية له خاصة وأن الكثير من الأبناء أخذوا عن آبائهم حرفتهم فلصق اسم الحرفة بالأسرة مثل: الخشاب، الحداد الصباغ المسالحي<sup>(5)</sup> كما لاقى الحرفيون الفقراء أو الذين تعرضوا للإفلاس اهتماما ورعاية، كأن يتم تقسيم الدين إلى أقساط للذي بدمته ديون كثيرة ولم يستطع سدادها، ففي إحدى الحالات ثبت لدى القاضي فقر أحد

(1) - كان معمل البارود يتواجد في مدينة حماة خلال القرن السادس عشر في محلة المنعزلة، ولم يكن عدد العمال فيه ثابتا فقد كان 973هـ/1565م تسعة عشر عاملا ووصل إلى ثلاثة وخمسين عاملا سنة 1005هـ/1596م. عبد الودود محمد يوسف: "صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر" مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 18، الجزآن 1 و2، سنة 1968، ص ص 72 - 74.

(2) - عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص 47.

(3) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات"، مرجع سابق، ص 97.

(4) - عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص 48.

(5) - نفسه، ص 48.

العاملين في صناعة تحميل البضائع إذ كان لدينا لعدد من الناس بخمسائة قرش، فقرر القاضي أن يدفع المدين خمسة وعشرين قرشا من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على أرباب الديون بنسبة ديونهم.<sup>(1)</sup>

وظهر الجانب الأخلاقي بشكل جلي في الشروط الواجب توافرها لدى شيخ الطائفة، فإلى جانب معرفته بأمور الحرفة وقدرته على أداء واجبات المشيخة، اشترط فيه التحلي بصفات العفة والاستقامة والتدين<sup>(2)</sup> وإذا أخلّ الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم حقّ لأفراد الطائفة طلب عزله ووافق القاضي على ذلك إن ثبت لديه صحة دعواهم،<sup>(3)</sup> كما تمكنت الطائفة الحرفية أن تصهر الحرفيين في انضباط مهني بعيدا عن الاختلافات المذهبية أو الطائفية.

### ج - في الجانب الإداري :

كان دور أرباب الحرف -يتمثل أساسا في الوساطة بين الإدارة وأبناء الطائفة، فهم الذين يقدمون شكاوى طائفتهم على طائفة أخرى إلى القاضي، وهم الذين يديرون شؤون أبناء طائفتهم ويرعوا مصالحها، وإنما يتصل البكركبي بأبناء الطائفة عن طريق هذا الشيخ<sup>(4)</sup>، ولا بدّ من أنّ هذه العملية كانت مهمة للدولة وللسلطة المحلية معاً، فقد كانت عملية جباية الضرائب وحفظ الأمن داخل هذه الطوائف يتم دون تدخل السلطة التي لم تنزعج من هذا الصعود لأرباب هذه الطوائف أو أنها تلجأ إضعافها<sup>(5)</sup>، وهذا ما جعل جعل المستشرقان (هـ) جب و(هـ) بوون يجزمان بأنّ ما طبّقه العثمانيون من إجراءات فرضتها إرادة الفاتح على الشعب المغلوب لا تعدو أن تكون شكلية فقط، بينما بذلت جهدا في تحقيق ارتباط عضوي وتفاعل مستمر بين الحاكمين والمحكومين.<sup>(6)</sup>

إن أوامر السلطة تصل إلى الحرفيين عن طريق شيخ الطائفة، وبالمقابل يرفع الحرفيون مطالبهم إلى السلطة عن طريق الشيخ ويتضح الأمر بجلاء أثناء عملية جمع الضرائب، فقد اتفق شيخ طائفة الصابونية بمحلة بانقوسا في حلب على أنه إذا وقعت على طائفة الصابونية بحلب تكاليف عرفية يكون أربعة أخماسها

(1) - نفسه، ص 49.

(2) - في سنة 1009هـ/1600م اختار أبناء طائفة الصباغ في حماة شيخا عليهم لياشر مشيخة الصياغة ويكون عاملا بتقوى الله في السر والعلانية، وقد قبل ذلك . عبد الودود محمد يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص 94.

(3) - تمكنت طائفة السمانة في حماة في سنة 1000هـ/1591م أن تجبر شيخ مشايخ الحرف أو شيخ سوق حماة على الاستقالة بعد شكاواها عليه أمام القاضي. نفسه، ص 100.

(4) - سيار جميل، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، مرجع سابق، ص 86.

(5) - وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، مرجع سابق، ص 50.

(6) - المجتمع الإسلامي والغرب، ج 1، مرجع سابق، ص 18.

على المدينة وتوابعها، والخمس الخامس على محلة بانقوسا، وإذا تخلف عضو في الطائفة عن المساهمة في التكاليف العرفية يتعرض للحقارة التامة.<sup>(1)</sup>

كان الجيش العثماني يحتاج إلى خدمات عدد لا بأس به من الحرفيين أثناء خروجه في الحملات العسكرية وبالتالي فإن التنظيم الحرفي لا شك بأنه ساهم وسهّل عملية تجنيدهم بالأعداد التي يراها قادة الجيش ضرورية، وقد شكلت هذه الخدمة عبئا مزدوجا، إذ كان المطلوب من الحرفيين الذين يتم اختيارهم ترك ديارهم وعائلاتهم طيلة مدة الحملة، وكان على أعضاء الطائفة الحرفية يكفلون زملاءهم الذين يخدمون في الحملة وذلك بتقديم رأس المال لتشغيل دكاكينهم<sup>(2)</sup>، ولنا في حكم سلطاني موجه إلى قاضي حلب بتاريخ 17 جمادى الأولى 967هـ / 14 فيفري 1560م يطالبه بتسجيل عدد من الحرفيين بناء على الطلب الذي تقدم به قائد الحملة العسكرية الوزير محمد باشا بخصوص حاجته لحرفيين يصطحبهم ضمن جيشه، فسارع القاضي إلى تسجيل أرباب الحرف المختلفة من قصابين وخبازين ونعالين إضافة إلى حلاق وطباخ وشمّاع، ويوضح لنا هذا الحكم الطريقة التي يعمل بها القاضي والإجراءات المتبعة في مثل هذه الحالات، فعليه أن يدوّن أسماء الحرفيين في الدفتر، ثم يستدعي الأشخاص المعنيين للتوقيع على صورة الدفتر، ثم يقوم بالختم على التوقيع، وحفظ الدفتر لتقديمه عند الحاجة.<sup>(3)</sup>

أما الإدارة المركزية ذاتها؛ فنظرت إلى هؤلاء الشيوخ كوسيلة تساعد في ضبط الأمن وتحصيل الضرائب بعيدا عن الدور الحقيقي لشيخ الطائفة سواء في حيّه أو ناحيته، فعدّا همزة وصل بين الرعية والدولة<sup>(4)</sup>، ورغم ذلك واصل بعض شيوخ الحرف من الأعيان لعب دورهم في التعبير عن مصالح الرعية لدى السلطة المحلية أو المركزية، وكثيرا ما وصل صوتهم إلى آذان الديوان الهمايوني الذي سارع إلى إصدار أوامره إلى الجهات المعنية للتحرك والتصرف بما يضع حداً لأي تجاوزات -إن وجدت فعلا -.

عموما كانت التنظيمات الحرفية صورة للواقع الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي لمجتمع المدينة في بلاد الشام منذ البدايات الأولى لهذا الوجود في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي واستمر خلال الفترات اللاحقة رغم الانتقادات التي وجهت لها، فقد اعتبرت الكثير من الدراسات حول الطوائف الحرفية مثل غابرييل بير Gabriel Bear أنها مجرد بنى تقليدية يتجمع فيها أشخاص من نفس المهنة يترأسهم شيخ الطائفة، وكانت الدولة تعترف بالطائفة لكنها كانت تتحكم بشدة في أنشطتها، كما أن نظام

(1) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي" مرجع سابق، ص 50 - 51.

(2) - خليل إينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 116.

(3) - مهمة دفترتي 3، ص 269، الحكم 777. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (951هـ/

1544م - 973هـ/1566م)، ج 1، سبق ذكره، ص 191.

(4) - وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، مرجع سابق، ص 48.

الطائفة لم يشجع على التنافس بين أعضائها لتجويد وتطوير مهاراتهم ومنتجاتهم، لكنها وضعت قواعد عادلة للتعامل معهم من ناحية أخرى، كان النظام المتبع داخل الطائفة لحماية أعضائها من المنافسة مع من خارجها يحد من توسع الطائفة حيث وضعت قيود صارمة على عضوية الطائفة، ولم يكن بمقدور أي حرفي غير عضو في طائفة ما أن يمارس الأنشطة التي تختص بها هذه الطائفة.<sup>(1)</sup>

### ثانيا -النشاط الحرفي والصناعي :

إن دراسة موضوع طوائف الحرف والأصناف التي كانت موجودة في مدن بلاد الشام يعطينا فكرة عن مختلف النشاطات الحرفية التي كان السكان يمارسونها، ومن خلالها أيضا يمكننا معرفة الصناعات القائمة والمهن المنتشرة بها وهذا من خلال تتبع ألقاب الصناع والحرفيين، وكذا طوائف الحرف والمعامل وحتى أسماء الأسواق.

فبالنسبة لألقاب الحرفيين فإن سجلات المحاكم الشرعية كثيرا ما يرد فيها أسماء المتقاضين منسويين إلى الصنعة التي يزاولونها أو ينسبون إلى القرى التي ينحدرون منها إن كانوا من أصحاب القرى أو بلدهم الأصلي إن كانوا من غير البلدة التي يزاولون بها نشاطهم، وأحيانا أخرى بالنسبة للطائفة التي ينحدرون منها إن كان الحرفي غير عربي أو مسلم<sup>(2)</sup>، مثال ذلك: زريق النصراني الملكي، وأحمد بن سعيد المصري، وإبراهيم بن يحيى وابنه أحمد القزازين<sup>(3)</sup>.

وباستعراض الأسماء الواردة في سجلات المحاكم الشرعية يمكن التعرف على أسماء المهن الموجودة وهي: الاسكافي، البارودي، البرادعي، البستاني، البيطار، الحريري، الحصري، الحلاق، الحمصاني، الحداد، الحلواني، الدباغ، السقاء، الخراط، الصباغ، الصواف، السنكري، السيوفي، الشرباتي، الصابوني، العطار، المعصراني، الماوردي، القطان، النشابي، المبيض، النقاش، والوراق...<sup>(4)</sup>

أما بالنسبة لطوائف الصناعات والمهن فنجد طائفة النجارين، الخنجارية، الأساورية، الدباغين، الدالين والنجارين والقصابين والبارودية.<sup>(5)</sup>

(1)- gabriel Bear ; "Monopolles and Restrective Practices of Turkish guilds", journal of economic and social history of the orient 13,no 1(april 1970) : 145-65 ; Gabriel Bear, Egyptian guilds in Modern time 1964 ) من كتاب مصر العثمانية 1500 - 1800 نيللي حنا ، مرجع سابق، ص108.

(2) - عبد الودود برغوث : " تاريخ حماة الاجتماعي و الاقتصادي و الاداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989هـ/1581م " مرجع سابق، ص78 -79.

(3) - نفسه، ص79.

(4) - نفسه، نفس المكان.

(5) - نفسه، نفس المكان.



كما جاءت الإشارة في دفاتر الطابو إلى المرافق والمنشآت التي يقوم معظمها على خدمة الانتاج الزراعي كما هو الحال بالنسبة لمطاحن الحبوب ومعاصر الزيتون وأفران الخبز والمسالخ والمدابغ والمصايغ والمذابح والمطاعم.<sup>(1)</sup>

ولأن النشاط الرئيسي لبلاد الشام هو الزراعة التي تمثل العنصر الأساسي لتوفير المستلزمات الغذائية للأهالي، فإن كثيرا من الصناعات تبقى مرتبطة بما توفره الزراعة من مواد أولية لكثير من الصناعات كإنتاج الزيت والصابون وخيوط الحرير، وكذا الأنشطة الحرفية المتنوعة.

تعطينا سجلات المحاكم الشرعية لمدن بلاد الشام صورة واضحة للنشاط الاقتصادي للمدينة والحرف المنتشرة بها، فنجد إشارات كثيرة إلى وجود المنشآت الحرفية، كالمعصرة التي يصنع فيها السيرج والطحينة والصابون والدبس والزيت والسمن،<sup>(2)</sup> والدكان المتواجد في السوق وهي معدة لصنع الخناجر، وبجوارها دكان لصنع السيوف ودكان لحياكة الصوف، ومصبغة<sup>(3)</sup>، ودار أخرى لدق القماش، ومعمل لسبك النحاس من صنف قدور الحمامين وقدور المصابين<sup>(4)</sup>.

وهذا بدوره يعطينا فكرة عن المهن والصناعات التي يمارسها السكان : مثل الغزل والنسيج وحياكة القطن والكتان وصناعة السروج والبرادع والبسط وحلج القطن وصناعة المكاس والحصر إضافة للصناعة المعدنية والأسلحة والبارود وسبك النحاس والأحذية ودباغة الجلود والصابون والزيت والطحين والحلويات وعموما كل ما يحتاجه الناس في حياتهم اليومية،<sup>(5)</sup> من الملابس والمأكول ومواد التنظيف وأدوات الاستعمال الضرورية، أما معدات الزراعة كالمحراث والمذراة والمسحاة فتصنع يدويا ومن الخشب، ومنها كذلك المحراث الخشبي الذي يجر بواسطة الثيران، ويمكن التمييز بين عدة أنواع من الصناعات :

## 1 - صناعة المنسوجات :

تعد من الحرف التي اشتهرت بها بلاد الشام، وقد اشتهرت مدن بلاد الشام بأعمال الحياكة<sup>(6)</sup> والغزل والغزل والنسيج وبالأخص صناعة المنسوجات الحريرية نظرا لاهتمام سكانها بتربية دودة القز، و اشتهرت أيضا بصناعة المنسوجات الصوفية التي تعتمد على الأصواف التي توفرها قطعان الماشية في المنطقة، كما كان

(1) -دفتر تحرير 516 إس، مصدر سابق، ص ص 127 -128.

(2) -في محلة تحت الشجرة في مدينة حماة. عبد الودود يوسف برغوث : المرجع السابق، ص 79.

(3) -توجد في حماة مصبغة في قرية كفرطابا وأخرى في كفر بهم بجوار حماة. نفسه، ص 80.

(4) -نفسه، نفس المكان.

(5) -نفسه، نفس المكان.

(6) -ضمت مدينة حماة لوحدها أكثر من ثمانمائة نول حياكة موزعة في أنحاء المدينة يقوم أصحابها بحياكة أنسجة القطن والصوف والحرير. عبد الودود يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص 92.



لمرور قافلة الحج ببلاد الشام دورا بارزا في تنشيط هذه الصناعة فقد كان الحجاج في حاجة لاقتناء الفوط والمناديل التي يحتاجونها .

ترتبط بصناعة المنسوجات حرفة الصباغة، وفي الوقت الذي كان اللون الأحمر من الألوان الصعب صباغتها في أوروبا و ذلك لتكلفتها حتى بعد اكتشاف القرمز وجلبه من الأمريكيتين، نجد في نفس ذلك الوقت أن اللون الأحمر يُنتج على نطاق واسع في مراكز النسيج المختلفة بالدولة العثمانية مثل ( أدرنة، إزمير، دمشق، القاهرة)<sup>(1)</sup>، وتواجدت المصانع في أهم المناطق التي تمتلئ النسيج<sup>(2)</sup>، ففي حلب مثلاً سنة 1627م كان هناك طائفة ( طائفة الصباغين بالصباغ الأحمر المطلي بحلب)، كما ورد ذكر لمصبغة القطن وأخرى للأقمشة في دمشق الشام سنة 977هـ/1569م،<sup>(3)</sup> وفي مدينة حماة وريفها انتشرت نحو أربعة عشر مصبغة توزعت ملكيتها بين الدولة والأوقاف والملك الخاص، بل وتميزت طائفة الصباغين بالمدينة بين مجموعتين إحداهما اختصت في اللون الأحمر والثانية في اللون الأزرق.<sup>(4)</sup>

#### —سر المهنة كان عامل أساسي للحرفيين :

كان الحرفيون سواء في العالم الإسلامي أو الأوروبي يحاولون الاحتفاظ بسر مهنتهم ولا ينشروه لأحد فمثلاً في أحد الوثائق في مصر لسنة 1671م نصت إحدى قوانين طائفة (الصباغين في الألوان) بعدم تعليم أي أحد سر المهنة،<sup>(5)</sup> وكذلك يوضح بعض الرحالة الفرنسيون ( مثل جان دي تيفينو في القرن الـ17م أو فولني في القرن الـ18م) أن الحرفيين الشوام الذين كانوا ينتجون منتجات جلدية عالية الجودة كانوا يكتفون ومتحفظين بشأن الحديث عن طرق عملهم حفاظاً على سرية تقنياتهم.<sup>(6)</sup>

#### أهم الصناعات النسيجية :

##### أ - المنسوجات الحريرية :

ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية<sup>(7)</sup> نظراً لاهتمام بعض المناطق بتربية دودة القز<sup>(1)</sup> ويشير وجود ضرائب على الحرير في كل من حماة<sup>(2)</sup> ودمشق الشام<sup>(3)</sup> إلى وجود هذه الصناعة الحريرية في بلاد الشام،

(1) - نللي حنا ، مصر العثمانية والتحويلات العالمية 1500 - 1800، مرجع سابق، ص 165.

(2) - حتى المدن الشامية الصغيرة كالرملة في فلسطين حالياً تتواجد بها المصانع، ح 1، سجل 173، ج 1، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 211.

(3) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر الطابو رقم 474"، مرجع سابق، ص 35.

(4) - عبد الودود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، ص ص 92 - 93.

(5) - نللي حنا، مصر العثمانية والتحويلات العالمية، مرجع سابق، ص 169.

(6) - نفسه، ص ص 169 - 170.

(7) - كانت موجودة قبل دخول العثمانيين إلى بلاد الشام حيث أشار ابن طولون إلى وجود أرباب حرفة الحرير في عدة محلات من دمشق زمن المماليك . محمد بن طولون، مفاتيح الخلال في حوادث الزمان ، مصدر سابق، ص 121.

ومعروف أن تربية دودة القز قد ازدهرت في بلاد الشام نظرا لكثرة طلب التجار الأوروبيين من فرنسيين وإنجليز على مادة الحرير، إضافة إلى ورود إشارة لـ "سوق الحرير" عند باب الجامع القبلي بياحة الحرير والخيطان، وهو السوق الرابع.<sup>(4)</sup>

وفي الحقيقة فقد كانت هذه الصناعة موجودة في بلاد الشام خاصة في حلب وهذا منذ العصر المملوكي حسبما يذكر ابن الشحنة في قوله: "إذا حضر إلى حلب مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه، ولو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر وهكذا فقس"،<sup>(5)</sup> وحافظت على نشاطها بعد الدخول العثماني إلى المنطقة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بسبب قربها من الأناضول، إلى جانب كونها محطة مرور بين أوروبا وإيران وبلاد الشرق عموما حيث نشطت تجارتها.

تأتي حلب ودمشق بعد مدينة بورصة من حيث الأهمية والشهرة في مجال صناعة المنسوجات الحريرية في الدولة العثمانية، وتختلف الأقمشة الحريرية تبعا للتقنية المستخدمة فيها، ولا شك أن أكثر الأقمشة الحريرية قبولا وأغلاها ثمنا هو نوع (سراسر)<sup>(6)</sup>، وهناك نوع آخر يعرف باسم (كمخا) كانت خيوط لحمته من القطن، وهو من الأقمشة السميكة التي تستخدم في الملابس وفي الأثاث،<sup>(7)</sup> لكن ما يلاحظ هنا هو ظهور هذا النوع إنما كان استجابة من بعض المنتجين في توفير أقمشة أرخص سعرا وأخف نوعية بسبب انحسار الذي صاحب الأزمة المالية التي ضربت الدولة العثمانية في أواخر القرن السادس عشر وتركت بصماتها على مداخل كثير من الموظفين العثمانيين الذين كانوا في العادة من يشتري الأقمشة الحريرية، وهكذا أصبحت الأقمشة المصنوعة من الحرير والقطن معا -كما هو الحال هنا للكمخا - أكثر

(1) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام" مرجع سابق، ص 38 - 39.

(2) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "تاريخ حماة" مرجع سابق، ص 83.

(3) - المرجع السابق، ص 38 - 39.

(4) - يوسف بن عبد الهادي (ابن المبرد)، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق (بدمشق)، تحقيق حبيب زيات / مجلة المشرق، السنة السابعة والثلاثون، الأعداد 1 - 2 - 3، سنة 1939، ص 22.

(5) - أبو الفضل محمد ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي دمشق، سوريا، 1984، ص 254.

(6) - تستعمل في هذا النوع من الأنسجة الحريرية خيوط الذهب والفضة، فتكون السداة فيه من الحرير بينما تكون خيوط اللحم من الذهب أو الفضة، أما بالنسبة للحرير الخام الذي يستخدم فيه، فلم يكن من نوع واحد بل يستخدم فيه حرير بورصة وإيران وطرابلس جنبا إلى جنب. أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 745.

(7) - نفسه، ص 746.

شعبية،<sup>(1)</sup> إضافة إلى نوع آخر يعرف باسم حرير الأطلس والذي تشتهر به دمشق إلى جانب كل من إيران والبندقية.<sup>(2)</sup>

تعتبر صناعة الكوفيات الحريرية صناعة شامية بامتياز وبألوان مختلفة وقد تفنن الصناع في وشيها بالقصب الفضي بنقوش ورسوم غاية في الإبداع وسلامة الذوق والمتانة،<sup>(3)</sup> إضافة إلى صنع الشقق الحريرية والقطنية التي تفصل منها القفاطين التي كانت لباس غالبية السكان غنيهم وفقيرهم، رجالهم ونسائهم.<sup>(4)</sup>

#### ب - المنسوجات القطنية:

انتشرت صناعة المنسوجات القطنية في الأماكن التي توجد بها زراعة القطن، وضمت مدينة حماة لوحدها أكثر من مائة دكان لحلج القطن<sup>(5)</sup> واختلفت مجالات استخدامها فمنها ما يصنع منه القفطان المبطن والصدريّة القطنية والقميص القصير والملابس الداخلية، ومنها ما يستخدم بطانات للألبسة، ومنها نوع من الأقمشة القطنية التي تستخدم في صنع قفاطين النساء، وكذلك في لفائف العمائم<sup>(6)</sup>، واشتهرت مدينة حماة حماة عن غيرها من مدن الشام بنسج المآزر للنساء مما يستعمله في الحمام وتسمى المناشف أو القوط<sup>(7)</sup> كما كانت إدلب وقرية دارة عزة الكبيرة في ظهير حلب بالشمال مشهورة بأقمشتها القطنية.<sup>(8)</sup>

كما اشتهرت دمشق وحلب بصناعة الألبسة المطرزة بخيوط الذهب، ولعل انتشار هذا النوع من الألبسة يدل على انتشار مظاهر الرفاهية التي ميّزت حياة الناس خاصة في بلاد الشام وحلب، ويشير أحد الأحكام السلطانية إلى محاولة الدولة وضع حد لهذا النشاط الصناعي<sup>(9)</sup> دون التطرق إلى أسباب المنع، لكن يبدو أن الأمر متعلق بمسألة لها علاقة بالشرع أو ربّما بالجانب الاقتصادي، ولا ندري في الحقيقة ماذا يقف وراء ذلك؟ لكن ما هو مؤكّد هو أنّ محاولة الحظر أوجدت نتائج عكسية، بحيث أصبح يتمّ في سرّية ودون علم الدولة، لكوّن التجّار عمدوا إلى استعمال الحيلة بحيث لجأوا إلى اقتناء الحرير المذهب من دمشق وتسويقه في حلب بسبب عدم صدور قرار الحظر في دمشق، وهو ما دفع الدولة لأن تصدر حكماً ثانياً يقرّ

(1) - خليل إينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص100.

(2) - المرجع السابق، ص746.

(3) - محمد كرد علي: خطط الشام، ج4، مصدر سابق، ص203.

(4) - نفسه، نفس المكان.

(5) - عبد الودود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص91.

(6) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج1، مرجع سابق، ص748.

(7) - محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، مصدر سابق، ص203.

(8) - خليل إينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص159.

(9) - مهمة دفتری طوب قايي سراي 888، ص458 مؤرخ في 14 شوال 959هـ / 3 ديسمبر 1552م. فاضل بیات، البلاد العربية في الوثائق

الوثائق العثمانية، مج2، مصدر سابق، ص235-236.

شمول ولاية الشام بقرار منع حياكة الأقمشة المطرزة بالذهب ، وتحميل البكربكي مسؤولية التجاوز على القرار.<sup>(1)</sup>

### ج - المنسوجات الصوفية:

تعتمد بشكل أساسي على الأصواف التي توفرها قطعان الماشية في المنطقة ، ثم تقوم طائفة الغزالين الذين تنتشر دكاكينهم في سوق خاصة بهم<sup>(2)</sup> ومن الصناعات المتممة باللباس نجد صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تنسج من الصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور،<sup>(3)</sup> لكن الملاحظ بأن صناعة صناعة المنسوجات الصوفية عرفت منافسة شديدة من التجار الإنجليز الذين يسوقون متوجههم بأسعار جد منخفضة بعد انشاء الشركة الإنجليزية للشرق سنة 1581م.<sup>(4)</sup>

### 2 - الصناعات الغذائية :

#### أ - صناعة الخبز :

نظرا لنقص مادة الحطب فقد كانت أفران الخبز منتشرة في معظم الأحياء وتصنع الخبز بأنواعه ، فقد ذكر القاضي شرف الدين موسى الأنصاري بعض أنواع الخبز بدمشق الشام سنة 999هـ / 1590م ومنها : الطابوني وهو الخبز المخبوز في الطابون الذي هو في الأصل الموضع الذي تدفن فيه الجمار وتحفظ لكيلا تنطفئ ، لذا أخذ هذا الخبز اسمه من الفرن ، و"المعروك" وهو نوع من الخبز يعالج بطريقة خاصة حتى يصبح كالإسفنج ، والخبز "التنوري"<sup>(5)</sup> وهو الذي يخبز في التنور.<sup>(6)</sup>

إلى جانب الخبز كانت هناك صناعة الحلويات مثل صناعة الكنافة والزلاية وهي كرات اسفنجية مصنوعة من دقيق معين ، تقلى بالزيت حتى تحمر ثم تغمس بالناطف أو القطر وتقوم بها طائفة الزلانية<sup>(7)</sup> ، والزلانية<sup>(7)</sup> ، وتوجد طائفة من الحرفيين تصنع البقسماط وهو كعك على شكل ألواح الصابون وهو معمول

(1) - مهمة دفتر طوب قابي سراي 888، ص 458، نفسه، ص 234 - 235.

(2) - عبد الودود يوسف برغوث : " طوائف الحرف والصناعات في حماة "، مرجع سابق، ص 92

(3) - محمد كرد علي، خطط الشام، ج 4، مصدر سابق، ص 203 .

(4) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 103.

(5) - نزهة الخاطر وبهجة الناظر، شرف الدين موسى، ج 1، مصدر سابق، ص 173

(6) - التنور شكل مخروطي من الطين الجاف له فتحة من الأعلى لإدخال الخبز منها وإصاقه عاى جدران هذا الشكل المخروطي بعد أن يكون

الحطب بداخله أصبح جمرا ، وبذلك يتم صنع الخبز فيه لذلك يعدونه من أجود أنواع الخبز . محمد سعيد القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ،

مرجع سابق، ص 71

(7) - عبد الودود يوسف برغوث : " طوائف الحرف والصناعات في حماة "، مرجع سابق، ص 90.

من طحين الحنطة<sup>(1)</sup>، وصنعة الأقسما، وهو نوع من المثلجات الحلوة تتألف من الدبس المستخرج من الزبيب، أو منقوع الزبيب، والثلج وبعض المواد العطرية<sup>(2)</sup>.

### ب - طحن الحبوب:

انتشرت الطواحين التي كانت مخصصة لطحن الحبوب لصناعة الدقيق، كانت هذه المطاحن المصنوعة بالحجر وتدار بالماء على ضفاف المجاري المائية منتشرة في معظم البلدات الشامية كما هو الحال في مدينة حماة أو في حمص على نهر العاصي، أو في ناحية نابلس والمعروفة بطواحين العوجا وتشتمل على ستة أحجار كبار منها اثنان عاطلان والأخرى تدور مع استحقاق جريان الماء في النهر<sup>(3)</sup> ومن هذه المطاحن ما كان يدار من أصحابه ومنها ما كان الطحان يستأجره من أصحابها ومن الطواحين ما يكتفي بطحن الطحين البيتي، ومنها السوقي وهي من الحرف المهمة في مدن بلاد الشام<sup>(4)</sup>، ومن طحن القمح برز بعض الحرفيين لإنتاج الدقيق ثم بيع ما ينتجون للخبازين، وتعرف طائفتهم بطائفة الدقاكين<sup>(5)</sup>.

### 3 - المعاصر:

تتمثل في استخراج الزيت وعصر العنب لصناعة الدبس، فقد كانت مناطق الخليل والقدس وحمص ودمشق غنية بمزارع العنب، ويعرف الحرفيون في هذه الحرفة بالمعصرانية، أو المعاصرة، ويقومون بعصر السمسم لاستخراج زيت السيرج منه والطحينة، وقد بلغ عدد المعاصر في حماة خلال القرن السادس عشر نحو ثلاثين معصرة<sup>(6)</sup>.

### 4 - صناعة الصابون:

(1) - محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، القسم 2، ص 389.

(2) - المرجع السابق، ص ص 90 - 91.

(3) - حجة 1، مؤرخة في 6 محرم 1082هـ / 14 - 5 - 1671م، سجل 173، ج 1، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 211.

(4) - اعتبرت حرفة الطحان مهمة وتنتج ربها وافرأ مهما على صاحبها، لكن لجوء بعض الطحانين إلى الغش في مهنتهم جعل ثروتهم نادرا ما تستمر إلى آخر حياتهم، ذلك أن كثيرين منهم من ذوي النفوس الضعيفة الذين يغويهم الغش يلجأون إلى طحن أصناف الحبوب التي قيمتها دون الحنطة كالذرة والبرغل وما ييس من البطاطا وإدخالها مع طحين الحنطة وبيعها للفرانة (أصحاب الأفران لصناعة الخبز) لذلك كان الغالب من أهالي دمشق يستعملون الخبز البيتي بعد أن يكونوا قد اشتروا الحنطة وطحنوها عند الطحان البيتي. محمد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، مرجع سابق، ص ص 290 - 291.

(5) - عبدود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة في القرن السادس عشر"، مرجع سابق، ص 89.

(6) - نفسه، ص 90.

هي من الصناعات المرتبطة بوفرة مادة الزيتون، لذلك تعتبر من الصناعات العريقة في المنطقة<sup>(1)</sup>، وهي ذات صلة بالحاجيات اليومية ومن هنا جاء اهتمام الدولة بها بحيث يُشير أحد الأحكام السلطانية إلى ما وصلت إليه صناعة الصابون في مدينة طرابلس الشام، وما كان يتم إنتاجه في المصنّبة الواحدة ومقدار الرسوم التي تجنيها الدولة، وإن كان هذا الحكم موجّهاً إلى قاضي طرابلس بغرض الاستفسار - من أهل الخبرة - عما يتم طبخه من الصابون في المصنّبة الواحدة، فإنّ الهدف الأساسي منه هو التأكيد على أن يتم إعفاء المصنّبة التي تعود ملكيتها لزوجة السلطان سليمان من الرسم<sup>(2)</sup> وذلك أنّ هذه المصنّبة التابعة لها تعتبر وقفاً على كثير من المؤسسات الخيرية التي أوقفها زوجة السلطان على وجه الخصوص في بلاد الشام والحرمين الشريفين والحرم الإبراهيمي<sup>(3)</sup>، وقد كان في طرابلس أربعة مصانع صابون مملوكة للدولة في طرابلس قبل 1571م، عدا مصانع الصابون الخاصة التي يبدو أنها نافست بشدة المصانع الآنفة الذكر<sup>(4)</sup>، وتمتع الصابون الطرابلسي بشهرة وكان متوفراً في أسواق اسطنبول في القرن السابع عشر<sup>(5)</sup>

أما في القدس الشريف فكان بها العديد من المصابن المخصص لصناعة الصابون نظراً لتوفر زيت الزيتون الذي يعد العصر الأساسي في هذه الصناعة، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن كثرة إنتاج الصابون يوحى بالضرورة بكثرة استعماله وبالتالي تحسين الظروف المعيشية والحياتية للسكان.

## 5 - صناعة الزجاج :

يوجد في حلب مصنع للزجاج في محلة المشاركة لكنه لا يعمل سوى خلال أسابيع قليلة في الشتاء، لكن معظم الزجاج المستخدم في حلب يتم جلبه من قرية أرمناز التي لا تبعد عن حلب سوى بنحو 35 ميلاً

(1) - يعرف مكان عما الصابون بالمصنّبة، وأجود أنواع الصابون هو ذلك المعمول بالزيت الخالص والقلي النقي والجير الطيب المحكم الطبخ والتجفيف والقطع على أوضاع مخصوصة، وصنعت أن يؤخذ من القلي جزء ومن الجير نصف جزء، فيحكم سحقهما ويجعلان في حوض يصبّ عليهما من الماء قدرهما خمس مرات، ويحرك قدر ساعتين، ويكون كون للحوض خرق مسدود، فإذا سكن من التحريك وصفا فتح الخرق، فإذا نزل الماء سدّه ووضع عليهما الماء وحرك، واستبدل هكذا حتى لم يبق في الماء طعم، وهذا مع عزل كل ماء على حدة، ثم يؤخذ الزيت الخالص قدر الماء الأول عشر مرات، ويجعل على النار، فإذا أشرب الماء الأخير شيئاً فشيئاً، ثم الذي قبله، حتى يكون سقيه بالماء الأول آخراً، فحينئذ يصير كالعجين، فيغرف ويوضع على الحصير، حتى إذا جف بعض الجفاف فيقطع ويبسط على نورة. وهذا هو الخالص، ولا حاجة إلى تبريده وغسله بالماء البارد أثناء الطبخ. محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ... ص ص 268 - 269

(2) - مهمة دفتر طوب قابي سراي 888، ص 175 أ 176 حكم مؤرخ في 21 ربيع الآخر 959هـ/16/04/1552م. نقلاً عن: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 2، سبق ذكره، ص ص 231 - 232.

(3) - يشير دفتر تحرير T.D.131 إلى أن كمية الصابون الذي كان يصدر من القدس إلى مصر سنوياً يصل إلى 1200 حملاً؛ وتقدر وارداتها بـ 48000 أقة كلّها وقف على الحرم الإبراهيمي في الخليل، ص 294.

(4) - خليل اينالجيك: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 499.

(5) - خليل اينالجيك: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 159.

الى الغرب والزجاج رفيع يميل لونه إلى الأبيض ويستخدم في تشكيل الأواني<sup>(1)</sup>، كما وجدت في مدينة الخليل حارة تحمل اسم حارة "القزازين" نتيجة انتشار المحلات الخاصة بإنتاج الزجاج فيها.<sup>(2)</sup>

أما في دمشق فإن حرفة الزجاج عُدت من الحرف الشريفة وتدرّ على أصحابها ربحاً وفيراً، وهو من الصناعات العريقة في دمشق، حيث يقوم صاحبها بصنع مختلف أواني الزجاج كالقناديل والقناني، ويوجد في دمشق معمل للزجاج في محلة الشاغور ومنه تصنع الزجاجات المعروفة بالكؤوس.<sup>(3)</sup>

## 6 - صناعة البارود :

تنوعت استخدامات البارود ولم يقتصر على الأسلحة، ولذلك لم يكن ممنوعاً على الحرفيين، فهو يستخدم في المقالع وفي الأعياد، كما أن ملح البارود استخدمه الصياغ في أعمالهم، وتجري صناعة البارود في الريف على أسس بدائية موهلة في القدم<sup>(4)</sup> ولصناعة البارود يمزج ملح البارود بمسحوق الفحم الذي يستحصل عليه من شجر الصفصاف، وبكمية من الكبريت الذي يستخرج بكميات جيدة من منطقة رأس العين ومن مغارة شحيرة شمال شرقي تدمر، وتكون نسبة المواد : 75 - 15 - 10% على التوالي، وتختلف النسبة وفق نوعية البارود المراد إنتاجه وأهداف استخدامه، ويخلط المزيج ببعض الماء لتحاشي الانفجار، ثم يدق بواسطة مطارق خشبية طويلة مثبتة على نابض لتمكين الدقاقين من أن يكونوا على بعد مناسب خشية وقوع أي انفجار، ثم يمد المزيج على شراشف ويجفف متحولاً إلى قطع صغيرة ومسحوق وهو ما يعرف بالبارود، ثم ينخل، فالناعم منه يستعمل في البنادق والأكثر خشونة في المقالع أو الحاجات الأخرى، وللتأكد من جودة البارود يوضع القليل منه في راحة اليد و يشعل، فإن احترق إلى الأعلى فهو جيد، وإن أحرق اليد فهو رديء،<sup>(5)</sup> وقد أنشأ السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566م) في حماة معملاً للبارود يكفي حاجة بعض قلاع الدولة الموجودة في بلاد الشام من مادة البارود، وكانت الدولة هي التي تضمن تصريف انتاج المعمل بشرائه بثمن جيد تدفعه من خزينتها وحددت للعمل فيه ستين عاملاً أو أقل سمّتهم بمراسيم أصدرتها وأعفتهم من كل الرسوم التي تجبها من بقية السكان،<sup>(6)</sup> مما يعطينا فكرة عن العناية التي كانت توليها لهذا المعمل ولصناعة البارود ككل، وفي فترة أوجه أنتج المعمل سنة 1592م واحداً وخمسين قنطاراً في العام<sup>(7)</sup>، لكن هذا المعمل تعرض للهدم لأسباب مجهولة في أواخر القرن السادس عشر

(1) - راسل : تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 43.

(2) - دفتر تحرير (T.D.1015)، مصدر سابق، ص 295.

(3) - محمد القاسمي، معجم الصناعات الشامية، ج1، مرجع سابق، ص 163 - 165.

(4) - عبد الكريم رافق : "مظاهر من الحياة العسكرية في بلاد الشام"، مرجع سابق، ص 89.

(5) - نفسه، ص 90 - 91.

(6) - عبد الودود محمد يوسف برغوث : "صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر" مرجع سابق، ص 70.

(7) - عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص 91؛ عبد الودود محمد يوسف برغوث، نفسه، ص 78.



مما دفع بالدولة في عهد السلطان محمد الثالث سنة 1005هـ/1696م تكليف الأمير الزعيم حسين بك وأعطته واردات لواء تدمر إلى جانب واردات زعامته على أن يعيد إنشاء معمل البارود ويصرف على إعادته من واردات لوائه وزعامته ويقدم لخزينة الدولة كل عام عشرين قنطارا من البارود دون مقابل.<sup>(1)</sup>

### وصف المعمل :

يوجد هذا المعمل في محلة المنعزلة وينزل إليه بدرج وله باب كبير فيه غرف لعمال البارود ومخزن لخزنه ومعمل لطبخه فيه عشرة قدور من النحاس لطبخ البارود، تلتف كل هذه الغرف حول صحن ويتقدمها رواق يستند إلى ركائز فوق أقواس، وأبواب الغرف داخل الرواق، وجدرانها الخارجية كلها مغلقة وسقوفه من خشب وطين وقصب.<sup>(2)</sup>

مرة أخرى تعرض المعمل للنهب والهدم سنة 1011هـ/1602م بعدما أعد صنّاعه العشرين قنطارا المتفق عليها وسلموا أمير لواء حماة أحمد بك ثلاثة عشر قنطارا منها وضعها في صناديق خشبية تمهيدا لشحنها إلى السلطنة و وضع السبعة قناطير الباقية في مخزن المعمل وختم عليها<sup>(3)</sup>، وأعيد بناؤه من جديد واستمر يعمل حتي نهاية القرن الثامن عشر.

إلى جانب صناعة البارود كانت بعض الصناعات المختصة في الأسلحة مثل إنتاج الخناجر والسيوف التي تتكفل بها طائفة الخناجرية والسيوفية، وصناعة الأقواس الخاصة بالنبال، وصناعة الأوتار المستخدمة في الأقواس ويستخدمون في صناعتها أمعاء الحيوانات المذبوحة.<sup>(4)</sup>

## 7 -الصناعة الجلدية : منها

### أ -دباغة الجلود:

لا شك أن الجلود والأحذية وأطقم الخيول والقرب وغيرها من المصنوعات الجلدية هي من المواد التي تدخل ضمن الاحتياجات اليومية السكان والجيش على حد سواء نظرا لتعدد المجالات التي تستخدم فيها، والمعروف أن تحويل جلود العجول والثيران والأبقار والأغنام والماعز وغيرها من الحيوانات التي تؤكل لحومها إلى جلود يمكن الاستفادة منها واستخدامها تحتاج إلى بعض العمليات الكيميائية ، وهي تعرف

(1) -عبد الودود محمد يوسف نفس المرجع، ص 70.

(2) -نفسه، ص 72.

(3) -نفسه، نفس المكان.

(4) -عبد الودود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات بحماة"، مرجع سابق، ص 99.



بالدباغة ، ويعرف الحرفي الذي يقوم بها باسم الدباغ،<sup>(1)</sup> وكان يقتضي أن تباع جلود الحيوانات المذبوحة في المسالخ وفي دكاكين الجزارين إلى الدباغين وكثيرا ما لجأت الدولة العثمانية إلى سنّ قوانين "حظر التصدير" بين الفينة والأخرى قصد تجنب الوقوع في ضائقة الحصول على الجلود المستخدمة في صنع الحاجيات اللازمة للجيش وللأهالي<sup>(2)</sup> ، بل وكثيرا ما تدخل أصحاب حرفة الدباغة لمنع تصدير الجلود ، باعتبار أن ذلك يضر بمصلحتهم ، فقد اشتكى سمسار تجار أوريبيين في حماة أن الدباغين يمنعون بيع العفص للتجار الفرنج ، فسألهم القاضي عن ذلك فأخبروه (أن لهم شدة احتياج إلى العفص لسببهم ورزقهم ، ولأن العفص لا يأتيهم إلا بالجلب) ، فمنع القاضي هذا السمسار من شراء شيء من العفص من حماة للتجار الأوريبيين.<sup>(3)</sup>

أهم ما كان يصنع من هذه الجلود في دمشق على وجه الخصوص نجد القرب التي كثيرا ما تستخدم من طرف الحجاج أثناء توجههم نحو البقاع المقدسة في مكة والمدينة أو في أثناء رحلة العودة ، ومن المدن التي اشتهرت بصناعة القرب مدينة الخليل<sup>(4)</sup> ، كما توجد في حلب مدبغة وخان يحمل اسم خان الدباغين خارج باب النيرب ، بينما ضمت حماة ثماني دباغات لدبغ جلود الحيوانات ويدعى قسم من هؤلاء الدباغين الذين يدبغون جلود الغنم والماعز فقط بالحوارين ، أي دابغو الحور ، وكان عددهم في المدينة في منتصف القرن 10 هـ / 16 م ثلاثة عشر معلما وصانعا ، بينما القسم الثاني الذين يدبغون جلود البقر والجاموس والجمال فهم السختيانيون ، وكان عددهم ستة عشر معلما.<sup>(5)</sup>

#### ب - صناعة الأحذية :

يتجمع الأساكفة عادة في سوق خاص بهم ويصنعون كافة أنواع الأحذية ويصلحونها ، وكانوا يحصلون على المادة الأولية من الدباغين والحوارين ، ومن بين أنواع الأحذية المصنوعة نجد الزراميز وهي الأحذية الخفيفة المصنوعة من الجلد<sup>(6)</sup>

#### ج - صناعة السروج :

(1) - يسمى محلها "المدبغة" ، ويسمى أهل الشام عموما "الدباغة" ، وتكون عادة بجوار النهر ، ويستعمل الدباغ طرق ووسائل مختلفة لإزالة الشعر سواء بالمعالجة بالتعريق بالنسبة للجلود السمكية ، أو المعالجة بالكلس ، وهناك من يستعمل النورة وهي خليط من الكبريت والكلس والزرنيخ. وهذه الحرفة رائج على الرغم من كونها مكروهة .محمد القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية، مرجع سابق ، ص 140 - 143.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص 751.

(3) - عبد الودود يوسف برغوث : "طوائف الحرف والصناعات في حماة في القرن العاشر الهجري" مرجع سابق ، ص 96 - 97.

(4) - باسم إحشيش ، ناحية خليل الرحمان في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي رسالة ماجستير ، جامعة النجاح ، فلسطين ، 2000 ، ص 115.

(5) - المرجع السابق ، ص 96.

(6) - نفسه ، ص 98.

تنتشر دكاكين السراجين في سوق السراجين وهم الذين يتولون توفير السروج لكل دواب الركوب خاصة للحكام، ويتطلب عملهم اتقاناً وهو ما يتوقف على جودة الجلود المدبوغة من طرف سواء الدباغين أو الحواريين، وغير بعيد عن السروج كانت تصنع برادع حيوانات الركوب.<sup>(1)</sup>

كما انتشرت العديد من الحرف مثل الحدادين، وصانعي المسامير بمختلف أنواعها وأحجامها، وكذا النحاسين الذين يصنعون قدور الحمامات وقدور معامل الصابون، وكان لحرفيي حماة شهرة في المنطقة حتى أن قدور حمام بطرابلس تم سكبها من طرف نحاس حموي،<sup>(2)</sup> بينما تتم عملية تبييض النحاس وهذا عن طريق طليه بالقصدير، وصناعة أواني المطبخ من طرف طائفة حرفية تسمى طائفة المبيضين.<sup>(3)</sup>

## 8 - القصابون (الجزارون)

إن ذكر الدفاتر للرسوم المفروضة على هذا المرفق يعطينا فكرة عن وجود المواشي التي يستفاد من لحومها وجلودها وأصوافها سواء الغنم أو الماعز إضافة لورود ذكر المبيعات في الأسواق للجمال والخيول والبغال والجواميس والبقر، وكان وجود أفراد القوة العسكرية في المدن والمنشآت الوقفية فيها على غرار المدارس والتكايا والخانات سبباً إضافياً لضرورة تواجد المذابح والقصابين وقد أوجب القانون على القصابين الذبح فقط في مذبح واحد ومنع القيام بذلك في البيوت وحدد القانون وقت عمل القصابين من الصباح إلى العصر،<sup>(4)</sup> في حلب كانت المذابح في الجهة الشرقية للمدينة في بانقوسا ومنها تنقل الذبائح على أكتاف الرجال إلى محلات اللحامين في مناطق مختلفة من المدينة.<sup>(5)</sup>

لم تقتصر الصناعة على سكان المدن فحسب بل حتى البدو كانت لهم صنائعهم وإن كانت مرتبطة بطبيعتهم البدوية، فالعمل الرئيسي الذي يقره المجتمع البدوي هو تربية الماشية، ومنها يأتي مصدر غذائهم

(1) - عبد الودود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات بحماة"، ص 98.

(2) - نفسه ص ص 94 - 95..

(3) - نفسه، ص 95.

(4) - بالنسبة لمدينة كبيرة كدمشق فإن وجود محلات القصابة أمر ضروري للإيفاء بحاجيات سكانها وكذا الحامية العسكرية الموجودة بها، لكن لا يخفى الخطر الذي قد ينجر عن عمليات الذبح الفوضوي للماشية دون تنظيم من الدولة، وقد وصلت إلى مسامع السلطة المركزية أنباء عن الوضع في غياب مسلخ مناسب في المدينة، فصدر الأمر السلطاني المؤرخ في 16 شوال 975هـ/14 أبريل 1568م إلى كل من بكركي الشام ودفتردارها بالعمل على إجراء دراسة حول المنافع التي تعود على أهالي المدينة بعد بناء مسلخ في مكان مناسب، علماً أن الدولة أخذت في الاعتبار وجود طائفة من اليهود تعيش في المدينة، لذا فقد تم السماح لهؤلاء اليهود بذبح ما يحتاجونه من الأنعام في مسلخ خاص بهم وكان الأمناء يأخذون مقابل ذلك رسوما باسم "النخيرة". أنظر:

- مهمة دفترتي 7، ص 449، الحكم 1295. نقلا عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، مصدر سابق، ص 127.

- محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات الشام على ضوء دفتر طابو T.D.474 سنة 1569" مرجع سابق، ص ص 46 - 47.

(5) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 43.

وهي في ذات الوقت مصدرا لألبستهم وخيامهم التي نسجوها من صوفها ووبرها وشعورها ، وأكثر ما ينسجون : السجاد والأجولة وجلال الدواب ، وفي أثناء ذهابهم إلى الأسواق القريبة من محل إقامتهم يتقايضون على الفائض من منتجاتهم ،<sup>(1)</sup> وعموما فإن كل عشيرة تعيش حياة اقتصادية مغلقة تكتفي ذاتيا من خلالها ، وفي القانوننامة يوجد رسم قدره أقجة واحدة عن كل خروفين ، ورسم حظائر قدره 5 أقجات عن كل قطيع غنم يضم 300 رأس ، إلى جانب ممارستهم الصيد في فصل الشتاء ، كما نجد بعض العشائر البدوية تقوم بصناعة السهام والأقواس للدولة.<sup>(2)</sup>

---

(1) -أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص 571.

(2) -أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ، مج 1 ، مرجع سابق ، نفس المكان.

# الفصل الثالث

## التجارة

تحتل التجارة مكانة هامة في تحريك الواقع الاقتصادي والاجتماعي على كافة المستويات، وتترك بذلك أثرا عميقا في البلد أو المدينة التي يكون فيها نشيطا ومميزا، وهذا ما ينطبق على بلاد الشام في العهد العثماني<sup>(1)</sup>، حيث أصبحت مع مطلع القرن السادس عشر جزء من دولة مترامية الأطراف تمتد على مساحة شاسعة، مما أمكن كل فرد من رعايا السلطان العثماني أن يسافر من الدانوب في شرق أوروبا إلى المحيط الهندي، ومن بلاد العجم إلى المغرب دون أن يخرج عن الشرائع نفسها ولا عن النظام الإداري الذي إعتاده، بل دون أن يضطر لاستعمال لغة جديدة أو قطع من النقود غير التي عرفها في بلاده، وهي حالة لا تخفى أهميتها في سبيل تعزيز حركة التجارة الداخلية،<sup>(2)</sup> وعلى هذا الأساس بدأت المدن الشامية في منتصف القرن السادس عشر تشهدا نمواً وانتعاشا في النشاط التجاري سواء فيما بين أسواقها، أو مع أسواق مصر والجزيرة العربية، وأسواق المغرب وأوروبا، وقد أدى ذلك إلى وجود ما يمكن أن نسميه "صحوة تجارية" شهدتها بلاد الشام خلال هذه الفترة.

## 1 - أهمية ومكانة التجارة في بلاد الشام العثمانية :

حظي التجار دوما بالاحترام في المجتمع الشامي ذلك أن حرفتهم التي يمارسونها كانت في الاعتبار العام أشرف المهن،<sup>(3)</sup> ففي مدينة شامية مثل حماة كانت طائفة التجار أقوى طائفة مهنية في المدينة، كما كان شيخها هو شيخ مشايخ الطوائف كلها، ويسمى شيخ التجار أو شيخ السوق،<sup>(4)</sup> وما كان في حماة لا شك بأنه ينطبق على المدن الشامية الأخرى مثل حلب ودمشق وطرابلس والقدس الشريف، بل وحصل في كثير

(1) - ساد الاعتقاد لدى الأوساط الأكاديمية أن التجارة العثمانية بشكل عام على أنها عمل يقوم به التجار الأجانب أو أفراد من الأقليات باستثناء تجارة تأمين المؤن لإسطنبول، وحتى هذه نادرا ما كانت تعتبر تجارة حقيقية بدعوى أنها كانت خاضعة لسيطرة صارمة من قبل الدولة وأن التجار المشتغلين بها هم تابعون للإدارة المركزية العثمانية في مقابل فقدان الدولة لأي مبادرة في مواجهة تجار أوروبا الماركتيلية، إلا أن هذه النظرة سرعان ما تغيرت في النصف الثاني للقرن العشرين بعد أن اتضح بأن الفلاحين كانوا -حتى القرن السادس عشر و القرن الذي يليه - منخرطين في عملية التسويق ولو أن ذلك كان من أجل دفع ضرائبهم، كما أن التجارة استمرت عنصرا أساسيا في تماسك الدولة والمجتمع العثماني، ولم تكن التجارة نشاطا مفروضا من الخارج، وكانت الدولة دوما تبحث عن إيجاد كيفية للسيطرة على أنشطة التجار دون اعاقا النشاط التجاري الذي كان أساسيا في مسار جباية الضرائب. خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص ص 125 -126.

(2) - جان سوفاجيه، دمشق الشام؛ لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب، تعريب فؤاد أفرام البستاني، تحقيق أكرم حسن العليبي، ط1، الحمراء، دمشق 1989، ص ص 99 -100.

(3) - خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2017، ص 130.

(4) - عبد الودود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص 88.

من الأحيان ترابط بين ممارسة التجارة وممارسة "العلم"، مما جعلهم -أي التجار - على العموم يعيشون في بجوحة مقارنة مع أصحاب المهن الصناعية.<sup>(1)</sup>

بدا وصول العثمانيين إلى دمشق وباقي بلاد الشام للدمشقيين وكأنه مجرد حدث محلي لا مناسبة مميزة ستفتح عهدا جديدا للمنطقة، فقد كانت بالنسبة لهم مجرد تغيير حاكم بآخر،<sup>(2)</sup> لكنه في الحقيقة قد غير من وضع دمشق التي أصبحت ولاية متوسطة في رحاب دولة مترامية الأطراف تمتد على ثلاث قارات، لقد كرس العثمانيون دولة جديدة تتميز بازدهار الريف والمدن نتيجة الاهتمام بالفلاحين.<sup>(3)</sup>

تبرز الوثائق العثمانية خاصة دفاتر التحرير بأن بلاد الشام دخلت مرحلة جديدة بما تحقق من هدوء واستقرار في الريف وازدهار في المدن خلال السنوات الخمسين الأولى للوجود العثماني انعكس على النشاط التجاري بها، إذ نمت القرى وتوسعت المدن بعد أن كادت تندثر على إثر سقوط الحكم المملوكي، بل وبدأت تظهر قرى جديدة، وتنتعش قرى قديمة وتتطور، والنتيجة هي تزايد عدد السكان في العقود الأولى للحكم العثماني<sup>(4)</sup> وسرعان ما برزت نتائج مسألة ترحيل الحدود إلى الشرق واضحة، فتحوّلت المنطقة ككل وحلب بوجه خاص إلى نقطة عبور إجبارية للبضائع الفاخرة القادمة من الخليج والهند بعدما كانت مدينة على التخوم في الفترة المملوكية<sup>(5)</sup> وانخرطت بسرعة في التجارة العالمية، وتجلّى هذا النشاط التجاري في إقامة الأسواق والخانات والمجمعات العمرانية<sup>(6)</sup> وتعد الأسواق الوجه الأكثر تعبيرا عن هذا النشاط حيث عرفت توسعا كبيرا، وزاد عددها وتنوعت أنشطتها، فنشأت الأسواق الجديدة خاصة تلك المسقوفة منها والتي زخرت بمختلف أصناف السلع القادمة من أوروبا والهند أو المصنعة محليا، كما عجت المدن - وبالخصوص حلب - بالتجار الوافدين من كل مكان فكانت المؤسسات الخدمية كالخانات والقيساريات المكان الذي يقيمون فيه ويأمنون على سلعهم وقوافلهم.

(1) - عبد الودود يوسف برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص 130.

(2) - أوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، تعريب محمد ابراهيم الجندي، نشر مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، ط 1، مصر 2011، ص 32.

(3) - نزيه الكواكبي "الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني" مجلة التراث العربي، العددان 55 - 56، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1994، (ص 177 ص 195) ص 183.

(4) - Omer Barkan ; « essai sur les données statistiques », op cit, p 25.

(5) - أندري ريمون: المدن العربية الكبرى، مرجع سابق، ص 37.

(6) - نزيه الكواكبي، الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 184.

## 2 -عوامل ازدهار التجارة:

ساهمت عدة عوامل في تنشيط الحركة التجارية في بلاد الشام عموماً، وإن كانت حلب الأكثر حظاً ونالت القسط الأكبر من هذه الحيوية، ولعل ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى مجموعة من العوامل يمكن إيجازها في النقاط التالية:

- تحوّل حلب -تحت الحكم العثماني - إلى مدينة مركزية في قلب دولة مترامية الأطراف بعد أن كانت في العهد المملوكي مدينة تخوم على الأطراف.<sup>(1)</sup>

- ظهور حلب كمركز لولاية جديدة تم استحداثها سنة 1549م، بعدما كانت ضمن ولاية العرب التي أنشأها العثمانيون عقب دخولهم للمنطقة، مما سمح لها باحتلال المركز والسيطرة على تقاطع طرق التجارة بين الشرق (الهند وبلاد فارس) والغرب (أوروبا)، وبين الشمال (الأناضول) والجنوب مصر والحجاز وبلاد الشام الجنوبية.<sup>(2)</sup>

- بروز أفضلية الطرق البرية مع الهند بالمقارنة مع الطرق البحرية التي أصبحت تعج بالقراصنة خلال القرن السادس عشر، مما جعل حلب مركزاً مهماً في الطريق الممتد من الهند إلى شرقي البحر المتوسط.<sup>(3)</sup>

- تزايد أهمية الحرير في الاقتصاد الأوروبي في القرن السادس عشر مما جعل من حلب مركزاً لتخزين وتوريد الحرير إلى أوروبا<sup>(4)</sup> نظراً لموقعها الذي يتوسط مناطق الإنتاج في (بلاد فارس) والمستوردة (أوروبا).<sup>(5)</sup>

(1) -نزيه الكواكبي، الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ص 35 -37.

(2) - ليلى الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ج 1، بيروت 1989، ص ص 308-310.

(3) - لا أدل على ذلك من الرحلات التي قام بها الرحالة والتجار الأوروبيون خلال القرن السابع عشر من أمثال جان باتيست تافارنييه الذي سافر إلى الهند لأغراض تجارية انطلاقاً من الطريق البري المار بحلب. أنظر:

Jean Baptiste Tavernier ; les six voyages de Jean Baptiste Tavernier ECUYER BARON D'AUBONNE Qu'il a Fait EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDES ; 1ere partie, Paris

(4) - كانت حلب سنة 1600م (مطلع القرن السابع عشر الميلادي) أكثر أسواق تصدير الحرير أهمية في الشرق، حيث اشترت البندقية وحدها وحدها نصف حرير إيران وبلاد الشام الخام، والذي بلغ مائة وأربعون طناً بقيمة مليون ونصف المليون دوكا في السنة، مستفيدة من حالة السلم التي سادت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية خلال الفترة ما بين 1599 -1602م قبل أن تستأنف سنة 1603م. خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 361.

(5) - محمد الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 66.

- توفر الأمن في ضواحي حلب بالمقارنة مع دمشق التي كانت مهددة باستمرار بهجمات البدو، إلى جانب تراجع الضغط الخارجي الصفوي بدرجة أساسية عليها في إطار السلم الذي ساد خلال معظم فترات القرن السادس عشر في إطار السلم العثماني.<sup>(1)</sup>

- يمكن أن نظيف عاملاً آخر للنشاط في الميدان التجاري وهو توفر الخدمات والمرافق وهذا بفضل الأوقاف العديدة التي ظهرت بالمدن الشامية، ففي حلب أنشأ أربعة ولاية تداولوا على حكم الإيالة مجموعة من المنشآت الوقفية لخدمة الأغراض التجارية أهمها ما قام به الوالي محمد باشا دو كاجين (ابن توقة دين)<sup>(2)</sup> من أوقاف<sup>(3)</sup> شملت عمائر لخدمة التجارة كما هو الحال للقاسارية المشيئة بمحلة (جب أسد الله) في جوار المدرسة الحلوية، والقاسارية الكائنة خارج باب بانقوسة والتي تشمل سبعة مخازن وسبعة دكاكين والقاسارية الثالثة داخل باب أنطاكية وتشمل ستة وعشرون مخزناً بالإضافة إلى اثني عشر حانوتاً وفرنين<sup>(4)</sup>.

- طريق الحج: فقد كان لعبور قافلة الحج الشامي المنطلقة سنوياً من شمالها إلى جنوبها، وتجمع عشرات الآلاف من الحجاج من مختلف البلدان بدمشق أثر آخر في تنشيط الحركة التجارية في المدينة لمدة أربعة شهور في السنة<sup>(5)</sup>.

- كما كانت الامتيازات التجارية التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأوروبية وبالخصوص بعد توقيع الاتفاقية مع البندقية سنة 1521م<sup>(6)</sup>، ثم مع فرنسا سنة 1536م وبريطانيا سنة 1580م<sup>(7)</sup> عاملاً هاماً في تنشيط التجارة مع أوروبا.

(1) - محمد الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، مرجع سابق، ص 59 - 63.

(2) - رضي الدين ابن الحنبلي، درر الحبيب في أعيان حلب، ج2، القسم1، مصدر سابق، ص 69.

(3) - أوقفه على والدته أخت السلطان سليم الأول التي توفيت في طريق عودتها من الحج حيث دفنت في حلب في ربيع الأول 959هـ/ مارس 1552م. أنظر: نفس المصدر، ص 69.

(4) - محمد م. الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص 68.

(5) - مع توسع وانتشار الإسلام وضم البلاد العربية إلى الدولة العثمانية أصبح السلطان العثماني خادماً الحرمين الشريفين ومن ثم فقد أبدى اهتماماً خاصاً بالحج عبر طريق الحج الشامي فأصبحت القافلة المنطلقة سنوياً من دمشق أهم قافلتين للحج في ذلك الوقت، لقد كان تجمع العدد الهائل من الحجاج من الأناضول والبلقان والعراق وإيران وآسيا الصغرى والاقامة في مدن الشام قد صاحبه حركة تجارية نشطة، فأصبحت الكثير من البضائع القادمة من البلقان والأناضول وآسيا الوسطى تتجمع في دمشق حيث يتم تداولها، ويتكرر الأمر مع بضائع الحجاز أثناء رحلة العودة. جان سوفاجيه، دمشق الشام، مرجع سابق، ص 101.

(6) - وقعت الدولة العثمانية والبندقية معاهدة في زمن السلطان سليمان القانوني سنة 1521م نصّت على: أن يُقيم سفير البندقية في اسطنبول على أن يجري تغييره كل ثلاث سنوات، وتكون مهمته النظر في شؤون رعاياه، ومنعت المعاهدة التجار البنادقة من التنقل في أرجاء الدولة دون إذن منه. أنظر: ليلي الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، العاشر والحادي عشر الهجريين، ج2، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت/ 1989م، ص 548.

(7) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج1، مرجع سابق، ص 686.



- كان تأثير الموقع الجغرافي لبلاد الشام بارزا في الحركية التجارية التي عرفتھا المنطقة، فالموقع الجغرافي المميز لبلاد الشام بمدنها الداخلية كحلب ودمشق والقدس، وموانئها كطرابلس وبيروت وصيدا وحيفا، ومرور طرق القوافل وطريق الحج الشامي بالخصوص عبرھا أثره على نشاط وازدهار التجارة، جعل السلع تتدفق علیھا من كل مكان، فمن الشرق المنتوجات الهندية وبالخصوص التوابل<sup>(1)</sup> والحرير الصيني والإيراني، ومن الغرب وعبر الموانئ تدفق التجار الأوربيون ونقلوا السلع نحو بلدانهم<sup>(2)</sup>، ومن الجنوب سلع اليمن، وشكلت المنطقة من ذلك مركزا تجاريا هاما في الدولة العثمانية.

أدت الطرق البرية دورا كبيرا في التجارة العثمانية عموما على الرغم من كون النقل بواسطة الجمال أو العربات التي تجرھا الثيران أكثر كلفة<sup>(3)</sup> في ظل غياب شبه كلي للنقل المائي في بلاد الشام باستثناء النشاط في ميناء طرابلس أو بشكل أقل في بيروت وحيفا، لذلك كانت طرق القوافل تخضع للسيطرة الشديدة من قبل الدولة<sup>(4)</sup>.

### 3 - أهم طرق التجارة في بلاد الشام:

يعتبر الطريق الرابط بين اسطنبول ودمشق مرورا بحلب ذو أهمية بالغة للدولة العثمانية تجاريا ودينيا، فبواسطته منه يتم التواصل مع الأناضول والبلقان، أو بمصر والحجاز واليمن ومنها نحو المحيط الهندي، وهو الطريق الذي تسلكه قافلة الحج الشامي نحو البقاع المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة<sup>(5)</sup>، لكن ميزته أنه كان يمر في مناطق السهوب قبل أن يتحول إلى طريق صحراوي بمعنى الكلمة، وضمن أراضي البدو الذين كثيرا ما أدت غاراتهم على هذا الطريق إلى اهتزاز سمعة الدولة، مما جعلھا تأخذ عاتقھا مسؤولية بناء مراكز

(1) - لم تكن التوابل ضرورية فقط للاستخدام في الأطعمة، بل كانت تشكل أيضا مكونات أساسية لأنواع كثيرة من الأدوية، وكان تجار التوابل في الأسواق من بين أكثر أصحاب الدكاكين احتراما، ومن أكثر أنواع التوابل المتداولة في هذه الأسواق: الفلفل، الزنجبيل، كبش القرنفل، القرفة، إكليل الجبل، جوز الهند، البخور. خليل اينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 488.

(2) - أصبحت طرابلس السوق الرئيسية لتجارة التوابل القادمة من دمشق، وكان التجار المسيحيون يقصدون ميناءها بكثرة في النصف الثاني للقرن 16م، وكانت سفن التي تزور طرابلس تأتي من البندقية وفرنسا، وجزيرة قبرص، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى انخفاض الضريبة على هذه السفن. خليل اينالجيک، نفس المرجع، ص 497.

(3) - خليل اينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، ص 136.

(4) - ساهم التوسع العثماني في بلاد الشام ومناطق البادية في فرض السيطرة العثمانية على طرق القوافل، وسهّل تطوير التجارة بين موانئ الخليج وحلب التي تزايد دورھا كسوق تجارية رائجة للحرير القادم من الهند وكذلك التوابل والمنسوجات الهندية بالنسبة للأوربيين. خليل اينالجيک: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 487.

(5) - اينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، ص 138.

عمرانية في مواضع معينة ، مثلما هو الحال في سعسع و عيون التجار والقطيفة في القلمون<sup>(1)</sup> ، وكانت أغلب هذه التجمعات عبارة عن تحصينات يقيم بها عدد قليل من السكان.<sup>(2)</sup>

يضاف إلى الطريق الأولى طريق حلب - بغداد والبصرة على امتداد نهر الفرات<sup>(3)</sup> ، واكتسبت هذه الطريق أهميتها من الجانب العسكري ، حيث ظلت لفترة طويلة ممرا لعبور الجيوش العثمانية لمواجهة الصفويين<sup>(4)</sup> ، ولتجارة الهند عبر ميناء البصرة وسواحل الخليج ، على الرغم من الخطر البرتغالي.<sup>(5)</sup>

كما كانت حلب تتصل بالطرق البحرية في المتوسط عبر الإسكندرون وبانياس،<sup>(6)</sup> أما طريق حلب - حلب - طرابلس فقد كان الأوروبيون الأكثر استعمالا له.<sup>(7)</sup>

كانت هناك طريق أخرى للقوافل التجارية تربط القاهرة بدمشق مروراً بالعريش وغزة باتجاه مركز الحجاج في الخليل ، وجدير بالذكر أن التجار المشتغلون بتجارة البحر الأحمر لا سيما مستوردو القهوة ، يستعملون طرق الحجاج البرية والبحرية.<sup>(8)</sup>

#### 4 -أنواع التجارة:

##### أ - التجارة المحلية:

تجري في أسواق المدن الشامية سواء دمشق أو حلب أو حماة و طرابلس و القدس<sup>(1)</sup> أو قراها،<sup>(2)</sup> وكان القدر الكبير من التجارة يجري بالإجمال في أسواق المدن<sup>(3)</sup> والقرى،<sup>(4)</sup> وكان لكل نوع من التجارة

(1) - محمد الأرناؤوط ، دور الوقف في المجتمعات الاسلامية ، مرجع سابق ، ص 56، ص 59 - 61

(2) - المرجع السابق ، ص 140.

(3) - يصف الرحالة الإيطالي الطريق التي كان التجار والرحالة الأوروبيون يسلكونها و تمتد من حلب باتجاه بغداد مروراً ببيرة جيك على الفرات ثم عبر النهر إلى القائم ، وعنة ، وهيت وصولاً إلى الفلوجة ، ومنها برا إلى البصرة ثم هرمز ، وديو ، وكيافول ، وكوجي ، حتى مرتبان في دولة ميانمار حالياً .أنظر : كاسبارو بالبي ، رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي إلى حلب -دير الزور -عنه -الفلوجة -بغداد سنة 1579 ، عربيها عن الإيطالية الأب د. بطرس حداد ، الدار العربية للموسوعات ، ط 1 ، بيروت 2008 ، ص 20.

(4) -André Raymond ; Alep à l'époque ottoman (XVIe-XIXe siècles) in : Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n° 62,1991. Alep et la Syrie de Nord, p94.

(5) - اكتسبت تجارة الخليج مع الهند أهمية بالغة على حساب تجارة البحر الأحمر في ظل السيادة العثمانية التي بادرت إلى انشاء ولاية الأحساء الأحساء عام 1552م بهدف حماية تجارة البصرة مع الهند ، والتصدي لغارات البرتغاليين على سواحل الخليج ، ولأن البرتغاليين في هرمز على مدخل الخليج كانوا يسيطرون على تجارة الهند مع ايران والدولة العثمانية فإن تنافسا وصراعاً شديداً كان بين هذه الأطراف . خليل اينالجيك ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص 484 - 485.

(6) - لم تكن باباس ميناء رئيسياً على البحر المتوسط على الرغم من التحصينات التي أقامتها الإدارة العثمانية إلى جانب السوق المغطاة بالمدينة و عديد الحوانيت ، غير أن أهميته برزت أثناء حروب الدولة العثمانية ضد الصفويين كنقطة لنقل المواد الحربية . خليل اينالجيك ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، مج 2 ، ص 140.

(7) - نفسه ، ص 141.

(8) - نفسه ، نفس المكان.

سوق خاص بها<sup>(5)</sup> أو خان، أما البضائع المتداولة في هذه الأسواق<sup>(6)</sup> فهي من نتاج الريف أو البادية، أو من نتاج أسواق الصناعات و دورها، دون أن نغفل بأن مدن بلاد الشام الرئيسية محاطة بريف غني زراعيا ينتج مختلف المحاصيل التي يذهب جزء كبير منها نحو الأسواق لتلبية حاجيات السكان الداخلية، أو لتصريف الفائض منها نحو الأسواق المجاورة وحتى خارج حدود الدولة العثمانية، وهذا في مقابل السلع الآتية من العالم الاسلامي أو أوروبا، وعادة تكون الأسواق الرئيسية قريبة من بعضها البعض وتكون ملاصقة للخان الكبير، كما أن بعض الأسواق تخصص في بيع سلع محددة مما يجعل الأمر سهلا بالنسبة للتجار الأجانب<sup>(7)</sup> إذا ما تعلق الأمر بمدينة يكثرون بها كما هو الحال بالنسبة لحلب.

### ب - التجارة مع ولايات الدولة العثمانية :

ساعد الموقع المميز لبلاد الشام أن تكون معبرا لمختلف السلع بين ولايات الدولة، كما أن ازدهار الزراعة وتوفيرها لكم هائل من المواد الصناعية أوجدت فائضا من السلع والبضائع المختلفة خاصة الحرير الخام، وزيت الزيتون، والقطن، و انتاج الصابون، وقد أدت هذه المنتجات التي جاءت من المناطق المجاورة للمراكز التجارية الكبرى مثل حلب إلى قيام تجارة ليست فقط على الصعيد المحلي الداخلي بل أيضا على الصعيد الإقليمي،<sup>(8)</sup> لذلك كانت التجارة نشطة بمدنها إذ أنها -إلى جانب بضائعها التي كانت تنتجها

(1) - عرفت الأسواق في مدن بلاد الشام تزايدا كبيرا منذ ستينيات القرن السادس عشر، ولعل العامل الرئيس لذلك هو لجوء المؤسسات الوقفية في الاستثمار في مجال الحوانيت وأماكن التخزين، مما أضفى على التجارة المحلية حيوية ونشاطا. نفس المرجع، ص 144.

(2) - كان جزء هام من التجارة يجري في أسواق القرى و غالبا ما كانت هناك سوق في كل ناحية أو قضاء كما أن الأسواق كانت هامة و ضرورية لنظام جباية الضرائب ذلك أن الفلاحين كانوا مطالبين بدفع جزء من الضرائب نقدا، والتماري نفسه صاحب الأرض يحتاج إلى بيع بعض الغلال التي يجمعها كي يشتري الخيول و الأسلحة التي يحتاجها في أثناء الحملات العسكرية رفقة من تجب عليه تجهيزه. نفس المرجع، ص 144.

(3) - الأسواق: أبنية حجرية مرتفعة على شكل رواق طويل معظمها ضيق جدا، تكون مقوسة من الأعلى أو مسقوفة بالخشب، وتصطف الحوانيت التي تكون إما مبنية داخل الجدار أو تكون ناتئة عنه مغطاة بمظلة خشبية على الجانبين فوق مصطبة قليلة الارتفاع على طول الرواق، وتغلق ليلا بأبواب قابلة للثني ويتم قفلها، وفي بعض الأسواق تكون الحوانيت ضيقة جدا حتى أن صاحب الحانوت يتعذر عليه حتى عرض بضاعته أو أن يجلس هو أو أحد ضيوفه بشكل مريح من الداخل، كما يتعين على الشاري أن يقف خارج الحانوت، وعندما تزدهم المحال المتقابلة يتعذر على المار أن يشق طريقه عبر الزحام. ألكسندر راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 34.

(4) - خليل اينجليك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مج 2، مرجع سابق، ص 143.

(5) - يذكر ابن المبرد يوسف بن عبد الهادي وجود 150 سوقا في دمشق، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق، مصدر سابق، ص ص 22- 27.

(6) - كانت مسألة انشاء الأسواق أمرا ضروريا للأداء السلس لنظام الجباية الضريبية، فالفلاحون كان يتوجب عليهم دفع الضرائب نقدا، وحائزو التيمار يحتاجون لبيع بعض الغلال التي يجمعونها لكي يشتروا الخيول والأسلحة. خليل اينجليك، المرجع السابق، ص 144.

(7) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 35.

(8) - خليل اينجليك، المرجع السابق، ص 159.

أراضيها وأسواق صناعاتها<sup>(1)</sup> -توافرت خدمات النقل ، حيث توجد بها أعداد كبيرة من الإبل والبغال والخيول تحمل عليها البضائع من مكان لآخر ، وأحسن الأمثلة على هذا النشاط ما ذكر من تعاقد جمال مع بعض التجار ليحمل لهم أحد عشر حملا من الحشب والقماش من حماة إلى مصر مع القافلة المتوجهة إليها ، كما تعاقد جمال آخر مع تاجر ليحمل له خمسة أحمال ونصف من الجوخ من حماة إلى مكة ، كما اشترى تاجر حموي من حلبي عددا من الجلود

المذبوغة وغيرها ، وتعهد جمال بحمل خمسة أحمال من البن وسائر الأمتعة من دمشق إلى حلب ،<sup>(2)</sup> كما كان الصابون يُصدّر من بلاد الشام نحو مصر بالخصوص.<sup>(3)</sup>

عرفت التجارة بين مدن بلاد الشام ومصر حركة نشطة خاصة بين طرابلس وصيدا من جهة ، ودمياط من جهة ثانية ، وتركزت أساسا على سلعتين هما الأرز والحرير<sup>(4)</sup> ، كما أن بعض السلع المصرية التي يتم استيرادها إلى طرابلس كان يعاد تصديرها إلى أوروبا أو إلى المناطق الداخلية من بلاد الشام<sup>(5)</sup> ، يلاحظ كذلك ازدهار تجارة الرقيق أو ما يعرف بالجواري السمر بين طرابلس ومصر<sup>(6)</sup> .

### ج - التجارة مع أوروبا :

عرف النشاط التجاري في بلاد الشام ازدهارا عقب الدخول العثماني إلى المنطقة ، وقد كانت معاهدة الامتيازات عاملا محفزا لهذا النشاط خاصة مع تجار البندقية وفرنسا ، بينما كان الإنجليز يفضلون الاعتماد على تجارة المرور ، وركزوا نشاطهم على حلب وميناء الإسكندرونه لنقل بضائعهم خاصة الحرير المستورد من بلاد فارس ، مما شجعهم على انشاء شركة الهند الشرقية البريطانية ، ولعل أكثر ما يؤكد وجود الصلات التجارية بين مدن بلاد الشام وأوروبا العدد الهائل من الخانات التي استخدمت كفنادق للتجار الأجانب ، وكمكان للتجارة ولتخزين السلع والبضائع مثل خان الحرير في دمشق والذي بناه الوالي درويش باشا عام 981هـ / 1573 - 1574م في المدينة القديمة<sup>(7)</sup> ، وكذا القنصليات الأوربية كما هو الحال في حلب ،

(1) - أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ، مج 1 ، مرجع سابق ، ص 499.

(2) - عبد الودود برغوث : " تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989هـ / 1581م " مرجع سابق ، ص 81.

(3) - سبقت الإشارة إلى أحمال الصابون المصدرة من مدينة القدس إلى الخارج وبخاصة نحو مصر والمقدرة بـ 11055 أقة سنويا بمقدار 16 أقة عن كل حمل بعير. أنظر : دفتر مفصل 516 إس ، مصدر سابق ، ص 131.

(4) - فاروق حيلس ، أبحاث في تاريخ ولاية طرابلس إبان الحكم العثماني من خلال الوثائق الرسمية العثمانية ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت 2007 ، ص 143.

(5) - نفسه ، ص 148.

(6) - نفسه ، ص 149.

(7) - نزيه الكواكبي : " الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني " ، مرجع سابق ، ص 186.

إضافة للرحالة الوافدين عليها باستمرار، وعلى الرغم من الخلافات السياسية التي تنشب من حين لآخر بقيت الصلات التجارية نشطة ولم تتأثر بذلك.

#### 4 - المقاربة العثمانية للتعامل التجاري مع الأوربيين :

تعكس الوثائق والأحكام الصادرة عن أعلى الهيئات الرسمية في الدولة العثمانية المفاهيم الرسمية لنظرة الدولة إلى التجار الفرنسيين والإنجليز والبنادقة، وهي تتيح لنا أن نحدد المضمون الذي نفسر من خلاله الامتيازات الممنوحة للأجانب، فالدولة العثمانية حرصت على أن شؤون التجار الأجانب ينبغي أن يُعهد بها إلى موظفين صغارا قدر الإمكان، وهكذا كان هؤلاء التجار غالبا ما يتعاملون مع موظفين مؤقتين<sup>(1)</sup>.

في المراكز الصغرى كانت المشكلات التجارية تحتاج إلى الحل من خلال مفاوضات اعتباطية<sup>(2)</sup> خاصة مع التجار الأجانب، وتوضح الأحكام السلطانية العثمانية حرص الدولة على السماح لتجار الدول التي تربطها علاقات صداقة معها بالحركة، لكنها في نفس الوقت تطالب موظفيها - باستمرار - بتوخي الحذر الشديد ومراقبة هؤلاء التجار، فهي تنظر إليهم على أنهم كفار يمكن أن يغدروا بالمسلمين في أي لحظة.

ويمكننا أن نستشعر مدى هذا التوجس في هذا الحُكم السلطاني الموجه إلى بكربكي الشام مؤرخ في غرة محرم 952هـ/15 مارس 1545م، يذكره بأن يسمح لتجار البندقية بالتردد على مدن الشام بغرض ممارسة التجارة بأمن وأمان وفق ما جاء في (عهد نامة) الموقعة مع دوق البندقية<sup>(3)</sup>، لكنه في نفس الوقت يطالبه بتوخي الحذر من حيلهم وخدعهم، وتشديد الرقابة على سواحل إيالة الشام وحراسة أرجاء القدس وطرابلس، وعليه أن يبلغ - في نفس الوقت - أمراء السناجق وحكام كل المناطق أن يحرسوا مناطقهم، وأن يحذروا من وقوع أمرٍ يتناقض مع شرف السلطنة العثمانية، غير أن الأمر السلطاني يعود ثانية إلى

(1) - كانت الدولة العثمانية ترى في الامتيازات التجارية الممنوحة لدول هؤلاء التجار تتعلق أساسا بالعلاقات داخل الدولة وتأتي التجارة في مرتبة ثانوية. أنظر، خليل اينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص ص 133 - 134.

(2) - نفسه، ص 133.

(3) - كانت البندقية صلة الوصل التي لا غنى عنها لتصدير التوابل المتدفقة من الهند إلى مصر والشام نحو أوروبا وقد عملت البندقية بجهد إبقاء ارتباطها بأسواق الشرق، وقد ساعدها في ذلك جاليبتها التي بلغت أربعة آلاف عائلة في هذه التجارة، والاعتماد على أسلوب المقايضة مما سمح لها في الأخير بتأمين البضائع الشرقية لمنطقة أوربية شملت إيطاليا وألمانيا ووسط أوروبا، وشكل كل ذلك غطاء اقتصاديا تقليديا معقدا قاومت البندقية فكرة تغييره لتنافس النظام الأطلسي الجديد الخاضع لاحتكار البرتغاليين، وهو ما ساعد في احداث التلاحم الاقتصادي بن شرقي البحر الأبيض المتوسط وغربه خلال القرن السادس عشر. خليل اينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 491.

التشديد على البكلربكي بأن أي طارئ يحدث بسبب الإهمال ؛ سوف يكون هو المسؤول ، وبالتالي يتحمل العواقب الوخيمة عن هذا التقصير.<sup>(1)</sup>

ويبدو أن السلطة السياسية العثمانية بقيت متشددة في علاقاتها مع التجار البنادقة ، وظل الحذر من الموظفين العثمانيين شديداً حتى أن سفير البندقية في اسطنبول قدّم تظلماً إلى الديوان الهمايوني بسبب ما يعتبره تدخلاً من دفتر دار الشام فيما يتعلق بحركة البضائع الواردة إلى حلب والشام عبر ميناء طرابلس ، واعتبر السفير بأن هذا التضييق على رعايا بلاده "يُلحق الضرر والخسارة والتعسر بكم أيضاً"<sup>(2)</sup> ، لذلك طالبت السلطة السياسية العثمانية من البكلربكي أن يخفف قليلاً من الإجراءات المشددة ضد التجار البنادقة ، وأن يقوم هو شخصياً بضبط النشاط التجاري بميناء طرابلس.<sup>(3)</sup>

وعلى ما يبدو فإن توجّس السلطة العثمانية من التجار البنادقة له ما يبرره ، فقد راسل أمير سنجق طرابلس محمد الديوان الهمايوني يُخطره بقيام بعض السفن الإفريقية الراسية في ميناء طرابلس باختطاف سفينة محملة بالصابون ، الأمر الذي استدعى مطالبة كل الموظفين بأخذ الحيلة والحذر من أي تحرّك مُريب ، لذلك صدر حُكم سلطاني إلى بكلربكي الشام مؤرخ في 28 ذي الحجة 977هـ/3 جوان 1570 يطالبه ببذل أقصى جهوده في حراسة السواحل والاحتياط من قيام أحد بإلحاق الضرر بأي محل.<sup>(4)</sup>

وإذا كان التعامل مع البنادقة ظلّ يشوبه الحذر ؛ فإنّ التجار الفرنسيين استفادوا من معاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية<sup>(5)</sup> وبذلك تمتّعوا أفضل من غيرهم بنوع من الحرية في التحرك في بلاد الشام وباقي أرجاء الدولة ، بفضل ما حصلوا عليه من تسهيلات<sup>(6)</sup> سمحت لهم بالحصول على إجراءات حماية براً وبحراً ،

(1) - مهمة دفترى طوب قابي E12321، ص 157 ب، الحكم 385. نقلا عن : فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفتر المهمة، ج 1، مصدر سابق، ص ص 103 - 104.

(2) - مهمة دفترى 7، ص 138 - 139، الحكم 356 مؤرخ في 17 ربيع الآخر 975هـ/21 أكتوبر 1567. نفسه، ص 86.

(3) - نفسه، ص 87.

(4) - مهمة دفترى 9، ص 98، الحكم 250. فاضل بيات، نفسه، ج 2، ص 284.

(5) - منحت الدولة العثمانية أولى الامتيازات التجارية لفرنسا عام 1535 في عهد ملكها فرانسوا الأول ، وذلك في زمن سليمان القانوني تقرّبا من فرنسا - العدوة التقليدية لآل هابسبورغ النمساويين ، حيث نص البند الثاني من المعاهدة على : ( يجوز لرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ، ولسيرها ونقلها برا وبحرا من مملكة لأخرى ودفع العوائد والضرائب المعتادة قديما ، بحيث يدفع الفرنسي في البلاد العثمانية ما يدفعه الأتراك ، ويدفع الأتراك في البلاد الفرنسية ما يدفعه الفرنسيون ، بدون أن يدفع الطرفان عوائد أو ضرائب أو مكوسا أخرى). يوسف علي رابع الثقيفي "معاهدة الامتيازات العثمانية - الفرنسية لعام 941هـ - 1535م " مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة أم القرى ، مج 6، عدد 6 1982 ، ص ص 168 - 169.

(6) - نتج عن التقارب العثماني - الفرنسي أن أقام أول قنصل فرنسي في حلب في أربعينيات القرن السادس عشر بصفته ممثلا تجاريا لفرنسا. أنظر : عبد الكريم رافق ، الاقتصاد الدمشقي والرأسمالية الأوروبية في القرن التاسع عشر ، بلاد الشام في العهد العثماني ، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق بين 26 - 30 سبتمبر 2005 منشورات إرسىكا ، اسطنبول 2009 ، ص ص 27 - 28.

مثلما أوصى به حُكم موجه إلى بكربكي الشام مؤرخ في 27 ذي القعدة 951هـ/09 فيفري 1545م الذي أوصاه بضمان عدم اعتداء القباطنة عليهم في البحر وعدم التدخل في شؤونهم<sup>(1)</sup>، واستمرّ التجار الفرنسيون يحظون بالرعاية والحماية وفق (عهد نامة) أو معاهدة الامتيازات حتى منتصف القرن السابع عشر.<sup>(2)</sup>

وإذا كانت الدولة تشجّع التجارة حتى مع الأجانب، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تضع لها بعض الضوابط خاصة بالنسبة للسلع الاستراتيجية كما هو الحال بالنسبة للحبوب، فقد فرضت حظراً على بيعها للدولة المعادية لها.

ويدلنا حُكم سلطاني موجه إلى أمير سنجق غزة مؤرخ في 14 رمضان 966هـ/20 جوان 1559م يأمره بتسليم الحبوب التي تمّ إنتاجها في أوقاف زوجة السلطان في مدينة الرملة إلى سفن التجار المسلمين القادمة من أرجاء رودس، لكن عليه أن يتأكد من بيعها للتجار المسلمين فقط وليس "الكفار الأذلاء"، وهذا بعد أن يستعرضوا إيصالات يزودهم بها أمير رودس بنفسه<sup>(3)</sup>، علماً أنّ قرار الحظر يشمل محصول أوقاف زوجة السلطان وغيره من الأملاك الأخرى<sup>(4)</sup>.

وتزامن مع وصول الحكم الشريف إلى أمير غزة أنّ تمّ إخطار أمير رودس بأن يختار الرجال الأكفاء الذين يثق فيهم فقط، ويمنحهم وصلاً يقدمونه لأمر غزة يسمح لهم بشراء الحبوب، وأن يبيعوها للمسلمين فقط في رودس، ويتحرّى الأمر جيّداً كي لا تقع في أيدي الكفار، ويوضّح الأمر مدى صرامة الدولة في مثل هذه المواقف؛ بحيث توعدّ الأمير بالعقاب في حال أيّ تقصير في هذا الشأن<sup>(5)</sup>.

ويبدو من هذه الأحكام أنّ السلطة المركزية أخذت على عاتقها تشجيع المبادلات التجارية بين رعاياها، وأنها فتحت المجال أمام تسويق الفائض من إنتاج الحبوب في إحدى ألويتها، لكن في المقابل حرصت على أن تصل هذه الحبوب إلى رعاياها الآخرين من المسلمين وليس أن تقع في أيدي غيرهم.

(1) - مهمة دفترى طوب قابي E12321، ص 97، الحكم 225. نقلا عن: فاضل بيّات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1، مصدر سابق، ص 93.

(2) - M.D.94, n°90, early Dhu al-hijja 1073/ july1663. in : Abdul-Rahim, Abu-Husayne, op.cit, p88.

(3) - مهمة دفترى 3، ص 4، الحكم 12. نقلا عن: فاضل بيّات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، م 2، سبق ذكره، ص 245.

(4) - نفسه، ص 246.

(5) - مهمة دفترى 3، ص 4، الحكم 13. نفسه، ص 246 - 247.



## 5 -الجمرك:

الجمرك هو الرسم الذي يجري تحصيله عن السلع والبضائع عند اجتيازها للحدود، وكانت الدولة العثمانية تقوم بالجباية عن البضائع عند حدودها وكذلك حتى أثناء عبورها من منطقة لأخرى، أو من مدينة لأخرى<sup>(1)</sup>، وكانت موانئ بلاد الشام مثل بيروت وطرابلس وحيفا، وصور وصيدا، ويافا منافذ هامة للتجارة سواء مع مصر أو مع أوروبا، أما مسألة الجباية الجمركية على التجارة التي تجري بطريق البر فقد استوجبت هي الأخرى إقامة جمارك برية، وكانت الدولة تجبي محصول الجمرك عن التوابل والسلع التي ترد مع التجار المرافقين لقافلة الحج الشامي عند عودتها من الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى دمشق في خان يونس جنوب مدينة غزة،<sup>(2)</sup> أما إذا لم تأخذ القافلة الطريق المحاذية للبحر وسلكت طريق حوران الداخلي فإن الجمرك يتم في بلدة الكسوة جنوب دمشق،<sup>(3)</sup> وكانت البضائع التي يؤدي عنها الرسم وتمر من تلك الجمارك يحصل صاحبها على وثيقة تعرف باسم " تذكرة الأداء" حتى لا تؤدي نفس البضاعة رسم الجمرك مرة أخرى، وطبعا لم يخل الأمر من بعض المخالفات من حين لآخر، أما الرسوم الجمركية على البضائع المقرر ذهابها إلى مدن ساحلية فكان المبدأ أن تجري تأديتها في مكان الوصول، وليس في المكان الذي خرجت منه، وعندها يحصل صاحب البضاعة في الجمرك الذي خرجت منه على وثيقة إعلام تحتوي على نوع البضاعة ومقدارها، وكانت الغاية من ذلك هو الحيلولة دون عمليات التهريب.<sup>(4)</sup>

لم تكن هناك معدلات محددة، بل تركت الدولة العثمانية الحرية للأقاليم حسب خصوصياتها، لذلك كان لكل لواء قوانين خاصة به، فكان اختلاف بين معدلات الرسوم الجمركية التي يدفعها المسلم وغير المسلم، وكذا مع رعايا الدول المتحاربة مع العثمانيين، فخلال القرن السادس عشر كانت الرسوم بوجه عام 3% من المسلمين، و4% من الرعايا غير المسلمين، و5% من رعايا الدول المتحاربة مع الدولة العثمانية.<sup>(5)</sup>

(1) -مع بداية القرن الثامن عشر لجأت الدول الأوروبية إلى إلغاء الرسوم الجمركية عن البضائع أثناء عبورها من منطقة لأخرى، بينما احتفظت الدولة العثمانية بنفس أسلوب الجباية دون تغيير. أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 694.

(2) -كانت منتجات دمشق تصل إليها عن طريق بعض الحجاج الذين يشترون ما يستطيعون حمله من التوابل ويعودون بها مع قافلة الحج الشامي، وكانت القافلة يرافقها دوما تجار البهار، حتى في السنوات التي لم تكن فيها الطريق آمنة. أكرم حسن العليبي، دمشق بين الممالك العثمانين، مرجع سابق، ص 281.

(3) -محمد عدنان البخيت: " العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو 474. " مرجع سابق، ص 21.

(4) -أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 695.

(5) -نفسه، ص 696.



كانت السلع المصدرة عبر موانئ بلاد الشام تتمثل في العطور، الصوف، الزبيب القطن والحرير<sup>(1)</sup>، وكانت مادة الحرير محل اهتمام من التجار الأوربيين من فرنسيين وإنجليز وأصبحت تشكل موسماً رئيسياً من مواسم بلاد الشام<sup>(2)</sup>، ويشير قانوننامة الشام حسب دفتر (T.D.474) أن النصف الثاني من محصول المقاطعة يؤخذ في بعض الأماكن في موسم الحرير، ويشار في قانون الجمارك لبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا بولاية الشام عند ذكر التجارة مع الخارج: "تؤخذ ثلاث أقداج ونصف عن الحرير الوارد من دمشق بلا ختم، إذا ما تم بيعه بالميناء ولا يؤخذ عنه إذا ورد مختوماً، ويؤخذ عن كل بالة حرير ترد من الخارج مثل حلب خمس وستون أقدجة."<sup>(3)</sup>

أما بالنسبة للرسوم الجمركية التي يتم تحصيلها عن التجارة الخارجية فقد تراوحت في عمومها بين 2% و5%، وقد أورد قانوننامة طرابلس العائد لسنة 1571م فرض نسبة 2% جمرك على الجوخ والحرير المستورد من البندقية، ونسبة 3% على المواد الداخلة إلى المرفأ مثل: المرجان - نحاس - حديد - كبريت - رصاص الخ...، ونسبة 7% على الزجاج والخشب، و10% من البهارات،<sup>(4)</sup> ورغم ذلك فقد كانت هناك بعض البضائع يزيد فيها معدل الرسم، ومن خلال الرسوم المقررة في ميناء طرابلس فيمكن التعرف على السلع الواردة والمصدرة عبره في النصف الثاني للقرن السادس عشر من خلال الرسوم الجمركية والضرائب<sup>(5)</sup> حيث نجد بالنسبة لـ:

#### أ - رسوم الاستيراد:

- المنسوجات المستوردة من فرنسا والبندقية وقبرص تفرض عليها نسبة 2%.

- المرجان والعنبر والقصدير والنحاس والكحل والزئبق والكبريت والرصاص، تفرض عليها نسبة 3%، مع أقدجة واحدة رسم قبان، ومثلها رسم قلم.

- المواد الورقية والزجاجية، تفرض عليها نسبة 7%، أو تفرض رسوم عينية بنسبة سبع وحدات لكل مائة وحدة.

(1)- Muhammad Adnan Bakhit, The Ottoman Province Of Damascus, op cit, p183

(2)- Ibid, p184.

(3) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام"، مرجع سابق، ص 39.

(4) - عصام خليفة، لبنان في أرشيف اسطنبول، الجامعة اللبنانية، بيروت، 1996، ص 60.

(5) - تشير دفاتر التحرير العثمانية إلى ضريبة تسمى "محصول أسكلة (ميناء)، فقد ورد في قانوننامة لواء الشام مقدار الرسوم المحصلة سواء على المواد المصدرة أو المستوردة، ويشير إلى ذلك بما يلي: "يطلق على ما يجبي من جمارك ورسوم وغيرها من الواردات عند أبواب الموانئ الكائنة في ولاية الشام كبيروت وصيدا وعكا ويافا، يطلق عليها اسم مواجب باب الميناء" محمد عدنان البخيت: "من تاريخ حيفا العثمانية دراسة في أحوال عمران الساحل الشمالي" مجلة مجمع اللغة العربي الأردني، العدد الثاني، المجلد الأول، جويلية 1982، مطبعة التوفيق، عمان الأردن، ص 117.

- المواد الغذائية كاللوز والجوز والجبنه والعسل ، تفرض عليها نسبة 5.5% ، اضافة الى أقجة واحدة لكل قنطار كرسم قبان ومثلها رسم قلم.

-تفرض قيمة أربع أقجات على كل صندوق من المعدات المعدنية ، اضافة إلى عشر أقجات لكل قنطار رسم قبان ، ومثلها رسم قلم.<sup>(1)</sup>

#### ب -رسوم التصدير:

-تفرض قيمة 104 أقجات عن كل قنطار من القطن ، إضافة لأقجة احدة رسم قبان.

- تفرض 110 أقجات لكل قنطار من الحرير ، اضافة لأقجة واحدة رسم قبان.

-تفرض 66 أقجة لكل 50 قطعة نسائج صوفية ، ومثلها للنسائج الحريرية.

- تفرض 44 أقجة لكل 75 قطعة من الجلود.<sup>(2)</sup>

لم تكن حلب المدينة الوحيدة التي تواجد بها التجار الأجانب فقد أشارت السجلات الشرعية لوجود أسماء من التجار الفرنسيين في حماة في سنة 989هـ/1581م مثل ألتون بن كلستا الإفرنجي الفرنسي ، وبشفنس بن باجوان ، وباتيشتا بن لورندو الفرنجيين الفرنسيين اللذين كانا يشتريان القطن المحلوج ، إضافة إلى وجود موظف خاص في طرابلس اسمه "متسلم حمل الافرنج" كان يتسلم البضائع من السفن الفرنجية الراسية في طرابلس ويوزعها على بلدان المنطقة ، أو يستلم البضائع من القوافل القادمة من هذه المناطق ويحملها في السفن الأوربية الراسية في طرابلس وكانت أهم السلع التي يشتريها هؤلاء التجار هي الحرير والقطن والأقمشة والأجواخ ... ويأتون إلى المنطقة بالنحاس وغيره<sup>(3)</sup>.

(1) -غازي شرمند: "دور طرابلس الاقتصادي في القرون الثلاثة الأولى من العهد العثماني" المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان العهد العثماني 1516 -1918م "الجامعة اللبنانية ، 27 -28 ماي 1995 ، ص 199.

(2) -نفسه ، ص 200.

(3) -عبد الودود برغوث: "تاريخ حماة" ، مرجع سابق ، ص 81 - 82

## 6 - أساليب التعامل التجاري :

وجدت في بلاد الشام أساليب متعددة ومتنوعة للبيع والشراء في فترة القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م، ومنها:

### أ - البيع نقدا:

ويتمثل في قيام المشتري بدفع ثمن البضاعة المباعة له حال تسلمها ، فقد اشترى الرجل المدعو حسن بن صالح بن أبي سابلية بماله لنفسه دون غيره من الحاج عبد الحق فباعه ما هو له وجار في ملكه جميع الأربعة كروم القائم أصولها بأرض الصلاحية بظاهر القدس الشريف بثمن مبلغه ثمانية وخمسون غرشا عديدة ثمنا مقبوضا بيد البائع فبرأت بذلك ذمة المشتري<sup>(1)</sup>.

### ب - البيع بالتقسيط :

يتم هذا النوع من البيع من خلال قيام المشتري بدفع بعض المال للبائع على أن يسدد بقية المال الذي في ذمته في مدة قد تطول أو تقصر حسب الاتفاق المبرم بينهما ، فقد اشترى الحاج أحمد بن محمد المغربي بماله دون غيره من الحاج أحمد بن علي المغربي جميع الغراس العنب والتين والمشمش القائم أصوله في ظاهر القدس الشريف بمبلغ قدره اثنان وعشرون غرشا عديدة حالا مقبوضة من ذلك سبعة عشر غرشا بطريق المقاصصة ، وبقية الثمن خمسة غروش مقبوض منها أربعة غروش وهبها للبائع<sup>(2)</sup> ، كما اشترى ميخائيل ولد الخوري حنا النصراني من سكان القدس الشريف من المدعو قدسي ولد صالح النصراني ما هو له جار في ملكه دارا مع حصة قدرها قيراطان ونصف قيراط من أصل أربعة وعشرين قيراطا بثمن قدره ثلاثة وتسعون غرشا عديدة يعادل كل غرش منها ثلاثون قطعة مصرية : الحال منها ثلاثة وأربعون غرشا ، والخمسون غرشا الباقية من الثمن يدفعها للمدعوة حليلة مطروحا لها من الدين الشرعي بزمته<sup>(3)</sup>.

### ج - البيع بالدين :

يتم هذا النوع من البيع من خلال قيام المشتري بشراء العقار أو البضاعة على أن يتم دفع الثمن فيما بعد ، على فترة زمنية قد يتفقان على موعدها ، وقد لا يتفقان ، فإذا اتفقا على الموعد يتم ذكر الموعد في عقد البيع ، أما إذا لم يتفقا فيكتفي القاضي بذكر عبارة (في حالة توفر المال للمشتري يقوم بدفعه ، فقد باع حسن

(1) - حجة رقم 3 مؤرخة في 6 جمادى الأولى 1082 هـ / 9 - 9 - 1671 م: سجل رقم 172 من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية ، ص ص 10 - 11.

(2) - حجة رقم 1 مؤرخة في 23 - ذو الحجة سنة 1081 هـ / 2 - 4 - 1671 م، من السجل 173 ، ج 1 ، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية ، ص ص 23 - 24.

(3) - حجة رقم 3 ، مؤرخة في 14 محرم 1082 هـ / 22 - 5 - 1671 م، من السجل 173 ، ج 1 ، محكمة القدس الشرعية العثمانية ، ص ص 232 - 233.

بن الحاج محمد السرميني لفرج بن سليمان البارودة وكامل عدتها بمبلغ سبعة غروش ونصف غرش عددية ، وأمهله البائع بذلك إلى مدة ستة أشهر تمضي<sup>(1)</sup> ، كما اشترى شجاع بن دوغنجي من مصطفى بن يعقوب الجحشة الحمراء بثمان قدره 5 غروش مؤجلة على المشتري لمضي شهرين من تاريخ البيع<sup>(2)</sup>.

#### د - البيع بالرهن :

يتم هذا النوع من البيع بأن يرهن المشتري تحت يد البائع أراضي أو عقارات ، أو حيوانات أو أي شيء آخر له قيمة مادية حتى يقوم المشتري بدفع ديونه التي هي للبائع ، فقد اشترى المعلم عبد الرحمن بن عبد النبي وأحمد بن ابراهيم بمالهما لنفسهما سوية بينهما من الشيخ محمد بن عبد الرازق... ثلاثة قناطير صابونا بالوزن القدسي بثمان قدره مائة غرش عددية ... مؤجل الثمن المرقوم عليها إلى مضي ستة أشهر تمضي من تاريخه أدناه... وrehن أحمد ابن ابراهيم على نصف المبلغ ريع الدار الكائنة بالقدس الشريف<sup>(3)</sup>.

#### هـ - البيع بالمبادلة :

يتم هذا النوع من البيع من خلال قيام المشتري والبائع بتبادل السلع والبضائع بين بعضهم بعضا ، فقد اشترى عبيد بن عايد من قرية ترقومية من عمر بن سلطان نصف الفرس الحمراء ، حيث دفع له بدلا من المال جميع الحصان الأحمر<sup>(4)</sup>.

### 7 - نماذج من المراكز التجارية الكبرى في بلاد الشام :

#### أ - حلب والتجارة العالمية :

تتمتع حلب بموقع جغرافي هام على مفترق الطرق بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ، فمن الناحية التجارية تمرّ بها القوافل المتجهة من بلاد فارس إلى الأناضول ، أو من الأناضول إلى جنوب الشام ومصر<sup>(5)</sup> ، كما تتصل بالبحر عبر ميناء طرابلس ، بينما كانت سفن البندقية ترسو بانتظام في موانئ الساحل الشرقي للمتوسط ، وهو ما خدم مدينة حلب التي أصبحت مركزا مهما لتجارة الحرير<sup>(6)</sup> ، وهو ما يفسر

(1) - حجة رقم 3 ، مؤرخة في 7 ذو الحجة 1081 هـ / 1671 م ، سجل 173 ، ج 1 ، ص 32.

(2) - سجل محكمة خليل الرحمان رقم 25 ، حجة رقم 2 من السجل 25 محكمة الخليل ، باسم محمد إحشيش ، ناحية خليل الرحمان في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، مرجع سابق ، ص 121.

(3) - حجة رقم 6 مؤرخة في 8 ربيع الثاني 1083 هـ / 3 - 8 - 1672 م من السجل رقم 172 ، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية ، ص 418.

(4) - حجة 2 من السجل 19 ، باسم إحشيش ، المرجع السابق ، ص 121.

(5) - Eugen Wirth, «Alep et les Grands Courants Commerciaux entre l'Europe et l'Asie du XIIe au XVIe siècles » , re.m.m.m, n°55-56, 1990, p 45.

(6) - هناك مقولة تصور الازدهار الذي عرفته حلب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بأنه "واجهة لا تحفي وراءها سوى الاضمحلال" ، وقد عُزي الاضمحلال الذي حاق بالمدينة في القرن الثامن عشر إلى الانهيار الذي أصاب تجارتها الخارجية بعد سقوط الأسرة

الازدهار الذي عرفته حلب استنادا إلى التجارة المتوسطية مع أوروبا، والدور الذي اضطلعت به المدينة في مجال إعادة توزيع المنتجات الغربية خاصة الأجواخ الإيطالية في الشرق، وارسال بالات القطن والحرير الخام وبعض الأنسجة الشرقية الثمينة إلى أوروبا عبر طرابلس،<sup>(1)</sup> وما يضاف إلى عوامل ازدهار حلب هو الازدهار الزراعي الذي عرفته في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بل أن مدنا صغيرة مجاورة لها كانت تنتج الحرير وزيت الزيتون، وأن جزء من هذه البضائع كان يستفيد منه تجار حلب أكثر من المستهلكين المحليين.<sup>(2)</sup>

لعل غنى حلب بالخانات والأسواق التي تقوم على تسويق البضائع وشحنها أكبر دليل على النشاط التجاري لمدينة حلب، وكانت التجارة المحلية تأخذ طريقها إلى أوروبا عبر ميناء طرابلس،<sup>(3)</sup> لذلك انتشرت بها الوكالات والقنصليات الأوروبية قبل دمشق نفسها، فمنذ سنة 1581م نجد شركة الهند الشرقية الانجليزية تتخذ من حلب مركزا لها، كما قام الفرنسيين حوالي سنة 1600م بالتواجد بحلب كممثلين تجاريين وقنصليين،<sup>(4)</sup> لكن ونظرا لقوة الدولة العثمانية خلال القرنين 16 و17م فإن تأثير الاقتصاد الأوربي كان محدودا بدليل أن التجار في الدولة العثمانية عموما قد نجحوا في تنظيم الصناعات الحرفية وإقامة شبكات كافية للتوزيع وغالبا ما باءت محاولات التجار الأوربيين باختراقها تبوء بالفشل.<sup>(5)</sup>

عرفت حلب في أواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر ذروة نشاطها التجاري،<sup>(6)</sup> وهذا عبر مرور القوافل باتجاه البصرة والحجاز وإيران في وقت تراجع فيه نشاط التجار البنادقة

الصفوية، وما صاحب ذلك من حروب أهلية وضعت حداً لحركة قوافل الحرير. خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج2، مرجع سابق، ص 157.

(1) - Jean Sauvaget, Alep, Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXeme siècle, bibliothèque archéologique et historique ; 36 (Paris : P, Geuthner, 1941), p165.

(2) - المرجع السابق، ص ص 158 - 159.

(3) - كانت هذه الطريق بين حلب وطرابلس ذات أهمية بالنسبة للتجار الأوربيين فقط والذين كانوا يشترون الحرير السوري. نفس المرجع، ص 141.

(4) - نفس المرجع، ص 141.

(5) - تؤكد هذه الفكرة بأن التنظيم الاجتماعي والسياسي للدولة العثمانية في هذه الفترة كان ناجعا ولم يكن يتسم بالجماد والسلبيّة دليل تمكن التنظيمات الحرفية العثمانية في التصدي لنفوذ التجار الأوربيين الذين سعوا لجعل أنفسهم أحرارا في التصرف الشامل في المنطقة. نفس المرجع، ص 132.

(6) - شكلت حلب واحدة من ثلاث مراكز للإقليم الاقتصادي العثماني رفقة اسطنبول والقاهرة مما أعطاهم مكانتها في الاقتصاد العالمي لفترة القرنين السادس عشر والسابع عشر قبل أن تعرف بعض التراجع في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. نفس المرجع، ص ص 130 - 131.

في شرقي البحر المتوسط عموماً بعد سنة 1602م،<sup>(1)</sup> وكانت مادة الحرير القادمة من إيران الأساس في هذا النشاط، ولم يتأثر نشاط حلب بغياب التجار البنادقة لأن التجار الانجليز تدفقوا بكثرة على حلب بل وأدى ذلك إلى زيادة أعداد المنشآت التجارية على غرار الخانات التي بني منها أربعة أضيفت للخمسة التي شيدت خلال القرن السادس عشر.<sup>(2)</sup>

في عشرينيات القرن 17م بلغت قيمة كافة البضائع التي اشتراها الأوروبيون من حلب مبلغ 1.465.002 جنيه استرليني شكلت مادة الحرير الخام منها نسبة 41% وكان التنافس على أشده بين التجار الفرنسيين والانجليز حول اقتناء الحرير.<sup>(3)</sup>

#### ب - دمشق المحطة الرسمية لقوافل الحج الشامي:

استفادت دمشق من موقعها الجغرافي على الطريق الحيوي لبلاد الشام سواء الطريق المؤدية إلى الحجاز أو طريق دمشق - القاهرة،<sup>(4)</sup> فظهرت العديد من المنشآت العمرانية التي تخدم القوافل وتؤمن لها ما تحتاجه تحتججه كما في القطيفة وسعسع وخان التجار، وفي إطار هذه المراكز أقيمت منشآت دينية كالجوامع، واجتماعية كالحمامات والمطابخ لتقديم الوجبات مجاناً باعتبار أنها وقفاً، وتجارية كالدكاكين، وتحدد وقفية سنان باشا في دمشق وجود عشرة دكاكين في إطار النواة العمرانية في القطيفة، وبالإضافة إلى القطيفة وسعسع وخان التجار أقام سنان باشا مركزين تجاريين في عكا وصفد، الأول يتألف من ثمانين مخزناً بينما الثاني في صفد يتكون من عشرين دكان ومخزن.<sup>(5)</sup>

أصبحت دمشق منذ السنوات الأولى للتواجد العثماني أهم محطة لقافلة الحج الشامي بحكم موقعها على الدرب المؤدي إلى البقاع المقدسة في الحجاز، ومعروف أن الدولة العثمانية قد أولت أهمية بالغة بتسيير قافلة الحج والسهر على راحة الحجاج وتأمين كافة احتياجاتهم وبالخصوص الأمن باعتبار أنها المحطة الرئيسية قبل انطلاق القافلة في مناطق يسكنها البدو الذين كانوا باستمرار يتعرضون للقافلة وسلبها، وهكذا

(1) - أصدرت البندقية مرسوماً يضع عقبات كبرى في طريق السفن الهولندية و الانجليزية التي ترغب في الحصول على حمولات في البندقية بدافع حماية أسطولها البحري ، لكن هذا الاجراء نجم عنه كساد كبير و تسبب في حالات افلاس و انعكس مباشرة على عدد التجار البنادقة الذين زاروا حلب في السنوات الأولى للقرن السابع عشر. نفس المرجع، ص 157.

(2) - André Raymond, Alep à l'époque Ottomane (XVIe-XIXe siècles), RE.M.M.M,n°62, 1991, p101.

(3) - المرجع السابق، ص 160.

(4) - كان الطريق الرابط بين دمشق والقاهرة يبدأ من محلة باب الجابية في جنوب دمشق ويمتد على خمسة عشر مركزاً رئيسياً ثمانية منها تقع ضمن حدود الشام، أولها: الصنمين، طفس، إربد، جنين، قاقون، اللد، غزة وآخرها العريش وبعدها المراكز السبعة المتبقية في مصر. أكرم حسن العلي، دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص 275.

(5) - محمد الأرنؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية، مرجع سابق، ص 85.

اهتم المسؤولون العثمانيون بتأمين الدرب الذي يسلكه الحجاج كجزء من هيبتهم و كونهم حماة الحرمين الشريفين، وعلى هذا الأساس اختاروا دمشق كمركز لتجميع الحجاج القادمين من البلقان والأناضول وأواسط آسيا ولتنظيم قافلة الحج وتعيين أمير لها والذي كان خلال القرنين 16 و 17 من الموظفين العثمانيين أو زعماء العشائر البدوية قبل أن يصبح المنصب خاصا بوالي دمشق بداية من سنة 1708م.<sup>(1)</sup>

كانت تجارة دمشق تزدهر في أثناء تواجد الحجاج الذي يستمر عادة أربعة أشهر كل سنة مما شكل عصب الحياة الاقتصادية في المدينة،<sup>(2)</sup> فقد كانت الأسواق نقطة انطلاق أو تفرع الحجاج والتجار، وكانت دكاكينها تعرض ما يحتاجه هؤلاء في أثناء رحلتهم، ولعل من بين ما تعرضه هذه الدكاكين الطحين والشمع وغيرها.<sup>(3)</sup>

تعتبر دمشق نقطة التقاء الحجاج من كل من مسلمي الجزيرة العليا (أعالي الفرات) وكردستان والقوقاز وأذربيجان والأناضول والبلقان والقرم إلى جانب مسلمي اسطنبول نفسها، لذلك فإن عشرات الآلاف من المسلمين الذين يستغلون وجود الأمن على درب الحج الشامي فيمرون بدمشق مرتين ذهابا وإيابا، خلال تواجدهم بدمشق تزدهر الحركة التجارية، ففي خضم استعدادهم لقطع البادية يستأجرون الدواب أو يشترونها، ويأخذون المعدات للنزول في الصحراء، ويؤمنون المؤونة الكافية لمعيشتهم حتى عودتهم إلى دمشق، لأنه لا مورد في الصحراء المقفرة التي سيقطعونها ولا في الأماكن المقدسة التي سينزلونها، ومن الطبيعي أن يفضلوا أسهل المأكولات حفظا وأفضلها غذاء وهو القمح، كما أن الحجاج يعودون بكثير من البضائع وافرة الأرباح على صغر حجمها ليستعيضوا بها من نفقات الحج فيبيعون ذلك في دمشق، وهو ما يحدث في المدينة حركة نشيطة في ميدان التجارة<sup>(4)</sup>.

(1) - عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ط1، دمشق، 1967، ص228.

(2) - ناصر الرباط: "مقدمة لدراسة تطور السوق في مدينة دمشق من القرن السابع الى القرن التاسع عشر" مجلة الحوليات الأثرية العربية

السورية، مج 37 - 38، السنة 1988 - 1989، ص 89.

(3) - محمد الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية، مرجع سابق، ص 85.

(4) - جان سوفاجييه، دمشق الشام، مرجع سابق، ص 101.

## 8 - المرافق التجارية :

### أ - الأسواق :

#### أ - 1 - مفهوم السوق :

استعملت كلمة السوق في التداول اليومي للدلالة على مجمل الحيز الذي شغلته عمليات التجارة في المدينة بكل أصنافها وأنواعها، أي أن كلمة "سوق" بالصيغة المفردة تدل في آن واحد على مجمل الأسواق في المدينة وعلى أي من هذه الأسواق تحديدا<sup>(1)</sup>.

#### أ - 2 - أنواع الأسواق :

تعتبر الوظيفة الاقتصادية للسوق أساس وجوده، ويمكن تصنيف السوق وفقا للسلع التي تتم تجارتها فيها، وهذه الفئات هي:

- أسواق سلع الاستهلاك اليومي من بقالة وسمانة وما شابههما.

- أسواق السلع التي تشتري عادة دوريا كأسواق الحبوب والأقمشة والمفروشات ومستلزمات المنزل.

- أسواق السلع الكمالية كالمجوهرات والحلي والفراء والمصنوعات الجلدية.

- أسواق الحرفيين الصناع الذين يصنعون منتجاتهم ويبيعونها في حوانيتهم نفسها، وتواجدت هذه الأسواق حسب القرب من مصادر المادة الأولية أو الزبائن أو طرق التجارة، أو حسب ضرورات البيئة التي اقتضت ابتعاد الحرف التي تسبب تلوثا أو تحدث ضجيجا عاليا عن مركز المدينة أو الأحياء السكنية، وتضم هذه الفئة صناعات الحديد والنحاس والفخار والصبغين والدباغين والقطنين<sup>(2)</sup>.

#### أ - 3 - التنظيم الحرفي في السوق :

يكون شيخ السوق هو المسؤول عن كل ما يتعلق بالتجار داخل سوقه،<sup>(3)</sup> بل وأحيانا يكون شيخ السوق في حماة هو شيخ مشايخ الحرف كلها،<sup>(4)</sup> وتتلخص واجباته في حصر شراء البضائع من الأماكن المخصصة لها، وتوزيعها على التجار بعد وزنها والذي يتم بحضور المحتسب.<sup>(5)</sup>

(1) - ناصر الرباط : " مقدمة لدراسة تطوّر السوق في مدينة دمشق "، مرجع سابق، ص 76.

(2) - المرجع نفسه، ص 77.

(3) - عبد الكريم رافق : " مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني "، مرجع سابق، ص 47.

(4) - عبد الودود محمد يوسف برغوث : " طوائف الحرف والصناعات في حماة "، مرجع سابق، ص 85.

(5) - محمد أحمد سليم اليعقوب، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 168.



ينشط في الأسواق مجموعة من الدلالين أو السماسرة، كانوا منضوين في العديد من طوائف الدلالين، سواء منها التي تعمل في سلعة معينة ففي حلب كانت هناك طائفة دلاللي العفص، وطائفة دلاللي الحام الكلزي، إضافة إلى طوائف دلالين في عدد من الأسواق الرئيسية الأخرى، إلى جانب طائفة الدلالين العامة، ولكل من هذه الطوائف شيخها،<sup>(1)</sup> وتتمثل وظيفة الدلالين أو السماسرة في بيع بعض البضائع نيابة عن أصحابها لقاء رسوم يتقاضونها من البائع صاحب البضاعة والمشتري، وكان الدلال يأخذ في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي (957هـ / 1550م) أجرة واحدة عن كل بضاعة بقيمة 100 أجرة.<sup>(2)</sup>

#### أ 4- السوق والتجارة المحلية:

تمثل الأسواق وتوزعها الجغرافي في بلاد الشام عنصرا هاما في حركة التجارة الداخلية، فتعدد الأسواق ومدى اتساعها، وتنوع السلع المعروضة بها مؤثر على حجم التبادل التجاري، وتجدر الإشارة إلى وجود أسواق متخصصة بسلع معينة، منها ما ينسب إلى ما يباع فيها: مثل سوق الصابون، وسوق الرقيق، وسوق الخيل، وسوق الحرير وسوق القطن وسوق البزورية الذي اشتهر ببيع الفلفل<sup>(3)</sup>، وسوق الأقمشة وتوابعها<sup>(4)</sup>، وسوق البزازين، وسوق العطارين وسوق الفرائين وسوق العنبريين.<sup>(5)</sup>

توجد بعض الأسواق الخاصة بالطوائف الحرفية التي تقوم بصنع وبيع المنتج في آن واحد، لذلك كانت لها أسواقها الخاصة مثل الصياغ، والسيوفية، أو السروجية.<sup>(6)</sup>

لا يحق لأي طائفة أن تخرج عن السوق المخصص لها، فقد حاول بعض أفراد طائفة الزراميزية بحلب الخروج عن العادة المتبعة التي تقضي ببيع انتاجهم في السوق المخصص لهم، قرب الجامع الكبير الأموي بحلب، وأخذوا يبيعونه خفية في الأزقة والمقاهي، وحين تبين لباقي أفراد الطائفة أن ما يباع في هذه الأماكن سيء الصنع ويسيء إلى مهنتهم ككل، نبّه القاضي أن على من يشتغل بصناعة الزراميزية ألا يبيع في غير السوق المخصص لها على العادة القديمة الجارية.<sup>(7)</sup>

(1) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 42.

(2) - المرجع السابق، ص 162.

(3) - ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج1، مصدر سابق، ص 364.

(4) - ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق (بدمشق)، مصدر سابق، ص 23.

(5) - صالح موسى درادكة دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام ط 1، وزارة الثقافة الأردنية عمان 2011، ص 238.

(6) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مرجع سابق، ص 46.

(7) - نفسه، ص 46 - 47.

لكن بعض السلع لا يجب أن تتجمع في سوق واحدة مثل سوق السلاح بل تقتضي الانتشار، لأن وجود البارود في مكان واحد يجعل خطورة الانفجارات قائمة، لذا انتشر بائعو البارود في أماكن متباعدة.<sup>(1)</sup>

كانت بعض الأسواق خاصة بجنس دون الآخر، فقد كان في مدينة حمص سوق خاصة بالنسوة وهو من أسواق حمص المشهورة وبضائعه تتعلق بحاجيات النسوة من ملابس وزينة وغيرها،<sup>(2)</sup> وسوق الدهشة في دمشق حيث يباع فيه ما يخص النساء من الثياب ونحوها.<sup>(3)</sup>

وصف الرحالة الفرنسي الفارس دارفيو الذي زار دمشق في منتصف القرن السابع عشر (1660م) أسواق دمشق فذكر " وجود البزستانات (أسواق البز) حيث تباع فيها جميع أصناف البضائع الفاخرة كالأحجار الكريمة والمصوغات والأقمشة المقصبة بالذهب والفضة والحريير، أما الأسواق ذاتها فكانت مغطاة ومبنية من الحجر ذات سقوف معقودة بإحكام، وتتخللها -على مسافات متباعدة نوعاً ما - كوات تسمح بدخول الضوء إليها، وعلى جانبي الأسواق توجد أرصفة مخصصة للمارة، في حين يستخدم النطاق الأوسط منها لمرور العربات والدواب، ولعل هذا التنظيم هو الذي سمح بإبقاء ممر المشاة نظيفاً على الدوام وفي نفس الوقت سمح بتهوية المكان، وبالتالي عدم تعرض العابرين للسوق للهواء الفاسد".<sup>(4)</sup>

#### أ- 5- التوزيع الجغرافي للأسواق:

##### -أسواق دمشق:

أحصى ابن عبد الهادي المعروف بابن المبرد مائة وخمسون سوقاً في دمشق، وكل ما يتعلق بها وما تنسب إليه، فمنها ما ينسب إلى ما يباع فيه مثل: سوق الذهبين، وسوق الحرير، وسوق العنبر، سوق الخيل، سوق السلاح، سوق الخطب<sup>(5)</sup>، ومنها ما ينسب إلى محلاته، مثل سوق باب الجابية، سوق باب المصلى، سوق خان السلطان، سوق باب السريحة، سوق ساروجا، سوق البيمارستان<sup>(6)</sup>، ومنها ما ينسب إلى واصله مثل: سوق الخياطين، الحلوانيين، سوق مجلدي الكتب، سوق القزازين، سوق

(1) - عبد الكريم رافق: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 47.

(2) - محمد مكي بن عبد الباقي الخانقاه، حوادث حمص اليومية 1100 - 1136هـ/ 1688 - 1723، مصدر سابق، ص 71.

(3) - ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي، نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، مصدر سابق، ص 22.

(4) - Mémoires du chevalier d'Arvieux, T2, p448.

(5) - المصدر السابق، ص 22 - 23.

(6) - نفسه، ص 23 - 25.

البيطرة، سوق الطباخين، سوق القطنين، سوق المحابرة،<sup>(1)</sup> وتركزت الأسواق الرئيسية في دمشق حول القلعة.<sup>(2)</sup>

#### -أسواق حلب:

عرفت مدينة حلب نشاطا عمرانيا أحدث ثورة في مجال المنشآت التجارية والمباني المرتبطة بها من خلال الأوقاف التي أنشأها ولاية حلب وبالخصوص محمد باشا دوكاجين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، حيث ظهرت العديد من المجمعات التجارية مثل: سوق الفرايين أو السوق الجديد<sup>(3)</sup>، وسوق الخراطين والذي أصبح يعرف بسوق النحاسين المشتمل على عشرين دكانا، وسوق الجوخ المشتمل على اثنين وستين دكانا، وسوق العلية، وبلغ مجموع الدكاكين الموجودة في هذه الأسواق الأربعة 157 دكانا<sup>(4)</sup>.

#### -أسواق حماة:

تعتبر حماة مدينة ثانوية بالمقارنة مع مدن الشام الرئيسية، فهي مجرد لواء تابع لإيالة طرابلس الشام لكن على الرغم من ذلك كانت تشهد حركة تجارية تشهد عليها أسواقها المتعددة مثل: سوق المنصورية<sup>(5)</sup>، وسوق القضماني، وسوق العلافين<sup>(6)</sup>، وسوق الدقاق في محلة النصارى<sup>(7)</sup>، سوق الحدادين وسوق النحاسين المتفرع عن سوق المنصورية<sup>(8)</sup>، سوق المبيضين الذين يبيضون النحاسين عليها بالقصدير، وسوق الصمودية لأدوات النجارة<sup>(9)</sup>، سوق الخطابين بمحلة الجعابرة<sup>(10)</sup>.

#### -أسواق القدس الشريف:

أهمها: سوق القطنين المجاور لباب المسجد الأقصى من جهة الغرب، إضافة إلى سوق العطارين، وسوق الخضروات، وسوق القماش عند باب المحراب أو باب الخليل<sup>(11)</sup>.

(1) - ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي، نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، مصدر سابق، ص ص 25 - 27.

(2) - نفسه، ص 25.

(3) - ابن الحنبلي، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب، ج 2، قسم 1، ص 263.

(4) - أندري ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، مرجع سابق، ص 167.

(5) - برغوث: "طوائف الحرف والصناعات في حماة"، مرجع سابق، ص 88.

(6) - نفسه، ص 91.

(7) - نفسه، ص 93.

(8) - نفسه، ص 94.

(9) - نفسه، ص 95.

(10) - نفسه، ص 96.

(11) - سعيد صالح خليل، التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية، رسالة دكتوراه الجامعة الأردنية، 1992، ص 138.

## أ - 6 - تأمين الأسواق :

اتخذت السلطة تدابير صارمة بهدف حماية الأسواق وحراستها ليلا ، وتكفل الصوباشي (وهو رئيس الشرطة ) بالإشراف على قوة أمنية مهمتها منع السرقات وحراسة الأسواق يرأسها رئيس العسس (العسس باشي)، وكان أفرادها لا يحملون سوى العصي ، لكنهم يعرفون أهالي أزقتهم فردا فردا ، لذلك فهم الذين يتحملون مسؤولية دفع أثمان المسروقات إذا فشلوا في إلقاء القبض على اللصوص ، وكان هؤلاء العسس يُختارون من بين الذين يثق التجار بهم باعتبار أنهم هم الذين يدفعون أجورهم في الأخير<sup>(1)</sup> ، وقد جلب هذا الأمن المتوفر في أسواق المدن العثمانية انتباه حتى الأوربيين<sup>(2)</sup> ، وقد نقل (أندري ريمون) عن كتاب " وَصَف مصر" للرحالة (شابرول) حيث يقول : " لا يحدث إطلاقا تقديم شكوى عن حدوث سرقات منزلية ، أو على أية حال فهي نادرة للغاية ، بالإضافة إلى أنه من العجيب أن غالبية البيوت والحوانيت التي تضم أغنى وأثمن البضائع يتم غلقها بأقفال خشبية رديئة."<sup>(3)</sup>

## أ - 7 - الحركة التجارية في الأسواق :

ضمت أسواق المدن الشامية أنواعا مختلفة من السلع التجارية المحلية والمستوردة ، ومثلت المنتجات الزراعية المحلية مثل زيت الزيتون ، والسيرج ، والدبس ، والقمح ، والشعير ، والخضروات ، والفواكه سواء الطازجة أو المجففة أهم السلع المتداولة ،<sup>(4)</sup> كما نشطت تجارة الجلود مثل جلود الأغنام والماعز والبقر والتي تدخل في صناعة الأحذية والسروج ، وكانت صناعة العطور من اختصاص التجار اليهود في القدس.<sup>(5)</sup>

كانت السلع الفائضة عن حاجيات المدينة تصدر إلى أسواق المدن المجاورة مثل القمح الذي يصدر من حلب إلى دمشق ، وجزيرة رودس ،<sup>(6)</sup> أما الأرز باعتباره مادة غذائية رئيسية فإنه يستورد من مصر خاصة إلى إلى القدس حيث تتزود منه العمارة العامرة التي أنشأتها زوجة السلطان سليمان القانوني بالمدينة ، كما كان

(1) - فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، مرجع سابق ، ص 635.

(2) - أثار الأمن الذي تنعم به مدينة اسطنبول انتباه رحالة انجليزي عمل لاحقا سفيرا لبلاده هناك في النصف الثاني للقرن 18م ، فكتب : "نجهل تقريبا في تركيا السرقات ، السلب ، قطع الطرق ، النشل ...الأمن متوفر في الطرقات ...أردت تدقيق ماهية الأسلوب المتبع لتأمين ذلك ...وقد توصلت إلى أن الامبراطورية مقسمة إلى مناطق صغيرة لكل منها شخصا واحدا مسؤولا عن أمنها.

PORTER. (Sir James), Turkey, It's History and Progress: From The Journals and Correspondances, Sir James Porter, Fifteen Years Ambssador at Constantionple, Vol 1, Hurst and Blackett Publishers, London, 1854, p315.

(3) - المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، مرجع سابق ، ص 109.

(4) - محمد سليم اليعقوب ، ناحية القدس في القرن العاشر هـ ، مرجع سابق ، ص 169 - 170.

(5) - نفسه ، ص 171.

(6) - مهمة دفترتي 3، ص 4، الحكم 12. نقلا عن : فاضل بيات ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ، مج 2، سبق ذكره ، ص 245.

الكتان من المنتوجات المستوردة من مصر، بينما كانت العبي والفوت تصدر من حماة إلى دمشق لحاجة الحجاج إليها قبيل توجههم نحو البقاع المقدسة، كما كانت القهوة من المنتوجات التي تستورد من اليمن.<sup>(1)</sup>

تشير قوانين نامة بلاد الشام إلى النشاط التجاري في المدن الشامية، ففي القدس الشريف يبين قانوننامة لواء القدس في حديثه عن عادة الاحتساب أنه: "منذ القدم كان يتم استيفاء أقجة واحدة عن كل دكان بالمدينة في كل خميس باستثناء سوق العطارين الذي كان لا يدفع أي مبلغ"<sup>(2)</sup>، كما أن الإشارة إلى وجود عدد هائل من الدكاكين بالمدينة والذي بلغ 350 بابا منها 213 بابا معمورة، محصولها في السنة يصل إلى 18000 أقجة يؤثر على الحركة التجارية النشطة في هذه المدينة التي تعج سنويا بزوارها من المسلمين والنصارى واليهود،<sup>(3)</sup> وبلغ محصول مخازن الدقاكين<sup>(4)</sup> 300 أقجة،<sup>(5)</sup> غير أن ما يعطينا فكرة أوضح للتبادل للتبادل التجاري بها هو المقدار المفروض على محصول أحمال الصابون المصدرة من مدينة القدس إلى الخارج، وبخاصة نحو مصر والمقدرة بـ 11055 أقجة سنويا بمقدار 16 أقجة عن كل حمل بعير،<sup>(6)</sup> إضافة إلى محصول رسم قبان القطن 1500 أقجة في السنة،<sup>(7)</sup> محصول قبان الزيت 7000 أقجة،<sup>(8)</sup> محصول باج سوق الخيل وسائر الدواب 3000 أقجة، وكان يؤخذ عن البائع عشرة أقجات عند بيع الجمل وأربع أقجات عند بيع كل لفرس والبغل، وأقجتان عند بيع كل حمار أو جاموس، وأقجة واحدة عند بيع كل ثلاثة من الحملان أو الجديان،<sup>(9)</sup> محصول القصابين (الجزارين) بلغ 5000 أقجة في السنة، بحيث تجبى أقجة واحدة عن كل رأسين من الغنم أو الماعز، وأربع أقجات عن كل رأس جاموس، وأقجتان عن كل رأس من البقر عند الذبح،<sup>(10)</sup> محصول باج السياه (سوق العبيد) 2000 أقجة،<sup>(11)</sup> محصول رسم دار الوكالة مع دار الخضر بلغ 7000 أقجة.<sup>(12)</sup>

(1) - مهمة دفترتي 3، ص4، الحكم 12. نقلا عن: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج2، سبق ذكره، ص 172 - 173.

(2) - البند 12 من قانوننامة لواء القدس الشريف من دفتر مفصل رقم 516 إس، ص 205.

(3) - دفتر تحرير 516 إس، ص 131.

(4) - اسم الحرفي الذي يدق أثواب الحرير والقطن بآلة من خشب ثقيلة تسمى "المدقة"، وكثيرا ما تلحق دكاكين الدقاكين أذى بالسكان بسبب كثرة الدق. القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ص 144.

(5) - دفتر تحرير 516 إس، ص 263.

(6) - نفسه، ص 131.

(7) - نفسه، ص 256.

(8) - نفسه، ص 258.

(9) - نفسه، ص 257.

(10) - نفسه، ص 256.

(11) - نفسه، ص 257.

(12) - نفسه، ص 263.

أما بالنسبة لدمشق الشام فإنه من خلال دفتر طابو 474 يمكن التعرف على الحركة التجارية في أسواق دمشق الشام ، وهي :

محصول القبان مع دار البطيخ ودار الخضر بلغ 16000 أقة.<sup>(1)</sup>

محصول باج سوق الخيل بلغ 60000 أقة في السنة.<sup>(2)</sup>

محصول سوق الأسرى بلغ 30000 أقة.<sup>(3)</sup>

محصول سوق الأغنام بلغ 220.000 أقة بما يعني أن المدخول كان عاليا جدا وهو ما يؤثر إلى حجم تجارة الماشية في المدينة.<sup>(4)</sup>

محصول سوق البزورية<sup>(5)</sup> وبلغ 24000 أقة.<sup>(6)</sup>

محصول الجمرك بلغ 230.000 أقة في السنة.<sup>(7)</sup>

#### أ 8- أسواق القرى :

إلى جانب الأسواق الموجودة في المدن توجد أسواق في القرى خاصة في الأرياف التي تعرف انتاجا زراعيًا وفيرًا، حتى أن هذه الأسواق جذبت إليها التجار من كل مكان لشراء السلع والمنتجات التي يعرضها القرويون للبيع، بل أن تجارا من البندقية وفرنسا وإنجلترا قد اتجهوا لهذه الأسواق للحصول منها على ما يحتاجون خاصة القطن والصوف والعفص والأقمشة والحرير<sup>(8)</sup>.

(1) - محمد عدنان البخيت : " العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو (T.D.474) ، مرجع سابق ، ص 6.

(2) - نفسه ، ص 16.

(3) - ورد اسم هذا المحصول في القدس الشريف باسم العبيد ، والمرجح أنه هو المعنى المقصود من كلمة (أسرى) سواء من الذكور أو الإناث ، البيض أو السود. نفسه ، ص 18.

(4) - نفسه ، ص 19.

(5) - يقع سوق البزورية المختص في بيع العطر والتوابل التي يطيب بها الطعام وغيرها ، ويقع تحت سوق السلاح بدمشق الشام. أنظر : ابن المبرد المبرد ، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق ، مصدر سابق ، ص 23.

(6) - المرجع السابق ، ص 24.

(7) - محمد عدنان البخيت ، نفسه ، ص 20.

(8) عبد الودود يوسف برغوث : " بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر " مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد 20 ، العددان 1 و 2 ، السنة 1970 ، ص 43.

#### أ - 9 - الأسواق على طريق الحج الشامي :

لم تحل الصحراء المقفرة بين بادية الشام والحجاز دون وجود بعض الأسواق الموسمية على جانبي هذه الطريق وإن كانت قليلة وفي بعض المحطات التي يتوقف عندها الحجاج، فكان لموسم الحج ومرور قوافله عبر بلاد الشام نحو البقاع المقدسة في الحجاز وفي أراضي مقفرة أثره في قيام العديد من الأسواق المرتبطة بموسم الحج فقط، لذلك يمكن تصنيفها ضمن الأسواق الموسمية، حيث يتم نصب السوق في أثناء استراحة الحجاج في كل منزل من المنازل التي يتوقف بها الحجاج للراحة، وكان أهل البلد أو القرى المجاورة يعرضون فيها بضائعهم التي يحتاج الحجاج لها كما كان البدو بدورهم يبادلون سلعهم من غلال وأجبان وماشية وبسط بما يحتاجون إليه عن طريق المقايضة، ولم تكن الأسواق التي تنصب إلا في المنازل التي يكثر فيها ركب الحاج يوماً أو أكثر حتى يتمكن التجار من عرض سلعهم التي يحضرونها، لذلك كان موقع هذه المنازل مدروسا بعناية ومعدّ له مسبقاً، أما موضع السوق فيختار له عادة المكان الواسع الفسيح الذي يمكن التجار من عرض سلعهم، والحجيج من النزول به والرحيل عنه، كما كانت هذه الأسواق تنصب في أثناء ذهاب وإياب الحجاج،<sup>(1)</sup> ويعتبر سوق الحج الكبير في "المزيرب" بالقرب من دمشق واحداً من هذه الأسواق والذي تتم فيه عمليات التبادل التجاري بما توفره من مؤن وأغذية للحجاج، وربما وصلت هذه المؤن إلى الحجاز نفسها.<sup>(2)</sup>

#### أ - 10 - الأسواق المرافقة للجيش:

كان هناك نوع آخر من الأسواق الموسمية التي تنصب أثناء الحملات السلطانية، حيث ترافق الجيش في أسفاره وتنقلاته وأماكن إقامته، وقد جرت العادة أن يرافق الباعة وتجار الجملة الجيش سواء لبيع ما يحتاج إليه الجنود أو شراء الغنائم التي يحصلون عليها في حملاتهم.<sup>(3)</sup>

كان النشاط التجاري يتمركز -إضافة للأسواق العامة - في منشآت خاصة تشاد خصيصاً للأغراض التجارية ولاستقبال القوافل والمسافرين من تجار وحجاج، بعضها يشاد داخل المدينة وبعضها الآخر في أطرافها<sup>(4)</sup> أهمها:

#### ب - الخانات:

الخان<sup>(1)</sup> عبارة عن مبنى مشيد من الحجر الصلب يكون على هيئة مربع يتراوح طول ضلعه بين 10 - 60 متراً، بداخله فناء مربع تشرف عليه أجنحة الخان من الداخل، يضم باحة داخلية واسعة وتنفذ

(1) - فيصل عبد الله بني حمد، الأسواق الشامية في العصر المملوكي. رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن سنة 1992، ص ص 80 - 85.

(2) - خليل ابنالجيح، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، مرجع سابق، ص 129.

(3) - المرجع السابق، ص 105.

(4) - عبد القادر الريحاوي، خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد 25، 1975، ص 46.

إليها حيوانات الحمل المختلفة، يتكون الخان من طابقين على ارتفاع 7 - 8 أمتار، استخدم الطابق الأرضي لحزن البضائع، أما الطابق العلوي فهو مخصص لإقامة القناصل والتجار الأجانب في كثير من الأحيان وذلك لحصانته، فيه يعرضون بضائعهم ويعقدون صفقاتهم التجارية، ويقوم بعض التجار الأوربيين في بعض الخانات الرئيسية، حيث كان عددها في منتصف القرن الثامن عشر 20 خانا إضافة لخانات صغيرة ثانوية<sup>(2)</sup>.

شكلت الخانات وبالأخص في حلب منذ القرن السادس عشر المكان الدائم لإقامة التجار الأوربيين الذين كانوا يشكلون مجتمعا صغيرا يلتف حول القناصل والبعثات، ولذلك شهدت حلب تطورا عمرانيا هاما نتيجة للحركة التجارية التي عرفت هذا على عكس مدينة دمشق التي ظلت نوعا ما محافظة نظرا لعدم وجود تمثيل لقنصليات أجنبية بها، فبقيت خاناتها متواضعة من هذا الجانب،<sup>(3)</sup> وفي المقابل فإن دمشق، ونظرا للدور الذي تقدمه قافلة الحج الشامي سنويا وحركة القوافل على طريق التجارة، فقد شيدت في العهد العثماني خانات كثيرة حيث استخدمت مستودعات وفنادق للأجانب من التجار،<sup>(4)</sup> وقد وصل عددها في أواخر القرن 19م نحو مائة وتسعة وثلاثين خانا، منها ما هو مختص بأصحاب التجارة وهو في المدينة، والباقي متفرقة في أرجاء المدينة وتأوي الفقراء والغرباء الذين ينزلون بها،<sup>(5)</sup> من أبرز خانات دمشق الخان الذي بناه الوزير لالا مصطفى باشا الذي كان واليا على دمشق بين 971 - 976هـ/1563 - 1569م، والذي أصبح يُعرف باسمه والموجود تحت قلعة دمشق وهذا سنة 971هـ/1563م.<sup>(6)</sup>

يورد الفارس دارفيو عند زيارته لدمشق سنة 1660م معلومات عن خاناتها، قائلا: "يوجد في دمشق عدد كبير من الخانات الكبيرة والصغيرة لسكنى التجار والمسافرين مبنية بناء متقنا، المخازن في الطابق الأرضي، وأروقة في الأعلى تؤدي إلى الغرف، حيث لكل منها قبة مصفحة بالرصاص."<sup>(7)</sup>

أما الرحالة الفرنسي تافرنيه فيذكر أن مدينة حلب بها قرابة الأربعين خانا في سنة 1638م،<sup>(1)</sup> بينما كان عدد خانات طرابلس أربعين خانا منها ست خانات في محلة التبانة التي كانت محلة تجارية في الأصل.<sup>(2)</sup>

(1) - الخان كلمة فارسية تعني القصر أو المنزل ذلك أن بانيه هو الخاقان أو باختصار الخان أي الملك.

The encyclopedia of Islam, new edition, volume iv, 3rd impression, leiden, E.J. Brill, p p 1010-1011.

(2) - راسل، تاريخ حلب الطبيعي، مصدر سابق، ص 33 - 34.

(3) - جان كلود دافيد: "إقامة تجار الجملة الأجانب في خانات حلب" تعريب غادة الحسين، الحوليات الأثرية العربية السورية. عدد خاص بالندوة الدولية: حلب وطريق الحرير، 26 - 29 سبتمبر 1994، المجلد 43، وزارة الثقافة السورية، 1999، ص 349.

(4) - جان سوفاجيه: دمشق الشام، مرجع سابق، ص 101 - 102.

(5) - عبد القادر الريحاوي: "خانات مدينة دمشق" مرجع سابق، ص 59.

(6) نزيه الكواكبي، الحياة العمرانية، مرجع سابق، ص 185.

(7) - Mémoires du chevalier d'Arvieux, T2, p448.



أقيمت الخانات داخل الأسواق الرئيسية وعلى الطرق التجارية كمحطات لنزول التجار وحفظ بضائعهم، وحملت بعض الخانات أسماء السلع التي تباع فيها مثل خان الحرير وخان الزيت وخان الصابون غيرها... بينما اختصت بعض الخانات ببيع أكثر من سلعة، وعموما فإن الدولة العثمانية شجعت على إقامة الخانات على نطاق واسع وهذا رغبة من الولاة والميسورين في إقامة أوقاف لهم ولذريتهم عن طريق إنشاء أبنية خيرية ترصد للصالح العام، وهكذا ظهرت في حلب ودمشق مجموعة مباني تغطي مساحات واسعة مثلما قام به دو كاجين في حلب سنة 1555م.<sup>(3)</sup>

### ج - القيساريات:

تعد القيساريات أسواقا متخصصة في بيع سلع محددة، لكنها ذات طابع خاص يميزها عن الأسواق الأخرى، فالقيساريات مجمعات تجارية تحوي عدة حوانيت تبيع سلعا متماثلة، ولها باب يغلق ليلا، ويقوم حارس بحراستها ليلا، ولكل قيسارية مشرف خاص بها يشرف على إدارتها، ولا يسمح لأحد الدخول إلى مجمع الحوانيت بعد إغلاقها، ويصل عدد هذه الحوانيت إلى ثلاثين حانوتا، واشتملت بعض القيساريات في وسطها على نوافير المياه لأغراض الوضوء، إضافة لبعض المساكن، وارتبطت هذه القيساريات بنوع السلع التي تبيعها، والبعض منها تم وقفها على المستشفيات والفقراء والمساجد والصوفية والمدارس، وبعضها وقفا ذريا (أهلها).

### د - التكايا:

تعتبر التكية السليمانية أهم المجمعات العمرانية التي بنيت كمجمع عمراني ضخم في دمشق يضم جامعا ومدرسة وتكية وسوقا وسيلا بين سنتي 962 - 974هـ / 1554 - 1566م، و وفق الطراز العثماني ومن تصميم المعماري العثماني سنان، كما تم بناء الزاوية السعدية البرانية في منطقة الميدان على طريق الحج سنة 962هـ / 1554م

### ثالثا - الأسعار والحسبة:

#### 1 - الأسعار والتسعير:

السعر هو الحد الأقصى من القيمة المقررة من السلطات الرسمية لسلعة من السلع، وقد تعددت آراء الفقهاء حول جواز التسعير وعدالته، ويبدو أن السلطة العثمانية الجديدة في بلاد الشام لم تنتظر كثيرا قبل أن

(1)- Jean Baptiste Tavernier ; les six voyages de jean Baptiste Tavernier ECUYER BARON D'AUBONNE Qu'il a Fait EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDE ; 1ere partie, op cit, p137.

(2) - خالد زيادة، سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح، مرجع سابق، ص 146.

(3) - ليلى الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، العاشر والحادي عشر الهجريين، ج 2، مرجع سابق، ص 652.

تقر بدء عملية تسقيف الأسعار في دمشق بعد أن استقر لها الوضع هناك، فعمدت إلى تحديد أسعار بعض السلع الاستهلاكية كالحب، والطحين، وبعض الفواكه كالشمش،<sup>(1)</sup> وكانت الدولة العثمانية تبتغي من هذا الإجراء تحقيق رؤيتها العامة القائمة على توفير عوامل الرفاه للأهالي،<sup>(2)</sup> وكانت عملية تقرير الأسعار تتم عن طريق زعماء الحرفيين والتجار، وفي حضور القاضي والمحاسب، ومع أن منفعة الأهالي هي الأمر الذي يؤخذ في الاعتبار أثناء عملية التسعير، إلا أنهم كانوا يحاولون أن يتركوا للحرفيين والتجار دائماً قدر من الربح تبعاً لجنس السلعة ونوع المنتج والمواد الخام المستخدمة فيه ونوع الجهد ومقداره، بحيث يتراوح بين 10 و15% وقد يصل إلى 20% في السلع التي تتطلب جهداً أكبر.<sup>(3)</sup>

#### أ - العوامل المؤثرة على الأسعار:

تتأثر الأسعار عادة بعدة عوامل أبرزها العوامل الطبيعية: فاحتباس المطر يؤدي إلى والقحط الغلاء والمجاعات، وقد تعرضت نتيجة لذلك أراضي حوران وغزة والقدس إلى الخراب وهجر الفلاحين لأراضيهم، كما كان للأمطار الغزيرة والبرد والصقيع أثر على ارتفاع الأسعار، فقد تتعرض المحاصيل الزراعية للتلف بسبب غزارة المطر وحدوث الفيضانات أو لموجات الصقيع الذي يؤدي إلى تلف أشجار الفواكه والمحاصيل الزراعية، وينتج عن انتشار الأوبئة أو بعض الكوارث كزحف الجراد وظهور القوارض والآفات الزراعية آثار مدمرة على الانتاج الزراعي، ولعل من أخطر الأوبئة وأشدها فتكاً هو انتشار داء الطاعون الذي كثيراً يترك أثره في الأسعار حيث ترتفع أسعار المبيعات الغذائية أو تلك التي تستخدم للتداوي، وفي المقابل فإن انحسار الطاعون مؤثر على انخفاض الأسعار وتوفر السلع في الأسواق، فقد تفشى الطاعون في بلاد الشام في عهد السلطان مراد الثالث سنة 1579م، فحلّ الضيق بأهلها واشتدت وطأة الغلاء حتى بلغ ثمن اردب القمح 150 قرشاً وهو ثمن فاحش جداً<sup>(4)</sup>، ما يتعرض له الإنسان يصيب الثروة الحيوانية بحيث أن تعرض الماشية والأبقار لبعض الأوبئة الخطيرة يؤدي إلى رخص ثمنها لقلة من يشتريها وخوف الناس من تناول لحومها.

و كان للنزاعات الأمنية تأثيرها على الأسعار فنشوب الحروب أو تعرض بعض المناطق لغارات البدو يؤدي إلى ارتفاع الأسعار، وتعد مسألة العرض والطلب من الأسباب المؤثرة على الأسعار والتي تخضع لحجم الانتاج وحاجة الناس إلى السلع والتسهيلات المتاحة في تسويقها، وهكذا يلاحظ ارتفاع الأسعار في بعض المناسبات الدينية والأعياد، ويضاف إلى عوامل ارتفاع الأسعار عامل تكلفة النقل، فكان لنقل السلع

(1) - محمد ابن طولون الدمشقي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 364.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 672.

(3) - نفسه، نفس المكان.

(4) - بولس مسعد، الدولة العثمانية في لبنان وسورية في عهد السلطان مراد الثالث 1574 - 1589م، طبع سنة 1916، ص 15.

من أماكن بعيدة أثره في تحديد السعر، و وصول الغلال الجديدة إلى الأسواق عاملا آخر على انخفاض أسعارها وكساد الغلال القديمة التي سبق تخزينها واحتكارها في الأسواق .

ارتبطت أسعار بعض السلع بالمواد الأولية التي تصنع منها، فارتفاع الأسعار يؤثر على أرباب الحرف والصناعات وكذا على العمال وأرباب الأسر، مثل أصحاب الطواحين والمخابز الذين يتأثرون بغلاء أسعار الدواب والأعلاف وانعكاس ذلك على السلع التي ترتبط بها كطحن الحبوب والخبز واللحوم والأجبان، فمثلا نجد أسعار الخبز والدقيق تتأثر بمدى وفرة مادة القمح، لذلك كان يجري ضبط سعر الخبز في أعقاب الحصاد، ويجري التغيير كلما مست الحاجة حتى يتم الحصول على المحصول الجيد، وإن كان في الغالب أن الدولة تتمسك بسعر ثابت للخبز، إذ كان بقدر أقدرة واحدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والذي كان يتغير هو وزن رغيف الخبز نفسه<sup>(1)</sup>، كما كان يجري ضبط أسعار اللحوم والألبان عادة في أشهر الربيع والخريف<sup>(2)</sup> على الرغم من أن نقص الأعلاف للحيوانات ساهم في رخص ثمنها، ولأجل أن يقضي الناس شهر رمضان في سعة واطمئنان كان المسؤولون العثمانيون يحرصون أن يتم إجراء تقرير أسعار المأكولات من جديد خلال شهر شعبان.<sup>(3)</sup>

وكان لتبدل النقود وانخفاض قيمتها الشرائية وحالات الغش التي تحدث فيها سببا لارتفاع الأسعار، وكان قيام الدولة بطرح نقود جديدة أو طرح كميات إضافية منها مع بقاء الإنتاج على حاله يتسبب في ارتفاع الأسعار بشكل ملفت يعادل انخفاض القيمة الشرائية للنقود مما يضطر الدولة إلى التدخل من أجل ضبط أسعار البضائع والأمتعة والخدمات.<sup>(4)</sup>

وإذا كان التسعير يتم بالتوافق بين شيوخ الحرف والتجار وبحضور القاضي والمحاسب، فإن الملاحظ هنا هو أن شيخ الحرفة أو الطائفة كثيرا ما كان له الثقل في تحديد السعر، ومما يرجح ذلك هو أن شيخ حرفة النجارين في حلب كان هو الذي يعين ثمن الخشب، وأنه لا المحتسب ولا القاضي كان لهما حق تسعير الحاجيات، وحدث نفس الشيء مع طائفة البساتنة بحلب التي احتجت على المحتسب الذي طالبهم بتسعير القرنبيط و الملفوف وأجابوا بأنه لم تجر العادة بتسعير ذلك في المحكمة و أيدهم القاضي و منع المحتسب من معارضتهم<sup>(5)</sup> وحدث نفس الأمر كذلك في مجال الحرير حيث كان شيخ الحرفة هو من يتدخل في تحديد السعر، ففي أوائل القرن السابع عشر اتفق شيخ طائفة الحريريين في حلب على تعيين أجرة قتل الحرير

(1) -بولس مسعد، الدولة العثمانية في لبنان وسورية في عهد السلطان مراد الثالث المرجع السابق، ص 672.

(2) - نفسه، ص 673.

(3) - نفسه، نفس المكان.

(4) - نفسه، ص 673.

(5) - عبد الكريم رافق: مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني "مرجع سابق، ص 45.

وكذلك صبغه ، وفي مناسبة أخرى اتفقت طائفة الحياك بحلب أن تكون قيمة البيع لكل وحدة مما تنتجه من الفوط هو سبع وأربعين عثمانيا فضيا ما دام القرش يومئذ مائة وخمسون عثمانيا ومن خالف ذلك يعاقب،<sup>(1)</sup> وفي مجال آخر سمح للقصابين من طائفة اليهود بزيادة درهم على السعر الذي يبيع به القصابون المسلمون ليدفعوا هذه الزيادة إلى فقراء اليهود وصعاليكهم ووافقت طائفة القصابين على ذلك ولم يعترض المحتسب،<sup>(2)</sup> وفي القدس الشريف تعهد جماعة القصابين أمام الحاكم الشرعي أنهم يكفون مدينة القدس الشريف لحما ، ويبيعونه في أول النهار إلى آخره ، وأنهم يبيعون اللحم الضأن بستة قطع واللحم الماعز الرطل بخمسة قطع يباعا شرعيا.<sup>(3)</sup>

كما أن نوعية البضائع ومدى إقبال الناس عليها تؤثر في السعر، لذلك فقد اختلفت أسعار السلع والبضائع من فترة لأخرى ومن سوق لآخر، ومن خلال دفاتر الطابو العثمانية الخاصة ببعض ألوية بلاد الشام خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ومن سجلات المحكمة الشرعية لبعض مدن الشام، يمكننا أخذ صورة عن أسعار بعض السلع.

#### ب - أسعار السلع والمواد الأساسية :

**- القمح :** القمح من السلع التي يؤدي نقصها أو انقطاعها إلى ارتفاع سعرها بشكل كبير، فكثيرا ما عجز أهالي إيالة الشام سواء دمشق أو غيرها من المدن عن دفع ثمنها، وسبب ذلك أنها تعتمد على ما تستورده، كون ما تزرعه يبقى غير كاف، أما إذا تعرضت مدينة كبيرة كدمشق للحصار أو لأسراب الجراد، أو انحبس عنها المطر ارتفع سعر غرارة القمح، فقد بلغ ثمن الغرارة الواحدة من القمح بمدينة القدس : 300 أقة<sup>(4)</sup> أما في ناحية عجلون 260 أقة<sup>(5)</sup> وفي ناحية بني كنانة من لواء الشام فقدر ثمنها بـ 130 أقة<sup>(6)</sup>.

130 أقة<sup>(6)</sup>.

**- الشعير :** بلغ سعر المد من الشعير سنة 980هـ / 1572 - 1573م في مدينة الخليل من لواء القدس الشريف 10 عثمانيات (أقجات)، ثم ارتفع إلى 25 عثمانية سنة 983هـ / 1575 - 1576م،

(1) - عبد الكريم رافق : مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني " مرجع سابق، ص 44.

(2) - عبد الكريم رافق : مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني " مرجع سابق، ص 43.

(3) - حجة رقم 2، مؤرخة في 5 ربيع الأول 1082هـ / 10 - 08 - 1672م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 2، ص 390.

(4) - دفتر تحرير 427، سنة 932 - 934هـ / 1525 - 1527م، ص 217.

(5) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970، ص 63.

(6) - محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص 70.

لكنه عاد الى الانخفاض سنة 991هـ / 1583 م،<sup>(1)</sup> العدس : بلغ ثمنه سنة 980هـ / 1572 - 1573م 16 عثمانية.<sup>(2)</sup>

-الأرز: أشارت سجلات محكمة القدس الشرعية إلى أن ثمن قنطار الأرز سنة 976هـ 1568 - 1569م، بلغ 10 سلطانيتين.<sup>(3)</sup>

-الزيت: اختلف سعر قنطار الزيت من سنة لأخرى، ففي سنة 983هـ / 1575 - 1576م ما بين 12.5 و15 سلطانيا، لكن هذا السعر تحكمه الوفرة في الانتاج، بحيث أدى توفر الزيتون إلى تراجع الأسعار إلى 10 سلطانيات فقط 998هـ / 1589 - 1590م.<sup>(4)</sup>

-الحيوانات: اختلف سعرها من حيوان لآخر، وإذا ما بحثنا على ثمن الجمل باعتباره وسيلة النقل الأساسية في تلك الفترة، فإننا نجد ثمنه خلال القرن 10هـ / 16م ما بين 13 و15 سلطانيا، أما الحصان في الحالات الطبيعية يكون سعره 25 سلطانيا.<sup>(5)</sup>

-البيوت: تشير حجج المحاكم الشرعية إلى عمليات بيع واسعة، ويختلف السعر حسب سعة المنزل ومرافقه، ففي أواخر القرن السادس عشر اشترى أحد الزعماء التيماريين في لواء حماة المدعو خرم بك بن عبد الله دارا في حماة في محلة باب المغار بثلاثين سلطانيا<sup>(6)</sup> علما بأن السلطاني ذهبيا يساوي 48 قطعة فضية في هذه الفترة أي الربع الأخير من القرن السادس عشر،<sup>(7)</sup> أما في النصف الثاني للقرن السابع عشر فقد بيعت بيعت دار بالرملة مشتملة على غرف وأحواض ومنافع ومرافق، وأربعة فدادين البقر مع البساتين التابعة وطواحينها، بثمن قدره ثمانية آلاف ومائة غرش عديدة،<sup>(8)</sup> كما تم شراء دار بالقدس الشريف في نفس الفترة الفترة تشتمل على قسمين علوي وسفلي، بها ثلاثة بيوت علوية واثنان سفلية مع اسطبل وصهريج ماء

(1) - باسم إحشيش، ناحية الخليل ق 10هـ، مرجع سابق، ص 127.

(2) - نفسه، ص 127.

(3) - نفسه، ص 127.

(4) - نفسه، ص 128.

(5) - نفسه، ص 128.

(6) - عبد الكريم رافق: " الفئات الاجتماعية و ملكية الأرض في بلاد الشام " مرجع سابق، ص 124.

(7) - نفس المرجع، ص 130.

(8) - حجة رقم 1 مؤرخة في 6 محرم 1082هـ / 14 - 5 - 1671م، سجل 173، ج 1، محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 210 - 213.

بثمان قدره سبعة غروش عديدة،<sup>(1)</sup> ويبيعت دار بمحلة النصارى بالقدس الشريف بمبلغ قدره اثنان وعشرون غرشا عديدة.<sup>(2)</sup>

-**الرقيق** : اشترى علي باشا بن نصر الدين الانكشاري بقلعة القدس الشريف من التاجر اليهودي ياسف ولد داود عبدا مملوكا روسي الجنسية بثمان قدره مائة غرش عديدة.<sup>(3)</sup>

-**الأسلحة** : كما يبيعت بارودة ( بندقية ) مع كامل عدتها بمبلغ قدره سبعة غروش ونصف غرش عديدة.<sup>(4)</sup>

### ج -تطور الأسعار خلال القرن 16م:

عرفت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا غداة دخول الجيش العثماني إلى مدن وبلدات بلاد الشام عقب هزيمة المماليك في مرج دابق سنة 922هـ/1516م، فكانت الأسعار حسب ما أورده ابن طولون الدمشقي باعتباره شاهد عيان بأن ثمن غرارة القمح 400 درهم، والشعير بنحو 360، رطل اللحم من الضأن 10 دراهم، والمعز والبقر بثمانية دراهم، والسمن بثلاثين درهما، والزيت بخمسة عشر، والسيرج بثمانية عشر، والدبس بستة، والأرز بسبعة، والخطب بدرهم، والقماش بأنواعه غال.<sup>(5)</sup>

في سنة 999هـ/1590م بلغ سعر غرارة القمح خمسة عشر سلطانيا بعد أن كانت في محرم من أول السنة عشرون سلطانيا مما أصاب الناس بالغم، أما غرارة الشعير فثمنها أربعة عشر سلطانيا، إلا أن نائب الشام محمد باشا ابن الوزير سنان باشا أمر ببيع ما هو في مخازن دمشق والتي تخص والده سنان باشا فباع ما فيها بخمسة عشر سلطانيا للغرارة مثلما تقدم ذكره، وبل وألزم بعض الزعماء ممن كان باع الغرارة بعشرين سلطانيا أن يرد على المشتري خمس سلطانيات، رغبة منه في استقرار سعر القمح، وبهذا المعدل منع الخبازين من صنع الكعك.<sup>(6)</sup>

(1) - حجة رقم 3، مؤرخة في 3 محرم 1082هـ / 11- 5- 1671م، سجل 173، ج1، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 192.

(2) - حجة رقم 1، مؤرخة في 4 ذو الحجة 1081هـ / 13- 4- 1671م، سجل 173، ج1، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص ص 49- 50.

(3) - حجة رقم 1، مؤرخة في 9 ذو الحجة 1081هـ / 18- 4- 1671م، سجل 173، ج1، محكمة القدس الشرعية العثمانية، ص 61.

(4) - ح3، سجل 173، ج1، ص 32- 33.

(5) - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 348.

(6) - شرف الدين موسى الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، ج1، مصدر سابق، ص ص 171- 173.

في شهر ربيع الثاني 999هـ / 1590 عادت أسعار الغذاء في الارتفاع ، حيث باع ثمن رطل الحبز 10 قطع فضية ورطل الأرز باثنتي عشرة قطعة فضية و غرارة القمح بأربعين سلطانيا و غرارة الشعير بعشرين سلطانيا<sup>(1)</sup> ، وهذا بعد أن كان الحبز بثمانية قطع فضة فقط<sup>(2)</sup> ويعود سبب هذا الارتفاع إلى حدوث قحط شديد وشح في المطر<sup>(3)</sup>.

## 2 - الحسبة والمحتسب:

لكي تضمن الدولة رعاية التجار للأسعار كانت تضع الأسواق على الدوام تحت الرقابة عن طريق موظف يقوم بالتفتيش يسمى "المحتسب".

### أ - مفهوم الحسبة:

الحسبة اسم من "الاحتساب" ويقال : فلان حسن الحسبة في الأمر أي حسن التدبير والنظر فيه ، ويقال : احتسب فلان على فلان أي أنكر عليه قبيح عمله ،<sup>(4)</sup> ويشترط في الذي يتولى الحسبة أن يكون : رجلا عفيفا خيرا ، ورعا ، عالما ، غنيا ، نبیلا ، عارفا بالأمور ، محنكا ، فطنا ، لا يميل ولا يرتشي ، فتسقط هيئته ويستخف به ولا يعبأ به ويتوبخ معه المقدم له ، لأنه لا يهاب إلا من كان له ما وحسب.<sup>(5)</sup>

وقد أبقي السلطان سليم الأول على الحسبة عند دخوله الشام سنة 922هـ / 1516م وأوصى المحتسبين بتنفيذ أحكام القضاة وقراراتهم.<sup>(6)</sup>

### ب - مهام المحتسب:

وتمثلت مهام المحتسب في زمن السلطان سليمان القانوني مراقبة الأسواق وضبط اسعار البضائع وتعيين أماكن البيع واختيار التجار ومراقبتهم خشية الغش وتنظيم عمليات البناء واصدار تصاريح خاصة بذلك ، فضلا عن أن المحتسب يعنى بشؤون الطوائف الحرفية ويجمع الرسوم التي تفرض على البضائع والمعاملات

(1) - شرف الدين موسى الأنصاري ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 197.

(2) - نفسه ، ص 191.

(3) - نفسه ، ص 197.

(4) - أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، مج 1 ، دار صادر ، بيروت ، (دون تاريخ) ، ص 315 - 317.

(5) - ليفي برونفيسال ( دراسة وتحقيق ) : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة ، 1955 ، ص 20.

(6) - لیلی الصباغ ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 18.

التجارية،<sup>(1)</sup> وضبط الأوزان، ومنع الغش في الطعام والشراب، والمحافظة على الآداب العامة،<sup>(2)</sup> والتأكد من عدم نقص الأوزان المستعملة في الأسواق وأن يؤدب من تنقص أوزانه.<sup>(3)</sup>

استمر المحتسب في الفترة العثمانية خلال القرن 10هـ/16م في تولي وظيفته من قبل أمير اللواء باعتبار أن مقاطعة الاحتساب كانت جزءاً من تيمار السنجق بكي<sup>(4)</sup> مع اختلاف طفيف عما كان معمولاً به به في العصور الإسلامية السابقة، فقد كان المحتسب في الفترة العثمانية يأخذ رسوماً عما كان يقوم به من أعمال،<sup>(5)</sup> مثل رسوم الباج،<sup>(6)</sup> والقبان،<sup>(7)</sup> ثم أصبحت الحسبة تلزم للملتزم يجبي واردات المخالفات التي يرتكبها أصحاب الصناعات، ويجبي الضرائب المفروضة عليها، وكان ثمن التزام "مقاطعة الاحتساب" عن ثلاث سنوات في حماة بين 976-979هـ مبلغ 57640 درهماً<sup>(8)</sup> بينما كان في مدينة كبيرة مثل دمشق الشام يبلغ 600000 أقة وهو مبلغ ضخم يجمع من الدكاكين والمحال التجارية على أسس شهرية، وهو ما أشار إليه قانوننامه القدس بما نصه: "منذ القدم كان يتم استيفاء أقة واحدة عن كل دكان في كل الخميس باستثناء سوق العطارين، فمنذ القدم لا يؤخذ منه شيء".<sup>(9)</sup>

تظهر سجلات المحكمة الشرعية بحماة أن المحتسب يمارس عدة أعمال أبرزها: لزم الضرائب المفروضة على الحرير، والضرائب على ميزان التين والزبيب وغيره في محلة تحت الشجرة بحماة، كما كان يلاحق الغش في الموازين، وشارك رجال الأمن في محاربة اللصوصية، وأصدر تسعيرات للبضائع الرئيسية في الأسواق.<sup>(10)</sup>

(1) - أحمد حسين عبد الجبوري، القدس في العهد العثماني (1516-1640)، دراسة سياسية - عسكرية - إدارية - اقتصادية - اجتماعية - ثقافية، ج1، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011، ص 163-164.

(2) - كامل جميل العسلي، وثائق تاريخية مقدسية، ج2، مرجع سابق، ص2.

(3) - المرجع السابق، ص163.

(4) - نفسه، ص164.

(5) - الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مرجع سابق، ص 78-79.

(6) - الباج هو الرسم الذي يدفع مقابل السلع التي تدخل إلى السوق للبيع، ويختلف الرسم بحسب طبيعة البضاعة ونوعها. نفس المرجع، ص 35.

(7) - رسم القبان هو رسم يؤخذ عن البضائع التي تحملها الحيوانات وتقدر عن طريق وزن كل حمل، فكان يؤخذ بارة واحدة رسم قبان عن حمل الجمل من القطن، أما رسم قبان الزيت فهو أقة واحدة عن كل ظرف، وكل أربعة منها تشكل حمل الجمل TD289is، ص 146.

(8) - عبد الودود برغوث: "تاريخ حماة"، مرجع سابق، ص83.

(9) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام"، مرجع سابق، ص9.

(10) - المرجع السابق، ص 83.



لا شك بأن وصول السلعة إلى المستهلك بأسعار مقبولة والعناية بالظروف الصحية لها والحفاظ على مستويات النوعية والجودة اللازمة كانت من الأمور الهامة في تأمين رفاه الأهالي والتي حرصت الدولة العثمانية على تحقيقها<sup>(1)</sup>.

(1) -تبيين "قانوننات الاحتساب" مدي حرص المشرع العثماني على ضمان تحقيق عدل والرفاه في المجتمع، فموضوع الخبز مثلا لم يكن مقصورا على وزنه وسعره فحسب، بل تطرق إلى مقدار القمح المستخدم، ومقدار الدقيق المستخرج منه، ومقدار المخزون المفروض على أصحاب الأفران الاحتفاظ به، والعقاب الذي يجب إنزاله بهم إذا خرج الخبز نيئا أو ناقصا، ونفس الشيء يمكن ملاحظته في الملابس والأحذية حيث نصت هذه القوانين على المدة التي يجب أن تمضي في استهلاكها، كما نصت على مقاييس الطول والعرض في بعض السلع كالأقمشة والحصر، كما أولت النظافة عناية فائقة سواء لدى فئة الطبّاخين أو الحلاقين وأصحاب الحمامات، بل وراعت حتى حقوق الحيوان في عمليات نقل الأحمال، وحذرت من مغبة تحميله فوق طاقته، وترجمت الأحكام السلطانية التي يصدرها الديوان الهمايوني للمسؤولين في الايالات والألوية بتنفيذ هذه الإجراءات على أرض الواقع، كما وضحه الحكم السلطاني الموجه إلى أمير الحج الشامي في جمادى الأولى 976هـ/30 أكتوبر 1568م يأمره بأن يوجه تنبيهها شديدا إلى المعنّين ويحذّرهم من تكرار القيام بتحميل دوابهم أكثر من حمولتها وحكما آخر موجه إلى بكليركي الشام يأمره بأن يعمل على الحيلولة دون تحميل الجمال المحمّلة بالحبوب بمحمولات تفوق طاقتها، بل يتمّ تحميلها بمقدار ما جرت عليه العادة . مهمة دفترى 7، ص 878، الحكم 2414. مؤرخ في جمادى الأولى 976هـ/ 30 أكتوبر 1568م. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، ص 222، مهمة دفترى 7، ص 917، الحكم 2513 مؤرخ في جمادى الأولى 976هـ/ أكتوبر 1568م. نفسه، ص 235؛ أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 675.

# الفصل الرابع

الضرائب

يمثل موضوع الضرائب أحد الجوانب الهامة في معرفة العلاقة السائدة بين الدولة ورعاياها أو بعبارة أخرى العلاقة بين الحكام والمحكومين، وهو ما يؤثر لطبيعة نظرة الدولة لرعاياها سلباً أو إيجاباً ومدى احترامها لحقوقهم، وفي ذات الوقت موقف هؤلاء منها ونظرتهم إليها وتفاعلهم وتعاونهم معها أو خداعها والتملص من تأدية واجباتهم نحوها، لذلك فإن التنظيمات المالية بشكل عام تعبر من الناحية الواقعية عن نفوذ الإدارة وقدرتها على تجسيد وجودها في الأقاليم التابعة لها، وعلى هذا الأساس نجد بأن تطبيق النظم المالية يأتي عادة في الخطوة الثانية بعد تحقيق التواجد السياسي،<sup>(1)</sup> وكان لإنشاء دفتردارية العرب<sup>(2)</sup> ومقرها في حلب التجسيد الفعلي لبداية إرساء التنظيمات المالية العثمانية في بلاد الشام والشروع مباشرة في إجراء عمليات التحرير والإحصاء.<sup>(3)</sup>

وفي مفهوم الدولة العثمانية فإن دفع الضرائب معناه الخضوع لسلطة الدولة التي تسجل حضورها في هذه المناطق، إضافة إلى أن جباية الضرائب تعتبر ضماناً لاستمرار الدولة<sup>(4)</sup> من خلال الإيرادات المحصلة من الإقطاعات المختلفة<sup>(5)</sup> على اعتبار أن كان النظام الضريبي العثماني يستهدف كل نواحي الحياة الاقتصادية.<sup>(6)</sup>

(1) - علي شاكِر علي: "التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة المؤرخ العربي، إصدارات الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد: 27، السنة الثانية عشرة، بغداد 1986، ص 82.

(2) - كانت الدولة العثمانية قد استحدثت مباشرة عقب توسّعها في بلاد الشام سنة 1516م دفتردارية عربستان ومقرّها مدينة حلب - بعد أن كانت تضمّ في البداية دفتردارية الروميلي والأناضول - وكانت هي المسؤولة عن إيلات ديار بكر و حلب والشام و طرابلس الشام وأرضروم. - مهمة دفتري E.12321، ص 159 ب، الحكم 390، مؤرخ في 9 محرم 952هـ/ 1545/03/23 م. نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 1، سبق ذكره، ص 104-105.

(3) - يطلق العثمانيون على عملية الإحصاء اسم (تحرير) و(كتابت) بالتاء المفتوحة بالإملاء العثماني، والدفاتر هي (تحرير دفترلري) أو (طابو دفترلري) أي "دفاتر التحرير" أو "دفاتر الطابو". خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 55.

(4) - اعتمدت السلطة على القاعدة التالية: "لكي تحكم الدولة لابد من عسكر، وللاّنفاق على العسكر لابد من أموال كثيرة، و لتأمين هذه الأموال لابد أن تكون الرعية غنية، ولكي تكون الرعية غنية لابد أن تكون القوانين عادلة، ولذلك إذا أهمل عنصر من هذه العناصر تنتهي الدولة إلى الانهيار." أنظر: خليل إينالجيّك، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، مرجع سابق، ص 104.

(5) - كان 38000 من إقطاعيي البلاد العثمانية من أصحاب الخاص والزعامت والتمار كانوا خلال تلك الفترة من القرن 16م يؤدون للدولة مهمة جمع نصف إيرادات الدولة العثمانية جميعاً

Omer Lutfi Barkan; « research on ottoman fiscal serveys » op cit, p163.

(6) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 241.

## أولا -التحرير عند العثمانيين وأهميته :

### 1 -انجاز دفاتر التحرير :

إن أهم مرجع يمكن للباحث أن يرجع إليه بخصوص الضرائب في العهد العثماني خلال القرن السادس عشر وفترة من القرن السابع عشر هي دفاتر التحرير أو الطابو العثمانية<sup>(1)</sup>، إذ يجد فيها إحصاء شاملا للسكان والضرائب<sup>(2)</sup>.

يمثل الإحصاء أو التحرير عند العثمانيين عملية ضرورية لمعرفة طاقات البلاد البشرية والمادية والمالية، إضافة إلى أن العملية في حدّ ذاتها جدّ ضرورية من أجل توزيع التيمار في عهد كانت فيه الجبايات كلفة والبلاد مترامية الأطراف، فالتيماري هو بمثابة جابي ضرائب معيّنة باسم الدولة يصرفها على نفسه في مقابل خدمته العسكرية، ومشاركته في الحروب، ومهمة حفظه تيماره ومحافظته على الأمن فيه<sup>(3)</sup>، لذلك وحسب التعليمات التي تُعطى للمكّلف بالتسجيل فإن العملية تتم على النحو التالي :

-يعيّن السلطان مفوضاً كفؤاً يختاره من بين العلماء أو الاداريين المحترمين الذين يتحلّون بسمعة طيبة خاصة فيما يتعلق بالعدالة والنزاهة وذلك من خلال مستند(برات تعيين) خاص يخوّله كلّ السلطات الضرورية، ويأمر الرعايا والرسميين المحليين -بمن فيهم القاضي - بإطاعته ومساعدته في عمله، وتتضمن هذه الوثيقة (البرات) وبالتفصيل الإجراءات التي يجب اتباعها .

(1) -بدأت الدولة العثمانية في عملية تسجيل الأراضي والعقارات و وضع نظام ضريبي لها منذ بداياتها، ويتضمن أرشيف رئاسة الوزراء حاليا 1155 دفترا من دفاتر الطابو، بينما يوجد في دائرة المسح العقاري في أنقرة 250 دفترا ، يوجد نوعان من الدفاتر : دفاتر المفصل وتحتوي على معلومات مفصلة عن السكان بأسمائهم وتقدير الضرائب التي تجبى منهم، وتفاصيل حاصل الضرائب، أما دفاتر الاجمال فهي بمثابة ملخص لدفاتر المفصل وفيها تمييز بين أنواع الجبايات حسب الجهة التي خصصت لها (بمعنى تحديد ما يعود للسلطان وما يعود للأوقاف وما يعود للخزانة الأميرية ، وما يوزع على أصحاب الزعامات وأرباب التيمار)، ولا يوجد في دفاتر الاجمال أسماء السكان ولا عددهم، وهذه الدفاتر كانت تخص فقط الولايات والألوية التي طبقت فيها الدولة العثمانية نظام التيمار ، لذلك لم يكن نظام التيمار مطبقا في الحجاز واليمن ومصر والسودان والحبشة وطرابلس وتونس والجزائر، وما يؤسف له هو عدم وجود دفاتر احصاء خاصة بالإيالات المغاربية، فعلى الرغم من اهتمام السلاطين العثمانيين بالموضوع في أواخر القرن السادس عشر وإعدادهم العدة وانتدابهم أناسا للقيام بتحرير واحصاء في هذه الإيالات، إلا أن عزيمة السلاطين فترت عن الاحصاء تماما خلال القرن السابع عشر ليس فقط في الإيالات المغاربية ، بل في كل الدولة العثمانية بسبب التراجع الذي عرفه نظام التيمار بشكل عام . أنظر: أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج1، مرجع سابق، ص19، عصام خليفة، لبنان في أرشيف اسطنبول، الجامعة اللبنانية، بيروت 1996، ص14؛ خليل ساحللي أوغلي، المرجع السابق، ص56 -57، ص186.

(2) -نفس المرجع ، ص240.

(3) - خليل ساحللي أوغلي، المرجع السابق، ص55.

-يبدأ المحرر تحقيقاته على الأرض مقارنا الوضع الراهن بما يجده في دفاتر التحرير السابقة ، ففي القرية مثلا يدعو كبار السن والمسؤولين عن الأوقاف والعسكر إلى الحضور أمامه مع كل الوثائق التي بين أيديهم.<sup>(1)</sup>

-كان السلطان -آخذا أهمية التسجيل للرعايا والحكومة - ينبّه المحرر إلى ضرورة توخي أقصى درجات الانتباه والحذر وأن لا يبتعد عن الموضوعية أو يقبل أي رشوة ، وكان يعطى السلطة للقيام بتحقيق شامل في كل القضايا المتعلقة بالضرائب وبملكية الأرض وشرعية الاستثناءات والاعفاءات الضريبية فكان المحرر هو سلطة الاستقصاء والتقرير خلال عملية المسح ، كما كان يضع مسودة قانون نامه للإقليم محل التحرير مع فقرات حول كل الضرائب والقوانين في المسائل التي يقع عليها نزاع باستمرار بين الفلاحين الرعايا والسباهيين ، وفي نهاية التحرير يقدم السجل و مسودة القانونامه للسلطان للتدقيق فيهما وإعطائهما الموافقة النهائية.<sup>(2)</sup>

لم تكن دفاتر التحرير فقط سجلا ومرجعا لتحديد الثروات التي توزّع على العسكر ، بل كانت أيضا دفاتر توضح وضعية الأرض والسكان ، وتحدد -حتى الإحصاء التالي -الوضعية الاجتماعية والمسؤولية الضريبية للأراضي والأشخاص والمجموعات.<sup>(3)</sup>

-كان المحرر يسجل -وبشكل منفصل -أولا الفلاحين المتزوجين الذين يملكون جفتلك أو يملكون نصف جفتلك ، والفلاحون المتزوجون وغير المتزوجين الذين لا يملكون أرضا أو يملكون القليل ، بعدها يحدد مجموع العشر عينا على قاعدة الانتاج خلال السنوات الثلاث السابقة ، ويأمر المستند السلطاني المحرر بالاستقصاء الدقيق عن كل الاعفاءات الضريبية وتسجيلها في السجلات الجديدة.<sup>(4)</sup>

كان الاهتمام الخاص للحكومة المركزية العثمانية منصباً على إحياء القرى والمزارع المهجورة والجفالق خلال عملية المسح ، وكانت تلك المزارع المهجورة تُسجّل بدقة وتُعرض في المزارع العلني للمستأجرين لاحقا ، وهكذا فإن دفاتر التحرير كانت تضمن للإدارة المركزية سيطرة فعالة ودقيقة على الرعايا ومزارع الفلاحين.<sup>(5)</sup>

(1) - خليل اينالجيک ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، ج1 ، مرجع سابق ، ص 216.

(2) - نفسه ، ص ص 218 - 219.

(3) - نفسه ، ص 216.

(4) - نفسه ، ص 217

(5) - نفسه ، نفس المكان.

بعد ضريبتى الجفت والعشر تأتي الفئة الثالثة من الضرائب وتتكون من الرسوم على: الكروم والطواحين وعلى قفران النحل وصيد الأسماك إضافة إلى رسوم الأسواق ورسم العروس ورسوم الطابو والغرامات، وكان على المحرر تحديد قيمة كل رسم على ضوء حجم السكان والأوضاع الاقتصادية.

أما الصنف الرابع فهو الضرائب الطارئة للدولة التي كانت تطل السكان الريفيين والمدينين وكان المحرر أو القاضي هو الذي يحدد ويسجل كل فئة من الرعايا وبشكل منفصل، كما يسجل أولئك الذين يتمتعون بإعفاءات.<sup>(1)</sup>

-يشرف الدفتردار شخصيا على هذه العملية تنظيما وتحصيلا، مستندا في ذلك إلى الدفاتر التي يتم إعدادها من حين لآخر، لذلك فدفاتر التحرير العثمانية أو (طابو دفترلري) تعكس مدى عناية الدولة بتحديد مصادر مواردها المالية كي يتسنى لها تنظيم عملية تحصيلها.

مع مرور السنين تتغير المعالم والأسماء، ويزداد عدد السكان أو ينقص، وتتغير القوانين والعادات المتبعة أو تتراجع، لذا؛ تصبح عملية إجراء إحصاء جديد أمرا إلزاميا لتجنب الظلم والأخطاء والخسائر للخزانة.<sup>(2)</sup>

تجرى عملية المسح العام والشامل عند ارتقاء أي سلطان جديد العرش، إذ عند وفاة السلطان تصبح كل السندات قانونا باطلة ولاغية حتى يجري تثبيتها من السلطان الجديد، فعندما جلس السلطان سليم الثاني (1566 - 1574م) على عرش السلطنة بعد وفاة والده السلطان سليمان القانوني، تقرر إجراء تحرير جديد في دفاتر الشام، وتم إنجاز دفتر تحرير رقم (T.D.474) سنة 977هـ/1568م ل: "تجديد وتعديل لباس حروف دفاترها (أي دفاتر دمشق الشام) العتيقة، وتحقيق زيادة أو نقصان قراها ومزارعها، وتحريرها وتوجيه تيمارات طائفة السباهية وتصحيح أصحاب الأوقاف والأملاك."<sup>(3)</sup>

وبين لنا محرر الدفتر القواعد التي تُراعى في مثل هذه العملية، فيشير إلى أنه تم "توجيه وتعيين وتوزيع وتقسيم الدفتر لأمر الأمرء والسباهية والزعماء على قدر طبقاتهم واختلاف درجاتهم، وأصحاب الأوقاف

(1) - خليل إينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ج1، مرجع سابق، نفس المكان.

(2) - نفسه، ص 219.

(3) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو T.D 474. لسنة 977هـ/1568م"، مرجع سابق، ص3.

والأملاك بحسب استحقاقاتهم وبمقتضى الشرع المطهر والقانون المنيف"، وتم تحرير "المحصولات الشهرية والسنوية والحقوق الشرعية والعرفية".<sup>(1)</sup>

تسعى عملية المسح لتحقيق جملة من الأهداف والتي تظهر بوضوح في مقدمة التعليمات للمحررين، إذ كانت -وبحسب تأكيداتهم - تهدف إلى حماية الرعايا من التجاوزات التي يمكن أن يقوم بها العسكريون المحليون، لذا كانت عملية المسح بمثابة الرقابة العامة، فمن جهة يسعى المسح إلى تسجيل كل مصادر الضريبة وجعلها في متناول اليد وكشف عمليات التهرب ومراقبة كل أنواع الإعفاءات الضريبية من أجل تحقيق زيادة في العائدات العامة للدولة، لكن في ذات الوقت كانت الدولة تحرص بشكل أساسي على أن يتم ذلك كله في ظل حماية الرعايا الذين يدفعون الضرائب، مما يوضح لنا بالفعل مدى حرص الدولة العثمانية على الدوام إتباع قواعد الشريعة الإسلامية والقوانين العادلة في مجال تحصيل الضرائب والرسوم.

غير أن تدهور الأوضاع الاقتصادية للدولة في أواخر القرن السادس عشر الميلادي وحاجتها الملحة للمصادر المالية جعلتها تتخلى عن نظام التيمار وتتحول الأراضي الميري (الأميرية) إلى أراضي ملك خاص، ومعها تتحول الدولة إلى اعتماد أسلوب الالتزام في الجباية<sup>(2)</sup> لكن رغبة الملتزمين في الكسب الأكبر لأنفسهم استنفذت قدرة الفلاح المادية مما دفع الدولة إلى التفكير في انقاذه من أيديهم فأحالت أمر تحصيل الضرائب إلى موظفين رسميين تحت اسم (المحصل)<sup>(3)</sup>

#### المعايير المعتمدة في إقرار حجم الضريبة:

اعتنت دفاتر التحرير بالتدوين بشكل دقيق، مع مراعاة ما كان سائدا في المنطقة من قبل مجيء السلطة العثمانية فالضرائب التي كانت تستهدف النشاط الزراعي كانت قسما من الحاصل عينا أو قيمته المقدرة في دفاتر الاحصاء نقدا، والقسم الذي يخص الدولة -وإن كان يطلق عليه اسم العشر فإنه كان يختلف، وشروط الفتح والنظام الضريبي السائد في البلد قبل الفتح.

لذلك كثيرا ما ذكرت دفاتر التحرير في مقدمتها ما يقدر السبع أو الثمن أو يفرض مبلغا معيناً مهما كان الحاصل، كالديموس مثلاً في قرى حلب، وقد يستوعب القسم نصف الحاصل في القرى التي يوجد فيها نظام المالكانة ومن الضرائب ما كان مطرحه الأرض التي تتصرف بها الرعية، وهنا تبرز فلسفة الحكم العثماني في الضرائب، فهي تقوم على: (قرينة الكسب وحجم الكسب)، كما أن الرسم على الأرض

(1) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو T.D 474 لسنة 977هـ/1568م"، مرجع سابق.

(2) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ج 1، ص 68 - 72.

(3) - اكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 640.

المفروض على الفلاح الذي يستغل الأرض يختلف حسب: البلد، والزمن، وانخفاض العملة، فالمسلم الذي يتصرف بأرض تقدر بـ (جفتلك) (تتراوح مساحتها بين 40 - 50 دونما وتصل إلى 150 دونما أو فدانا بالنسبة لجودة الأرض يؤدي رسم الجفتلك، ومن يتصرف بأرض ضعف ذلك يؤدي الضعف، أو أكثر من ذلك إذا زادت مساحتها، والذي يتصرف بأرض نصف ذلك يؤدي النصف، والمتزوج الذي يملك أرضا يسيرة يؤدي رسم (البناق)، بينما العازب (المجرد) القادر على الكسب يؤدي رسم المجرد وهو أقل ضريبة من هذا النوع.<sup>(1)</sup>

كان النظام الضريبي العثماني يتوَّخى في الضرائب مبدأ عدالتها وعموميتها، وبما أن هذا النظام كان مبنيا على الاقتصاد الزراعي فقد كان هدف الدولة الأول مبنيا على تكليف كل من يشارك في الانتاج الزراعي، ولعل المزارع هنا هو المعني الأول بالتكليف لذا نرى وجود تمييز بينه وبين غيره وهذا يؤدي بالضرورة إلى وجود تمييز بين الريفي والمديني والبدوي المتنقل.<sup>(2)</sup>

لا يؤدي أهل المدن رسوم الجفت بأنواعها لأنهم لا يتصرفون بأرض يزرعونها، وبما أن هذه الرسوم هي رسوم رعية تجعل من يكلف بدفعها واحدا من الرعية فإن التمايز بين أهل المدن والأرياف يأتي من هذا الاعتبار، لكن المديني الذي يتصرف بأرض يفلحها ويزرعها يكون من الرعية ويؤدي عنها رسوم الرعية، فإن تخلى عنها سقطت عنه تلك الرسوم.<sup>(3)</sup>

يؤدي سكان الريف وسكان المدن ضرائب أخرى إلى جانب الضرائب العامة يفوق عددها التسعين نوعا ولكن يوجد من الناس من هو معفى منها كالجند وأبناءؤهم والقضاة ورجال الدين من إمام وخطيب ومؤذن، وكذا السادة الأشراف، إضافة لمن هو بعلة تمنعه من الكسب كالمجنون والهرم والأعمى، وهذا الشق خاص بالعوارض الديوانية والتكاليف العرفية، لذلك تميز دفاتر الاحصاء بين الرعايا فمنها أسر (خانة) وتؤدي ضرائب العوارض بأنواعها فتعرف بـ(خانة عوارض)<sup>(4)</sup>.

لقد راعى العثمانيون عند تحديد هذه الرسوم والضرائب عاملا آخر وهو اتباع ما كان مطبّقا من قبل في بلاد الشام منذ عهد المماليك، أو تكاليف زراعة المحاصيل كخصوبة التربة وقرب المزارع من المدينة والسوق، ووفقا لهذه الأسس كانت نسبة العُشر تختلف من منطقة لأخرى، بحيث بلغت الثُمن وحتى

(1) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 241.

(2) - نفسه، ص 242.

(3) - نفسه، ص 243.

(4) - نفسه، ص 243.



الخُمُس ، بل وكثيرا ما نزل الديوان الهمايوني عند مناشدات الرعايا في بعض حالات الكساد أو الكوارث التي تحلّ بهم وقدّم كافة التسهيلات لهم.<sup>(1)</sup>

كانت عائدات الضرائب والرسوم التي تتم جبايتها تُوزَّع على كلٍّ من خزينة الدولة والسباهية<sup>(2)</sup> ومصالح الحرمين الشريفين ، والأقصى و خليل الرحمان وقبة الصخرة والجامع الأموي ، لذلك نجد بأنّ كلّ جهة من هذه الجهات التالية تتولّى متابعة تحصيل هذه الضرائب وهي : السباهي ، ناظر وأمين الخواص السلطانية ، متولي الأوقاف .

## ثانيا -أنواع الضرائب :

### 1 -الضرائب الشرعية :

ارتبطت الضرائب الشرعية بالممارسات والمفاهيم الاسلامية وهي نوعان: ضريبة العشر وضريبة الخراج

#### أ -ضريبة العشر:

هي من حيث اللغة جزء من عشرة يختلف تطبيق ضريبة العشر عند العثمانيين عما كان معروفا من قبل لدى المسلمين<sup>(3)</sup> ، فعند العثمانيين كانت المناطق المفتوحة تنتقل إلى الدولة ، لذلك تتحول إلى ميري أي أراضي أميرية ، ويصبح المزارعون مستأجرين دائمين لأراضي الدولة ، ويقدمون لها كل عام قدرا من المحصول يعرف باسم (العشر)<sup>(4)</sup> وكافة الرعايا سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين مكلفون بالعشر ، وتنص القانوننات التي توضع في مقدمة دفاتر التحرير على توضيح القدر الذي يحدّد بحسب طبيعة المنطقة

(1) - قدّم أحد الرعايا من حلب عريضة للديوان الهمايوني يلتمس فيها إعفاء مع شركائه لعدم قدرتهم على دفع الإلتزام على قَبان الطحين بسبب الطاعون الذي حل بالمنطقة ، فأرسل الديوان للدفتردار يطالبه بالتحقيق حول صحة ما ورد في العريضة وإعفاءهم إذا وجد فعلا بأنه لحق بهم الضرر .أنظر : مهمة دفتری 6 ص ص 55 -56 الحكم 144. نقلا عن فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، ج 1 ، سبق ذكره ، ص ص 244 -245.

(2) - كان السباهي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي يحصل في الغالب على نصف المبلغ الذي يحصل من الغرامات التي يدفعها الفلاحون عن الجنح البسيطة ، بينما كان النصف الآخر يذهب إلى السنجق بكّي ، لكن يبقى أمر تحديد الغرامات من صلاحية القاضي وحده. خليل اينالجيک ، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، مرجع سابق ، ص ص 176 -177.

(3) - وقد اعتبر الاسلام أن الأراضي المفتوحة التي يقبل أهلها المحليون اعتناق الاسلام أو يجري توطين المسلمين فيها تُعد (أراضي عشيرة) ويتراوح مقدار تحصيل الضريبة بين العشر إلى خمسة أعشار تجبى من المسلمين على الأراضي الزراعية ، ويراعى عند تحصيلها أسلوب الري إن كان طبيعيا أو صناعيا . أكمل الدين احسان أوغلي . الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ج 1 ، ص 639.

(4) - العشر : الرسوم التي فرضتها الدولة العثمانية على الحبوب ، ويفرض عادة في المناطق التي تفتح عنوة وبحد السيف .أنظر :

(S.A), Historical Distionary, op.cit, p299. Somel,

وقد يكون الاختلاف في قدر الضريبة من محصول لآخر حتى ولو كان في منطقة واحدة<sup>(1)</sup>، وعلى هذا الأساس تراوحت الضريبة في مناطق بلاد الشام بين العشر إلى خمسة أعشار، ففي قرى الغوطة حصل العشر على مقدار النصف من الإنتاج كما في قرية يلدا، بينما كان مقدار العشر 40% في قرية حرزما، ولم يتجاوز العشر بقرية بلالية الخمس<sup>(2)</sup>، وفي قرى ناحية بني كنانة بلواء الشام كان العشر يقدر بـ 25%<sup>(3)</sup>، ولعل السبب في هذا الاختلاف يعود إلى مدى جودة الأرض.

كانت الدولة تتقاضى رسوم العشر عن الملك الخاص ومال الوقف<sup>(4)</sup> لكنها في ذات الوقت تستثني الأوقاف على الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وخليل الرحمان، وقد أورد قانون نامة القدس نصا واضحا بشأن ذلك: "سجلت أوقاف الحرمين الشريفين والقدس الشريف وخليل الرحمان عليه الصلاة والسلام في الدفتر العتيق معفاة بشكل كلي من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية والعشر وسجلت في الدفتر الجديد كذلك معفاة من هذه الرسوم"<sup>(5)</sup>

بلغ حاصل العشر في ناحية القدس 10082 أقة، بينما كان الحاصل ضعيفا في ناحية الخليل ولم يتجاوز 406 أقات<sup>(6)</sup> والسبب هنا واضح وهو أن جميع الأراضي الوقفية كانت ضمن أوقاف مسجد وسماط خليل الرحمان.

#### ب - ضريبة الخراج:

##### الخراج لغة:

هو المال المأخوذ عن حاصلات مكان، أو عن جهد العبيد والصبية الذين تجري عملية تشغيلهم كعمال<sup>(7)</sup> أما اصطلاحا فهو الفيء بمعنى: خراج الأرض<sup>(8)</sup> وهو ضريبة تجبى عن الأراضي الخراجية أي أي بمعنى الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة ووثرت لأهاليها المحليين، ويدفعها الفلاح إلى السباهي الذي يدفعها بدوره إلى خزينة الدولة، وهناك نظامين لدفع الخراج هما: المقاسمة (القسم) أو الديموس (المقاطعة).

(1) - المرجع السابق، ص 639.

(2) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص 178.

(3) - محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص 45.

(4) - جاء في قانون نامة لواء القدس الشريف في البند الرابع: "وفي الأماكن المسجلة (عشرا) يتم استيفاء العشر من الغلال المنتج ومن الخراج وذلك عن مال الوقف. دفتر مفصل 515 أن، ص 203، دفتر مفصل لواء عجلون، ص 83.

(5) - دفتر رقم 516 اس، ص 129، دفتر مفصل 515 أن، ص 207.

(6) - دفتر تحرير 289 إس، ص 144.

(7) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 641.

(8) - أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1979، ص 23.

ب- 1 - المقاسمة (أو الخراج المقسم):

ولا يؤدي إلا بجمع المحصول، ويتعدد بتعدد المحصولات السنوية، وتأخذ الدولة بموجبه الثلث أو الربع أو الخمسين، وعادة ما يراعي محرر دفتر التحرير وضع الأرض من حيث خصوبتها ومساحتها وسهولة فلاحتها وبعدها أو قربها من المركز.<sup>(1)</sup>

تفاوت مقدار الخراج من قرية لأخرى، ففي قرى لواء القدس الشريف، ومن خلال الدفتر رقم 289. إس فإن 146 قرية من قرى ناحية القدس يؤخذ منها قسم من الثلث، 14 قرية قسم من الربع، و3 قرى: قسم من الخمسين، قرية واحدة يؤخذ منها قسم من السدس، وقرية واحدة كذلك يؤخذ منها قسم من العشر،<sup>(2)</sup> أما في لواء الشام فنجد أن خراج المقاسمة كان مقداره ربع المحصول في إقليم البلان، ووصل إلى النصف في ناحية الغوطة بدمشق في حين تراوح على العموم بين الثلث عن أراضي السقي والربع في الأراضي البعلية كما في إقليم الزبيب<sup>(3)</sup>، وفي قرى ناحية مرج بني عامر فكان مقدار القسم يقدر بالربع<sup>(4)</sup> وهو نفسه المحدد في قرى ناحية عجلون،<sup>(5)</sup> ووفقا لذات الدفتر فإن مجمل حاصل القسم من قرى لواء القدس كانت وفق هذا الجدول<sup>(6)</sup>:

| الناحية | حاصل القمح |             | حاصل الشعير |             | مال صيفي مقدر بالأقجة |  |
|---------|------------|-------------|-------------|-------------|-----------------------|--|
|         | غرارة      | القيمة/أقجة | الغرارة     | القيمة/أقجة |                       |  |
| القدس   | 479.75     | 230280      | 522         | 135720      | 10012                 |  |
| الخليل  | 149        | 71520       | 196.5       | 51090       | 2648                  |  |

(1) - أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم، كتاب الخراج، المرجع السابق، ص 641.

(2) - دفتر تحرير 289 إس، ص 93.

(3) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص 181 - 182.

(4) - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر (من لواء الشام)، ص 35 - 40.

(5) - دفتر مفصل لواء عجلون، ص 70 - 76.

(6) - دفتر تحرير 289 إس، ص 93.

## ب - 2 - نظام الديموس (أو المقاطعة) :

الديموس أو المقاطعة وأحيانا يسمى (الخراج الموظف)، وهو مبلغ محدد نقدا أو عينا<sup>(1)</sup> كان يطرح على أهل القرية لا يتبدل سواء نقص حاصلها أم زاد<sup>(2)</sup>، أي أن الدولة تفرض المبلغ على الناتج بغض النظر عن الكمية المنتجة<sup>(3)</sup>، وهو لا يرتبط بالمحصول، بل بمساحة الأرض<sup>(4)</sup>

جاء في قانوننامه عجلون من دفتر التحرير رقم 970 (من المرجح أن تاريخ تدوينه يعود إلى زمن السلطان سليمان القانوني) ما يلي :

"يعتبر حاصل بعض القرى ديموسا (أي مبلغ مقدر ابتداء لا يتغير بزيادة أن نقص المحصول) وحاصل البعض قسم (أي حصة)، فتؤدي قرى الديموس ديموسها قسطين تدفع الأول منها وقت البيدر، وتقدم القسط الباقي وقت الدبس، إلا القرى التي يكثر بها الزيتون فإنها تقدمه وقت قطف الزيتون، وقد ذكر في مطلع كل قرية أو مزرعة تتبع نظام القسمة الجهة التابعة لها، ويأخذ التيماري نصف حاصل الزيتون الكافري (الروماني) ويبقى النصف الآخر للفلاح مقابل عنايته به، ويأخذ في اللواء المذكور (عجلون) عن كل 100 شجرة عنب (دالية) خمس أقجات،<sup>(5)</sup> وعن كل خمس شجرات فاكهة مثمرة أقجة واحدة<sup>(6)</sup> على اختلاف أنواعها، أما الزيتون الاسلامي فيؤخذ عن كل شجرتين أقجة واحدة، وعن كل شجرة جوز مثمرة أقجة واحدة، وعلى كل نخلة (تمر) أقجتان.<sup>(7)</sup>

وكان تقدير قيمة الديموس أو المقاسمة يعتمد على المساحة المزروعة، وقد نصت الدفاتر على أخذها نقدا، بينما حاصل البعض الآخر قسما (أي قسم من الربع) وكانت قرى ومزارع الديموس تؤدي ديموسها

(1) - كانت المشكلة الأساسية للدولة العثمانية مثلها مثل باقي دول الشرق تكمن في نقص العملة فقد كان الذهب والفضة أساس النظام النقدي، وبما أن الدولة لا تملك هذين المعدنين فإنها كانت تواجه المصاعب في تمويل مشاريعها الكبرى خاصة في مسألة الحفاظ دوما بجيش كبير، لذلك لم يكن باستطاعة الفلاح تأدية الضرائب نقدا، فكان يدفعها عينا، لكن لا يخفى وجود صعوبة في جمع الضرائب عينا ومن ثمة تحويلها إلى نقود، لهذا لجأت إلى مصدر الدخل إلى الی جامعي الضرائب، وهذا معناه أن الدولة كانت تخسر جزء من دخلها وهو الأموال التي تحتاجها لدفع رواتب الجيش، لذلك إلتجأت إلى إعطاء دخل الدولة من الضرائب الزراعية إلى القوات العسكرية التي أصبحت تجمعها بشكل مباشر، وتأخذها عوضا عن الرواتب. خليل اينجليك، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، مرجع سابق، ص 170.

(2) - دفتر تحرير 289 إس، ص 94.

(3) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 241.

(4) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 641.

(5) - تم أخذ 10 أقجات عن 200 دالية عنب في قرية وادي شوف التابعة للواء عجلون، ص 86.

(6) - دفتر مفصل عجلون رقم 970، في قرية وادي شوف التابعة للواء عجلون، ص ص 85 - 86.

(7) - نفسه، ص 51.

على قسطين: القسط الأول ويدفع وقت البيدر، والقسط الثاني وقت الدبس باستثناء القرى التي يكثر فيها الزيتون فإنها تقدمه وقت قطف الزيتون.<sup>(1)</sup>

أما طريقة تحصيل إيرادات الأشجار المثمرة من الخراج والتي كانت تشمل بالأساس (الزيتون بنوعيه الروماني والاسلامي وكروم العنب والجوز والتين والرمان) وغيرها، فقد حددت القانوننات الأساس التي كانت تعتمد في جباية خراج هذه الأشجار، فمثلا بالنسبة لقانوننات لواء القدس نجده على النحو التالي: (02) أقجتي عن شجرة الجوز المثمرة، أقجة واحدة عن كل أربع شجيرات توت، ونفس المبلغ للتين، و10 أقجات عن كل مائة دالية عنب<sup>(2)</sup> بينما تؤخذ أقجة واحدة عن كل شجرة زيتون، ويمكن أن يؤخذ الخراج عينا (من الزيت)<sup>(3)</sup> مع ملاحظة أنه لا يؤخذ هذا الخراج في موسم الجذب، ويسجل حصة للموسم القادم.<sup>(4)</sup>

أما في قانوننات لواء عجلون فنجد: "يأخذ التيماري نصف حاصل الزيتون الكافري (الروماني) ويبقى النصف الآخر للفلاح مقابل عنايته به، ويؤخذ في اللواء المذكور عن كل مائة دالية خمس أقجات، ويؤخذ أقجة واحدة عن كل خمس أشجار فاكهة على اختلاف أنواعها، ويؤخذ عن كل شجرتين من الزيتون الاسلامي أقجة واحدة، وعن كل شجرة جوز أقجة واحدة إذا كانت مثمرة، ويؤخذ عن كل نخلة أقجتان"<sup>(5)</sup>، والجدول التالي يبين حصة الدولة أو من يمثلها من خراج الأشجار المثمرة في لواء عجلون:<sup>(6)</sup>

| زيتون، كروم، عنب | أشجار الجوز | تين، خرنوب، عنب، مشمش، توت، ورمان |
|------------------|-------------|-----------------------------------|
| 172385           | 2498        | 23681                             |

(1) - دفتر مفصل عجلون، ص 51.

(2) - دفتر تحرير T.D.516 Is، سبق ذكره، ص 176.

(3) - نفسه، ص 177.

(4) - نفسه، ص 178.

(5) - قانوننات لواء عجلون من دفتر مفصل عجلون، ص 51.

(6) - نفسه، ص 20.

كما بلغ محصول بساتين الخندق وأحكار البيوت في دائر قلعة دمشق الشام (بنظام الديوس أو المقاطعة) مثلما ورد في دفتر (T.D.474) العائد لسنة 977هـ/1569م بلغ 2900 أقة.<sup>(1)</sup>

وما يمكن التذكير به هنا هو أنّ الدولة كانت تراعي دائماً بعض الظروف سواء خصوبة التربة أو جذبها لذلك كانت تُجبي أقة واحدة عن كلّ شجرتين من الزيتون في ناحية عجلون.<sup>(2)</sup>

### ب - 3 - الخراج على الثروة الحيوانية :

أما بالنسبة للثروة الحيوانية فقد بيّن قانوننامه لواء عجلون الأسس المعتمدة في جباية الرسوم على هذه الحيوانات بما نصه : " يؤخذ أقة عن كل رأسين من الضأن أو الماعز المعدودة مع الخراف والجديان وقت ما تلحق هذه بالقطيع...ويؤخذ عن كل (خلية)نحل أقة فقط ، وكان يؤخذ سابقا في بعض الأمكنة من بلاد العرب اثنتا عشرة أقة عن الرأس من الجواميس ، ولا يؤخذ في البعض الآخر أي شيء ، فلما عرض الدفتر الخاقاني الجديد على الأعتاب العالية صدر فرمان العالي بأخذ ثلاث بارات عن الرأس من الجاموس الحلوب في كل أنحاء ولاية العرب ، فوضع وفقا للأمر العالي ثلاث آقجات على الرأس من الجاموس الحلوب".<sup>(3)</sup>

وهكذا بلغت الرسوم التي تم تحصيلها عن الماعز في لواء عجلون 24005 أقة ، وعن النحل 5108 أقة ، وعن الجاموس 7792 أقة.<sup>(4)</sup>

### ج - الجزية :

تفرض الدولة على كل خانة(أسرة) من أهل الذمة (اليهود والنصارى) مبالغ نقدية تُعرف بالجزية وهي ضريبة الرأس التي يؤديها أهل الذمة من اليهود والنصارى في حالة بقائهم على ديانتهم وعدم مشاركتهم في الحروب ، وتعهد الدولة بحمايتهم ، ولكي يصبح الشخص مكلفا بدفع الجزية يشترط أن يكون ذكرا ، بالغا ، صحيح البدن قادرا على العمل ، لذلك تم اعفاء النساء والأطفال والمرضى والمعوقين والرهبان الذين يعيشون على الهبات (ما عدا الذين كانوا يقيمون في الأديرة الكبيرة) والعبيد والمتسولون ، وفي نفس

(1) - محمد عدنان البخيت : "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، مرجع سابق ، ص 45.

(2) - محمد عدنان البخيت ، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري ، مرجع سابق ، ص 09.

(3) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970 ، مصدر سابق ، ص 51.

(4) - نفسه ، ص 21.

الوقت كانت تؤخذ من أصحاب الثروات القادرين على تأديتها رغم عدم اشتغالهم، أي أن الجزية تؤدي عن الذكور الأصحاء الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و 57 سنة.<sup>(1)</sup>

كانت الجزية تؤدي على ثلاث مستويات تبعا للحالة المالية للمكلفين: فهي عن الثري بمقدار 48 درهما فضيا لقاء إعفائه من الذهاب راكبا إلى الحرب مع شخص آخر يتكفل بتجهيزه، وبمقدار 24 درهما فضيا من متوسط الحال لقاء إعفائه من الاشتراك في الحرب راكبا وبمفرده، وبمقدار 12 درهما فضيا وهو الأدنى لقاء إعفائه من الاشتراك في الحرب مترجلا<sup>(2)</sup>، من هنا نفهم بأن الجزية هي الضريبة التي يدفعها الرجال الأحرار من النصارى واليهود وتجبى عند نهاية كل سنة قمرية.<sup>(3)</sup>

بلغ متوسط الجزية مبلغ بـ 80 أقة بحيث بلغ مجموع عائدات 9 نفر من نصارى عجلون 720 أقة،<sup>(4)</sup> ونفس الشيء في قرية وادي شوف لواء عجلون التي وضعت الجزية ضمن الخاص الشاهي وبلغت 640 أقة بمعدل 80 أقة لكل نفر من الثمانية المتواجدين بالقرية.<sup>(5)</sup>

ونفس الشيء بالنسبة لنصارى مدينة القدس الذين يدفعون بدورهم مبلغ 80 أقة عن كل نفر (خانة)، ويشير دفتر الطابو (289 إس) إلى أن المبلغ المحصل عليه من الجزية كان 63280 أقة على 791 عدد أهل الذمة في القدس (يهود ونصارى)، وأن جزية 142 نفرا (خانة) من مجموع 791 نفرا (خانة) من نصارى ويهود مدينة القدس البالغة 11360 أقة كان وقفا على قبة الصخرة الشريفة،<sup>(6)</sup> أما في النصف الثاني للقرن السابع عشر فقد بلغ مجموع ما تمت جبايته من طائفة اليهود في القدس مائتان وأربعون غرشا عديدة ثمن جزية ستين نفرا، بمقدار أربعة غروش عن كل نفر منهم<sup>(7)</sup>.

## 2 - رسوم الرعية أو الضرائب التي تؤدي للسباهي<sup>(8)</sup>:

(1) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، ص 242، أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، ج 1، ص 641.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي، نفس المرجع، ص 641 - 642.

(3) - خليل ساحللي أوغلي، المرجع السابق، ص 28.

(4) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970، مصدر سابق، ص 56.

(5) - نفسه، ص 86.

(6) - دفتر تحرير (T.D.289is)، ص 150.

(7) - حجة رقم 2، مؤرخة في 2 صفر 1082 هـ / 09 - 06 - 1671 م، من سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173، ج 1، ص 274 - 275.

(8) - نشير هنا إلى أن السباهي الذي يحصل على تيمار يؤدي بدوره رسوم الحصول على البراءة السلطانية، وقد أشار الدفتر رقم 474 الخاص بالشام أن رسم البراءة يقدر بـ 206.5 أقة سنويا للفرد الواحد يدفعه للخاص السلطاني إذا كان من أصحاب

وتعرف بالرسوم العرفية لأنها تفرض بقوانين سلطانية ، ومنها :

#### أ - رسوم على الرعايا المسلمين :

##### أ - 1 - رسم المزرعة والحقل : (جفت رسمي)<sup>(1)</sup> :

هو ضريبة تؤدي عن كل دار أو عائلة (خانة) والأرض التي تقوم بفلاحتها ، وقد اعتبرها شيخ الاسلام في الدولة العثمانية أبو السعود من "الخراج الموظف" لأنها تؤدي مرتبطة بالأرض.<sup>(2)</sup>

يختلف رسم المزرعة تبعاً لدرجة خصوبتها والمنطقة التي تتواجد بها فهي في كثير من الأماكن تحسب بقدر ما يحرقه زوج من الثيران في اليوم ، ويكون الفلاح مكلفاً بتأدية رسم المزرعة بعد إجراء عملية التحرير أي التسجيل الرسمي للعقارات ، أما الأراضي التي تترك خالية بعد تعطيل الفلاح لها فإن السباهي له الحق في أن يمنحها لغيره حتى يتم فلاحتها،<sup>(3)</sup> وقد حدد قانوننامه لواء الشام مساحة الحقل (الجفتلك) بمقدار ما يحرقه ثوران ، فما يحرقه ثوران في يوم وليلة هو فدان روماني ، وما يحرقه ثوران في نهار هو الفدان العربي ، وما يحرقه حتى الظهر هو فدان الحراث.<sup>(4)</sup>

##### أ - 2 - رسم تعطيل المزرعة (جفت بوزان رسمي) :

أباح القانون العثماني للسباهي أن يقبض على الفلاح الذي ترك أرضه ورحل عنها إلى مكان آخر وأن يعيده إليها ، وكان القصد وراء ذلك هو الحرص على استمرار فلاحه الأرض ، لذلك فإن هذه الضريبة تم فرضها فقط على الفلاح المعطل لأرضه وكان مقدارها يحدد بمقدار الأرض التي عطّلها.<sup>(5)</sup>

##### أ - 3 - رسم البناق :

الخاص (وهي الإقطاعات ذات الربيع العالي التي تتجاوز 100 ألف أقة سنوياً ، أما أصحاب التيمارات الصغيرة والذين يحصلون على براءة تيمارهم من البكركي فيدفعون رسماً يقدر بـ 71 أقة للفرد الواحد سنوياً. أنظر كذلك : محمد عدنان البخيت : "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو (T.D.474)" ، مرجع سابق ، ص 34 - 35.

(1) - جفت رسمي : ضريبة الأرض النقدية التي تدفعها الرعية المسلمة مقابل جفت الأرض. خليل اينالجيك ، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، مرجع سابق ، ص 335.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي ، مرجع سابق ، ص 642.

(3) - نفسه ، ص 643.

(4) - أسماء رمضان ، ريف منطقة دمشق ، مرجع سابق ، ص 223.

(5) - المرجع السابق ، ص 643.



البناق هو الابن المتزوج للفلاح صاحب المزرعة ، وكان مقدار الرسم يتراوح بين 9 و12 أقة حسب مقدار الأرض الذي يستغله ، أما المجرد فهو الابن الأعزب لصاحب المزرعة وكانت الدولة العثمانية تحصل منه خلال القرن 10هـ/16م على رسم بمقدار 6 أقات.<sup>(1)</sup>

ب -رسوم على الرعايا غير المسلمين ، منها :

ب - 1 - ضريبة الرأس :

تقابل ضريبة المزرعة عند الرعايا المسلمين ، لكنها تختلف عنها في كونها تجبى بمقدار واحد على كل الذين بلغوا السن اللازمة لأداء الضرائب وكان الرسم يقدر خلال القرن 16م بـ 25 أقة.<sup>(2)</sup>

ب - 2 - رسم الأرملة :

يجبى من الأرملة غير المسلمة بواقع 06 أقات.<sup>(3)</sup>

ج - الرسوم والضرائب الأخرى :

إلى جانب الضرائب والرسوم المفروضة على الأرض كالجفت والعشر ، هناك ضرائب ورسوم أخرى متنوعة مفروضة سواء على ما ينتجه أو ما يملكه الفلاحون ، أو على المرافق الاقتصادية كالدكاكين والمطاحن والأفران<sup>(4)</sup> والمعاصر والمصابغ وبعض المهن كالقصابين واللحامين.<sup>(5)</sup>

من بين هذه الرسوم :

ج - 1 - رسم البادهوا (رسم الطيارات) :

وهو من العوائد غير المنتظمة تجمع على شكل غرامات كالرسوم التي تؤخذ عند إلقاء القبض على العبيد الهاريين ، أو رسوم تسجيل المعاملات وغير ذلك ، والكلمة من أصل فارسي مشكلة من كلمة (باد) بمعنى (ريح) و(هواء) العربية ، وهو يقابل مصطلح (الطيارات) في العصور الإسلامية،<sup>(6)</sup> وقد تعددت

(1) - نفسه ، ص 644.

(2) - أسماء رمضان ، ريف منطقة دمشق ، مرجع سابق ص 645.

(3) - نفسه ، نفس المكان.

(4) - يشير قانوننامه القدس الشريف إلى أخذ أقتين عن كل مطحنة أو مخبز أو دكان أسبوعيا. (T.D.516 Is) ، ص 178.

(5) - نفسه ، ص 178.

(6) - (T.D.427) ، ص 109.

الحالات التي كان يجبي فيها هذا الرسم مثل: جرم الجنایات، فإذا ما حدثت جريمة قتل فإن القاتل يضع جزاء نقدياً ليعفى من القتل، وكان أهل القرية يتحملون جميعاً هذه الضريبة حيث يجبي الرسم نقداً ويذهب لصالح أمير اللواء والصوباشي من مناطق التيمار، إلا مناطق الأوقاف والزعامت فإن حاصل هذه الضريبة يذهب للخزينة مباشرة.<sup>(1)</sup>

يبين دفتر التحرير (T.D.427) أن مقدار البادهوا المجموع من مدينة القدس بلغ 2.000 أقة، بينما لم يتجاوز 300 أقة فقط في الخليل،<sup>(2)</sup> ولم يتغير الوضع كثيراً بعد قرابة ربع قرن حيث يشير دفتر التحرير (T.D.289.Is) العائد لسنة 961هـ/ 1553- 1554م، بحيث بلغ محصول رسم البادهوا مع رسم العروس<sup>(3)</sup> في قرى ناحية القدس 2.1331 أقة مقابل 2191 أقة في قرى ناحية الخليل.<sup>(4)</sup>

كانت بعض رسوم البادهوا تعود لبعض الجهات على النحو التالي :

#### -الخاص الهمايوني(السلطاني):

وفقاً لدفتر (T.D. 131) العائد للفترة بين 932- 937 هـ/ 1525- 1532 م فإن رسوم البادهوا في نواحي القدس والبالغة 2.000 أقة كانت خاصاً سلطانياً<sup>(5)</sup> أما دفتر طابو (289.اس) العائد العائد لسنة 961هـ/ 1553- 1554 م فإن بادهوا قرية عرار السفلى البالغ 50 أقة و بادهوا قرية ساريس البالغ 250 أقة خاصاً سلطانياً.<sup>(6)</sup>

#### -خاص أمير الأمراء :

وفقاً لدفتر (289.اس) فإن محصول بادهوا ورسم العروس من مدينتي القدس والخليل البالغة 33.000 أقة جارية في خاص أمير الأمراء<sup>(7)</sup> كما أن رسم بادهوا مدينة القدس مع رسم الجرم والجنایة

(1) -أسمار رمضان: ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 227.

(2) - (T.D.427)، ص 109.

(3) - ضريبة يحصل عليها السباهي من العريس الذي يتزوج بإحدى بنات الفلاحين في تيماره، و يتحدد مقدارها تبعاً لحالة العروس إن كانت بكرةً أو ثيباً، مسلمة أو غير مسلمة، حرة أو جارية. أنظر: إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 645.

(4) - دفتر طابو (T.D.289 Is.)، ص 150، 375- 377.

(5) - دفتر طابو (T.D. 131)، ص 160.

(6) - دفتر طابو (T.D.289 Is.)، ص 277- 279.

(7) - دفتر طابو (T.D.289 Is.)، ص 273.

ورسم العروس والبالغة 7.000 أقة إضافة الى بادهاوا نواحي القدس و الخليل و البالغة 20.000 أقة  
هو خاص أمير الأمراء<sup>(1)</sup>

#### -السباهية:

حصل السباهية على رسم البادهاوا في بعض القرى الموجودة في تيماراتهم فقد كانت رسوم البادهاوا  
المحصلة من أريحا البالغة 300 أقة وتلك المحصلة من قرية رمون البالغة 100 أقة من نصيب أحمد جلبي  
والجارية في زعامته.<sup>(2)</sup>

#### -المساجد:

كان للمساجد نصيب من رسوم البادهاوا فقد كانت رسوم البادهاوا من القرى الجارية في وقف  
الحرمين (الأقصى والابراهيمي) موقوفة على المسجدين المذكورين والبالغة 125 أقة.<sup>(3)</sup>

#### ج -2 -رسم العروس :

وهي من الضرائب الطارئة تتوقف على حدوثها فقط ، فرسم العروس يتوقف على العرس<sup>(4)</sup> ،  
ويحصل عليه السباهي من العريس الذي يتزوج بإحدى بنات الفلاحين في تيماره ، كما كانت المحكمة  
تتقاضى رسوما مقدارها 125 درهما عند زواج البكر و75 درهما عند زواج الشيب<sup>(5)</sup> ، ويشير دفتر

(1) -دفتر طابو 289 اس ، نفس المكان.

(2) -دفتر طابو (T.D.131) ، ص 163.

(3) -دفتر طابو (T.D. 1015) ، ص 170.

(4) - رسم العروس : ضريبة يحصل عليها السباهي من العريس الذي يتزوج بإحدى بنات الفلاحين في تيماره ويتحدد مقدارها تبعا  
تبعا لحالة العروس إن كانت بكرا أو ثيبا ، مسلمة أو غير مسلمة ، حرة أو جارية ، أنظر : أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة  
العثمانية ، مرجع سابق ، ص 645.

(5) - محمد عدنان البخيت : " العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474 " ، ص 59.

التحرير (T.D.289 Is) العائد لسنة 961هـ/ 1553 - 1554م، أن محصول رسم البادهوا مع رسم العروس في قرى ناحية القدس 21.331 أقة مقابل 2.191 أقة في قرى ناحية الخليل.<sup>(1)</sup>

### ج -3- رسم الأغنام:

تُجبي عن الفلاحين المتوطنين، ومن البدو الرحل الذين يعملون بتربية الحيوان، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين<sup>(2)</sup>، أما رسم الماعز فكانت الأحكام الخاصة بها عامة في كل أراضي الدولة العثمانية، فقد ورد بشأنها في قانوننامه القدس الشريف: "يؤخذ عن كل خروفين أو رأسين من الماعز عثمانية واحدة، ويُعامل عند إلحاقه بالقطيع معاملة الخروف."<sup>(3)</sup>

### ج -4- رسم النحل:

يجبى رسم النحل من معظم القرى ببلاد الشام وقد نص قانوننامه القدس الشريف على أنه "تؤخذ عثمانية واحدة رسماً على كل منحلة (خلية نحل)، أما إذا أرسل شخص منحلته إلى أرض شخص آخر فإن صاحب الأرض وصاحب الرعية يدفعان الرسوم على وجه المناصفة."<sup>(4)</sup>

### ج -5- رسم على الدواب الضالة:

كانت العادة عندما يقبض أحد على حيوان ضال أن يخبر القاضي بذلك، ويظل يرعاه حتى يظهر صاحبه، فيسترد منه ما أنفق عليه، وهذه الأمور شائعة جداً في الأماكن التي تكثُر فيها تربية الحيوانات بأعداد كبيرة، أما الحيوانات الضالة التي لا يظهر أصحابها فكانت تذهب حاصلاتها إلى خزانة الدولة<sup>(5)</sup>، وحدد دفتر 515 أنقرة الخاص بلواء القدس الشريف وجود هذا الرسم كجزء من محصول بيت المال.<sup>(6)</sup>

### ج -6- رسم المرعى:

(1) - دفتر طابو (T.D.289 Is)، ص 150، 375 - 377.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مرجع سابق، ص 646.

(3) - دفتر تحرير 516 إس، ص 178.

(4) - دفتر تحرير 516 إس، ص 178.

(5) - أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج 1، مرجع سابق، ص 646.

(6) - دفتر 515، ص 261.

ينتفع أهالي القرى بالمساحات الرعوية التي تتوزع ضمن حدود القرية لرعي مواشيهم فيها، وهم في ذلك لا يدفعون أي رسوم، غير أنه إذا جاء رعاة من مناطق أخرى للرعي فإنهم يدفعون رسوم المرعى، وقد حددها القانون بـ : خروف واحد أو ثمنه عن كل 100 نعجة تجلب إلى المشتى لأجل الرعي.<sup>(1)</sup>

#### د -الرسوم على المرافق الاقتصادية :

##### د -1 -الرسوم على الدكاكين :

بلغ المحصول السنوي للدكاكين الواقعة في مدينة القدس 13.637 أقة، تتفاوت من واحدة لأخرى فقد بلغ محصول ستة دكاكين منها مائة 100 أقة في السنة<sup>(2)</sup> أما في دمشق الشام فكان محصول دكاكين سراج خانة 2.200 أقة سنوياً.<sup>(3)</sup>

##### د -2 -رسم القبان (بمعنى الميزان) :

فصل قانوننامة الشام في الرسوم الخاصة بالقبان على النحو التالي : ثلاث أقات عن حمل الدس وحمل الملح، وأربع أقات عن حمل العسل، وكذا الأرز، ست أقات عن حمل حب الرمان، ثماني أقات عن حمل البعير من التمر العراقي،<sup>(4)</sup> كما بلغ محصول رسم القبان على البضائع الواردة إلى خان الوكالة والخضر في مدينة القدس 122.000 أقة، ومحصول رسم قبان القطن في سوق القطن بالقدس الشريف 1.500 أقة<sup>(5)</sup>، بينما كان في نفس الشام يقدر بـ 120.000 أقة (مما يبين مدى الاهتمام بزراعة بوزارة أشجار التوت وتربية دودة القز،<sup>(6)</sup> وكان يؤخذ بارة واحدة رسم قبان عن حمل الجمل، أما محصول محصول رسم قبان الزيت فهو 5.000 أقة في السنة، وكان يؤخذ أقة واحدة عن كل ظرف، وكل أربعة منها تشكل حمل الجمل.<sup>(7)</sup>

(1) -قانوننامة لواء القدس الشريف من دفتر تحرير 516إس، ص 178.

(2) -دفتر طابو (TD 289is)، ص 146.

(3) -كانت الجوامع والمدارس والمنازل في دمشق تعتمد على الشمع والزيت في الإضاءة. محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، ص 43.

(4) -محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، مرجع سابق، ص 6 -7.

(5) -دفتر طابو (TD289is)، ص 146.

(6) -المرجع السابق، ص 39.

(7) -المرجع السابق، ص 146.

### د -3- رسم باج بازار السياه (سوق العبيد)<sup>(1)</sup> :

كانت الدولة تأخذ هذا الرسم عند بيع الرقيق في الأسواق سواء كانوا ذكورا أو إناثا، بيضا أم سودا، وقدّر الرسم بـ 30 أقة عن كل رأس في ولاية دمشق الشام<sup>(2)</sup>، وبلغ محصول باج بازار السياه (سوق العبيد) بالقدس الشريف 2.000 أقة في السنة.<sup>(3)</sup>

وبلغ رسم سوق الخيل والجمال والبغال والحمير والبقر في نفس القدس 2.000 أقة في السنة<sup>(4)</sup>، أما في دمشق الشام 60.000 أقة حيث يفصل قانوننامه دمشق الشام من دفتر (T.D.474) مقدار الرسوم التي يجيها الأمناء عند بيع الحيوانات التالية: ست أقات عند بيع الحصان، ثماني أقات عند بيع الجمل، أربع أقات عند بيع الحمار، ثماني أقات عند بيع الجاموس أو الثور، ويكون في كل حالات البيع مبلغ الرسم مناصفة بين البائع والشاري،<sup>(5)</sup> وبلغ رسم باج بازار واحتساب مع رسوم أخرى في قرية السلط السلط بلواء عجلون من إيالة الشام 8.000 أقة سنويا، ولعل الموقع الجغرافي للقرية الذي يشرف على الطريق الرابطة بين دمشق ولوائي نابلس والقدس إضافة إلى وجود حامية في قلعة السلط واعتماد القرى المحيطة بها عليها قد أوجد فيها حركة تجارية نشطة.<sup>(6)</sup>

كان حمل الحيوان من البضاعة هو الأساس الذي تقدّر عليه الكمية أو الوزن الذي تؤخذ بموجبه الضريبة، ثم أصبحت الأوزان تقدر بواسطة القبان، وبلغ محصول رسم أحمال الصابون المصدرة من القدس إلى مصر 11.056 أقة بمعدل 17 أقة عن كل حمل<sup>(7)</sup>، وقد عرف الرسم ارتفاعا محسوسا مقارنة مع ما ورد في دفتر (T.D. 131) الذي يشير إلى أن الرسم المتحصل على الصابون المرسل من القدس إلى مصر بلغ 48.000 أقة بمعدل 40 أقة عن كل حمل<sup>(8)</sup>.

### د -4- رسوم الدمغة :

(1) - الباج هو الرسم الذي يدفع مقابل السلع التي تدخل إلى السوق للبيع ويختلف الرسم بحسب طبيعة البضاعة ونوعها. ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري، مرجع سابق، ص 35.

(2) - Muhammad Adnan Bakhit, The Ottoman Province Of Damascus in the sixteenth century, Thesis submitted for the degree of doctor, op cit, p177.

(3) - دفتر طابو (T.D. 289.is)، ص 146

(4) - نفسه، ص 146.

(5) - محمد عدنان البخيت : العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474، مرجع سابق، ص 16 - 17.

(6) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970، ص 22.

(7) - دفتر كابو (T.D.289 is)، ص 147.

(8) - (T. D. 131)، ص 294

وهو رسم يدفع للمحتسب ويؤخذ عن الصانع لقاء ما ينتجونه من لوازم، فقد كان النساجون يقدمون للمحتسب كل قطعة يصبغونها قبل بيعها حيث يدفعون عليها رسم الدمغة والغرض من ذلك أن المحتسب يتأكد من أن عملية الصباغة كانت جيدة وغير مغشوشة.<sup>(1)</sup>

#### د -5- رسوم المحاكم:

شهدت المحاكم في بلاد الشام بعد الدخول العثماني إجراءات جديدة تمثلت في دفع أبناء الرعية رسوما في المحاكم، مثل رسوم الحجج، مثل رسم ثبوت حجة الحصاد بالنسبة للفلاحين، وكانت يبلغ 19 أقة، وحجة الوصاية على الأيتام، وتراوحت بين 11 و40 أقة، وحجج الوكالة وتقسيم التركات، وتراوحت بين 11 و205 أقات، وعلى الأغلب فإن الرسم كان يقدر بالنسبة لحجم التركة، كما كان على أصحاب القضايا أن يدفعوا ثمن ورق سجلات المحكمة.<sup>(2)</sup>

#### د -6- رسم المعصرة:

توجد عدة أنواع من المعاصر، فمنها معاصر الزيت، ومعاصر الدبس، ومعاصر العنب التي توجد في مناطق النصارى فقط، وقد اشترط القانوننامه عليهم عدم بيعه للمسلمين، وإذا تجاوزوا ذلك يقوم أهل الحكم بمنعهم،<sup>(3)</sup> وبلغ رسم معصرة في القدس 720 أقة سنويا،<sup>(4)</sup> أما في قرية وادي شوف في لواء عجلون عجلون 96 أقة<sup>(5)</sup>، وبلغت قيمة ما كان يجبي من المعاصر في لواء عجلون 606 أقات<sup>(6)</sup>، وتصدرت ناحية وادي التيم بلواء دمشق الشام الاثنتي عشرة ناحية كانت تجبي منها الرسوم بـ: 1036 أقة<sup>(7)</sup>.

#### د -6- رسم الطواحين:

كانت منطقة الصالحية بدمشق تضم 31 حجر طاحون ريعها السنوي 1860 أقة وكان ريعها من الخواص السلطانية،<sup>(8)</sup> كما بلغ رسم طاحون في محلة اليهود بنفس القدس 480 أقة،<sup>(9)</sup> أما في لواء

(1) - ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري، مرجع سابق، ص 35.

(2) - محمد سليم يعقوب، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 183-184.

(3) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، ص 63.

(4) - دفتر طابو (T.D.289 is)، ص 147.

(5) - دفتر مفصل لواء عجلون، ص 86.

(6) - نفسه، ص 22.

(7) - أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 220 - 221.

(8) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، ص 50.

(9) - (T.D.289 is)، ص 147.

عجلون الذي يضم 66 طاحونا فقد كان الرسم المفروض على كل حجر طاحون 30 أقة،<sup>(1)</sup> ونجد بأن هذه الطواحين قد أقيمت على السيول ومساقط المياه<sup>(2)</sup> كما هو الحال في الطواحين المنتشرة على نهر الليطاني الليطاني في شوف البياض ووادي العجم بلواء دمشق الشام.<sup>(3)</sup>

#### د -7- الرسوم على الحمامات :

أوردت دفاتر الاحصاء أسماء الحمامات المتواجدة في مدينة القدس وهي : حمام السعدي في محلة باب العمود 300 أقة بينما حمام الشفا فقد بلغت عائداته 4000 أقة، وحمام داود وعائداته 735 أقة بلغ محصول رسم حمام في مدينة القدس الواقع بدرب القطانين 10000 أقة، ويلاحظ هنا بأن العائدات تراجعت عما كانت عليه قبل نحو 10 سنوات والتي كانت تقدر بـ 16000 أقة في السنة حسب ما أورده الدفتر TD289is<sup>(4)</sup>، أما في مدينة الخليل فقد بلغت عائدات الرسم على حمام المدينة 6500 أقة.<sup>(5)</sup>

بلغ محصول الأحكار في مدينة القدس 400 أقة عن 11 بابا<sup>(6)</sup> أما في الخليل فكانت 12 بابا بلغت عائداتها السنوية 472 أقة.<sup>(7)</sup>

#### د -8- رسم على الخانات :

بلغ رسم نصف خان الفران في مدينة الخليل 60 أقة في السنة.<sup>(8)</sup>

#### د -9- رسم على الفرن :

مثل فرن السوق في القدس الشريف 600 أقة سنويا<sup>(9)</sup>

#### د -10- رسم القصابين :

(1) -نشير هنا إلى أنه ورد في قوانين آل عثمان بأن الطاحون الذي يعمل طيلة السنة يفرض عليه مد قمح ومد شعير، لكن وتجنباً لمضايقة الرعايا بسبب ارتفاع سعر الغلة تم تعويضه بمبلغ 60 أقة، و 30 أقة بالنسبة للطواحين التي تعمل نصف سنة فقط. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 575.

(2) -دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970، ص 21.

(3) -أسماء رمضان، ريف منطقة دمشق، مرجع سابق، ص 215.

(4) -دفتر طابو (T.D.289 is)، ص 148.

(5) -دفتر طابو (T.D. 515 An.)، ص 136.

(6) -دفتر طابو (T.D. 289 is)، ص 148.

(7) -دفتر طابو (T.D. 515 An.)، ص 136.

(8) -دفتر طابو (T.D. 289is)، ص 148.

(9) - دفتر طابو (T.D. 289is)، ص 149.



يشير إلى وجود محال القصابة في القدس حيث توجب أخذ أقجة واحدة عن كل رأسين من الغنم والماعز، وأربع أقجات عن كل رأس جاموس، وأقجتان عن كل رأس من البقر، وذلك عند الذبح<sup>(1)</sup> أما اليهود فقد سمح العثمانيون لهم بذبح ما يحتاجونه من الأنعام بدمشق الشام في مسلخ خاص بهم، وكانوا يدفعون لقاء ذلك رسوما تعرف باسم النخيرة أو الذبيحة، حيث بلغ محصولها 8000 أقجة سنويا.<sup>(2)</sup>

#### د - 11 - رسم العسس<sup>(3)</sup> وعسسية السجن :

ورد في دفتر (T.D.515 An.) بأنه تؤخذ أقجة واحدة عن كل دكان على أن يكون مستقلا.<sup>(4)</sup>

بلغ محصول مقاطعة الاحتساب في نفس الشام 600.000 أقجة، ويشير قانوننامه القدس إلى عادة الاحتساب في القدس الشريف بما نصه: " منذ القدم كان يتم استيفاء أقجة واحدة عن كل دكان في كل خميس باستثناء سوق العطارين، فمنذ القدم لا يؤخذ منه شيء" وإذا قسنا ذلك على لواء دمشق الشام نستطيع أخذ فكرة عن طريقة تمكن الأمناء المكلفون بجمع هذا المبلغ الكبير.<sup>(5)</sup>

#### د - 12 - رسم دار القمامة ( كنيسة القيامة في القدس الشريف):

حدد الدفتر ( T.D.427 ) مجمل قيمة الرسم السنوي على كنيسة القيامة بـ 40000 أقجة،<sup>(6)</sup> بينما أقجة،<sup>(6)</sup> بينما ارتفع هذا الرسم وفق ما ورد في الدفتر (T.D.515 An.) الذي يعود إلى أواخر القرن

(1) - دفتر طابو (T.D.515 An.)، ص 258.

(2) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، مرجع سابق، ص 46 - 47.

(3) - شكل العسس في الدولة العثمانية فرقة ضمن جنود الانكشارية يترأس كل مجموعة منهم رئيس يطلق عليه اسم (العسس باشي) باشي) يعين كل مساء ضابطين للمناوبة في أزقة المدينة لمراقبة المحلات والمحافظة على الأمن، ويتجولون بصورة دائمة في تلك الأزقة من المساء إلى الصباح، فيفتقدون المحلات ويحافظون على راحة السكان وعلى ممتلكاتهم، وفي حال عثورهم على أي شخص مهما كان يعيب بالأمن أو يعتدي على الأهالي أو يرتكب أي مخالفة، أو يسيئ إلى النظام العام يلقي عليه القبض. محمود شوكت، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية: 1362 - 1826م، ترجمة يوسف نعيمة ومحمود علي عامر، ط 1، دار الإحصاء العلمي، دمشق 2017، ص 112.

(4) - دفتر طابو (T.D. 515 An.) ص 261.

(5) - محمد عدنان البخيت: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام من دفتر طابو 474"، ص 5.

(6) - دفتر طابو (T.D.427)، ص 174.

16مالي 120000 آقجة،<sup>(1)</sup> وقد فصل قانوننامة القدس الشريف في الرسوم المفروضة على الحجاج والزوار النصارى عند حجهم وزيارتهم للأماكن المقدسة الموجودة في مدينة القدس الشريف كما يلي :

- "تؤخذ سبع ذهبات فيلوري من كل إفرنجي يفد للزيارة ، كما يؤخذ من كل واحد منهم خمسون آقجة فب باب القمامة تحت اسم "رسم القلعة" إضافة لهذين الرسمين يؤخذ رسم ثالث عن كل فرد قادم من ديار الفرنجة للزيارة مقدار خمسة ولأربعون آقجة في باب القمامة ، والرسوم المذكورة تؤخذ من الكفار الذين يفدون من ديار الإفرنج للزيارة.

- تؤخذ ثلاث ذهبات قايتباي ممن يقدم من بلاد الروم (الروملي والأناضول) ، كما يؤخذ منه خمسون آقجة تحت اسم "رسم القلعة" والرسم الآخر البالغ 45 آقجة ، ومثل ذلك (أي الرسوم الثلاثة) تؤخذ من الوافدين من الشرق (على الأغلب الحجاج الروس) لأجل الزيارة.

- يؤخذ قطعتا ذهب من ذهب قايتباي ممن يأتي من ديار حلب والشام ، كما يؤخذ منه رسم القلعة البالغ خمسين آقجة والرسم الآخر خمسا وأربعين آقجة ، ويؤخذ من كل قادم من مصر (على الأغلب الأقباط) قطعة ذهبية واحدة من ذهب قايتباي ، كما تفرض عليه نفس الرسوم المفروضة ( 50+45 آقجة).

- أما القادمون الكفرة من السلط وعجلون والرملة وجوانبها ، يؤخذ من كل واحد خمس وعشرون آقجة ، ويؤخذ منهم رسما للقلعة والزيارة (50+45 آقجة) .

- أما القادمون من الكفرة من القدس الشريف و خليل الرحمان عليه السلام وأطرافهما فيؤخذ من كل فرد أربع آقجات .

-الذين يأتون للزيارة في عيد النصارى ( الميلاد ، الفصح) فيؤخذ من كل واحد منهم آقجة في كل من المواقع الثلاثة( لم تحدد ولكن يقصد بها على الأغلب القلعة وكنيسة القيامة وربما كنيسة المهدي).

- على كل تاجر إفرنجي قادم من الشام يؤخذ قطعتان ونصف من الذهب ويضاف لهما الرسوم المذكورة ( 50+45 آقجة) ، أما فيما يتعلق بالكفرة القادمين من الكرج والأحباش فلا يؤخذ منهم شيء ، ويؤخذ أسبوعيا من طائفة الفرنجة القادمين لغرض الزيارة آقجة واحدة كما هو مقيد في الدفتر القديم ، ويسجل في الدفتر الجديد أيضا".<sup>(2)</sup>

(1) -دفترطابو (T.D. 515An.) ، ص 262.

(2) - قانوننامة القدس الشريف من دفتر مفصل لواء القدس الشريف رقم (T.D. 515An.) لسنة 1005هـ/ 1596 - 1597م ، ص ص 207 - 209.

وهكذا فقد حدّد الدفتر (T.D.289 is.) قيمة الرسوم التي تم جبايتها من زوار كنيسة القيامة بالقدس الشريف بـ 120.000 أقة بعدما كانت في الدفتر (T.D.427) محددة بـ 40.000 أقة تحت اسم ( رسم كنيسة قمامة)

#### هـ - الجمرک :

من الضرائب التي تشير اليها قوانين نامة العثمانية الخاصة ببعض الألوية التي لها اشراف على البحر مثل لواء اللجون أو لواء الشام نجدتها تنطرق إلى ضريبة تسميها الدفاتر بمحصول أسكلة (بمعنى ميناء) بحيث يحدد قانوننامة لواء الشام بالتفاصيل مقدار الرسوم المحصلة سواء على المواد المصدرة أو المستوردة ، ويشير إلى ذلك بما يلي: " يطلق على ما يجبي من جمارك ورسوم وغيرها من الواردات عند أبواب الموانئ الكائنة في ولاية الشام كبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا يطلق عليها اسم موجب باب الميناء " (1)، وحسب دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر فإن محصول أسكله (بمعنى ميناء حيفا) على ساحل الشام بلغ 1.000 أقة في السنة. (2)

### 3 - العوارض الديوانية (ضرائب العوارض) :

تنوعت الرسوم والضرائب غير الشرعية التي فرضها العثمانيون وتعددت تسمياتها لتشمل ما سمي بالعوارض السلطانية والديوانية والتكاليف والرسوم العرفية والتي لم يرد فيها نص صريح واضح وكانت تفرض من قبل السلاطين والولاة والمتسلمين العثمانيين تقدم المصادر العثمانية وخاصة دفاتر الطابو أو ما يعرف بدفاتر التحرير (3) وكذلك دفاتر المهمة (4) معلومات مهمة عن العوارض والتكاليف العرفية المختلفة وأساليب جبايتها والفئات التي تدفعها والمعفيين منها والجهات التي تحصل عليها.

#### أ - مفهوم العوارض الديوانية :

هي الضريبة العارضة كما يدل عليها اسمها والتي كانت الدولة تلجأ إليها عند الضيق وعندما تعجز عن سد نفقات عارضة كنفقات حرب جديدة، وتفرضها بقرار من الديوان الهمايوني أو من السلطان لمواجهة احتياجات الدولة، ويكلف بها أناس دون غيرهم، فقد كان الأئمة والخطباء والأشراف والسادات

(1) - محمد عدنان البخيت: " من تاريخ حيفا العثمانية، دراسة في أحوال عمران الساحل الشامي"، مجلة مجمع اللغة العربي الأردني، مج 1، عدد2 مطبعة التوفيق، ط2، عمان الأردن، جويلية 1987، ص117.

(2) - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر، ص 28.

(3) - دفاتر التحرير الخاصة بلواء القدس الشريف كنموذج.

(4) - البلاد العربية في الوثائق العثمانية و بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (اعداد وترجمة) د. فاضل بيّات، لبنان والامارة الدرزية) د. عبد الرحيم أبو حسين.

وكذا الذين يقومون ببعض الخدمات للدولة يتم إعفاؤهم منها، وتكون إما نقدية أو عينية، ويمكن أن تكون في شكل خدمة بدنية حسب الوضع.<sup>(1)</sup>

يؤدي سكان الريف وسكان المدن ضرائب أخرى إلى جانب الضرائب العامة وهي العوارض الديوانية، ولكن يوجد من الناس من هو معفى منها كالجند وأبنائهم والقضاة ورجال الدين من إمام وخطيب ومؤذن، وكذا الاسادة الأشراف، إضافة لمن هو بعلته تمنعه من الكسب كالمجنون والهرم والأعمى وهذا الشق خاص بالعوارض الديوانية والتكاليف العرفية.<sup>(2)</sup>

يفترض بالنسبة لخانات العوارض<sup>(3)</sup> أنها تؤدي كل ضريبة ترى الدولة أنها ضرورية، ففي أوقات الحروب فحينما لا تفي واردات الخزينة بالمصاريف للجيش تطرح الدولة ضريبة إضافية تحت اسم العوارض وتجبى نقدا، كما تفرض الدولة على القرى والمدن التي يمر بها الجيش إعداد الذخائر اللازمة للجيش من دقيق ولحم ودهن وعلف للحيوانات، أي أنها تقدم عينا وتدعى بالنزل.<sup>(4)</sup>

أما المناطق البعيدة عن طريق مرور الجيش فإنها تجبى نقدا، ومن الناس من يقوم ببعض الأعمال لصالح الدولة نظير إعفائه من هذه العوارض كحراسة الممرات الجبلية الوعرة أو حفر المضيق وإقامة السبيل فيه.<sup>(5)</sup>

## ب - أنواع العوارض الديوانية :

قد اتخذت العوارض الديوانية عدة أشكال منها :

(1) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، ص 26، أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ و حضارة، مج 1، ص 645.

(2) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية / ج 1، مرجع سابق، ص 217.

(3) - كانت كل أربع أو خمس خانات (جمع خانة أي : عائلة) تشكل خانة عوارض تشارك في دفع المبلغ المطروح على خانة العوارض، فإن كان مثلاً دينار وهو ما يعادل 60 أقيجة في القرن السادس عشر تحملته خمس عائلات كان نصيب الواحدة 12 أقيجة . خليل ساحللي أوغلي، مرجع سابق، ص 27.

- Omer lutfi Barkan : « essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siècles », op cit, p 14.

(4) - كان أهل البلاد التي يمر بقربها الجيش في انتقاله تستعد فتخزن له ما يكفي لسد حاجته عند كل منزل ينزله، فمن كان قريبا شارك عينا ومن كان بعيدا من أهل ولاية نائية شارك نقديا، فكان يوزع على خانة العوارض مقدار معين من قمح أو شعير ودقيق ويؤدي إلى من سيقوم بنقلها إلى المنزل الذي سينزل به الجيش. خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 28.

(5) - خليل ساحللي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 252.

## ب - 1 - ضريبة النزل :

تفرضها الدولة لتوفير ما يحتاجه الجيش من المؤن كالدقيق والقمح والشعير واللحم وتفرض على المدن والقرى التي تقع على الطريق التي يمر بها الجيش،<sup>(1)</sup> وكانت ضريبة النزل على نوعين: النقدية المفروضة على الخانات، والعينية التي تجبى عن المحاصيل الزراعية.

### - العوارض على الخانات ( النزل النقدية ) :

تجبى عن الخانات أي المنازل ويقوم بجبايتها القضاة وبتكليف من والي الشام ودفتر دار الشام ويتسلمها أمين النزل، وقد جاء في إحدى حجج المحاكم الشرعية " قبض حسن بن الجاويش المكلف بقبض النزول زيد قدره من عمدة قضاة الاسلام زبدة ولاية الأنام من الذهب السلطاني الجديد السلیماني التام الوزن أربعمئة وخمس سلطانية ذهب وعشر قطع فضة سلیمانية منها مائتا سلطاني وتسعون سلطاني ذهبا عن مائة و خمس وأربعين خانة وكسر المبلغ سبعة سلطانية عدة قطع قبضا شرعيا.<sup>(2)</sup>

وفقا لدفتر الطابو (T.D.289 Is.) العائد لسنة 961 هـ / 1553 - 1554 م فقد بلغ عدد الخانات التي تدفع ضريبة العوارض في لواء القدس 7365 خانة، بينما بلغ عدد الأشراف والخطباء والأئمة والمحصلين والعميان ورعايا (موظفي) أوقاف الحرمین المعفيين من العوارض 1254 خانة<sup>(3)</sup>.

كان شيوخ النواحي هم من يقومون بجباية العوارض والتكاليف من القرى التابعة لنواحيهم،<sup>(4)</sup> ويظهر بأن هجرة السكان لقراهم أدى إلى انخفاض عائد الدولة من هذه الضريبة في منتصف القرن 17 م أي 1657م.

ويذكر دفتر التحرير 289 اس أن أهالي قرية (قوقين) في ناحية الخليل صدر الأمر بإعفائهم من العوارض الديوانية لكونهم يعملون في حراسة الطريق<sup>(5)</sup> وقد ورد بشأنها في القانوننامة: "تقع القرية المزبورة المزبورة على طريق حضرت خليل الرحمان عليه صلوات الله، وطالما أنها توفر الأسباب الكافية لأمن الزوار

(1) - ساحللي أوغلي من تاريخ الأقطار العربية، ص 252، اكمل الدين احسان أوغلي الدولة العثمانية تاريخ و حضارة ج 1 ص 646.

(2) - زهير غنايم عبد اللطيف: " العوارض الديوانية والتكاليف العرفية في فلسطين في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 7، العددان 2 و3، سنة 2013، ص ص 56 - 57.

(3) - لواء القدس الشريف دفتر طابو 289 أس، ص 179.

(4) - عبد الودود محمد يوسف برغوث: "بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر ونماذج من قراه" مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مج 20، الجزآن 1 و2، سنة 1970، ص 42.

(5) - دفتر طابو 289 اس، ص 150.

من قطاع الطرق فقد ورد الحكم الشريف بأن تدفع قسم من العشر وإعفاء أهاليها من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية، وقد تم تدوين ذلك في الدفتر الجديد وفق الأمر العالي، وذلك بموجب الشرح الموجود في الدفتر القديم الذي ذكر بأنه سجل في الدفتر الجديد<sup>(1)</sup>، ويعرفون باسم الدربند،<sup>(2)</sup> وكان الرعايا المطلوب منهم تأمين خدمات دائمة للدولة مثل حراسة وصيانة الجسور أو مراقبة الممرات الجبلية والاعتناء بتوفير المياه لخيول وجمال وجواميس السلطان معفيين من الضرائب العارضة.<sup>(3)</sup>

#### -النزل العينية:

كانت النزل العينية تجمع من ولاية الشام ومنها لواء القدس كمثال، وذلك بالتنسيق بين والي الشام وقضاتها ودفتردارها، وكان أمين النزل هو من يقوم بهذه المهمة وهو ما تظهره وثائق دفتر الأمور المهمة العثمانية، فقد جاء في إحداها وهي رسالة موجهة إلى دفتردار الخزينة في الشام علي جلبي ما يلي: "سبق أن أرسل إليك حكمي الشريف أنه تم تعيينك بموجبه أمينا للنزل الذي يتم جمعه لمستلزمات الحملة العسكرية، ثم أرسل إليك حكم شريف آخر أمرت فيه أن تقوم بالكتابة عن مقدار ما تم جمعه بالفعل من النزل، وكيفية تأمينك ذلك وإبلاغ ذلك على عجل".<sup>(4)</sup>

كما جاء في رسالة أخرى موجهة الى بكربكي الشام: "صدر الأمر في السنة الماضية بإخراج النزل والمواد الغذائية من الأقضية التابعة لولايتك وذلك لمستلزمات جزيرة قبرص، إلا أنه تبقى منها في بعض الأقضية، ونظرا لكون تأمين النزل والمواد الغذائية لازما ومهما للجزيرة المذكورة فقد صدرت أحكام شريفة

(1) - دفتر طابو ( T.D.515 An. ) ، ص 632، ص 634.

(2) - الدربند : يعني المعبر أو الدرب الواقع في المرتفعات، أما المسؤول عن حفظ الدربند فيسمى "الدربنجي" وتمنحه الدولة تيمارا مسجل في دفتر الاجمال لقاء الخدمة التي يؤديها، ويوجد صنفان من الدربندجي : صنف يحمون الدروب والأمكنة المخوفة والخطرة هم ورجالهم مع القيام بخدمة الدلالة لأبناء السبيل حتى يوصلوهم إلى الأماكن التي يسود فيها الأمان، فإن عرض للقادمين أو الغادين من السابلة حدث أو هلكت دوابهم ساعدوهم حتى المساء وظاهروهم وجدّوا جهدهم ألا يحل بهم أو بأثقالهم وأحمالهم ضرر، وعليهم أن يرسلوا معهم من يصاحبهم إلى أن يصلوا إلى مأمن، وإذا حل بالسابلة ضرر في المعابر التي تقع تحت حمايتهم ونظارتهم سواء كان بالأنفس أو بالأموال وكان ذلك نتيجة إهمال أو تكاسل منهم تعرضوا للعقاب السلطاني، أما الصنف الثاني فهم من يقوم بالخدمة مقابل الإعفاء من الضرائب، والدربندجية بالمعنى الصحيح هي الفئة التي تسكن الأماكن المخوفة والممرات التي تقع على الطرق التي تعبرها الناس، وهم معفون كلك من العوارض الديوانية وجميع التكاليف العرفية ما داموا في خدمة الحفظ والحراسة. علي جاويش الصوفيوي 1064هـ : قوانين آل عثمان، خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 699 - 700.

(3) - خليل اينجليك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 218.

- Omer Lutfi Barkan ; « research on ottoman fiscal serveys » op cit, p166

(4) - مهمة دفترتي 12، ص 27 تسلسل 44، مؤرخ في 16 ذو القعدة 977هـ / 22 - 4 - 1570م نقلا عن :فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ج 3، سبق ذكره، ص 69.

من قبل المالية تقضي بإخراج ما تبقى منها بشكل عاجل ، وعند عدم كفايتها يتم إخراجها من جديد وفق الأسلوب السابق ، وأرسلت هذه الأحكام إلى القضاة المحليين المكلفين بإخراج النزل ، وإلى أمين النزل الملا آغا وأمرت : عند وصوله أن تتقيد في هذا الصدد تقيدا تاما و تقوم بإرسال ما يتوافر من النزل القديم القابل للاستخدام إلى المحل المشهود وتهيئته هناك ، وتستبدل ما يحتاج إلى الاستبدال ، وتسلمه عند الطلب دون عوق أو تأخير.<sup>(1)</sup>

ويظهر أن اشكاليات عديدة ترافق عملية جمع النزل منها عدم تسليم ايصالات لأولئك الذين يدفعون الضريبة ، وقد يترافق ذلك مع تغير القضاة الذين يجمعون النزل مما يدفع القضاة الجدد إلى جمعها مرة أخرى من الذين دفعوها ولم يحصلوا على ايصالات بذلك ، فقد جاء في رسالة موجهة إلى بکلربكي الشام مؤرخة في 15 ربيع الأول 979هـ / 6- 9- 1571م : " أرسلت رسالة إلى سدة سعادتني تبلغ فيها أنه تم تسليم قسم من النزل إلى القضاة في ولاية الشام والملا آغا ، وبناء على صدور أمري بجمع النزل المتبقي بموجب دفتر البقايا الذي أرسله لتحصيله وإرساله ، فقد تم إرسال رسائل وجاوشية<sup>(2)</sup> إلى القضاة ، وعند طلب النزل المتبقي بموجب الدفتر كان القضاة السابقون قد تبدلوا ، فأرسل القضاة الحاليون رسائل يذكرون أنه لم يبق من النزل شيئا في ذمة الرعايا ، إلا أن الرعايا لا يملكون ايصالات تؤيد تسليمهم ، فأرسلت رسالة بالمطالبة ممن لا يملكون ايصالات ، إلا أن الرعايا الذين أخذ منهم النزل لم يزودوا بإيصال فقام رعايا قضاءي صفد وحمص بشكل خاص بالتظلم ذاكرين أنهم سلموا كل نزلهم ومن الظلم مطالبتهم مرة ثانية"<sup>(3)</sup> ، ويبدو أن هذا الظلم البادي من تصرفات بعض الموظفين مرده إلى الوضع العام للدولة العثمانية في سبعينات القرن 16م فيما يعرف بأزمة تدفق الفضة من أمريكا وحدوث أزمة اقتصادية خانقة.<sup>(4)</sup>

(1) مهمة دفترتي 12 ، ص 188 تسلسل 397 ، مؤرخ في 2 ذي القعدة 978هـ / 28- 03- 1571م ، نقلا عن : فاضل بيات

بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، ج 3 ، ص ص 168- 169 .

(2) - الجاوش = الشاويش ؛ وهو صنف من المستخدمين في وظائف مختلفة منهم ( ديوان همايون جاوشلري = جاوشية الديوان الهمايوني ) وكانوا يتولون تنفيذ الأحكام السلطانية ، ومرافقة السفراء عند زيارتهم الديوان ، وتبليغ الأوامر الصادرة من الديوان إلى الولايات . فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، ج 1 ، ص ص 378- 379 .

(3) - فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، ج 3 ، ص 237 .

(4) - أدى تدفق الفضة المكسيكية إلى أوروبا في أواخر القرن السادس عشر إلى حدوث ارتفاع كبير في الأسعار ، وسرعان ما انتقلت الأزمة إلى الأراضي العثمانية خلال ثمانينات القرن ذاته حيث غطت العملة الفضية الأوربية السوق العثمانية فارتفعت الأسعار ، وأدى ذلك مباشرة إلى تضرر أصحاب الدخل المحدود من أصحاب التيمارات والجنود من الفرسان السباهية الذين لم تعد رواتبهم كافية ، ففضلوا التخلي عن أراضيهم على أن يذهبوا في الحملات العسكرية المكلفة . خليل اينجليك الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، مرجع سابق ، ص 80 .



أكد حكم سلطاني موجه إلى قاضي طرابلس مؤرخ في 7 ذي الحجة 978هـ / 2- 05- 1571م حدوث تلاعب في استعمال الكيلة من طرف القائمين على جمع الضريبة ومما ورد فيه: "علم أن الكيلة المستعملة في مجال استلام النزل الذي يتم اخراجه من ولاية الشام هي كيلة كبيرة، إلا أن التسليم يكون بكيلة أصغر منها، ونظرا للحاجة إلى معرفة نوع الكيلة التي يتم بها استلام النزل من القضاة وما يسلم منها إلى السفن القادمة من قبرص.<sup>(1)</sup>

إذا ما حدث تأخير في تسليم النزل من قبل المسؤولين يتم تنبيههم، فقد جاء في حكم سلطاني إلى القضاة الذين صدر الأمر إليهم بإخراج النزل من ولايتي الشام وحلب لمستلزمات العسكر في قبرص: "سبق وأن قمتم بتسليم النزل الذي صدر الأمر بإخراجه من الأقضية الواقعة تحت نفوذكم، ولكن عند وصول جاوشيتي بأمر من الجزيرة المذكورة بغية إخراج ما تبقى من النزل في أقضيّتكم قمتم بالتهاون في إخراجهم وذكر بعضهم أنكم وصلتم إلى أقضيّتكم بعد تاريخ إخراج النزل، ولهذا لم يتحقق المتبقي من النزل في عهدكم فتم الإعلان عن إهمالكم وتهاونكم في هذا المجال فاستحققتم العزل ومختلف أنواع العقوبة ونظرا لأن إيصال الحبوب إلى العساكر المنصورة من أهم المهمات فقد أرسلت إليكم الأحكام تلو الأخرى وذلك من أجل إخراج النزل المتبقي واستبدال ما فسد من النزل الموجود - إن كان موجودا - إلى ما هو أحدث وتسليمه إلى أمناء النزل بلا نقص، فما الداعي إلى الإهمال والتهاون؟"<sup>(2)</sup>

تشمل العوارض الديوانية كذلك الأموال التي تجبى لتمويل قافلة الحج، وقد جاء قسم كبير منها من الضرائب التي أشير إليها بمال الميري أو من الرسوم التي فرضتها الدولة على التجارة والصناعة سواء لتسيير قافلة الحج أو اعداد الجردة لاستقبال القافلة عند عودتها، كما أشارت سجلات المحاكم الشرعية إلى جمع مال الحج الشامي في القرن 12هـ / 18 م، بحيث جاء في إحدى وثائق المحكمة الشرعية في القدس رسالة موجهة إلى متسلمي غزة والرملة: صدر الأمر الشريف بأن قرايا اللد التابعة لوقف خاصكي سلطان قد اضمحل حالهم من تزايد الشعير المرتب عليهم من حملة غزة العائد لطريق الحج، وإنه معيّن على القرى المذكورة ألف ومائتي كيلة شعير غزاوية ... وبسبب اضمحلالهم وضعفهم قد رفعت الدولة عنهم ستمائة كيلة شعير من أجل عمارتهم ونظام أحوالهم وأحوال الوقف وستمائة كيلة بقية المرتب تؤخذ كالعادة<sup>(3)</sup>.

## ب - 2 - الخدمة في الجيش :

(1) - مهمة دفترى 12، ص 221، تسلسل 463، نقلا عن : فاضل بيّات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، ص 181.

(2) - مهمة دفترى 10، ص 14- 15، تسلسل 17، مؤرخ في 2 محرم 979هـ / 27- 05- 1571م، نقلا عن : فاضل بيّات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، ص 194- 196.

(3) - كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 3، مرجع سابق، ص 152.



شملت التحاق الأفراد بالحملة العسكرية، وتظهر الأحكام السلطانية أن التكاليف الديوانية المفروضة على السكان تشمل فرض الخدمة العسكرية في الجيش عندما يتطلب الأمر ذلك منها الرسالة الموجهة الى قاضي القدس الشريف جاء فيها: أرسلت رسالة إلى سدة سعادتني تبلغ عن ورود حكم الشريف على يد المدعو رضوان وهو من أرباب التيمار السابقين و ورود تذكرة من جانب دفتردار الشام جاء فيها امر بتهيئة خمسمائة قواس في ولاية الشام لمستلزمات الحملة على اليمن و صدر الأمر بتهيئة قواسين من قضاء القدس... أي تجنيد قواس واحد من كل عشرين خانة عوارض وتقدير علوفاتهم لمدة شهر<sup>(1)</sup>، لكن يبدو أن سكان القدس أبدوا اعتراضهم - حسب ما جاء في نفس الحكم - بحجة أنهم كانوا معفيين من هذه الخدمة " وعند وصوله تحول دون قيام أحد بأخذ أي شيء من أهالي القدس الشريف و خليل الرحمان ولكن تقوم بتأمين ذلك من باقي قرى اللواء المذكور".<sup>(2)</sup>

### ب - 3 - التكاليف العرفية:

فرض أمراء الألوية والمتسلمون أنواعا مختلفة من التكاليف العرفية على السكان في المدن سواء التجار وأصحاب المهن والحرف والباعة وكانت هذه التكاليف تتفاوت بين فرض أموال نقدية أو عينية أو تكليفهم القيام بأعمال مجانية لهم مثل خدمات بناء بيت للسباهي ونقل ضريبة العشر التي يجيئها السباهي إلى مزرعته أو أقرب سوق محلي، وتقطيع وتخزين التبن للسباهي وتأمين القش وحطب التدفئة للسباهي وهي كلها خدمات كانت في الواقع موروثة من الممارسات الاقطاعية ما قبل العثمانية واستمرت في ظل النظام العثماني<sup>(3)</sup> كما توجد عادة الدورة والحماية وهي رسم فرض بهدف قيام التيماري بحماية القرى والطرق القريبة منهل وعلى سبيل المثال كانت قرية بيت دجن تدفع 3000 أقة رسم حماية سنة 932هـ / 1525م<sup>(4)</sup> ورسم فتح البيدر وهذا عندما ينقل الفلاح محصوله للبيدر بحيث تراوحت الرسوم ما بين 2000 و 5000 أقة.<sup>(5)</sup>

لقد خدم النظام الضريبي العثماني الدولة حتى منتصف القرن السابع عشر من غير أن يطرأ عليه تغيير كبير، لكن العجز الذي أصاب ميزانية الدولة دون أن تتمكن من علاجه دفع الدولة إلى البحث عن حلول أخرى سواء بتخفيض العملة أو الاقتراض أو جباية ضرائب إضافية أو اللجوء إلى الجباية قبل حلول موعدها

(1) -فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، ص ص 195 -196.

(2) -فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 2، المرجع السابق، ص 196

(3) - خليل اينالجيک التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص ص 132 -133

(4) -لواء القس الشريف من دفتر تحرير 1015، ص 247.

(5) -دفتر تحرير القدس الشريف رقم 427.

أ لكن تفكك نظام التيمار دفع الدولة إلى تحويل الضرائب العينية إلى ضرائب نقدية ، كما أصبحت الأجور تدفع نقدا كل ذلك أحدث تغييرا في النظام المالي للدولة العثمانية.<sup>(1)</sup>

### ثالثا - أسلوب جباية الضرائب :

اتبعت الدولة العثمانية عدة طرق لتحصيل الضرائب من الرعية المكلفين بها ، والمعروف أن الدولة العثمانية لم تبتدع هذه الأساليب بل أخذتها من الدول السابقة مع إدخال بعض التعديلات عليها بما يتوافق مع خصوصيات الدولة العثمانية وظروفها ، وهذه الطرق المتبعة في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين هي : أسلوب التيمار ، وأسلوب الالتزام ، وهذا حسب الظروف التي مرت بها الدولة ، ففي الفترة التي عمل فيها أسلوب التيمار بشكل جيد فإن عملية جمع إيرادات الضرائب قد تُرك أمرها للسباهية مقابل الخدمات التي كانوا يقومون بها للدولة ، غير أن تدهور الأوضاع الاقتصادية والشعور بالحاجة إلى موارد دخل جديدة جعلت الدولة تحوّل التيمارات إلى (خواص) ويتركون أمر جباية حاصلاتها إلى الملتزمين ، لكن رغبة هؤلاء في الكسب الأكبر لأنفسهم استنفذت قدرة الفلاح المادية ، مما دفع الدولة للتفكير في إنقاذهم من أيديهم فأحالت أمر تحصيل هذه الضريبة إلى موظفين رسميين عرف الواحد منهم باسم (محصل) ، ومع ذلك فإن تباطؤ هؤلاء أيضا في نقل المحاصيل إلى الأسواق سبب للخزانة أضرارا فادحة ، وعلى الرغم من قيام الدولة بتجربة إعادة نظام الالتزام ونظام الأمانة إلا أنها لم تحصل على ما كانت تتوخاه منهما.<sup>(2)</sup>

### 1 - أسلوب التيمار :

طبقت الدولة العثمانية نظام التيمار خلال القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر حيث كان يعمل بشكل جيد حيث تركت أمر جمعها للسباهية نظير الخدمات التي كانوا يقومون بها لصالح الدولة.

والتيمار نظام تقوم فيه الدولة بتوزيع الإقطاعات من الأراضي الأميرية على الجنود والمجاهدين وبعض أرباب العمل الذين يظهرون شجاعتهم وتفانيهم في خدمة الدولة والدود عنها أثناء الحروب ، فتعترف لهم بحق جمع الضرائب العرفية والشرعية المفروضة على تلك الأراضي.

ولما كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية قامت على مبدأ الغزو والجهاد وفتح الأراضي ، وطبقا لأحكام الشريعة التي اعتمدت عليها ، فقد كان يحق لها التصرف في إدارة هذه الأرض تحقيقا للمنفعة

(1) - خليل ساحلي أوغلي ، من تاريخ الأقطار العربية ، مرجع سابق ، ص 252.

(2) - أكمل الدين احسان أوغلي ، الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 640.

العامّة، وهذا بمختلف الطرق، سواء باستغلالها مباشرة أو بإسناد حق استغلالها لمن له الحق في خزينة الدولة، ونقصد بهم طبقة العسكر.<sup>(1)</sup>

ومنذ فجر الإسلام إلى زمن العثمانيين كانت الأراضي المفتوحة عنوة تقدم كإقطاع للمجاهدين،<sup>(2)</sup> وهكذا منح الغازي عثمان حق التصرف في بعض موارد الخزينة إلى العناصر التي تقدم خدماتها للدولة على شكل معاشات ورواتب وهذا ما عرف لدى العثمانيين بنظام التيمار، وعمل به ابنه أورخان من بعده.<sup>(3)</sup>

كان المجتمع العثماني يتكون من مجموعتين أساسيتين: العسكر وهي الطبقة التي يقوم أفرادها بوظائف عامة كممثلين للسلطان وهي معفاة -لأجل ذلك - من الضرائب، والفئة الثانية هي الرعية المكونة من التجار والفلاحين والحرفيين، وهي نتيجة لذلك تقوم بأعمال الإنتاج وتدفع الضرائب.<sup>(4)</sup>

على هذا الأساس نجد بأنه في مقابل الخدمات التي يؤديها رجال الدولة يحصلون على رواتب تؤديها الرعية كضرائب، ومن هنا تحدد العلاقة بين الطرفين، لذلك فإن السباهي الذي يحصل على الإقطاع لا يكون مالكا للأرض بل مجرد موكل بها من طرف الدولة، وفي المقابل فإننا نجد الرعية بدورها ليست عبيدا للسباهي، بل أفرادها أحرارا مستأجرين للأرض، ويقوم السباهي بعباية الضرائب للدولة نظير خدمات يؤديها ذاته للدولة، وهو ما جعل الكثيرين يطلقون على المال أو الراتب الذي يحصل عليه السباهي اسم (مال المقاتلة)<sup>(5)</sup> لأن السباهي يحصل عليه في مقابل مشاركته في القتال إلى جانب الدولة، وفي هذا المعنى

(1) -تضم طبقة العسكر أربع مجموعات: هي مجموعة الحكم والإدارة وعملها في السراي الهمايوني، مجموعة القلمية وهم الإداريون والكتاب، مجموعة أرباب السيف (السيفية) وهم الجنود، مجموعة أرباب العلم (العلمية) وهم العلماء والقضاة والمفتون. أنظر: بيتر شوجر، أوربا العثمانية (1354- 1804)، ترجمة عاصم الدسوقي، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1998، صص 50- 60.

(2) -الإقطاع: معناه منح الأرض التي لا مالك لها في مقابل الخراج والعشر، أو منح غلة الأرض في مقابل إعطاء شيء أو ضمانه لبيت المال، والإقطاع نوعان: إقطاع إقليم بأكمله لعامل من العمال كإقطاع الخليفة المسلم مصر لابن طولون نظير جزية يدفعها، أو إقطاع جزء من الأرض نظير العشر أو الخراج، ثم اتسع مدلوله ليصبح إقطاع استغلال كضمان وتعويض لما ينبغي أن يكون ما يستحقه الشخص من بيت المال معلوما مقداره قبل الإقطاع، حتى إذا أرادت الدولة أن تقطعه ما يستغله أعطته ما تكون غلته موازنة للاستحقاق. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 2 -العدد 6، نقلها إلى العربية إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشناوي، طبعة أفغانستان، محرم 1355 هـ/ أبريل 1936، صص 476- 477.

(3) -أحمد آق كوندوز، الدولة العثمانية المجهولة، مرجع سابق، ص 762.

(4) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ج 1، مرجع سابق، ص 61.

(5) - يذكر عين علي أفندي في رسالته في التيمار بأن "حاصل الزعامة و التيمار هو مال المقاتلة فكأنما خصص هذا الأجر لهم مقابل ملاقاته العدو". أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 652.

أيضا، فقد اعتمد العثمانيون القليج (السيف) معيارا أو وحدة للقياس<sup>(1)</sup> استنادا إلى عملية الإحصاء أو التحرير التي تجري مرة على الأقل كل ثلاثين سنة من أجل معرفة الطاقات البشرية والمادية للبلاد وعلى إثرها يتم تعيين أصحاب التيمارات، وكانت الدفاتر نوعان دفتر المفصل<sup>(2)</sup> ودفتر الإجمال<sup>(3)</sup>.

ولا تذكر الدفاتر سوى الذين يستطيعون دفع الضرائب باعتبار أنهم منتجون، سواء أكانوا أرباب أسر أو عزابا (مجردين)، ويستثنى من الضرائب طبقة العسكر وبعض الذين يقدمون خدمات للدولة.

توجد ثلاثة أنواع من الإقطاعات وهي الخاص<sup>(4)</sup> والزعامت والتيمار، فالإقطاع الذي يكون وارده أكثر من مائة ألف أقة يسمى (خاص) وهو من نصيب السلطان أو وزرائه وأمراءه وأمرائه سناجقه، والذي يحصل عليه ينبغي أن يقدم نظير ذلك (جبه لو) كامل العدة عن كل خمسة آلاف أقة<sup>(5)</sup>.

أما ما كان وارده بين 20.000 أقة ويقل بأقة واحدة عن مائة ألف، فيطلق عليه اسم زعامت<sup>(6)</sup> زعامت<sup>(6)</sup> وتكون من نصيب دفتردار الخزينة وأمراء الآلاي، والديزدارات (أمير القلعة) والكتخدا وغيرهم وصاحب هذا النوع من الإقطاع يقدم (جبه لو) واحد عن كل ثلاثة آلاف أقة، ويذكر (عين علي أفندي) بأن السباهي صاحب الزعامت من هذا النوع مفروض عليه الإقامة في السنجق الذي يوجد فيه إقطاعه وإلا كان ذلك سببا في عزله<sup>(7)</sup>.

(1) - القليج كلمة تركية بمعنى (السيف) وإيراداته كافية لإعالة السباهي، بل وتمد السلطان (سيفا أثناء الحرب)، و القليج من الأرض هو ما يسمى تيمارا، تحدد مساحته بحسب الموارد التي يتم جبايتها منه، وهي لا تقل عادة عن 3000 أقة، ولا تزيد عن 6000 أقة. أنظر: خليل ساحلي أوغلي، نفسه ص 653، و(هـ) جب و(هـ) بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج 1، مرجع سابق، ص 71؛ عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج 1، مكتبة الأنجلو - المصرية القاهرة، 2004، ص 117.

(2) - المفصل: دفتر تحرير يبين توزيع القرى والمزارع في النواحي والأقضية و السناجق مع تفصيل أسماء رعاياها ومقاديرها وما تتصرف من أراضي وما يحصل منها من العشور من أنواع المحاصيل والرسوم و مقاديرها. من (رسالة عين علي أفندي في التيمار)، أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 656.

(3) - الإجمال: الدفتر الذي يبين نصيب الخواص السلطانية ونصيب الوزراء والأمراء وبدل الشعير (الأربلق) من الخواص وعدد الزعامات والتيمارات وحاصل كل منهما من القرى والمزارع، تعيين نصيبهم في وقت إجراء الإحصاء. نفسه، ص 655 - 656.

(4) - الخاص: مصطلح يدل على الأرض التي تدر عائدا سنويا يزيد عن مائة ألف أقة ويمنح عادة للسلطان والأمراء البكركيين وأمراء السناجق. أنظر:

- SOMEL. (S.A), Historical Dictionary, op. cit, p115.

(5) - عين علي "قوانين آل عثمان"، أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 640.

(6) - علي جاويش الصوفي، رسالة في التيمار، نفس المرجع، ص 702.

(7) - نفسه، ص 656.

والنوع الثالث يطلق عليه تيمار ويتراوح وارده ما بين 3000 آلاف أقة وأقل من عشرين ألف بأقة واحدة وهو نوعان: تيمار بتذكرة و( تيمار بدون تذكرة) ويميز عين علي أفندي في رسالته بين النوعين، فالأول يقوم الديوان الهمايوني بمنحه، والحد الأدنى لوارده هو ستة آلاف أقة إلى غاية 1999 أقة والسيف منه ستة آلاف أقة، أما النوع الثاني فهو أدنى من الستة آلاف ويمكن لأمر الأمراء البكلربكية أن يمنحه والسيف من هذا ثلاثة آلاف أقة<sup>(1)</sup>.

استخدم نظام التيمار في كثير من مناطق الدولة العثمانية بما فيها بلاد الشام حيث طبق في إيالة الشام وحلب وطرابلس<sup>(2)</sup> والركة، ويذكر عين علي أفندي في رسالته بأن إيالة الشام فيها 128 إقطاعاً من نوع زعامت و 868 تيمارا بتذكرة أو بدون تذكرة أي ما مجموعه 996 سيفاً ويشكلون مع ( جبه ليههم ) قوة قوامها ألفين وستمئة نفر من العسكر<sup>(3)</sup> أما إيالة حلب فهي بدورها تضم 799 تيمارا و 104 زعامت بمجموع 903 سيوف وتساهم بنحو ألفين و خمسمئة نفر من العسكر،<sup>(4)</sup> في حين نجد بأن إيالة طرابلس الشام تقدم إلى الجيوش السلطانية قوة قوامها ألفاً وأربعمئة نفر موزعين على 614 سيفاً 63 منها زعامت و الباقي المقدّر بـ 571 إقطاعاً من نوع تيمار، وهي تتساوى في ذلك مع إيالة الرقة التي تساهم بنفس العدد من العساكر مع اختلاف طفيف في أعداد الزعامت و التيمار أي 28 و 616 على التوالي.<sup>(5)</sup>

لقد مكّن نظام التيمار الدولة من توفير مائة وأربعين ألفاً من الفرسان السباهية دون أن تتحمل أية نفقات عنهم، وهو ما جعل أمر توزيع الإقطاعات لا يخضع سوى للسلطان وبأمر منه ووفق إجراءات صارمة، فلا يمكن أحداث أي تغيير من تيمار إلى زعامت، أو من زعامت إلى خاص، أو من إقطاع إلى وقف من دون إصدار براءة من السلطان، ولا يتم تنفيذها إلا بعد أن يضع النشائجي الطغراء عليها وتدوينها في الدفتر الخاقاني في سجل التحرير ( طابو دفتری )<sup>(6)</sup>، وكان الإشراف على شؤون التيمار في كل إيالة من نصيب كل من دفتدار التيمار، ودفتدار الخزينة وكتخدا الدفتر، وعلى كل زعيم تيماري وارده 10.000

(1) - نفسه، ص ص 652 - 653.

(2) - أورد عين علي أفندي في رسالته قائمة بأسماء كل الإيالات والألوية التي كان يطبق بها نظام التيمار في بداية القرن 17 م . نفس المرجع، ص ص 626 - 640.

(3) - أورد عين علي أفندي في رسالته قائمة بأسماء كل الإيالات والألوية التي كان يطبق بها نظام التيمار في بداية القرن 17 م . المرجع السابق، ص 647.

(4) - نفس المكان.

(5) - نفسه، ص 648.

(6) - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ص 108 - 109.

أقجة وحتى المبلغ الذي تبدأ منه الزعامت ، فإنه يأتي إلى القتال ومعه ثلاثة أنفار من ( الجبه لو)<sup>(1)</sup> وبناء على هذا الحساب فإن كل إيالة لها عدد معين من الجنود دون أن تتدخل الدولة في عملية الإنفاق عليهم.

مع أواخر القرن السادس عشر تعرض نظام التيمار إلى اختلالات في تطبيقه ، بحيث أثرت وضعية السباهي الذي يشارك في الحرب على الأقل مرة في السنة على قدرته على متابعة مجريات الأمور في تيماره مما جعله يستعين بأشخاص آخرين يحلون محله وهو ما فتح المجال لظهور نظام الالتزام في منتصف القرن السادس عشر في عهد الصدر الأعظم ( رسم باشا ) ( 1544 - 1553 ) و ( 1555 - 1563 م ) ،<sup>(2)</sup> وهو ما جعل عين علي يوجه انتقاده لما آل إليه وضع نظام التيمار من عجز وتقصير وفوضى واختلال في أحوال الدفتر خانة<sup>(3)</sup> لسببين هما : تراجع السباهي صاحب التيمار عن المشاركة في الحرب مع جنود السنجق ، إضافة إلى غياب التفتيش المنظم لكشف المتقاعسين عن أداء التزاماتهم.

حققت هذه الطريقة للعثمانيين الكثير من النتائج الإيجابية منها:

- تثبيت النظام العثماني في الأماكن التي تم ضمها للدولة.
- استغلال كل الأراضي وتعمير الأماكن غير المأهولة وتهيئتها للسكان.
- ضبط الأمور في الإيالات بفضل عمليات الإحصاء والرقابة الدورية.

كانت كل إيالة أو لواء يقدم عددا محددًا من الفرسان المجهزين للحملات العسكرية دون أن تتحمل الدولة أية نفقات إضافية<sup>(4)</sup>.

## 2 - أسلوب الالتزام:

كانت عملية جباية الموارد في دولة شاسعة - على غرار الدولة العثمانية - ونقلها إلى الخزانة المركزية ثم إعادة توزيعها على من يقدمون خدماتهم للدولة أمرا شاقا وصعبا ، في زمن كان الحصان أسرع وسيلة نقل ، وهو ما دفع الدولة العثمانية إلى اعتماد نظام التيمار كوسيلة لتحصيل موارد الجباية ، مما يسمح لبعض الفئات - وعلى رأسها العسكر - بأن تقوم بعملية الجباية بنفسها.

(1) - أنظر رسالة عين علي : خليل ساحلي أوغلي ، مرجع سابق ، ص 640 - 641.

(2) - فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، مرجع سابق ، ص 80 ؛ أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج 1 ،

مرجع سابق ، ص 270.

(3) - فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، مرجع سابق ، ص 662.

(4) - نفسه ، ص 74.

لكن هذه الطريقة عرفت صعوبات مع أواخر القرن السادس عشر مما دفع الصدر الأعظم رستم باشا<sup>(1)</sup> في عهد السلطان سليمان القانوني إلى تطبيق نظام الالتزام بدلا من التيمار بهدف الإسراع في جباية أكبر قدر من الموارد<sup>(2)</sup> لتغطية نفقات الدولة التي زادت بشكل لافت في هذه الفترة.

والالتزام معناه "قيام شخص يتولى جمع موارد أي نوع من أنواع الضرائب العائدة للدولة لقاء بدل سنوي يحدد مسبقا"<sup>(3)</sup> وهكذا يتم تحديد وارد منطقة معينة، ويتم الاتفاق بين السلطة المحلية والمالية بشأن وارد الضريبة لإحدى المناطق على مقدار معين يسمى مقطوع أو مقاطعة<sup>(4)</sup> وإن كانت الدولة العثمانية قد توسمت في هذا الأسلوب أن يحمي الرعايا من الممارسات السلبية للملتزم أو جابي الضرائب فإنه فتح الباب أمام التراخي عن القيام بواجباتها في هذه المناطق التي أصبح تقريبا تدير شؤونها ذاتيا<sup>(5)</sup> وهو ما انعكس سلبا كذلك على الرعايا الذين عانوا كثيرا على يد بعض الملتزمين الذين لم يتقيدوا بحدود الضرائب، بل رفعوها كلما وجدوا أنفسهم من القوة والسطوة، وهو الأمر الذي دفع بالرعية إلى تقديم الشكاوي ضد بعض الملتزمين<sup>(6)</sup>.

وقد طبق نظام الالتزام في معظم إيالات بلاد الشام خاصة إيالة طرابلس بحيث تم إقراره في لواء حماة التي حدد بدل التزامها بثلاثمائة ألف قرش في السنة وهذا منذ سنة 1051هـ/1641م، ومن أبرز الملتزمين في اللواء تذكر الدفاتر العثمانية أنه تم توجيه اللواء إلى أحمد البلغاري مع بدل التزام قدره ثلاثون ألف قرش سنويا سنة 1631م، واستمر اللواء يُعهد بهذا الشكل حتى وصل إلى أربعين ألف قرش سنة 1641م<sup>(7)</sup>.

(1) -تولى رستم باشا منصب الصدر الأعظم مرتين في عهد السلطان سليمان القانوني، كانت الأولى بين 1544 - 1553 م، والثانية 1555 - 1561 م، ولما كان الشغل الشاغل لأي صدر أعظم الحصول على الموارد المالية لتغطية النفقات هو الحصول على الأموال، فقد منح الخواص السلطانية إلى الأشخاص (الملتزمين) أنظر كذلك :

SOMEL. (S.A), Historical Dictionary, op.cit; p lxxii.

(2) -أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، ج 1، مرجع سابق، ص 270.

(3) -فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 110.

(4) -من معاني المقاطعة في اللغة: الاتفاق على عمل حجم معين مقابل أجر معين، أما كمصطلح مالي عند العثمانيين فهي المكان أو المؤسسة التي تدر على الدولة دخلا نقديا معيناً كل عام. أنظر: المرجع السابق، ص 651.

(5) -فاضل بيات، المرجع السابق، ص 111

(6) - مهمة دفتر 14، ص 298، تسلسل 427، نقلا عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 3، مصدر سابق، ص ص 80 - 81.

(7) -فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 115.



كما استخدم الالتزام في لواء جبلة حيث يورد ( الدفتر 266) الذي يعود تاريخه سنة 1048هـ/1639م بأن اللواء منح إلى شخص باسم محمد باشا بطريقة الأربالق لكن بشرط أن يقوم بتسديد بدل التزامه القديم<sup>(1)</sup>، وهذا يعني لنا أن هذا الأسلوب كان مطبقا في اللواء قبل هذا التاريخ.

غير أن نظام الالتزام استخدم بشكل محدود في إيالة الشام ذلك أن السبب في ذلك هو بعض السلبات التي رافقت تطبيق أسلوب الأربالق<sup>(2)</sup>، حيث كانت ألوية إيالة الشام في الغالب يعهد بها إلى أمراء الحج لتغطية نفقات الحج وقافلة الجردة.

وهكذا نجد أن أسلوب الإلتزام طُبّق في لواء تدمر خلال الفترة الممتدة من 1631 - 1642 م وأن بدل إلتزام اللواء هو أربعة آلاف قرش.<sup>(3)</sup>

لكن ما لفت انتباهنا هو عدم ورود ما يشير إلى منح الإلتزام في هذه الألوية في رسالة عين علي أفندي في مطلع القرن السابع عشر، مما يرجح أن هذا الأسلوب تم تطبيقه بعد سنة 1607م تاريخ كتابة الرسالة.

لكن الوجه السيء للإلتزام ظهر بشكل بارز خلال القرن الثامن عشر الميلادي وما تلاه، ذلك أنه حدثت خروقات شديدة في تطبيقه، فرغم أن مدة الإلتزام كانت عموما ثلاث سنوات، إلا أن الملتزم كان يلجأ إلى طرق ملتوية للحصول على اتفاق بست سنوات وتسع سنوات أو حتى اثنا عشر سنة، كما أن الدولة نفسها كانت كثيرا ما تلجأ إلى فسخ الاتفاق إذا ما وجدت من يدفع أكثر.

وهناك خرق آخر هو أنه سمح للملتزم أن يلتزم بأكثر من مقاطعة في آن واحد<sup>(4)</sup> أو أن يشترك أكثر من من ملتزم على مقاطعة واحدة مشاركة فيما بينهم<sup>(5)</sup>، وهو ما ساهم في إعطاء صورة سوداوية عن أسلوب

(1) - نفسه، ص 116.

(2) - الأربالق: بمعنى بدل علف أو شعير، وهو أسلوب طبقتة الدولة العثمانية لصالح موظفيها الذين قدموا خدمات لها سواء ضمن رجال السيفية العاملين في الجيش أو رجال الهيئة العلمية كالقضاة والعلماء والمدرسين من ذوي الدرجة الرفيعة، بحيث كانت تخصص لهم إقطاعا يعرف باسم (أربالق)، وليس من الواضح بالدقة متى ظهر هذا الأسلوب، لكن علي جاوش الصوفي يذكّر بأنه كان يمنح في البداية لآغاوات باب السعادة وآغاوات الركاب ورؤساء الحرف التي تعمل في السراي الهمايوني ولأمراء الذين يرابطون على الحدود، كما أن بعض القضاة والعلماء حصلوا على سناجق بطريقة الأربالق، فكان هؤلاء لا يذهبون إليها بل يكتفون بإرسال من ينوب عنهم ليمثلهم ويرعى مصالحهم، وطبعا فإن هذا الإجراء فتح الباب واسعا لانتشار الفساد، وهو ما دفع السلطان سليم الثالث في أواخر القرن الثامن عشر لأن يجري إصلاحا في هذا الأسلوب. أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 693، فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 104.

(3) - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص 114.

(4) - أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ج 1، مرجع سابق، ص 651.

(5) - نفسه، ص 652.



الإلتزام ككل ، وهذا ما يعطي الانطباع أن عملية جمع الضرائب تمت خصصتها بمفهوم العصر الحالي في زمن كانت الدولة تمر بمرجله الضعف والانحطاط وبالخصوص خلال القرن الثامن عشر ، وبالتالي ما يفسر التراخي وغياب الرقابة ، وهذا ما فتح المجال أمام الانتهازيين للسطو على أموال الرعية ظلما وجورا.

# الفصل الخامس

## المكاييل والأوزان والمقاييس والنقود

تعد الأوزان والمكايل والمقاييس إضافة إلى النقود من الوسائل الأساسية في المعاملات اليومية والتجارية، ويلاحظ اشتراك كثير من المناطق في نفس الأوزان والمكايل إلا أنها تختلف فيما بينها في الوزن والحجم، بحيث نجد الأردن مكيال غزة ومصر، والغرارة مكيال دمشق وجنوب الشام عموماً في حين اتخذت مناطق شمال بلاد الشام المكوك أساساً لكيلها، ويمثل الدرهم الوحدة الأساسية في تقدير قيمة الأوزان والمكايل، وليس درهم الكيل مثل درهم النقود في العيار<sup>(1)</sup> ولم تكن المكايل والأوزان و وحدات القياس موحدة في بلاد الشام، في حين كانت العملات المتنوعة متداولة بشكل واسع، وإن كانت العملة العثمانية الرئيسية قد عرفت مثلها مثل باقي النقود مشكل تغير الوزن والقيمة، مع ما رافقها من انتشار الزغل أو العملات المزيفة.

### أولاً - وحدات الكيل :

ارتبط استخدام المكايل - كوسيلة من وسائل تحديد مقدار السلع ومن ثم قيمتها - بالتعامل في السلع الزراعية، فالتعدد والتنوع في المكايل مردّه إلى تنوع السلع حيث خصص لكل منها مكيال خاص أو أكثر من مكيال فكان منها ما خصص للسوائل كالعسل واللبن والزيت ومنها ما خصص للحبوب كالقمح والشعير والعدس وغيرها ...، ومن أهم المكايل :

#### 1 - الغرارة:

مثلت الغرارة<sup>(2)</sup> وحدة الكيل الأساسية المستعملة باعتبارها المكيال الرئيسي لمعظم الحبوب والمحاصيل الشتوية والصيفية من القمح والشعير والعدس والحمص والبقول والذرة والسمسم وغيرها، وهي كذلك أبرز المكايل المستخدمة عند تقدير الضريبة على الحبوب، وقد ورد ذكرها في مختلف دفاتر التحرير الخاصة ببلاد الشام فقد وردت في دفاتر التحرير - (T.D. 427)، (T.D. 131)، (T.D. 1015)، (T.D. 289 is.)، (T.D. 516 is.)، (T.D. 515 An.)، دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وغيرها ... وتمتدنا هذه الدفاتر بالقيمة النقدية لكل من غرارة القمح والشعير مع ملاحظة مدى تغير السعر بين دفتر وآخر وهذا يعود إلى تباعد الفترات الزمنية لتحرير هذه الدفاتر، فمثلاً نجد غرارة القمح في الدفتر (T.D. 516 Is.) العائد لسنة 970هـ/1562م تقدر بـ 480 أفجة،<sup>(3)</sup> نجد في المقابل بأن الدفتر (T.D. 515 An.)، الذي تم تحريره في سنة 1005هـ/1596 - 1597م يذكر قيمتها بـ 500

(1) - والتر هانس، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية د. كامل العسلي، ط2، منشورات الجامعة الأردنية عمان، 1982، ص 11.

(2) - الغرارة مكيال للحنطة وتعني حرفياً: العدل من صوف أو شعر وتتألف من 12 كيلاً أو 72 مداً دمشقياً، وفي غزة كانت الغرارة تساوي 1.5 غرارة دمشق أي حوالي 306.75 كغ قمح و حوالي 397.5 لتر. نفس المرجع، ص 64.

(3) - دفتر 516 اس، الفترة 970هـ/1562م.

أقجة<sup>(1)</sup>، ونفس الشيء بالنسبة لغرارة الشعير التي زاد ثمنها من 260 أقجة<sup>(2)</sup> إلى 280 أقجة في الدفتر (T.D.515 An.)<sup>(3)</sup>، كما يمكن أن نلاحظ أيضا اختلاف قيمة الغرارة من مكان لآخر، فالدفتر (T.D.427) الذي يعود إلى الفترة 932هـ/1525 - 1526م - 934هـ/1527 - 1528م يحدد قيمة الغرارة الشامية من القمح بـ: 100 أقجة، وقيمة الغرارة الشامية من الشعير 70 أقجة<sup>(4)</sup>، بينما قيمة غرارة القمح (الحنطة) في لواء عجلون وفق الدفتر رقم 970 العائد للنصف الأول من القرن 10هـ/16م تقدر بـ: 130 أقجة وغرارة الشعير قيمتها 70 أقجة كذلك<sup>(5)</sup>، وحسب دفتر التحرير رقم (T.D.1015) الذي يعود إلى سنة 945هـ/1538 - 1539م الخاص بالقدس الشريف يشير إلى أن قيمة الغرارة المقدسية من القمح تقدر بـ 480 أقجة، وغرارة الشعير 260 أقجة<sup>(6)</sup>.

وأحيانا يكون الاختلاف في قيمة الغرارة بين قرية وأخرى كما أورده دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طره باي رقم 192 العائد لسنة 945هـ/1538م، حيث بلغت قيمة غرارة الشعير في قرى سبغيت وأم الفحم وسيرين التابعة لمرج بني عامر 72 أقجة<sup>(7)</sup>، في حين قيمتها 70 أقجة في قرى اليامون وطيرة القبلية التابعة دائما لمرج بني عامر<sup>(8)</sup>.

## 2 - الكيلة (الكلة):<sup>(9)</sup>

استعملت الكيلة لأنواع الحبوب، فإذا كانت الكمية التي يراد كيلها قليلة فإن وحدة الكيل المستعملة هي الكيلة حيث الغرارة تساوي 12 كيلة، وهذا ينطبق على الحنطة والشعير والسّمسم ولا ينطبق على

(1) - الدفتر يعود إلى مطلع القرن 11هـ/1005 - 1596م.

(2) - دفتر الطابو (T.D.516 Is)، ص 287.

(3) - دفتر الطابو (T.D.515 An.)، ص 286.

(4) - ورد في الدفتر (T.D.427) بأن حاصل قرية عويل العليا 30 غرارة شامية بقيمة 3000 أقجة، أنظر: دفتر تحرير (T.D.427)، سبق ذكره، ص 296.

(5) - دفتر مفصل لواء عجلون رقم 970، سبق ذكره، ص ص 65 - 69.

(6) - دفتر تحرير (TD.1015)، سبق ذكره، ص 271.

(7) - ص ص 48 - 50.

(8) - ص 49، ص 53.

(9) - تلفظ في العثمانية بـ (kile) وتساوي 34 كلف، وفي اسطنبول كانت الكيلة تحسب بـ 20 أوقية أي ما يعادل 25.656 كلف من القمح، و 12.828 كلف من الأرز، وأصبحت للكيلة قيمة موحدة ابتداء من 1841م وتساوي 35.27 لتر. والترهانس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها، مرجع سابق، ص ص 72 - 73.

الفول والحمص<sup>(1)</sup>، وكثيرا ما تتدخل الدولة لمراقبة المكايل خاصة في تحصيل بعض الضرائب العارضة لوضع حدّ للتلاعب الذي قد يحدث.<sup>(2)</sup>

### 3 - المد: (3)

كانت الغرارة تساوي ستة أمداد، أي أن المدّ يساوي كيلتين<sup>(4)</sup>، ويستعمل في الحبوب كالشعير.<sup>(5)</sup>

### 4 - الأوقية:

استخدمت في وزن القطن أو ما يعرف بـ (البنبه) وحدة وزن أطلق عليها " القية " وهي تحريف لكلمة (أوقية).<sup>(6)</sup>

أما فيما يتعلق بالسوائل فنجد الإشارة الى استخدام " علبة "، مثلما ورد في دفتر (T.D.474) العائد إلى سنة 977هـ/1569م، عند الإشارة إلى اللب واللبن الرائب الذي تحددت قيمة الجباية منه بنصف أفجة عن كل علبة من اللب القادم من الجهات القبلية لمدينة دمشق أو ذاك الوارد من جهة حمص و طرابلس.<sup>(7)</sup>

### ثانيا - الأوزان:

ارتبطت الموازين كما هو معروف بالمعاملات التجارية اليومية بين الأفراد بل هي من أكثر الوسائل التي تحدد العلاقة بين المتعاملين في الأسواق دقة وبساطة، وبفضلها أمكن للبائع والمشتري معرفة مقدار وقيمة ما يتعاملان به من سلع، وقد عرفت بلاد الشام وجود العديد من وحدات الأوزان بعضها يعود إلى الفترة المملوكية والبعض الآخر تم استخدامه من قبل السلطة العثمانية، وهكذا نجد استخدام كل من: الرطل، والأوقية، والقنطار، والمن، والكر، والحمل.

(1) - دفتر مفصل ناحية بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طراباي سنة 945هـ/1538م، مصدر سابق، ص10.

(2) - مهمة دفترتي 12، ص 221، تسلسل 463، نقلا عن: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، ص181.

(3) - في الشام كان المد يساوي 2.84 كلغ من القمح أو 3.673 لتر، و كل 72 مدا تعادل الغرارة الدمشقية، بينما في الأناضول سنة 1518م 8 كيلات تساوي 100 مد. والترهانس، المرجع السابق، ص ص 75 - 76.

(4) - دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر، سبق ذكره، ص 10.

(5) - حجة رقم 8، ص 60 من السجل رقم 172، سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، سبق ذكره، ص 132.

(6) - المصدر السابق، ص 10.

(7) - محمد عدنان البخيت: " العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو(T.D.474) سنة 977هـ/1569م"، مرجع سابق، ص 6، 8.

## 1 - القنطار: <sup>(1)</sup>

ورد ذكره مع قبان الزيت والدبس <sup>(2)</sup> وحبان القطن، واستعمل في وزن الحطب وبلغ ثمنه 300 آقجة. <sup>(3)</sup>

## 2 - المن: <sup>(4)</sup>

استعمل في لواء القدس الشريف بالنسبة للدبس والزيت <sup>(5)</sup>، كما استعمل في وزن الأرز، <sup>(6)</sup> واعتبر العثمانيون بأن المن الرومي عندهم هو ست وعشرون أوقية. <sup>(7)</sup>

## 3 - الرطل: <sup>(8)</sup>

كان من الأوزان المستخدمة في منطقة القدس، ويقدر وزن الرطل الشامي أربعمئة مثقال أو ما يعادل ثمانية وأربعون أوقية. <sup>(9)</sup>

## 4 - الكر :

من الأوزان الكبيرة، ويساوي 3145 كلغ <sup>(10)</sup> درهم الوزن. <sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> - دائما كان هناك اختلاف في تحديد القنطار من مكان لآخر ومن فترة لأخرى، وعموما نجد القنطار في دمشق الشام يساوي 185 كلغ ثم زيد في مقداره خلال القرن السابع عشر إلى 192.4 كلغ واحتفظ القنطار الحلبي دوما بـ 100 رطل . والترهانس: المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها، مرجع سابق، ص 42.

<sup>(2)</sup> - ورد ذكر استعمال القنطار من الدبس في قرية خرسا قرب الخليل، وبلغت قيمة القنطار منه 200 آقجة. أنظر: دفتر تحرير (T.D.427)، سبق ذكره، ص 300.

<sup>(3)</sup> - دفتر مفصل عجلون، سبق ذكره، ص 83.

<sup>(4)</sup> - هو المينة القديم ويساوي شرعا رطلين، وكل رطل 130 درهما، ولما كان وزن الدرهم 3.15 غراما فإن وزن المن يساوي 819 غراما، وعموما كان التعامل بالمن نادرا في الشام بالمقارنة مع أوزان الرطل المحلية. والترهانس، المكايل والأوزان الإسلامية، مرجع سابق، ص 45 - 46.

<sup>(5)</sup> - دفتر تحرير (T.D.516is.) سبق ذكره، ص ص 466 - 467، 470؛ دفتر تحرير (T.D.515An.) سبق ذكره، ص ص 344، 345، 346.

<sup>(6)</sup> - جاء في وقفية تكية خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني: من الأرز الصافي النقي عشرينا منا قدسيا، وذكرت الوقفية بأن عشرين منا يقابلها أربعون أوقية، بمعنى أن الأوقية الواحدة تساوي نصف من قدسي. جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج 1، سبق ذكره، ص 139.

<sup>(7)</sup> - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 213.

<sup>(8)</sup> - من أكثر وحدات الوزن استعمالا في بلاد الشام، وكان رطل دمشق دائما يساوي 600 درهما، وكل درهم يساوي 3.125 غراما، فنجد الرطل الدمشقي يساوي 1.8 كلغ. والترهانس، المكايل والأوزان الإسلامية، مرجع سابق، ص ص 30 - 33.

<sup>(9)</sup> - المرجع السابق، ص 212.

<sup>(10)</sup> - والترهانس، المرجع السابق، ص 64.

## 5 -الحمل: (2)

منها حمل الكتان،<sup>(3)</sup> وحمل القطن،<sup>(4)</sup> وحمل الدقيق وحمل الفلفل،<sup>(5)</sup> وقد استخدم الأمناء قاعدة الحمل والقالب في احتساب مقدار الرسوم المجبة على المنتوجات الحيوانية والنباتية بحيث يفصل القانوننامة جباية ثلاث أقيجات عن حمل الدبس، وعن حمل الملح، وأربع أقيجات عن حمل الأرز، وتصل إلى ثماني أقيجات عن حمل البعير من التمر،<sup>(6)</sup> كما استعملت البالة في وزن الحرير الخام.<sup>(7)</sup>

## ثالثا -وحدات المساحة:

### 1 -القيراط :

استخدم القيراط وحدة للمساحة، وقد عرّف قانوننامة "ولاية الشام" القيراط على النحو التالي: (إن القيراط هو قانون مقرر، فيعدّون (أي أهالي الشام) كل شيء مثقالا وهو أربعة وعشرون قيراطا، وبهذا يفترضونه أربعاً وعشرين حصّة، فيقسمونه إلى أربعة وعشرين.<sup>(8)</sup>

كان القيرط شائعاً ويطبق بكثرة فيما يخص البيوت والدكاكين والأراضي، فالأرض أو البيت بغض النظر عن المساحة والقيمة كانت تقسم إلى أربعة وعشرين جزءاً متساوياً يسمى كل جزء منها قيراطا، وهذا معناه أن المالك قد يكون وحيداً وبالتالي فهو يملك كل قراريط البستان أو البيت أو الدكان، أو مالكا مشاركا يملك النصف ( إثنا عشر قيراطا من أربعة وعشرين قيراط)، أو مالكا للثلث (ثمانية قراريط من أربعة وعشرين قيراطا) أو أقل من ذلك أو أكثر.<sup>(9)</sup>

(1) -يساوي 3.125 غراما ، ورد ذكره في نص وقفية خاصكي سلطان على التكية العامرة بالقدس . كامل العسلي، وثائق مقدسية، مج 1، سبق ذكره، ص 139.

(2) -كان حمل البعير في منطقة الأناضول سنة 1518م 243 كلغ ، بينما يشير الرحالة تافرنبيه في القرن السابع عشر بأن حمل البعير في المناطق الجبلية بآسيا الصغرى يصل الى 390 كلغ و يصل في المناطق السهلية إلى 735 كلغ . والتر هانس، المكاييل والأوزان الإسلامية، مرجع سابق، ص 26.

(3) -حمل الكتان يعادل 600 رطل ويساوي 270 كلغ . نفسه، ص 27.

(4) -حمل القطن المندوف يعادل 553.5 رطل و يساوي 249 كلغ . نفسه، ص 27.

(5) -حمل الفلفل يساوي 500 رطل مصري أي ما يعادل 225 كلغ . نفس المرجع، ص 27.

(6) -حمد عدنان البخيت: " العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو(T.D.474) سنة 977هـ/1569م"، مرجع سابق، ص 6 -7.

(7) -خليل اينالجيک، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 358.

(8) -لواء القدس الشريف من دفتر مفصل ( T.D.516 is. )، سبق ذكره، ص 134.

(9) -محمد الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في القرن السادس عشر الميلادي، مرجع سابق، ص 79.

## 2 - الفدان :

يعرّف قانوننامه "ولاية شام" الفدان بأنه (الزوج من الثيران للحرث)، ورد الفدان في قانون نامه عند الحديث عن الأرض، ولكن يمكن التمييز بين عدة أنواع من الفدادين، فهناك الفدان الروماني والفدان الاسلامي وفدان الحراث وفدان الأرض، فالفدان الروماني هو (ما يحرثه زوج من الثيران في يوم وليلة)، والفدان الاسلامي هو (ما يستطيع الزوج من الثيران حراثته في يوم(نهار) كامل، ويطلق عليه في الغالب اسم (الفدان العربي)، أما فدان الحراث فهو ما يحرثه الزوج من الثيران حتى وقت الظهر ويطلق عليه كذلك اسم فدان الأرض.<sup>(1)</sup>

كانت مساحة القرية تقسم إلى عدد معين من الفدادين التي يفترض أن تكون متساوية فيما بينها، ويمكن للفدان أن يقسم إلى أربعة وعشرين قيراط.<sup>(2)</sup>

## 3 - السهم :

استخدم السهم في القياسات، وفي هذه الحالة تقسم الحصة لأي مجموعة من الأسهم يتم الاتفاق عليها، وهو ما يميز السهم عن القيراط، وقد جاء في قانوننامه "ولاية الشام" في دفتر 263 سنة 955هـ / 1547م مايلي: (لا يوجد حد للسهم، فمن الممكن أن يكون أربعاً وعشرين حصة أو أكثر أو أقل، وخصص الأوقاف بنيت على السهم، إذ تم بيان عدد الأسهم الذي تم تقسيمه إليه).<sup>(3)</sup>

## رابعاً - النقود المتداولة :

تؤدي النقود وظيفة اقتصادية هامة فهي وسيلة التعامل بين الناس وهي أساس النظام الاقتصادي لأي دولة، وفي ذات الوقت هي إحدى مظاهر سيادة هذه الدولة<sup>(4)</sup>، لذلك تأتي دراسة الوحدات النقدية من حيث الوزن والحجم، ومن أهمية القطعة النقدية باعتبارها وزن ووسيلة من وسائل التعامل التجاري وجباية الضرائب، وتوجد عملات متنوعة منها الذهبية والفضية والنحاسية.

(1) - لواء القدس الشريف من دفتر (T.D.516 Is.)، ص 134، دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها، سبق ذكره، ص 9.

(2) - المرجع السابق، ص 79.

(3) - لواء القدس من دفتر (T.D. 516 Is.)، سبق ذكره، ص 134، دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها، المرجع السابق، ص 10.

(4) - مصطفى أوزتورك: "الملاحم العامة لتاريخ السكة العثمانية"، في: سيد محمد السيد محمود (مترجم)، النقود العثمانية، تاريخها - تطورها - مشكلاتها، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003، ص 11.



إن عملية طرح كميات النقود المطلوبة في مساحة جغرافية واسعة بالنسبة للدولة العثمانية لم يكن بالأمر السهل، فكانت السياسة التي تبنتها الدولة في هذا الشأن عبارة عن السعي لرواج النقود في أقاليم الدولة بكل حرية بعيدا عن ضغوط تداول نقود الدول الأجنبية مثل دوقه البندقية والقروش الاسباني والقروش الأسدية الهولندية وغيرها... إلى جانب نقود الدولة الرسمية وهي الأقجة<sup>(1)</sup>

لم يقتصر تداول النقود في الدولة العثمانية على العملات المحلية فقط بل شمل أنواعا أخرى من العملات سواء ما كان موجودا قبل مجيئ العثمانيين أو ما كان نقدا أجنبيا، وهذه الظاهرة كانت عامة في مختلف الدول ولم تقتصر على الدولة العثمانية وحدها<sup>(2)</sup>، وقد بدت هذه السياسة واضحة عشية الدخول العثماني لبلاد الشام، فقد تساهل السلاطين العثمانيون مع السكان في ميدان العملات، ولم يلجأوا دفعة واحدة إلى تغيير النقود أو توحيدها في كامل دولتهم نظرا لاتساع رقعتها، ولتجنبهم التضيق على رعيهم بفرض نقود جديدة لا يعرفونها، لذلك تركوا لهم نقودهم المحلية للتداول حتى يستأنس الناس بالحكم الجديد فتطبق بعد ذلك النظم والقوانين العثمانية،<sup>(3)</sup> وهو ما نجده فعلا في دفاتر التحرير التي وضعتها الدولة العثمانية في بلاد الشام، فقد كانت وحدة النقد الذهبية في فترة المماليك هي الأشرفية<sup>(4)</sup> والتي تنسب عادة لمن كان قد سكها من السلاطين كالأشرفية القايتباية (نسبة إلى الأشرف قايتباي المحمدي)،<sup>(5)</sup> والأشرفية البيرسباهية (نسبة إلى الأشرف بيرسباي)،<sup>(6)</sup> والأشرفية الغورية (نسبة إلى الأشرف قانصوه الغوري)،<sup>(7)</sup>

(1) - مصطفى أوزتورك: "الملاح العامة لتاريخ السكة العثمانية، المرجع السابق، ص 15.

(2) - شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 125.

(3) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 128.

(4) - استعملت دولة المماليك في أواخر أيامها الدينار الأشرفي الذي تسميه المصادر العثمانية (أشرفي)، ويرد كمرادف لكلمة (دينار) بمعنى العملة الذهبية، فكان يكتب في السجلات وباقي الوثائق الرسمية (أشرفية غورية) أو (قايتباية) أو (برسبائية) أو (سليم شاهية) بالنسبة للدينار من ضرب الغوري أو قايتباي، أو برسباي أو سليم الأول السلطان العثماني. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 128.

(5) - يتراوح متوسط وزن دينار السلطان الأشرف قايتباي (872هـ/1467م - 901هـ/1496م الذي ضرب في القاهرة ما بين 3.37 غرام و 3.41 غرام)، وقد جرى التداول بهذه العملة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. محمد عدنان البخيت: لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد والغزة والقدس الشريف من دفتر تحرير 427، سبق ذكره، ص 107، هامش 178.

(6) - أطلق على العملة الذهبية المضروبة في مصر اسم "الأشرفي" في عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي (825هـ/1421م - 842هـ/1438م) وكان عيار الدينار الذهبي 23.75 قيراطا، واستمر الذهب خالصا من الشوائب حتى العصر العثماني. عبد الرحمان فهمي محمد، النقود العربية ماضيها وحاضرها، دار القلم، القاهرة 1964، ص ص 9 - 10.

(7) - يذكر ابن اياس في حوادث سنة 926هـ/1520م بأن "الأشرفي البيرسباهي يصرف بثلاث أشرفيات فضة، والأشرفي القايتباهي يصرف بأشرفيتين وثمانية أنصاف، والأشرفي الغوري بأشرفيتين وأربع أنصاف، وكذلك الأشرفي العثماني ضرب الخنكار". بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3، مصدر سابق، ص 1186.

أما النقود الفضية فكان يطلق عليها منذ أن كانت الصلات التجارية وطيدة بين المماليك والعثمانيين اسم أقجة أو درهم مضافة إلى اسم البلد الذي صكت فيه، لتمييزها عن العملة العثمانية التي تحمل نفس الاسم، فكان يقال أقجة حلبية، وديار بكرية، وشامية، أو دراهم حلبية وشامية،<sup>(1)</sup> وبفس الطريقة تدعى الدنانير فيقال دينار شامي أو حلبى<sup>(2)</sup> أو مكى، وظلت على هذه التسمية حتى بعد زوال دولة المماليك متداولة في السوق،<sup>(3)</sup> كما يذكر ابن اياس في مطلع القرن السادس عشر نقدا فضيا اسمه النصف<sup>(4)</sup> أو النصف فضة والذي أطلق عليه العثمانيون اسم باره أو بارة مصر<sup>(5)</sup>.

بعد أن استتب الأمر للسلطة العثمانية في بلاد الشام بعد القضاء على تمرد الغزالي، طرحت مسكوكات جديدة في دمشق مما أثر في سعر الصرف ففقدت نصف قيمتها، بحيث يذكر ابن طولون بأن الفلوس الجديدة التي ضربت باسم السلطان سليم الأول قيمتها: كل ستة عشر فلسا بدرهم بعدما كانت كل ثمانية بدرهم<sup>(6)</sup>، أي أنها فقدت نصف قيمتها، كما ظهر الدينار السليمي الشاهي<sup>(7)</sup>، والسلطاني السليماني<sup>(8)</sup>.

(1) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 217.

(2) - محمد ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القسم الثاني، مصدر سابق، ص 385.

(3) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 217.

(4) - يورد ابن اياس في حوادث سنة 925هـ/1519م "أن اللحم البقري يباع بنصف فضة كل رطل"، وفي حوادث سنة

920هـ/1520م "بلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل" أنظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3، ص 1179، ص 1186.

(5) - أصبحت كلمة بارة في اللغة التركية الحديثة تعني العملة أو النقد بشكل عام، أما أهل الشام فأطلقوا على النقود كلمة: مصرية

و مصرية ومصري، في حين سمى الأوروبيون النقود المصرية Medin، وهي تحريف لكلمة (مؤيد)، كما وردت كلمة الدرهم

المؤيدي. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 219.

(6) - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القسم الثاني، مصدر سابق، ص 367.

(7) - الدينار السليمي من الذهب وينسب إلى السلطان سليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م) ضرب في اسطنبول

وكانت قيمته سنة 928هـ/1522م أربعين نصفاً من الفضة العتيقة. ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3، مصدر

سابق، ص 1254.

(8) - السلطاني السليماني عملة ذهبية تنسب إلى السلطان سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م) ضربت

بإسطنبول ودمشق، ويصرف كل سلطاني بخمسة وعشرين نصفاً من العملة الفضية الجديدة. نفس المصدر، ص 1254.

## 1 - أهم العملات:

### أ - الأتجة:

استعملت كل دفاتر التحرير الخاصة بألوية بلاد الشام في ايراد مقدار ما يجبى من القرى إلى قطعة النقد العثمانية وهي الأتجة<sup>(1)</sup> التي هي وحدة النقد الرسمية للدولة العثمانية.<sup>(2)</sup>

### ب - البارة<sup>(3)</sup>:

ورد ذكرها في دفتر تحرير (T.D.289 Is.) عملة في التعاملات إلى جانب تداول الذهب باسم قطعة من ذهب قايتباي السلطان المملوكي، كما ترد الإشارة أيضا إلى الدينار الأشرفي من الذهب، ودينار سيف الدين جقمق 842 - 857هـ/1438 - 1453م، ودينار السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمودي 872 - 901هـ/1469 - 1481م، كما كانت بعض التعاملات في القدس تتم بالأشرفي الغوري المضروب من الذهب، ومن الدراهم الغورية نسبة إلى السلطان قانصوه الغوري 906 - 922هـ/1501 - 1516م،<sup>(4)</sup> ومن القطع الأخرى التي جرى التعامل بها نجد القطع السلطانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني 926 - 974هـ/1520 - 1566م،<sup>(5)</sup> وكان الدينار السلطاني الجديد يساوي 4 قطع سلطانية أو 40 قطعة مصرية أو 80 قطعة شامية.<sup>(6)</sup>

(1) - الأتجة و تسمى الأبيض، وهي عملة فضية تشير إليها المصادر البيزنطية بالأسبير. شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ص 77 - 78.

(2) - جاء في قانوننامه القدس الشريف من دفتر مفصل 516 ذكر استعمال مصطلح "العثمانية" للدلالة على الأتجة. أنظر: TD.516 is، سبق ذكره، ص 176.

(3) - تعرّف القانوننامه البارة بأنها: نقد فضي يحوي 16% من النحاس، وتزن كل 250 قطعة منها 100 درهم، وكانت البارة تساوي أتجة واحدة عثمانية ونصف، ومع حلول القرن السابع عشر أخذت البارة تحل محل الأتجة كوحدة للنقد العثماني. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ص 220 - 223.

(4) - كان النقد الذهبي المسمى بالأشرفي قد حل كعملة ذهبية رئيسية في مصر حتى الفتح العثماني سنة 1517م. شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 121.

(5) - عرفت عملية سك السلطاني السلطاني ازيدادا ملفتا مقارنة بما كان في عهد والده السلطان سليم الأول الذي دخلت في عهده بلاد الشام تحت الحكم العثماني، وكانت مقاييس سك السلطاني ثابتة ومساوية للدوكا البندقية طيلة القرن السادس عشر، إلا أن نسبة التبادل بين النقدين بدأت تتغير لصالح الدوكا مع مطلع القرن السابع عشر نظرا لما أصاب النقد العثماني من تدني في نوعيته بسبب الزغل، ولترجع قيمة الأتجة، وهو ما انعكس على ضعف الثقة بالنقود العثمانية الذهبية أيضا. نفس المرجع، ص ص 124 - 125.

(6) - دفتر طابو (T.D. 289 Is)، ص 175.

### ج - الدينار:

كان الدينار الذهبي السلطاني محصوراً في بعض المعاملات التي كانت مسجلة به، ومنها الهبات السلطانية المعروفة بالصرة الرومية، التي كانت تصرف على بعض الشيوخ والعلماء<sup>(1)</sup> أما قطعة الفضة الحلبية التي وردت الإشارة إليها في دفتر تحرير (T.D. 131) بالأقجة الحلبية وهي بارة ونصف شامية من العملات التي تم تداولها في لواء القدس الشريف.

### د - الفلوري أو الفلورين (Florin):

وهو اسم أعطاه العثمانيون لعملة ذهبية نقش عليها رسم زهرة ضربت في فلورنسا (Florence) في القرن الثالث عشر (سنة 1252م)، وقد استعمل الاصطلاح ذاته لكافة النقود الذهبية المضروبة في أوروبا التي تم تداولها في الدولة العثمانية، وعادة ما يقبض على أساس المبادلة بالأقجة وأصبح الفلوري يعني العملة الذهبية: إفرنجية كانت أم عثمانية<sup>(2)</sup> وتم تداول الفلوري كقيمة للرسم المفروض على الأفرنج القادمين لزيارة كنيسة القيامة في مدينة القدس.<sup>(3)</sup>

### هـ - الدوكا:

وتعرف كذلك بالدوقة (Ducat)، وهي قطعة نقد ذهبية ضربت لأول مرة عام 1284م في البندقية واستمر تداولها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر،<sup>(4)</sup> وجرى التعامل بهذه العملة بين الدولة العثمانية والتجار من فلورنسا الإيطالية، وكان مبلغ 18 دوكا ذهبية يساوي 900 أقجة عثمانية،<sup>(5)</sup> وهذا على الرغم من أن النقد المتداول في فلورنسا هو الفلوري.

(1) - جاء في الحجة رقم 3 من السجل رقم 173، من سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية: "قرر مولانا وسيدنا فخر قضاة الاسلام، زخر ولادة الأنام، الحاكم الشرعي المولى أحمد أفندي... حامل هذا الكتاب الشرعي... فخر الأئمة المكرمين الشيخ هبة الله: سلطانان ذهباً من الصرة الرومية الواردة كل سنة من قسطنطينية المحمية إلى القدس الشريف السنية، سلطاني من محلة باب القطانين، وسلطاني من جماعة باب حطة..." ج 2، سبق ذكره، ص 264.

(2) - كات فليت، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، تعريب أيمن الأرمينازي، ط 1، مكتبة العبيكان، السعودية، 2004، عبد الرحيم أبو حسين: لبنان والإمارة الدرزية، ص 272. محمد عدنان البخيت، لواء القدس الشريف من دفتر مفصل 289 إس، هامش 2، ص 25،

(3) - دفتر طابو 289، ص 25، دفتر طابو 516، ص 180 - 181.

(4) - المرجع السابق، ص 38، محمد كر علي، خطط الشام، ج 5، مطبعة الترقى، دمشق، 1927، ص 83، أحمد غازي شرمند: "دور طرابلس الاقتصادي في القرون الثلاثة الأولى من العهد العثماني" المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان العهد العثماني 1516 - 1918م" مرجع سابق، ص 198.

(5) - خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 1، مرجع سابق، ص 358.

## و - الغرش:

ظهر في أواخر القرن السابع عشر حيث استعملت العثمانيات الفضيّات، وكان حساب ثمن مائتين من العثمانيات الفضيّات يساوي غرشاً أسدياً<sup>(1)</sup> و وردت عملة نقدية باسم الغرش الأسدي الفضي<sup>(2)</sup> والغرش العددي الذي طغى على جميع المعاملات اليومية خاصة في عقود الزواج فقد ورد ذكره في معظم العقود التي تضمنها السجلان 172 و 173 اللذان يعودان إلى الفترة 1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م.<sup>(3)</sup>

كما ورد ذكر عملة الغرش في سجلات المحكمة الشرعية للقدس الشريف في براءة ذمة بين شخصين من القدس أحدهما مسلم والآخر يهودي بينهما معاملة نقدية قدرها مائتان وخمسون غرشاً<sup>(4)</sup>، ونفس النقد أي الغرش تم في معاملة بيع بين طرفين في القدس أواخر القرن 11هـ / 17م وكان ثمن الغرش يعادل 30 قطعة مصرية.<sup>(5)</sup>

## 2 - سك العملة:

نظرا للظروف الجغرافية والاقتصادية العامة للدولة العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وهو عصر ما قبل الصناعة حيث لم تكن التكنولوجيا قد تقدمت، ونظرا لكون مصادر الطاقة طبيعية فقط، فإنه لم يكن من الممكن طرح النقود التي تحتاجها الأسواق في كل أنحاء الدولة في الوقت المطلوب وبالقدر اللازم، كما أن ضرب النقود وإيصالها إلى كافة جهات الدولة كان أمرا صعبا للغاية، على الرغم من الأهمية البالغة لعملية وجود النقود التي تحمل شعار الدولة في كافة أقاليمها، لذلك لجأت الدولة العثمانية كحل لهذه المعضلة إلى إقامة أكثر من دار ضرب، مراعية في ذلك عامل القرب من مصادر المعادن في أغلب الأحيان، وضرورة التوفيق في عيار السكة التي كانت تضربها مع ما كان يضرب في الضربخانة

(1) - سجلات محكمة القدس الشرعية بطرابلس الشام ، سجل رقم 2، ص 27، نقلا عن نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس، 250.

(2) - سجلات محكمة القدس الشرعية بطرابلس الشام ، سجل رقم 2، ص 36، نقلا عن نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس، ص 235.

(3) - ورد في إحدى الحجج الشرعية أمام القاضي في القدس الشريف ما يلي: "ترتب لتييمي الحاج ابراهيم بن مشيمش بمباشرة وصيهما الشيخ خليل بن غضية في ذمة خليل جلبي الترجمان مبلغا قدره ثلاثون غرشا عديدة..." حجة 4 مؤرخة في 26 شوال سنة 1081هـ / 8- 3- 1671م ، سجل رقم 172، ص 97

(4) - سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، سجل رقم 173 لسنة 1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م ، الحجة 1، بتاريخ 3 ذو الحجة سنة 1081هـ / 12 أبريل 1671م ، ج 1، ص 47.

(5) - سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية، سجل رقم 173 لسنة 1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م ، الحجة 1، بتاريخ 4 ذو الحجة سنة 1081هـ / 13 أبريل 1671م ، ج 1، ص 50.

المركزية في اسطنبول<sup>(1)</sup>، وكثيرا ما لوحظ الفساد وسوء الإدارة فيما يتعلق بضرب النقود<sup>(2)</sup>، ففي 7 شوال سنة 998هـ / 1591م سُمح لدار الضرب بحلب<sup>(3)</sup> بضرب 533 بارة من مائة درهم فضة، لكن دار الضرب تعمدت أن تضرب 600 بارة من المائة درهم فانخفض وزن البارة إلى 0.577 غراما.<sup>(4)</sup>

كانت دار الضرب في دمشق في القلعة وقد جرى التزامها من طرف الخواجا عبيد ومحمد بن مزيد لمدة أربع سنوات ابتداء من سنة 970هـ / 1562م بمبلغ إجمالي قدره 287.000 أقة بمعدل 71.750 أقة في السنة، وكانت هذه الدار تستخدم في ضرب النقود الذهب والفضة والنحاس لسك الفلوس التي يشار إليها أحيانا باسم مانقر (النحاس)، وكثيرا ما انتشر الزغل في العملة، لذلك كانت عملية التنقية للحصول على عملة حسنة الشغل الشاغل لدار الضرب، فكانت دار الضرب تأخذ ما يعرف بـ "حق النار" أي قيمة المعدن الذي يضيع لدى إذابة الذهب والفضة وما سواهما.<sup>(5)</sup>

(1) -مصطفى أوزتورك: "الملاح العامة لتاريخ السكة العثمانية"، مرجع سابق، ص 13.

(2) -نفس المرجع، ص 14.

(3) - كان كل من دار الضرب بحلب ودمشق وحيد من ديار بكر من مراكز ضرب العملة كالأقجة والدرهم الفضي والسلطانية الذهبية ويشرف عليها أمناء مختصين في سك العملة وحفظ وزنها وحمايتها من الزغل والتزوير. محمد عدنان البخيت: العوائد المالية لمقاطعات الشام" مقال سابق، ص 30.

(4) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 222.

(5) - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية، مرجع سابق، ص 29.

الخلاصة

## خاتمة:

تناولت هذا الدراسة جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لإيلات بلاد الشام في فترة زمنية مميزة امتدت خلال القرنين 10 هـ - 16 م و 11 هـ و 17 م بالتركيز على الوثائق و المصادر التي توافرت لدينا عن هذه الفترة و بالخصوص المادة الأرشيفية المتنوعة الخاصة بالمنطقة ، و حاولنا من خلالها رسم صورة واضحة لما عاشته تحت الحكم العثماني ، وقد سمح لنا هذا العمل بالتوصل إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها في النقاط التالية :

- كرّس الوجود العثماني في بلاد الشام الوحدة السياسية للمنطقة التي لطالما افتقدتها سواء في ظل الوجود الصليبي على ساحل الشام ، أو مع انتشار النعرات القومية والطائفية خلال القرن التاسع عشر الميلادي ،

كما أن هذا التواجد هو الذي حماها من خطر تدفق الجاليات الأوربية على الرغم من الامتيازات التي حازت عليها ونالتها ، فلم تجد هذه الجاليات الطريق مفتوحة أمامها بشكل مطلق وبالتالي لم تتمكن من ممارسة ما قامت به في أماكن أخرى في القارة الأمريكية أو القارة لأسيوية من أعمال نهب وسلب واستغلال ، فالدولة العثمانية كانت عائقا للتدفق الكثيف للجاليات وعملت على تنظيم وجودها ، وبالتالي فقد أخرجت إلى حد كبير وقوع المنطقة بين مخالف الاستعمار الأوربي الحديث.

- لا يخفى تأثير عامل توفر الأمن والطمأنينة على الناحية الاجتماعية والاقتصادية ؛ فقد انعكس هذا مباشرة - كما رأينا - على تزايد أعداد السكان وتضاعف أنشطتهم الاقتصادية سواء بتعمير الريف والقرى ، أو بازدهار التجارة ، خاصة بالنسبة لمدينة حلب التي تحول موقعها إلى المركز بعد أن كانت مدينة تخوم.

- إن ما قيل وكتب عن علاقة الدولة العثمانية بأهل الذمة كثيرا ما جانب الحقيقة والصواب ، فالوثائق العثمانية تشير بوضوح إلى أن الدولة العثمانية قد عاملت أهل الذمة معاملة جيدة ، ونتيجة لذلك مارست حرياتهم الدينية بأريحية إلى أبعد مدى ، ولا أدل على ذلك من الأحكام السلطانية الصادرة لصالح هؤلاء بدء بالحكم السلطاني الذي أصدره السلطان سليم الأول عقب دخوله بلاد الشام لنصارى القدس الشريف ، كما أبقى على سلطة أمير الجبل شيخ الدروز فخر الدين المعني في منصبه ، وتقلد الكردي جان بولاد الحكم في حلب مدة من الزمن ، في حين حافظ آل عساف التركمان على السلطة في منطقة كسروان ، كما حافظ شيوخ وزعماء العشائر البدوية في بلاد الشام على نفوذهم وسلطتهم في مناطقهم ، بل وأن الدولة العثمانية أسندت لبعضهم مناصب المسؤولية مثل تولي إمارة ركب الحج الشامي كما فعلت مع الأمير قانصوه الغزاوي ، أو الأمير منصور بن الفريخ وغيرهما ، لذلك إذا أردنا أن نقيّم التعايش بين الطوائف ،



فإنه على مستوى الدولة وقوانينها، نستطيع أن نلمس مدى التسامح المعاش بين مختلف الطوائف، لكن على مستوى الأفراد تبقى بعض التصرفات الفردية طبيعية في المجتمع، لكن لا تعكس بالضرورة رأي وسياسة الدولة، ويمكن اعتبار هذه الحوادث الفردية جزء من الحياة اليومية غير المرتبطة لا بالزمان ولا بالمكان.

- ممّا لا شك فيه بأن التواجد العثماني في بلاد الشام قد ساعد في تأكيد الحياة الدينية لسكان المنطقة من خلال تمسكه بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية في مجالات الحياة العامة كما توضحه سجلات المحاكم الشرعية ومختلف القضايا التي كانت تعرض أمام القاضي، كما أنه - من خلال اعتماد المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة - استطاع أن يعيد للمذهب الحنفي السني مكانته بين المذاهب الأخرى، فكان قاضي القضاة حنفياً وكذلك كان المفتي الحنفي هو الذي يتقدم زملاءه من المذاهب الأخرى.

- عرفت بلاد الشام مطلع العهد العثماني تزايداً في عدد القرى والمزارع، ومثل ذلك في عدد السكان ولا شك بأن العامل الأساسي في ذلك هو ما وفّره السلطة الجديدة من أمن واستقرار للمنطقة ومن تواجد وحضور دائم للإدارة العثمانية في أرجاء البلاد بدليل تمكن موظفيها من الوصول إلى كل المزارع والقرى وإجراء إحصاء شامل لمقدّراتها ولسكانها.

- إن تواجد الفرسان السباهية في القرى والأرياف ليس الغرض منه الضغط على الفلاحين وجباية الضرائب فقط إنما كان الهدف الأساسي هو تحفيز الفلاحين للعمل بالزراعة بما وفّره لهم من بيئة مناسبة كتوفير الأمن والاهتمام بشؤونهم بواسطة الحضور الدائم لهؤلاء السباهيين، ولعل حاجة الدولة الماسة إلى القمح من أجل توفير الغذاء للسكان ولتموين عساكرها، وإلى الشعير من أجل توفير الأعلاف لدواب العسكر وتأمين قافلة الحج الشامي وللجردة التي تستقبلها، إضافة إلى أن الحبوب تُرسل أحياناً كثيرة لسكان مكة المكرمة والمدينة المنورة، هو السبب في هذا الحرص.

- لم يرهق العثمانيون سكان بلاد الشام بالضرائب الباهظة إلا بما كان يقرره القضاة ومحرورو الدفاتر، فقد كان التشريع الضريبي العثماني يقوم على (أساس الكسب)، وبالتالي فلم يكن الجباة يسعون إلى إرهاب الطوائف المنتجة من الفلاحين والتجار بالضرائب أو المغارم، أما طريقة جباية الدولة العثمانية لحصتها فكانت من حاصل المحاصيل سواء الشتوية أو الصيفية وتتم إما بالمقاسمة أو الديموس، وهاتان الطريقتان كانتا شائعتين في قرى بلاد الشام منذ أيام المماليك وأقرهما العثمانيون فيما بعد أي أن السلطة الجديدة لم تحدث تغييراً في جباية الضرائب، بل تركت ما كان عهد السكان من قبل.

لذلك فإن الإجحاف الضريبي الذي ألصق بعملية الجباية لم يكن بالصورة القاتمة التي صُوِّرَ بها، فبمقياس ذلك العصر كان النظام الضريبي العثماني - بما فيه المطبق في بلاد الشام - متوازناً وهذا بشهادة المستشرقين أنفسهم على غرار هاملتون جب و هارولد بوون، فلم يكن من حق أي موظف إقرار نوع من

الضرائب خارج ما يقرّره القاضي الشرعي الذي يشرف على عمليات التحرير والإحصاء، أما ما صاحب عمل الملتزمين إنما جاء بعد الضعف الذي وصلت إليه الدولة خلال القرن الثامن عشر وما بعده، ولم يكن مقتصرًا على منطقة بعينها بقدر ما كان ظاهرة عامة عانت منها كافة أرجاء الدولة دون استثناء.

- إن أيّ دولة تضم إلى أراضيها أجزاء واسعة أخرى من الأرض لا شك بأنها تعمل على تغيير النمط الزراعي لها بما يخدم أهدافها، وهو ما لم يحدث في الحقبة العثمانية، وكذلك الحال في مجال اللغة حاولت السلطة الجديدة عادةً فرض لغتها على المجتمع، وهو ما لم يحدث بالنسبة للدولة العثمانية التي اكتفت بتوظيف مترجمين يعملون مع الموظفين الذين تعيّنهم في إيالات بلاد الشام، بل أن المراسلات الرسمية للدولة العثمانية تضيف في أدبياتها صفة (شريف) عندما يتعلق الأمر بالقدس أو الشام، فنجدها تورد عبارة: قدس شريف و شام شريف .

- الدارس للحياة الاجتماعية في بلاد الشام يخرج بانطباع عام بأن المجتمع كان يزخر بالنشاطات الاجتماعية المتنوعة فكانت الحياة تدبّ في الأسواق، والمساجد، والبيماريستانات، والزوايا، والربط، والخانات، ودكاكين الحرفيين، والمدارس، والكتاتيب .

- عاش المجتمع الشامي حالة من التعايش المشترك بين أبنائه من مختلف الطوائف الدينية مما يعكس مدى الترابط الاجتماعي على مستوى الأسرة والمجتمع والطائفة في آن واحد، وهذا بعكس ما يشاع حول الخلافات والفصل بين فئات المجتمع، بدليل لجوء كلّ هؤلاء وفي كل مجالات الحياة اليومية للتقاضي أمام الحاكم الشرعي القاضي كما أبرزته سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية.

- اهتم العثمانيون باللغة العربية وجعلوها لغة التدريس في المعاهد والمدارس والجوامع، ولم يحاولوا بأي حال من الأحوال تهيمشها أو استبدالها باللغة التركية، فصارت لغة الثقافة والأدب والعلوم، فكتب بها الكتاب وظهرت بها كتب التراجم، كما كان العثمانيون يولون كلاً من القدس ودمشق بهالة من التعظيم والتقديس فكانوا يردفون اسمي المدينتين بكلمة ( شريف) فيقولون: ( قدس شريف)، و(شام شريف).

- إن وجود دولة اسلامية واحدة مترامية الأطراف تحكم معظم أصقاع البلاد العربية والاسلامية هي الدولة العثمانية قد ساعد في تنقل العلماء بين مختلف المناطق والحوضر والايالات مما شكل ظاهرة علمية وتعليمية صحية استفادت منها الحياة الثقافية والفكرية في بلاد الشام وفي البلاد العربية والاسلامية عموماً.

- ساهمت الأوقاف في ازدهار الحياة العلمية من خلال التكفل بالطلبة والمدرسين وانشاء المكتبات، كما ساهمت في ازدهار الحياة الاقتصادية بضمنان مصدر الرزق لفئات اجتماعية كثيرة بطريق مباشر أو غير

مباشر، وفي الحياة الاجتماعية من خلال ما تصرفه المؤسسات الوقفية على الإطعام والإيواء وتوفير الرعاية الصحية في المستشفيات للمرضى والفقراء والمحتاجين، وبما قدمته للمجتمع كخدمات كالأسبلة، والرباطات، والخانات، والحمامات، وغيرها.

- كان لقافلة الحج الشامي المنطلقة من دمشق آثارا سياسية واجتماعية واقتصادية وأكثر من ذلك حضارية على المدينة والمنطقة، أوجدت ترابطا وتماسكا بين الحجاج الوافدين من أقاليم وبلدان مختلفة وسكان دمشق الشام، ساهم في تنمية المصالح المشتركة، وتنوع المناهل الثقافية والعلمية، وأوجدت شعورا بالوحدة بين أبناء العالم الإسلامي في ظل نظام الخلافة العثمانية التي حمل سلطانها لقب "خادم الحرمين الشريفين".

- إنَّ ما وصف بأنه تجاوزات من طرف بعض موظفي ومسؤولي الدولة لا يعدو أن يكون تصرفات فردية بدليل تطرق الأحكام السلطانية لها ومعالجتها في حينها وفق إجراءات ردعية بعد عرضها أمام القضاة الذين تمتعوا إلى حد كبير بالاستقلالية التي أقرتها لهم السلطة المركزية.

- إن إعجاب الرحالة الأجانب والأوروبيين بالخصوص والذي وصل أحيانا إلى حدّ الإنبهار بما وجدوه في البلاد العثمانية بما فيها بلاد الشام لا شك بأنّ مبعثه هو المقارنة بين ما كانوا يعيشونه في بلدانهم الأصلية، التي يمكن الاستنتاج بأنها لم تكن تصل المستويات التي وجدوها في الفضاء العثماني: سواء في مجال الطب، أو المستوى المعيشي الغذائي، أو النظافة، والمستشفيات، وبالخصوص الأمن في المراكز الحضرية، بينما الريف كانت تحكمه تقلبات زعماء العشائر البدوية الذين كانوا في غالب الأحيان يعتمدون أسلوب التمرد طريقة للفت انتباه السلطة إلى أوضاعهم الصعبة، ومن ثم كانت هي الأخرى تتغاضى عن سلوكياتهم إلا إذا أظهروا مستوى من الضرر والخطر.

إنّ هذا العمل المتواضع الذي حاولنا من خلاله الاستفادة مما توافر لدينا من مصادر معرفية، وهذه النتائج التي تم التوصل إليها، لا تعدو أن تكون سوى مساهمة بسيطة هدفها لفت انتباه المهتمين بالموضوع إلى ضرورة إعادة قراءة ما كُتب بهذا الشأن وفق ظروف ومعطيات سابقة، ومقارنتها بما استجدّ من وثائق وأطروحات لم تكن متوفرة في حينها.

نوصي في الأخير بتشجيع الدراسات والأطروحات المتخصصة في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لتاريخنا وكتابته بمنهج علمي وموضوعي وفق المادة المصدرية الأصلية بعيدا عن تحليلات المستشرقين أو الحاملين للنظرة الإيديولوجية الغربية التي لا ترى في تاريخنا إلا بما يخدم ويكمل المركزية الأوروبية الغربية.

ونحسبُ أن يكون عملنا المتواضع يسيرُ في هذا الاتجاه بهدف فتح الطريق لجهود أكبر يأتي في المستقبل من كل باحث عن الحقيقة العلمية والواقع التاريخي، متّصفاً بالموضوعية؛ بعيداً عن الأغراض التي لا تخدم القيم المعرفية النبيلة.

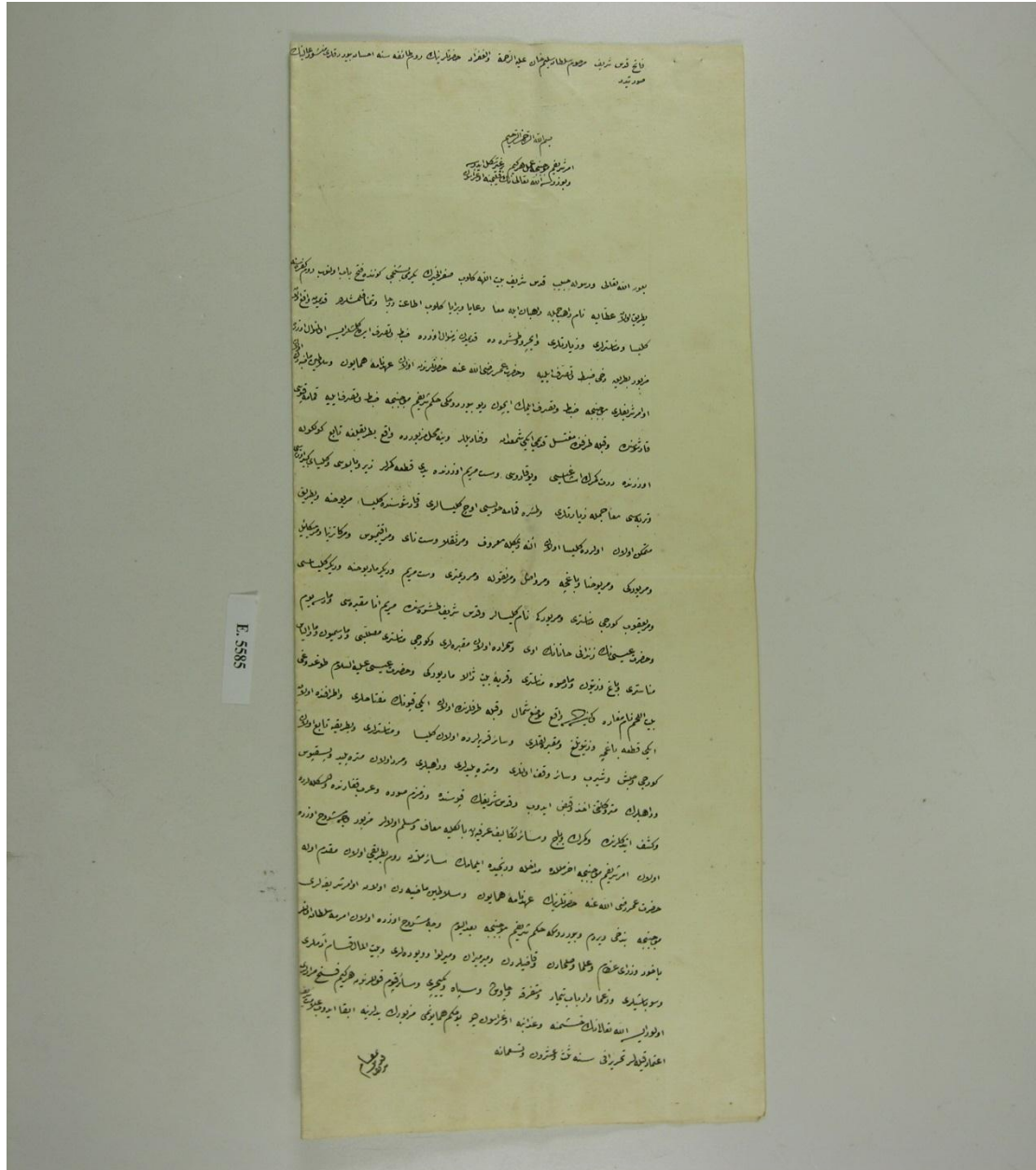
الملاحق

ملحق رقم 1:

- الفرمان الذي منحه السلطان سليم لزعماء النصارى بالقدس سنة 1517م

الفرمان السامي الذي منحه فاتح القدس الشريف المرحوم والمغفور له السلطان سليم عليه الرحمة

والغفران لطائفة الروم:



باسم الله الرحمن الرحيم

يُعمل به بموجب أمري الشريف وكل من يقوم بتغييره والإخلال به أنزل الله عقابه عليه.

بعون الله تعالى ورسوله الحبيب جئنا إلى القدس الشريف / بيت الله ، وتم فتح بابها في اليوم الخامس

والعشرين من شهر صفر الخير، وجاء بطيريك الروم الراهب عطا الله مع جملة من الرهبان إلى جانب الرعايا

والبرايا معلنين الطاعة وهم يناشدون أن يقوم البطريك المذكور بإدارة كنائسهم وأديرتهم ومزاراتهم في الداخل والخارج، والتصرف بها على نفس الطريقة التي كان يتم بها إدارتها والتصرف بها منذ القدم، ولهذا أمرت بموجب حكمي الشريف أن يقوم البطريك المذكور بإدارة كل ما يلي والتصرف به وفق العهدة التي منحها الخليفة عمر رضي الله عنه والأوامر الشريفة للسلطين السابقين: المغتسل القديم الكائن قبالة باب القمامة، والطرف القبلي، الشمعدانان والقناديل والجزء السفلي والعلوي من الأقواس الأربعة الكائنة في نفس المكان، والجزء السفلي والعلوي من الأقواس السبعة الواقعة على قبر الست مريم ووسط الكنيسة الكبيرة وقبرها معا، وجميع مزاراتها وكنائسهم الثلاثة الكائنة حول القمامة، وكنيسة مار يوحنا الكائنة أمامها، والكنيسة المعروفة بـ "ألينه" والكائنة في الدور التي يسكن فيها البطريك والكنائس المعروفة بـ "مار نقلا، والست ناي، ومار آقتموس، ومار كاترينا، ومار ميكائيل، ومار يوركي، ومار يوحنا، والحديقة، ومار واصل، ومار نيقوله، ومار ديميتري، والست مريم، ومار يوحنا الأخرى وكنيستها الأخرى، ودير مار يعقوب الجورجي، والكنائس المعروفة بمار يوركي، وقبر الست مريم الكائن خارج القدس الشريف، ومارسه يوم(؟)، وسجن النبي عيسى منزل حانا ومقابرهم الكائنة في الصحراء، ومصلبة دير الجورجيين، ودير مار سيمون، ومار إلياس، والكرم والزيتون، ودير مار صوه، ومار يوركي في بيت جالا، ومغارة بيت لحم التي ولد فيها النبي عيسى، والموضع الواقع في الكنيسة ومفاتيح البابين الكائنين في الجهة الشمالية والقبلية، والحديقتان وبستان الزيتون الكائنة في أرجاء الكنيسة ومقابرهما، وكنائسهم وأديرتهم الواقعة في القرى الأخرى، والأوقاف الجورجية والحبشية والسربية التابعة للبطريك، ومخلفات من مات من الأساقفة والرهبان، وإعفاؤهم بالكامل من الضرائب والرسوم الكمركية والتكاليف الأخرى في باب القدس و(ماء زمزم) وبادية العرب والمرافئ وما يكشفون عنه، وعدم التدخل في شؤونهم من قبل الطوائف الأخرى، أو الاعتداء عليهم، ويكون بطريك الروم مقدما عليهم، وأمرت أيضا، وبموجب عهدة الخليفة عمر رضي الله عنه والأوامر الشريفة الصادرة من السلطين السابقين:

أن يتم التقيد بأمرى بالوجه المشروح من قبل السلطين والوزراء العظام والعلماء والصلحاء والقضاة وأمراء الأمراء، وأمراء الألوية والويوه دات، وقسامي بيت المال والصوباشية والزعماء وأرباب التيمار والمتفرقة والجاويشية والسباهية والإنكشارية وسائر جنودي، وكل من يقوم بالإخلال به يتعرض إلى غضب الله وعذاب الله تعالى، وأن يبقى حكمي السلطاني هذا عند المذكور، وتُعتمد العلامة الشريفة.

تحريرا في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، بمقام القدس الشريف.

**Topkapi sarayi Arsivi E5585, D7016.**

البلاد العربية في الوثائق العثمانية: النصف الأول من القرن 10هـ/16م، المجلد الأول، إعداد وترجمة ودراسة فاضل بيات، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسىكا) اسطنبول 2010، ص ص 64 - 66 .

## ملحق رقم 2:

-حجة شرعية من محكمة القدس الشرعية العثمانية ( تولية شيخ طائفة حرفية في القدس )  
 بالمجلس الشرعي المحرر المرعي أجله الله تعالى ، لدى سيدنا ومولانا افتخار قضاة الإسلام ، ذخر ولاية  
 الأنام ، محرر الأحكام بالإحكام ، عمدة العلماء الأعلام ، الحاكم الشرعي : المولى أحمد أفندي بن محمد ،  
 الموقع خطه الكريم بأعالي نظيره دامت فضائله ومعاليه ، حضر كل واحد من : خليل ورجب أولاد  
 مرزوق ، وخالد بن صالح ، وسركيس ولد تايه ، واسكندر ولد أصلان ، وهم من طائفة المبيضين والنحاسين  
 بالقدس الشريف ، وطلبوا من مولانا الحاكم الشرعي أن ينصب الحاج موسى بن الشيخ عبد الرؤوف  
 المصري المبيض شيخا عليهم ومتكلما ليساوي بينهم في صنعتهم ، واستخار الله تعالى مولانا الحاكم  
 الشرعي ، ونصب الحاج موسى المرقوم شيخا ومتكلما على طائفة المبيضين والنحاسين بالقدس الشريف  
 ليساوي بينهم في صنعتهم على حسب العوايد القديمة ، وأذن له بذلك نصبا وأذنا صحيحين شرعيين مقبولين  
 من الحاج موسى المزبور لنفسه قبولا شرعيا.

تحريرا في سابع شهر ربيع الثاني لسنة اثنتين وثمانين وألف.

شهود: الشيخ زكريا ، الشيخ نور الدين ، الشيخ فتح الله ، الشيخ علي ، الشيخ موسى ، محمد جلبي  
 الترجمان ، كاتبه.

الحجة رقم 3 ، سجل محكمة القدس الشرعية رقم 173 ، ج 1 ، ص 418.



ملحق رقم 3:

قانوننامه لواء القدس الشريف:

الحمد لله رب العالمين والصلوة على نبيه محمد وآله أجمعين  
أما بعد فقد كتب هذا الدفتري بأمر السلطان الأعظم  
سلطان المعظم السلطان ابن السلطان  
السلطان محمد خان ابن السلطان وخلفه  
خلافته الخاقاني الورق بامانة اعلينته  
الملك المثنى حسن بن سنان متفرقه زمره  
وكاتب دفتري خاقاني وكتاتبة أحمد بن  
درويش محمد عن كاتبان زمره مزبوره  
وقع التسليم بدفتري خاقانه  
عامر عمره الله تعالى  
في يوم الأخره  
خمس وألف

الحمد لله رب العالمين والصلوة على نبيه محمد وآله أجمعين

أما بعد فقد كتب هذا الدفتري بأمر السلطان الأعظم

والخاقان المعظم السلطان ابن السلطان

السلطان محمد خان ابن الله سلطنته وخلفه

خلافته إلى غاية الدوران بامانة أضعف عباد الله

الملك المثنى حسن بن سنان متفرقه زمره دركاه عالي

وكاتب دفتري خاقاني وكتاتبة أحمد بن

درويش محمد عن كاتبان زمره مزبوره

وقع التسليم بدفتري خاقانه

عامر عمره الله تعالى

إلى يوم الأخره

في سنة

خمس وألف

## قانون الصلاة والاعتكاف

لواء من يورده اولاد قرانك هتعلري بوي بوبينه مخالف  
اولمغين هر خريه نك هتعلري و زو لوند قدا و لغشدر و لواء  
من يورده واقع اولاد زيتون دومان نك نصف محصون  
قدا و يتما ايلدو كي مقابله نصف ايدوب و نصف اخر يريضا  
ارض مضر ايد و زيتون اسلامونك اكي اناجند بوعثماني  
و مخر حوزا اناجندك تمام يقيشه مشي اولانده اكي عثماني و كوچك  
بوعثماني و خرما اناجندك هر يره اكي عثماني و نوت و اخير قدا  
هر دور اناجند بوعثماني و سا يورده اكي مختلفه نك هر يره  
اغا جند بوعثماني و بلخ جيو قلوبك هر يورده و النده اود  
اچنه خراج و يرك قدا اولوب لكي د فتر عتيقه بعضي  
و يورده يرك صكه و ن باغ و نصيب اولما اناجند هتعلري اخرج  
اولمغوب قدا يرك هتم و يركه كلاري اوزره د فتر عتيقه  
د جسدن قسم و اظفيع بوعمله عقالد فتر عتيقه قنصه  
ينه د فتر جديده محله هتم و اظفيع و قدس و قدس و قدس  
و خليل التجمان ناحيه لوند اولان كرم و ماله هر دور و اكي كل حيله  
ميتل اولمغين هر يره و اليه تعاد لا بوعثماني خراج قدا  
اولنوب و جماله مختصلا بوعش و مقيدا اولان عقالد قدا  
عس جماله مختصلا و خراج و عس مال الوقف عس النور و قدا يرك

برر قايتماي التوني النور و زكي اولان رسملرينه مقر النور و صلت  
و عجلون و غم و رماله جانلرند كلن كرم و يركي بيش لجه النور  
اقايو قاروده زكي اولان رسوم النور و قدس شريف و خليل التجمان  
عليه الصلوة و السلام جانلرند كلن كرم و ن و ورده اچنه  
النور و عيد نضاد و زيارنه كلن كرم و ن اوج يورده بر لجه النور  
و شاملا كلن نرك تاجر لوند اكي شريعت النور و زكي اولان  
رسملرينه مقر النور و كور و حيدل و حيدل كلن كرم و ن نسبه  
النور و هر هفتة نرك طايغه سنال زيارنه كلن لوند يور  
اچنه النور يورده فتر عتيقه مقيدا اولما غاي د فتر جديده خانا  
د اچي قدا اولنوب

## قانون نامه ء لواء قدس شريف

١. لواء مزبوره اولان قرانك قسملري بري برينه مخالف اولمغن هر قريه نك قسمي اوزرلرنده قيد اولنمشدر.
٢. لواء مزبوره واقع اولان زيتون روماني نك نصف محصولني فلاح تيمار ايلدوكي متقابله ده تصرف ايدوب نصف آخرين صاحب ارض تصرف ايدر.
٣. زيتون اسلامي نك اكي آغاچنه بر عثماني ومشر جوز آغاچنك تمام ينشمش اولاننه اكي عثمانى وكوچكلرينه بر عثمانى وخرما آغاچنك هر برنه اكي عثمانى وتوت وانجير آغاچلرينك هر دورد آغاچنه بر عثمانى وساير فواكه مختلفه نك هر بش آغاچنه بر عثمانى وياغ چيوقلرينك هر يوز دواننه اون آقچه خراج ويرنك قيد اولنوب. لكن دفتر عتيقه بعض قسم ويورر برلره صكره دون باغلر نصب اولنماغاله قسمدن اخراج اولنمويوب قديمين قسم ويوره كلدوكلري اوزره دفتر عتيقه ديسدن قسم يازلمغن يو متوله محللر دفتر عتيق مقتضاسنجه ينه دفتر جديده محللده قسم يازلمشدر.
٤. وقديس شريف و خليل الرحمان ناحيه لرنده اولان كرومك هر دوالى كللى حاصله متحمل اولمغن هر اون دواليه تعداداً بر عثمانى خراج قيد اولنوب وجمله ء متحصل ديو مشر مشيد اولان محللر، غلالدن عن جملة ء متحصل وخراجدن عن مال الوقف عشر آلنور. وقديمين خراج ويوره كلمويوب قسم ويوره كلدوكلري محللدن كه صكره كرم نصب اولنمش اولوب ودفترده داخي عادت قديمه لرى اوزره قسم قيد اولنوب خراج

## قانون نامه لواء القدس الشريف

١. نظراً لتباين قسم الدولة (حصتها) من قرية إلى قرية في اللواء المزبور، فقد قيد قسم كل قرية في مطلع ذكرها.
٢. يتصرف الفلاح بنصف الزيتون الروماني الواقع في اللواء المزبور لقاء عناية به، ويتصرف صاحب الأرض (صاحب التيمار) بالنصف الآخر.
٣. ويجبى عن كل شجرتي زيتون إسلامي عثمانية واحدة، وعن كل شجرة جوز مثمرة ومكتملة النمو عثمانيتان وعن الشجرة الصغيرة عثمانية واحدة، وعن كل شجرة نخل عثمانيتان، وعن كل أربع شجرات من التوت أو التين عثمانية واحدة، وعن كل خمس أشجار من أشجار الفواكه المختلفة عثمانية واحدة، وعن كل مائة دالية عشر عثمانيات، وقد تم قيد كل ذلك ولكن الأماكن التي كانت تدفع الخراج وفق دفتر القديم والتي غرست فيها الكروم، لم يتم إخراجها عن نظام التسمية، وتم تدوينها في دفتر القديم قسماً من الدبس وفق ما كان يتم اعتباره قسماً في السابق. وهذا النوع من الأماكن سجل بموجب دفتر العتيق القسم في محله في دفتر الجديد.
٤. تم تسجيل خراج بمقدار عثمانى واحد مقابل كل عشرة دوالي في الكروم الواقعة في نواحي القدس الشريف و خليل الرحمن على أن يكون الدوالي حاملاً للمحصول بشكل كامل.
- وفي الأماكن المسجلة (عشراً) (الخاضعة للعشر) يتم استثناء العشر من الغلال المنتج ومن الخراج وذلك عن مال الوقف.

٢٦. ذكر اولان رسوم ديار افرنجندن زيارته كلن كفرة دن آنور.
٢٧. ورومدن كلندن اوچر قايتباي آنوني آنور ورسم قلعه ديو اليشتر آقچه، ورسم آخر ديو قرق بشر آقچه آنور وشرقدن كلندن داخي كذلك آنور.
٢٨. وديار حلبين وشامندن كلندن اكيشر قايتباي التوني آنور واليشتر آقچه رسم قلعه وقرق بشر آقچه رسم آخر ديو آنور ومصدرن كلندن برر قايتباي التوني آنور وذكر اولان رسملر ينه مقرر آنور.
٢٩. وصلت وعجلون وغزه ورملة جانيلرندن كلن كفرة دن يكرمي بشر آقچه آنور. اما يوقاروده ذكر اولان رسوم آنمز. وقديس شريف وخليل الرحمان عليه الصلوة والسلام جانيلرندن كلن كفرة دن دودر آقچه آنور.
٣٠. وعيد نصاراده زيارته كلن كفرة دن اوج برده برر آقچه آنور وشامندن كلن فرنك تاجر لرندين اكيشر يچق التون آنور. وذكر اولان رسملر ينه مقرر آنور. وكورچين وجبشدين كلن كفرة دن نسنه آنمز. وهر هفته فرنك طايغه سندن زيارته كلنلردن برر آقچه آنور، ديو دفتر عتيقه متيد اولماغن، دفتر جديد خاقانيه داخي قيد اولندي.
٣١. ايضاً. وهذه الرسوم المذكورة تؤخذ من الكفرة الذين يأتون للزيارة من ديار الافرنج. وتؤخذ ٢ قطع من ذهب قايتباي من كل رومي قادم للزيارة، وتؤخذ منه كذلك ٥٠ آقچه كرسم قلعة، و٤٥ آقچه كرسم آخر، مثل ذلك يؤخذ من كل قادم من الشرق (النصارى).
٣٢. وتؤخذ قطعتان من ذهب قايتباي من كل من يأتي (للزيارة) من ديار حلب والشام، وتؤخذ منه كذلك كرسم قلعة ٥٠ آقچه و٤٥ آقچه رسماً آخر، وتؤخذ قطعة واحدة من ذهب قايتباي من كل (نصراني) قادم (للزيارة) من مصر، والرسوم المذكورة أعلاه (٤٥٠٠) مقرر عليها أيضاً.
٣٣. وتؤخذ ٢٥ آقچه من كل نصراني قادم من أرجاء الصلوة وعجلون والرملة (بصدد الزيارة)، وأما الرسوم المذكورة أعلاه فلا تؤخذ منهم، وتؤخذ ٤ آقجات من كل نصراني قادم من أرجاء القدس الشريف وخليل الرحمن عليه الصلاة والسلام (بصدد الزيارة).
٣٤. تؤخذ آقچه واحدة من كل نصراني يأتي للزيارة في عيد النصارى في كل مكان من الأماكن الثلاثة، ومن كل تاجر إفرنجي قادم من الشام تؤخذ ذهبيتان ونصف، وتكون الرسوم المذكورة (٤٥٠٠) مقرر عليها أيضاً. ولا يؤخذ شيء من النصارى القادمين (للزيارة) من جورجيا والحيشة، وتؤخذ آقچه واحدة أسبوعياً من كل قادم من طائفة الفرنجة بتصدد الزيارة. ومثلما دون (كل ذلك) في دفتر العتيق، تم تدوينه أيضاً في دفتر الخاقاني الجديد.



## حكم الى بكربكي حلب وقاضيه:

أنت بكونك قاضيا أرسلت رسالة تبلغ فيها بأنه سبق أن ورد أمر شريف يقضي ألا يكون في بلادي المحروسة وضع مخالف للشرع الشريف، وإزالة الخمارات والبوزه خانات والمقاهي التي أصبحت مجمع الفاسقين وكل ما هو مغاير للشرع الشريف. فتم منعها بموجب الأمر الشريف، لكن المقاهي ما زالت لا تخلو ليلا ونهارا كما كانت في السابق من اللهو والطرب والأوضاع المنكرة من المرد، ولهذا فقد أمرت: عند وصول حكمي الشريف أن تقوم بإزالة المقاهي بشكل قطعي ودون تأخير أو إهمال، وتحول بعد اليوم دون حدوث وضع مخالف للشرع الشريف، وتكتب أسماء مسببي الوضع المخالف للأمر الشريف وتعرضها.

في 2 ذي القعدة سنة 972هـ / 1 جويلية 1565م.

مهمة دفترى 6، ص 560، الحكم 1218، نقلا عن فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ج 1، ص 280.



## ملحق رقم 5 : استتجار طيب:

بالمجلس الشرعي المحرر المرعي أجّلّه الله تعالى ، نصب مولانا وسيدنا فخر المدرسين الكرام ، عمدة المحققين الفخام حلال مشكلات الأنام ، سلالة الموالي العظام الحاكم الشرعي المولى أحمد أفندي بن مصطفى أفندي القسم الموقع خطه بأعالي نظيره دام أعلاه ، استأجر الرجل المدعو سليمان بن رباح من أهالي قرية طولكرم الكائنة بجبل نابلس الوالي الشرعي على ولده موسى القاصر عن درجة البلوغ ، نقولا ولد ياني الجراح النصراني على أن يطبب ولده موسى القاصر المرقوم ويداويه من داء الفتاق الكائن به ويعالجه بمعرفته ويصنع له أدوية لمرضه الذي فيه بجرة قدرها خمسة عشر غرشا عديدة مقبوضة بيد نقولا المزبور باعترافه بذلك الاعتراف الشرعي وعلى أنه إذا مات موسى المرقوم بسبب معالجة نقولا المزبور ، فيكون ذلك بقضاء الله وقدره ، وليس لسليمان قبل نقولا المرقوم بسبب ذلك حق مطلقا إجارة صحيحة شرعية مقبولة شرعا .

تحريرا في ثامن عشرين ربيع الثاني لسنة اثنين وثمانين وألف.

شهود: الشيخ زكريا ، الشيخ نور الدين ، الشيخ علي ، الشيخ علي ، الشيخ موسى ، محمد جليبي ، كاتبه.

حجة 2 ، مؤرخة في 28 ربيع الثاني 1082 هـ / 01 - 09 - 1671 م ، من سجل محكمة القدس الشرعية العثمانية رقم 173 ، ج 1 ، 476.

**ملحق رقم 6 :**

### تعيين قانصو الغزاوي أميرا لقاقلة الحج الشامي :

۱۷۵

۶۵۵

۱۷۶

۶۵۹

حكم إلى أمير سنجق الكرك قانصوبك :

أرسل بكركي الشام السابق أحمد، دام إقباله، وقاضي الشام ودفتر دار فرع الشام لخزانتى العامرة رسالة إلى سدة سعادتي عرضوا فيها أنهم وجدوك الشخص المناسب لتولي إمارة الحج وفق بعض الشروط، وبناء عليه ؛ أمرت بتعيينك أميراً للحج إلى جانب توليك لواء عجلون وفق تلك الشروط المعهودة، وصدر



أمري جليل القدر للقيام بالنظر في جميع الأمور المتعلقة بقافلة الحج ، وأرسلت أحكام شريفة إلى المشار إليهما في هذا الصدد ، وأمرت :

عند وصوله ، أن تقوم بموجب الأمر الشريف الواجب الانقياد ببذل ما في وسعك للخدمة في إمارة الحج وفق الشروط المعهودة وبالشكل الذي يراه المشار إليهم مناسبا ، وتبذل قصارى جهدك في تنفيذ الأمور المتعلقة بمستلزمات وأمور قافلة الحجاج ، وألا تتوانى في بذل المساعي وإيلاء الاهتمام .

في 21 جمادى الآخرة 979هـ / 10 نوفمبر 1571م

مهمة دفتری 16 ، ص 355 ، تسلسل 628 ، فاضل بیات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، ج 3 ، ص 264.

**إلتماس إعفاء من دفع الضرائب بسبب جائحة الطاعون واستجابة السلطة المركزية :**

(۱۳۷)

[illegible]

### حكم إلى دفتر دار حلب :

قدم المدعو الحاج محمود وهو من حلب عريضة يقول فيها : " قمنا بالتزام قبان الطحين لمدة تزيد على السنتين ببدل سنوي قدره سبعمائة وعشرون ذهما ، وفي السنة الثالثة وقع الطاعون الأكبر وانكسر الجلابون الذين يتاجرون بالطحين ، مما أدى إلى إغلاق القبان ، وقد ترتب علينا خمسمائة ذهب من الدين. وقمنا ببيع بيوتنا وأموالنا وجمعنا مائتي ذهب ولا نملك شيئا حتى ندفع ما تبقي منه " .

وبناء عليه فقد تم إخراج صورة طبق الأصل من العريضة وأرسلت إليك ، وأمرت :

عند وصوله ؛ تقوم بالنظر في صورة العريضة المرسلة إليك والتقضي عن الموضوع من المطلعين على الأمر ، ومن أعيان الولاية للتحقق : هل المقاطعات تضررت بسبب الآفة التي حدثت ؟ أم أنها لم تتضرر بل هم يدعون بذلك ؟ وفي حالة حدوث الضرر هل ورد ما يتعلق بالآفة الطبيعية ضمن التزامهم كشرط ؟ وكيف ؟ وإذا ما ثبت أن تضررهم كان بسبب الآفة التي وقعت ، فإنه سيجري عليهم ظلم إذا ما استرد ما بذمتهم من المال ، فلا تأخذ منهم المال الذي خسروه ، وتكتب حسب وقوعه وعلى وجه الصحة وتبلغ عنه ، وتعمل وفق ما سيصدر مني من أمر.

في 29 محرم سنة 972هـ / 06 - 09 - 1564م

مهمة دفتری 6، ص 55- 56، الحكم 114. نقلا عن : فاضل بیات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة 951هـ / 1544م - 973هـ / 1566م، ج 1، منشورات لجنة تاریخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية - عمان، 2005، ص ص 244 - 245.

1.5

٤٦٣  
طریوس فشنه حاکم و درین شامده احوال و لولاه نزل قبضه قبضه خصوصاً استقامه لولاه کیه بویه  
کیه لولوب و قیلیم کیه سی لفته کو حاکم لدوغی اعلی و اولینی اعلی نه مقوله کیه ایم قضا تده  
الموب و قبر و سده کلامه کیه قیق کیه ایم قیلیم اولندوغی معلوم اولوق لایق اولمق بوز و کده واروق  
ناخیر ایتوب روح استیقه نزل افسینه نزل قبضه اشد کیه بیکور و بیه سنه ف رلیه جا و نما  
و ده استرقاق و قیه ایدون سحر لیلوب بر صورتی سبع به عارته کوندرک بویایع بصیرت و انتباه  
اونز نزل خصوصاً معلوم اولمق استیقه لولاه کیه ده غیر عظمیه اعلیه و بویایه ایم حلیه و اخذ  
اولون و نزلده بلع و کله اولمق نزلده و مفضل و مشر و بار و بیه عارته غنمه اعلیه

## حكم سلطاني إلى قاضي طرابلس :

عَلِمَ أَنَّ الْكِيلَةَ الْمُسْتَعْمَلَةَ فِي مَجَالِ اسْتِلَامِ النَّزْلِ كَبِيرَةٌ، إِلَّا أَنَّ التَّسْلِيمَ يَتِمُّ بِكِيلَةٍ أَصْغَرَ مِنْهَا. وَنَظَرًا لِلْحَاجَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ نَوْعِ الْكِيلَةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا اسْتِلَامُ (النَّزْلِ) مِنَ الْقَضَاةِ وَمَا يَسْلَمُ بِهَا إِلَى السَّفْنِ الْقَادِمَةِ مِنْ قَبْرِصٍ فَقَدْ أَمَرْتُ :

عند وصوله ؛ أن تقوم دون تأخير وعلى وجه الاستعجال بجلب الكيلة من أمين النزل والتي يقوم بالاستلام بها ، وترزنها مع المشار إليه جوشي ، وتسجل وزنها بالأوقية ، وترسل صورة منه إلى سدة سعادتني .

كن على البصيرة والانتباه في هذا الصدد ، وأن تستخدم الكيلة المعمول بها في مجال النزل ، وتحول دون استعمال غيرها ، وتكتب بالشرح والتفصيل مبلغا سدة سعادتني فيما إذا تم الجلب والأخذ بهذه الحجة ، وما أكل وأخفي من النزل ، وكيفية إجراءاته . في 7 ذي الحجة سنة 978هـ / 02 - 05 - 1571م

مهمة دفترني 12 ، ص 221 ، تسلسل 463 ، نقلا عن : فاضل بيات ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ، ج 3 ، ص 181.



بارات على المادة التي لا تتجاوز آقجة واحدة من الرسوم العرفية المتعلقة بالاحتساب ولممارسته مختلف أنواع التعدي، فقد ناشد علماء ولاية الشام وصلحاؤها وفقراؤها وضعفاؤها بعزل المذكور وضبط المقاطعة المذكورة بطريقة الأمانة. كما أُعْلِم عن ظهور كسر على المذكور محمد يبلغ عدة مرات مائة ألف آقجة وذلك عندما كان أميناً بالالتزام في نابلس، وفي الوقت الذي ترتب عليه هذا المقدار من الدين اللازم أدائه وقبل أن يقوم بتسديده قام بطريقة ما بالالتزام بالاحتساب المذكور، ولهذا أمرت:

عند وصوله؛ أن تتقيد في هذا الصدد بالذات، وتقوم بتحصيل ما ترتب على المذكور محمد من الكسر أو المتبقي عليه من المقاطعات القديمة والجديدة، أي ما يظهر عليه من دين يلزم أدائه من المال الميري، وتحصله من ماله ومن كفلائه أو من الأماكن التي يمكن تحصيله، ولا تبق عليه حبة واحدة وتقبضه باسم خزانتي العامرة.

وإذا ثبت وظهر بحسب الشرع الشريف أن المذكور يمارس الظلم والتعدي على المسلمين - كما ذكر - ترسله إلى سدة سعادتي برفقة رجال أكفاء ليتم حبسه مع الأشغال الشاقة، وأن تنبه الأشخاص الذين يرافقونه أن يتقيدوا في الطرق والمنازل بالوجه اللازم ويحتاطوا من فراره على غفلة منهم. عليك بالسعي والاهتمام بالمسألة المذكورة حسب اللازم وبذل أقصى الجهود والمسااعي في سبيل إظهار مالي المترتب في ذمة المذكور.

في 17 ربيع الأول سنة 978هـ / 18 - 08 - 1570م

مهمة دفتری 14، ص 298، تسلسل 427، نقلا عن فاضل بیات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 3، ص ص 80 - 81.



## ملحق رقم 10:

## صورة من دفتر طابو لسكان القدس ومحلاتها دفتر رقم 289

| [ناحية ء قدس شريف] |                  |                    |                   |                  |
|--------------------|------------------|--------------------|-------------------|------------------|
| ١. محله ء شرف      | ٢. محله ء باب    | ٣. محله ء باب      | ٤. محله ء باب     | ٥. نفس قدس شريف  |
| ٦. نفس قدس شريف    | ٧. محله ء        | ٨. محله ء عقبة     | ٩. محله ء         | ١٠. القناتين     |
| ١١. دير زيتون      | ١٢. دير الدرياس  | ١٣. جماعت ملكية ء  | ١٤. جماعت ملكية ء | ١٥. مغاربة       |
| ١٦. جماعت نصارى    | ١٧. عن قرية ء    | ١٨. بيت جالاك      | ١٩. قديم كة قدس   | ٢٠. قدس شريف ده  |
| ٢١. متفكرادر       | ٢٢. متفكرادر     | ٢٣. دير صهيون      | ٢٤. دير لحم       | ٢٥. دير مصلبة    |
| ٢٦. جماعت          | ٢٧. جماعت محله   | ٢٨. جماعت          | ٢٩. محصولان       | ٣٠. قرية ء برق   |
| ٣١. قرية ء         | ٣٢. قرية ء علال  | ٣٣. قرية ء         | ٣٤. قرية ء        | ٣٥. قرية ء       |
| ٣٦. قرية ء         | ٣٧. قرية ء       | ٣٨. قرية ء         | ٣٩. قرية ء        | ٤٠. قرية ء       |
| ٤١. قرية ء بيت     | ٤٢. قرية ء قبيبة | ٤٣. قرية ء كفر     | ٤٤. قرية ء سامية  | ٤٥. قرية ء زانوع |
| ٤٦. قرية ء نجده    | ٤٧. قرية ء بيت   | ٤٨. قرية ء عين توت | ٤٩. قرية ء        | ٥٠. قرية ء       |
| ٥١. قرية ء         | ٥٢. قرية ء       | ٥٣. قرية ء         | ٥٤. قرية ء        | ٥٥. قرية ء       |
| ٥٦. قرية ء         | ٥٧. قرية ء       | ٥٨. قرية ء         | ٥٩. قرية ء        | ٦٠. قرية ء       |
| ٦١. قرية ء         | ٦٢. قرية ء       | ٦٣. قرية ء         | ٦٤. قرية ء        | ٦٥. قرية ء       |
| ٦٦. قرية ء         | ٦٧. قرية ء       | ٦٨. قرية ء         | ٦٩. قرية ء        | ٧٠. قرية ء       |
| ٧١. قرية ء         | ٧٢. قرية ء       | ٧٣. قرية ء         | ٧٤. قرية ء        | ٧٥. قرية ء       |
| ٧٦. قرية ء         | ٧٧. قرية ء       | ٧٨. قرية ء         | ٧٩. قرية ء        | ٨٠. قرية ء       |
| ٨١. قرية ء         | ٨٢. قرية ء       | ٨٣. قرية ء         | ٨٤. قرية ء        | ٨٥. قرية ء       |
| ٨٦. قرية ء         | ٨٧. قرية ء       | ٨٨. قرية ء         | ٨٩. قرية ء        | ٩٠. قرية ء       |
| ٩١. قرية ء         | ٩٢. قرية ء       | ٩٣. قرية ء         | ٩٤. قرية ء        | ٩٥. قرية ء       |
| ٩٦. قرية ء         | ٩٧. قرية ء       | ٩٨. قرية ء         | ٩٩. قرية ء        | ١٠٠. قرية ء      |

صورة من دفتر طابو 289 إس توضح محلات مدينة القدس في القرن 10 هـ / 16 م والقرى التابعة لها . دفتر تحرير لواء القدس الشريف (T.D.289 Is) لسنة 961 هـ / 1533 - 1534 م، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2010، ص 181





|    |                                      |    |                                           |    |                                                                                                          |
|----|--------------------------------------|----|-------------------------------------------|----|----------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٨ | رسم احتساب قدس شريف                  | ١٩ | رسم قصابان در نفس قدس شريف                | ٢٠ | [أ] يرباد بيت المال في سنة ٢٠٠٠ [أقبة]                                                                   |
| ٢١ | رسم بازار سب والذواب [رسم بازار سوق] | ٢٢ | عادت اغنام ناحيه قدس شريف و خليل الرحمن ع | ٢٣ | بادهوا [أقبة] ٢٠٠٠                                                                                       |
| ٢٢ | الخيول والدواب [أقبة] ٨٠٠ في سنة     | ٢٣ | عادت اغنام ناحيه قدس شريف و خليل الرحمن ع | ٢٤ | رسم دار القمامه در نفس قدس شريف [رسم دار القمامة (كنيسة القيامة) في نفس القدس الشريف] ٤٠٠٠ [أقبة] في سنة |

(٢١) عند الرجوع إلى قانون نامة لواء القدس الشريف، نجد أن الرسم السامية عن كل خروفين أو رأسين من المعاصر تكون أقبة / علمانية واحدة، ويعمل الخروف الصغير عند التحاقه بالقطيع معاملة الخروف، ومثل ذلك الجدي يعامل معاملة رأس المعاصر عند التحاقه بالقطيع، وأسس المعاصر انظر: قانون لواء الشام، قلم ٧٤. انظر: Ahmed Akgündüz, Osmanlı Kanunnameleri, vol. vii, p. 24, 53.

صورة من الضرائب المفروضة على أهل الذمة (الجزية) من النصارى واليهود في مدينة القدس من دفتر طابو رقم 427. لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف من دفتر تحرير (T.D427)، لسنة دراسة وترجمة محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي - لندن، عمان 2005، ص ص 173 - 174.

**ملحق رقم 12:**

حرصت الدولة العثمانية أن تجعل القاضي بعيدا عن أية ضغوط قد يمارسها حكام الإيالات أو السناجق، وضمان استقلالية القضاء.

الوثيقة: حكم سلطاني يتعلق بموضوع استقلالية القضاء:

*(Faint handwritten notes at the bottom of the page)*

*Osmanlı Belgelerinde Arap Vilayetleri*  
*Hicri X/Miladi XVI. Yüzyılın Ortaları*  
 (İstanbul: IRCICA, 2011)

Belge 56 الوثيقة

البلاد العربية في الوثائق العثمانية  
أواسط القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي  
(إستانبول: إرسیکا، ٢٠١١)

حکم الی بکلریکی حلب :

سبق أن صدر أمري بأن لا يلحق البكلربكيون قاضيا آخر بقاضي الأرض وألا يرسلوا جنودا إلى خارج ألويتهم وألا يقوم القضاة بالنظر في الدعاوى خارج أفضيتهم بأمر مكتوب من البكلربكيين وأمراء السناجق وذلك في حالة عدم تسلّمهم حُكما شريفا من سدة سعادتني.

وعرض قاضي عسكري على عتبتي السلطانية أنّ قيام القضاة بالاستماع إلى الدعاوى في مكان خارج نطاق أفضيتهم بأمر مكتوب من قبلك هو أمر يتعارض مع أمري الشريف ، ولهذا فإن أحكامهم تكون غير نافذة شرعا وغير شرعية ، وعليه فقد أمرت أن يتضمن برات القضاة في بلادي المحروسة الأمر المذكور، وأمرت :

أن تقوم بعد اليوم بمراعاة أمري الجليل القدر هذا ، وألا تلحق بعد اليوم قاضيا آخر بقاضي الأرض ، وألا ترسل جنودا وأمرا مكتوبا تتعلق بالدعاوى في السناجق التابعة للولايات الأخرى ، وألا تجيز في أي وقت من الأوقات ما يتعارض مع فرماني رفيع الشأن هذا ، وتكتب عن اليوم الذي وصلك حکمي الشريف هذا وتعرضه ، وتحفظ الحكم في صناديق الدفاتر لتعمل دائما وفق مضمونه السلطاني . في 2 رجب 959 هـ 24 جوان 1552 م.

مهمة دفترى طوب قابي 888 ص 285 ب. نقلا عن فاضل بيات ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ، م 2، ص ص 187 - 188.



غيرها، وكم من الأشخاص تم استرداد حقوقهم تكتبونها بالشرح والتفصيل وتعرضونها . في 16 ربيع  
الآخر سنة 967هـ/14 جانفي 1560م .  
مهمة دفتری 3، ص 244، الحكم: 701. نقلا عن: فاضل بیات، بلاد الشام في الأحكام  
السلطانية، ج 1، ص 185.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة الببليوغرافيا :

أولا - الوثائق العثمانية المنشورة:

أ - الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة العثمانية:

1 - بيات، فاضل، (إعداد وترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (951هـ/ 1544م - 973هـ/ 1566م)، الجزء الأول، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 2005.

2 - بيات، فاضل، (إعداد وترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (975هـ/ 1567م - 977هـ/ 1570م)، الجزء الثاني، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام/ 34، الجامعة الأردنية، عمان، 2006.

3 - بيات، فاضل، (إعداد وترجمة)، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (977هـ/ 1570م - 979هـ/ 1572م)، الجزء الثالث، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام/ 36، الجامعة الأردنية، عمان، 2007.

4 - بيات، فاضل (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (النصف الأول من القرن 10هـ/ 16م)، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2010.

5 - بيات، فاضل (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (أواسط القرن 10هـ/ 16م)، المجلد الثاني، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2011.

6 - بيات، فاضل (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (أواخر عهد السلطان سليمان القانوني)، المجلد الثالث، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا)، إسطنبول، 2014.

7 - بيات، فاضل (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (الحرمان الشريفان في عهد السلطان سليم الثاني: 974 - 982هـ/ 1566 - 1574م)، المجلد الرابع، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - اسطنبول (إرسیکا)، اسطنبول 2015.

8- ABU HUSAYNE, Abdul-Rahim , THE VIEW FROM ISTANBUL: OTTOMAN LEBANON AND THE DRUZE EMIRATE, Centre For Lebanese Studies, Oxford, London, 2004.



ب - دفاتر التحرير (الطابو):

- 1 - لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف من دفتر تحرير (T.D.427)، لسنة دراسة وترجمة محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2005.
- 2 - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D. 131) لسنة 932هـ / 1525م - 938هـ / 1531 - 1532م، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان، 2007.
- 3 - لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D.1015) لسنة 945هـ / 1538 - 1539م، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2008.
- 4 - فتر تحرير لواء القدس الشريف (T.D.289 Is.) لسنة 961هـ / 1533 - 1534م، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته للعربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2010.
- 5 - لواء القدس من دفتر مفصل (T.D. 516 Is.)، لسنة (970 هـ / 1562م) دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، عمان، 2011.
- 6 - لواء القدس الشريف دفتر مفصل (T.D.515 An.) ، لسنة (1005هـ / 1596 - 1597م) دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية مع الشروحات الإيضاحية: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، عمان 2012.
- 7 - دفتر مفصل ناحية بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طراباي سنة 945هـ / 1538م، دراسة وترجمة وتحقيق محمد عدنان البخيت، ونوفان رجا الحمود، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1989.
- 8 - دفتر مفصل لواء عجلون رقم (T.D.970) اسطنبول، دراسة وتحقيق وترجمة : محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، الجامعة الأردنية، عمان، 1989.



ثانيا - سجلات محكمة القدس الشرعية العثمانية:

1 - سجل رقم 155 (محرم 1068 - ختام ذي القعدة 1068هـ / أكتوبر 1657 - 29 أوت 1658م)، إعداد إبراهيم ربايع، عمادة البحث العلمي بجامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2013.

2 - سجل 172 (1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م)، إعداد شامخ زكريا علاونة وآخرون، عمادة البحث العلمي بجامعة القدس المفتوحة، رام الله فلسطين، 2014.

3 - سجل 173 (1081 - 1083هـ / 1670 - 1672م) إعداد شامخ زكريا علاونة وآخرون، جزآن، عمادة البحث العلمي جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2017.

ثالثا -المخطوطات:

1 - الشيخ علوان، علي بن عطية الحموي، الجوهر المحبوك في طريق السلوك، مخطوطة موجودة في مكتبة جامعة الملك سعود في قسم المخطوطات، الرقم 6295 ف.

2 - المصادر:

-باللغة العربية:

1- ابن آجا، محمد بن محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، صنعه محمد أحمد دهمان، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 1986.

2 - ابن الحمصي، أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران: تحقيق عبد العزيز فياض حروفش، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، 2000.

3 - بن الحنبلي، رضي الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف الحلبي (ت 971هـ)، در الحب في تاريخ أعيان حلب، الجزء الثاني، تحقيق محمود حمد الفاخوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973.

4 - ابن الشحنة، أبو الفضل محمد، الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي دمشق، سوريا، 1984.

5 - ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي، نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق (بدمشق)، تحقيق حبيب زيات / مجلة المشرق، السنة السابعة والثلاثون، الأعداد 1 - 2 - 3، سنة 1939.

6 - ابن إياس، محمد (ت.930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث، مطابع الشعب، القاهرة، 1960.

7 - ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد اللواتي (ت.779هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1958.

- 8 - ابن جمعة، الباشات والقضاة في دمشق، والوزراء الذين حكموا دمشق لابن القاري، جمع وتحقيق ونشر صلاح الدين المنجد، دمشق، 1949.
- 9 - ابن زنبيل الرمال، آخرة الممالك، أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، مصر، 1998.
- 10 - ابن طوق، شهاب الدين أحمد (ت. 908هـ/1509م)، التعليق، تحقيق جعفر المهاجر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، سوريا، 2000.
- 11 - ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي (ت. 953هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
- 12 - ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، 1984.
- 13 - ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي، الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون (سيرة ذاتية للمؤلف)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، 1996.
- 14 - ابن فضلان، أحمد بن العباس بن راشد بابن حماد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ/921م، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1959.
- 15 - ابن كنان، محمد بن عيسى، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسم الثاني، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة السورية، 1992.
- 16 - أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (897 - 982هـ)، رسالة في جواز وقف النقود، حققها وعلّق عليها أبو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، 1997.
- 17 - أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1979.
- 18 - الاشبيلي، محمد اللخمي، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس ارنست، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1962.
- 19 - الأقحصاري، حسن كافي (ت. 1025هـ)، أصول الحكم في نظام العالم، تحقيق نوفان رجا الحمود، الجامعة الأردنية، عمان 1986.

- 20 - - الأنصاري، شرف الدين موسى، نزهة الخاطر وبهجة الناظر (946 - 1002هـ)، جزآن، تحقيق عدنان محمد ابراهيم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1991.
- 21 - البوريني، الحسن بن محمد، (ت. 1024هـ/ 1615م)، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، جزآن، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1959، 1963.
- 22 - الحصكفي، محمد بن علي بن محمد الحنفي (ت 1088هـ / 1677م، الدر المختار، تحقيق عبد المنعم خليل ابراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002.
- 23 - الخانقاه، محمد مكّي بن عبد الباقي، حوادث حمص اليومية ( 1100 - 1136هـ / 1688 - 1723م)، تحقيق منذر الحايك، الطبعة الأولى، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق 2012.
- 24 - السخاوي، محمد بن عبد الرحمان، التبر المسبوك في ذيل الملوك، تحقيق نجوى مصطفى كامل و لبيبة ابراهيم مصطفى، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2005.
- 25 - الغزي، نجم الدين، (ت. 1061هـ)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، حققه وضبط نصه: جبرائيل سليمان جبور، ثلاثة أجزاء، الناشر محمد أمين دمج وشركاه، مطبعة الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 1945.
- 26 - الغزي، نجم الدين، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر الهجري، جزآن، تحقيق محمود الشيخ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، بدون تاريخ.
- 27 - القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزآن الرابع والثالث عشر، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.
- 28 - - المحبي، محمد ابن محب الدين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، القاهرة 1284هـ/ 1869م.
- 29 - المرادي، محمد خليل بن علي بن محمد (ت. 1206هـ)، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد، الطبعة الثانية، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1988.
- 30 - المرادي، محمد خليل بن علي بن محمد (ت. 1206هـ)، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، الجزء الأول، المطبعة الميرية العامرة، بولاق، القاهرة، 1301 هـ.
- 31 - النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل (ت 1143هـ)، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986.
- 32 - النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل (ت 1143هـ)، علم الملاحة في علم الفلاحة، قرأه وعلق عليه: يحيى مراد (بدون تاريخ ولا مكان نشر).

- 33 - النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد، غزوات الجراكسة والأتراك في جزيرة العرب، المسمى: البرق اليماني في الفتح العثماني، الطبعة الأولى، منشورات دار اليمامة، الرياض، 1967.
- 34 - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثامن، الطبعة الأولى، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931.
- 35 - بالبي، كاسبارو، رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي إلى حلب - دير الزور - عنه - الفلوجة - بغداد سنة 1579، عربها عن الإيطالية الأب د. بطرس حداد، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، بيروت، 2008.
- 36 - بون، أتيانو (سفير جمهورية البندقية في اسطنبول 1604 - 1608م)، سراي السلطان، دراسة وتحقيق وترجمة زيد عيوض الرواضية، الطبعة الأولى، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2014.
- 37 - جلبي، أوليا، سياحتنامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003.
- 38 - راسل، ألكسندر وباتريك، تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، ترجمة خالد الجبيلي، (طبع لأول مرة في لندن سنة 1795)، الطبعة الأولى، دمشق، 1997.
- 39 - راوولف، ليونهارت، رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف إلى طرابلس - دمشق - حلب - الرقة - دير الزور - بغداد - عانة - الفلوجة - هيت - كركوك - أربيل، ترجمة سليم أحمد خالد، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008.
- 40 - علوان (الشيخ)، علي بن عطية الهيتي الحموي، (ت. سنة 936هـ)، نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء الأخيار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 2001.
- 41 - فون أبنهايم، ماكس فرايهير، البدو، الجزء الأول، ما بين النهرين "العراق الشمالي وسورية، ترجمة محمود كبيو، تحقيق وتقديم ماجد شبر الطبعة الثانية، دار الوراق للنشر، لندن، 2007.
- 42 - فون أوبنهايم، ماكس فرايهير، وآخرون، البدو، الجزء الثاني: فلسطين - سيناء - الأردن - الحجاز، ترجمة محمود كبيو، تحقيق وتقديم ماجد شبر، الطبعة الثانية، شركة دار الوراق للنشر، لندن، 2007.
- 43 - كاتب جلبي، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الأول، تصحيح وتعليق: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

44 - لطفي باشا (وزير السلطان سليمان القانوني)، قانون بني عثمان المعروف بـ (أصف نامه)، نشره الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1911.

-باللغة الأجنبية:

- 1- **Arvieux Laurent d'** (1635-1702). Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du roy à la porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres échelles du levant. Tome sixième, Paris, (Sans date d'édition)
- 2- **Belon de Man, Pierre**, les observations de plusieurs singularités et choses mémorables, trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays étranges, Paris 1555.
- 3- **Hammer- Purgstall, Joseph Von**, histoire de l'empire Ottoman depuis son origine jusque' à nos jours, Tome 4, Traduit De L'Allemand Par J.J. Hellert, Paris, Sans date d'édition.
- 4- **Jean Baptiste Tavernier**; les six voyages de jean Baptiste Tavernier ECUYER BARON D'AUBONNE Qu'il a Fait EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDES ; 1ere partie, Paris.
- 5- **PORTER. (Sir James)**, Turkey, It's History and Progress: From The Journals and Correspondances, Sir James Porter, Fifteen Years Ambassador at Constantinople, Vol 1, Hurst and Blackett Publishers, London, 1854.
- 6- **Volney (C-F)**, Voyage En Egypte Et En Syrie Pendant Les Années 1783,1784 et 1785, T2, 5eme Ed, Bossage Frères Libraires, Paris, 1822.

ثالثا: المراجع:

-باللغة العربية:

- 1 - إبراهيم، سحر محمد، مصلحة الضربخانة المصرية بالقاهرة، دراسة أرشيفية ديبلوماسية تاريخية من 1844 إلى 1963، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2016.
- 2 - إحسان أوغلي، أكمل الدين، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، المجلد الثاني، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 1999.
- 3 - حسان أوغلي، أكمل الدين، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، المجلد الأول، ترجمة صالح سعداوي، الطبعة الثانية، دار الشروق الدولية، القاهرة، 2010.

- 4 - أحمد، علي، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام: من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، الطبعة الأولى، دار طلاس للطباعة والنشر، دمشق 1989.
- 5 - آق كوندوز، أحمد، و أوزتورك سعيد، الدولة العثمانية المجهولة: 303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، 2008.
- 6 - الأرناؤوط، محمد محمود، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000.
- 7 - الأرناؤوط، محمد محمود، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، الطبعة الأولى دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، 1993.
- 8 - لأرناؤوط، محمد محمود، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، الطبعة الأولى، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2012.
- 9 - -البخيت، محمد عدنان، ناحية بني كنانة (شمالى الأردن) في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1989.
- 10 - الجبوري، أحمد حسين عبد، القدس في العهد العثماني (1640 - 1799م) دراسة سياسية - عسكرية -إدارية - اقتصادية - اجتماعية - ثقافية، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2011.
- 11 - الجبوري، أحمد حسين عبد، القدس في العهد العثماني (1516 - 1640)، دراسة سياسية - عسكرية - إدارية - اقتصادية - اجتماعية - ثقافية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011.
- 12 - الجبوري، عبد الله، مكتبة الأوقاف العامة، تاريخها ونوادير مخطوطاتها، منشورات مجلة الرسالة الإسلامية، رئاسة ديوان الأوقاف، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، بغداد، 1969.
- 13 - الجميل، سيار، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، الطبعة الأولى، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1997.
- 14 - -الحصني، محمد أديب، منتخبات التواريخ، الجزء الثالث، منشورات دار الآفاق، بيروت، 1979.
- 15 - الحمصي، صبحي نهدي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.
- 16 - الحمود، نوفان رجا، عمان وجوارها خلال الفترة 1281هـ / 1864م - 1340هـ / 1921م، منشورات بنك الأعمال، الطبعة الأولى، عمان، 1996.

- 17 - الدوري، عبد العزيز، أوراق في التاريخ والحضارة، الجزء الثاني، أوراق في التاريخ الاقتصادي، الطبعة الأولى، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2007.
- 18 - الساعاتي، يحيى محمود، الوقف وبنية المكتبة العربية: استبطان للموروث الثقافي، الطبعة الثانية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، السعودية، 1996.
- 19 - السيد، محمد سيد، مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر الميلادي: دراسة وثائقية في النظم الإدارية والعسكرية والمالية والقضائية، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997.
- 20 - الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970.
- 21 - الصباغ، ليلي، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، العاشر والحادي عشر الهجريين، الجزآن: الأول والثاني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989.
- 22 - الصباغ، ليلي، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1973.
- 23 - العزاوي، قيس جواد، الدولة العثمانية، قراءة جديدة في عوامل الانحطاط، الطبعة الثانية، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2003.
- 24 - العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الأول، الطبعة الأولى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1983.
- 25 - العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الثالث، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1989.
- 26 - العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1985.
- 27 - العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: 906 - 922هـ / 1500 - 1516م، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الطبعة الأولى، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، 1982.
- 28 - العلبي، أكرم حسن، يهود الشام في العصر العثماني من خلال سجلات المحاكم الشرعية في مركز الوثائق التاريخية بدمشق: 991 - 1336هـ / 1583 - 1909م، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011.
- 29 - القضاة، أحمد حامد ابراهيم، نصارى القدس في ضوء الوثائق العثمانية، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.



- 30 - المبيضين، مهند أحمد سالم، أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في مدينة دمشق خلال الفترة (1121 - 1172هـ/ 1708 - 1758م)، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2005.
- 31 - أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر 648 - 923هـ/ 1250 - 1517م، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2014.
- 32 - أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي (1514 - 1914م)، مكتبة الأنجلو - المصرية، القاهرة، 1993.
- 33 - أورتالي، إيلبير، إعادة استكشاف العثمانيين، ترجمة بسام شيحا، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2012م.
- 34 - أورهونلو، جنكيز، اسكان العشائر في عهد الامبراطورية العثمانية، ترجمة فاروق زكي مصطفى، الطبعة الأولى، دار الطليعة الجديدة، دمشق، 2005.
- 35 - أوزتورك، مصطفى الملامح العامة لتاريخ السكة العثمانية، في: سيد محمد السيد محمود (مترجم)، النقود العثمانية، تاريخها - تطورها - مشكلاتها، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003.
- 36 - أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا، اسطنبول، 1990.
- 37 - أييش، أحمد (ترجمة وتعليق)، رحلات في بر الشام في القرن السابع عشر الميلادي: نصوص منتقاة لمجموعة من الرحالين الأوربيين، الطبعة الأولى، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي 2012.
- 38 - اينالجيكي، خليل، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المجلد الأول 1300 - 1600 م، ترجمة عبد اللطيف الحارث، الطبعة الأولى، دار المدار الاسلامي، لبنان، 2007.
- 39 - اينالجيكي، خليل، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2002.
- 40 - اينالجيكي، خليل، بالتعاون مع دونالد كواترت، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المجلد الثاني 1600 - 1914 م، ترجمة قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، دار المدار الاسلامي، لبنان 2007.
- 41 - باموك، شوكت، التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب عبد اللطيف الحارث، الطبعة الأولى، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2005.
- 42 - بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) 1517 - 1924، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000.



- 43 - بروفنسال، ليفي (دراسة وتحقيق)، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955.
- 44 - بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومدير البعلبكي، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، لبنان، 1968.
- 45 - بيات، فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي: دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا (مطلع العهد العثماني - أواسط القرن التاسع عشر)، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
- 46 - بيات، فاضل، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003.
- 47 - جارشيلي، اسماعيل حقي، أشراف مكة وأمرؤها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003.
- 48 - جانبولات، أورهان صادق، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2012.
- 49 - جب، هاميلتون و بوون، هارولد، المجتمع الإسلامي و الغرب: دراسة حول تأثير الحضارة الغربية في الثقافة الإسلامية بالشرق الأدنى في القرن الثامن عشر الميلادي، ترجمة ودراسة: أحمد أيّش الجزء الأول، الطبعة الأولى، هيئة أبو ظبي للكتب الوطنية، أبو ظبي، 2012.
- 50 - جيدة، أحمد خالد، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 2001.
- 51 - حبلس، فاروق، أبحاث في تاريخ ولاية طرابلس إبان الحكم العثماني من خلال الوثائق الرسمية العثمانية، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت 2007.
- 52 - حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان و فلسطين، الجزء الثاني، ترجمة كمال اليازجي، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، 1959.
- 53 - حريثاني، محمود، تاريخ اليهود في حلب، الطبعة الأولى، شعاع للنشر والعلوم، حلب، 2008.
- 54 - حسين، محمد كامل، طائفة الدروز: تاريخها وعقائدها، دار المعارف، مصر، 1963.
- 55 - حنا، نللي، تجار القاهرة في العصر العثماني، سيرة أبو طاقة شاهبندر التجار، ترجمة وتقديم: رؤوف عباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بدون تاريخ.
- 56 - حنا، نللي، مصر العثمانية والتحويلات العالمية 1500 - 1800، ترجمة مجدي جرجس، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016.
- 57 - خليفة، عصام، أبحاث في تاريخ شمال لبنان، الجامعة اللبنانية، بيروت، 1995.

- 58 - خليفة، عصام، لبنان في أرشيف اسطنبول، الجامعة اللبنانية، بيروت، 1996.
- 59 - درادكه، حلمي خليفة علي، يهود القدس في النصف الأول من القرن التاسع عشر (دراسة اجتماعية - اقتصادية)، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014.
- 60 - رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون: 1516 - 1916م، الطبعة الأولى، مكتبة أطلس، دمشق، 1974.
- 61 - رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر: من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (1516 - 1798)، الطبعة الأولى، دمشق، 1967.
- 62 - روجان، يوجين، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، ترجمة محمد ابراهيم الجندي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2011.
- 63 - ريمون، أندري، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- 64 - زيادة، خالد، سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية" المنهج والمصطلح، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2017.
- 65 - ساحللي أوغلي، خليل، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني: بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2000.
- 66 - سوفاجيه، جان، دمشق الشام: لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب، تعريب فؤاد أفرام البستاني، تحقيق أكرم حسن العلبي، الطبعة الأولى، الحمراء، دمشق، 1989.
- 67 - شرف، جان، جبل لبنان في القرن السادس عشر: الديموغرافيا والاقتصاد من خلال الدفاتر العثمانية، منشورات جامعة الروح القدس، لبنان، 2008.
- 68 - شقيرات، أحمد صدقي، مقاييس الطول والمساحة العثمانية وما يعادلها بالمقياس المتري، الطبعة الأولى، دار الكندي، إربد، الأردن، 2007.
- 69 - شوجر، بيتر، أوربا العثمانية (1354 - 1804)، ترجمة عاصم الدسوقي، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1998.
- 70 - شوكت، محمود، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية: 1362 - 1826م، ترجمة يوسف نعيصة ومحمود علي عامر، الطبعة الأولى، دار الإعصار العلمي، دمشق، 2017.
- 71 - الصفصافي، أحمد المرسى، اسطنبول عقب التاريخ؛ روعة الحضارة، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1999.
- 72 - عفيفي، محمد، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991.

- 73 - علي ميلاد، سلوى، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983.
- 74 - عودة، محمد عبد الله و الخطيب، إبراهيم ياسين، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989.
- 75 - عيسى، أحمد، تاريخ البيماريستانات في الاسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة، 2012.
- 76 - غرايبة، عبد الكريم، مقدمة تاريخ العرب الحديث 1500 -1918، الجزء الأول، مطبعة جامعة دمشق، 1960.
- 77 - فاروقي، ثريا، حجاج وسلاطين: الحج أيام العثمانيين، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، منشورات الجمل المركز الدولي للخدمات الثقافية، الطبعة الأولى، بيروت، 2010.
- 78 - فليت، كات، التجارة بين أوروبا والبلدان الاسلامية في ظل الدولة العثمانية، تعريب أيمن الأرمينازي، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، السعودية، 2004.
- 79 - فهمي محمد، عبد الرحمان، النقود العربية ماضيها وحاضرها، دار القلم، القاهرة، 1964.
- 80 - كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء الرابع والجزء الخامس، الطبعة الثالثة، مكتبة النوري، دمشق، 1983.
- 81 - كواترت، دونالد، الدولة العثمانية (1700 -1922م)، تعريب أيمن الأرمينازي، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004.
- 82 - كوبريلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.
- 83 - كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1988.
- 84 - كيدو أكرم، مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، منشورات غروس بريس، طرابلس، لبنان، 1992.
- 85 - لابدوس، إيرا، مدن اسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.
- 86 - مسعد، بولس، الدولة العثمانية في لبنان وسورية في عهد السلطان مراد الثالث 1574 -1589م، طبع سنة 1916.

- 87 - معوض، منصور محمد عبد الرزاق، الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي حتى نهاية العصر العثماني :دراسة آثارية مقارنة منشورات المكتب العربي للمعارف، الطبعة الأولى، القاهرة، 2014.
- 88 - موسنسون، ميري شيفير، العلم عند العثمانيين: الإبداع الثقافي والتبادل المعرفي، ترجمة محمد شعبان صوان، الطبعة الأولى، دار الروافد الثقافية، بيروت بلبنان، 2019.
- 89 - مونتران، روبر، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1992.
- 90 - نعيصة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق ما بين 1772 - 1840، الجزء الثاني، دار طلاس، دمشق، 1986.
- 91 - نعيصة، يوسف، يهود دمشق، الطبعة الأولى، دار المعرفة، دمشق، 1988.
- 92 - هانس، والتر، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية د. كامل العسلي، الطبعة الثانية، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1982.

#### -باللغة الأجنبية-

- 1- IMBER Colin, the Ottoman Empire (1300-1650) the structure of power, 1st published, Palgrave McMillan, New York, 2002.
- 2- Inalcik, Halil, the Ottoman Empire, the classical age 1300-1600 2nd published, London, 2000.
- 3- Inalcik, Halil, the Ottoman Empire: conquest, organization and economy, collected studies, variorum reprints, London, 1987.
- 4- Stanford Shaw, history of the Ottoman Empire and modern turkey, vol 1: empire of the gazis: the rise of the Ottoman Empire (1280-1808), Cambridge university press, 1st published, 1976.

#### الرسائل الجامعية:

- 1 - الرحال، أماني خليل، طريق الحج وعمائره الخدمية في سورية في الفترة العثمانية (دراسة تاريخية مقارنة) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، 2015.
- 2 - بدرشيني، أحمد هاشم، أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي (1250 - 1517م) دراسة تاريخية -حضارية -وثائقية، رسالة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الاسلامي مقدمة لجامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2001.
- 3 - رمضان، أسماء، ريف منطقة دمشق في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2003.

- 4 - زعرور، ابراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، 1990.
- 5 - عابدين، معاذ محمد عبد القادر، التاريخ الاقتصادي للدولة العثمانية (974- 1566/1342 - 1924م)، رسالة دكتوراه غير منشورة في الاقتصاد والمصارف الاسلامية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2017.
- 6 - إحشيش، باسم، ناحية خليل الرحمان في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، فلسطين، 2000.
- 7 - البطوش، يوسف محمد سالم، تاريخ الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 2004.
- 8 - الخطيب، محمد عثمان سعيد، الأوقاف الاسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لقسم التاريخ جامعة اليرموك، الأردن، سنة 2007.
- 9 - الزربا، فريال بدوي يوسف، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير مقدمة قسم التاريخ بالجامعة الأردنية سنة 1980.
- 10 - اليعقوب، محمد سليم، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ بالجامعة الأردنية، سنة 1986.
- 11 - صعيدي، ندى زاهد، العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري على ضوء كتاب الغزي "الكواكب السائرة" رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، لبنان، 1974.
- 12- Bakhit, Muhammad Adnan, The Ottoman Province of Damascus in the sixteenth century, Thesis submitted for the degree of doctor, University of London, 1972.

## 2 - المقالات:

### -باللغة العربية

- 1 - أوزتورك، مصطفى: " دفتر عوارض خانة شام عام 1086هـ/ 1675- 1676م " مجلة أسطور للدراسات التاريخية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، العدد الثالث، سنة 2016، (صص 191- 219).
- 2 - الأرناؤوط، محمد: " الوثائق الوقفية كمصدر من مصادر التعرف على الحياة الزراعية في ضواحي دمشق في العهد العثماني " مجلة دراسات تاريخية، عدد 43- 44، جامعة دمشق، سبتمبر 1992، (صص 163- 179).

- 3 - البخيت، محمد عدنان: "العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتر طابو 474" سنة 977هـ / 1569م "صفحات من تاريخ دمشق، دراسات مهداة إلى يوسف أيبش، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، لندن، 2006، (ص ص 01 - 64)
- 4 - البخيت، محمد عدنان: "من تاريخ حيفا العثمانية دراسة في أحوال عمران الساحل الشمالي" مجلة مجمع اللغة العربي الأردني، العدد الثاني، المجلد الأول، جويلية 1982، مطبعة التوفيق، عمان الأردن. (ص ص 112 - 136).
- 5 - - البخيت، محمد عدنان: "الأسرة الحارثية في مرج بني عامر 885 هـ/ 1480 م - 1088 هـ/ 1677م" مجلة آداب الرافدين العدد 15، كلية الآداب جامعة الموصل، 1 جانفي 1982، (ص ص: 129 - 173).
- 6 - الثقافي، يوسف علي رابع "معاهدة الامتيازات العثمانية - الفرنسية لعام 941هـ - 1535م" مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى، مج 6، عدد 6 1982، (ص ص 143 - 177).
- 7 - الرباط، ناصر: "مقدمة لدراسة تطور السوق في مدينة دمشق من القرن السابع الى القرن التاسع عشر" مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مج 37 - 38، السنة 1988 - 1989، (ص ص 75 - 104).
- 8 - الريحاني، عبد القادر: "خانات مدينة دمشق"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 25، سنة 1975، (ص ص 46 - 63).
- 9 - الريحاني، عبد القادر: "رحلة الخياري إلى سورية في القرن 11هـ : صفحات من مخطوط لم ينشر"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 15، الجزء 2، سنة 1965، (ص ص 5 - 34).
- 10 - السواري، نوفان رجا: "الحياة الاقتصادية لناحية غزة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي" من المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 3، العدد 3، سنة 2009، (ص ص 33 - 74).
- 11 - الطراونة، مبارك محمد: "الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784 - 922هـ/ 1382 - 1516م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 4، العدد 3، 2010، (ص ص 46 - 61).
- 12 - العلواني، طه جابر: "التمذهب الفقهي في العهد العثماني: دراسة وتحليل"، من أعمال المؤتمر العام الثالث للدراسات العثمانية حول: الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، الجزء الأول والثاني، جمع وتقديم الأستاذ عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1990، (ص ص 379 - 390).

- 13 - الكندري ، فيصل عبد الله : "الفرمانات السلطانية: دراسة في نظم الفرمانات الهمايونية ورسومها" حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، صادرة عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة 151، الحولية 21، سنة 2000، ص ص 01- 90.
- 14 - الكواكبي، نزيه: "الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني" مجلة التراث العربي، العددان 55 - 56، صادرة عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1994م، ص ص (177 - 195).
- 15 - اينالجيك، خليل: "الدولة والرعايا" ترجمة عبد اللطيف الحارث، مجلة الاجتهاد، العددان 41 و42، السنة العاشرة، 1999، (ص ص 88 - 126).
- 16 - برغوث، عبد الودود محمد يوسف: "تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري مستمدا من سجل المحكمة الشرعية لعام 989هـ/1581م"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 16، الجزء الأول، سنة 1966، (ص ص 57 - 84).
- 17 - برغوث، عبد الودود محمد يوسف: "طوائف الحرف و الصناعات أو طوائف الأصناف في حماة في القرن السادس عشر" مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 19، الجزآن 1 - 2، السنة 1969، (ص ص 85 - 102).
- 18 - برغوث، عبد الودود محمد يوسف: "صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر" في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 18، الجزآن 1 و2، سنة 1968، (ص ص 67 - 82).
- 19 - برغوث، عبد الودود محمد يوسف: "بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر ونماذج من قراه" مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 20، الجزآن 1 و2، سنة 1970، (ص ص 29 - 54).
- 20 - بركات، البشير: "مقاهي القدس في العهد العثماني" مجلة حوليات القدس، العدد 13، صيف 2012، (ص ص 53 - 57).
- 21 - بهنسي، عفيف: "القاشاني الدمشقي: مقدمة في صناعة الخزف في دمشق"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 38 - 39، السنة 1988 - 1989، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، (ص ص 9 - 65).
- 22 - بيات، فاضل: "التعليم في العراق في العهد العثماني (دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية)" القسم الأول، مجلة المورد، المجلد 22، العدد الأول، سنة 1994، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، (ص ص 29 - 37).
- 23 - خير بك، بشرى: "معاصر زيت الزيتون في العهد العثماني في دمشق و ريفها"، مجلة مهد الحضارات، عددان 17 - 18، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، السنة 2014، (ص - ص 167 - 176).



- 24 - دافيد، جان كلود: " إقامة تجار الجملة الأجانب في خانات حلب " تعريب غادة الحسين، الحوليات الأثرية العربية السورية، عدد خاص بالندوة الدولية: حلب وطريق الحرير، 26 - 29 سبتمبر 1994، المجلد 43، وزارة الثقافة السورية، 1999، (ص ص 349 - 354)
- 25 - ديغوليهيم، راندي: " القهوة في دمشق ورسالة الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي " ترجمة حافظ، محمد وليد، مجلة التراث العربي المجلد 17، العدد 67، اتحاد المؤرخين العرب، دمشق، ماي 1997، (ص ص 38 - 50).
- 26 - رافق، عبد الكريم: "العلاقات الزراعية في بلاد الشام في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، عدد 43 - 44، جامعة دمشق، سبتمبر 1992، (ص ص 120 - 139).
- 27 - رافق، عبد الكريم: "مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية، العددان 15 - 16، جامعة دمشق، سوريا، جانفي - ماي 1984، (ص ص 5 - 29).
- 28 - رافق، عبد الكريم: "مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة: دراسات تاريخية، العدد الأول، جامعة دمشق، مارس 1980، (ص ص 65 - 95).
- 29 - رافق، عبد الكريم: " الفئات الاجتماعية وملكية الأراضي في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس عشر"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 35 - 36، مارس 1990، (ص ص 111 - 144).
- 30 - رافق، عبد الكريم: " قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد السادس، أكتوبر، 1981، (ص ص 5 - 28).
- 31 - رافق، عبد الكريم: "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني" مجلة دراسات تاريخية: العدد: 4، السنة: جمادى الثانية 1401هـ/أفريل 1981، سورية، (ص ص 30 - 62).
- 32 - ربيعة، ابراهيم: " طائفة اليهود في مدينة القدس من بدايات الحكم العثماني إلى قبيل قيام الحركة الصهيونية"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 2، العدد 3، سنة 2008، ص ص 100 - 127.
- 33 - سرور، موسى: " دور الأوقاف الإسلامية في التنمية العمرانية في القدس" حوليات القدس، العدد 14، مؤسسة الدراسات المقدسية، خريف - شتاء 2012، (ص ص 64 - 70).
- 34 - شاكر علي، علي: " التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة المؤرخ العربي، اصدارات الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد: 27، السنة الثانية عشرة، بغداد 1986، (ص ص 82 - 87).
- 35 - عربيات، غالب: "الرقيق والجواري في القدس العثمانية: قراءة في نماذج وثائق سجلات محكمة القدس الشرعية (دراسة وثائقية)" مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد 23، العدد 4، جامعة آل البيت، الأردن، سنة 2017، (ص ص 275 - 333).



- 36 - عودة الشرعة: "الزعر في دمشق أواخر العصر المملوكي، مجلة المنارة، المجلد 20، العدد 4، 2014، (ص ص 1 - 12).
- 37 - غنايم، زهير عبد اللطيف: "العوارض الديوانية والتكاليف العرفية في فلسطين في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 7، العددان 2 و3، سنة 2013، (ص ص 55 - 83).
- 38 - غنايم، زهير عبد اللطيف: "مهام أمراء الأولوية الادارية والأمنية والاقتصادية في فلسطين 921 - 1110هـ/ 1516 - 1700م" المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 9، العدد 2، سنة 2015، (ص ص 45 - 80).
- 39 - غنايم، زهير عبد اللطيف: "الأوقاف في لواء نابلس في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 6، العدد 4، سنة 2012، (ص ص 97 - 124).
- 40 - غوانمه، يوسف درويش: "الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام في العصر المملوكي" مجلة دراسات تاريخية، العددان 13 - 14، أكتوبر 1983، جامعة دمشق، (ص ص 74 - 87).
- 41 - فاروقي، ثريا: "العلم والعلماء والدولة: دراسة في الأصول الاجتماعية للعلماء في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة الاجتهاد، العدد 4، دار الاجتهاد، بيروت، 1989، (ص ص 183 - 200).
- 42 - فاعور الشرعة، إبراهيم "سليمان باشا العظم والي دمشق" دراسة تاريخية وثائقية، مجلة الدارة، العدد الأول، محرم 1429هـ، السنة الرابعة والثلاثون، السعودية، (ص ص 187 - 223).
- 43 - كازيجي، ضياء: "خدمات الدولة العثمانية للحرمين الشريفين" من: الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصدر وثائقها في العهد العثماني"، الجزء الأول، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، تونس، 1986.
- 44 - ماندفيل، جون: "المردود الخيري للربا"، مجلة الاجتهاد، العدد الثالث والأربعون، السنة الحادية عشرة، صيف 1999، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، (ص ص 173 - 206).

باللغة الأجنبية:

- 1- Bakhit, Muhammad Adnan, « safad et sa région d'après des documents de wakf et de propriété 780/964H.(1378/1556) », re.m.m.m, 55-56,1990, (pp 101-123).

- 2- Barkan, Omer Lutfi , « research on ottoman fiscal serveys » in studies in economic history of the middle east , editor : M.A cook, published : oxford university press ,london,1970, ( pp 163-171).
- 3- Barkan, Omer lutfi, « Essai sur les données statistiques des registres de recensements dans l'empire ottoman aux XVe et XVIe siècles » in journal of the economic and social history of the orient 1 :1, august1957, (pp 9-36).
- 4- Brigitte Marino, «Le Quartier des Chrétiens » (Mahallat al-Nasara) de Damas au milieu du XVIIIe siècle (1150-70/ 1737-57), REMMM 107-110, septembre 2005, (pp 323-351).
- 5- Martel-thoumian, Bernadette, « l'administration d'Alep sous les mamluks çircassiens (IXe-XVe Siecles) Le cas de Banù Saffah » in, revue du monde musulman et de la méditerranée, N62, 1991, (pp72-80).
- 6- Pascual. J-P; « Meubles et Objets domestiques quotidien des intérieurs Damasquins du XVIIe siècle ».in Revue du monde musulman et de la Méditerranéen. N° 55-56.1990, (pp197-207).
- 7- Raymond, André, « Alep à l'époque ottoman (XVIe-XIXe siècles) » in : Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n° 62,1991. Alep ET la Syrie de Nord,( pp 93-109).
- 8- Wirth ,Eugen, « Alep et les grands courants commerciaux entre l'Europe et l'Asie du XIIe au XVIe siècles » in: revue du monde musulman et de la méditerranée , N55-56,1990, (pp 44-56).

#### المؤتمرات والندوات:

#### باللغة العربية:

- 1 - تدمري، عمر عبد السلام: "الحياة العلمية في طرابلس العثمانية 1516- 1918م" في : بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، بمناسبة الذكرى السبعمئة على قيام الدولة العثمانية، 12- 15 أفريل 1999م، مجمع التاريخ التركي، الجمعية التركية لتاريخ العلوم، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول، 2000م، (ص ص 1- 28).
- 2 - حبلص، فاروق: "المدلولات الاجتماعية للديموغرافيا التاريخية وتموضع الأديان في مدينة طرابلس في العصر العثماني من خلال الوثائق الرسمية العثمانية"، مؤتمر منظم من طرف المركز الثقافي للحوار

- والدراسات طرابلس بعنوان " طرابلس : عيش واحد " من 27 - 28 مارس 2009، ( ص ص 2 - 42).
- 3 - خليفة، عصام: " الديموغرافيا التاريخية لمدينة طرابلس في القرن السادس عشر" المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية 1516 - 1917م، الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، يومي 27 - 28 ماي 1995. (ص ص 227 - 256).
- 4 - رافق، عبد الكريم، الاقتصاد الدمشقي والرأسمالية الأوربية في القرن التاسع عشر، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق بين 26 - 30 سبتمبر 2005، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسىكا)، اسطنبول 2009، (ص ص 27 - 41).
- 5 - شرمند، أحمد غازي: " دور طرابلس الاقتصادي في القرون الثلاثة الأولى من العهد العثماني " المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان العهد العثماني 1516 - 1918م " الجامعة اللبنانية، 27 - 28 ماي 1995. (ص ص 185 - 223).
- 6 - قورشون، زكرياء: " الترميم والحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام والمدينة المنورة في القرن التاسع عشر"، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 26 - 30 سبتمبر 2005، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسىكا)، اسطنبول، 2009، (ص ص 43 - 54).
- 7 - مبيضين، مهند: " غير المسلمين في نصوص الفتاوى الدمشقية إبان القرن الثامن عشر الميلادي"، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 26 - 30 سبتمبر 2005، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسىكا)، اسطنبول، 2009. (ص ص 63 - 82).
- القواميس والمعاجم:**
- 1 - إبراهيم، رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002.
- 2 - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد الأول، المجلد التاسع، دار صادر، بيروت، (دون تاريخ).
- 3 - الأسدي، خير الدين، موسوعة حلب المقارنة، الجزء الثالث، إعداد محمد كمال، الطبعة الأولى، جامعة حلب، سوريا، 1987.
- 4 - القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، 1988.
- 5 - حلاق، حسن وصباغ، عباس: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والتركية والفارسية، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1999.

- 6 - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني - العدد السادس، نقلها إلى العربية إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشناوي، طبعة أفغانستان، محرم 1355 هـ / أبريل 1936.
- 7 - دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 1990.
- 8 - دوزي، رينهارت (المستشرق الهولندي)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2012.
- 9 - سعداوي، صالح، مصطلحات التاريخ العثماني: معجم موسوعي مصور، ثلاث مجلدات، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2016.
- 10 - سورديل، معجم الإسلام التاريخي، ترجمة الدكتور أ. الحكيم وآخرين، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، لبنان، 2009.
- 11 - صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
- 12 - عمارة، محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، 1993.
- 13 - يلماز أوزتونا: موسوعة الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمود سلمان، مجلد 4، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان، 2010.

#### باللغة الأجنبية

- 1- AGOSTON , Gàbor , MASTER, Bruce ,encyclopedia of the ottoman empire ,facts on file, Inc, New york ,U.S.A, 2008.
- 2- SOMEL, Selcuk Aksin, historical dictionary of the Ottoman Empire, the scare crow Press, Inc, Oxford, 2003.
- 3- The encyclopedia of Islam, new edition, volume IV, 3rd impression, Leiden, E.J. Brill

# فهرس المحتويات

## الفهرس

| الصفحة                                        | العنوان                                                       |
|-----------------------------------------------|---------------------------------------------------------------|
|                                               | شكر وعرفان                                                    |
|                                               | المختصرات:                                                    |
| 10-25                                         | مقدّمة                                                        |
| <b>الفصل التمهيدي: نقد النقد وأزمة المنهج</b> |                                                               |
| 27                                            | 1 -أوضاع بلاد الشام قبيل الدخول العثماني:                     |
| 31                                            | 2 -التوسع العثماني في بلاد الشام حيثياته وردود الفعل الشعبية: |
| 32                                            | أ -الوجود العثماني في بلاد الشام:                             |
| 33                                            | 3 - موقف أهل الشام من الدخول العثماني:                        |
| 33                                            | أ -موقف أهالي حلب:                                            |
| 34                                            | ب -موقف أهل دمشق:                                             |
| 37                                            | 4 -الإجراءات العثمانية الأولية في بلاد الشام:                 |
| 41                                            | 5 -التقسيم الإداري العثماني لبلاد الشام:                      |
| 42                                            | أ -ولاية العرب (عرب ولايتي):                                  |
| 44                                            | ب -ولاية حلب:                                                 |
| 44                                            | ج - إيالة طرابلس الشام:                                       |
| 45                                            | د - إيالة الرقة:                                              |
| 45                                            | هـ - إيالة صغد -صيدا -بيروت:                                  |
| <b>الباب الأول</b>                            |                                                               |
| <b>الفصل الأول: المجتمع الشامي</b>            |                                                               |
| 49                                            | أولا - السكان                                                 |
| 49                                            | 1 -مفهوم الإحصاء عند العثمانيين:                              |
| 53                                            | 2 -تطور السكان في بلاد الشام خلال القرنين 16 و17م:            |

|                                                                |                                                                                                       |
|----------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| 54                                                             | أ - ولاية العرب :                                                                                     |
| 55                                                             | ب - ولاية حلب :                                                                                       |
| 56                                                             | ج - طرابلس :                                                                                          |
| 60                                                             | ثانيا - السكان بحسب التقسيم الوظيفي :                                                                 |
| 61                                                             | 1 - فئة العسكر :                                                                                      |
| 62                                                             | 1 - أ - أهل السيف (أهل العرف) :                                                                       |
| 78                                                             | 1 - ب - رجال الهيئة العلمية (أهل الشرع) وتشمل :                                                       |
| 86                                                             | 1 - ج - رجال القلم (القلمية) وتتمثل في :                                                              |
| 90                                                             | 2 - المحكومون (الرعايا) :                                                                             |
| 91                                                             | ثالثا - السكان بحسب طوائفهم الدينية :                                                                 |
| 91                                                             | 1 - المسلمون :                                                                                        |
| 92                                                             | 2 - النصارى :                                                                                         |
| 96                                                             | 3 - اليهود :                                                                                          |
| 98                                                             | رابعا - السكان حسب شكل الاستيطان :                                                                    |
| 98                                                             | 1 - سكان المدن في بلاد الشام (الحضر) :                                                                |
| 106                                                            | 2 - سكان الريف :                                                                                      |
| 110                                                            | 3 - البدو :                                                                                           |
| <b>الفصل الثاني : العلاقات بين مكونات السكان في بلاد الشام</b> |                                                                                                       |
| 119                                                            | أولا - العلاقة بين الحكام والمحكومين :                                                                |
| 128                                                            | ثانيا - العلاقة بين الفلاح والسباهي صاحب الأرض :                                                      |
| 132                                                            | ثالثا - العلاقات بين المسلمين : (الصراع بين القيسية واليمينية / أو بين الرايات الحمر والرايات الصفرة) |
| 134                                                            | رابعا - العلاقة بين الدولة العثمانية وأهل الذمة في بلاد الشام :                                       |
| 138                                                            | خامسا - علاقة السلطة العثمانية مع العشائر البدوية في بلاد الشام :                                     |
| 138                                                            | 1 - اشراك العشائر في السلطة العثمانية :                                                               |

|                                      |                                            |
|--------------------------------------|--------------------------------------------|
| 138                                  | أ - إمارة العشيرة :                        |
| 139                                  | ب - إمارة اللواء وإمارة الحج :             |
| 144                                  | 2 - المساعدات المالية ( الصرة السلطانية) : |
| 144                                  | 3 - سياسة إعادة الإسكان :                  |
| 146                                  | أ - الإسكان في ولاية حلب :                 |
| 146                                  | ب - الإسكان في الرقة :                     |
| 146                                  | ج - الاسكان في لواءي حمص وحماة :           |
| <b>الفصل الثالث : التشييد النظري</b> |                                            |
| 151                                  | أولا -الحياة الأسرية :                     |
| 151                                  | 1 -مكانة المرأة في المجتمع :               |
| 152                                  | 2 -الزواج :                                |
| 155                                  | 3 -الصدّاق والمهر :                        |
| 158                                  | 4 -الطلاق :                                |
| 161                                  | 5 -الوصاية والحضانة :                      |
| 162                                  | 6 -الميراث ( المتروكات) :                  |
| 163                                  | 7 -النشاط الاقتصادي للمرأة :               |
| 166                                  | 8 -الجواري :                               |
| 167                                  | ثانيا -الحياة اليومية :                    |
| 167                                  | 1 - الاحتفالات :                           |
| 177                                  | 2 -المأكل :                                |
| 181                                  | أ -أنواع الخبز :                           |
| 182                                  | ب -أوقات الأكل وطريقة تقديم الطعام :       |
| 184                                  | 3 -الملبس :                                |
| 185                                  | أ -لباس الرجل :                            |
| 188                                  | ب -لباس المرأة :                           |
| 189                                  | 4 -البيت الشامي :                          |



|                                           |                                                                    |
|-------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------|
| 191                                       | أ - أقسام البيت :                                                  |
| 197                                       | 5 - القهوة والمقاهي :                                              |
| 199                                       | أ - الجدل حول القهوة بين الفقهاء :                                 |
| 203                                       | ب - دور المقاهي في التسلية :                                       |
| 203                                       | 6 - الحمامات :                                                     |
| 204                                       | أ - الحمامات في المدن الشامية :                                    |
| 205                                       | ب - وصف الحمام :                                                   |
| 206                                       | ج - تشغيل الحمام :                                                 |
| 206                                       | د - أوقات الحمام :                                                 |
| 207                                       | هـ - الدور الاجتماعي للحمام :                                      |
| 207                                       | و - عادات وتقاليده دخول الحمام :                                   |
| <b>الفصل الرابع : المؤسسات الاجتماعية</b> |                                                                    |
| 211                                       | أولا - التعليم في بلاد الشام خلال القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م : |
| 212                                       | 1 - المؤسسات التعليمية :                                           |
| 212                                       | أ - الكتاتيب :                                                     |
| 214                                       | ب - المساجد والجوامع :                                             |
| 216                                       | ج - المدارس ودورها التعليمي :                                      |
| 218                                       | 2 - دور الوقف في تمويل التعليم :                                   |
| 219                                       | 3 - أوضاع التدريس والمدرسين في الدولة العثمانية :                  |
| 220                                       | 4 - موضوعات التعليم واتجاهاته :                                    |
| 224                                       | 5 - مناهج وطرق التعليم :                                           |
| 226                                       | 6 - مواقيت التدريس :                                               |
| 227                                       | 7 - المكتبات :                                                     |
| 229                                       | ثانيا - المؤسسات الصحية :                                          |
| 229                                       | 1 - المؤسسات الاستشفائية :                                         |
| 230                                       | 2 - مدى اهتمام الدولة العثمانية بالجانب الصحي :                    |

|     |                                                             |
|-----|-------------------------------------------------------------|
| 231 | 3 -تنظيم مهنة الطب :                                        |
| 234 | 4 -التنظيم الحرفي لطائفة الأطباء :                          |
| 235 | 5 -الأمراض والأوبئة والوفيات :                              |
| 236 | 6 -نظام الرعاية الصحية :                                    |
| 238 | ثالثا - الأوقاف :                                           |
| 239 | 1 -تعريف الوقف :                                            |
| 240 | 2 -توسع الأوقاف وانتشارها في بلاد الشام :                   |
| 244 | 3 -دفاتر التحرير وقضايا الأوقاف :                           |
| 245 | 4 -أنواع الوقف :                                            |
| 245 | أ - الأوقاف الذرية                                          |
| 246 | ب - الأوقاف المشتركة :                                      |
| 246 | ج - الأوقاف الخيرية :                                       |
| 250 | 5 -دور الأوقاف في الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية : |
| 251 | أ -في الحياة الثقافية :                                     |
| 257 | 2 -في الحياة الاجتماعية :                                   |
| 257 | أ - الوقف على المنشآت المائية :                             |
| 258 | ب - الأوقاف والتوسع العمراني :                              |
| 259 | ج - الوقف والرعاية الصحية :                                 |
| 261 | 3 -في الحياة الاقتصادية :                                   |
| 261 | أ -الأوقاف والنشاط التجاري :                                |
| 262 | ب -وقف النقود :                                             |
| 266 | 4 -الأثر الاقتصادي للأوقاف على السلوك الاجتماعي :           |
|     | <b>الفصل الخامس : دمشق وقافلة الحج</b>                      |
| 268 | أولا -دمشق محطة الحجاج :                                    |
| 269 | ثانيا -خدمات الدولة العثمانية لقافلة الحج الشامي :          |
| 269 | 1 -تعيين أمير الحج :                                        |

|     |                                                            |
|-----|------------------------------------------------------------|
| 271 | 2 - توفير الدعم اللوجستي للقافلة :                         |
| 271 | 3 - توفير الأمن للقافلة :                                  |
| 273 | 4 - استقبال الحجاج عند عودة قافلة الحج من البقاع المقدسة : |
| 274 | 1 - الجانب الاجتماعي :                                     |
| 274 | 2 - الجانب العمراني :                                      |
| 277 | 3 - الجانب الاقتصادي :                                     |
| 278 | أ - زيادة النشاط الحرفي :                                  |
| 278 | ب - الخدمات المتنوعة :                                     |
| 279 | 4 - الجانب الثقافي :                                       |
|     | <b>الباب الثاني</b>                                        |
|     | <b>الفصل الأول : الزراعة</b>                               |
| 282 | أولا - تنظيم الأراضي :                                     |
| 282 | 1 - ملكية الأرض في التشريع العثماني :                      |
| 285 | 2 - أنواع الأراضي :                                        |
| 302 | ثانيا - النشاط الزراعي :                                   |
| 302 | 1 - أهمية دفاتر التحرير في دراسة النشاط الزراعي :          |
| 304 | 2 - طرق الاستغلال :                                        |
| 307 | 3 - العوامل المؤثرة على النشاط الزراعي :                   |
| 307 | أ : -العوامل المناخية                                      |
| 308 | ب -العوامل السياسية                                        |
| 308 | 4 -المحاصيل الزراعية :                                     |
| 309 | أ -الحبوب :                                                |
| 312 | ب -الحبوب الجافة :                                         |
| 313 | ج -الأشجار المثمرة :                                       |
| 316 | د -الخضر :                                                 |

|     |                                      |
|-----|--------------------------------------|
|     |                                      |
| 317 | هـ -الأعلاف :                        |
| 318 | 5 -الثروة الحيوانية :                |
| 318 | أ -حيوانات الحمل والركوب والحرث :    |
| 319 | ب - حيوانات انتاج الغذاء :           |
|     | <b>الفصل الثاني : الصناعة</b>        |
| 322 | أولا -التنظيم الحرفي وطوائف الحرف :  |
| 322 | 1 -نشأة التنظيمات الحرفية (الأصناف): |
| 323 | 2 -التنظيم الهيكلي للطوائف الحرفية : |
| 324 | أ -شيخ الطائفة :                     |
| 327 | ب - شيخ مشايخ الحرف :                |
| 328 | ج - الطائفة الحرفية أو الصنف :       |
| 330 | 3 -أنواع الطوائف الحرفية :           |
| 333 | 4 -وظائف الأصناف الحرفية :           |
| 333 | أ - في الجانب الاقتصادي :            |
| 337 | ب - في الجانب الاجتماعي :            |
| 338 | ج - في الجانب الإداري :              |
| 340 | ثانيا -النشاط الحرفي والصناعي :      |
| 341 | 1 - صناعة المنسوجات :                |
| 342 | أ -المنسوجات الحريرية :              |
| 344 | ب -المنسوجات القطنية :               |
| 345 | ج -المنسوجات الصوفية :               |
| 345 | 2 - الصناعات الغذائية :              |
| 345 | أ - صناعة الخبز :                    |
| 346 | ب - طحن الحبوب :                     |
| 346 | 3 -المعاصر :                         |

|     |                                                      |
|-----|------------------------------------------------------|
| 346 | 4 -صناعة الصابون:                                    |
| 347 | 5 -صناعة الزجاج:                                     |
| 348 | 6 -صناعة البارود:                                    |
| 349 | 7 -الصناعة الجلدية : منها                            |
| 349 | أ -دباغة الجلود:                                     |
| 350 | ب -صناعة الأحذية:                                    |
| 350 | ج -صناعة السروج:                                     |
| 351 | 8 -القصابون ( الجزارون)                              |
|     | <b>الفصل الثالث : التجارة</b>                        |
| 354 | 1 -أهمية ومكانة التجارة في بلاد الشام العثمانية:     |
| 356 | 2 -عوامل ازدهار التجارة:                             |
| 358 | 3 -أهم طرق التجارة في بلاد الشام:                    |
| 359 | 4 -أنواع التجارة:                                    |
| 359 | أ - التجارة المحلية:                                 |
| 360 | ب -التجارة مع ولايات الدولة العثمانية:               |
| 361 | ج - التجارة مع أوروبا :                              |
| 362 | 4 -المقاربة العثمانية للتعامل التجاري مع الأوروبيين: |
| 365 | 5 -الجمرك:                                           |
| 366 | أ -رسوم الاستيراد:                                   |
| 367 | 6 -أساليب التعامل التجاري:                           |
| 368 | أ - البيع نقدا:                                      |
| 368 | ب - البيع بالتقسيط:                                  |
| 368 | ج - البيع بالدين:                                    |
| 369 | د - البيع بالرهن:                                    |
| 369 | هـ - البيع بالمبادلة:                                |

|     |                                                     |
|-----|-----------------------------------------------------|
| 369 | 7 - نماذج من المراكز التجارية الكبرى في بلاد الشام: |
| 369 | أ - حلب والتجارة العالمية:                          |
| 371 | ب - دمشق المحطة الرسمية لقوافل الحج الشامي:         |
| 373 | 8 - المرافق التجارية:                               |
| 373 | أ - الأسواق:                                        |
| 380 | ب - الخانات:                                        |
| 382 | ج - القيساريات:                                     |
| 382 | د - التكايا:                                        |
| 382 | ثالثا - الأسعار والحسبة:                            |
| 382 | 1 - الأسعار والتسعير:                               |
| 383 | أ - العوامل المؤثرة على الأسعار:                    |
| 385 | ب - أسعار السلع والمواد الأساسية:                   |
| 387 | ج - تطور الأسعار خلال القرن 16م:                    |
| 388 | 2 - الحسبة والمحتسب:                                |
| 388 | أ - مفهوم الحسبة:                                   |
| 388 | ب - مهام المحتسب:                                   |
|     | <b>الفصل الرابع: الضرائب</b>                        |
| 393 | أولا - التحرير عند العثمانيين وأهميته:              |
| 393 | 1 - انجاز دفاتر التحرير:                            |
| 398 | ثانيا - أنواع الضرائب:                              |
| 398 | 1 - الضرائب الشرعية:                                |
| 398 | أ - ضريبة العشر:                                    |
| 399 | ب - ضريبة الخراج:                                   |
| 403 | ج - الجزية:                                         |
| 404 | 2 - رسوم الرعية أو الضرائب التي تؤدي للسباهي        |
| 405 | أ - رسوم على الرعايا المسلمين:                      |

|     |                                                          |
|-----|----------------------------------------------------------|
| 406 | ب -رسوم على الرعايا غير المسلمين ، منها :                |
| 406 | ج - الرسوم والضرائب الأخرى :                             |
| 409 | د -الرسوم على المرافق الاقتصادية :                       |
| 415 | هـ -الجمرك :                                             |
| 416 | 3 - العوارض الديوانية (ضرائب العوارض) :                  |
| 416 | أ -مفهوم العوارض الديوانية :                             |
| 417 | ب -أنواع العوارض الديوانية :                             |
| 422 | ثالثا -أسلوب جباية الضرائب :                             |
| 423 | 1 - أسلوب التيمار :                                      |
| 427 | 2 -أسلوب الالتزام :                                      |
|     | <b>الفصل الخامس : المكايل والأوزان والمقاييس والنقود</b> |
| 431 | أولا -وحدات الكيل :                                      |
| 431 | 1 -الغرارة :                                             |
| 432 | 2 -الكيلة (الكلة)                                        |
| 433 | 3 -المد :                                                |
| 433 | 4 -الأوقية :                                             |
| 433 | ثانيا -الأوزان :                                         |
| 434 | 1 -القنطار :                                             |
| 434 | 2 -المن :                                                |
| 434 | 3 -الرطل :                                               |
| 434 | 4 -الكر :                                                |
| 435 | 5 -الحمل :                                               |
| 435 | ثالثا -وحدات المساحة :                                   |
| 435 | 1 -القيراط :                                             |
| 436 | 2 -الفدان :                                              |
| 436 | 3 -السهم :                                               |

|     |                                   |
|-----|-----------------------------------|
| 436 | رابعاً - النقود المتداولة:        |
| 439 | 1 - أهم العملات:                  |
| 439 | أ - الأقبجة:                      |
| 439 | ب - البارة                        |
| 440 | ج - الدينار:                      |
| 440 | د - الفلوري أو الفلورين (Florin): |
| 440 | هـ - الدوكا:                      |
| 441 | و - الغرش:                        |
| 441 | 2 - سك العملة:                    |
| 444 | خاتمة                             |
| 450 | الملاحق                           |
| 475 | قائمة المصادر والمراجع            |
| 498 | فهرس المحتويات                    |